كتاب ألف باء

في أنواع الآداب وفنون المحاضرات واللغة

تأليف

أبي الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالقي
المعروف بابن الشيخ
المتوفى سنة ٦٠٤ هـ

اعتنى به وضبطه وصححه
خالد عبد الغني محفوظ

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales @al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : KITĀB ALIF BĀ°

الكتاب : كتاب ألف باء

Classification: Literature

التصنيف : أدب

Author :Abu al-Ḥajjāj al-Balawi

المؤلف : أبو الحجاج البلوي

Editor :Ḫālid ʿAbdul-Ğani Maḥfūẓ

المحقق : خالد عبد الغني محفوظ

Publisher :Dar al-kotob Al-Ilmiyah

الناشر : دار الكتب العلميـــة ـ بـيروت

Pages :1248 (2 volumes)

عدد الصفحات: 1248 (جزءان)

Year :2009

سنة الطباعة : 2009

Printed in :Lebanon

بلد الطباعة : لبنان

Edition :1st

الطبعة : الأولى

DKi
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-5246-6
ISBN 2-7451-5246-7

بسم الله الرحمن الرحيم

باب الألف مع الدال وأختها

وأدّ وآد وأد وإد وأذ ودل ودل

أدّ: أما أدّ: تقال لرجال منهم: والد عمرو بن أدّ العامري، له خبر سيأتي إن شاء الله تعالى، وأدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر. قال الشاعر:

أدّ بــن طابخـــة أبـــونا وانـــسبوا ... يـــوم الفخـــار أبـــاً كـــأدّ تنفـــروا

تنفروا: من قولهم نافر فلان فلاناً، فنفر عليه إذا حكم له بالغلبة. ويقال: نسب ينسب في الشعر: إذا شبب به، وينسب من النسب، والفخار: المصدر. والفخار: الاسم، ويحتمل أن تكون الهمزة في أدّ منقلبة عن واو لانضمامها على عادتهم في: أرّخ وورّخ، فيكون أدّ مأخوذاً من الودّ.

وكذلك قال صاحب العين: أدّ لغة في ودّ، بمعنى الحب، وفي التنزيل: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦] قيل: معناه محبة في قلوب المؤمنين. والود والوَد والوُد: المحبة. تقول: بودي أن يكون كذا وكذا. ودّ وداً وودّاً وودادة ووداداً، أي: تمنيت. قال الشاعر:

وددت ودادة لـــــو أن حظـــــي ... مـــن الخـــلان أن لا يـــصرموني

وقال تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩].

والود، والوداد، والمودة، سواء، وفلان ودّك ووديدك: مثل حبك وحبيبك. ويجمع ودّ على أودّ كما قال النابغة:

إنـي كأنـي لـدى الـنعمان خبـره ... بعـض الأودّ حديـثاً كلـه كـذب

ودّ: وودّ: اسم صنم، وفي القرآن العزيز: ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ﴾ [نوح: ٢٣]. قرأ نافع بالضم، والباقون بالفتح.

وود لغة: في الوتد، أسكنت التاء ثم أدغمت في الدال، فقيل: ود. قال ثابت رحمه الله: ود: لغة بني تميم، وأهل نجد يقولون: ود. وقال يعقوب عن أبي عبيدة: يقال: وتد تقديرها قضم، وقوم يقولونها وتد تقديرها جمل، ومن قال ود في الوتد على الإدغام قال في الجمع أوتاد كمثل من قال وتد بغير إدغام. وفي القرآن العزيز:

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠].

ودّ أيضاً: جبل معروف. قاله البكري واستشهد عليه بقول امرئ القيس:

تظهر الود إذا ما أشجذت ... وتواريه إذا ما تشتكر

يصف سحابةً. وقوله إذا ما أشجذت أي: سكن مطرها. وقال الأعلم في شرح القصيدة: الود هنا الوتد، يبدو عند سكون الديمة ويستتر عند احتفال مطرها. ثم قال: وقيل أيضاً الود: اسم جبل.

دو: ومعكوس وذ: دوّ، والدوّ: موضع معلوم وبلد لبني تميم بين البصرة واليمامة. قال الأخطل:

وأنى اهتدت والدوّ بيني وبينها ... وما كان ساري الليل بالدوّ يهتدي

والدو، والدوية، والداوية: المفازة، ومن شكله دوا. تقول: دوى الرجل فهو دو ورجل دوى، وامرأة دوى إذا كان بها داء باطن. والدواء: الشفاء، ويقال فيه أيضاً دواء بالكسر. ويقال الدوى: مقصور الرجل الأحمق، ويقال رجل دوى ودو أيضاً: للفاسد الجوف. والدواة معروفة وجمعها دويات، ودوى ودوي. ويجيء من مقلوب هذه اللفظة ودى يدي من الدية، ومنه قول الشاعر:

يدي كل قتال وطرفك لا يدي ... فلا تخشى في قتلي سوى الله يا ظبي

ودي: وودي الحمار: إذا أنعظ، وإذا قطر أيضاً. والودي: الماء الأبيض الذي يخرج على أثر البول، يعتري من طول العزبة. والودي: الفسيل. واحدته ودية، وهي فراخ النخل، وجمعه ودايا. والودي: الهلاك، وأودى الرجل: هلك، وأودى به الموت: أهلكه، والوادي: معروف، وجمعه أودية.

دواية: ويقال: أدوى الرجل إذا دخل الداوية فهو مدوٍ. وكذلك أدوى القوم: إذا أخذوا الدواية فأكلوها، والدواية: جلدة رقيقة تعلو اللبن الحليب إذا برد. وقال الشاعر:

بدا منك داء طالَما قد كتمته ... كما كتمت داء ابنها أم مدوي

آد: وأما آد فمعناه: مال ورجع، يقال: آد القمر والشمس إذا مالا للغروب وربما قالوا في هذا هاد بالهاء، والأشهر آد. قال الهذلي:

أقمت به نهار الصيف حتى ... رأيت ظلال آخره تؤود

وآد أيضاً: أثقل، من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي لا يثقله. يقال: آدني الأمر يؤودني أوداً أي: أثقلني، وفي هذه لغة أخرى وأدني يئدني وأداً، ومثله: تأدّى الشيء: أثقل. قال الشاعر:

ولا يتأداه احتمال المغارم

أي: لا يثقله، وقال يعقوب: أراد ولا يتأدد فقلب، كما قال:

لاث به الأشاء والعبري

أي لائث وقد تقدّم.

والموؤودة من هذا لأنها تثقل بالتراب إذا دفنت حية. وفي القرآن العظيم: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨] وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى.

وئيد: ومنه الوئيد. قالت الزباء:

ما للجمال مشيها وئيدا

ولها خبر يذكر إن شاء الله تعالى.

ويقال: الوئيد والوأد دوي يسمع صوته، والتؤدة: التأني والرزانة. يقال: اتئد وتوأد، والتاء مبدلة من الواو، والتوادّ من الودق، والتأوّد: التثني، قال:

كالغصن في غلوائه المتأوّد

وأدت العود: عجمته.

أود: وأود مصدر آد. وقد تقدّم. وأود أيضاً: موضع، وأود قبيلة ينسب إليها الأودي؛ من أصحاب الحديث، والأود، بالفتح: الاعوجاج. قال النابغة:

وظل يعجم أعلى القرن منقبضاً في حالك اللون صدق غير ذي أود

ومنه قولهم: يقيم أوده، أي: اعوجاجه. ومن شكل أود أودّ. تقول: فلان أودّ إليك من فلان. وأنشد:

ألا رب من تدري وتحسب أنه يودّك والنائي أودّ وأنصح

إدّ: وأما إدّ من قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ [مريم: ٨٩] فإن معناه: جئتم شيئاً عظيماً، وكذلك فسر قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧١].

والإدّ قولهم: ﴿ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨] سبحانه عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٩٠]. قال قتادة: بلغنا أن كعباً قال: غضبت الملائكة وأسعرت جهنم حين قالوا ما قالوا وهي تلك الكلمة، ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥]. الحمد لله على نعمة الإسلام. ومن الإدّ قول الشاعر:

لما رأيت الأمر أمراً إدّا ولم أجد من الفرار بدّا

مـــــلات لَحمـــــي وعظامـــــي شـــــدّا

يقال: أد وأد وأدد وأداد، بمعنى. أما آد فإنه القوة. قال الراجز:

أبـــــرح آد الـــــصلتان آدا أو ركـــبت أعـــوادهم أعـــوادا

معنى أبرح: جاء بالبرحاء، وهي الشدة من المرض والمشقة. ومعنى ركبت أعوادهم أعوادا: أي السهام على القسي. وقال الآخر في الأدّ المشدّد الذي هو بمعنى الأد:

نـــضوت عنـــي شـــدّة وأدا مـــن بعـــد مـــا كـــنت صـــملاً نهـــدا

والصمل الشديد: يقال رجل صمل وامرأة صملة، والصمل: القطع، والصيلم: الأمر المستأصل

والصلامة: الفرقة من الناس، ومنه قيل للظليم مصلم. قال النابغة:

أصــك مـــصلم الأذنـــين أجنـــى .... البـــيت .

وسيأتي إن شاء الله تعالى.

يقال: رجل ذو أدّ وذو إدّ وذو أيد: أي قوة. قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي: بقوة. عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. وكذلك قال في قوله تعالى: ﴿ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [ص: ٤٥] الأيدي: القوة والعبادة والطاعة. والأبصار: الفقه في الدين.

ويقال الأيدي: النعم التي أنعم الله بها عليهم. وقيل: المعنى أصحاب النعم التي قدموها من الأعمال الصالحة. وهذا اختيار الطبري. قال: وهو تمثيل بالرجل يكون له على الرجل يد على ما تستعمله العرب. كذا قال المهدوي.

إلا أنهم قد فرقوا بين يد النعمة ويد الرجل، فجمعوا التي من النعمة على أيادي ويديّ. والأخرى أيدي. والله أعلم بكتابه. ومن أحسن ما رأيت في أيادي جمع أيد قول أبي تمام يمدح:

لقد زدت أوضاحي امتداداً ولم أكن بهيماً ولا أرضى من الأرض مجهلا
ولكـــن أيـــاد صـــادفتني حـــسامها أغـــرّ فخلتنـــي أغـــرّ محجـــلا

وذكر هذين البيتين البكري في إثر قول أبي نخيلة يمدح مسلمة بن عبد الملك بالشعر الذي أوله:

أمـــسلم إنـــي يـــا ابـــن كـــل خليـــفة

وفيه:

ونبهت من ذكري وما كان خاملا

قلت: يحتمل قول أبي تمام

لقد زدت أوضاحي امتداداً ولم أكن بهيماً ولا أرضى من الأرض مجهلا
أياد صادفني حسامها أغرّ فخلتني أغرّ محجلاً

أنه يعرض بأبي نخيلة لأنه كان أسود. والله أعلم.

يد: ويقال: ما أيدي فلانة، وامرأة يدية أي صناع، ورجل يدي، وثوب يدي، وأدي أيضاً واسع. وأصل يد يدي على فعل ساكنة العين لأن جمعها أيدٍ ويديّ. مثل: فلس وأفلس. قال الشاعر:

فلن أذكر النعمان إلا بصالح فإن له عندي يدياً وأنعما

وقد جمعوا اليد في الشعر على أياد. قال الشاعر:

قطن سخام بأيادي غزل

وهو جمع الجمع مثل أكرع وأكارع، ولا يجمع فعل مفتوح العين على أفعل إلا في حروف يسيرة معدودة مثل: زمن وأزمن، وجبل وأجبل، وعصا وأعص. وجاء في الخبر: الأياد في ثلاثة وسيأتي تفسيرها إن شاء الله تعالى. ويقال: يديت الرجل إذا أصبيت يده، ورجل ميدي: مقطوع اليد. ويقال: ما له يدي من يديه وهو دعاء عليه، كما يقال: تربت يداه. واليد أيضاً من النعمة، ويقال أديت إليه يداً. ولفلان مال بيدي به، أي: يبسط به يديه، ويد الدهر: مداه. وتقول لا أفعله يد الدهر ويد المسند مثله. وتفرقوا أيادي سبا ويد القوس: سيتها، واليد من القوة. ويقال: لا يد لي بكذا ولا يدان أي: لا طاقة. قال الشاعر:

فلو كنت مولى الظلم أوفي ظلاله ظلمت ولكن لا يدا لك بالظلم

ومنعوا أن يقال لا يدان.

قلت: كذا قال. ووقع في كتاب مسلم من قول أفصح الخلق في حديث الدجال ويأجوج ومأجوج، فذكره وفيه: فبينما هم كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى عليه السلام أني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم. فحرز عبادي إلى الطور. وذكر تمام الخبر.

وتقول: أيدت الرجل بمعنى ثبته وقويته، من قوله تعالى: ﴿ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقرئ: (آيدناه) بالمد. ومنه قولهم في الأمير: آيده الله، وفلان أيد، أي: قوي شديد. وقال الشاعر:

إذا القـــوس وتـــرها أيـــد .... البـــيت

وسيأتي بخبره إن شاء الله تعالى.

وأياد كل شيء: ما يقوى به. وأياد العسكر: الميمنة والميسرة. وإياد: اسم رجل مشهور.

وقال صاحب الغريبين: اليد في كلام العرب تنصرف على وجوه. فاليد: النعمة والقدرة والملك والقوة والسلطان والطاعة والجماعة. يقال: هذا الشيء في يدي أي: في ملكي. واليد الأكل. يقال: ضع يدك أي: كل. وتكون للندم. يقال: سقط في يده، ورددت يده في فيه أي: غظته. وخرج فلان نازعاً يده، أي: عاصياً، وهم عليه يد، أي: مجتمعون، وأخذتهم يد البحر أي طريق الساحل. واليد: العطاء، وفلان طويل اليد وطويل الباع. وضده كذلك حتى قالوا جعد الكف والأنامل. واليد: الحفظ والوقاية، ويد الله على الفسطاط، أي: على أهل الفسطاط أي: المصر الجامع. وردوا أيديهم في أفواههم، أي: كذبوا الرسل. واليد: الاستسلام.

وفي الحديث: هذه يدي إليك بالطاعة. قاله في مناجاته عليه الصلاة والسلام. و﴿ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] أي: نقداً. والأصل أن التصرف لما كان باليد أضيف إليه من عمل شيئاً وبخ عليه. وقيل: يداك أوكتا وفوك نفخ.

وفي القرآن العزيز: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٤] أي: ممسكة عن الاتساع، و﴿ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وقالوا في قوله تعالى: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]، وقوله: ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ [يس: ٧١]، و﴿ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤]. قال المهدوي رحمه الله نحواً مما قال صاحب الغريبين من أن اليد تنصرف في الكلام فتكون للجارحة والقوة والنعمة والملك ولإضافة الفعل إلى المخبر عنه، ويجوز وصف الباري سبحانه بجميع هذه الوجوه إلا الجارحة. وقوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤] هما يدا صفة يوصف بها كما وصف نفسه، وذكر اليدين بقوله تعالى: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥] تشريفاً لآدم عليه السلام. وقد تقدّم الكلام عليه، وتصرفه على وجوه. فقيل: يداه نعمتاه، نعمة النفع ونعمة الدفع. وقيل: نعمة الدين ونعمة الدنيا أو نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، أو النعمة الظاهرة والنعمة الباطنة لقوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ

﴿ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠] فالظاهرة ما حسن من خلقك، والباطنة ما ستر من سيئ عملك عليك.

وقال السدي: معنى يداه: قوّتاه بالثواب والعقاب، بخلاف ما قالت اليهود: إن يديه مقبوضتان عن عذابهم. وقيل المعنى: نعمتاه اللتان هما المطر والنبات اللتان النعمة منهما وبهما. وقيل إن التثنية للمبالغة في وصف النعمة كقول العرب: لبيك وسعديك.

وكذلك قالوا في اليمين أقوالاً، فقالوا: القدرة والقوة في قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٩٣] أي: بيمينه. وقيل: بالقوة والقدرة، وقيل: باليمين التي حلف بها حين قال: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٢٨]. قال ابن عرفة: أي تمنعوننا عن الطاعة، أي: تأتوننا من قبل الحق فتلبسونه علينا وتزينون لنا الباطل. يقال: أتاه عن يمينه إذا أتاه من الجهة المحمودة، والعرب تنسب الفعل المحمود والإحسان إلى اليمين، وما ضادّه إلى اليسار. يقولون: فلان عندنا باليمين أي: بمنزلة حسنة. وقوله تعالى: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الحاقة: ٤٥] أي: بالقدرة والقوة، أي أخذنا قدرته وقوته. قال الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد … تلقاها عرابة باليمين

قال ابن عرفة: لأخذنا بيمينه فمنعناه التصرف. قال بعض أهل اللغة: يذهب به إلى القوة. وهذا خلاف ظاهر القرآن. والقول على ظاهره ما احتمل الظاهر. وقال الحكيم: خير الإخوان من تلقاك باليمين، وإذا حدثك لا يمين، وشرهم من كان لسانه موافقاً وقلبه منافقاً.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ [الواقعة: ٨]: أصحاب المنزلة الرفيعة، و﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ [الواقعة: ٩] يعني: أصحاب المنزلة الدنيئة الخسيسة. وقال ابن عرفة: يسلك بهم يميناً إلى الجنة. وتقول: يامن أصحابك. أي: خذ بهم يميناً. وشائم بهم، أي: خذ بهم شمالاً. ويقال أيضاً: خذ يمنةً أو يسرةً.

ومنه في الحديث: إذا استقبلتك المرأتان فلا تمر بينهما خذ يمنة أو يسرة. ويقال: تيامن القوم وتشاءموا إذا أخذوا نحو اليمن والشأم. وقد يقال في هذا: تيمن. قال الشاعر:

تيمن الإنسان يبغي الغنى … من بعد ما بصر أو كوّفا

وسيأتي أيضاً في باب الكاف بكماله إن شاء الله تعالى.

وقيل: إنما يقال تيمن إذا انتسب إلى اليمن قبل اليمن، فإذا أتى اليمن قيل: أيمن ويامن ويمن. وقال الخطابي: يقال أيمن الرجل وأتهم وأنجد وأسهل وساحل وأخيف وأعمن وعال وعان وأغار وأجبل وأشأم وأحزن وبصر وكوّف وألوى: إذا نزل الساحل والخيف وعمان والعالية والعين والغار والجبل والشأم والسهل والحزن واللوى وهذه الأماكن. زاد غيره: وأمنى إذا نزل منى، وأجلس: إذا أراد الجلس، وهو بلد بنجد، والجلس أيضاً: الرجل الضخم، وكذلك الجبل الضخم. ويقال للعسل أيضاً جلس. تقول في اللغز: رأيت جلساً على جلس فوق جلس يأكل جلساً.

يا صاح إن كنت كثير الحس ... فاسمع لِما أبصرته بالأمس
رأيت جلساً فوق ظهر جلس ... يسوق جلساً قد أتى من جلس
فلتخبرني ليكون أنسي ... به وعجله فدتك نفسي

وفي الحديث من ذكر اليمين: يمين الله ملأى. وفي حديث آخر: وكلتا يديه يمين. وهذا يحمل على الخير الذي عند الله واليمن. ألا ترى يقول: وكلتا يديه يمين، أي: ليس له في صفة الله لفظ محطوط، سبحانه وتعالى.

وإنما سميت اليمين يميناً لنسبتها إلى الشمال وهذا لا يوصف به الباري سبحانه. أعني: يميناً وشمالاً كما تقدّم. وكلتا يديه يمين: إنما عبر عن قدرته وأن المقدورات تقع منه على نسبة واحدة ولا تختلف كما تختلف أيماننا في الفعل وشمائلنا. ولذلك قال في الحديث الآخر: وبيده الأخرى القبض والبسط.

فكأنه أعلم تعالى وإن كانت قدرته واحدة أنه يفعل بها المختلفات. ولما كان ذلك فينا لا يمكن إلا بيدين أخبر عن قدرته على التصرف في ذلك بذكر اليدين على ما اعتادوه من الخطاب على سبيل المجاز. قاله المازني.

فصل:

وتقدم تفرقوا أيادي سبا، وفي القرآن العزيز: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ [سبأ: ١٥] وهم الذين مزقوا كل ممزق، وسبأ هذا هو ابن يشجب بن يعرب الذي بنى السد بالرخام وساق إليه سبعين وادياً ولم يستتمه، فأتم بعده، وهو سد مأرب. ومأرب اسم لكل ملك كان يملكهم، كما أن كسرى اسم لكل من ملك الفرس. وسيأتي هذا المعنى.

وقيل: مأرب اسم لقصر كان لهم، وسيل العرم في القرآن مذكور. وقيل: هو وصف للسيل من العرامة. وقيل: هو السيد بلغة حمير. وقيل: هو اسم للفأر الذي خرق

السد. وكان ذلك أمراً من الله لكفرهم. يقال: كان الجرذ يقتلع الصخرة العظيمة من موضعها حتى انخرق السد مع السيل الذي أرسله الله عليهم.

وقع في البخاري أن السيل الذي هدم السد الذي كان في سبأ ماء أحمر أرسله الله عليهم من حيث شاء.

وفي رقائق ابن المبارك بسنده إلى ربيعة بن لقيط: أنه كان مع عمرو بن العاص وهم

راجعون من مسكن قد مطروا فيه دماً. قال ربيعة: قد رأيتني أنصب الإناء فيمتلئ دماً عبيطاً يظن الناس أنها هي، وماج بعضهم في بعض، فقام عمرو بن العاص فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس أصلحوا ما بينكم وبين الله ولا يضركم لو اصطدم هذان الجبلان. ذكره رحمه الله في باب اليقين والتوكل.

ورأيت في آخر كتاب الأستاذ أبي القاسم ـ رحمه الله ـ ومتصلاً به ما هذا نصه: ثم كان في زمن جعفر المتوكل من بني العباس بعد الأربعين ومائتين أحداث عظيمة منها: ما ظهر في الشمس، ومنها ما ظهر في الكواكب، ومنها زلازل وخسوف وظلمة لم ير الناس فيها بعضهم بعضاً، ومنها مطر أحمر كالدم العبيط نزل من جهة المشرق. قال: ولم يسمع بمثل هذا في تاريخ علمته حتى كان بعد الستين والخمسمائة نزل بأكثر بلاد إشبيلية مطر يشبه الدم، ثم كان في ذلك العام سيول كثيرة.

قال الشيخ الفقيه الحاج أبو الحجاج بن الشيخ رضي الله عنه: حدثني من أثق بحديثه أنه حضر بإشبيلية نزول ذلك الماء الأحمر الذي يشبه الدم، وأنه هال الناس أمره، ورآه الذي حدثني وقال: حدثني رجل في ذلك الوقت أنه كانت في وسط داره صحفة فيها بيض، فنزل ذلك الماء في الصحفة واستنقع فيها، فحيث وصل الماء من البيض صبغ بقدرة الله تعالى. حدثني بذلك في سنة إحدى وستين وستمائة.

وذكر الحجاج في سنة أربع وخمسين وأربعمائة أنه عصفت بخراسان ريح كريح عاد تقلعت منها الجبال وفزت الوحوش فظن الناس أنها هي، وابتهلوا بالدعاء العظيم فيما نزل بهم ونظروا فإذا نور عظيم قد نزل من السماء على جبل من تلك الجبال، ثم تأملوا الوحوش فإذا هي منصرفة إلى الجبل الذي سقط فيه ذلك النور، فساروا معهم إليه، فوجدوا به صخرة طولها ذراع في عرض ثلاث أصابع وفيها ثلاثة أسطر: سطر أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون، وسطر يليه محمد رسول الله القرشي، وسطر ثالث فيه: احذروا وقيعة المغرب فإنها تكون بعد سبعة وتسعة والقيامة قد أزفت. نسأل الله العافية وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة بكرمه ومنّه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

وخرج ثابت عن شهر بن حوشب رضي الله عنه قال: كان يقال في رمضان صوت، وفي شوال همهمة، وفي ذي القعدة تمييز القبائل، وفي ذي الحجة سفك الدماء وانتهاب الحاج، وفي المحرم ما إن حدثتكم به. قيل: وما الصوت؟ قال: هدة من السماء توقظ النائم، وتفزع اليقظان، وتخرج الفتاة من خدرها.

زاد على ابن معبد في كتاب الطاعة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يكون في رمضان صوت. قالوا: يا رسول الله في أوله أو في وسطه أو في آخره؟ قال: لا بل في النصف من شهر رمضان إذا كانت ليلة النصف ليلة جمعة يكون صوت من السماء يصعق له سبعون ألفاً، ويخرس فيه سبعون ألفاً، ويغشى فيه على سبعين ألفاً، وتنفتق فيه سبعون ألف عذراء، وذكر أنه صوت جبريل عليه السلام. قالوا: فمن السالم يا رسول الله؟ قال: من لزم بيته وتعوّد السجود وجهر بالتكبير. وذكر تمام الحديث وفيه المحرم، وما المحرم؟ أوله بلاء على أمتي وآخره برح على أمتي.

وفي حديث آخر عن الأوزاعي: ذكر الآية التي تكون في شهر رمضان فقال: إنها كائنة في شهر رمضان في يوم جمعة فيما بين أول الشهر إلى نصف الشهر في يوم صاح في نصف النهار. فكانوا إذا مضى النصف من شهر رمضان يقولون احمدوا ربكم قد سلمت لكم سنتكم هذه. وكانوا يقولون إذا كانت فيلزم كل إنسانٍ مكانه الذي وافته فيه مسجداً كان أو بيتاً ولا يظهر لها فإنه يرى هولاً لا يحمله قلبه. منهم من يذهب عقله، ومنهم من يخرس لساناً.

قال ابن معبد في حديث ابن وهب قال: يرجع إلى بيته فيغلق بابه ويسدّ الكوى ويخرّ ساجداً ويقول: قدوس قدّوس سبحان ربنا القدوس.

رجع الكلام إلى تفسير الهادّ:

والهاد صوت يسمعه أهل الساحل يأتيهم من قِبل البحر له دويّ في الأرض، وربما كانت منه الزلزلة، ودويه هديده، ومنه قول الشاعر:

داع شـــديد الـــصوت ذو هديـــد

والفعل منه هدّ يهدّ هدية. وإنما سمي الهدهد لهدهدته وهي صوته. والهداهد طائر يشبه الحمام. وقوله في الحديث: همهمة، الهمهمة نحو أصوات البقر والفيلة. والهمهمة أيضاً: دبيب الهوام. والهوام ما كان من خشاش الأرض نحو العقارب لأنها تهمّ، أي: تدب. قال الراجز:

قـد سـالم الحيات مـنه القـدما ... الأفعـوان والـشجاع الـشجعما
وذات نابـين ضـموز ضـرزما ... همهـم فـي رجلـيه حتـى هـدما

ثـــــم اغتديــــــنا وغــــــدا مـــــــسلما

الضموز: الذي لا يتكلم. والضرزم: الشديد العض، والشجعم: الطويل مع عظم جسمه، والجشعم مثله. والهدّ: الهدم الشديد، كحائط يهد بمرة فينهدم، تقول: هدّني الأمر يهدّني، وكذلك هدّ ركني، إذا بلغ منه وكسره. وقد تقدّم كلمون هدّ ركني. والهدّة: صوت شديد تسمعه من سقوط ركن أو ناحية جبل. ذكر هذا ثابت رحمه الله في تفسير حديث ابن أبي نجيح أنه كان يتعوّذ من الهد والهدة، وفسر بما تقدّم.

وقد طال الكلام في هذه اللفظة. وتسلسل وتولد وتنسل وقد كان الأولى لو شاء المولى أن يكتب في فصل الفوائد، لكن العلم كله واحد فحيث وقع نفع.

اد: وأما أد فإنك تقول أدّت الإبل تئدّ إذا حنت إلى أوطانها.

اذ: وأما أذ فمعناه قطع. تقول: أذّ يؤذّ أذّاً، إذا قطع، مثل هدّ يهدّ هدّاً سواء، قلبوا الهاء همزة. ويقولون: شفرة هذوذ وأذوذ، إذا كانت قاطعة. قال الشاعر:

يـــــؤذ بالـــــشفرة أي أذ مـــــن قمـــــع ومانـــــة وفلـــــذ

القمع: طرف السنام، والمانة: بيت اللبن، وقيل الشحم الذي في الخاصرتين، وقد قيل في المانات إنها الأمعاء، وقيل الحوايا، وقد تقدم. ومانة الصدر: لحمة في أسفله. والفلذ: القطعة من الكبد. قال الشاعر:

أتـــستهدين مـــن لَحـــم فأهـــدي مـــن المانـــات أو طـــرف الـــسنام

وقال آخر في الفلذ:

تكفـــيه حـــزة فلـــذ إن ألـــمّ بهـــا .... البـــــيت

وقد تقدّم.

وقال كعب بن مالك في القمع:

وإنـــا لنقـــري الـــضيف مـــن قمـــع الـــذرى

وتقدّم في الحديث البيض قمعهم وفسر.

رجع: يقال: سيف هذهاذ وهذاهذ: إذا كان صارماً. ومن الهذ قول وحشي يخبر عن حمزة رضي الله عنه قال: رأيته مثل الجمل الأورق يهذ الناس بسيفه ما يقوم له شيء. ثم ذكر الخبر. وفسره ثابت في الدلائل: من الهذ، وهي السرعة. وفي الهذ لغة أخرى: هذأته بالسيف أهذؤه هذءاً. والهذم بالميم: سرعة القطع. يقال: سيف مهذم.

وفي الحديث: أكثروا من ذكر هاذم اللذات. كذا يروى بالذال المنقوطة أي: قاطعها وبالدال المهملة من الهدم.

ومن الهذ الذي هو السرعة حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يهذ راحلته

في وادي محسر. وقول بعض الصحابة رضي الله عنهم: ينكر على من أسرع القراءة أهذّاً كهذّ الشعر ونثراً كنثر الدقل. وقول الشاعر:

ضـــربا هـــــذاذيك وطعـــــنا وخـــــضا

يريد هذّاً بعد هذّ. ومخرجه مخرج سعديك ولبيك، أي: سعداً بعد سعد وتلبية بعد تلبية. وكذلك دواليك من المداولة. وسيأتي دواليك في الكلام على الدال وحجازيك بأمر أن يحجز.

وقال ثابت رحمه الله: هذه حروف خلفتها في هذا اللفظ لا تغير على حال مثل قولك: عليك ولديك. ومن حنانيك قول زيد بن عمرو بن نفيل:

حنانـيك إن الجـن كانـت رجـاءهم وأنـــت إلهـــي ربـــنا ورجائـــيا

جاء بلفظ التثنية. قال النحويون: يريد حناناً بعد حنان، كأنهم ذهبوا إلى التضعيف والتكرار لا إلى القصر على اثنين خاصة دون مزيد.

قال الأستاذ رحمه الله: يجوز أن يريد حناناً في الدنيا وحناناً في الآخرة، ولذا قيل هذا

للمخلوق. نحو قول طرفة:

حنانـيك بعـض الشر أهـون مـن بعـض

فإنما يريد حنان دفعٍ وحنان نفعٍ، لأن كل من أمّل ملكاً فإنما يؤمله ليدفع عنه ضيراً وليجلب إليه خيراً.

قال المازني رحمه الله: قال بعض النحويين: أصل لبّيك لبّبك مأخوذ من لبّ بالمكان وألبّ إذا أقام، فاستثقل الجمع بين ثلاث باءآت فأبدلوا من الثالثة ياء، كما قالوا تظنّيت والأصل تظنّنت.

فائدة:

قال وفي معنى لبيك أربعة أقوال: بعد أن قال هي نصب على المصدر:

أحدها: إجابة لك يا رب، وثنوا لأنهم أرادوا إجابة بعد إجابةٍ. كما قالوا حنانيك؛ وقد تقدم.

والثاني: اتجاهي إليك يا رب وقصدي، فثنوا للتأكيد أخذاً من قولهم: داري تلبّ دارك أي تواجهها.

والثالث: محبتي إليك يا رب. من قول العرب: امرأة لبّة، إذا كانت محبة لولدها عاطفة عليه. ومنه قول الشاعر:

وكنـــتم كـــأم لـــبة ظعـــن ابـــنها

والرابع: إخلاص لك يا رب. من قولهم: حب لباب، إذا كان خالصاً محضاً. ومن ذلك: لب الطعام ولبابه.

بقي هنا من هذا الشكل مما يتزن: أدّ، أمر من الأداء. تقول: أدّي إلى فلان حقه. وفي الحديث: أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك. وفي القرآن العزيز: ﴿ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ [الدخان: ١٨] جاء في التفسير عن مجاهد رحمه الله: أن أرسلوا معي عبادي بني إسرائيل. وفي القرآن أيضاً: ﴿ يُؤَدِّهِۦٓ ﴾، و﴿ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ ﴾ [آل عمران: ٧٥]. ومن شكله: وادّ إذا جعلت أصله اسم فاعل، من: ودّ يودّ فهو وادّ.

وفي الحديث في قصة الرؤيا قال النبي صلى الله عليه وسلم: الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت. وفي آخر الحديث: لا تقصها إلا على وادّ أو ذي رأي. ومن هذا الشكل أيضاً: واد، واحد الأودية، وذلك معلوم.

ومما لا يتزن: أذ، على وزن فعل. يقال: بعير أذ وناقة أذية، إذا كان لا يقر في مكان خلقه من غير وجع. ومما لا يتزن أيضاً: إذ، أخت إذا، وهما ظرفان لما مضى، وهي محذوفة من إذا التي هي لما يستقبل، فتدخل ما على إذ فتصير من حروف الجزاء فتجزم بها. كما قال:

إذ ما أتيت على الرسول فقل له .... البيت

وقد تزاد في مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [البقرة: ٥١] تقديره وواعدنا.

وبقي من هذا الشكل: أذ، تقول: رجل أذ: شديد الأذى.

معكوس البيت ليس فيه إلا داء وذا.

داء: أما الداء فمعلوم أعاذنا الله منه وجمعه أدواء. يقال: رجل داء وامرأة داءة، وقد داء يداء داء، ويقال أداء أيضاً وقد تقدم في أول البيت دوى الرجل. وكيف يقال فيه وكيف يصرف.

ذا: وأما ذا فاسم مبهم يتصل به من أوله هاء التنبيه فتقول: هذا. تشير به إلى حاضر، ويتصل به من آخره الكاف فتقول: ذاك للغائب والبعيد. وتدخل اللام فيزداد البعد فتقول: ذلك. قال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ١-٢] وكما تقول ذلك للمذكر الغائب وهذا للحاضر، تقول تلك للمؤنثة الغائبة وللحاضرة، وبحسب من تخاطب تصل ضميره بـ ذا. فتقول ذلك للرجل وذلك بكسر الكاف للمرأة، وذلكما للاثنين وذلكم لجماعة الرجال، وذلكن لجماعة النساء. وفي

القرآن العزيز: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ [يوسف: ٣٧]، ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ ﴾ [الطلاق: ٢]، ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢]، وتقول ذا للرجل وذي للمرأة، وتصغير ذا: ذيا. وزعم سيبويه أن ذا وحده بمنزلة الذي، كقولهم: ماذا رأيت؟ فتقول: متاعاً حسناً. قال لبيد:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

وإذا أدخلتها على ما أجريتها بوجوه الإعراب، تقول: ماذا رأيت؟ فتقول: خيراً. وماذا عندك؟ فتقول: خير.

وكذلك قال سيبويه رحمه الله: إن أصل ذيا ذييا فحذفت ياء واحدة استثقالاً لاجتماع اليآت كما فعل في تيا وقد تقدم. وكذلك قالوا في تصغير ذاك ذياك، وتصغير ذلك ذيالك بفتح الكاف للمذكر وبكسرها للمؤنث. وأنشد:

أني أبو ذيالك الصبي

وهذا البيت لعربي قدم من سفر فوجد امرأته قد ولدت في غيبته. فقال يخاطبها:

لتقعدن مقعد القصي أو تحلفي بربك العلي
أني أبو ذيالك الصبي قد رابني بالمنظر الركي
ومقلة كمقلة الكركي

فأجابته:

لا والذي ردك يا صفي ما مسني بعدك من إنسي

من رجز مطول اختصرته.

وأما ذيت فأصلها ذية، وأما الذي فاسم للمذكر لا بد له من الصلة وفيه لغات. وسيأتي الكلام على ذلك في معكوس قافية البيت الثاني من هذا إن شاء الله تعالى.

وأما التي فكذلك من أسماء الصلات وهي للمؤنث، ويجمع على اللاتي واللائي واللواتي. وفي القرآن العزيز: ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ [النساء: ١٥] ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ [الطلاق: ٤]، وقد تقدم تي وتا بمعنى ذه للمرأة.

ذو: وكما تقول للمرأة: تي، تقول للرجل: ذا. وتقول: رأيت فلاناً ذا مال، وذا علم، وذا جاه. تضيفه إلى جنس من الأجناس، ولا بد لأنه إنما دخل في الكلام وصلة إلى الوصف بالأجناس فلا يضاف إلى صفة، فلا تقول: جاءني ذو عالم، ولا يضاف إلى مضمر، وخطؤوا من قال: صلى الله على محمد وذويه. قال هذا طاهر بن أحمد. وتقول في الرفع: ذو، وفي الخفض: ذي، وفي التثنية: ذوا وذوي، وفي الجمع: ذوو

وذوي، وفي القرآن العزيز: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ ﴾ [الطلاق: ٧]، و﴿ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٦] وسيأتي الذي واللذان واللذون إن شاء الله تعالى.

ذات: وللمؤنث ذات. قال الله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد: ٣]، وفي التثنية: ﴿ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ [سبأ: ١٦]، وفي الجمع: ذوات و: ﴿ أُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ﴾ [الطلاق: ٤]. ويقال: لقيته ذا صباح، وذا يوم، وافعل هذا بذي تسلم، أي: سالمتك. وكذلك يقولون: لا بذي تسلم. كأنه قال أفعلت كذا وكذا؟ فقلت: لا بسلامتك، أي: لا أفعله، وتدعو له بالسلامة مع ذلك. وتقول للمرأة: لا بذي تسلمين. قال ثابت في الدلائل: العرب تزيد ذا في الكلام. وأنشد:

عزمت على إقامة ذي صباح ... لأمر مّا يسوّد من يسود

وربما كانت بدلاً من الذي.

قيل لأعرابي: هل بامرأتك من حبل؟ قال: لا وذو بيته في السماء. قال أبو حاتم: ولغة بعض العرب يقولون: فلان ذو سمعت به، يعني: الذي سمعت به. ولا يغير هذا اللفظ في رفع ولا نصب ولا جر، وهو على هيئة واحدة في التثنية والجمع والتذكير والتأنيث. ويقال: أتى عليه ذو أتي، أي: الذي أتى عليه.

وفي وصية حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأوصت بأشياء وفي آخرها: هذه وصيتي إن أتى عليّ ذو أتى ما لم أغيرها. قال ومما يتكلم به مؤنثاً: اللهم أصلح ذات بيننا. وفي القرآن العظيم: ﴿ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١]. ويقال: لقيته ذات العويم، وذات الزمين، ولقيته ذات غبوق، وذات صبوح.

وقال أبو حاتم: وقد يقال لقيته ذا صباح. ومما تكلموا فيه بالتأنيث قولهم: فلان قليل ذات اليد إذا كان مقلاً.

ذأى: ومن شكل ذا: ذأى، ولا تظنن أني جهلت أن وزن لفظة ذأي فعل، إنما أردت الصورة، وقصدت أن تكون الفائدة فيه مع ذا محصورة. يقال: ذأى البعير يذأى ذأواً، وهو ضرب من عدوه، ويقال فيه أيضاً: ذأياً، وتقول: ذأى العود يذأى، ذبل. ويقال في هذا أيضاً: ذوى يذوي ذياً وذوياً، ذبل وضعف.

ومن شكله أيضاً: داء بالدال غير منقوطة. تقول دأى الذئب يدأى دأواً وهو شبه الختل والمراوغة، وقد يقلب هذا فيقال فيه: أدى الذئب الغزال يأدو إذا ختله. وقد قالوا دأى البعير بالدال غير معجمة، والدأى منه الموضع الذي يقع عليه ظلفة الرحل فتعقره

فيقع عليه الغراب،

ولذلك سمي ابن دأية. قال الشاعر يصف الشيب:

ولَما رأيت النسر عز ابن دأية   وعشش في وكريه جاشت له نفسي

دادا: ومن مضاعف هذا دأدأ الرجل الشيء: حركه، وتدأدأ هو، والدأدأة: صوت وقع الحجارة في السيل. قال:

تداركه في منصل الأل بعد ما   مضى غير دأداء وقد كاد يعطب

ويقال: دأدأ البعير دأدأة وديداً، إذا عدا بأشد عدوه. والدأدأ واحد الدآدي، وهي ثلاث ليال من آخر الشهر قبل ليالي المحاق، فهي على هذا ليلة خمس وعشرين وست وعشرين وسبع وعشرين من الشهر، وليلة دأدأة: شديدة الظلمة. كذا قاله أهل اللغة.

ووقع في كتاب مسلم رحمه الله: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام الداداه يعني آخر يوم من الشهر، كذا وقع مفسراً في الحديث بغير همز مع سكون الهاء.

فصل من الفوائد: تقدم قبل هذا ذكر الأدّ وجاء منه في الحديث: أدّك أدّ أبيك، لا تقطع أدّ أبيك فيطفأ نورك. خرجه ثابت رحمه الله، وقال: أدّ الرجل: أهل مودة أبيه، خرج الاسم مخرج المصدر، وفي باب الفاء من قول النبي صلى الله عليه وسلم: إن أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي.

منقبة: ومن الأد حديث عمرو بن أد العامري. ذكر ابن إسحاق في السير في غير رواية البكالي أن عمرو بن أد خرج يوم الخندق فنادى: هل من يبارزني! فقام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مقنع بالحديد فقال: أنا له يا نبي الله. فقال صلى الله عليه وسلم: إنه عمرو اجلس. ونادى عمرو: ألا رجل، وهو يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها أفلا تبرزون لي رجلاً؟ فقام عليّ رضي الله عنه فقال: ألا أبرز يا رسول الله. فقال: اجلس إنه عمرو. ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بححت من النداء   بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع   موقف القرن المناجز
وكذاك أني لم أزل   متسرعاً قبل الهزاهز
إن الشجاعة في الفتى   والجود من خير الغرائز

فقام عليّ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أنا له. فقال: إنه عمرو. فقال: وإن كان عمراً. فأذن له صلى الله عليه وسلم فمشى إليه حتى أتاه وهو يقول:

لا تعجلنّ فقد أتاك   مجيب صوتك غير عاجز

ذو نــــــيةٍ وبــــــصيرةٍ والـــصدق منجـــي كـــل فائـــز
إنـــــي لأرجــــو أن أقـــيـ ـــيم علــيك نائحـــة الجنائـــز
مـــن ضـــربة نجـــلاء يـــبـ ـقـــى ذكـــرها عـــند الهزاهـــز

فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا عليّ. قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا عليّ بن أبي طالب. قال: غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك فإني أكره أن أهريق دمك. فقال له عليّ رضي الله عنه: لكنني والله ما أكره أن أهريق دمك. فغضب عمرو ونزل فسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو عليّ مغضباً، وذكر أنه كان على فرسه، فقال له علي: كيف أقاتلك وأنت على فرسك ولكن انزل معي. فنزل عن فرسه ثم أقبل نحوه فاستقبله عليّ رضي الله عنه بدرقته وضربه عمرو فيها فقدّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وضربه عليّ رضي الله عنه على حبل العاتق فسقط، وثار العجاج، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير فعرف أن علياً قد قتله.

ثم أقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متهلل فقال له عمر بن الخطاب: هلا سلبته درعه فإنه ليس في العرب درع خير منها. فقال: إني حين ضربته استقبلني بسوأته فاستحييت ابن عمي أن أسلبه، وخرجت خيله منهزمة حتى اقتحمت الخندق فمن هنا لم يأخذ عليّ سلبه. وقيل: تنزه عن أخذها، وقيل: إنهم كانوا في الجاهلية إذا قتلوا القتيل لا يسلبونه ثيابه. وقول عمرو لعليّ: إني والله أكره أن أهريق دمك، زاد غيره: إن أباك كان لي صديقاً. قال الزبير: كان أبو طالب ينادم مسافر بن أبي عمرو، فلما هلك اتخذ عمرو بن أدّ نديماً، فلذلك قال لعليّ حين بارزه ما قال.

وتقدم في القرآن: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦]، وفي الموطأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا أحبّ الله العبد قال لجبريل عليه السلام: قد أحببت فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله قد أحب فلان فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض الله العبد؛ قال مالك: لا أحسب إلا أنه قال في البغض مثل ذلك.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه يحذر المرء أن تبغضه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ثم قال: أتدري ما هذا؟ قال: لا. قال: العبد يخلو بمعاصي الله تعالى فيلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر.

قلت: وكذلك على الطاعة.

وجاء في الحديث تصديق ذلك: مر أبو ذر رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل عليه السلام فقال: هذا أبو ذر. قال: أوَتعرفه يا جبريل؟ قال:

لهو في السماء أعرف منه في الأرض.

وفي البخاري في فضائل أهل بدر: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما تعدّون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين؛ أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدر من الملائكة.

قال بعض العلماء، وذكر قتال الملائكة مع المسلمين: في وسع أحد الملائكة أن يهزم جميع من في الأرض، ألا ترى أن جبريل عليه السلام اقتلع مدائن قوم لوط بريشة من ريش جناحه، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب ونهيق الحمير، ثم ألقاها من هناك وهي المؤتفكة، يعني: المنقلبة، وإنما سأل الملائكة ربهم أن يردّهم إلى قوى البشر حتى ينالوا فضل الجهاد، ففعلوا ما فعلوا يوم بدر وغيره. هذا معنى كلامه، والله أعلم.

وتقدّم في القرآن العزيز: ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ﴾ [نوح: ٢٣]، كان ود لكلب بدومة الجندل، وسواع لهذيل، ويغوث لمراد، ويعوق لهمذان، ونسر لحمير، وهذه أسماء رجال صالحين حزن عليهم قومهم لما ماتوا فسول لهم الشيطان أن صوّروا صورهم ليتسلوا بالنظر إليها، فلما مات أولئك عبدها أبناءهم، وكذا كان أصل عبادة الصليب. عافانا الله من الخذلان؛ صوّروا صورته أولاً ليظهروا الحزن عليه والتأسف عند معاينته في زعمهم، ثم آل ذلك إلى عبادته.

وتقدّم في القرآن العزيز: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ [الفجر: ١٠]. قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن فرعون وتد الأوتاد لامرأته أربعة أوتاد، وأضجعها على ظهرها، ووضع عليها رحارح واستقبل بها عين الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء وقالت: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١]، ففرج لها عن بيتها في الجنة فرأته. خرجه ثابت. وفسر الرحارح بالحجارة العريضة المنبسطة كالأرحى ونحوها، والرحح: انبساط الحافر، وكل شيء كذلك فهو أرح. وأنشد في صفة فرس:

لا رحــــح فـــيه ولا اضــــطرار ولــــم يقلــــب أرضــــها البــيطار

ومن الوتد حديث ابن عون قال: رأيت مسلم بن يسار يصلي كأنه ود. خرجه ثابت.

الزباء وجذيْمة

وتقدم قول الزباء:

ما للجمال مشيها وئيدا

ولذلك خبر أرويه فيما قرأته بالإسكندرية على الشريف العثماني رحمه الله، في مقصورة ابن دريد.

قال الشارح: لما ملك جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم الأزدي شاطئ الفرات إلى صراة جاماس وإلى الأنبار وما والى ذلك إلى السواد ستين سنة؛ قتل أبا الزباء، وكان من العماليق، وغلب على ملكه، وألجأ الزباء إلى أطراف مملكتها، وكان أبرص، فهابت العرب أن تقول الأبرص فقالت الأبرش والوضاح.

وكانت الزباء أديبة عاقلة فبعثت إليه تخطبه على نفسها ليتصل ملكه بملكها، فدعته نفسه إلى ذلك، فشاور وزراءه في ذلك. فكلهم أشار عليه أن يفعل إلا قصير بن سعد القضاعي فإنه قال له: أيها الملك لا تفعل فإن هذا خديعة ومكر. فعصاه وخالفه وأجابها لما سألت وقال لقصير: لا يقبل لقصير رأي، فجرت مثلاً.

ثم كتبت له بعد ذلك أن سر إليّ، فجمع أصحابه ببقة؛ وهي قرية على الفرات؛ فأشاروا عليه بالخروج إليها. وقال قصير: أيها الملك لا تفعل فإنما يهدى النساء إلى الرجال. فعصاه. فقال: أيها الملك أما إذا عصيتني؛ فإذا رأيت جندها قد أقبلوا إليك وترجلوا وحيوك ثم ركبوا وتقدموك فقد كذب ظني، وإن رأيتهم أطافوا بك فإني معرض لك العصا ـ وهي فرس لجذيمة لا تدرك ـ فاركبها وانج.

فلما أقبل أصحابها حيوه ثم أطافوا به، فقرب إليه قصير العصا فشغل عنها وركبها قصير فنجا، وأُخذ جذيمة، فنظر إلى قصير على العصا وقد حال دونه السراب فقال: ما ضلَّ من تجري به العصا، فجرت مثلاً.

وأُدخل جذيمة على الزباء ـ وكانت قد ربت شعر عانتها حولاً ـ فلما دخل عليها تكشفت له وقالت: أذات عروس ترى يا جذيمة، أما إنه ليس من عوز المواسي، ولا قلة الأواسي ولكنها شيمة في أناسي، وأمرت به فأجلس على نطع، وجيء بطست من ذهب، وقطعت رواهشه وكان قيل لها: احتفظي بدمه فإن أصابت الأرض قطرة من دمه طلب بثأره. فقطرت قطرة من دمه على الأرض، فقالت لهم: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: دعوا دماً ضيعه أهله، فذهبت مثلاً. ومات.

فسار قصير بن سعد إلى عمرو بن ربيعة بن مضر ـ وهو ابن أخت جذيمة ـ فقال:

ألا تطلب بثأر خالك؟ قال: كيف أقدر على الزباء وهي(أمنع من عقاب الجو)، فأرسلها مثلاً. فقال قصير: اجدع أنفي وأذني واضرب ظهري بالسوط حتى تؤثر فيه، ودعني وإياها، ففعل به ذلك، فلحق بالزباء وقال لها: لقيت هذا البلاء من أجلك. قالت: وكيف؟ قال: إن عمراً زعم أني أشرت على خاله بالخروج إليك حتى فعلت به ما فعلت.

ثم أحسن خدمتها وأظهر لها النصيحة حتى حسنت منزلته عندها، وزين لها التجارة فبعثت معه بعير إلى العراق، فسار قصير إلى عمرو مستخفياً، فأخذ منه مالاً وزاده في مالها، واشترى لها طرفاً من طرف العراق، ورجع إليها فأراها تلك الأرباح فسرت بها، ثم كرّ كرّة أخرى فأضعف المال، فلما كان المرة الثالثة اتخذ جواليق كجواليق الجص وجعل ربطها من أسافلها إلى داخل وأدخل في كل جوالق رجلاً بسلاحه، وأقبل إليها، وأخذ غير الطريق الذي كان يسلكه، وجعل يسير الليل ويكمن النهار وأخذ عمراً معه.

وكانت الزباء قد صوّر لها عمرو قائماً وقاعداً وراكباً، وكانت قد اتخذت لنفسها نفقاً أجرت عليه الفرات من قصرها إلى قصر أختها زبيبة، وبعد عليها خبر قصير. فلما قرب قصير من بلدها تقدم العير وكان قد أبطأ عنها. فقيل لها: أخذ الغوير. فقالت: (عسى الغوير أبؤساً)، فأرسلتها مثلاً. ودخل قصير إلى الزباء وقال لها: قفي فانظري إلى العير، فرقت سطحاً عالياً فجعلت تنظر إلى العير مقبلة تحمل الرجال مثقلة فقالت:

ما للجمال مشيها وئيدا أجندلاً يحملن أم حديدا
أم صرفاناً تارزاً شديدا أم الرجال جثماً قعودا

ووصف قصير لعمرو باب النفق، ووصف له الزباء، فلما دخلت العير المدينة، وعلى الباب بوّابون من النبط، وفيهم واحد ومعه مخصرة، فطعن جوالقاً منها فأصابت المخصرة رجلاً فضرط، فقال البوّاب بالنبطية: الشر الشرّ. وحلت الرجال الجوالقات ومشوا في المدينة بالسلاح، ووقف عمرو على باب السرب، فلما رأت عمراً عرفته بالصفة فمصت فصها ـ وكان مسموماً ـ وقالت: بيدي لا بيد عمرو.

ويقال: إن عمراً جللها بالسيف حتى قتلها واستباح بلدها وملكها. وفي ذلك قال ابن دريد رحمه الله في المقصورة التي تقدّم ذكرها:

وقد سما عمرو إلى أوتاره فاحتط منها كل عالي المسمى
فاستنزل الزباء قسراً وهي من عقاب لوح الجو أعلى منمى

وفي قصير المذكور جاء المثل: لأمر ما جدع قصير أنفه، وقد احتججت أنا إلى ذكر المثل في حديث جرى، فقلت في أبياتٍ منها:

وإن كان قولي حيلة فلقصة ... أصار قصير أنفه صفة الخدّ

وقبله:

يقولون في التصغير نقص وإنه ... لأوفى من التكبير في القدر وفي العد
وإلا فباسم الله عدوا حروفه ... أليس عبيد الله أكثر من عبد

وكان ولد لي ولد سميته عبيد الله، وكان له أخ أكبر منه اسمه عبد الله، فكان ثم من عزّ عليه تصغير الاسم، فقلت ما تقدم من أبيات، انظرها في التكميل.

موؤودة: وتقدم ذكر الموؤردة. يقال: وأد الموؤودة يئدها: دفنها حية. وكانت العرب في الجاهلية تفعل ذلك. قيل: من أجل الغيرة، وقيل: خوف الفقر، كما قال تعالى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، ومنه قول الفرزدق:

ومنا الذي منع الوائدات ... وأحيا الوئيد فلم يوأد

يعني جده صعصعة بن ناجية بن عقال، وكان يفدي الموؤودة أن تقتل.

يروى أنه لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم قال: يا رسول الله إني كنت أعمل عملاً في الجاهلية أفينفعني ذلك اليوم؟. قال: وما عملك؟ فأخبره بخبر طويل فيه أنه حضر ولادة امرأة من العرب بنتاً، فأراد أبوها أن يئدها، قال: فقلت له: أتبيعها؟ قال: وهل تبيع العرب أولادها؟ قال: قلت: إنما أشتري حياتها ولا أشتري رقها. فاشتريتها منه بناقتين عشراوين وجمل، وقد صارت لي سنة في العرب على أن أشتري ما يئدونه بذلك فعندي إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موؤودة، وقد أنقذتها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ينفعك ذلك لأنك لم تبتغ بذلك وجه الله، وإن تعمل في إسلامك عملاً صالحاً تثب عليه.

وكان زيد بن عمرو بن نفيل الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: يبعث أمة وحده، يحيي الموؤودة أيضاً. يقول للرجل إذا أراد أن يئد ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها. وسيأتي خبره في باب الميم إن شاء الله تعالى.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝﴾ [التكوير: ٨-٩] قيل: سؤال الموؤودة على وجه التوبيخ لقاتلها وهي لا تعقل، كما يقال للطفل الذي لا يعقل: لم ضربت؟ إذا ضرب، وما ذنبك؟ وكما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى

﴿ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ ﴾ [المائدة: ١١٦]. وقيل: إنها تكون يومئذ كاملة في العقل وغيره، ومعنى سئلت: سئل عنها. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٤]، أي مسؤولاً عنه، ويقرأ: سألت، وسيأتي.

ومن الموؤودة حديث نعيم بن قعنب الرياحي قال: أتيت أبا ذر رضي الله عنه فلم أجده ورأيت امرأته فسألتها عنه فقالت: هو ذا في ضفة لنا، فجعل يسوق أو يقود بعيرين قاطراً أحدهما في عجز صاحبه في عنق كل واحدٍ منهما قربة، فوضع القربتين فقلت: أبا ذر ما كان من الناس أحد أحب إليّ من أن ألقاه منك، ولا أبغض إليّ أن لا ألقاه منك. فقال: لله أبوك وما جمع هذا؟ فقال: إني كنت وأدت في الجاهلية وكنت أخشى في لقيك أن تخبرني أنه لا توبة لي، وكنت أرجو في لقيك أن تخبرني أن لي توبة وفرجاً. قال: أوَفي الجاهلية؟ قلت: نعم. قال: عفا الله عما سلف.

ثم عاج رأسه إلى المرأة فأمرها بطعام، فالتوت عليه ثم أمرها فالتوت عليه حتى ارتفعت أصواتهما. فقال وأيها الآن دعينا عنك، فإنكن لن تعدون ما قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكن. قلت: وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن؟ قال: قال: المرأة من ضلع فإن ذهبت تقوّمها تكسرها، وإن تدعها ففيها أود وبلغة.

فجاءت بثريد كأنها قطاة، فقال: كل ولا أهولنك فإني صائم. ثم قام يصلي فجعل يهذب الركوع ويخففه، ومعنى يهذب: يسرع، ورأيته يتنظرني أن أشبع أو أقارب، ثم انصرف فجعل يده معي. فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال: وما لك؟ فقلت: من كنت أخشى من الناس أن يكذبني، فما كنت أخشى أن تكذبني. فقال: لله أبوك إن كذبتك كذبة منذ لقيتني. فقلت: ألم تقل إني صائم ثم أراك تأكل. قال: نعم، قد صمت من هذا الشهر ثلاثة أيام فوجب لي أجره وحلّ لي الطعام معك. قوله: قاطراً أحدهما، هو من القطار، وهو أن يربط أحدهما بالآخر. ومنه قول عمر رضي الله عنه في الناقة العمياء: يقطرونها بالإبل. وقوله: عاج رأسه، هو من العوج، وهو عطف رأس البعير بالزمام، وكل شيء تعطفه من قضيب أو غيره تقول: عجته فانعاج. ومن هذا قيل: ناقة عاج، إذا كانت مذعان السير لينة الانعطاف، وتقول: ما عجت بخبر فلان ولا أعوج به، أي: ما أباليه. وكذلك ما عجت بكذا، أي: لم أنتفع به. قال أبو زيد: يقال شربت ماء ملحاً فما عجت به أعيج به عيجاً، أي: لم أروَ منه، والإبل تعيج بالماء الملح وتبضع به بضوعاً ونقوعاً وهو الري. وأنشد:

وبعض القوم ليس له معاج ... كمخض الماء ليس له إناء

وبعض خلائق الأقوام داء … كداء الشيخ ليس له دواء

وجاء في بعض الأخبار أنهم كانوا يئدون من البنات ما كانت زرقاء، أو شيماء، أو برشاء أو كسحاء، تشاؤماً منهم بهذه الصفات.

كهانة

ومن هذا حديث سودة بنت زهرة بن كلاب، وذلك أنها لما ولدت على بعض هذه الصفات ورآها أبوها كذلك أمر بوأدها، فأرسلها إلى الحجون لتدفن هناك، فلما حفر لها الحافر وأراد دفنها سمع هاتفاً يقول: لا تئد الصبية وخلها في البرية. فالتفت فلم ير شيئاً، فعاد لدفنها فسمع الهاتف يسجع بسجع آخر في المعنى. فرجع إلى أبيها فأخبره بما سمع. فقال: إن لها لشأناً، وتركها. فكانت كاهنة قريش.

فقالت يوماً لبني زهرة: إن فيكم نذيرة أو تلد نذيراً فاعرضوا عليّ بناتكم. فعرضن عليها. فقالت في كل واحدةٍ منهن قولاً ظهر بعد حين، حتى عرض عليها آمنة بنت وهب فقالت: هذه النذيرة أو ستلد نذيراً، في خبر طويل ذكره أبو بكر النقاش، وفيه ذكر جهنم أعاذنا الله منها، ولم يكن اسم جهنم مسموعاً عندهم. فقالوا لها: وما جهنم؟ فقالت: سيخبركم عنها النذير.

قلت: وإذ قد جرى ذكر التكهن، فأحسن ما رأيت في ذلك حديث سواد بن قارب رضي الله عنه قال فيه ابن الكلبي: دوسي، وقال غيره: سدوسي، وكان كاهناً في الجاهلية، وفيه يقول القائل:

ألا لله علم لا يجارى … إلى الغايات في جنبي سواد

يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مازحه في الإسلام فقال له: ما فعلت كهانتك يا سواد؟ فغضب فقال: قد كنت أنا وأنت على شرٍ من هذا؛ من عبادة الأصنام؛ وأكل الميتات. أفتعيرني بأمر قد تبت منه؟ فقال عمر حينئذٍ: اللهم غفراً.

ثم حدث أن رئيه جاءه ثلاث ليال متواليات هو فيها كلها بين النائم واليقظان وقال له: قم يا سواد واسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل. قد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وعبادته. وأنشده في كل ليلة من الثلاث الليالي ثلاثة أبيات معناها واحد وقافيتها مختلفة. فأنشده في الليلة الأولى:

عجبت للجن وتطلابها … وشدها العيس بأقتابها

تهوي إلى مكة تبغي الهدى … ما صادق الجن ككذابها

فارحل إلى الصفوة من هاشم … ليس قداماها كأذنابها

وفي الثانية:

عجبت للجن وإبلاسها ... وشدها العيس بأحلاسها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما طاهر الجن كأرجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... ليس ذنابى الطير من رأسها

وفي الثالثة:

عجبت للجن وتنفارها ... وشدها العيس بأكوارها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما مؤمن الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... ليس قداماها كأدبارها

ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشده ما كان من الجني رئيه إليه ثلاث ليالٍ متواليات وأنشده:

أتاني نجيي بعد هدء ورقدة ... ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة ... أتاك نبي من لؤي بن غالب
فرفعت أذيال الإزار وشمرت ... بي العرمس الوجنا جهول السباسب
فأشهد أن الله لا شيء غيره ... وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة ... من الله يا ابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك من وحي ربنا ... وإن كان فيما جئت شيب الذوائب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة ... بمغن فتيلاً عن سواد بن قارب

ولسواد بن قارب هذا مقام حميد في دوس، حين بلغهم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام حينئذ سواد فقال: يا معشر الأزد إن من سعادة القوم أن يتعظوا بغيرهم، ومن شقائهم أن لا يتعظوا إلا بأنفسهم، وإن من لم تنفعه التجارب ضرته، ومن لم يسعه الحقّ لم يسعه الباطل، وإنما تسلمون اليوم بما سلمتم به أمس، وقد علمتم أن نبي الله قد تناول قوماً أبعد منكم فظفر بهم، وواعد قوماً أكبر منكم فأخافهم، ولم تمنعه منهم عدة ولا عدد، وكل بلاء منسي إلا ما بقي أثره في الناس، ولا ينبغي لأهل البلاء إلا أن يكونوا أكثر من أهل العافية للعافية، وإنما كف نبي الله عنكم ما كفكم عنه، فلم تزالوا خارجين مما فيه أهل البلاء داخلين فيما فيه أهل العافية، حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبكم ونقيبكم، فعبر الخطيب، ونقب النقيب عن الغائب، ولست أدري لعله تكون للناس جولة، فإن تكن فالسلامة منها الأناة، والله يحبها فأحبوها. وقال في ذلك:

جلت مصيبتك الغداة سواد ... وأرى المصيبة بعدها تزداد

أبقى لنا فقد النبي محمد صلى الإله عليه ما يعتاد
حزناً لعمرك في الفؤاد مخامراً أو هل لمن فقد النبي رقاد
كنا نحل به جناباً ممرعاً جف الجناب فأجدب الرواد
فبكت عليه أرضنا وسماؤنا وتصدعت وجداً به الأكباد
قلّ المتاع به وكان عيانه حلماً تضمن سكر فيه رقاد
إن النبي وفاته كحياته الحق حق والجهاد جهاد
ولو قيل تفدون النبي محمداً بذلت له الأموال والأولاد
وتسارعت فيه النفوس ببذلها هذا له الأغياب والأشهاد
هذا وهذا لا يردّ نبينا لو كان يفديه فداه سواد
إني أحاذر والحوادث جمة أمراً لعاصف ريحه إرعاد
إن حل منه ما يخاف فأنتم للأرض إن رجفت بنا أوتاد
لو راد قوم فوق منية صاحب ردتم وليس لمنية مرتاد

فأعجب القوم شعره وقوله فأجابوه إلى ما أحب.

وروى أبو جعفر العقيلي في كتاب الصحابة رضي الله عنهم عن رجل من بني لهب يقال له لهب أو لهيب قال: حضرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عنده الكهانة، فقلت: بأبي أنت وأمي نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم، وذلك أننا اجتمعنا عند كاهن يقال له خطر بن مالك، وكان شيخاً كبيراً قد أتت عليه مائتا سنة وثمانون، وكان من أعلم كهاننا فقلنا له: يا خطر هل عندك علم من هذه النجوم التي يرمى بها فإننا قد فزعنا لها وخشينا سوء عاقبتها. فقال: عودوا إلي السّحر أخبركم الخبر ألخير أم ضرر ولأمن أم حذر، قال: فانصرفنا عنه يومنا، فلما كان من غدٍ في وجه السّحر أتيناه فإذا هو قائم على قدميه شاخص إلى السماء بعينيه. فناديناه: يا خطر يا خطر، فأومأ إلينا أمسكوا أمسكوا، فأمسكنا وانقض نجم عظيم من السماء، وصرخ الكاهن رافعاً صوته: أصابه أصابه، خامره عقابه، عاجله عذابه، أحرقه شهابه، زايله جوابه، يا ويله ما حاله، بلبله بلباله عاوده خباله، تقطعت حباله، وغيرت أحواله، ثم أمسك طويلاً فإذا هو يقول:

يا معشر العرب بني قحطان أخبركم بالحق والبيان
أقسمت بالكعبة والأركان والبلد المؤتمن السدّان
قد منع السمع عتاة الجان بثاقب بكف ذي سلطان
من أجل مبعوث عظيم الشان يبعث بالتنزيل والقرآن

وبالهـــدى وفاصـــل الفـــرقان تـــبطل بـــه عـــبادة الأوثـــان

فقلنا: ويحك يا خطر إنك لتذكر أمراً عظيماً، فما ترى لقومك؟ فقال:

أرى لقومـــي مـــا أرى لنفـــسي أن يتـــبعوا خيـــر نبـــي الإنـــس
بـــرهانه مـــثل شـــعاع الـــشمس يـــبعث فـــي مكـــة دار الحمـــس
بمحـــكم التنـــزيل غيـــر اللـــبس

فقلنا: يا خطر ومن هذا؟ فقال: والحياة والعيش إنه لمن قريش ما في حكمه طيش، ولا في خلقه ميش، يكون في جيش وأيّ جيش من آل قحطان وآل أيش. فقلنا له: بين لنا من أي قريش هو؟ فقال: والبيت ذي الدعائم والركن والأحائم إنه لمن نجل هاشم، من معشر أكارم، يبعث بالملاحم وقتل كل ظالم. ثم قال: هذا هو البيان أخبرني به رئيس الجان، ثم قال: الله أكبر جاء الحق وظهر، وانقطع عن الجن الخبر. ثم سكت وأغمي عليه. فما أفاق إلا بعد ثالثة، فقال: لا إله إلا الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد نطق عن مثل نبوّة وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده. نقلت هذا أيضاً من كتاب الأستاذ رحمه الله.

قوله: أصابه أصابه، أراد وصابه جمع وصب مثل جمل وجمال. وقوله: وآل أيش يحتمل أن تكون قبيلة من الجن ويحتمل أن يريد وأيش بمعنى: وأي شيء على جهة المدح، والأحائم يريد الأحاوم.

ومن الكهان أيضاً شق وسطيح وخبرهما مذكور في السيرة وإخبارهما عما لم يقع. كان سطيح جسداً ملقى لا جوارح له فيما يذكرون، ولا يقدر على الجلوس إلا إذا غضب انتفخ فجلس، وكان شق شقّ إنسان فيما يذكرون، إنما له يداً واحدة، ورجل واحدة، وعين واحدة.

ويذكر عن وهب بن منبه رضي الله عنه أنه قال: قيل لسطيح أنى لك هذا العلم؟ فقال: لي صاحب من الجن استمع أخبار السماء من طور سيناء حين كلم الله موسى فهو يؤدّي إليّ من ذلك ما يؤدّيه.

وولد شق وسطيح في اليوم الذي ماتت فيه طريفة الكاهنة امرأة عمرو بن عامر بن مزيقيا وهي بنت الخير الحميرية، ودعت بسطيح قبل أن تموت فأتيت به فتفلت في فمه وأخبرت أنه سيخلفها في علمها وكهانتها، وكان وجهه في صدره لم يكن له رأس ولا عنق. ودعت بشق ففعلت به ما فعلت بسطيح ثم ماتت وقبرها بالجحفة. وعمر سطيح زماناً طويلاً حتى أدرك مولد النبي صلى الله عليه وسلم، فرأى كسرى أنوشروان ـ وتفسيره بالعربية: مجدّد الملك ـ فيما ذكر ـ وهو ابن قباذ ـ ما رأى

من ارتجاس الإيوان، وخمود النيران ولم تكن خمدت قبل ذلك بألف عام. وسقطت من قصره أربع عشرة شرفة، وأخبره الموبذان ـ ومعناه القاضي أو المفتي بلغتهم ـ: أنه رأى إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادهم، وغارت بحيرة ساوة، فأرسل كسرى عبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيل الغساني، وكان سطيح من أخوال عبد المسيح ولذلك أرسله كسرى ـ فيما ذكر الطبري ـ إلى سطيح يستخبره علم ذلك ويستعبره رؤيا الموبذان، فقدم عليه وقد أشرف على الموت، فسلم عليه فلم يحر سطيح جواباً، فأنشأ عبد المسيح يقول:

أصم أم يسمع غطريف اليمن ... أم فاد فازلم به شأو العنن
يا فاصل الخطة أعيت من ومن ... أتاك شيخ الحي من آل سنن
وأمه من آل ذئب بن حجن ... أبيض فضفاض الرداء والبدن
رسول قيل العجم يسري للوسن ... لا يرهب الرعد ولا ريب الزمن
تجوب بي الأرض علنداة شزن ... ترفعني وجناً وتهوي بي وجن
حتى أتى غار الجآجي والقطن ... تلفه في الريح بوغاء الدمن
كأنما حثحث من حضى تكن

تكن: اسم جبل.

فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه، فقال عبد المسيح على جمل مشيح جاء إلى سطيح، حين أوفى على الضريح، بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان. رأى إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة وظهر صاحب الهراوة، وخمدت نار فارس، وغارت بحيرة ساوه، وفاض وادي سماوه، فليست الشام لسطيح شاماً، ولا بابل للفرس مقاماً، يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات وكل ما هو آتٍ آت. ثم قضى سطيح مكانه.

قوله ازلم: معناه قبض، قاله ثعلب. وقوله شأو العنن: يريد الموت وما عنّ منه. قاله الخطابي. وفاد: مات، يقال منه: فاد يفود، وأما يفيد فمعناه يتبختر.

وتقدم قبل هذا ذكر الفسطاط وهو اسم مصر المشهورة، سميت بهذا الاسم من أجل أن عمرو بن العاص رضي الله عنه لما نزل عليها وحاصر أهلها؛ ضرب فسطاطه بها. وهو الخباء. ثم تشاغل عن دخوله بالقتال والمحاصرة، فلما افتتح البلد وأراد النزول إلى الإسكندرية وجد في الفسطاط حماماً قد عشش فيه وباض. فكره أن يقوّضه فأمر بالخباء أن يبقى على حاله، ووكل به من يحفظه حتى يفرخ الحمام، فكان ذلك،

فسمي البلد بالفسطاط، من أجل ذلك. ذكر معنى هذا الخبر أبو عبيد البكري رحمه الله.

وجاء من ذكر الفسطاط في الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها دمشق من خير مدائن الشام. وتقدّم:

إذا القـــــوس وتـــــرها أيـــــد

وهو شعر حسن له معنى بديع أوله:

إذا القـــوس وتـــرها أيـــد رمـــى فأصـــاب الكـــلا والـــذرى
وأحـــيا بـــبلدته بلـــدة عفـــت بعـــد أن عفاهـــا الـــصرى

يعني بالقوس الذي يقول له الناس قوس قزح. ويقولون هو الملك الموكل بالسحاب، وقوسه هو الذي تراه في الجو ذا ألوان قبل نزول المطر. يقول: إذا الله عز وجل وتر هذا القوس لهذا الملك الأيد يعني القوي؛ أسقى الأرض، فأنبت الله به النبت، فرمى به في كلى الإبل وفي ذراها بالسمن والشحم. وقوله: وأحيا ببلدته بلدة. فالبلدة الأولى من المنازل ومطرها في أكثر الأحيان لا يختلف. والثانية: البلدة التي من الأرض. وعفت: كثرت، من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥] أي: بدلنا مكان الضر والبأس الرخاء والعافية، حتى عفوا، أي: كثروا. وفي الحديث من هذا اللفظ: أمره عليه الصلاة والسلام بإحفاء الشوارب وإعفاء اللحى أي: تكثيرها وتوفيرها.

تقدّم قوس قزح، كره بعض العلماء أن يقال كذلك. خرج القاسم بن سلام في كتاب آداب الإسلام له قال: لا تقولوا قوس قزح؛ فإن قزح شيطان، ولكن قولوا: القوس، وأما القزح: الموضع الذي بالمزدلفة فمعلوم. وسيأتي ذكر القوس في باب الواو إن شاء الله تعالى.

وتقدم ذكر الأيادي وأنها ثلاثة. خرج أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الأيدي ثلاث: فيد الله العليا ويد المعطي التي تليها ويد الآخذ السفلى، فأعط الفضل ولا تعجز عن نفسك.

وقال بعض الحكماء: الأيادي ثلاثة: بيضاء وخضراء وسوداء. فاليد البيضاء: الابتداء بالمعروف، واليد الخضراء: المكافئة، واليد السوداء: المن بالمعروف. ولي من قطعة كتبت بها إلى صاحب لي أهدى لي كتف شاة بيدها وكان اسمه عليّ، فقلت:

ثلاثـــة أيـــدٍ منـــنت بهـــا علـــي أبـــا حـــسن لا تحـــد
وذلـــك أنـــك أهـــديت لـــي فـــواحدة ذاك فاحـــسب وعـــد

وثانـــــية أن بـــــدأتم بهـــــا وثالـــــثة أن بعثـــتم بـــــيد

انظرها في التكميل.

وتقدم: يد بحر، وفسره ابن قتيبة في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه استأجر هو وأبو بكر رضي الله عنه من بني الدئل رجلاً هادياً خريتاً، فأخذ بهم يد بحر. قال يريد الساحل، لأن الطريق كان عليه. ومن هذا يقال للقوم إذا تفرقوا في البلاد: تفرقوا أيدي سبأ، يريد أخذوا طريق سبأ الذي مزقهم الله كل ممزق في البلاد.

قال والخريت: الماهر. بالدلالة والدلالة جميعاً، وإنما سمي خريتاً لأنه يهتدي بمثل خرت الإبرة ولا يخفى عليه شيء. وجاء في البخاري اسم هذا الدليل أرقط. ويقال أريقط. وللفقيه الخطيب أبي محمد عبد الوهاب في الخريت:

رب غـــاو كأنـــه عفـــريت ذو مخـــاز إلـــى الخـــنا خـــريت

وتقدم أيضاً اليد: العطاء. جاء في الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم لنسائه: أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً. فكانت سودة، وكانت تحب الصدقة، كذا قال: سودة، وفي موضع آخر: زينب بنت جحش. وفي آخر: صفية. فالله أعلم رضي الله عنهن.

وتقدَّم: يداك أوكتا وفوك نفخ. يقال: هو رجل نفخ زقاً وأوكاه وسبح عليه حتى إذا لجج في البحر انحل الوكاء فاستغاث برجل لينجيه من الغرق، فقال له ذلك. وقيل: إنه رجل أتى إلى بئر وعليه بنات حي من أحياء العرب فجعل ينفخ في قربهن ويوكي يمزح معهن، فرآه بعض أهل الحي، فحملته الغيرة على قتله، فأخبر بذلك أهل المقتول. فقال رجل منهم ذلك، أي: لا يؤخذ له بثأر.

قلت: ثم صار هذا مثلاً لكل من فعل فعلاً يلام عليه، حتى رأيت الهمداني قد ذكره في تفسير سورة يوسف عليه السلام: إن يوسف لما قال: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣]؛ أتاه جبريل عليه السلام فقال له: لمَ قلت كذا؟ هلا قلت: رب العافية أحب إليّ، يداك أوكتا وفوك نفخ.

وللخطيب أبي محمد عبد الوهاب رحمه الله كلام منتظم في هذه اللفظة جواباً لي على رسالة كتبتها إليه. وتدخل في ملح هذا الكتاب المستملح عند ذوي الألباب، المستلحق في آخر الأبواب، وسببها أني كنت قد اكتريت رجلاً اسمه يحيى لخدمة العصير وذلك في رمضان. وكان رحمه الله كثير التفلت بعد الربط قليل التلفت إلى الشرط، إن لم يختبط لم يرتبط، بل ربما حال في الحال تاب الله ذو الجلال علينا وعليه من هذه الخلال. فكتبت إليه أستفهمه عن حاله. بعد بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي الكريم، وبعد كلام كثير:

كتبته مستفهماً عن يحيى لا ولت في عزّ وبرّ تحيى
هل أنت يا يحيى عليّ باقي أم قد قرأت سورة الطلاق

إلى آخر الرجز نحو مائة بيت. فكتب لي رضي الله عنه كذلك برجز مطول فيه:

وأنت عندما اكتريت يحيى كجاهل بالعوم أوكى نحيا
من بعد نفخ المرء ملء فيه والأمر فيه لو درى ما فيه
حتى إذا أحكم هذا الأمرا وقد أتى شيئاً لعمري أمرا
يمم عجلان مهول اليم فكان أتاً يا له من أم
يتاه في لهو وفي النظام والبحر عند ذاك في اغتلام
إذ فتح الزق هناك فاه وزج كف الجهل في قفاه

إلى آخر الرجز. انظر الحكايتين والرجزين بكمالهما في التكميل.

وتقدّم الكلام في الدال غير المعجمة. فمن ذلك داء وجمعه أدواء، والداء من قدر الله تعالى يخلقه متى شاء وفيما شاء، وفيه خير كثير إذا كان في الجسم، وشر كثير إذا كان في القلب، فعلل القلوب هي العلل المهلكة للدين. نعوذ بالله من البلاء قليله وكثيره ظاهره وباطنه. ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه خلق الداء وخلق الدواء، وجعل لكل علة ما يزيلها، حتى الكفر دواؤه الإيمان. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بدائكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فإن داءكم الذنوب. ثم قال: ألا أخبركم بدواء دائكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فإن دواء دائكم الاستغفار. فالحمد لله على جميع نعمه الظاهرة والباطنة.

جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكل داء دواء. فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله تعالى. وقال صلى الله عليه وسلم: تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء. أو كما قال عليه الصلاة والسلام. وقال صلى الله عليه وسلم: إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه، فإن في أحد جناحيه داء، وفي الآخر شفاء. خرجه البخاري رحمه الله

وزاد أبو داود: إنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء. وقال أبو عبيد: وإنه يقدم السم ويؤخر الشفاء. وجاء في حديث آخر في الطعام وفي آخر في الشراب، وجاء في بعض طرقه: فامقلوه ومعناه: اغمسوه.

والمقل في غير هذا الموضع: النظر. يقال: ما مقلته عيني هذا اليوم. وقد تداوى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العقرب وغيرها.

وروي عنه أنه كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فكان يغلفه بالحناء، وكان إذا

خرجت به قرحة جعل عليها حناء. وقد جاء عنه في حديث أهل البيت: أنه كان يكتحل كل ليلة، ويحتجم كل شهر، ويشرب الدواء كل سنة، وقد داوى غيره وقطع لبعضهم عرقاً، وكوى آخر وأمر بالدواء، وقال: تداووا عباد الله. وأمر بالحجامة فقال: احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين، لا يتبيغ بكم الدم. ذكر ذلك أبو طالب في كتاب قوت القلوب. وقال: أحسبه لأهل الحجاز خاصة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتداوى كما تقدّم. وهو رأس المتوكلين وإمام العابدين، وكان رحمة للعالمين.

فإذاً لا يقدح التداوي في التوكل إذا كان المتوكل عالماً وقصد بالتداوي اتباع السنة كما قال عليه الصلاة والسلام: من رغب عن سنتي فليس مني. والتداوي رخصة وسعة. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]. والله تعالى يحب أن يؤخذ برخصه، كما يحب أن يؤخذ بعزائمه.

وقد صام رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر وأفطر. وكان ظاهره للخلق ليقفوا آثاره، فأفطر لأجل الناس لأن الصوم قد كان شق عليهم، وامتنع قوم من الفطر مع المشقة فقال فيهم: أولئك العصاة.

فإذا نوى المتداوي اتباع السنة؛ ونوى حكم الله تعالى في العقاقير التي أودعها سبحانه المنافع؛ واستعجل البرء للطاعة والخدمة لمولاه والسعي في أوامره؛ إذ كانت العلل قاطعة عن التصرف في العمل، وشاغلة للنفس عن الشغل في الآخرة، كان فاضلاً في فعله. ولم يقدح ذلك في توكله لعلمه أن لكل شيء قدر وأن الدواء من قدر الله، وأن النافع والضار والمبتلي والمعافي هو الله وحده، ولكن يعافي بسبب وبغير سبب، كما يرزق بواسطة وبغير واسطة.

كما يروى أن موسى عليه السلام اعتل علة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته فقالوا: إن دواء هذه العلة معروف مجرب، وإنا نتداوى به فنبرأ. فقال: لا أتداوى. فدامت علته فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك، فقال: داووني بما ذكرتم. فداووه فبرئ فأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله إليه: يا موسى أردت أن تبطل حكمتي لتوكلك عليّ، من أودع العقاقير منافع الأشياء.

وفي بعض الأخبار أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكى إلى الله الضعف فأوحى الله تعالى إليه: كل البيض، ولآخر: كل اللحم باللبن، فإن فيهما القوة. قال الشيخ أحسبه للضعف عن الجماع. فهذه طريقة درج عليها طائفة من العمال، وثم طريقة أخرى أقوى من هذه للأقوياء، لأن في الدين طريقتين: طريق تبتل وعزيمة، وطريق توسع ورخصة، فمن عوفي سلك الطريق الأشدّ وهو الأقرب والأعلى، وهذا

للمقربين، وهم السابقون، ومن ضعف سلك الطريق الأدنى وهو الأوسط إلا أنه أبعد. وهو لأصحاب اليمين، وهم المقتصدون، وفي المؤمنين أقوياء وضعفاء ولينون وأشدّاء. وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير.

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً ومدحهم أنهم لا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون. وذكر أنهم يدخلون الجنة بغير حساب. وقد نهى عن الكي في غير حديث وقال لرجل أراد أن يداوي أخاه إلا أنه مات من علته. فقال: أما لو برئ لقلت أبرأته، لعلمه بما يهجس في بعض النفوس أن الشفاء والنفع من قِبل الدواء وذلك من الشرك، وكره المحققون بالتوحيد التداوي، خشية دخول ذلك عليهم. وروي عن موسى عليه السلام أنه قال: يا ربّ ممن الدواء والشفاء؟ قال: مني. قال: فما يصنع الأطباء؟ قال: يأكلون أرزاقهم، ويطيبون نفوس عبادي حتى يأتي شفائي أو قبضي. وقد كان ابن حنبل رضي الله عنه يقول: أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق؛ ترك التداوي من الأشربة وغيرها.

واعتل عمران بن حصين رضي الله عنه فأشاروا عليه أن يكتوى فامتنع، فلم يزالوا به وعزم عليه زياد بذلك، وكان أميراً حتى اكتوى، فكان يقول: كنت أبصر نوراً وأسمع صوتاً، وأسمع تسليم الملائكة عليّ، فلما اكتويت انقطع عني ذلك. وفي خبر: كانت الملائكة تزوره فيأنس بها حتى اكتوى. فكان يقول: اكتوينا كيات فوالله ما أفلحنا ولا أنجحنا. ثم تاب من ذلك وأناب إلى الله تعالى فردّ الله عليه ما كان يجد من أمر الملائكة.

ومرض أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقيل له: لو دعونا لك طبيباً، فقال: قد نظر إليّ الطبيب فقال: إني فعال لما أريد. وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم للرجل الذي قال: إني طبيب: أنت رفيق، والله عز وجل هو الطبيب، من رواية السلفي رحمه الله. وقيل لأبي الدرداء رضي الله عنه في مرضه: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قيل: فما تشتهي؟ قال: مغفرة ربي. قيل: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني. انظر قوله: الطبيب أمرضني، يعني الله عز وجل.

وقيل لأبي ذر رضي الله عنه، وقد رمدت عيناه: لو داويتهما. قال: إني عنهما لمشغول. قيل: فلو سألت الله أن يعافيك. قال: أسأله فيما هو أهمّ إليّ منهما. وقيل لأبي محمد: متى يصح للعبد التوكل؟ قال: إذا دخل عليه الضر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلاً بحاله، وينظر إلى قيام الله عليه. وقد كان أصاب الربيع بن

خيثم الفالج. فقيل له: لو تداويت. فقال: قد هممت ثم ذكرت عاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً كانت فيهم الأوجاع وكانت فيهم الأطباء، فهلك المداوي والمداوى ولم تغن الرقى شيئاً. وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يشفي منه فيما مضى
ذهب المداوي والمداوي والذي جلب الدواء وباعه ومن اشترى

وقال آخر:

عزم الفناء على ترحل من ترى فالخلق بين مقدّم ومؤخر
ذهب المداوي والمداوي والذي جلب الدواء وباعه والمشتري

وقال آخر:

تؤمل أن تعمر عمر نوح وأمر الله يحدث كل ليله

وقد كان أصاب عبد الرحمن بن يزيد الفالج، فعطل عن القيام. فسأل الله تعالى أن يطلقه في أوقات الصلوات، ثم يرده إلى حاله بعد ذلك. فكان إذا جاء وقت الصلاة فكأنما نشط من عقال. فإذا قضى الصلاة رجع إليه الفالج كما كان قبل ذلك.

ومن لم يتداوى من الصديقين والسلف الصالحين أكثر من أن يحصى. وسئل سهل عن شرب الدواء. فقال: كل من دخل إلى شيء من الدواء فإنما هو سعة من الله لأهل الضعف، ومن لم يدخل فيه فهو أفضل، لأنه إن أخذ شيئاً من الدواء ولو كان الماء البارد سئل عنه لمَ أخذت. ومن لم يأخذه فليس عليه سؤال، والأصل في هذا أن ذرّة من أعمال القلوب مثل التوكل والرضا والصبر أفضل من جبال من أعمال الجوارح. وكان يقول: علل الأجسام رحمة، وعلل القلوب عقوبة. وقال مرة: أمراض الجسم للصدّيقين.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: نجد المؤمن أصح شيء قلباً وأمرضه جسماً، ونجد المنافق أصح شيء جسماً وأمرضه قلباً. وقد قيل: لا يخلو المؤمن من علة في جسمه أو قلة في ماله. وقيل: لا يخلو من علة وذلة. وللعبد إن لم يتداو أعمال حسنة منها أن ينوي الصبر على بلاء الله والرضا بقضائه والتسليم لحكمه، إذ قد يحسن عنده لأنه مؤمن إذ قد عرف الحكمة في ذلك والخيرة في العافية لأنه حكيم، ومنها أن مولاه أعلم به وأحسن نظراً واختياراً، وقد حبسه وقيده بالأمراض عن المعاصي. كما يروى عن الله تعالى: الفقر سجني والمرض قيدي أحبس بذلك من أحبه من خلقي، والإنسان يطغى بالعوافي كما يطغى بالمال.

قال بعضهم: إنما حمل فرعون على أن قال: أنا ربكم الأعلى، طول العوافي.

لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولا حم له جسم ولم يضرب عليه عرق، فادعى الربوبية، ولو أخذته الشقيقة والمليلة في كل يوم لشغله ذلك عن دعوى الربوبية.

ومن فائدة المرض أنه يكفّر الذنوب، فإذا كره الأمراض بقيت ذنوبه عليه موقورة. وفي الخبر: لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة. وفي خبر: حمى يوم كفارة سنة. وذلك لأن في الإنسان ثلاثمائة وستين مفصلاً تدخل حمى اليوم في جميع المفاصل، وقد تقدّم.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]، قيل: ظاهرة العوافي، وباطنة: البلاوي، لأنها نعم في الأخرى. وروي أن موسى عليه السلام رأى رجلاً عظيم البلاء فقال: يا رب ارحمه، فأوحى الله عز وجل إليه كيف أرحمه مما به أرحمه. وجاء في الحديث من طريق أهل البيت: إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه وإن رضي اصطفاه.

ومن فوائده: أن الملك يكتب له مثل أعماله الصالحة التي كان يعملها في صحته وأنه يجري له من الحسنات مثل ما كان يجري له على أعماله. وفي الخبر: يقول الله لملائكته: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل فإنه في وثاقي إن أطلقته أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي.

ومن فوائده: تجديد التوبة والحزن على الذنوب، وكثرة الاستغفار منها، وحسن التذكرة وقصر الأمل، وكثرة ذكر الموت. وقد كانوا يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يصابوا فيه بنقص من نفس أو مال. ويقال: لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوماً أن يروّع بروعة أو يصاب بنكبة. وكانوا يكرهون فقد ذلك في ذهاب هذا العدد من غير أن يصابوا فيه بشيء. لكن هذا الفضل كله إذا لم يشتك المريض مولاه إلى العبيد الذين لا يغنون عنه من الله شيئاً.

ففي الخبر: إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعوّاده. فإن حمد الله وأثنى عليه دعوا له، وإن شكا وذكر شرّاً قالا كذلك يكون. وعن طاوس ومجاهد رضي الله عنهما: يكتب على المريض أنينه في مرضه. قالوا وكانوا يكرهون أنين المريض لأنه إظهار معنى يدل على شكوى. وكره بعض العلماء العيادة خشية الشكاية، وخوف الزيادة في القول أن يخبر عن العلة بأكثر منها، فيكون في ذلك كفر للنعمة.

وكان بعضهم إذا مرض أغلق أبوابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ، فيخرج منه فضيل ووهيب. وكان بشر يقول: أشتهي أن أمرض بلا عوّاد. وقال فضيل: ما أكره العلة

إلا لأجل العوّاد. وهذا الباب كبير والكلام فيه كثير.

ولما لم أجد في البيت قولاً أصرفه ولا لغة أفسر
رجعت إلى حديث الناس فاقبله واقرأه ويسر ولا تعسر
ولكن بدئي أرجع للذي قد بدأت أتممه يا رب يسر

فصل:

وأما ذا - بذال معجمة - فمن فوائده قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢] بلفظ الغائب وهو حاضر قالوا فيه أقوالاً، منها: أن ذلك بمعنى هذا، وقيل: المعنى هذا القرآن ذلك الكتاب الذي كنتم تستفتحون على الذين كفروا. ومعنى تستفتحون: تستنصرون. وقال الكسائي: قال ذلك الكتاب لأن الكتاب من السماء والرسول من الأرض. وقال بعض المفسرين: ذلك الكتاب إشارة إلى الكتاب الذي جاء به جبريل عليه السلام في نمط من ديباج فيه كتاب، فقال له: اقرأ.

وقيل: إنها إشارة إلى ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴾ [البقرة: ١] لأن هذه الحروف المقطعة تضمنت معاني الكتاب كله فهي كالترجمة له.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ﴾ [مريم: ٦٣] وفي موضع آخر: ﴿ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] الجنة بلفظ الغائب. وقال في النار: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ [يس: ٦٣] بلفظ الحاضر أقوالاً أحسنها عندي ما ذكر ابن خالويه رحمه الله: أشار الله تعالى إلى جهنم بهذه ليخوف بها، ويؤكد التحذير منها وجعلها بلفظ الإشارة القريبة كالحاضرة التي ينظر إليها. أعاذنا الله منها برحمته.

وتقدم قولهم: فلان قليل ذات اليد. خرج ثابت رحمه الله عن الحسن رضي الله عنه: من وسع عليه في ذات يده ولم يخف أن يكون ذلك مكراً فقد أمن مخوفاً، ومن ضيق عليه في ذات يده ولم يرج أن يكون ذلك نظراً من الله تعالى فقد ضيع مأمولاً. انتهى كلامه رضي الله عنه.

قلت: قد ذمّ الله تعالى من تخلق بغير هذا. قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥-١٧]، وقال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ

وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]. وقال تعالى: ﴿ عَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣]، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف: ٢٤] الآية. إلى غير ذلك من الآي كثير.

فينبغي للعبد أن يشكر الله على كل حال، ويتهم نفسه ويخاف ذنبه ولا يأمن من مكره، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. ولذلك قال بعضهم: إنما الراحة عند أوّل قدم يضعه في الجنة. جعلنا الله تعالى ممن خشي ربه وخاف ذنبه بمنه ويمنه.

وتقدّم ذا. وفي القرآن منه كثير، وفي الحديث أيضاً، ولكن لا بد من شاهد ولو ذكر حديث واحد. انظر قول ثمامة بن أثال للنبي صلى الله عليه وسلم إذ أخذ أسيراً فربط إلى سارية من سواري المسجد، فمر به النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: خير يا محمد إن تقتل؛ تقتل ذا دم، وإن تنعم؛ تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. قالها ثلاث مرات في ثلاثة أيام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. والله يا محمد ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ. وقال مثل ذلك في الدين، وفي البلد، وتم على إسلامه. وعيره أهل مكة بالإسلام فقال لهم: أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم قام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً حميداً حين ارتد أهل اليمامة مع مسيلمة الكذاب. فقال: يا بني حنيفة أين عزبت عقولكم ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ١-٣] أين هذا من: (يا ضفدع نقي، كم تنقين، لا الشراب تكدّرين، ولا الماء تمنعين) فيما كان يهذي به مسيلمة. فأطاعه منهم ثلاثة آلاف وانحازوا إلى المسلمين ففت ذلك في أعضاد بني حنيفة.

وقد صنع سهيل بن عمرو رضي الله عنه نوعاً من هذا بمكة شرفها الله تعالى؛ لما انتهى إليهم موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتداد العرب، تكلم بمكة

أقوام بكلام قبيح، وارتجت مكة. فسمع أبو قحافة والد أبي بكر رضي الله عنهما الرجفة فقال: ما هذا؟ فقالوا: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فمن ولي بعده؟ قالوا: ابنك. قال: ورضي بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة؟ قالوا: نعم. قال: اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت.

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه حين بلغه موت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وكان غائباً، قدم فدخل عليه فقبله وقال: بأبي أنت وأمي أما الموتة التي كتب الله عليك قد ذقتها. ثم خرج على الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس؛ من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وكان الناس قد دهشوا لموته، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات، حتى قدم أبو بكر فقال مقالته المتقدمة. قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت؛ حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه يومئذ وأخذها الناس عن أبي بكر رضي الله عنه، فإنما هي في أفواههم. فقام سهيل بن عمرو رضي الله عنه بمكة حين بلغه موت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقال بعض أهل مكة ما قالوا؛ فقال مثل خطبة أبي بكر بالمدينة كأنه كان سمعها قال: أيها الناس: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وقد نعى الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إليكم وهو بين أظهركم ونعاكم إلى أنفسكم، فهو الموت حتى لا يبقى أحد. ألم تعلموا أن الله عز وجل قال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآية. و: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. و: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨] فاتقوا الله واعتصموا بدينكم وتوكلوا على ربكم فإن دين الله قائم، وكلمته تامة وإن الله ناصر من نصره ومعز دينه، وقد جمعكم الله على خير رجل.

فلما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه منطقه قال: أشهد أن ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حق لما أسرنا سهيلاً - أي ابن عمرو - يوم بدر، وكان أعلم الشفة السفلى، قلت: يا رسول الله انزع ثنيته فلا يقوم عليك خطيباً أبداً في موطن. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً. وعسى أن يقوم

مقاماً لا تذمه أبداً، قال عمر رضي الله عنه: هذا والله هو المقام.

مقلوب البيت حرف بيْن الفيْن

وأدا وادا وأذا وأدى وآذى وذل ودل

أما الكلمات الأربع فقد تقدّم الكلام عليها في البيت قبلها مرفوعة، وما زدت على أن نصبتها هنا.

وأما الكلمة الخامسة فأدى، وهي: أفعل، من أدّى فلان دينة أداءً وتأدية؛ إذا قضاه. وتقول: فلان أدّى الأمانة عن فلان. ومنه في الحديث: يقول عن نفسه صلى الله عليه وسلم: قد علموا أني من أتقاهم وأداهم للأمانة.

ويكون أدى أيضاً من الأداة وهي السلاح. تقول: أدّى فلان السلاح إذا لبسه، فهو مؤد، بالهمز، أي: شاك. وأما مود بلا همز فإنه من أودى إذا هلك. وتقول: أديت للسفر فأنا مؤد بالهمز أيضاً، إذا تهيأت له، وأخذت لذلك الأمر أدية، ونحن على أدى للصلاة، أي: على تهيؤ. وأدى أيضاً بمعنى أعان وأنصف. ومنه قول الأعرابي: من يؤديني على أبي الحكم؟ يعني أبا جهل، وقد كان مطله بحقه. قال بعض أهل اللغة: هذه الهمزة مبدلة من عين إنما هو أعدى، ومعنى يؤديني على هذا يعديني. والأدى الآلة، وأداه يؤديه: قوّاه. وأدى الرجل: قوي على الأداة فهو مؤد بالهمز كما تقدم. وزد على هذا الشكل أدا المتقدم في قوله:

أبـــــرح أدا الـــــــصلتان أدا

وإن كانت الألف عوضاً من التنوين فهو من الشكل. وأدى فلان دينه، وقد تقدم وهو يتزن. ومما لا يتزن أيضاً أداه المصدر المتقدّم. وأدى الذئب الغزال يأدو، وتقدم. وقال الشاعر:

أدوت لـــــه لآخـــــذه وهـــيهات الفتـــى حـــذرا

ومن هذا الشكل أدى الرجل يدي إذا صار في جوفه الداء. قال يعقوب: يقال قد ديت يا فلان فأنت تداء داء.

وقال غيره: وأدت فأنت مدي، إذا أصابه الداء. وأدأته أنا: أصبته، بداء يتعدى ولا يتعدى لغتان. وقولهم: به داء ظبي، أي: ليس به داء كما ليس بالظبي داء.

والكلمة السادسة: آذى يؤذي من الإذاية. تقول: آذى يؤذي أذى وإذاية وأذية وتأذية وأذيت له أذى. قال الشاعر:

لقـــد أذوك وودوا لـــو تفـــارقهم أذى الهراســـة بـــين الـــنعل والقـــدم

ومما لا يتزن أذى من قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾

[البقرة: ٢٢٢] وإذا الظرف المتقدّم الذكر وفي القرآن منه كثير. وإذا الحرف الناصب بالألف ومنهم من يكتبها إذن. وقد يجازى بها كما قال الشاعر:

إذا جـــاء الـــشتاء فأدفئونـــي

وتأتي إذا لشيء يوافقك. كقولك: خرجت فإذا زيد قائم. المعنى خرجت ففاجأني زيد في الوقت بقيام. ومثلها إذ ولا يليها إلا الفعل الواجب. تقول: بينا أنا كذا إذ كان كذا.

فصل:

من فوائد هذا الباب تقدّم أذى. وفي الحديث الذي جاء فيه ما ذكر الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبان قطريان لميظان فكان إذا قعد فعرق ثقلا عليه، فقدم بزّ من الشام لفلان اليهودي فقلت: لو بعثت إليه فاشتريت منه ثوبين إلى الميسرة، فأرسل إليه. فقال: قد علمت ما يريد، إنما يريد أن يذهب بمالي أو بدراهمي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذب قد علم أني من أتقاهم لله وأداهم للأمانة. ووقع في الطرة في كثير من النسخ، الرواية: أداهم، والصواب: أوداهم.

وتقدم إذا الحرف الذي يجازى به. ومن قول الشاعر:

إذا قــصرت أسـيافنا كــان وصــلها خطـانــا إلــى أعدائــنا فنــضارب

وينظر هذا البيت إلى قول بعضهم، وقد عرضه أميره في الجند وقال له وكان له سيف قصير: إن سيفك هذا لقصير. فقال: خطوة تطيله. فقال: المشي إلى الهند أقرب من تلك الخطوة. أو كما قال. مثل قول كعب بن مالك:

نــصل الــسيوف إذا قــصرن بخطــونا قــدماً ونلحقهــا إذا لــم تلحــق

ومما قيل في الإقدام:

وقولــي كلمــا جــشأت وجاشــت رويــدك تحمــدي أو تــستريحي

وقد تقدّم قول الآخر:

وقولــي كلمــا جــشأت لنفــسي مــن الأبطــال ويحــك لــن تراعــي

وتقدّم ذكر الإذاية والأذى. وقد جاء في القرآن والحديث منه كثير. قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٢٢] أي: قذر ونتن والله أعلم. وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٥٧]و: ﴿ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ ﴾ [الأحزاب: ٦٩] وجاء في الحديث من قول النبي صلى الله عليه

وسلم: ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم.

وفي حديث آخر: كذبني ابن آدم، وشتمني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الرحمن ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفؤاً أحد.

وجاء في الحديث أيضاً حكاية عن الله تعالى: من آذى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، أما الذي في حق البشر من هذا فممكن، وأما الذي في حق الله تعالى فيحمل على التأويل، إذ يتقدس سبحانه أن يناله ضرر أو يلحقه إذاية من مخلوقٍ، كما يتقدس سبحانه أن يصل إليه نفع أو تدركه مصلحة، هو الغني عن المسرة المتعالي عن المضرة، وإنما يحمل الحديث والله أعلم؛ أنه يصبر على الأذى أي: يترك المعاجلة بالأخذ، ويمهل العاصي ولا يعاجله بالعقوبة، وذلك أيضاً لعلمه أنه سيتوب ويقلع، أو يملي له ليزداد إثماً، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

ومن أسمائه تعالى: الصبور، وهذا معنى قوله: ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله تعالى. ويحتمل أن تكون الإذاية المذكورة في القرآن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٥٧] على حذف المضاف. أي: يؤذون أولياء الله ورسله. كما قال تعالى: من آذى لي ولياً، الحديث. وهذا شائع في لسان العرب. قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهل القرية. وقس على هذا: ﴿ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة: ٥] و: ﴿ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال: ١٣]، وما كان مثله فيحمل منه ما كان في المخلوقين على الحقيقة وما كان في الله على المجاز والتأويل المتقدم، أو يكون يشاق الله بمعنى يعادي، لأن من شاقّك أو حادّك فقد آذاك، أو يكون على جهة المجازاة مثل: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٥٤] و﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]، و﴿ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥]، و﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧]، أي: جازاهم بما جازوه، وعاملهم بما عاملوه، على معنى الموافقة والمطابقة.

وكذلك ما ورد منه في الحديث مثل قوله عليه الصلاة والسلام: يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة. وكما قال في الحديث الآخر:

يضحك الله منكم أزلين لقرب الغيث منكم. قال: فقال رجل من باهلة: يا رسول الله وإن ربنا ليضحك؟ قال: نعم. قال: فلا والله لا عدمنا الخير من ربٍّ يضحك. وبعد هذا يأتي تمام الحديث عن لقيط بن المنتفق أكثر من هذا، وفيه ألفاظ كثيرة من هذا الباب. وسيأتي تفسير أزلين في باب الزاي إن شاء الله تعالى.

وكما جاء في الحديث الآخر: لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم يجد راحلته بالفلاة. وقوله عليه الصلاة والسلام: ما يوطئ رجل المساجد للصلاة والذكر إلا يتبشبش الله به كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم. وقوله: من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً ومن تقرّب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً وإذا أقبل إليّ يمشي أقبلت إليه أهرول. وما جرى هذا المجرى. كلها كنايات وتقريب أمثلة. فالضحك كناية عن الرضا. وهذا خلق الكريم. ألم تسمع قول الشاعر:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ... فيخصب عندي والمحل جديب

معناه: يتلقاه بكل مبرة وكل كرامة، وإن لم يكن هناك الضحك حقيقة.

وكذلك التقرب المذكور إنما هو ضرب مثل كناية عن الوصلة والمحبة، ألا تراه ذكر الشبر والباع والذراع، وليس ثم من ذلك شيء حقيقة، نعم ولا عندك وإنما هو كناية عن المجازاة منه على الطاعة التي أوجدها منك. وهذا هو الكريم المحض يعطي ويمنح ثم يثني على الفاعل ويمدح، والشيء يعرف بضده. اعلم أن ضد الضحك والرضا الغضب والسخط. فكما تقول رضي الله عن فلان وضحك إليه، كذلك تقول غضب على فلان وسخط عليه. ولا تقسه على رضاك وغضبك، لكون ذلك منك بتغير في أشكالك من إشراق في وجهك وتهلل عند الرضا، وتزبد وانتفاخ أوداج عند الغضب.

والله سبحانه يتعالى عن التغير والتبدل. وإنما مثل ذلك على جهة التقريب في حق الله تعالى، وله المثل الأعلى، أن تدخل دار الملك في المخلوقين وهو قد احتجب عن الرعية. فترى موائد منصوبة وأطعمة موضوعة، ووصائف وولداناً، فتعلم أن الملك راضٍ وإن لم تر وجهه، ثم تدخل تارة فترى سيوفاً وأنطاعاً وقيوداً وأغلالاً وسياطاً وسوداناً، فتعلم أن الملك غضبان وإن لم تره. ألم تسمع قول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يوم القيامة: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، الحديث. إنما يقولون ذلك لما يرون من الهول ويتوقعون من العذاب. نعوذ بالله من غضبه. وقس على هذا جميع الباب.

وقال المازري رحمه الله تعالى في معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن

الله لا يمل حتى تملوا، قال: الملل الذي بمعنى السآمة لا يجوز على الله تعالى. وقد اختلف في تأويل هذا الحديث. قيل: إن ذلك على معنى المقابلة، أي: لا يدع الخير حتى تدعوا العمل. وقيل: حتى هنا بمعنى الواو فيكون قد نفى عنه الملل. ويكون لا يمل وتملوا. وقيل: حتى بمعنى حين. وسيأتي طرف منه في باب الميم في قافية مل ومل. ومثله: ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته. وقال المازري أيضاً: معناه ما أحد أمنع للفواحش من الله تعالى. والغيور يمنع حريمه، وكلما زادت غيرته زاد منعه، فاستعير لمنع الباري سبحانه عن معاصيه، غيرته مجازاً واتساعاً، وخاطبهم بما يفهمونه. وقع هذا الحديث في صلاة الكسوف وفسره بما تقدم.

وزاد فائدة كبيرة أذكرها لك، إذ هذا الكتاب مبني على جلب الفوائد: قال رضي الله عنه: ذكر فيها أن الركوع كثر فيها ليكمل في ركعتين ركوع أربع ركعات كما جعل في تكبير صلاة العيدين تكبير أربع ركعات، كما جعلت الخطبة في الجمعة عوضاً من الركعتين ليكون الفضل والكمال وتضعيف الأجر لهذه الأمة، والحمد لله.

رجع الكلام إلى المعنى الأول: وفي معنى ما تقدم قوله عليه الصلاة والسلام: إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قِبل وجهه فإن الله تبارك وتعالى قِبل وجهه إذا صلى. إنما معناه ثوابه ورحمته. وجاء في موضع آخر: إذا صلى أحدكم واجهته الرحمة. فما وجدت من هذا المعنى فاحمله على ما يليق بجلاله وعظمته ونزهه عن سمات البشر ونقصهم. فإنه قدوس عن النقائص، متعال عن المنافع والمضار سبحانه وتعالى. وسيأتي كثير من هذا إثر حديث لقيط بن عامر بن المنتفق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كنت وعدتك بذكره فهاكه بكماله.

قال ابن عبد ربه رحمه الله: وفد لقيط بن المنتفق إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه صاحب له يقال له نهيك بن عاصم بن المنتفق. قال لقيط: فخرجت أنا وصاحبي حتى قدمنا المدينة لانسلاخ رجب، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من صلاة الغداة، فقام في الناس خطيباً فقال: أيها الناس ألا إني ما خبأت لكم صوتي منذ أربعة أيام إلا لأسمعكم اليوم إلا مثل من قبل امرئ بعثه قومه فقالوا: اعلم لنا ما يقول رسول الله الآثم لعله أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه الضلال. ألا إني مسؤول هل بلغت؟ ألا اسمعوا ألا اجلسوا. فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره قلت: يا رسول الله ما عندك من علم الغيب؟ قال فضحك لعمر الله وهز رأسه وعلم أني أبتغي سقطة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ضن ربك بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله. وأشار بيده. قلت: ما هن يا رسول الله؟

قال: علم المنية، قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه، وعلم المنيّ متى يكون في الرحم قد علمه ولا تعلمونه، وعلم ما في غدٍ قد علم ما أنت طاعم غداً ولا تعلمه، وعلم يوم الغيث يشرق عليكم أزلين مشفقين فيظل يضحك قد علم أن غوثكم قريب. قال لقيط: لن نعدم من ربك يضحك خيراً. وعلم يوم الساعة. قلت: يا رسول الله إني سائلك عن حاجتي فلا تعجلني. قال: سل عما شئت. قلت: يا رسول الله قد علمنا ما تعلم الناس وما نعلم، فإنا من قبيل لا يصدّقون تصديقنا. أخبرنا عن مذحج التي تدنو علينا وخثعم التي توالينا، وعشيرتنا التي نحن منها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلبثون ما لبثتم ثم يتوفى نبيكم، ثم تلبثون ما لبثتم، ثم تبعث الصيحة، فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات، والملائكة الذين عند ربك، فيصبح ربك يطوف في الأرض وقد خلت عليه البلاد، فيرسل ربك بهضب[١] من عند العرش، فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى تلقيه من قبل رأسه، فيستوي جالساً، ثم يقول ربك مهيم لما كان فيه، فيقول: يا رب بعيد عهد بحياة جسمه حديث عهد بأهله. فقلت: يا رسول الله كيف يجمعنا بعد ما يمزقنا البلى والرياح والسباع؟ قال: أنبئك بمثل ذلك في آلاء الله، الأرض أشرفت عليها مدرة يابسة. فقلت: لا تحيا هذه أبداً، ثم أرسل ربك عليها السماء فلم تلبث إلا أياماً حتى أشرفت عليها فإذا هي شربة واحدة[٢] ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يجمعكم من الماء على أن يجمع نبات الأرض، فتخرجون من الأصواء من مصارعكم فتنظرون إليه ساعة وينظر إليكم. قال فقلت: يا رسول الله كيف ونحن ملء الأرض وهو واحد ينظر إلينا وننظر إليه. قال: أنبئك بمثل ذلك في آلاء الله، الشمس والقمر آية صغيرة ترونهما ساعة واحدة ويريانكم لا تضامون في رؤيتهما، ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يراكم وترونه منهما على أن تروهما ويريانكم. قال فقلت: يا رسول الله فما يفعل بنا ربنا إذا لقينا؟ قال: تعرضون عليه بادية له صفحاتكم لا تخفى عليه منكم خافية، فيأخذ ربك بيده غرفة من الماء فينضح بها قِبلكم، فلعمر إلهك ما تخطئ وجه واحد منكم منها قطرة. فأما المسلم فتدع وجهه مثل الريطة البيضاء، وأما الكافر فتخطه بمثل الحميم الأسود. ثم ينصرف نبيكم وينصرف على أثره الصالحون. قال: فتسلكون جسراً من النار يطأ أحدكم الجمرة يقول: حس، يقول: ربك ويه، ألا فتطلعون على حوض الرسول لا يظمأ

---

(١) الهضب: المطر.

(٢) قوله شربة واحدة: يريد أن الماء قد كثر، فمن حيث أردت أن تشرب شربت. ويروى بالياء: وهي الحنظلة، أراد أن الأرض اخضرت بالنبات فكأنها حنظلة. كذا في النهاية.

والله ناهله. فلعمر إلهك ما يبسط أحد منكم يده إلا وقع عليه قدح يطهره من الطوف[١] والبول والأذى، وتخسف الشمس والقمر فلا ترون منهما أحداً. قال فقلت: يا رسول الله فبم يبصر يومئذٍ؟ قال: بمثل بصرك ساعتك هذه وذلك مع طلوع الشمس في يوم سترته الأرض أو واجهته الجبال. قال فقلت: يا رسول الله فبم نجزى من حسناتنا وسيئاتنا؟ قال: الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها أو تغفر. قال فقلت: يا رسول الله فما الجنة أم ما النار؟ قال: لعمر إلهك إن للنار سبعة أبوابٍ ما منهن بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً، وإن للجنة ثمانية أبواب ما منهن بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً. قال فقلت: يا رسول الله فعلام نطلع من الجنة؟ قال: على أنهار من عسلٍ مصفى، وأنهار من كأس ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبنٍ لم يتغير طعمه، وماء غير آسنٍ وفاكهةٍ لعمر إلهك خير مما تعلمون، وخير من مثله معه وأزواج مطهرة. قال فقلت: يا رسول الله أوَلنا فيها أزواج مطهرة أوَمنهن صالحات؟ قال: الصالحات للصالحين تلذون بهن مثل لذاتكم في الدنيا ويتلذذن منكم غير أن لا توالد. قال لقيط: أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه.

قال فقلت: يا رسول الله علام أبايعك؟ قال: فبسط يده ثم قال: على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وزيال الشرك فلا تشرك بالله إلهاً غيره. قال فقلت: وإن لنا ما بين المشرق والمغرب؟ قال فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده وظن أني أشترط شيئاً لا يعطنيه. فقلت: نحل منها حيث شئنا ولا يجر على المرء إلا نفسه. قال فبسط يده وقال: ذلك حل حيث شئت ولا يجر على نفسك إلا نفسك. فانصرفنا عنه صلى الله عليه وسلم.

قلت: ذكر في هذا الحديث ألفاظاً يعظم أمرها في صدور الجهال ولو عرفوا معناها وما عهدته العرب في كلامها من الاستعارة وتقريب المعاني واستنزال الألفاظ لتقرب من فهم المخاطب لم يستعظموا ذكرها. ألا ترى المخاطب بها لقيطاً رضي الله عنه لما كان عربياً لم يستغربها، ولو استبشعها لسأل عنها النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم، فهموا معاني الألفاظ فلم تبعد عنهم فتلقوها بالقبول ولم يحتاجوا إلى أن يسألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تلقيناها نحن بألسنتنا الفاسدة وأذهاننا الراكدة، فوقع الإشكال واحتيج إلى السؤال، وقد ورد في القرآن العزيز وفي حديث الرسول من هذا القبيل الكثير لا القليل. مثل قوله تعالى:

(١) الطوف: الحدث من الطعام.

﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]، و: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤]، و: ﴿ جَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢]، و: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ [النحل: ٢٦] و: ﴿ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]، و: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨]، وغير ذلك، فمن فهمه الله معناها ورزقه علمها فليحمد الله على ذلك، ومن قصر علمه عن معرفتها فليؤمن بها ويعتقد أن لها تأويلاً يعلمه العلماء. ولذلك قالوا رضي الله عنهم لهذا الصنف من الناس: اقرؤوا هذه الأحاديث كما وردت وآمنوا بها ولا تتكلفوا ما لا علم لكم به ويكفيكم ذلك. وقالوا هذا في الصدر الأول.

ثم لما كان بعد ذلك وكثر أهل البدع والأهواء خشوا رضي الله عنهم أن يسبق إلى وهم السامع من هذه الألفاظ شيئاً ينطق به ملحد في الدين يعتقده على غير وجهه فيقع في شبهة. ففسروا هذه الأحاديث وحملوا معناها على مذاهب الصحابة ولغة العرب، فقالوا ما تقدم في ذكر اليدين، وفي ذكر اليمين.

وقال المهدوي رضي الله عنه في الوجه: الوجه ينصرف على وجوه منها: الوجه الذي هو الجارحة. ومنها: أول الشيء وصدره، نحو قوله تعالى: ﴿ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ ﴾ [آل عمران: ٧٢]. ومنها: القصد والفعل، نحو قوله: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ٧٩]. ومنها: الحيلة، نحو قولك: ما الوجه في كذا. ومنها: المذهب والجهة والمنزلة والقدر، نحو: لفلان وجه عند الناس. والوجه: الرئيس، ووجه الشيء: نفسه وذاته. وقال في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٢] أي: أخلص عمله، وخصّ الوجه لأنه أشرف ما في الإنسان، والعرب تخبر بالوجه عن ذات الشيء. وقال في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨]، قال الثوري: إلا ما أريد به وجهه. وقال أبو عبيدة: الإجاهة، أي: إلا الوجه الذي يطلب به الوجه عند الله والجاه عنده، وقيل: إلا وجهه، إلا إياه. كقولك: أكرم الله وجهك، أي: أكرمك الله. انتهى كلامه.

قلت: وهذه الوجوه كلها في الوجه فانظر أولاها وأليقها بصفة القديم تعالى فاجعلها له وانف عنه ما لا يليق بجلاله، وليس فيها عندي أولى من قوله: الوجه كناية عن الذات، وكذا فسر قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨] أي: إلا هو. وكذلك قالوا في قوله تعالى: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤] أي: حفظنا

وكلاءتنا، وكذلك: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، و﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه: ٣٩] قيل: بأعيننا، أي: بمرأى منا، حمله على معنى البصر الذي أثبته لنفسه مع السمع في قوله: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٦١]. قال الشاعر:

فـــــإن الله راءٍ وســـــامعِ

وقالوا في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [القلم: ٤٢] أي: عن شدة عظيمة، وهو أن يقال: قامت الحرب على ساق، أي: اشتدت. وقالوا في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥] أي: هادي أهل السماء والأرض، ألا تراه قال: ﴿ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٣٥]. وقالوا في قوله تعالى: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ [النحل: ٢٦] أي فعل في البنيان فعلاً، ومعناه: هدّه من قواعده فانخسفت أعاليه. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] معناه: جاء حكمه وعدله. فكان إتيان فعل لا إتيان ذات. وقيل: جاء أمر ربك. وكذلك: ﴿ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠] أي: بظلل أو بعذاب في ظلل. وكذلك قالوا في قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] أي بالغوث والإحاطة. و: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤] أي بالنصر والمعونة. و: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] أي: بالعلم والرعاية. و: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٢٨] أي: عقوبته، و﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ [المائدة: ١١٦] أي: غيبي، ولا أعلم غيبك.

وكذلك ما جاء في الحديث من هذا القبيل، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا. قال مالك رحمه الله: ينزل أمره، وقيل: ينزل ملك من ملائكته، وقد روي: ينزل، بضم الياء، أي: ينزل الله ملكاً من الملائكة، أو يكون هذا على حذف المضاف. كما قال الله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهل القرية. وهذا معروف في لسان العرب. يقولون: ضرب الأمير اللص، وقطع السارق، أي: أمر بذلك. قال المازري: ويحتمل أن يكون عبر بالنزول عن تقريب الباري للداعين حينئذ واستجابته لهم، خاطبهم بذلك عليه السلام بما جرت به عادتهم ففهموا عنه، وكان المتقرّب منا إذا كان في بساطٍ واحدٍ مع من يدنيه، عبر عن ذلك بأن يقال: جاء

وأتى، وإذا كان في علوٍ قيل: نزل وتجلى.

وقد ورد هذا في القرآن والسنّة نعم، وعندنا اليوم سمعت بحرياً يقول لآخر: أمس قذف السلطان، وكان سأله عن القطائع متى تخرج من بلد كذا. وكذلك يقولون: بنى السلطان مدينة كذا، وهدم سور كذا. فلا تنكر هذه الألفاظ واحملها على معانيها، وقدّس القدّوس عما لا يليق به من الانتقال والزوال والنزول والتغير. واعتقد أنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا جزء ولا مصور ولا مركب ولا له بنية ولا له هيئة ولا كيفية ولا حركة ولا سكون ولا طعم ولا رائحة ولا لون ولا صورة ولا جارحة.

ألا ترى كيف قال أهل العلم في الأشياء التي تقدم ذكرها مما يشبه الجوارح في الاسم كالوجه واليدين والعينين وما أشبه ذلك. عدلوا إلى تأويلها، ولو كانت جوارح كما يقع في نفس من ليس عنده معرفة لما احتاجوا إلى تأويلها.

كما أوّلوا قوله عليه الصلاة والسلام: إذا ضرب أحدكم عبده فليتق الوجه فإن الله خلق آدم على صورته، أي: على صورة المضروب. وفي رواية: خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً. على أن عبد الرزاق قد خرج حديثاً أزاح به من الإشكال قال: إن الله خلق وجه آدم على صورته. وقد تقدم حديث أن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن. وتقدم أيضاً أين الله؟ وقول الأمة: في السماء. ومرّ تفسيره في أول الكتاب.

وفصل الخطاب في هذا أن تعتقد أن الله ليس كمثله شيء ومهما قام في نفسك شيء فالله بخلافه. فهذا والحمد لله يدفع عنك وسوسة الشيطان وتخييله. ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه: يجري من ابن آدم مجرى الدم، ولذلك قال: يأتي الشيطان أحدكم فيقول: هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام وعلمنا المخرج من ذلك: فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل: آمنت بالله، ولينته. ولذلك حذر بعض العلماء من التمادي مع النفس في هذا المعنى فقال: تفكروا في مخلوقاته ولا تتفكروا في ذاته. وقد تقدم.

وقال الترمذي رحمه الله وقد ذكر حديث النزول. وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبه هذا من الروايات في الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا. قالوا: قد تثبت الروايات في هذا ونؤمن بها ولا نتوهم، ولا يقال: كيف هكذا.

روي عن مالك وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك رضي الله عنهم أنهم قالوا في هذه الأحاديث: اقرؤوها بلا كيف. وهكذا قول أهل العلم من أهل السنّة والجماعة.

وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات وقالوا: هذا التشبيه. وقد ذكر الله عز وجل في غير موضع من كتابه: اليد والسمع والبصر. فتأوّلت الجهمية هذه الآيات ففسروها على غير ما فسر أهل العلم. وقالوا: إن الله لم يخلق آدم بيده، وقالوا إنما معنى اليد هاهنا القوة.

وقال إسحاق بن راهويه: إنما يكون التشبيه إذا كان يد كيد أو مثل يد، أو سمع كسمع أو مثل سمع، فهذا التشبيه.

وأما إذا قال كما قال الله عز وجل يد وسمع وبصر ولا يقول كيف ولا يقول مثل سمع ولا كسمع، فهذا لا يكون تشبيهاً. وهو كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، ومثل ما تقدم قوله عليه الصلاة والسلام: إن الله جميل يحب الجمال. قال المازري: أطلق في هذا الحديث تسمية الباري جميلاً ويحتمل أن يكون سماه بذلك لانتفاء النقص عنه، لأن الجميل منا من حسنت صورته، ومضمون حسن الصورة انتفاء النقائص والشين عنها، ويحتمل أن يكون جميلاً بمعنى مجمل، أي: محسن، كما أن كريماً بمعنى مكرم، والله أعلم.

وقد تقدم أن الله لا يمل. وهذا النوع كثير، فقس ما يرد عليك بما ورد، ونزه ربك عما لا يليق به أيها الولد ولا تستشنع اللفظ الذي جاء في حديث لقيط المتقدم. فيصبح ربك يطوف في الأرض وقد خلت عليه البلاد، واحمله على ما تقدم من قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ ﴾ يسأل الخلائق فلا يجيبه أحد، فيرد على نفسه فيقول: ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦] وهذا بين النفختين حين لا يبقى أحد غيره. مصداقه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وأختم لك هذا الفصل الذي هو نعم الأصل بحديث من نوع ما تقدّم، فيه ذكر الرجل، والقدم، وهو حديث كبير، وهو لغة وعلم كثير، شرحه بعضهم وفسره، وكره بعضهم أن يفسره بغير ألفاظه وأنكره. والحديث: لا تزال النار يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العالمين فيها قدمه فتقول: قطّ قط. ويروي: رب العزة. ويروي: قطني قطني.

وقال الأستاذ رحمه الله: معنى قدمه: قوم قدّمهم إلى النار، كما أن المسلمين قدمه إلى الجنة من قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢] أي: قد سبق لهم عند الله خير، وهو إضافة الملك. كما قال: سماؤه وأرضه ونار الله الموقدة. وفي حديث آخر: رجله، والرجل أيضاً بمعنى جماعة معلوم في لسان العرب. يقال: رجل من جراد. وقوله: قطني أو قطي أو قط أصل الكلمة من القط الذي هو القطع، ثم خففت وأجريت مجرى الحروف. وكذلك قدني بمعنى قط هي أيضاً من القدّ، وهو القطع طولاً. والقط بالطاء هو القطع عرضاً. يقال: إن عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه كان إذا استعلى الفارس قدّه وإذا استعرضه قطه. وسيأتي إدخال العرب الطاء على الدال وجمعها في قافية واحدة في آخر الباب إن شاء الله.

ولما كان الشيء الكافي الذي لا يحتاج معه إلى غيره ويدعو إلى قطع الطلب وترك المزيد جعلوا قط، وقد يشعر بهذا المعنى، فإذا ذكرت نفسك قلت: قطي وقدّي. كما يقال: حسبي، وإن شئت ألحقته نوناً فقلت: قطني وقدني. قال الراجز فجمع بين اللغتين:

قدنـــي مـــن نـــصر الخبيـــبين قـــدي

وأما قط المبني على الضم فهي ظرف لما مضى وهي تقال بالتخفيف والتثقيل وهي من القطع أيضاً. وفي مقابلتها في المستقبل: عوض. تقول: ما فعلته قط. ولا أفعله عوض، مثل قبل وبعد. انتهى كلامه رحمه الله.

وقال ثابت في الدلائل في هذا الحديث: لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العالمين عز وجل قدمه فينزوي بعضها إلى بعض فتقول: قد قد بعزتك وكرمك. أو كما قال. ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله تعالى لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة. وفسر الحديث ولفظة قد قد على نحو ما ذكره الأستاذ، وقال في القدم نحو ما تقدم. وينسب القول فيه إلى الحسن على ما رواه عنه أصحاب السنن، ثم قال هذا تفسير يرغب عنه ولا أحسب الحسن أيضاً قاله.

وهذا وأشباهه يولده عليه من أراد التنزيه وحمل مذهبه عليه وإنما ذكرناه لننبه عليه. ونتقدم في النهي عنه، والحديث صحيح كما جاء لا ندفعه ولا نتكلف تفسيره بغير ألفاظه التي جاءت به. وقال الأوزاعي: من الله التنزيل وعلى رسوله التبليغ وعلينا التسليم لأمر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تقدم هذا المعنى.

قلت: قد فسر هذه الأحاديث العلماء رضي الله عنهم بما فسروه، ونحن أيضاً نذكر ما ذكروه ونحمله على ما يقتضي الإجلال لربنا تعالى والإكرام، ونؤمن بما قاله

نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام. ونقول آخر ذلك كله: والله أعلم والسلام.

وبقي من لفظ قط الذي بمعنى قطع: قط السعر، إذا علا، ذكره الخطابي رحمه الله وقال: يقولون: أتينا أرضنا قاطاً سعرها، وأنشد:

أشكو إلى الله العزيز الجبار ثم إليك اليوم بعد التسيار

وحاجة اليوم وقط الأسعار

وبقيت أيضاً مسألة نحوية من هذا الباب هي عندي من لباب اللباب. استشهد ثابت على قطي بقول الشاعر:

قطي أبداً من كل ما ليس نافعي ومن طلبي ما ليس لي بنصيب

وقال: سئل بعض أهل اللغة عن قولهم: عنى وقطني ولدني ومني، ما بالهم جعلوا علامة إضمار المجرور هاهنا كعلامة المنصوب. فقال: إنه ليس في الدنيا حرف تلحقه ياء الإضافة إلا كان متحركاً مكسوراً، ولو لم يريدوا أن يحركوا الطاء التي في قطني ولا النون التي في مني، فلم يكن لهم بد من أن يجيؤوا بحرف كياء الإضافة متحرك إذ لم يريدوا أن يحركوا الطاء والنونات، فصارت الأولى من كلامهم أن تكون الياء والنون علامة المتكلم، فجاؤوا بالنون لأنها إذا كانت مع الياء لم تخرج هذه العلامة من علامة الإضمار، وإنما حملهم على أن لم يحركوا الطاء والنونات كراهية أن تشتبه بالأسماء نحو: يد وهن. فرغ هذا فلنرجع بحول الله إلى بقية الكلام والله أعلم.

فصل:

مذهب أهل السنة أن يعتقد العبد أن لله عز وجل إرادة جارية في المرادات حتى لا حادث في الوجود من خير أو شر إلا وهو جار على مشيئته وإرادته وأن محبته وبغضه ورضاه وسخطه ورحمته وغضبه وولايته وعداوته راجعة إلى إرادته، وأن الإرادة صفة لذاته قديمة، فهو مريد بها لكل حادث في سمائه وأرضه، واكتساب العبيد مخلوق لله تعالى، والعبيد مكتسبون لكن بتقدير الله وخلقه ومشيئتهم بعد مشيئته، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

فعلى هذا ينبغي لك أن تعلم أن الطاعة التي ظهرت منك إنما هي كسبك والله خلقها لك وخلق لك القدرة عليها وهو يجزيك بها ويمدحك بفعلها كما تقدم. وكذلك المعصية التي اكتسبت هي خلق الله قدّرها عليك، ويعاقبك عليها ويذمك بفعلها، وكل ذلك بإرادته وقدرته وسبق ذلك في علمه الأزلي قبل أن يخلقك وأباك. فهو الهادي المضل المعز المذل، وكله عدل وحكم. ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. إذ لو سئل عما فعل لكان محكوماً عليه، وهو الحاكم، ومقدوراً عليه

وهو القادر، ولكن لله تعالى سر في عباده وهو القدر الذي لا يحل إفشاؤه ولا الاستكشاف عنه.

قال رجل لهشام بن الحكم وكان صاحب مذهب: أترى الله في فضله وكرمه وعدله كلفنا ما لا نطيق ثم يعذبنا عليه. قال هشام: قد والله فعل، ولكنا لا نستطيع أن نتكلم.

قلت: إنما ترك التكلم في هذا لأنه من القدر الذي هو سر الله كما تقدم. إن كان سنياً أو قال ذلك لستر مذهبه. لأن أبا عبيد البكري ذكر أنه كان من الحشوية المشبهة، وله أصحاب يروون أحاديث في التشبيه كثيرة، وكلها والحمد لله مستحيلة، وحجتهم أنهم يقولون لا يقوم في المعقول إلا جسم أو عرض. فلما بطل وقوع الفعل من العرض صح من الجسم. فقيل لهم: هذا أفسد قياس لأنه لا يقوم في المعقول جسم إلا مركب مؤلف، فإن قالوا ذلك فقد أقروا أن الباري سبحانه وتعالى مخلوق. تعالى الله عن قولهم، فإنما يؤخذ من قول مثل هذا ما وافق الحق وما يرد به على من هو أخبث مذهباً منه. والله ولي التوفيق برحمته.

وقد اختلف العلماء رضي الله عنهم في تكليف ما لا يطاق، فمنهم من أجازه، واحتج بقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قالوا: فلولا أنه ممكن لما سأل الله أن لا يفعله، وقالت طائفة: لا يجوز هذا، وإنما يعني به الوسوسة التي لا يقدر الإنسان على دفعها عن نفسه، فيكون معنى لا تحملنا ما لا طاقة لنا به منها، أي: لا تؤاخذنا به. وفي الحديث: قال الله تعالى: قد فعلت.

وقالت طائفة: إنما هو مثل أن يقول الله تعالى للعبد: صلِّ وصم، ويقول للصلاة

والصوم: لا تأتيانه، فلم تأته واحدة منهما، فلم يصلِّ ولم يصم فاستحق العقاب. وهذا موضع السر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وسيأتي الكلام على هذه المسألة في باب الزاي عند قوله تعالى: ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. فانظرها ثم إن شاء الله تعالى.

وقد تقدم: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. والكل ملكه وخلقه يفعل ما يشاء ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]. قال إياس بن معاوية رضي الله عنه: ما كلمت أحداً بعقلي كله إلا أصحاب القدر، قلت لهم: ما الظلم في كلام العرب؟ قالوا: هو أن يأخذ الرجل ما ليس له. قلت: فإن الله له كل شيء.

قلت: والعجب ممن يطلب أن يطلع على سر الله في قدره، هلا طلب السر الذي

قد جعل الله في بعض الأشياء حتى يستخرجه، ألا ترى أن المغناطيس يجذب الحديد دون غيره، ليت شعري لأي شيء اختص بهذا؟ نعم؛ وثم حجر آخر يجذب الأظفار وآخر يجذب اللحم على ما ذكره ابن السيد، قال: وثم نبات يلقى في النار فلا يحترق. صدق الله العظيم حيث يقول في الإنسان: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فصل:

الواجب على العبد أن يستسلم لقضاء مولاه ويحسن الأدب معه، فمتى رأى خيراً فليحمد الله، ومتى رأى غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه، ولينزه مولاه عن الظلم، ولا يقس غائباً بشاهد، فليس إلا ربٌ واحد. كيف وقد نهى ذو العظمة والجلال أن تضرب له الأمثال. فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٤]. إن الإنسان لجريء أن ينسب إلى مولاه الظلم وهو منه بريء، وهل يصح الظلم إلا منّا؟ نحن مملوكون فإن وضعنا شيئاً في غير موضعه فقد ظلمنا. وهو تعالى مالك الخلق كله ملكه، فمهما فعل شيئاً فقد وضعه موضعه كما تقدم.

ثم ليعتقد بقلبه ما يلفظ به لسانه، إذ يقرأ: إن الله حكيم عليم. ومن كانت هذه صفته فلا معقب لحكمه. وما أقبح بعبد الرجل منا أن يسأل سيده عن حاله وسره وهو عبد مثله في الحقيقة. فكيف بالمالك ذو القوّة المتين الملك الحق المبين، ثم بماذا يستفهم إن قال: أين؟ فسؤال عن المكان، وإن قال: متى؟ فسؤال عن الزمان، وأين كان الله تعالى قبل أن يخلق الزمان والمكان؟ وإن قال: كيف؟ فسؤال عن تشكيل وهيئة، وإن قال: لم؟ فسؤال عن علة، وإن قال: من؟ فسؤال عن جنس، وإن قال: كم؟ فسؤال عن عدد. وهذه الاستفهامات كلها لا تصح في حق القديم سبحانه لقيام الحدث معك عند نفس السؤال. فإن ابتليت بسائل فقال لك: لم كان كذا؟ فتوقف. فإن علمك الله حكمة فاذكرها، واحمد الله وقل إثر ذلك: والله أعلم. وإن كنت لا تدري فقل: لا أدري. وربما يعلمه غيري، أو يكون مما استأثره الله بعلمه، وانسب العجز والجهل والعيب لنفسك، وتأدب في ذلك بآداب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ألم تسمع إلى قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠]، فأضاف المرض الذي هو عيب إلى نفسه وأضاف الخلق والهداية والإطعام والشفاء الذي كله شرف وفضل إلى مولاه المتعالي، وقد علم أن كلاً من عنده لا إله

إلا هو، له الخلق والأمر.

وكما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: بيدك الخير. ومعلوم أن الخير والشر بيده، وقوله في الحديث الآخر: لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك. معناه والشر ليس مضافاً إليك، على جهة الأدب، وكذلك فعل الخضر عليه السلام حيث يقول الله تعالى حكاية عنه عند ذكر الخير: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: ٨١] وقال في مثله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف: ٨٢] ولما انتهى إلى ذكر العيب قال: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩]، نسبه إلى نفسه ونزه مولاه عن أن يضيفه إليه، وكل من عنده سبحانه. ولكن فعل ذلك أدباً منه صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء والأولياء وسلم. فسبحان ربك ما كان أعلمهم بما استعملهم لما علمهم.

ونوع من هذا ذكر أبو طالب في قوت القلوب قال: قال أبو محمد سهل رحمه الله: إذا عمل العبد حسنة فقال: يا ربِّ أنت استعملتني، شكر الله له ذلك، فقال: أنت عملت، وإذا نظر إلى نفسه فقال: أنا عملت، يقول الله تعالى: بل أنا استعملتك. وإذا عمل سيئة فقال: أنت قدرت، وأنت أردت، يقول الله تعالى: أنت ظلمت وأنت عصيت بشهوتك وهواك، وإذا قال العبد: ظلمت نفسي وعصيت بجهلي، استحيا الله تعالى منه، فقال: بل أنا قدرت وأنا قضيت قد غفرت لك باعترافك بالظلم على نفسك. هكذا أدب العاملين مع ربِّ العالمين، ويعتقدون مع ذلك أن الكل من عند الله تبارك وتعالى. وأن الخير والشر والنفع والضر من الله تعالى وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٨] وهذا هو المحكم الذي ليس فيه تبديل ولا تأويل. ثم قال تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩] كذا أوله بعض العلماء رضي الله عنهم.

وقد روي عن أبي صالح أنه قال: فمن نفسك وأنا قدّرتها عليك. وروى عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا، إذ أقبل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في قتام من الناس، وقد ارتفعت أصواتهم، فكف رسول لله صلى الله عليه وسلم واستمع، فلما دنوا جاء أبو بكر فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جلس إلى جنبه، ثم جاء عمر فسلم ثم جلس منتبذاً منه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذا الذي ارتفعت فيه أصواتكم يا أبا بكر؟ فقال

بعض القوم: يا رسول الله قال أبو بكر: الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا. وقال عمر: الحسنات والسيئات من الله. فتابع بعض القوم أبا بكر، وتابع بعض القوم عمر. فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي بكر وقال:

كيف قلت يا أبا بكر؟ قال: قلت الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا. فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أقبل على عمر وقال: كيف قلت يا عمر؟ قال: قلت الحسنات والسيئات كلها من الله. قال: فانبسط رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف البشر في وجهه ثم قال: أما إني سأقضي بينكما بما قضى به إسرافيل بين جبريل وميكائيل، والذي نفسي بيده إن أول من تكلم في القدر من جميع الخلق جبريل وميكائيل، فأما جبريل قال مقالتك يا عمر، وأما ميكائيل فقال مقالتك يا أبا بكر. فقال جبريل لميكائيل: إنا إن نختلف يختلف أهل السماء وإذا اختلف أهل السماء اختلف أهل الأرض فهلم نتحاكم إلى إسرافيل فما حكم بيننا رضينا. فأتيا إسرافيل فقضى بينهما أن القدر كله خيره وشره من الله وهذا قضائي بينكما، ثم قال: يا أبا بكر لو أراد الله أن لا يعصى في الأرض لم يخلق إبليس.

وقال بعض العلماء: كل ما صدر من العباد من قول أو فعل أو حركة أو سكون فهو خلق الله سبحانه، وأنه لا يخلق أو يحدث شيئاً من الأشياء إلا الله تعالى، فيخلق للإنسان قدرة وقوة واستطاعة يكتسب بها أفعاله مختاراً غير مجبر ولا ملجأ، ولكنه لا ينفك من اكتساب ما سبق له في العلم القديم أنه يكتسبه، وبذلك يتوجه عليه العقاب وله الثواب كما قال تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] خلافاً لما يقوله أهل البدع والجهالة والزيغ والضلالة، منهم من يقول: إنهم يخلقون أفعالهم ويحدثونها، ومنهم من يقول: إن الله يخلق الخير وغيره يخلق الشر، ويقولون: لا يشاء الله المعاصي ولا يريدها، وقد ردّ عليهم عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقال لهم: لو لم يشأ الله المعاصي لما خلق إبليس.

وقال رجل قدريّ لمجوسي: ما لك لا تسلم؟ قال: حتى يشاء الله. قال القدريّ: قد شاء الله ولكن الشيطان لا يدعك. قال: فأنا مع أقواهما. تباً للمعتزلة وتعساً هربوا من شيء وقعوا في الكفر المحض نسبوا إلى الله العجز وأنه يكون في ملكه ما لا يريد. تعالى الله عن قولهم.

وويل للجبرية الذين يزعمون أنهم لا قدرة لهم ولا استطاعة وأنهم كالحجر الذي لا يتحرك إلا بمحرك يحركه، وكالباب الذي لا ينفتح ولا ينغلق إلا بفاتح ومغلق، وأنهم يجبرون على أفعالهم التي خلقت لهم غير مكتسبين لها.

وقد وفق الله أهل السنّة وسددهم وهداهم إلى الطريق الأوسط وأرشدهم، فجمعوا بين الأمرين وألفوا بين القولين فأحكموا الأمور وسددوا رباطها، وكان خير الأمور أواسطها، وقد تهدى المعري لهذا المعنى فقال:

لا تعـــش مجبـــراً ولا قـــدرياً واجـــتهد فـــي توســـط بـــين بيـــنا

قال ابن السيد رحمه الله في شرحه المجبرة والقدرية: كلاهما في عقيدته واصف ربه بغير صفته، لأن القول بالإجبار يبطل التكليف والأمر والنهي ويوجب أن لا يكون للفاضل مزية على الناقص ولا للمطيع مزية على العاصي، لأن كل واحد منهما مجبر على ما هو فيه.

وقد أبطل الله تعالى هذه الدعوى في مواضع كثيرة من كتابه كقوله: ﴿ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر: ٧] وقوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

والقول بالقدر يوجب تجهيل الباري تعالى بأمر عالمه وعجزه عن نفوذ مشيئته فيهم، وأن العباد يفعلون ما لم يتقدم له علم به قبل كونه، وكلا هاتين الصفتين لا يليق بمن شهدت العقول السليمة بأنه أحكم الحاكمين وأنه موصوف بالكمال مبرأ من جميع النقص وأن كل موجود واقع تحت أمره، متصرف تحت حكمه، وقد شهدت نصوص الشرع بمثل ذلك. كقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقوله: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقد روي عن جعفر الطيار رضي الله عنه أن فلاناً قال له: العباد مجبورون. فقال له: الله أعدل من أن يجبر عبده على معصيته ثم يعاقبه عليها. فقال له السائل: فأمرهم مفوّض إليهم. فقال له جعفر: الله أعز من أن يجوز في ملكه ما لا يريد. فقال له السائل: كيف هذا؟ فقال: أمر بين الأمرين لا إجبار ولا تفويض. انتهى كلامه.

قال: إنما رضا الله تعالى للجميل لا للقبيح وإرادته لهما جميعاً. تعالى الله أن يكون في ملكه ما لا يريد، ويشهد لهذا المذهب قول علي رضي الله عنه: الأعمال ثلاثة: فرائض وفضائل ومعاصي. فأما الفرائض فبأمر الله وبقدر الله واختيار الله وبحب الله وتخصيص الله. وأما الفضائل فبترغيب الله لا بأمر الله وبقدر الله واختيار الله تعالى

وبمحاب الله تعالى وتخصيص الله، وأما المعاصي فبقضاء الله لا برضاء الله، وبعلم الله لا بمحاب الله وبقدر الله لا باختيار الله.

ويروى أنه لما رجع إلى الشام قام إليه شيخ من أهل الوقعة فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن سيرنا هذا أكان بقضاء وقدر؟ فقال عليّ رضي الله عنه: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئاً ولا هبطنا وادياً ولا علونا تلعة إلا بقضاء وقدر. فقال الشيخ: أحتسب عند الله عنائي وما أرى لي من الأجر شيئاً. فقال له عليّ رضي الله عنه: بل قد أعظم الله لك الأجر في سيرك وفي رجوعك ولم تكن في شيء من ذلك مكرهاً ولا مضطراً. فقال الشيخ: وكيف لا أكون كذلك والقضاء والقدر ساقاني وعنهما كان سيري؟ فقال له عليّ رضي الله عنه: لعلك يا شيخ ظننت قضاء الله لازماً وقدراً حقاً، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، وما كانت تأتي من الله سبحانه لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن، إن الله سبحانه أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلف تيسيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم ينزل القرآن لعباً، ولم يرسل الأنبياء وخلق السموات والأرض باطلاً، ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]. فنهض الشيخ مسروراً وهو يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته ... يوم القيامة من ذي العرش رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً ... جزاك ربي عنا فيه إحسانا

انظر كيف أنكر عليّ رضي الله عنه على الشيخ قوله وأخبره أن المسير وإن كان بقضاء الله فإنه لم يجبرنا عليه ولا اضطرنا إليه، بل قدره علينا وجعله مطابقاً لقصده واختياره، فالإنسان يعلم بالضرورة كونه قادراً على الحركة كما يعلم عجزه عن السكون في ذلك الزمن، ويجد فرقاً بين حركة ارتعاشه التي اضطر إليها وبين حركته التي ترجع إلى قصده واختياره، كما يفرق بين حالتيه في القوة والضعف.

فقدرة العبد على قدرة الله تعالى ومشيئته وإرادته كما تقدم. ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٣٠]. وبهذه الآية احتج سنّي على قدريّ. قال القدريّ: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢-٣] فقال له السنّيّ: قرأت أول السورة ولم تقرأ آخرها. ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وهذا الخبر يروى عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. بلغه أن غيلان يقول

بالقدر. فبعث إليه فحجبه أياماً ثم قال له: ياغيلان ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١] حتى بلغ: ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]، فقال عمر: اقرأ آخر السورة: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]. فقال غيلان: كنت أعمى فبصرتني، وأصمَّ فأسمعتني، وضالاً فهديتني. فقال عمر: اللهم إن كان عبدك غيلان صادقاً وإلا! ووقف هنا لأن المعنى مفهوم كما تقدم. فأمسك غيلان عن الكلام في القدر.

فلما مات عمر وأفضت الخلافة إلى هشام تكلم في القدر، فقطع هشام يده، فمر به رجل والذباب يقع على يده فقال: يا غيلان هذا قضاء وقدر. فقال: كذبت لعمر الله ما هذا قضاء ولا قدر. قال: فبعث إليه هشام فصلبه.

وفي رواية: أن غيلان لما قرأ على عمر رضي الله عنه: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ [الإنسان: ١] حتى بلغ: ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]. فقال له عمر: ويحك من هاهنا تأخذ الأمر وتدع بدء خلق آدم. قال: هات يا أمير المؤمنين. فقال عمر: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠] إلى قوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣]. فقال غيلان: يا أمير المؤمنين والله لقد جئتك ضالاً فهديتني، وأعمى فبصرتني، وجاهلاً فعلمتني، والله لا أتكلم في شيء من هذا الأمر أبداً. فقال عمر: والله لئن بلغني أنك تكلمت في شيء منه لأجعلنك نكالاً للعالمين. فلم يتكلم حتى مات عمر، فلما مات عمر سال فيه سيل الماء أو سيل البحر.

قلت: فالإيمان بالقدر فرض واجب، دلت على ذلك العقول وجاء به الشرع المنقول. خرج مسلم رحمه الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه عدّه في الإيمان فقال: وأن تؤمن بالقدر كله خيره وشره. وسئل سلمان رضي الله عنه عن القدر والإيمان به فقال: أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولا تقل لولا كذا وكذا لم يكن كذا وكذا ولو كان كذا وكذا لم يكن كذا وكذا.

ويروى أن نفراً من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه قالوا: لو حرسنا أمير المؤمنين فإنه محارب ولا نأمن أن يُغتال، قالوا: فبتنا عند حجرته حتى خرج لصلاة الصبح فقال: ما شأنكم؟ فقلنا: خشينا أن تغتال فحرسناك. فقال: أمِن أهل السماء تحرسوني أم من أهل الأرض؟ قلنا: لا بل من أهل الأرض، فكيف نستطيع أن

نحرسك من أهل السماء. قال: فإنه لا يكون في الأرض شيء حتى يقدر في السماء، وليس من أحد إلا وقد وكل به ملكان يدفعان عنه ويكلآنه حتى يجيء قدره. فإذا جاء قدره خليا بينه وبين قدره. وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما وقد سئل: لمَ تفقد سليمان عليه السلام الهدهد؟ قال: لأنه كان يعرف بعد الماء. فقال له السائل: يعرف بعد الماء والصبيان يأخذونه بالحبالة. فقال: أوليس القدر يسبق البصر.

وسأل رافع بن خديج رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: جُعلت فداك يا رسول الله قل لي كيف الإيمان بالقدر؟ قال: تؤمن بالله وحده وأنه لا يملك أحد معه ضراً ولا نفعاً، وتؤمن بالجنة والنار وتعلم أن الله خلقهما قبل الخلق، ثم خلق الخلق فجعل من شاء منهم إلى الجنة ومن شاء منهم إلى النار عدلاً ذلك منه، فكل يعمل لما قد فرغ منه، وهو صائر لما قد خُلق له. قال: قلت صدق الله ورسوله.

قلت: ومما رويته من الحديث المسلسل من شيخي القاضي محمد عثمان الديباجي رحمه الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أخوف ما أخاف على أمتي تصديق بالنجوم وتكذيب بالقدر. وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحيته وقال: آمنت بالقدر خيره وشره حلوه ومره. وكل شيخ في السند يأخذ بلحيته ويقول ذلك حتى قال شيخي وأخذ بلحيته وقلته أنا إذ حدّثت به من قرأه عليّ وأخذت بلحيتي، وتسلسل الحديث مني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسند الصحيح والحمد لله.

وجاء في الموطأ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز. وعن عبد الله أيضاً أنه كان يقول في خطبته: إن الله هو الهادي والفاتن. وقد تبرّأ رضي الله عنه ممن زعم أنه لا قدر وأن الأمر أنف أي مبتدأ ليس قديماً فأكذب قائل ذلك وتبرأ منه كما تقدم. وقال: والذي يحلف به عبد الله بن عمر: لو أن لأحدهم ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر. وذكر الحديث المتقدم عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال: وتؤمن بالقدر خيره وشره. ذكره مسلم رحمه الله.

وخرج الترمذي رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان فقال: أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر وقد عزمت عليكم أن لا تنازعوا فيه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: آخر الكلام في القدر لشرار هذه الأمة. وقال

سهل رحمه الله: ثبتوا القدر لله حتى يتخالجكم أن المعاصي هو الذي قدّرها فإذا تخالجكم ذلك فتنزهوا عن المعاصي وثبتوا القدر فإن القدر ثابت.

وقد فسر قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣] على أقوال منها القدر.

وجاء في الحديث عن معمر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقى نتقيها هل تردّ من قدر الله تعالى شيئاً؟ قال: هي من قدر الله، فإن قال قائل ما معنى قوله صلى الله عليه وسلم: لا يرد القضاء إلا الدعاء؟ قيل له: قد يكون القضاء والقدر من الله تعالى مطلقاً وبسبب.

فإذا كان مطلقاً وقع لا محالة، وإذا كان بسبب كان الحكم للسبب الآخر وهو القضاء المبرم، وقد علم الله أنه كذا يكون، ومثاله صلة الرحم تزيد في العمر. مثله في أحد الأقوال: إن الله كتب أجله مثلاً عشرين سنة إن قطع رحمه، وإن وصلها بلغه أربعين سنة، وقد علم الله أنه يصلها فيبلغه الأربعين ولا بد.

وقوله تعالى: ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] فقيل: معناه بأمر الله، وأيضاً فالحفظ من قدر الله فلا بد منه.

قلت: والعجب ممن ينكر القدر من أهل الأهواء في الإسلام، وأهل الكفر قد أثبتوه في جاهليتهم، هذا لبيد يقول قبل الإسلام:

إن تقـوى ربـنا خيـر نفـل ... وبـإذن الله ريثـي والعجـل
مـن هـداه سـبل الخيـر اهـتدى ... نـاعم البـال ومـن شـاء أضـل

وقال آخر:

هـي المقاديـر فلمنـي أو فـذر ... إن كنت أخطـأت فمـا أخطـأ القـدر

وهذا كثير.

قيل لبعضهم بأي شيء عرفت ربك؟ قال: بنقص عزائمي. وقال ينشد:

يـريد المـرء أن يؤتـى منـاه ... ويأبـى الله إلا مـا يـريد

يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان رجل يكذب بالقدر وكان مسيئاً إلى امرأته، فخرج إلى الجبّانة فوجد قحف رأس مكتوب عليه: يحرق ثم يذرى في الريح، فأخذه فجعله في سفط ثم دفعه إلى امرأته، ثم أحسن إليها ثم سافر، فجاءتها جاراتها فقلن: يا أم فلان بِمَ كان زوجك يحسن الصنيعة إليك فهل استودعك شيئاً؟ قالت: نعم. هذا السفط. قلن: فإن فيه رأس حليلة له. فقامت غيرى مغضبة ففتحته فإذا فيه قحف رأس. قلن: يا أم فلان ما تصنعين فيه أحرقيه ثم ذريه في الريح. ففعلت، فقدم زوجها من سفره وهي مغضبة فقال لها: ما صنع السفط؟ فحدثته بالحديث، فقال:

آمنت بالله وصدّقت القدر فرجع عن قوله.

قلت: والأخبار عن هذا كثيرة، وأما أهل الأهواء فقد اطلعت على كثير من أقوالهم فإذا هي هباء، ويحق ذلك فإن أفئدتهم هواء لا يواطئهم عليها العقل ولا النقل، ثم إن هؤلاء الفساق ليسوا بحذاق، بلفظة يغلبون وبلحظة يقلبون.

ويروى أن هشام بن عبد الملك أتى بقدري فقال له: يا أمير المؤمنين ابعث لي من شئت يحاججني، فبعث إلى الأوزاعي وأتى بالقدري فقال له: يا أبا عمرو أحب أن تحاجج لنا هذا القدري. فقال: نعم. فقال له: أسألك عن ثلاث: أخبرني عن الله عز وجل هل حال دون ما أمر؟ فقال القدري: ليس عندي من هذا شيء. قال: هذه واحدة، ثم قال له: يا هذا هل تعلم أن الله عز وجل قضى عليّ ما نهى. قال القدري: هذه أشد من الأولى. قال: هذه ثنتان. ثم قال: يا هذا أخبرني عن الله عز وجل هل أعان على ما حرم؟ فقال: هذه أشد من الأولى ومن الثانية ما عندي من هذا شيء. قال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين هذه ثلاث فأمر به فضرب عنقه، ثم قال: يا أبا عمرو فسر لنا هذه الثلاث كلمات. قال: نعم يا أمير المؤمنين. إن الله تعالى أمر إبليس بالسجود لآدم فحال بينه وبين السجود. قال: صدقت. ثم قال: أما علمت أن الله تعالى قضى على آدم بأكل الشجرة ثم نهاه عنها. فقال هشام: صدقت. ثم قال: أما علمت أن الله تعالى حرّم الميتة ولحم الخنزير وأعان على أكلهما بالاضطرار. قال: صدقت.

وقال رجل لهشام بن عبد الملك المتقدم الذكر: أنا أقول بإلهين وقد عرفت إنصافك فلست أخاف مشاغبتك، فقال وهو مشغول بثوب ينشره: حفظك الله يقدر أحدهما أن يخلق شيئاً لا يستعين بصاحبه عليه؟ قال نعم. قال هشام: فما ترجو من اثنين، واحد خلق كل شيء أصح لك. فقال: لم يكلمني أحد بهذا قبلك.

قلت: قد سبق هذا المعنى من النبي صلى الله عليه وسلم قبل هشام. قال حصين بن عتبة وهو والد عمران بن حصين: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: يا حصين ما تعبد؟ قلت: أعبد عشرة آلهة. قال: ما هم؟ قلت: تسعة في الأرض وواحد في السماء. قال: فمن لحاجتك؟ قلت: الذي في السماء. قال: فمن لطلبتك؟ قلت: الذي في السماء. قال: فمن لكذا؟ قلت: كذا. قال: فمن لكذا؟ قلت: كذا كل ذلك أقول الذي في السماء. فقال صلى الله عليه وسلم: فالغ التسعة.

وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام: اللهم لست بإله استحدثناه، ولا ربّ ابتدعناه، ولا كان لنا من قبلك إله نلجأ إليه ونذرك، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشركه فيك. تباركت وتعاليت.

وقال المأمون لثنوي يناظر عنده: أسألك عن حرفين فقط: خبرني هل ندم مسيء قط على إساءته؟ قال: بلى. قال: فالندم على إساءته إساءة أو إحسان؟ قال: إحسان. قال: والذي ندم هو الذي أساء أو غيره؟ قال: هو الذي أساء. قال: فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر، وقد بطل قولكم: إن الذي ينظر نظر الوعيد ليس هو الذي ينظر نظر الرحمة. قال: فإني أزعم أن الذي أساء غير الذي ندم. قال: فندم على شيء كان من غيره أو على شيء كان منه؟! فأسكته.

ودخل على هشام بن عبد الملك رجل ثنوي فدار الكلام بينهما، إلى أن قال هشام: أهما في القدرة سواء؟ قال: نعم. قال: فجوهرهما واحد؟ فقال الثنوي لنفسه ومن حضر يسمع: إن قلت: إن جوهرهما واحد، عادا إلى نعت واحد، وإن قلت: مختلف، اختلفا أيضاً في الهمم والإرادات، ولم يتفقا في الخلق. فإن أراد هذا قصيراً؛ أراد هذا طويلاً، وسكت.

وقد تقدم ذكر هشام هذا وما قيل فيه. انظر كيف قطع كلام هؤلاء بالحجة البينة، وقد خصم أيضاً الموبذ الذي دخل عليه ـ والموبذ بلغة العجم: العالم أو القاضي ـ وقد تقدم، فقال: يا هشام حول الدنيا شيء؟. قال: لا. قال: فإن أخرجت يدي فثم شيء يردّها؟. قال هشام: ليس ثم شيء يردّها، ولا شيء تخرج يدك فيه. قال: فكيف أعرف هذا؟ قال: يا موبذ أنا وأنت على طرف الدنيا، فإن قلت لي يا موبذاني: لا أرى شيئاً؛ قلت لك: ولمَ لا ترى وليس هنا ظلام يمنعك؟ قلت أنت لي: يا هشام إني لا أرى شيئاً. قلت لك: لمَ لا ترى شيئاً؟ قلت: ليس ضياء أنظر فيه، فهل تكافأت المسألتان في التناقض؟ قال: نعم. قلت: فإذا تكافأتا في التناقض لمَ لا تكافأتا في الإبطال؟ أي ليس ثم شيء. فأشار الموبذ بيده أن قد أصبت.

قلت: أظنك لا تفهم هذا الكلام لأنك تعتقد أن العدم شيء وليس كذلك، إنما العدم التلاشي المحض في حقنا، ولا فرق بين من يقول أعطيتك لا شيء ومن يقول لم أعطك شيئاً. وقولهم: خرج فلان من العدم إلى الوجود إنما هو ظهر بعد أن لم يكن. كما قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١] أي: في الخلق، وهو عند الله مذكور أنه خالقه. فقول هشام: ليس ثم شيء! يريد التلاشي المحض. إذ لو كان بعد طرف الدنيا شيء لم تكن متناهية. وكل المخلوقات متناهية لها أول وآخر، وأقطار وحدود، بخلاف القديم الذي ليس له أول ولا آخر، وهو الأول والآخر، أي قبل كل شيء وبعد كل شيء، والظاهر والباطن، أي العالم بما

ظهر وبما بطن. فلا تقس الخالق بالمخلوق، ولا علمك بعلمه، فليس الأمر سواء. والله يعلم من لم يعلم حتى يعلم، ولا قوة إلا بالله.

رجع القول إلى المعنى الأول. قلت: ومن ابتلي بأحد من هؤلاء الطوائف فليفر منه، ولا يفاتحه بكلام، فإنهم على جهلهم قد أوتوا جدلاً، كما جاء في الحديث الصحيح: ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل. ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨] فاحتفظ بدينك خشية أن يلقى في قلبك شبهة تحيرك وتغيرك.

كما يروى أن أحدهم جاء إلى أحد العلماء فقال له: أريد أن أقرأ عليك آيةً من كتاب الله تعالى. فقال له: لا أسمعها منك. فقيل له في ذلك فقال: أخاف أن يقرأ آيةً قد تأوّلها على غير ما أتأوّلها يحتج بها لمذهبه الفاسد، فيدخل عليّ شبهة فبعده أحسن من قربه. أو كما قال.

ويروى أن رجلاً جاء إلى الحسن رضي الله عنه فقال: يا أبا سعيد تعال حتى أخاصمك في الدين. فقال الحسن: أما أنا فقد أبصرت ديني فإن كنت أضللت دينك فالتمسه.

وقال رجل يقال له أبو الحويرة ـ وكان يتهم بالإرجاء لمالك بن أنس رضي الله عنه ـ: يا أبا عبد الله اسمع مني شيئاً أكلمك به وأحاجك وأخبرك. فقال مالك: فإن غلبتني. قال: إن غلبتك اتبعني. قال: فإن جاء رجل آخر فغلبنا. قال: نتبعه. فقال مالك: يا عبد الله قد بعث الله إلينا نبيه صلى الله عليه وسلم بدين واحد وأراك تنتقل من دينٍ إلى دين.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن يكرم دينه فلا يخاصم أهل الأهواء.

وإذ وقع ذكر أهل الأهواء فلنذكر فيهم حديثاً خرجه أبو داود عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة. وإنه سيخرج في أمتي قوم تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منهم عرق ولا مفصل إلا دخله.

وقال أبو عاصم حشيش بن أصرم النسائي رضي الله عنه: بلغنا أن أول من افترق من هذه الأمة: الزنادقة وهم خمس فرق، والجهمية وهم ثمان فرق، والقدرية وهم سبع

فرق، والمرجئة وهم اثنتا عشرة فرقة، والرافضة خمسة عشر فرقة، والحرورية خمس وعشرون. فذلك ثنتان وسبعون فرقة. فهذا جماع الفرق وأصولها.

ثم تشعبت كل فرقة من هذه الفرق على فرق، واختلف في الفروع فكفّر بعضهم بعضاً، وجهّل بعضهم بعضاً. فافترق من الزنادقة فرقة على ست فرق منهم: الروحانية، ومنهم المعطلة ومنهم المانوية ـ نسبوا إلى ماني ـ رجل منهم يدعو إلى اثنين، ومنهم العبدلية نسبوا إلى رجل اسمه عبدل.

وأما الجهمية فنسبوا إلى جهم بن صفوان، أنكر العرش والكرسي، وأنكر أن يكون الله في السماء، والإجازة على الصراط، والميزان، والملائكة الحافظين، والحجاب، والنزول، والنظر إلى الله تعالى، والسمع والبصر، وأنكر أن ملك الموت يقبض الأرواح، وعذاب القبر، ومنكراً ونكيراً، وأنكر أن الله تعالى يتكلم، وأنه كلم موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم، والشفاعة، وأن يخرج أحد من النار، وأنكر خلق الجنة والنار، وزعم أنهما يخلقان ثم يفنيان بعد خلقهما، وأنكر أشياء غير هذه مما يعتقده أهل السّنة ويؤمنون به.

وأما المرجئة فأصناف أيضاً ومذاهب نعوذ بالله من ذلك. وكذلك الرافضة تفترق إلى ما تقدم، منهم البيانية نسبوا إلى رجل اسمه بيان، والجمهورية نسبوا إلى جمهور، والسبائية، والمنصورية، والمختارية، والكاملية، والمغيرية، والخطابية، والزيدية، والشيعة.

وأما الحرورية فهم أيضاً أصناف منهم: الأزارقة، نسبوا إلى نافع بن الأزرق. والنجدية سموا بنجدة بن عامر. والإباضية سموا بعبد الله بن إباض. والصفرية سموا بعبيدة بن الأصفر. والبيهسية، والثعلبية. ومن هؤلاء الأصناف خرجت الخوارج، وهم المارقون الذين أراح الله منهم على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأما القدرية فهم أيضاً أصناف كما تقدم: سبعة نسبوا إلى القدر لأنهم يقولون: لا قدر. وقد احتج رجل منهم بهذه التسمية لأهل السنّة فقال: إنهم أحق بهذا الاسم الذي تثبتونه لأنفسكم منا. فخصمه والحمد لله.

ومن الشيعة ممن لم يذكره حشيش وذكرهم ابن السيد قوم يقال لهم: المخمسة، يزعمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم وعلياً وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم كالشخص الواحد، وأن الروح كان مجراه فيهم مجرى واحد. ومن ظريف أمرهم أنهم زعموا أن فاطمة كانت امرأة في الظاهر ورجلاً في الحقيقة والباطن، وكانوا يسمونها فاطما بغير هاء، ولذلك قال بعض شعرائهم:

توليت بعد الله في الدين خمسة   نبياً وسبطيه وشيخاً وفاطما

ومن غريب أمر هذه الطائفة أنها لا تأكل الكرنب، ويعتلون في ذلك بأنه نبت على دم الحسين رضي الله عنه وعن أهل السنّة.

قلت: أجمع الناس على قول لا حول ولا قوة إلا بالله، ومعناه: لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بالله، فمن قالها موقناً بها فينبغي أن يستعملها فعلاً كما نطق بها قولاً، فيعلم أنه لا يملك مع الله ضراً، ولا نفعاً، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نشوراً، ولا خلقاً ولا رزقاً، وأنه لا فاعل إلا الله وحده. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [الروم: ٤٠] انظر هذا الترتيب العجيب هل يشك عاقل في أنه كذلك، وهذه أربعة أحوال منتظمة لا تخرج واحدة منها عن صاحبتها. ألا ترى أنك لا تقول أبي خلقني وإن كان السبب فيك. ولا تقول هو يميتني ولا هو يحييني، فكذلك ينبغي أن تقول هو يرزقني، وإلا فأي فائدة من قراءتك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨]. إن كنت متوكلاً على فلان أو على صحة أو على صناعة أو على مال وإن كانت هذه كلها أسباباً فانظر المسبب الأوّل الذي عليه المعوّل، ولي قطعة مطوّلة فيها:

شغلنا عن الرزاق جهلاً بما نرى   من السبب البادي فأين المسبب

انظرها في التكميل.

أما علمت أن الله يرزق بسبب وبغير سبب؟! نعم. وقد يرزق بالسبب اليسير كما يرزق بالكثير. كم رأينا من رجل ما تساوي سلعته التي تصرف بين يديه درهماً، ومثله يأكل ويلبس ويسكن هو وعياله عمره، كما يصنع الذي يصرف الألوف، وإن لم يستويا في الرفاهية فقد استويا في المعيشة. إذ لو لم يأكل هذا القليل المال شيئاً لمات. فإذاً لا يزيد عليه الغني إلا بالشبع والشهوات، ومعلوم أن الفقير أحسن منه في الآخرة وأقلّ حساباً إذا صبر وسلم دينه ورضي بحاله. وأيضاً فتلك الشهوات التي تلذذ بها هذا الغني إنما لذتها وطيبتها ما دامت في فيه فإذا جاوزت الحلقوم فقد ذهب طيبها. وفي هذا المعنى قال الشاعر:

إذا ما شئت أن تعلم   يوماً كذب الشهوه
فكل ما شئت يغنيك   من المزة والحلوه
وطأ من شئت يحصنك   عن الحسناء في الذروه
وقد ينسيك ما تهواه   نيل الشيء ولم تهوه

وقال بعض الحكماء: فساد الذات في اللذات، وقسمها فقال: لذة ساعةٍ الأكل

الشهي، وقيل الجماع، ولذة اليوم مجالسة صلحاء الإخوان، ولذة الجمعة الثوب الجديد، ولذة الشهر المركب الحسن، ولذة العام العروس المحمودة، والدار الجديدة، ولذة العمر إخلاص العبادة. ومما قلته في القناعة بما قلّ:

لأكل الحوت مشوياً بتين ويسلم لي من الآفات ديني
أحب إليّ من دين سقيم وأكل الخبز باللحم السمين

في أبيات كثيرة انظرها في التكميل.

رجع الكلام :

قلت: والحكمة في ارتباط هذه الأسباب بالمسببات انخراق العادة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء رضي الله عنهم كما تقدم قبل. ومشغلة أيضاً ليؤمن من يؤمن فيقول: الله يرزقني، ويكفر من يكفر فيقول: لولا فلان ولولا كذا لهلكت. ومن نظر بعين الحقيقة رأى أن رزقه قد كتب وهو في بطن أمه، ومن زاد علمه رآه مكتوباً في اللوح المحفوظ، ومن علا علمه رأى رزقه في علم الله القديم قبل أن يخلق القلم واللوح والنون وهي الدواة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول ما خلق الله القلم ثم خلق النون وهي الدواة، ثم خلق اللوح ثم قال للقلم: اكتب. قال: وما أكتب أي رب؟ قال: اكتب القدر. وخلق الدنيا وما يكون فيها من خلق أو مخلوق أو عمل ومعمول من برّ أو فجور أو رزق حرامٍ أو حلال، أو رطبٍ أو يابس.

ثم ألزم كل شيء من ذلك شأنه، ثم جعل لذلك الكتاب ملائكة، وجعل للخلق ملائكة. فتنطلق ملائكة الخلق إلى ملائكة الكتاب فيلقون إليهم النسخ بما هو كائن في الليل والنهار بما وكلوا به، فتهبط ملائكة الخلق إلى الخلق فيحفظونهم بأمر الله ويسوقونهم إلى ما في أيديهم من النسخ. وذلك قوله تعالى: ﴿ نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩] فقال رجل لابن عباس ما كنا نرى ذلك إلا نسخ أعمالنا. فقال ابن عباس: ألا تستحيون ألستم قوماً عرباً؟ وهل كان النسخ إلا من كتاب مكتوب. فوالله إن الملك ليبعث إليه صحيفتان إحداهما مختومة والأخرى منشورة. فيقال له: اكتب في هذه ولا تفتح المختومة ولا تكسر لها خاتماً فإذا صعد فك الخاتم ثم عارض فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومن وصية لقمان لابنه: يا بنيّ واردد رغبتك إلى الله إن شاء أعطاك وإن شاء منعك، فإن حيلتك لن تزيدك ولن تنقصك من قسمة الله التي قسم لك شيئاً، واعتبر

رزقك بخلقك، فإن استطعت أن تزيد في واحد منهما، فإن من الخلق المحتال الجلد البطش ولا يزداد إلا فقراً، ومنهم الضعيف الواهن المهين ولا يزداد ماله إلا كثرة. ولو كان من الحيلة لسبق القوي الضعيف إلى كل شيء. وقال الشاعر:

قد يرزق المرء لا من فضل حيلته ... ويصرف الرزق عن ذي الحيلة الداهي
ما نالني من غنى يوماً ولا عدم ... إلا وقلت عليه الحمد لله

وقال آخر:

قد يرزق المرء لا من فضل حيلته ... لكن جدود بأرزاق وأقسام
كالصيد يحرمه الرامي المجيد وقد ... يرمي فيرزقه من ليس بالرامي

وقيل لبعضهم: من أين تأكل؟ فقال: لو كنا نعلم من أين نأكل لطال جوعنا. وقيل لآخركذلك: من أين تأكل؟ فقال: ليس هذا لي، ولكن قل لربك من أين تطعم.

وكذلك يروى أن حكيماً سئل: ما بال العاقل محروماً والأحمق مرزوقاً؟ فقال: أراد الصانع أن يدل على نفسه، ولو كان كل عاقل مرزوقاً أو كل أحمق محروماً لوقع في العقول أن العاقل رزق نفسه والأحمق حرم نفسه. فلما رأوا الأمر بخلاف هذا علموا أن الصانع هو الرزاق.

وقال حكيم آخر: السبب الذي أدرك به العاجز حاجته هو الذي أقعد الحازم عن درك بغيته، والأمر الذي يحول بين العاقل وسعة الرزق هو الذي يوصل الجاهل إلى نيله، وفي كل شيء حيلة إلا في القضاء، وكل شيء يستطاع نقله إلا الطباع. وقال الشاعر:

وتأبى الطباع على الناقل

وقال آخر:

إن المتخلق يأبى دونه الخلق

وقال مجاهد: الشقاء والسعادة لا يمحيان. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٣٩] إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت.

وقال أبيّ بن كعب رضي الله عنه: قرأت في اثنين وسبعين كتاباً من كتب الله عز وجل: من أضاف لنفسه شيئاً من الاستطاعة فقد كفر. وبعد هذا فيخرج من هذا كله أنه: لا إله إلا الله، المعطي، المانع، الضار، النافع، المعزّ، المذلّ، الهادي، المضلّ، الفعال لما يشاء. والعبد متصرف، متكلف، محكوم، مغلوب، مقهور، مطلوب، لا يملك لنفسه

ضراً ولا نفعاً، ولا يستطيع عنها من المقدور دفعاً، قد وكل به شيطان يعده بالفقر ويأمره بالفحشاء، ونفس أمارة بالسوء يخاف عليها الوقوع في المعاصي ويخشى، والمعصوم من عصمه الله.

وقال بعض الحكماء: إن استطعت أن لا تضر من تحب فافعل. قيل: كيف؟ قال: نفسك أحب الأشياء إليك وأنت تضرها بالمعاصي. وقال الشاعر:

ركوب المعاصي يذل النواصي ... فخذ في الخلاص فما من مناص

وكان الحسن رضي الله عنه كثيراً ما يقول: ما خير من لا يرحم نفسه. ولي في هذا المعنى:

من ليس يرحم نفسه ويصدّها ... عما سيهلكها فليس بمشفق

في قطعة مطولة تقدم بعضها.

وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: مسكين ابن آدم جسم معيب وقلب معيب يريد أن يخرج من معيبين عملاً بلا عيب. ولقد اعتذر واستقال من قال:

لي نفس يسرها ... كل شيء يضرها
فهي تبلى مع الزمان ... فيزداد شرها

وقال آخر:

وقد يهلك الإنسان من باب أمنه ... وينجو بحول الله من حيث يحذر
يرى الشيء مما يتقي فيخافه ... وما لا يرى مما يقي الله أكثر

وقد ذكر النقاش هذا المعنى فقال: إن الله تعالى يأتي بالمنفعة من حيث المضرة. قال الله عز وجل: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص: ٧]، ويأتي بالمضرة من حيث المنفعة. قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف: ٢٤]. ومن كلام الحكماء: رب مسرة هي الداء، ومرض هو الشفاء. وإلى هذا المعنى نظر أبو الطيّب:

لعل عتبك محمود عواقبه ... فربّما صحت الأجسام بالعلل

حدثني بعض الأصحاب عن مالك رضي الله عنه أنه كان له ابن أصابه الجذام، فحبس في القصر وعولج بكل دواء فلم ينفعه، فبينما هو ذات يوم قاعد وهو يتفكر في حاله وما يقاسي من البلاء، إذ رأى حيّة قد خرجت من ثقب وعمدت إلى صحفة كانت في البيت فيها لبن فولغت فيه ثم انصرفت. فقال الغلام في نفسه: أقوم إلى هذا اللبن فأشربه لعل فيه سمّاً من الحية فيقتلني فأستريح، فقام إليه فشربه فكان فيه شفاؤه، فبرأ

بإذن الله تعالى. هذا معنى كلامه. ومن قول الحكماء: لن ينجي الحذر من القدر. وقال الشاعر:

ما قد قضى يا نفس فاصبري له ... ولك الأمان من الذي لم يقدر

وقال آخر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأكثر ما يجني عليه اختياره

وقال آخر:

وكم من طالبٍ يسعى لشيء ... وفيه هلاكه لو كان يدري

وقال آخر:

من نال من دنياه أمنية ... أسقطت الأيام منه الألف

وقال آخر:

وإياك المطامع والأماني ... فكم أمنية جلبت منيه

وقال آخر:

وإذا خشيت من الأمور مقدّراً ... ففررت منه فنحوه تتوجه

يروى أن رجلاً نزل الوباء في أرضه فركب حماره فبينما هو يعدو إذ سمع هاتفاً يقول له:

لن تسبق الله على حمار ... ولا على ذي منعة طيار

قد يصبح الله أمام الساري

وقد أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:

كأن فجاج الأرض كفاك أن يفر ... بها خائف تشدد عليه الأناملا

فأين يفر المرء عنك بجرمه ... إذا كان يطوي في يديك المراحلا

رأيت هذا الشعر لأبي الغوث الصقلي وهو:

كأن بلاد الله كفاك أن يسر ... بها هارب تجمع عليه الأناملا

فإن كان له فتلك رواية، وإن كان لغيره فقد وقع الحافر على الحافر. ومثله من يقول:

كأن بلاد الله وهي عريضة ... على الخائف المطلوب كفة حابل

وقد سبق هؤلاء النابغة إذ يقول:

وإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

خطاطيف حجن في حبال متينة ... تمدّ بها أيد إليك نوازع

قال منوجهر بن أيرج حين عقد التاج على رأسه في خطبة له طويلة: أيها الناس،

إن الحمد للخالق، وإن الشكر للمنعم، وإن التسليم للقادر، وإنه لا أضعف من مخلوق مطالباً أو مطلوباً، ولا أقوى من طالب طلبته في يده، ولا أعجز من مطلوب هو في يد طالبه. خرجه الطبري. وقال آخر:

تعلم رسول الله أنك مدركي ... وأن وعيداً منك كالأخذ باليد

إذا قيل مثل هذا في المخلوق المملوك، فكيف بالخلاّق مالك الملوك. ومن نوع ما تقدم قول الشاعر:

ترجو خلوداً بديار البلى ... إن الذي تطلبه مختلف

وقال آخر:

تؤمل أن تعمر عمر نوح ... وأمر الله يحدث كل ليله

جاء في التفسير أن نوحاً عليه السلام أرسله الله بعد آدم بثمانمائة سنة. وهو أول نبي بعثه الله إلى قومه وهو ابن أربعمائة سنة ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤] كما قال الله عز وجل، فلم يؤمن معه إلا قليل. فدعا عليهم فأنزل الله عليهم الطوفان وهو الماء الكثير، نزل عليهم أربعين يوماً وأربعين ليلة، ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر: ١٢] فأتلف كل شيء على الأرض إلا من كان في السفينة. وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وأولاده الثلاثة: سام وحام ويافث ونساؤهم، ومن كل زوجين اثنين من غير بني آدم. وأقاموا في السفينة مائة وثمانين يوماً من عشر خلون من رجب إلى عشر من المحرم، وعاش الأربعون رجلاً ولم يتناسلوا، وتناسل أولاد نوح، فكل بني آدم من أولادهم، وعاش نوح بعد خروجه من السفينة ثلاثمائة وخمسين عاماً، والله أعلم. فرغ هذا.

خرجت من شيء إلى غيره ... وكله علم وقول سديد

يحتاجه القارئ والسامعو ... ن الكل منهم راغب في المزيد

وها أنا آخذ في قلب ذا البيت ... بعون الله ربي المجيد

مقلوب البيت ألف بين حرفين

داد: لم أجد فيه غير: داد، ودأد، وذاد. فأما داد: فنبات عندنا معلوم ولا أدري أعربي هو أم لا. وقد سألت عنه بعض أشياخي فقال: لا أعرف غير داذ ـ بدال غير معجمة بعدها ذال معجمة ـ وهو نبات أحمر توصف به الخمر، وأنشدني بيتاً لأحد الشعراء يصف الخمر أنسيته غير أني أحفظ أوله:

حكته حمرة الداذي ....

وقال صاحب كتاب العين: الداذي نبت. ويقال: هو شيء يجعل في النبيذ. قال الشاعر:

شربنا من الداذي حتى كأننا .... البيت

ويقال: يدأد اللحم وأداد ودوّد.

ذاد: أما ذاد فمعلوم. ذاد الرجل إبله عن الحوض إذا طردها عن الشرب. وفي الحديث: فليذاد رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال. نعوذ بالله من تلك الحال. واسم الفاعل من هذا ذائد، وقد يقال للرجل الشديد البأس في القتال: مذود. ومنه قول كعب بن مالك رضي الله عنه:

ونحن وردنا خيبراً وفروضه بكل فتى عاري الأشاجع مذود
نذود ونحمي عن ديار محمد وندفع عنه باللسان وباليد

ويجمع مذود على مذاويد. قال تميم بن أبي نفيل:

مذاويد بالبيض الحديث صقالها عن الركب أحياناً إذا الركب أوجفوا

ومعنى أوجفوا: حركوا وأتعبوا. من قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ [الحشر: ٦]، ويقال من هذا الفعل: ذدت الرجل عن كذا أذوده ذوداً: إذا دفعته.

الذود: والذود: القطيع من الإبل. والذود: من الثلاث إلى العشر، ولا يكون الذود إلا إناثاً، كذا قال الزبيدي، ولا واحد لها من لفظها. وقال عيسى بن دينار في قوله عليه الصلاة والسلام: وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة. قال: الذود هو جمل واحد، ويشهد لهذا قوله: الذود إلى الذود إبل، وإلى هنا بمعنى مع، وذياد وذواد وذويد: من أسماء الرجال.

دل وذل: تفسير القوافي. أما قافية البيت الأول: دل وذل: تقول دل فلان على كذا إذا هدى إليه وأرشده، من قوله تعالى: ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ ﴾ [سبأ: ١٤]. يعني: أرشدهم وأعلمهم، والله أعلم.

ومن شكله: دل على كذا، إذا أمرت، وكذلك إذا بني لما يسم فاعله، ومصدر دل، وفي الحديث: ودل الطريق صدقة. والدل أيضاً: دلال المرأة إذا أدلت في غنج وشكل. وامرأة ذات دل. والدل مثل السمت والهدي والسكينة والوقار والمنظر والشمائل. أدل الرجل على صاحبه إدلالاً: إذا وثق بمحبة صاحبه فأفرط عليه. ومن أمثالهم: أدل فأملّ. والاسم: الدالة. ويقال: فلان يدل على أقرانه في الحرب كالبازي

يدل على صيده، والدلالة والدِلالة: مصدر الدليل ومصدر دل أيضاً. وكذلك دلولة ودلالة بالفتح أشهر. وهو اسم لما يجعل للدّلال، والدلال فعال من دل، ويجمع دليل على أدلاء وأدلة.

الدليلى وما يُماثلها: والاسم الدليلى، ومثله الْخصيصي: من الْخصوصية، والنميمي: لكثير النميمة، والمنينى: من المنّ، والخليفى: من الخلافة، والهجيرى: الكلمة التي يلهج بها قائلها والخطيبى: من الْخطابة، والبزيزى: من التغلب والسلب، من قولهم: من عز بز، أي: من غلب سلب. يقال: كانت بينهم رميسى، ثم حجزت بينهم حجيزى، والهزيمى: من الهزيمة، والْمسيسى: من الْمماسة.

ردّ: والرديدى: من الردّ، وجاء في الحديث: لا ردّيدى في الصدقة. فسر بالرديء وكذلك المردود. ويقال له الردّ. ويقال أيضاً: هذا شيء ردّ؛ أي: رديء. وفي لسانه ردة أي: حبسة، والمردودة أيضاً: المرأة إذا طلقت ثم ردّت إلى بيت أبيها. وفي الحديث عن بعض الصحابة ـ أظنه عبد الله بن عمر ـ وذكر مسكناً قال: هو للمردودة من بناتي، أو كما قال. والمردودة أيضاً الموسى؛ لأنها ترد في نصابها.

اجريا: وقريب مما تقدم: اجريا وليس في الكلام غيره وهجيرى. وقال الكميت في اجريا:

على تلك اجرياي وهي ضريبتي ... ولو أجلبوا طراً عليّ وأحلبوا

أي: عادتي. وأحلبوا: مثل تألبوا واجتمعوا. وقال آخر:

وكل باجريا أوائله يجري

أي: على عادة آبائه.

الدلدل: ودلة اسم امرأة. والدلدل أعظم من القنفذ. وقال ابن دريد: هو الشهم وهو القنفذ العظيم الطويل الشوك، ودلدل: اسم بغلة النبي صلى الله عليه وسلم وسيأتي. ويقال تدلدل الشيء: تحرك. والدلدل: الاضطراب. والدلدلة: تحريك الرجل رأسه وأعضاءه في المشي، وإن جعلت الواو من نفس الكلمة في ودل جاء من مقلوبها: دلو، وولد، وولِد، وولد وولد، واطلب تصب. ومقلوب دل: لد، يقال منه: لد يلد لداً.

اللدود: واللدود: دواء يجعل في أحد شقي الفم، فإن كان في الأنف فهو السعوط. تقول منه: لد، إذا أمرت، وكذلك إذا بنيته لما لم يسم فاعله. وفي الحديث: لدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن شكله لد: جمع ألد. وفي التنزيل: ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧]، ولدّ: اسم بلد.

التلدد: والتلدد: التلفت، ولديد الوادي: أحد جانبيه، وهما اللديدان، واللديدان

أيضاً صفحتا العنق. والمتلدّد: العنق. واللدد: شدّة الخصومة. ورجل ألد، وقوم لد، والألندد واليلندد مثله: الخصم العسر ذو اللدد: مثل الألد. ولدّه عن كذا، أي: حبسه.

الكلام في الدال: قد تقدم أن مخرجها قريب من التاء والطاء، ولذلك جعلوا الدال والطاء في قافية واحدة، كما قال الشاعر:

كأن تحت درعها المنقد   شطاً رميت فوقه بشط

وقال غيره:

إذا نزلت فاجعلوني وسطا   إني كبرت لا أطيق العندا

كذا رويته في أدب الكتاب. وقال: العند الجانب.

ووقع في تاج اللغة:

إذا ركبت فاجعلاني وسطا   إني كبرت لا أطيق العندا

وفسره: جمع عاند، ك: راكع وركع، وهو البعير الذي يجور عن الطريق.

عند عن الطريق يعند بالضم عنوداً أي: عدل فهو عنود. والعنيد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾ [المدثر: ١٦] أي: معانداً لنا جاحداً بها. قاله ابن سلام. وقد تقدم قد وقط. وسيأتي في باب الطاء اجتماعهما في أطت الإبل وأدّت. وقد تقدم اجتماع الطاء مع التاء في أقطار وأقتار، وتصغير دال دويلة، وكذلك الذال.

دد: ومن تكرير الدال: دد، وليس في الكلام غيره، وسيأتي. ومن شكل دال: دالّ اسم فاعل. وفي الحديث: الدال على الخير كفاعله. ومن شكله أيضاً: دأل يدأل دألاً: مشية فيها ضعف وعجلة. ويقال هذا بالذال المعجمة أيضاً، وسيأتي. والدأل: الختل، ومعكوس دال: لادّ اسم فاعل من لدّ، كما تقدم لات اسم فاعل من لت، ومقلوبه: أدل جمع دلو، ويجمع أيضاً على دلاء ودلي، وقد تقدم قول حسّان:

وبحر لا تكدّره الدلاء

والدلاة: لغة في الدلو، وقد تقدم:

آليت لا أعطي غلاماً أبدا   دلاته إني أحب الأسودا

وفسر دلاته أي سجله ونصيبه، وتقول: أدل دلوك يا هذا إذا أمرته أن يرسلها. وفي القرآن العظيم: ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ [يوسف: ١٩]. ودليت الدلو: استقيتها. والأمر من هذا: ادل بالكسر وهو من الشكل، والأدل: وجع في العنق، والأدل أيضاً: ضرب من اللبن يتغير عن مخضه. يقال: جاءنا بأدلة ما تطاق حمضاً، والدالي: هو المستقي. قال الراجز:

سلم ترى الدالي منه أزورا   إذا يعب في السري هرهرا

السلم: الدلو، وكذلك الذنوب والغرب مثله، والغرب في غير هذا: الحدّة. يقال: فل من غربك أي: من حدتك. وقوله: هرهرا، هو مضاعف هرّ. ومنه حديث عبد الله الخولاني قال: قدم علينا رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دمشق فرأى ما هم فيه من الدنيا، فقال: وما تغني عنهم أليس من ورائهم الفلق؟ قيل: وما الفلق؟ قال: جب في النار إذا فتح هرّ منه أهل النار. ذكره ثابت.

وقوله: من ورائهم، يعني: أمامهم، وسيأتي في الباب بعد هذا إن شاء الله تعالى. وأزور: مائل وقد تقدم. يعب والسري: النهر، وكذا فسره ابن سلام في قوله: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤] قال: السري الجدول وهو النهر الصغير. وسمي السيد سريا تشبيهاً بالنهر. وتقول: أدل بحجتك بالفتح: أي: أظهرها وأحضرها. وكذلك تقول: أدلى إليه بماله: إذا دفعه إليه. وبنو الدؤل وبنو الديل: حيان من العرب، وكذا بنو الدويل.

الدولة: والدولة الدولة لغتان، والادالة منه، وهي: الغلبة. يقال: اللهم أدلني على فلان أي: انصرني عليه. ومنه قولهم: دالت الأيام أي دارت. وفي التنزيل: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. وقولهم: دواليك، من هذا، أي: تداول بعد تداول. قال الشاعر:

إذا شق برد شق بالبرد غيره ... دواليك حتى كلنا غير لابس

ويأتي من هذا الفعل أدل وهو من الشكل، وكذلك فلان أدل من فلان.

التولة: والدولة والتولة مثل الهمزة: الداهية، وكذلك الدولات. يقال: جاءنا بدولاته وتولاته، أي: بالدواهي. قال الخليل: التِّولة والتُّولة بكسر التاء وضمها شبه السحر. وفلان ذو تولات: إذا كان ذا لطف وتأت كأنه سحر صاحبه. وقال الأصمعي: التولة ما تتحبب به المرأة إلى زوجها.

لدى: ومعكوس أدل: لدى، لو كتبتها بالألف. قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: ٥٤] ومعناه: عند. ويقال فيها أيضاً: لدن. قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٦]و﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ [الكهف: ٧٦]. ومقلوب أدل: ألد، وقد تقدم. ولي في الدال التزام غريب، وللخطيب عليه جواب عجيب. قلت شعراً ضمنت كل كلمة فيها دالاً، والتزمت أن يكون كله دون خلط ولا نقط وبعثت به إلى الطلبة وكتبت قبله:

يا أهل مالقة هل فيكم رجل ... يقول شعراً بلا خلط ولا نقط

مــا لفظــة فــيه إلا فــي مــضمنها دال في الأوّل أو في الطرف والوسط
ومــا تكــرر مــنها لفظــة ذكــرت فــي مصدر أو سواه نحو ذا الــنمط
داود ودّ ودرّ وده درك هــذا المــثال فأبــرز درّة الــسفط

في أبيات كثيرة كتبت بها إليهم وموّهت بها عليهم والأبيات المشروطة من هذا القبيل. فما أجاب عنها أحد منهم بكثير ولا قليل إلا الفقيه الخطيب فإنه أجاب على ذلك بمنظوم ومنثور جميع ذلك في التكميل مسطور. قافية البيت الثاني: وذل ودل.

ذل: أما ذل: فمعلوم فعل ماض ذل يذل، ومصدره ذل المذكور. يقال ذلة أيضاً، يقولون ما به من الذل والقل أي: من الذلة والقلة. ويقال: الذل بالكسر اللين والضعف، وكذا قرأ سعيد ابن جبير ويحيى بن وثاب وعاصم الحجدري: (واخفض لهما جناح الذِّل) بكسر الذال. قال النحاس: ومعنى هذه اللفظة اسمح لهما. يقال: رجل ذليل بين الذل، إذا كان سمحاً ليناً مواتياً. وكذلك يقال في الدابة وقد تقدم.

والجمع أذلال من قولهم: أمور الله جارية على أذلالها، وكذلك: إن الأمور تجري على أذلالها، أي: على مسالكها وطرقها. ودعه على أذلاله، أي: على حاله. وجاء فلان على أذلاله أي: على وجهه وطريقته، وذلل الكرم: إذا تدلى، وكذلك النخل، وفي التنزيل: ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٤] وفي الحديث: والنخل قد ذللت. وفي القرآن أيضاً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ [الملك: ١٥] جاء في التفسير: سهلة تمشون عليها، ومناكبها: طرقها. وقيل: في أطرافها وفجاجها.

وتقول: ذلت الدابة بعد شماس وتصعب ذلاً، والرجل ذليل، والدابة ذلول، والذلذل والذلذال والذلذول: أسفل القميص، والجمع: ذلاذل. قال الشاعر:

فخــرجت أحــضر فــي ذلاذل جبتــي لــولا الحــياء أطــرتها إحــضارا

والذليل يجمع على أذلة. قال الله تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] أي: لينون لهم، ليس من الهوان إنّما هو من الرفق من قولك: دابة ذلول كما تقدم أي: منقاد سهل ليّن. وضده: ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] أي: يغازونهم ويغالبونهم ويمانعونهم. من قولهم: من عز بزّ، كما تقدم أيضاً.

لذ: ومعكوس ذل: لذ، يقال: شراب لذ ولذيذ، وهو يلذ الطعام والشراب لذاذة: إذا وجد ذلك لذيذاً، واستلذه استلذاذاً، والطعام لذ ولذيذ، ويجمع على لذاذ، وأنشد:

مــــلاذة فـــي الأعـــصر اللـــذاذ

ويمكن أن يكون لذاذ جمع لذيذ مثل: سمين وسمان.

اللذلذة: وقد قالوا من مضاعفه: اللذلذة، وهي السرعة والخفة. يقال: رجل لذيذ، إذا كان خفيفاً سريعاً في عمله. وبه سمي الذئب لذلاذاً. ويقال للذة: اللذوا. وفي حديث عائشة رضي الله عنها؛ وذكرت الدنيا؛ فقالت: قد مضى لذواها وبقي بلواها. ذكره الخطابي. ومن أحسن ما قيل في هذه اللفظة وأجوده وأقنعه وأزهده:

ألــذ جمــيل الــصبر عمــا ألــذه ... وأهــوى لِمــا أهــواه تــركاً فأتــركه

واللذ أيضاً: النوم. قال الشاعر:

ولــذ كطعــم الــصرخديّ طــرحته ... عشية خمس القوم والعين عاشقه

وصرخد موضع ينسب إليه الشراب. وسترى في التكميل قول الخطيب الجليل:

إن الــــــشطون لذيــــــذ ... طبــــــيخه والحنــــــيذ

الذي: وكنت وعدت بالكلام في: الذي، وهذا موضعه لأن أصله لذي، فهو يليق بهذا الباب. قالوا: لذي أدخلت عليه الألف واللام ولا يجوز أن ينزعا منه وهو اسم مبهم للمذكر، وفيه أربع لغات: الذي: بياء، واللذ: بغير ياء وكسر الذال، واللذ: بإسكانها، والذيُّ: بياء مضمومة مشددة. وفي تثنيته ثلاث لغات: اللذان؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦]، واللذا: بغير نون؛ كما قال الشاعر:

أبنــي كلــيب أن عمــيّ اللــذا ... قــتلا الملــوك وفككــا الأغــلالا

واللذانّ: بالنون المشددة. وفي جمعها لغتان: الذين: في الرفع والنصب والخفض؛ وهو المشهور. والذي: كما قال الشاعر:

وإن الــذي حانــت بفلــج دمــاؤهم ... هــم القــوم كـل القــوم يـا أم خالـد

يعني الذين.

ومنهم من يقول في الرفع: اللذون، وتصغيره: اللذيا، فإذا ثنيته مصغراً أو جمعته قلت: اللذيان واللذيون. قاله الجوهري.

فصل آخر: بقي الكلام في شكل الذال وقد تقدم تصغيرها، وتقدم الكلام في مخرجها أيضاً عند ذكر الطاء والتاء، لأن ذلك واحد وقريب بعضه من بعض، ألا تراهم جمعوا بين الذال والظاء في قافية واحدة كقول الراجز:

كأنهــا والعهــد مــذ أقــياظ ... أس جراميــز علــى وجــاذ

ذكره ابن قتيبة وقال: الجرموز: الحوض الصغير. والوجاذ: المشرف من الأرض.

ذال: ومن شكل ذال: ذال اسم فاعل من ذل؛ قاله النحاس. يقال: ذل يذل ذلة ومذلة وذلاً: فهو ذال وذليل. ومن شكله أيضاً ذأل يذأل ذألاناً: وهو مشي خفيف وبه

سمي الذئب ذؤالة وهو معرفة، يقال: خش ذؤاله بالحباله. وقد ذكرت هذه اللفظة في التكميل في خبر طويل عجيب. يقال: ذألت الناقة تذأل ذألاً وذألاناً. والذولان: ابن آوى. ويقال: هو جمع ذؤالة. وقال ابن السكيت: ذألان الذئب، ويجمع على ذآليل.

لاذ: ومن معكوسه لاذ: فعل ماض، تقول: لاذ يلوذ لوذاًولواذاً ولياذاً: إذا تستر بشيء. وفي التنزيل: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ [النور: ٦٣]، وقال الشاعر:

وقـــــريش تفـــــرّ مـــــنا لـــــواذا

وقيل: هو مصدر لاوذ. واللاذ أيضاً: ثياب من حرير تنسج بالصين، واحدتها: لاذة. وسيأتي في التكميل قول الخطيب:

نـــيلك يـــا ابـــن الكـــرام ويـــل ... لـــم تـــرض طـــلاً ولا رذاذا
أضـــحى بـــك الجـــود ذا اهتـــزاز ... وجـــرّت المكـــرمات لاذا

من شعر حسن في رسالة على حروف المعجم.

وجاء من مقلوب ذال: أذل، أمر من أذال يذيل إذالة، والفاعل: مذيل، والمفعول: مذال؛ وهو المهان. ومنه قول مالك بن أنس رضي الله عنه: من إذالة العلم أن ينطق به قبل أن يسأل عنه، أي: من إهانته وضعته. يقال: أذل هذا وارفع هذا، أي: ارفع وضع. وقال الشاعر:

أذال الـــشيب يـــا صـــاحي شـــبابي ... فعوّضـــت البغـــيض مـــن الحبـــيب

ولو قال في هذا الشعر: أدال؛ بدال غير معجمة؛ لكان صواباً.

ومن هذا الشكل: فلان أذل من فلان. وفي التنزيل: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨] وفي الآية قراءة شاذة لكن لها معنى مليح وهي: (ليخرجن الأعز منها الأذل) بجعل الفعل غير متعدّ، والأعز فاعلاً به، والأذل: حالاً، أي: ذليلاً، ولا يقال من شرط الحال التنكير. فقد قالوا: أدخلوا الأول فالأول:

خـــرجت مـــن شـــيء إلـــى غيـــره ... كـــذلك العلـــم طـــويل مديـــد
إن قلـــت مـــا للعلـــم مـــن آخـــر ... فأنـــت فـــي ذاك صـــدوق ســـديد
العلـــم لله ومـــا عـــندنا ... مـــنه ســـوى النـــزر القلـــيل الـــزهيد
وهـــا أنـــا أذكـــر مـــن بعـــد ذا ... فـــصل دد والـــدد شـــغل الولـــيد

فصل:

دد: تقدم ذكر دد، وهذا موضعه، وإن ألحقته بالفوائد لم تظلم، إنه منوّر غير مظلم. قيل دد: اسم موضع، وقيل: هو اللهو، وهو محذوف من ددن، وهو اللهو أيضاً. ويقال: سيف ددان كهام وهو الذي لا يقطع. والددان: الرجل الذي لا غناء عنده. جاء في الحديث من قول النبي صلى الله عليه وسلم: ما أنا من دد ولا الدد مني. وقال الشاعر:

ما لـدد ما لـدد ماله يبكي وقد أنعمت ما باله

وما في قوله: ما باله، زائدة تقديره: أنعمت باله.

قال أبو عبيد: الدد اللهو واللعب. قال الأحمر في الدد ثلاث لغات: دد على مثال يد ودم وددا على مثال عصا وقفا، وددن على مثال حزن. قال الأعشى:

أترحل من ليلى ولَمّا تزوّد وكنت كمن قضى اللبانة من دد

وقال عدي بن زيد:

أيها القلب تعلل بددن إن همي في سماع وأذن

قال وأنشد الأحمر:

من يكن في السواد والدد والأغرام زيراً فإنني غير زير

الديدبون: والديدبون أيضاً اللهو. قال المعري:

قد قطعنا من حندس ونهار وكان الزمان في ديدبون

قال ابن السيد في شرحه: أصل الديدبون العادة التي يعتاد بها الإنسان. يقال: ما زال ذلك دأبه ودينه وديدنه وديدانه وديدبونه. وفي التنزيل: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران: ١١] أي: كعادة، والله أعلم.

تقدم الكلام في الزير والدد. بقي القول في الأذن والسواد، وما يذكر في السواد، وما يتصرف من الددن، مثل: الدن والدنن.

الدن: فأما الدن: فواحد الدنان، وهي أوعية الخمر. وجاء منه في الحديث عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: يا رسول الله إني اشتريت خمراً لأيتام في حجري، قال: أهرق الخمر واكسر الدنان. وقال الشاعر:

وصلى على دنها وارتسم

ومعنى صلى: دعا، لأن الصلاة تكون بمعنى الدعاء. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في إتيان الوليمة: فإن كان مفطراً فليطعم وإن كان صائماً فليصل.

الدنن: والدنن في كل ذي أربع إذا قرب صدره من الأرض، وهو عيب في الخيل. وذكر ثابت في الدلائل أن الدنن دنوّ العنق من الأرض، وتطأطؤ فيه من خلقة أو

كبر. يقال: رجل أدن وامرأة دناء، من قولهم: دن. وقال حسّان بن ثابت رضي الله عنه:

وجـدا بـشماء إذ شـماء بهكـنة هـيفاء لا دنـن فـيها ولا خـور

ذناء: ويقال أيضاً: أذن وامرأة ذناء، ذكر هذا حين فسر قول المرأة التي عرضت للحجاج في الطريق فأنشدته:

مـن لعجـول تبتغـي بـوّها فـرّقها الـصادر والـوارد

فقال الحجاج: كلام والله عربي أدنوها، فقال لها: ما حاجتك؟ فقالت: عجوز ضهياء ذناء وابني في حبسك. فأرسل إليه فأخرج.

قال: العجول من الإبل التي فقدت ولدها، والجمع: العجل. والبوّ: ـ غير مهموز: جلد يحشى تبناً تعطف عليه الناقة. وسيأتي في باب النون. والضهياء: التي لا تحيض خلقة، فأرادت هاهنا أنها قاعد عن الولد والحيض. والذناء: التي يسيل منخراها، تريد أن الكبر انتهى بها أن يسيل مرغها. يقال: رجل أذن وامرأة ذناء. وقد ذن أنفه يذن ذنيناً، وقد ذننت يا رجل ذنناً. وقال يعقوب: الذنين والذنان هو: المخاط الذي يسيل من الأنف. وقد يجوز أن يكون ضهياء دناء بالدال غير معجمة. وهو أشبه بمعنى قول العجوز.

ثم قال: والدنن دنوّ العنق من الأرض. الكلام المتقدم الذكر في تفسير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يأخذ أحداً بقرف ولا يصدق أحداً على أحد.

قال يعقوب: قرفت فلاناً بكذا وكذا: إذا اتهمته بشيء ونسبته إليه، وتقول: بنو فلان قرفتي، أي: عندهم أظن طلبتي. ومنه حديث الحجاج. وساق البيت المتقدم الذي للعجوز.

الدنين: وقريب من هذه اللفظة: الدندن والدنين؛ وهو نبت، يقال: خرج القوم يتدانون أي: يأخذون الدنين، كما يقال: خرجوا يتمغفرون أي: يأخذون المغافير؛ وهو نبت أيضاً. وسيأتي.

والدندن: حطام العشب إذا جف. والدندنة: كلام يردده الإنسان في صدره لا يفهم عنه. وفي الحديث من هذا قول الأعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم: أما أنا فأسأل الله الجنة وأستعيذ به من النار، وأما دندنتك ودندنة معاذ فلا أحسنها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: حولها ندندن. وقال ع: والدندنة والدنين أصوات النحل والزنابير ونحوه من هينمة الكلام.

دِن: ومن شكل دِن: دن، معناه: جازِ، من قولهم: كما تدين تدان. يقال: دِنته بِما صنع، أي: جازيته. ومنه: يوم الدين، أي: يوم الجزاء. ومنه قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦] أي: مجزيين محاسبين. وقد يكون دِن بمعنى: بلّ؛ أمر من:

ودن الشيء يدنه ودناً ودِداناً: بَلّه بالماء.

لطيفة: جاء قوم إلى ابنة الخس بحَجر فقالوا: احذي لنا من هذا نعلاً، فقالت: دنوه؛ أي: بلّوه. ومنه حديث أبي محلم حين كتب إلى حذّاء في نعل له عنده وقال له: دنها فإذا همت تأتدن فلا تخلها تمرخه، وقبل أن تفعل، فإذا ائتدنت فامسحها بخرقة غير وكبة ولا خشنة، وامعسها معساً رفيقاً، ثم سن شفرتك وامهها، فإذا رأيت عليها مثل الهبوة فسن رأس الإزميل ثم سم باسم الله وصل على محمد صلى الله عليه وسلم وكرّف جانبيها كوفاً رقيقاً، وأقبلها بقبالين أخنسين أفطسين غير خليطين ولا أصمعين وليكونا وثيقين، من أديم صافي البشرة غير نمش ولا حلم ولا كدش، واجعل في مقدمها كمنقار النغر. فلما وصل الكتاب إلى الحذّاء لم يعلم منه إلا ولا كدش. فقال: صيرني كداشاً والله لا حذوت له نعله.

والأدن من الخيل: الذي تطامن صدره ودنا من الأرض، وذلك عيب في الفرس والمستحب إشرافه وارتفاعه.

الأذن: وأما الأذن: فهو الاستماع من قوله: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق: ٢] أي: سمعت وأطاعت، وحقت أي: حق لها أن تفعل، كذا قاله ابن سلام. وقال أبو عبيد عن مجاهد سمعت أو استمعت، شك أبو عبيد قال: يقال أذنت للشيء آذن له أذناً، إذا استمعت، وأنشد البيت المتقدم الذي في آخره:

.... إن همـــي فـــي ســــماع وأذن

ساق هذا شاهداً على قول النبي صلى الله عليه وسلم: ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن يجهر به. قال معناه ما استمع الله. وذكر الآية وتفسيرها بما تقدم. قال ويروى: كإذنه من الاستئذان وليس له وجه. انتهى كلامه.

وجاء في حديث آخر: لله أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته. يقال: آذنت بالشيء أعلمت، وآذنني غيري: أعلمني. وفعله بإذني، أي: بعلمي. والأذن والأذين سواء.

ويقال للرجل: أذن، إذا كان يسمع من كل أحد، ولهذا قال المنافقون عن النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة: ٦١]. وتقول: أذنت النعل، جعلت له أذناً. وتقول: تأذنت لأفعلن، أي: أوجبت، من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾ [الأعراف: ١٦٧] والأذان اسم للتأذين، وفي التنزيل: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [التوبة: ٣].

ومن شكله: أذن الجارحة. وفي القرآن العزيز: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٢].

ومن شكله: أذن، أمر من الإعلام. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ [الحج: ٢٧]. ومن شكله أيضاً: إذن، جواب شرط وقد تقدم. ومن الأذن - بالقصر - الذي هو بمعنى: استمع، قول قعنب ابن أم صاحب:

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

من قطعة حسنة أوّلها:

بانت سعاد وأمسى دونها عدن ... وغلقت عندها من قلبك الرهن

ومنها يصف حاله مع قومه:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً ... مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا
جهلاً عليّ وجبناً من عدوّهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن
ولن يراجع قلبي ودّهم أبداً ... زكنت من أمرهم مثل الذي زكنوا

وفي هذا الشعر:

مهلاً أعاذل قد جربت من خلقي ... أني أجود لأقوام وإن ضننوا

قال سيبويه رحمه الله: وقد يبلغ بمضعف الكلام الأصل، فيقال في رادّ: رادد، وفي ضنوا: ضننوا، وأنشد البيت. وكقول رؤبة:

الحمد لله العليّ الأجلل

قال أبو زيد: تثقيل المخفف لغة لبعضهم، وأنشد:

تعرضت لي بمكان خلي ... تعرض المهرة في الطوّل

وأنشد أبو زيد أيضاً:

كان مهواها على الكلكلّ ... موضع كفى راهب يصلي

ومثله:

إني لأرجو أن تروه جدبا ... في عامكم ذا بعد ما أخصبا
إذا دبى فوق المتون دبا ... وهبت الريح تمور هبا
تترك ما أبقي لدبا سبسبا ... أو كحريق وافق القصبا

ويروى القصبا بفتح القاف وكسرها، ذكره الخطابي.

رجع الكلام إلى شرح بقية الحديث:

التغني بالقرآن:

فسر أبو عبيدة رحمه الله قوله عليه الصلاة والسلام: يتغنى بالقرآن. قال: معناه تحزين القراءة، وذكر عن طاوس أنه قال: أقرأ الناس أخشاهم لله. وجاء في حديث آخر: ليس منا من لم يتغن بالقرآن. قيل معناه يستغني به، واستشهد قائل هذا بما قيل من حفظ القرآن فرأى أن أحداً أغنى منه فقد عظم ما صغر الله وحقر ما عظم الله أو نحو هذا الكلام، هذا معناه. يقال: تغنيت وتغانيت بمعنى استغنيت. وقال غيره: إنما معناه أن يجعله مكان الغناء الذي كانت الأعراب تستعمله في خلواتهم وعند طربهم.

يقول: من حفظ القرآن أو شيئاً منه فليجعله عوض ما كان يستعمله أهل الجاهلية من الغناء واللهو، والله أعلم بما أراد رسوله صلى الله عليه وسلم من ذلك. وجاء في الحديث المتقدم في رواية: كإذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن، أراد حسن الصوت. وقد تقدم أن معنى كإذنه كاستماعه. واستماعه كناية عن إجابته، كما يقال: سمع الله لمن حمده، أي: أجابه. ومنه قولهم: سمع الله منك، واللهم اسمع منا دعاءنا، معناه كله: أجب، ويحتمل أن يكون تخصيصه بحسن الصوت، أي: يجيبه أكثر من غيره لأنه أكثر عملاً لا سيما وقد قال يجهر به فالجهر عمل زائد على السر كما جاء في الحديث: زينوا القرآن بأصواتكم. وقد قيل في هذا إنما هو على القلب أي: زينوا أصواتكم بالقرآن، لأن القرآن ليس مخلوقاً فكيف يزينه المخلوق، اللهم إلا أن يرتله ويرفع صوته إذا سلم من الآفات، ويحسن قراءته، ويجتهد في ذلك ما استطاع، ويتدبر آياته، فهذا في وسع العبد وعليه يثاب ومنه يسمع أكثر إن شاء الله تعالى. ولحسن الصوت معنى في المقروء، كما للخط الحسن معنى في المكتوب. وقد قالوا: الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً، والله أعلم.

السِّواد: وأما السواد: بكسر السين فهو السرار. قال أبو عبيد: قال الأصمعي: يقال منه ساودته سواداً ومساودة، إذا ساررته، ولم يعرفها سواداً برفع السين. قال أبو عبيد: ويجوز الرفع وهو بمنزلة جوار وجوار، فالجوار المصدر، والجوار الاسم. قال الأحمر: هو من إدناء سوادك من سواده وهو الشخص. قال أبو عبيد: وهذا من السرار أيضاً لأن السر لا يكون إلا بإدناء السواد من السواد. وقال أبو عمرو: سئلت ابنة الخس: لمَ زنيت وأنت سيدة قومك؟ قالت: قرب الوساد وطول السواد. ذكر هذا أبو عبيد رحمه الله.

قلت: ولقد صدقت ابنة الخس في هذا الفعل النحس. رأيت في بعض الكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابنته فاطمة رضي الله عنها: أيما خير للمرأة وخير

للرجل؟ قالت: أن لا ترى المرأة رجلاً ولا يرى الرجل امرأة. فضمها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال: ذرية بعضها من بعض، أو كما قالت وقال صلى الله عليه وسلم ورضي عنها. نقلت الحكاية من حفظي.

وفي حديث آخر: باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء. وقال عمر رضي الله عنه لقوم رآهم يتناضلون: انتسئوا عن البيوت فإن للرجال كلاماً لا يصلح أن يسمعه النساء.

وقال عليّ رضي الله عنه: إن النساء لحم على وضم إلا ما ذب عنه. وقال غيره: امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن يكرم دينه فلا يخلون بالنسوان. وقال الشاعر:

لا يأمنن على النساء أخ أخاً ... ما في الرجال على النساء أمين

وقال المعري:

إذا بلغ الوليد لديك عشراً ... فلا يدخل على الحرم الوليد
وإن خالفتني وأضعت نصحي ... فأنت وإن رزقت حجا بليد
ألا إن النساء حبال غي ... بهن يضيع الشرف التليد

قلت: قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الدخول على النساء حيث يقول: إياكم والدخول على النساء. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت. خرجه مسلم. وقال: الحمو أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج كابن العم ونحوه.

خرج أبو عبيد في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: ألا ترون أني لا أقوم حتى أرقد وما لوق لي. معناه: ما لين لي. واللوقة: الزبدة. ويقال لها أيضاً ألوقة. وأنشد:

وإني لِمن سالَمتم لألوقة ... وإني لِمن حاربتم سم أسود

وقوله: وصاحبي أصم أعمى يريد: الفرج، ولكنه كره أن يخلو بامرأة.

ومن السواد: حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن مسعود رضي الله عنه: آذنك على أن ترفع الحجاب وتستمع سوادي حتى أنهاك.

وأما السواد بفتح السين فضد البياض. والسواد أيضاً الشخص. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها ليلة خرج من عندها في الليل فتبعته حتى جاء البقيع ورجع فرجعت وسبقته إلى البيت، فقال لها حين علم ذلك: فأنت السواد الذي رأيتك أمامي. وجمعه أسودة. ومنه حديث النبي صلى الله عليه وسلم في قصة آدم عليه السلام ليلة الإسراء: وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة. ثم فسر في

الحديث. وأما الأسودة فنسم بنيه.

ومنه قول بعض الشجعان: إذا رأيت سواداً بالليل مقبلاً إليك فلا تكن أجبن السوادين. أو كما قال، وصدق لأن الذي تهاب منه يهاب منك. وقد تسمى الخضرة سواداً والسواد خضرة. وفسر الحسن قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾ [الأعلى: ٥] قال: الأحوى الأسود من شدة الخضرة. وكذلك قولهم في الفرس والبغل والحمار: أخضر، إذا كان أسود. وتقدم قول الشاعر:

وأنا الأخضر من يعرفني ... أخضر الجلدة في بيت العرب

وقد تسمي العرب أيضاً السواد صفرة. قالوا في قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ [المرسلات: ٣٣] أي: سود فيمن قرأ: (جِمالات) بكسر الجيم، جمع جمال. ومن قرأ: (جُمالات) بالضم فإنه يعني حبال السفينة، والله أعلم. وتقدم ذكر السواد.

وتمام الحديث: قال مسلم رحمه الله: حدثني من سمع حجاجاً الأعور، واللفظ له قال: حدثنا حجاج بن محمد، قال: حدثنا ابن جريج، قال: أخبرني عبد الله ـ رجل من قريش ـ عن محمد بن قيس بن مخرمة بن المطلب أنه قال يوماً: ألا أحدثكم عني وعن أمي؟ فظننت أنه يريد أمه التي ولدته، قال: قالت عائشة رضي الله عنها: ألا أحدثكم عني وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلنا: بلى. قالت: لما كانت ليلتي أتى النبي صلى الله عليه وسلم فيها عندي انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع، فلم يلبث إلا ريثما ظن أني قد رقدت، فأخذ رداءه رويداً، وانتعل رويداً، وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويداً، فجعلت درعي في رأسي، واختمرت وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على أثره، حتى جاء البقيع، فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف، فانحرفت، فأسرع، وأسرعت، فهرول، فهرولت، فأحضر، فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أني اضطجعت فدخل فقال: ما لك يا عائش حشياء رابية؟. قالت قلت: لا شيء. قال: لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير؟. قالت: قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي فأخبرته. فقال: فأنت السواد الذي رأيته أمامي؟. قلت: نعم. فلهدني في صدري لهدة أوجعتني، ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟. قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله. قال: نعم. قال: فإن جبريل صلى الله عليه وسلم أتاني حين رأيت فناداني فأخفاه منك، فأجبته فأخفيته منك ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت، فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشيني، فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم. قالت قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين،

ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.

الوسادة والنوم: وتقدم في حديث ابنة الخس: قرب الوساد. يقال: وساد وإساد مثل وشاح وإشاح. ويقال أيضاً: وسادة، وقد تقدّم بدل الهمزة من الواو. وإذ قد وقعنا في ذكر الوسادة، فلنذكر فيها فصلاً عن الفضلاء السادة عن أفضل السادة وأعلى القادة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان وسادته من أدم، حشوها ليف وكان يكرم بها جليسه وربما ألقاها إليه وجلس هو عليه الصلاة والسلام على الأرض.

ويقال إن وهب بن منبه رضي الله عنه ما وضع جنبه على الأرض ثلاثين سنة كانت له وسادة من أدم إذا غلبه النوم وضع صدره عليها وخفق خفقات ثم يفزع إلى القيام، وكان يقول: لأن أرى في بيتي شيطاناً أحب إليّ من أن أرى فيه وسادة. يعني لأنها تدعو إلى النوم، فكان النوم عند هذه الطائفة مذموماً لا ينامون إلا من غلبة.

يروى أن سليمان التيمي رضي الله عنه صلى الغداة بوضوء العشاء الآخرة أربعين سنة وكان من مذهبه أن النوم إذا خامر القلب وجب منه الوضوء.

وقال بعضهم: النوم منه محمود ومنه مذموم. فالمذموم منه: نوم الغفلة والعادة مثل نومنا؛ نُمهد له ونوطئ. وفي بعض الأخبار المروية: النوم أخو الموت. وقيل لو كان في النوم خير لكان في الجنة نوم. وكان الشبلي رضي الله عنه يكتحل بالملح لئلا يأخذه النوم. وكان يقول: نعسة في ألف سنة فضيحة. لأن النوم ضد العلم.

ويروى أن إبراهيم قال لإسماعيل عليهما السلام: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] فقال إسماعيل: يا أبت هذا جزاء من نام عن حبيبه، لو لم تنم لما أمرت بذبح الولد. وقيل: لما ألقي على آدم النوم في الجنة أخرج منه حواء، وكل بلائه إنما حصل حين حصلت حواء. وقيل: أوحى الله إلى داود عليه السلام يا داود كذب من ادعى محبتي وإذا جنه الليل نام عني. وفي معناه أنشدوا:

عجباً للمحب كيف ينام ... كل نوم على المحب حرام

ونوم الصالحين، إنّما هو من غلبة كما تقدم، وهو صدقة من الله تعالى عليهم. وجاء في الخبر: إن الله يباهي ملائكته بالعبد إذا نام في سجوده، فيقول: انظروا إلى عبدي روحه عندي وجسده بين يدي في محل النجوى وجسده على بساط العبادة. وقيل: من نام على الطهارة يؤذن لروحه أن تطوف بالعرش وتسجد لله.

وقيل: اشترى رجل مملوكة فلما دخل الليل قال: افرشي الفراش. فقالت المملوكة: يا مولاي ألك مولى؟ فقال: نعم. فقالت: أينام مولاك؟ فقال: لا. فقالت: ألا تستحيي أن تنام ومولاك لم ينم.

وقد يحمد النوم في مواطن منها: أن ينوي التقوّي على العبادة مثل نوم القائلة يتقوى بذلك على قيام الليل. وقد قالوا: النوم في القائلة من غير قيام الليل بمثابة السحور من غير صيام. وفي النوم رؤية الأنبياء والصالحين والبشرى من الله تعالى بالخير ونشكر الله على هذه الرحمة. فإنه قد قال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [القصص: ٧٣] وفيه راحة من التعب ومن الكسل ومن المرض ومن الهم إن تركك تنام فقد قالوا: لا نوم مع الهم.

ويروى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: جنود ربك عشرة: الجبال الرواسي والحديد يقطع الجبل، والنار تذيب الحديد، والماء يطفئ النار، والسحاب يحمل الماء، والريح يحمل السحاب، وابن آدم يغلب الريح، يستتر بالثوب ويمضي لحاجته، والسكر يغلب ابن آدم والنوم يغلب السكر، والهم يغلب النوم، فأقوى جنود ربك الهم. هذا لمن كان له نية في نومه.

وأما أمثالنا من العصاة فالنوم أصلح لهم، لأن الوقت إن لم يكن لهم لم يكن عليهم. ففيه السلامة. ويقال: لا شيء أشد على إبليس من نوم العاصي، يقول: متى ينتبه حتى يعصي الله. وقلت في المعنى:

أما العصاة كمثلي فالرقاد لهم ... خير وأسلم يا صاحي من اليقظه
يقول إبليس للعاصي النؤوم أيا ... نومان قم فاعص كيما تشهد الحفظه
أخسس بهمة من حال المنام له ... من أحسن الحال هذي عبرة وعظه

فصل:

من فوائد هذا الباب تقدم: دأد اللحم. وجاء من هذا في الحديث قول النبي صلى الله عليه وسلم: المؤذن المحتسب كالمتشحط في دمه، وإن مات لم يدد. وتقدم: داذ، وقول الشاعر:

شربنا من الداذيّ حتى كأننا ... ملوك لنا بر العراقين والبحر
فلما انجلت شمس النهار رأيتنا ... تولى الغنى عنا وعاودنا الفقر

قاله هذا الشاعر على جهة المدح فكان فيه أعظم القدح. وصف الخمر وزعم أنه يثني عليها فجلب الذم إليها. ومن انتهت به حالته إلى هذا فقد هذى وعرض نفسه للأذى. شهد على نفسه بهذا المقول أن ليس له معقول.

ولله در الذي يقول:

مدح المدامة شاربوها أنها ... تنفي الهموم وتطرد الغما
صدقوا سرت بعقولهم فتوهموا ... أن السرور لهم بها تَمّا

سلبتهم أديانهم وعقولهم … أرأيت فاقد ذين مهتما

وقال المعري:

إذا حلت الخمر في دار قوم … فقد رحل الدين عن دارهم
فما وقفوا عند إيرادهم … وما صدروا عند إصدارهم
وفي رفع أصواتهم بالغنا … دليل على حط أقدارهم

وهذا الشاعر أيضاً قد صدق فيما نطق به، نطق أن شارب الطلا ليس من العقلا. ولذلك قال بعض الظرفاء لما دعاه للمنادمة أحد الأمراء فاحتال على نفسه بأن قال: ليس بحرام ما أحللت ولكني أنهي عنه أهل طاعتي وأكره أن أنهي عن شيء ثم أفعله فأكون كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ [هود: ٨٨].

ومثل هذا هذا اعترى لنصيب الشاعر وكان أسود اللون لكنه من أهل الصيانة والصون، دعاه بعض الولاة للمنادمة فقال: أصلح الله الأمير، إني كما ترى أسود اللون وإنما أقعدني منك هذا المقعد عقلي، فلا أحب أن أدخل عليه ما ينقصه. ومن أجل هذا المعنى تركها أقوام في الجاهلية وحرموها على أنفسهم تعففاً وتظرفاً وتكرماً وتأثماً، كأبي بكر الصديق وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعباس بن مرداس وقيس بن عاصم وغيرهم رضي الله عنهم.

قيل لعباس بن مرداس حين كبر: لو أخذت من الشراب شيئاً فإنه يزيد في قوتك. فقال: أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم؟! لا أدخل رأسي شيئاً يحول بيني وبين عقلي.

وقيل: هؤلاء في الجاهلية ولم يدركوا تحريمها في الإسلام: عبد المطلب بن هاشم جدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وورقة بن نوفل، وعبد الله بن جدعان، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن الوليد، وعامر بن الظرب، وغيرهم. وشربها قوم في الإسلام قبل تحريمها، فلما نزل تحريمها بادروا في الأوان إلى كسر الأواني وإلى شق الزقاق وسفك ما فيها في الزقاق، ومنهم أيضاً من شربها متأولاً قول الله تعالى: ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [المائدة: ٩٣]، فشربها أبو جندل واسمه العاصي بن سهيل، وشربها معه أبو الأزور، وضرار بن الخطاب، وهم بالشام. فكتب أبو عبيدة بن الجراح بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهم فأمره أن يحدّهم. فلما جاء الكتاب بذلك قالوا لأبي عبيدة: دعنا نلقى العدوّ فإن قتلنا فذاك وإلا حددتمونا. فلقوا العدوّ فقتل أبو

الأزور، وحدّ الآخران. ثم إن أبا جندل رضي الله عنه بعد الحد أشفق من الذنب حتى قال: لقد هلكت. فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فكتب إليه: الذي زين لك الخطيئة هو الذي حظر عليك التوبة ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ١-٣]، معنى قوله رضي الله عنه: الذي زين لك الخطيئة، يريد إبليس هو الذي زينها، وحظر عليك التوبة، يعني: منعك من التوبة، أي: نهاك عنها، أراد عدوّ الله أن يقنطه من الرحمة ويوئسه من المغفرة، فنبهه عمر رضي الله عنه بما كتب إليه. أي: ليس الأمر كما زين لك إبليس، والله أعلم.

وتأويل الآية الأولى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [المائدة: ٩٣]، قال الحسن رضي الله عنه: لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بإخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم وقد أخبر الله تعالى أنها رجس. فأنزل الله الآية. وقوله: ﴿ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ ﴾، يعني شربها ﴿ وَّءَامَنُوا۟ ﴾ أي صدقوا بتحريمها، كرر للتأكيد. ثم قال آخر ذلك: ﴿ وَّأَحْسَنُوا۟ ﴾ أي: أحسنوا العمل بعد تحريمها. فمن فعل ذلك فهو محسن، والله يحب المحسنين الذين يأخذون بالسنة.

لطيفة: وكان أبو محجن رضي الله عنه مولعاً بشرب الخمر، وكان سعد بن أبي وقاص قد حدّه فيها ثم حبسه وقيده في منزله وحال بينه وبينها. فلما كان يوم القادسية وحضر القتال، وكان في موضع مرتفع يشرف على القوم رأى الحطمة في المسلمين، فجعل رضي الله عنه يتأسف ويقول:

كفى حزناً أن يطعن القوم بالقنا ... وأترك مشدوداً على وثاقيا

في أبيات كثيرة. ثم سأل امرأة سعد أن تطلقه ويحضر القتال. فإن قتل فذاك وإن سلم عاد إلى قيوده وعاهدها على ذلك، وأقسم لها فأطلقته، فخرج على فرس لسعد بلقاء حتى أتى المعترك فشق صفوف المشركين وقتل خلقاً كثيراً وأبلى بلاء حسناً، ولم يزل كذلك حتى فرج الله على المسلمين وأهلك المشركين، وكان مدججاً في السلاح لا يعرفه أحد وكان سعد يقول: أما الفرس ففرسي وأما الشدّات فشدّات أبي محجن، ومن الناس من يقول: هذا ملك من السماء نزل. ثم رجع إلى محبسه وألقى رجليه في القيود كما كان، فلما رجع سعد إلى منزله جعل يحدث امرأته بما رأى من ذلك الفارس. فقالت له امرأته: هو أبو محجن، وخبرته الخبر. فقال له سعد: اذهب فوالله لا

جلدتك أبداً. فقال أبو محجن: والله لا أشربها أبداً، كنت أشربها فأحدّ فيكفّر عني الذنب، وأما على هذه الحالة فلا سبيل إليها، أو كما قال. والحكاية أطول من هذا اختصرتها. وقول سعد: لا جلدتك أبداً، علم رضي الله عنه من أخلاقه ورجوليته أنه كذا يصنع، فحقق الله ظنونه وبرّ بيمينه. ويروى أنه قال: وأنا والله لا أشربها أبداً كنت آنف أن أدعها من أجل جلدكم. قال فلم يشربها من بعد ذلك، وقال في تركها:

رأيت الخمر صالحة وفيها ... مناقب تهلك الرجل الحليما
فلا والله أشربها حياتي ... ولا أشفي بها أبداً سقيما

وكان قد قال قبل ذلك:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... لتروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنوني بالفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

لطيفة: روى بعض أهل الإخبار أن ابناً لأبي محجن دخل على معاوية رضي الله عنهما فقال له: لله أبوك الذي يقول، وأنشد البيتين. فقال له ابن أبي محجن: لو شئت ذكرت أحسن من هذا من شعره. فقال: وما ذاك؟ فقال قوله:

لا تسأل الناس عن مالي وكثرته ... وسائل الناس عن حزمي وعن خلقي
القوم أعلم أني من سراتهم ... إذا تطيش يد الرعديد بالفرق
قد أركب اللهو مسدولاً ستائره ... وأكتم السر فيه ضربة العنق
أعطي السنان غداة الروع حصته ... وعامل الرمح أرويه من العلق
وقد أجود وما مالي بذي قنع ... وقد أكرّ وراء المحجر الفرق
قد يعسر المرء حيناً وهو ذو كرم ... وقد تنوه سوام العاجز الحمق
سيكثر المال يوماً بعد قلته ... ويكتسي العود بعد اليبس بالورق

فقال معاوية: لئن أسأنا القول لنحسنن الصلة. ثم أجزل جائزته وقال: إذا ولدت النساء فلتلدن مثلك.

وذكر الهيثم بن علي أنه أخبره من رأى قبر أبي محجن بأذربيجان أو قال في نواحي جرجان وقد نبتت عليه ثلاثة أصول كرم وقد طالت وأثمرت وهي معرشة على قبره، مكتوب على القبر: هذا قبر أبي محجن، فجعلت أعجب وأذكر قوله:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... لتروي عظامي بعد موتي عروقها

وممن أقلع عن شرب الخمر أيضاً رجل مولع كذلك بشربها، فمرّ يوما بـ(طرزماباد) وهو موضع، فرأى كرماً فأعجبه فقال:

بطرزماباد كرم ما مررت به ... إلا تعجبت ممن يشرب الماء

فسمع هاتفاً يقول:

وفـي جهـنم مـاء مـا تجـرّعه ... حلق فأبقى له في الجوف أمعاء

فكان سبب توبته.

خبَر عبد الله بن جدعان

تقدم ذكر عبد الله بن جدعان، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وكان مغرم بشربها وذلك أنه سكر، فتناول القمر ليأخذه، فأخبر بذلك حين صحا، فحلف لا يشربها.

وابن جدعان هذا هو صاحب الجفنة التي كان يأكل منها الراكب على البعير، وسقط فيها صبي فغرق فمات. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكة عمى. يعني في الهاجرة.

وكان يكنى أبا زهير وهو تيمي ابن عم عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. ولذلك قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقري الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ فقال: لا لأنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين. خرجه مسلم رحمه الله.

وكان يطعم الناس أيام الموسم التمر والسويق، وكان بنو الديان يطعمون أيامه البر والشهد. فقال أمية بن أبي الصلت:

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم ... فرأيت أكرمهم بني الديان

البر يلبك بالشهاد طعامهم ... لا ما يعللنا بنو جدعان

فبلغ الشعر عبد الله بن جدعان فأرسل بعد إلى الشام ألفي بعير تحمل إليه البر والشهد والسمن وجعل على الكعبة منادياً ينادي: ألا هلموا إلى جفنة عبد الله بن جدعان. فقال عند ذلك أمية بن أبي الصلت:

له داع بمكة مشمعل ... وآخر فوق كعبتها ينادي

إلى ردح من الشيزى عليها(*) ... لباب البر يلبك بالشهاد

وكان أول أمره صعلوكاً شريراً فاتكاً لا يزال يجني الجنايات فيعقل عنه أبوه وقومه حتى أبغضته عشيرته، ونفاه أبوه وحلف أن لا يؤويه أبداً لما أثقله به من الغرم،

(*) قوله: (ردح) جمع رداح، كسحاب، وهي الجفنة العظيمة. و(الشيزى): خشب أسود للقصاع. كما في القاموس.

فخرج في شعاب مكة حائراً يتمنى الموت أن ينزل به، فرأى شقاً في جبل فتعرّض للشق يرجو أن يكون فيه ما يقتله فيستريح، فلم ير شيئاً، فدخل فيه، فإذا ثعبان عظيم له عينان تقدان كالسراجين، فحمل عليه الثعبان وأقبل إليه كالسهم فأفرج له، فانساب عنه لا ينظر إليه، فوقع في نفسه أنه مصنوع، فأمسكه بيديه فإذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان، فكسره وأخذ عينيه، ثم دخل إلى بيت، فإذا فيه جثث طوال، على سرير عند رؤوسهم لوح، قيل من ذهب، وقيل من رخام، فيه عظات وأبيات من الشعر، وفيه: أنا نفيلة بن عبد المدان بن خشرم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان بن هود نبي الله، عشت خمسمائة عام، وقطعت دور الأرض باطنها وظاهرها في طلب الثروة والملك، فلم يكن ذلك ينجيني من الموت. ووجد في وسط اللوح:

قد قطعت البلاد في طلب الثروة والمجد قالص الأثواب
وسريت البلاد قفراً بقفر بقناتي وقوّتي واكتسابي
فأصاب الردى بنات فؤادي بسهام من المنايا صياب
فانقضت شرتي وأقصر جهلي واستراحت عواذلي من عتابي
ودفعت السفاه بالحلم لما نزل الشيب في محل الشباب
صاح هل ريت أو سمعت براء ردّ في الضرع ما قرى في الحلاب

ووجد في وسط البيت كوماً عظيماً من الياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة والزبرجد فأخذ منه ما أخذ ثم علّم على الشق بعلامة وأغلق بابه بالحجارة. وأرسل إلى أبيه بالمال الذي خرج به يسترضيه ويستعطفه ووصل عشيرته كلهم فسادهم، وجعل ينفق من ذلك الكنز ويطعم الناس ويفعل المعروف.

ولما كبر وهرم أراد بنو تيم أن يمنعوه من تبذير ماله ولاموه في العطاء. فكان يدعو الرجل فإذا دنا منه لطمه لطمة خفيفة ثم يقول له: قم فأنشد لطمتك واطلب ديتها، فإذا فعل ذلك أعطاه بنو تيم من مال ابن جدعان حتى يرضى. وهو جد عبد الله بن أبي مليكة الفقيه.

صكة عمي: وتقدم في الحديث المتقدم: صكة عمي. وقد فسره أهل العلم منهم البكري قال: عمي رجل من العماليق أوقع الغدر في مثل ذلك الوقت. وذكر أبو حنيفة في الأنوار: أن عميا رجل من عدوان، وقيل من إياد، وكان فقيه العرب في الجاهلية، فقدم في قوم معتمراً أو حاجاً، فلما كان على مرحلتين من مكة قال لقومه وهم في نحر الظهيرة: من أتى مكة غداً في مثل هذا الوقت كان له مثل أجر عمرتين. فصكوا الإبل صكة شديدة حتى أتوا مكة من الغد في مثل ذلك الوقت، وأنشد:

وصــك بهــا نحــر الظهيــرة صــكة عمــي ومــا يبغــين إلا طلالهــا

في أبيات. وعمي: تصغير أعمى على الترخيم، وسميت الظهيرة صكة عمي به. نقلت هذا الكلام من كلام الأستاذ رحمه الله تعالى مختصراً.

وقد جاء في الخمر أخبار وأشعار أضربت عنها للاقتصار على الاختصار. والذي نعتقده ونعتمده أنها محرمة بإجماع، نطق بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠] فهذا أمر. ثم قال في آخر الآية: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١]. ولما سمعها المسلمون قالوا: انتهينا يا ربنا. قال ابن سلام في تفسير الآية: جاء تحريم الخمر في هذه الآية قليلها وكثيرها، ما أسكر منها وما لم يسكر.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أسكر كثيره فقليله حرام. ونهى أن تستقاه البهائم. وسأله رجل عنها فنهاه، فقال: إنما صنعتها للدواء. فقال: إنه ليس بدواء ولكنه داء. ولعن فيها عشراً: عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وساقيها، وبائعها، وآكل ثمنها، والمشتري، والمشتري له.

وكان لأحد العلماء ـ أظنه سعيد بن المسيب أو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ـ كرم فقطعه من أصله وقال: بئس الشيخ أنا إن بعت الخمر.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من شرب الخمر ثم لم يسكر أعرض الله عنه أربعين صباحاً، ومن شرب الخمر ثم سكر لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً أربعين ليلة، فإن مات فيها مات كعابد الأوثان، وكان حقاً على الله يوم القيامة أن يسقيه من طينة الخبال. قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: عصارة أهل النار القيح والدم. خرجه ابن سلام رضي الله عنه.

وقال أبو داود وذكر معنى الحديث: أنجس صلاته أربعين صباحاً. وقال في آخر قوله: قيل وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: صديد أهل النار. وزاد في رواية: من سقاه صغيراً لا يعلم حلاله من حرامه كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال.

وقال الدارقطني عن النبي صلى الله عليه وسلم: مدمن الخمر كعابد وثن. وجاء في حديث آخر: من مات وهو في بطنه مات ميتة جاهلية. وفي رواية: والخمر جماع للإثم. وخرج مسلم من قول النبي صلى الله عليه وسلم: كل مسكر حرام. ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو مدمنها لم يشربها في الآخرة.

ذاد: وأما ذاد فقد جاء منه في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ

تَذُودَانِ ﴾ [القصص: ٢٣] قيل في تفسيره: أي تمنعان. وقيل: تذودان غنمهما عن الماء. قاله السدي، وقال قتادة: تذودان الناس عن شياههما، أي: تمنعان غنمهما أن تختلط بأغنام الناس. قال لهما موسى: ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي: ما شأنكما؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾، ويقرأ: (حتى تصدر)، أي: لا طاقة لنا على الاستقاء مع الرعاء، ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣] أي: لا يستطيع السقي. ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾.

قال عمر رضي الله عنه: رفع حجراً عن بئر لا يرفعه إلا عشرة رجال، فسقى لهما ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما: أدركه جوع شديد فسأل الطعام ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ قيل: جاءته ساترة وجهها بكم درعها ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص: ٢٥] ثم ذكر القصة. وأبو المرأتين هو شعيب النبي عليه السلام. وقيل: هو رجل أخذ الدين عن شعيب، وكان اسمه أيضاً شعيباً، سيد أهل الشام يومئذ، والجاريتان اسم أحداهما ليا والأخرى صفورة وقيل صوريا وهي الصغرى، وهي التي تزوج بها موسى عليه السلام. وقد تقدم قول الشاعر في هذا المعنى:

أحبوا البنات فحب البنات	فرض على كل نفس كريمه
فإن شعيباً من أجل البنات	أخدمه الله موسى كليمه

وجاء في الحديث من هذه اللفظة في الموطأ: وليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال. ويروى: فلا يذادن رجل، ومعناه: فلا يفعلن أحدكم فعلاً يذوده عن الحوض.

وجاء في مسلم عن معدان بن أبي طلحة اليعمري عن ثوبان أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: إني لبعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمن أضرب بعصاي حتى يرفض عليهم. فسئل عن عرضه. فقال: من مقامي إلى عمان. وسئل عن شرابه. فقال: أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يغت فيه ميزابان يمدّانه من الجنة أحدهما من الذهب والآخر من ورق، كذا رويته عمان بضم العين، وفي الطرة: عمان، بضم العين وتخفيف الميم، وبعضهم يشدد الميم قاله الخطابي. ويروى: يعب بعين مهملة وباء من العب وهو مفهوم، ومن قال: يغت، فمعناه: يصب. وسيأتي مع أخواته إن شاء الله تعالى.

وجاء في الحوض: ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء. وفي رواية: أكثر من نجوم السماء. وفي رواية: إني فرطكم على الحوض فإن عرضه كما بين أيلة إلى الجحفة، إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم. قال عقبة: فكان آخر ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر. وفي رواية: ليردن عليّ الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رأيتهم قد رفعوا إليّ اختلجوا دوني فلأقولن: أي رب أصيحابي أصيحابي. فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. وفي رواية: ما شعرت ما عملوا بعدك، والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم. قال فكان ابن أبي مليكة يقول: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن في ديننا. قال بعض العلماء: هم الخوارج الذين قاتلهم عليّ رضي الله عنه.

قلت: فالحمد لله الذي خرجوا بهذا الاسم وتسموا بهذا الاسم فحق لهم القسـ بهذا القسم، ومن عصا فلا ينكر العصى لا بدّ أن تعرض على من أعرض، وترفض على من أنفض. هذا كله من حديث مسلم رحمه الله. والإيمان بالحوض واجب وصفته كما تقدم. وجاء في الخبر: إن لكل نبي حوضاً وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة. ولي في الحوض من قطعة مطولة ذكرت فيها النبي صلى الله عليه وسلم:

وصاحب الحوض الرواء الذي ... أمته منه غداً تشرب
إذ ليس ماء لهم غيره ... والشمس من أوجههم تقرب

وقد تقدم ذكرها فانظرها في التكميل. سقانا الله منه ولا جعلنا ممن يذاد عنه.

أخبار المعمرين: وتقدم ذويد في الأسماء وهو أيضاً لقب رجل من المعمرين اسمه ذويد بن نهد عاش أربعمائة عام فيما ذكر، وكانت له وقائع في العرب وغارات، فلما جاءه الموت قال:

اليوم يبنى لذويد بيته ... كم مغنم يوم الوغى حويته
ومعصم موشم لويته ... لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته

وبهذا كان عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما يتمثل إذ كان يحمل على الجيوش في المسجد الحرام حتى قتل رضي الله عنه كما ذكرنا.

وإذ ذكرنا ذويداً في المعمرين فلنذكر معه آخرين منهم المستوغر بن ربيعة وهو لقب له واسمه كعب، عاش ثلاثمائة سنة وثلاثين سنة، وكان أطول مضر كلها عمراً،

وهو الذي يقول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وعمرت من عدد السنين مئينا
مائة حدتها بعدها مائتان لي وازددت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقي إلا كما قد فاتنا يوماً يمر وليلة تحدونا

ذكر هذا الخبر ابن إسحاق في السيرة، وقال بعض الناس: تروى هذه الأبيات لزهير بن جناب الكلبي، وكان المستوغر قد أدرك الإسلام وأسلم وحضر هدم رضاء ـ بيت كان يعبد في الجاهلية ـ وفيه يقول:

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها قفراً بقاع أسحما

وذكر القتيبي أن المستوغر حضر سوق عكاظ ومعه ابن ابنه وقد هرم والجد يقوده. فقال له رجل: ارفق بالشيخ، فقد طالما رفق بك. فقال: ومن تراه؟ فقال: هو أبوك أو جدك. فقال: ما هو إلا ابن ابني. فقال: ما رأيت كاليوم ولا المستوغر بن ربيعة. فقال: أنا المستوغر بن ربيعة.

ومنهم زهير بن جناب المتقدم ذكره، وعمره مذكور في الشعر إن كان له. وإلا فهو من المعمرين بلا خلاف، وهو الذي يقول:

أبني إن أهلك فإنني قد تركت لكم بقيه
وتركتكم أولاد سا دات زنادهم وريه
من كل ما نال الفتى قد نلته إلا التحيه

يريد بالتحية البقاء، وقيل: الملك.

ومن المعمرين أيضاً ممن زاد على المائتين والثلاثمائة عبيد بن شرية(*) ودغفل بن حنظلة النسابة، والربيع بن ضبيع الفزاري، وهو الذي يقول:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدي وأخشى الرياح والمطرا

وقبل هذا البيت:

أصبح مني الشباب مبتكراً إن ينأ عني فقد ثوى عصرا
أصبحت لا أحمل ....

البيتين. وبعدهما:

(*) شرية: بالفتح، بوزن: جرية، على ما في ترجمة الشريف الرضي من الوفيات. أو بوزن: عطية، على ما في الشهاب على درة الغواص. قاله نصر.

هـا أنـاذا آمـل الخلـود وقـد أدرك عمـري ومـولدي حجـرا
ويامـرئ القـيس قـد سـمعت بـه هـيهات هـيهات طـال ذا عمـرا

ومنهم ذو الإصبع العدواني، ونصر بن أصبع بن دهمان بن أشجع، وكان قد اسود رأسه بعد ابيضاضه وتقوّم ظهره بعد انحنائه. وفيه يقول القائل:

لنـصر بـن دهمـان الهنـيدة عاشـها وعـشرين حـولاً ثـم قـوّم فانـصاتا
وعـاد سـواد الـرأس بعـد ابيـضاضه ولكـنه مـن بعـد ذلـك قـد ماتـا

وأمره عند العرب من أعجب العجب.

ومن المعمرين: النابغة الجعدي عاش نحو مائتي سنة. كذا رأيت في موضع، ورأيت في موضع آخر نيف على المائة، وكأن فاه البرد المنهل، ونال هذا بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم له، وفد عليه وأنشده، فقال له: أجدت لا يفضض الله فاك، فما سقطت له سن. وسيأتي خبره في باب الهاء إن شاء الله تعالى.

ومن المعمرين أيضاً: أبو الطفيل عامر بن واثلة وهو آخر من مات من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكان رضي الله عنه عاقلاً فاضلاً شاعراً محسناً وهو الذي يقول:

أيدعونـي شـيخاً وقـد عـشت حقـبة وهـن مـن الأزواج نحـوي نـوازع
ومـا شـاب رأسـي مـن سـنين تتابعت علـيّ ولكـن شـيبتني الوقائـع

وكان سريع الجواب حاضره، وله مع معاوية رضي الله عنهما أجوبة ومراجعات ذكرها أبو عمر رحمه الله استشهد في آخرها بقول بعض بني جعف:

لألفيـنك بعـد المـوت تندبنـي وفـي حياتـي مـا زوّدتنـي زادي

وتقدم عمر حسّان بن ثابت رضي الله عنه وأنه عاش مائة وعشرين ستة ستين في الجاهلية وستين في الإسلام.

خبر حكيم بن حزام: وكذلك أيضاً كان عمر الموفق للخير حكيم بن حزام رضي الله عنه ولدته أمه في جوف الكعبة، دخلتها به وهي متم مع نسوة من قومها، فأصابها الطلق فوضعته هناك. عاش مائة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام وأعتق مائة رقبة، وحمل على مائة بعير في الجاهلية وفعل مثل ذلك في الإسلام. وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله أرأيت أشياء كنت أصنعها في الجاهلية أتحنث بها ـ أي أتبرر بها ـ من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم فهل فيها من أجر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أسلمت على ما سلف لك من خير. يريد أنه ينتفع بذلك وأن الإسلام يحرز له ذلك أجمع. ولحكيم هذا فضائل ومكارم، صارت

إليه دار الندوة المشهورة بمكة فباعها في الإسلام بمائة ألف درهم، فلامه معاوية في ذلك وقال: أبعت مكرمة آبائك وشرفهم؟ فقال حكيم: ذهبت المكارم إلا التقوى والله لقد اشتريتها في الجاهلية بزق خمر وقد بعتها بمائة ألف في الإسلام، وأشهدكم أن ثمنها في سبيل الله فأيُّنا المغبون. ذكر هذا الخبر الدارقطني رحمه الله، وقد فعل نحو هذا معاذ بن عفراء رضي الله عنه باع حلة واشترى خمسة رؤوس فأعتقهم، ثم قال: إن رجلاً اختار قشرتين على عتق هؤلاء لغبين الرأي. وكان حكيم هذا من أفضل الزهاد. قال البخاري رحمه الله: قال حكيم: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم قال: يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة ونفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يدعو حكيماً إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه، فقال عمر: أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، إني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفي رضي الله عنه. ولي في هذا المعنى مقطوعة لزومية قلتها على لسان الغير إذ لم يكن فيّ خير، ولقد ذكرتها في التكميل وأولها:

عـشت فـي الـنـاس كمـا عـاش حكـيم بـن حـزام
قـابض الكـف خمـيص الـبطن مـشدود الحـزام

إلى آخرها. وكان هذا من ورع حكيم وقناعته رضي الله عنه، وإلا فقد خرج ابن سلام في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ٧٢] قال: قد يجعل الله رزق العباد بعضهم من بعض برزق الله إياهم، فجعل يقسم رزق هذا على يدي هذا، وهو خير أفضل الرازقين، وهو تفسير السدي. ثم ساق حديثاً عن أم الدرداء: ما بال أحدكم يقول اللهم ارزقني وقد علم أن الله لا يمطر عليه من السماء دراهم ولا دنانير وإنّما يرزق بعضهم من بعض. فمن ساق الله إليه رزقاً فليقبله، فإن كان عنه غنياً فليضعه في أهل الحاجة من إخوانه، وإن كان محتاجاً استعان به على حاجته، ولا يردّ على الله رزقه الذي رزقه.

وعن عمران القصير قال: لقيت مكحولاً فأعطاني شيئاً فانقبضت عنه، فقال: خذه فإني سأحدثك بحديث فإنه أحب إلي منه، فقال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر شيئاً فكأنه انقبض عن أخذه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا آتاك الله

بشيء لم تطلبه فإن كنت محتاجاً إليه فأنفقه وإن لم تكن إليه محتاجاً فضعه في أهل الحاجة.

وعن قبيصة بن ذؤيب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دفع إلى عبد الله بن سعد ـ رجل من قريش ـ ألف دينار، فقال: لا إرب لي فيها يا أمير المؤمنين، ستجد من هو أحوج إليها مني. فقال: خذها، فإنما قلت كما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: يا عمر ما آتاك الله من عطاء غير مشرفة له نفسك ولا سائلة فاقبله.

خبَر انس بن مالك: ومن المعمرين أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن مملوكاً، إنما كان من الأنصار، جاءت به أمه أم سليم الغميصاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فسألته أن يخدمه ليتعلم من علمه، وليتأدّب بأدبه، تبركاً به وشرفاً بخدمته صلى الله عليه وسلم، فكان كذلك. قال أنس: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ما قال لي أفّ قط، وما قال لشيء صنعته لمَ صنعته؟ ولا لشيء تركته لمَ تركته؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقاً، ودعا له عليه الصلاة والسلام بالبركة، فقال: اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته. قال أنس: فوالله إن مالي لكثير وإن ولدي وولد ولدي ليتعادّون نحو المائة، وقال هذا في وقت، ثم زادوا بعد ذلك حتى انتهوا إلى مائة وعشرين، وانتهى عمره كذلك إلى مائة وعشرين سنة رضي الله عنه.

وذكر أبو عمر بن عبد البر أن ولده الذكور كانوا ثمانية وسبعين، وفضائله رضي الله عنه كثيرة مدوّنة، ولو لم يكن إلا ما ذكر هنا لكفاه؛ خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، وكان إذ ذاك ابن عشر سنين، وامتد عمره إلى زمن الحجاج كما تقدم في غير هذا الموضع. رواه ابن إسحاق صاحب السير، ذكر ذلك علي بن ثابت الخطيب فقال: إن ابن إسحاق رأى أنس بن مالك رضي الله عنه وعليه عمامة سوداء والصبيان خلفه يشتدون فيقولون: هذا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت حتى يلقى الدجال.

وأغرب من هذا ما ذكره أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي رحمه الله أن البنت التي قال عنها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس يرثني إلا ابنة لي أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا. الحديث بكماله. قال الأصيلي: كان اسم هذه الابنة عائشة وعمرت حتى أدركها مالك بن أنس رضي الله عنه، فرأت عائشة هذه النبي صلى الله عليه وسلم ورآها مالك رضي الله عنه.

وممن بورك له في ولده أيضاً بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن بحير،

رآه النبي صلى الله عليه وسلم يقاتل يوم الخندق قتالاً شديداً فدعاه فمسح على رأسه ودعا له بالبركة في نسله وولده، فكان عمّاً لأربعين وخالاً لأربعين وأباً لعشرين، ومن ذريته أبو يوسف القاضي رضي الله عنهم أجمعين. وسعد هذا هو سعد ابن حبية عرف بأمه، ردّه النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد لأنه كان صغيراً، وقاتل يوم الخندق كما تقدم.

وممن قاتل صغيراً أيضاً يوم بدر: عمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، خرج مع الناس فردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان صغيراً، فبكى، فلما رأى بكاءه أذن له في الخروج، فخرج فقتل رضي الله عنه وهو ابن ست عشرة سنة.

خبَر لبيد بن ربيعة: رجع الكلام بعد هذه الأخبار البديعة إلى خبر لبيد بن ربيعة وكان من المعمرين أيضاً، ولما بلغ سبعين حجة قال:

كأني وقد جاوزت سبعين حجة ... خلعت بها عن منكبيّ ردائيا

فلما بلغ سبعاً وسبعين قال:

باتت تشكي إلي النفس موهنة ... وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا
فإن تزادي ثلاثاً تبلغي أملاً ... وفي الثلاث وفاء للثمانينا

ثم لما بلغ تسعين سنة قال:

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ولما بلغ عشراً ومائة قال:

أليس في مائة قد عاشها رجل ... وفي تكامل عشر بعدها عبر

ولما بلغ عشرين ومائة قال:

أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لزوم العصا تحني عليها الأصابع
أخبر أخبار القرون التي خلت ... أنوء كأني كلما قمت راكع

ولما بلغ ثلاثين ومائة وحضرته الوفاة قال:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
ونائحتاي تندبان بعاقل ... أخاتفة لا عين منه ولا أثر
وفي ابني نزار أسوة إن جزعتما ... وإن تسألاهم تنبآ فيهم الخبر
وفي من رأينا من ملوك وسوقة ... دعائم عرش هذه الدهر فانعقر
فقوما فقولا بالذي تعلمانه ... ولا تخمشا وجهاً ولا تَحلقا شعر
وقولا هو المرء الذي لا صديقه ... أضاع ولا خان الخليل ولا غدر
إلى سنة ثم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وقـد كـنت جلـداً فـي الـحـياة مـرزأ وقد كنت أنوي الخبر والفضل والدخر

ذكر ابن عبد ربه أن الشعبي دخل على عبد الملك بن مروان فوجده مهتماً فقال: ما بال أمير المؤمنين؟ قال: ذكرت قول زهير:

كأنـي وقـد جـاوزت تـسعين حجـة خلعـت بهـا عنـي عـذار لِجـام

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى وكـيف بِمـن يرمـى ولـيس برامـي

في أبيات. فقال له الشعبي: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة، وأنشده الأبيات كلها من أوّلها إلى آخرها، قال: فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها.

ولبيد هذا هو القائل:

ألا كـل شـيء مـا خـلا الله باطـل

وهذا البيت هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد، وذكر الشطر:

ألا كـل شـيء مـا خـلا الله باطـل

وعجز البيت:

وكـل نعـيم لا محالـة زائـل

ولم يكمله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن فيه اعتراضاً بأن نعيم الآخرة لا يزول. وقد اعترض هذا العجز عثمان بن مظعون رضي الله عنه، وكان قد أسلم، فحضر مجلساً فيه لبيد المذكور ينشد هذا الشعر لنفسه، وكان إذ ذاك مشركاً، فحين قال: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. قال له عثمان: صدقت. فلما قال: وكل نعيم لا محالة زائل. قال له: كذبت. نعيم الجنة لا يزول. وقلت أنا فيه:

يـا رب يـا حمـيد قلبـي لـك الـشهيد

بأنـه سـديد وصـالح رشـيد

مـا قالـه لبـيد حـق ولا مـزيد

ويوسـف يـزيد مالـك يـا ودود

كفـو ولا نديـد قـريب أو بعـيد

بـل إنـك الحمـيد المـبدئ المعـيد

ملكـك لا يبـيد رسـولك الرشـيد

محمـد العمـيد للخلـق أي عمـيدوا

يـوماً يـرى الولـيد مـشيبه جديـد

وهـولـه شـديـد ... وأقـبـل العبـيـد
وكلهـم فـريـد ... مـستوحش وحـيـد
وجمعهـم يـريـد ... عفـوك يـا مجـيـد
فمـن بـه تجـود ... لـه هـو الـسعيد

وعاش لبيد في الإسلام ستين سنة ولم يقل فيها بيت شعر على كثرة شعره وسرعته، وسأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن تركه الشعر فقال: ما كنت لأقول شعراً بعد أن علمني الله البقرة وآل عمران، فزاده عمر في عطائه خمسمائة من أجل هذا القول، فكان عطاؤه ألفين وخمسمائة.

فلما كان معاوية رضي الله عنه أراد أن ينقصه من عطائه الخمسمائة وقال له: ما بال العلاوة فوق الفودين؟ فقال له لبيد: الآن أموت فتصير لك العلاوة والفودان، فرق له فتركها له. فمات لبيد إثر ذلك بأيام قليلة. وقيل: إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً وهو:

الحمـد لله إذ لـم يأتنـي أجلـي ... حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

ويقال: إن قبله:

بـان الـشباب فلـم أحفـل بـه بـالاً ... وأقـبل الـشيب والإسـلام إقـبالا

ويروى أيضاً أنه قال:

مـا عاتـب المـرء الكـريم كنفـسه ... والمـرء يـصلحه الجليس الـصالح

ونوع من هذا ما يروى أن أبا الدرداء رضي الله عنه قيل له: ما لك لا تشعر فإنه ليس رجل له في بيت الأنصار إلا قال شعراً؟ قال: وأنا قد قلت فاسمعوا:

يـريد المـرء أن يعطـى مـناه ... ويأبـى الله إلا مـا أرادا
يقـول المـرء فائدتـي ومالـي ... وتقـوى الله أفـضل مـا استفادا

خرجه أبو نعيم في الحلية.

ومن كتاب الشبان روى أبو عبيدة عن يونس بن حبيب: أن لبيد بن ربيعة رضي الله عنه آلى أن لا يقول شعراً بعد حفظه سورة البقرة وآل عمران، وكان ينزل الكوفة، وكان نذر أن يطعم الناس كلما هبت الريح الصبا، فدامت أياماً متوالية حتى أضرّ به، فبلغ خبره الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهو أمير الكوفة من قبل عثمان رضي الله عنه، وكان أخاه لأمه فوجه إليه بنوق ودراهم وكتب إليه:

أبـى الجـزار أن يـشحذ مديتيـه ... إذا هـبت ريـاح أبـي عقـيل
طـويل الـباع أروع جعفـري ... كـريم الجـد كالـسيف الـصقيل

فلما وصل ذلك إلى لبيد شكره وقال: كيف بأن أجيبه وقد نذرت أن لا أقول شعراً. فقالت بنية له صغيرة كانت تروي شعره: أنا أحسن بأن أجيبه، أفتأذن لي؟ قال: قولي ما عندك. فقالت:

إذا هـبت ريـاح أبـي عقيـل دعـونا عـند هبـتها الولـيدا
طـويل البـاع أروع عبـشمياً أعـان علـى مـروءته لبـيدا
أبـا وهـب جـزاك الله خيـراً نحـرناها وأطعمـنا الثـريدا
فعـدان الكـريم لـه معـاد وظنـي بـابن أروى أن يعـودا

فقال لها: أحسنت، لولا أنك استردتيه في شعرك. فقالت: إن الأمراء لا يستحيا من سؤالهم. فقال: أنت في هذا القول أشعر.

ونرجع إلى تفسير العلاوة، وقوله في الخبر الأول: الفردان والعلاوة. فالفردان: العدلان، والعلاوة: ما يعلى به عليهما كعدل ثالث. ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] فقال: نعم العدلان: الصلاة والرحمة. ونعمت العلاوة الهدى بعد ذلك. أو كما قال رضي الله عنه.

وإذ وقعنا في ذكر العلاوة، فاسمع حديثاً فيه حلاوة وعليه طلاوة: يذكر أن رجلاً من اليهود خرج مسافراً مع رجل من المسلمين، ثم إن المسلم رجع وفقد اليهود صاحبهم، فاتهموا به المسلم، وزعموا أنه قتله، واستدلوا على ذلك بشعر قاله بعد قدومه، وهو:

يـا صـاحبيّ أقـلا اللـوم والعـذلا ولا تقـولا لـشيء فـات مـا فعـلا
ردا علـيّ كـميت اللـون صـافية إنـي لقـيت بـأرض خالـيا رجـلا
ضـخم الجـزارة لـو أبـصرت هامـته وسـط الـرجال إذا شـبهته جمـلا
سـايرته سـاعة مابـي مخافـته إلا الـتلفت حولـي هـل أرى دغـلا
أمـسي يـسائلني مـا سـمر أرضـكم فقلـت أربحـت إن زيـتاً وإن عـسلا
يدعـو الـيهود وقـد مالـت علاوتـه ولا يهـود لـه إذ قـارب الأجـلا
غادرتـه بـين أحجـار بمحنـية لا يعلـم الـناس غيري بعـد ما فعـلا

وكان ذلك في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرفعوه إليه وقالوا: هذا قتل صاحبنا. فقال له عمر: لمَ قتلته؟ قال: ما فعلت. قال: أليس شعرك هذا يدل على قتله؟

فقال: يا أمير المؤمنين أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦] فقال عمر رضي الله عنه لليهود: إن كان لكم على قتله بينة وإلا فلاسبيل لكم إليه، فخلى سبيله.

وشبيه بهذا الخبر ما يروى: أن شاعراً أنشد سليمان بن عبد الملك أبياتاً يعرض فيها بالزنا فقال: ويحك أقررت على نفسك بالزنا، وأنا الإمام، ولا بد لي أن أحدك. فقال: بأي شيء أوجبت ذلك عليّ؟ قال: بكتاب الله تعالى. قال: كتاب الله هو الذي يدرأ عني الحد. قال: وأين؟ قال في قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] الآية، وأنا قلت يا أمير المؤمنين ما لم أفعل.

وشبيه بهذا ما يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما ولى النعمان ميسان كره ذلك فسأل عمر أن يعزله. فأبى فقال وهو بميسان:

من يبلغ الخنساء أن خليلها ... بميسان يسقى في زجاج وحنتم

في أبيات يعرض فيها بالخمر وأرسل بها إلى المدينة وغرضه أن تتصل بعمر فيعزله، وكان في آخرها:

لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدّم

فلما بلغ ذلك عمر قال: اللهم إنه قد ساءني، وعزله. فلما قدم عليه أمر بأن يحد، فقال: ما شربتها ولكني قلت ما قلت لغرض أردته. فقال له: احلف ما شربتها. فحلف فدرأ عنه الحدّ.

وقريب من هذا أن أبا محجن اعترف في شعره بشرب الخمر، فأراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يحدّه. فقال: صدق الله وكذبت أنا. أمّا الله تعالى يقول: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]. فتركه من الحدّ وعزله.

ونوع من هذا وفيه ضرب من التعريض في الشعر ما يروى أن مهلهلاً الشاعر خرج مع عبدين له فقتلاه، وكان قد قال لهما لما أحسّ بقتله: بلغا ابنتي السلام وأنشداهما:

من مبلغ الفتيان أن مهلهلاً ... لله درّكما ودرّ أبيكما

فلما قدم العبدان ذكرا أنه مات في الطريق، وقاما عليه ودفناه. وأنشدا البيت الذي وصاهما به. فقالت ابنته: هذا بيت لا يلتئم صدره مع عجزه وإنما صوابه:

من مبلغ الفتيان أن مهلهلاً ... أمسى وأصبح في التراب مجندلا

لله درّكما ودرّ أبيكما لا يبرح العبدان حتى يقتلا

فاستدل بذلك على أنهما قتلاه، وشدد عليهما فأقرّا بقتله، فقتلا. هذا معنى الحكاية نقلته من حفظي.

تقدم في الشعر الأول: ضخم الجزارة، وهل أرى دغلا. أما الجزارة: فإن ثابتاً رحمه الله قال: هي اليدان والرجلان والعنق، وسميت بذلك لأنها كانت لا تقسم في سهام الجزور إذا قسمت، وقيل: إنما سميت بذلك لأن الجزار كان إذا نحر جزوراً أخذها في أجره. ومنه الحديث الذي يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في البدن: ولا يعطى الجازر منها شيئاً. وروي: ولا تعط الجازر منها في جزارتها شيئاً. والجزارة بالكسر: مصدر جزرت. وبالضم: الأعضاء المذكورة، والله أعلم. والأعضاء المذكورة من الجزور تسمى الثنيا، لأن الجازر يستثنيها إذا نحر الجزور. وفي حديث عليّ رضي الله عنه: أن رجلاً باع ناقة وهي مريضة لتنحر واشترط ثنياها، وصحت فرغب فيها صاحبها، فاختصما إلى عمر فأرسلهما إلى عليّ رضي الله عنهما فقال: أدخلاها السوق. فإذا بلغت أقصى ثمنها فأعطه حساب ثنياها من ثمنها. وقال بعضهم: الثنيا: الرأس والأكارع والضرع والكركرة والقلب. ويقال: هؤلاء القوم ثنية وهم الأخساء، وفلان ثنية أهل بيته: إذا كان أخسّهم.

قلت: كذا قال ثابت رحمه الله، ولا أدري كيف هذا، ولعل أهل ذلك البيت كلهم خساس والثنية أخسّهم. وإلا فقد جاء في حديث سعيد بن جبير رضي الله عنه: الشهداء ثنية الله. قال ابن قتيبة يعني من استثناه الله في الصعقة. تقول: هذا ثنيتي من كذا، أي: ما استثنيت. والله أعلم.

وأما الدغل المذكور في الشعر فهو الموضع الخفي حيث تمكن الريبة به، ومنه قوله: اتخذوا مال الله خولاً ودينه دغلاً. وقال ابن عمر رضي الله عنه؛ وحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تمنعوا النساء من الخروج بالليل إلى المساجد. فقال ابن له: لا تدعهن يخرجن فيتخذنه دغلاً. فزأره ثم قال: أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تقول: لا تدعهن.

قلت: ومن ابتلي في هذا الزمان بامرأة ليس لها إلا الخروج إلى المسجد وغيره شغلاً وخاف أن تتخذ ذلك المخرج دغلاً، وكان ممن أفرط في الغيرة وغلا فليحتل لنفسه كما احتال الزبير رضي الله عنه في لمسه في طريق المسجد جسد عرسه، فكرت راجعة إلى بيته عدواً، ولم تطلب إلى المسجد غدوّاً والتزمت بعد ذلك الصلاة في المخدع، وانخدعت، والحر أحياناً يخدع.

ذكر أبو بكر الخرائطي رحمه الله في كتاب اعتلال القلوب قال: كانت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل عند الزبير بن العوام رضي الله عنهما فاستأذنته في الخروج إلى المسجد. فشق عليه ذلك وكره أن يمنعها، فأذن لها ثم انكمن لها في موضع مظلم من الطريق، فلما مرت عليه وضع يده على بعض جسدها فكرّت راجعة، وسبقها الزبير إلى الدار، فلما دخلت عليه تسبح قال لها: ما ردّك عن وجهك؟ قالت: كنا نخرج والناس ناس وأما اليوم فلا. وتركت طلب المسجد.

قلت: هذا ما فعل سيدنا الزبير في الخروج إلى المسجد لا غير. ولاشك أنها خرجت مستكينة عليها السكينة، باكية حزينة عطلاء من الزينة. كيف لو رأى رضي الله عنه خروجهن اليوم؟ متبرجات متفلجات محتفلات غير تفلات، تشاهد إحداهن الأعراس والحمامات، وتساعد جارتها في مأتم حميمها إذا مات، لا تقعد عن ترح، ولا تبعد عن فرح. وأما في الأعياد فالكلام فيه مزداد، وفيه أريق المداد، وقد فهمت الكلام يا غلام، وعلى رسول الله الصلاة والسلام، ثم: لا حسبة عند الزوج ولا غيره، ولا خشية أن ترى في طريقها غيره، فتعلقه وتهواه فتقع في مهواه، وأن تبغض الأول وتفركه وتنهض إلى الآخر ولا تتركه، ولو منعها المسكين من الخروج رأساً لم أر عليه إذا خاف ذلك بأساً، وإذا سمح لها بالخروج من الدار، فليأمرها بلبس الأطمار، فلعلها تقدر فلا تنظر، ولعل هذا المعنى المبارك أراد عبد الله بن المبارك رضي الله عنه حيث قال: أكره اليوم خروج النساء في العيدين، فإن أبت المرأة إلا الخروج فليأذن لها زوجها أن تخرج في أطمارها ولا تتزين، فإن أبت أن تخرج كذلك فللزوج أن يمنعها من الخروج.

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: كانت عاتكة هذه تحت عبد الله بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهم، وأحبها حباً شديداً حتى غلبته على رأيه، وشغلته عن سوقه، ثم إن أبا بكر اجتاز عليه ساعة الرواح إلى الجمعة، وناداه بالصلاة، فشغل بها حتى فاتته صلاة الجمعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعزم عليه أبو بكر حتى فارقها، ثم سمعه يقول:

فلم أر مثلي طلّق اليوم مثلها ... ولا مثلها في غير جرم تطلّق
أعاتك لا أنساك ما هبت الصبا ... رخاء وما ناح الحمام المطوّق

في أبيات. فرقّ له وأمره بمراجعتها. فلما قتل عنها في حصار الطائف تزوجها زيد بن الخطاب، على اختلاف في ذلك. فقتل عنها يوم اليمامة، ثم تزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي ابنة عمه، فلما قتل عنها تزوجها الزبير، فلما قتل خطبها

علي رضي الله عنه، فقالت: إني أضن بك عن القتل. وذكر غيره أنها تزوجت بعد الزبير محمد بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهم، فقتل عنها، ثم خطبها عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق فقالت: إني لأستحيي من أسماء أقتل إخوتها.

وكان ابن عمر رضي الله عنه يقول: من أراد الشهادة فليتزوج عاتكة. وكلما مات من أزواجها واحد رثته. وكانت قد رثت زوجها الأول عبد الله بن أبي بكر وقالت:

رزئت بخير الناس بعد نبيهم ... وبعد أبي بكر وما كان قصرا
فآليت لا تنفك عيني حزينة ... عليه ولا ينفك جلدي أغبرا

في أبيات. فلما تزوجها عمر بن الخطاب، أولم عليها، ودعا في وليمته نفراً من الصحابة منهم: عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم فقال: يا أمير المؤمنين دعني أكلم عاتكة. قال: نعم. فأخذ عليّ رضي الله عنه بجانب الخدر وقال: يا عدية نفسها ألست القائلة:

فآليت لا تنفك عيني حزينة ... عليه ولا ينفك جلدي أغبرا

فبكت. فقال عمر: ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن؟ كل النساء تفعل هذا.

فائدة زائدة: كان محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي قحافة الأربعة من الصحابة.

وفائدة أخرى: اسم عاتكة مشتق من قولهم: عنكت المرأة بالطيب إذا تضمخت به، وعتكت الفرس: إذا قويت فاحمر عودها، والعاتك من الرمل الأحمر.

وتقدم في **القافية**: دل. ومن فوائد هذه اللفظة قوله تعالى: ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ [سبأ: ١٤] هو سليمان بن داود عليهما السلام، سخرت له الجن كما ذكر الله في كتابه. وكان فيما ذكر يبالغ في تسخيرهم ويشدّد عليهم فشكوا ذلك إلى إبليس. فقال لهم: ألستم تعملون نهاراًوتستريحون ليلاً؟ قالوا: بلى. قال: فذلك خير كثير. فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فسخرهم البدأة والرجعة والليل والنهار، فشكو ذلك إلى إبليس. فقال: الآن يموت سليمان، إذا اشتد الأمر انفرج. أو كما قال. فمات بقرب ذلك صلى الله عليه وسلم، فلما قضى عليه الموت أسند إلى المنسأة ـ وهي العصا ـ فمات. وبقيت الجن حولاً تعمل بين يديه العمل الشديد ولا تعلم بموته، حتى أكلت الأرضة المنسأة فسقطت، وخرّ هو عليه السلام. وحينئذ تبين لهم موته، وكانت الجن قبل ذلك تدّعي عند الإنس علم الغيب، ﴿ خَرَّ فَلَمَّا تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤]. ويشهد لهذا التأويل أنه يقرأ خارج السبع: (تبينت الجن) غير مبني للفاعل،

ولم يعلم مقدار ما بقي ميتاً حتى وضعت الأرضة على العصا فأكلت منها يوم وليلة، ثم حسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة، وقيل في الأرض: إنه القطع من قولك: أرضت الشيء قطعته. وقيل الأرض المعلومة. والأرض أيضاً: الرعدة. يقال: أرض الرجل فهو مأروض. كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أزلزلت الأرض أم فيّ أرض. قال ذو الرمة يصف صائداً أرعد عند قربه من الصيد:

كأنه حين يدنو وردها طمعاً ... بالصيد من خوفه إلا خطاء محموم
إذا توجس ركزاً من سنابكها ... أو كان صاحب أرض أو به الموم

والمنسأة: العصا. ولم يقرأ: (منساته) بغير همز غير نافع وأبي عمرو، والباقون: (منسأة) مفعلة. من: نسأت الدابة، إذا سقتها. فقيل للعصا: منسأة. لذلك قال الشاعر:

إذا دبيت على المنسأة من هرم ... فقد تباعد عنك اللهو والغزل

وفيها قراءة أخرى تروى عن سعيد بن جبير رضي الله عنه: (تأكل من سئته) يريد من سية القوس على لغة من همز سية القوس. روي ذلك عن رؤبة، وروي عن الفراء: سية وسأة، مثل: قحة وقحة، وضعة وضعة.

وفضائل سليمان عليه السلام وما أعطاه الله كثيرة، من تسخير الإنس، والجن، والريح، والطير، وغير ذلك. حتى إن الريح أمرت أن لا يتكلم أحد شيئاً إلا طرحته في سمع سليمان، بسبب أن الشياطين أرادت كيده حتى ألقت إليه قول النملة، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨]، وقرأ سليمان التيمي: (يا أيتها النمل ادخلوا مساكنكن). وسيأتي الكلام في النمل في باب الراء في الفوائد إن شاء الله تعالى.

وعلم منطق الطير سوى تسخيرها. كان يفهم منطقها كما يفهم كلام البشر. وقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]. قال ابن عباس: لكل صنف منهم وزعة ترد أولاها على أخراها فكانت تظله مع جنوده فوق رؤوسهم من الشمس وهم على الكراسي، ووجوه أصحابه حوله على منازلهم في الدين من الإنس والجن، وكانوا يومئذ جميعاً ظاهرين للإنس، يحجون جميعاً ويصلون جميعاً، والشياطين حرسه، لا يتركون أحداً يتقدم بين يديه، والريح تحمل ذلك كله، كما قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ [سبأ: ١٢] فكان يصنع منه ما شاء بغير نار ولا مطرقة، بل كان بين يديه كالعجين.

وكان من أدب الطير وزينتها أن تصطف فوقه ولا يزحزح أحداً منه جناحه عن

صاحبه لئلا تدخل عليهم الشمس من خلل ذلك لمكانه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ ﴾ [النمل: ٢٠] قيل: لما غاب الهدهد لم يتجرأ أحد من الطير أن يغلق موضعه، فبقي مفتوحاً، فدخل عليه ضوء الشمس من موضعه، فسأل عنه. وقيل: إنما تفقده لأنه كان إذا احتاج إلى الماء دلّه عليه الهدهد، لأن الأرض عنده كالمهاة، وهي: البلورة يرى باطنها من ظاهرها.

وقد اعترض نافع بن الأزرق في هذا القول وكان ممن يتبع متشابه القرآن. فسأل ابن عباس رضي الله عنهما عن تفقد الطير، فأخبره بما تقدم. فقال: عجباً لك يا ابن عباس تخبر عن الهدهد بهذا وهو ينصب له الشرك تحت الأرض فيقع فيه ولا يبصره. فقال له ابن عباس: أما علمت أنه إذا وقع القضا عمي البصر.

ومن غريب حديث الريح أنها كانت تقرب من الأرض في سيرها فجرت على عش قنبرة فزعزعته، فشكت الريح إلى سليمان عليه السلام، فأمرها أن ترتفع عن الأرض. فلما أمسى سليمان أتته القنبرة بجرادة في فيها تهديها إليه، فأمر بقبضها منها. وقال: كل يهدي على قدره.

والأخبار في حديث سليمان عليه السلام كثيرة، لو جمعت لكان منها ديوان، لكن نشير في هذا الكتاب إلى ما يسر الله من ذلك. ويكفي سليمان عليه السلام أن الله أعطاه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وكان لأبيه داود عليه السلام سبعة عشر ولداً، فورث سليمان من بعدهم نبوته وملكه وكان مع ملكه وما آتاه الله يأكل في خاصته الخشكار، ويطعم أهل البلد الشعير، ويطعم المساكين البر، ومع ذلك فقد جاء عنه أنه يدخل الجنة بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وكذلك عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لأجل غناه. ونقف هنا وننتقل إلى غيره مما يفتح الله فيه ويأذن.

فصل : وتقدم الدل :

وفي الحديث منه: سئل حذيفة عن رجل قريب السمت والهدى من النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما أعلم أحداً أقرب سمتاً وهدياً ودلاً بالنبي صلى الله عليه وسلم من ابن أم عبد، يعني عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وفي حديث آخر: كان أصحابه يرحلون إلى عمر رضي الله عنه فينظرون إلى سمته وهديه ودله ويتشبهون به. وفضائل عبد الله كثيرة. خرج مسلم عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا ﴾ [المائدة: ٩٣] الآية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قيل لي أنت منهم. ولما مات اجتمع أبو موسى وأبو مسعود فقال أحدهما لصاحبه: أتراه ترك بعده مثله؟ قال: إن

قلت ذاك إن كان ليؤذن له إذا حجبنا، ويشهد إذا غبنا.

وقال أبو موسى: قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثرة دخولهم ولزومهم له. وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد فبدأ به، ومعاذ بن جبل، وأبي ابن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهم.

وقال ابن مسعود: والذي لا إله غيره ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حيث نزلت، وما من آية إلا أنا أعلم فيما نزلت، ولو أعلم أحداً هو أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه. وفضائله أكثر من هذا، وكذلك من ذكر من الصحابة فضائلهم مشهورة مدوّنة مذكورة في مسلم وغيره، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

فصل: وتقدم أدلة جَمع دليل:

وجاء منه في الحديث الذي يرويه هند بن أبي هالة في صفة النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضي الله عنهم، قال: وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ حديثه. وذكر من وصفهم أشياء كثيرة جساماً. وقال في بعضها: يدخلون روّاقاً ولا يفترقون إلا عن ذواق، ويخرجون أدلة يعني: على الخير، يعني: فقهاء. ويروى عن عليّ رضي الله عنه:

مـا الفخـر إلا لأهـل العلـم إنهـم ... علـى الهـدى لِمـن استهدى أدلاء
وقـدر كـل امـرئ مـا كـان يحسـنه ... والجاهلـون لأهـل العلـم أعـداء

وتقدم الهجيرى وتفسيرها:

كان من هجيرى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه: لا إله إلا الله. ومن هجيرى عمر رضي الله عنه: الله أكبر. ومن هجيرى عثمان رضي الله عنه: سبحان الله. وكان هجيرى عليّ رضي الله عنه: الحمد لله. استقرأ العلماء من ذلك أن أبا بكر لم يشهد في الدارين إلا الله. وكان عمر يرى ما دون الله صغيراً، وعثمان لا يرى التنزيه إلا لله، وكان عليّ لا يرى نعمة في المكروه والمحبوب إلا من الله.

وكان من هجيرى أبي الحسين الكناشي رضي الله عنه: هانوا عليك فعصوك ولو أحببتهم لحميتهم من المعاصي. وسيأتي حديث الرجل الذي أتى إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بالكوفة وقد هاجت ريح حمراء، فجاء ليس له هجيرى إلا: يا عبد الله جاءت الساعة.

فصل : وتقدم البزيزى :

وجاء منها في حديث أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أنه قال: ستكون نبوة ورحمة، ثم خلافة ورحمة، ثم ملك يجعله الله لمن شاء، ثم تكون بزيزى، وأخذ أموال بغير حق.

وتقدم الْخليفى:

ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو أطقت الأذان مع الخليفى لأذنت. يعني أن يتشاغل بأمور المسلمين فلا يتفرغ لارتقاب الأوقات كما يفعل المؤذن الْمجتهد المشتغل بذلك، لا سيما إذا أراد بذلك وجه الله والحسبة عنده، ولم يأخذ على ذلك أجراً، كما جاء في الحديث: واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً. كذلك له من الثواب على ذلك ما يجل عن الوصف، كما قال عليه الصلاة والسلام: المؤذن المحتسب كالمتشحط في دمه فإن مات لم يدد في قبره. يعني لم يأكله الدود. وقد تقدم. وقال في فضله: لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه، أي: يقترعوا. وفي رواية عن ذاذان: لاضطربوا عليه بالسيوف. وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]: إنها نزلت بالمؤذنين. وقيل غير ذلك.

وخرج ثابت في الدلائل عن أبي الوقاص قال: قال عليه الصلاة والسلام: سهام المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المجاهدين، وهو فيما بين الأذان والإقامة كالمتشحط في دمه في سبيل الله. وقال: المؤذن مؤتمن، والإمام ضامن. وقال: اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين. وقال: من أذّن في مسجدي سبع سنين وجبت له الجنة، ومن أذّن أربع سنين دخل الجنة بغير حساب. وجاء في الحديث أيضاً: المؤذن يغفر له مدّ صوته ويصدّقه من سمعه من رطب ويابس وله مثل أجر من صلى معه، ولِلْمؤذن فضل على من أتى الصلاة بأذانه مائة وعشرين حسنة، فإن أذّن وأقام فأربعون ومائتا حسنة إلا من قال بمثل قوله.

وفي حديث آخر: لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة. ولذلك يفر الشيطان عند سماع الأذان ولا يفر عند سماع قراءة القرآن. كما قال صلى الله عليه وسلم: إذا نودي بالصلاة أدبر، حتى إذا قضى التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول: اذكر كذا واذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى. وفي رواية: إذا نادى المؤذن بالأذان هرب الشيطان حتى يكون بالروحاء، وهي ثلاثون ميلاً للمدينة. قال بعض العلماء: إنما يفر

لأنه يخشى أن يكلف الشهادة بالتوحيد للمؤذن فينجو من النار، وغرض اللعين أن يقذفه فيها، ولذلك يضرط في عدوه ليتشاغل بصوت ضراطه عن سماع المؤذن، لأن فضل لا إله إلا الله محمد رسول الله عظيم، هو الأصل وعليه منشأ العبادات كلها، ولذلك كان المؤذن طويل العنق في الآخرة، كما قال عليه الصلاة والسلام: المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة. وفسر هذا الحديث على وجوه منها: إن ذلك إذا ألجم الناس العرق يوم القيامة طالت أعناقهم لئلا يصيبهم العرق. قاله النضر بن شميل. وقيل: معناه أطول الناس تشوّقاً إلى رحمة الله، لأن المتشوّف يطيل عنقه لما تشوّف له، فكني عنه بذلك. وقيل: معناه الدنوّ من الله تعالى. وقيل: معناه أنهم رؤساء يوم القيامة، والعرب تصف السادة بطول الأعناق. قال الشاعر:

طـــوال أنـــضية الأعـــناق والأمـــم

وقيل ذلك كناية عن الأمن وقلة الخوف والريبة، كما يقال: فلان يمشي في الناس طويل العنق. وضده من أهل الريب يمشي مائل العنق.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤] المعنى أنهم إذا ذلت رقابهم ذلوا. فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها. ومعلوم أن الخاضع والذليل مائل الرقبة ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمن رآه مائل العنق ـ زعم من الخشوع ـ فقال له: يا صاحب الرقبة ارفع رأسك، لا تمت علينا ديننا، فليس الخشوع في الرقاب. أو كما قال رضي الله عنه.

وقيل: تجعل لهم منابر يوم القيامة فيقعدون عليها فتطول أعناقهم لذلك، كما كانوا في الدنيا تطول أعناقهم على الناس بصعودهم الصوامع والمرتفعة من المواضع، فطابق الفعل الفعل وطابق الشكل الشكل. ويحق له أن يعلو على أعلى موضع يجده ويرفع صوته بأشدّ ما يمكنه ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

وأين هذه الحالة من حالة الناس أوّل الإسلام، إذا كانوا لا يقدرون على أن يقولوا هذه الكلمة إلا سراً، ولو ظهر على أحد بقولها لعذب كما فعل ببلال رضي الله عنه. إذ كان يخرج إلى الرمضاء عند اشتداد الحر، فيبطح على ظهره وتطرح الصخرة العظيمة على بطنه على قول لا إلا إلا الله. فيقول رضي الله عنه وهو كذلك: أحدٌ أحد. هذا قاسى ما لم يقاس أحد، فلما أدرك الأمان وكان قد حصل الإيمان بادر إلى الأذان فأسمعه الأذان. ما أولى بهذا العمل كل من له في الخير أمل. لكن لا حول ولا قوة إلا بالله ولا هادي إلا الله.

فصل:

وتكلم العلماء في الإمام والمؤذن أيهما أفضل، فقالت طائفة: المؤذن. واحتجوا بما تقدم في فضل الأذان، وقالوا: قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن، وبالأذان تحقن الدماء، فهو فرض في المصر من أجل أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يغير على قوم بليل حتى يصبح، فإن سمع الأذان كفّ، وإن لم يسمع أغار. وقال صلى الله عليه وسلم: من صلى بأرض فلاة صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك، فإن أذّن وأقام الصلاة، صلى وراءه من الملائكة أمثال الجبال.

وعن كعب الأحبار قال: من أذّن في السفر وأقام صلى خلفه ما بين الأفقين من الملائكة، ومن أقام ولم يؤذّن لم يصل معه إلا ملكاه الكاتبان. فانظر ماذا زاده من الخير بسبب الأذان.

وقالت طائفة: الإمام أفضل، واحتجوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمّ ولم يؤذن، وما كان عليه الصلاة والسلام يقتصر على الأدنى ويدع الأعلى، واعتذر عن هذا القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما ترك الأذان لما اشتمل عليه من الثناء عليه والشهادة له بالرسالة والتعظيم لشأنه، فترك ذلك لغيره، ولما فيه أيضاً من الحيعلة للصلاة، فلو أذن هو لم يحل لأحد يسمعه يقول حي على الصلاة أن يتخلف عنها على أي حال كان، ولو تخلف عنها لكان عاصياً، كيف وهو يقول للضرير البصر واعتذر له بذلك وبالمطر والسيل وسأله الرخصة، فقال: تسمع حي على الصلاة؟ قال: نعم. قال: لا أجد لك رخصة. والمؤذن غير النبي صلى الله عليه وسلم، فكيف أن لو كان هو المؤذن، فترك ذلك تخفيفاً عن أمته لأنه كان يكره ما شقّ عليهم، وقد وصفه الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقد فعل ذلك في أشياء كثيرة مثل: السواك الذي قال فيه: لولا أن أشقّ على أمتي لأمرتهم بالسواك. وقال في الغزو: لولا أن أشقّ على أمتي لأحببت أن لا أتخلف عن سرية تخرج في سبيل الله. الحديث. وقال في زمزم لبني عبد المطلب: لولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم. وكم له من مثل هذا وكم. صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم.

قلت: قد اختلف هؤلاء في الأفضل منهما، وهذان أمران قد يمكن الجمع بينهما، وإذا نزل الائتلاف زال الاختلاف. فيقال للمؤذن: أمّ، وللإمام: أذّن يا ابن أم. وحصلا ذا الفضل وحوزاه واستبقا إليه وأحرزاه. وإذا أمكن الجمع بين الخيرين فاصنعاه، ومتى تفرق الفعل فاجمعاه. وقد قلت في هذا المعنى شعراً فاسمعاه:

قالوا المؤذن فاضل وكذا الإمام — في أي أفضل منهما بقي الكلام
منهم من أحرز ذا وقدم ذا أمام — وبعكسه قد قال قوم يا غلام
وأنا أقول مقالة فيها انتظام — قل للمؤذن أم ثم مر الإمام
أن يودع المستأذين آذان الأنام — فإذا تجمع ذا وذا انقطع الخصام
والأصل إخلاص البداية والتمام — فسلاه من رب البرية والسلام

ولا تظنن أن الأذان والإقامة إجماع من العلماء، بل قد كره بعضهم أن يكون الإمام مؤذناً وقائل هذا يحتج بأن السنة أن يكبّر الإمام تكبيرة الافتتاح عند قول المؤذن: قد قامت الصلاة. ثم يأخذ في قراءة الحمد، ويتمادى المؤذن على الإقامة وحينئذ لا يكبّر. ولذلك قال بلال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبقني بآمين، أي: تمهل علي حتى أدرك التأمين معك لفضله.

قلت: فإذا أذّن الإمام وترك الإقامة لغيره فقد زالت الكراهة إن شاء الله تعالى. وقد كان الإمام عليّ رضي الله عنه يصلي بالناس ويؤذن، وحين فتك به عبد الرحمن بن ملجم كان يؤذن لصلاة الفجر. ذكره أبو القاسم الوراق في شرح الشهاب. وكذلك تكلموا في صلاتهم أوّلاً بغير أذان حتى أري ذلك عبد الله بن ثعلبة بن عبد ربه رضي الله عنه، والنبي صلى الله عليه وسلم كان أولى بهذه الفضيلة.

قال الأستاذ رحمه الله تعالى: قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أُريه قبل هذا ليلة الإسراء، وسمعه من الملك مشاهدة فوق سبع سماوات، وهذا أقوى من الوحي. وتأخر فرضه إلى المدينة، وتلبث الوحي بذلك، حتى رآه عبد الله وعمر وأعلما بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إنها رؤيا حق إن شاء الله تعالى. وعلم حينئذ أن الذي أراه الله إياه في السماء يكون سنة في الأرض، لا سيما ورآه عمر الذي ينطق الحق على لسانه، كما قال فيه عليه الصلاة والسلام: إن السكينة تنطق على لسان عمر. انتهى كلامه.

والحديث الذي فيه ذكر الأذان الذي سمعه النبي صلى الله عليه وسلم من الملك؛ خرجه البزار عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لما أراد الله أن يعلّم رسوله الأذان، جاءه جبريل بدابة يقال لها البرق، فاستصعبت عليه، فقال لها جبريل: اسكني، فوالله ما ركبك عبد أكرم على الله من محمد، فركبها حتى أتي بها الحجاب الذي يلي الرحمن تعالى، فبينا هو كذلك إذ خرج ملك من الحجاب، فقال سول الله صلى الله عليه وسلم: يا جبريل من هذا؟ قال: والذي بعثك بالحق إني لأقرب الخلق مكاناً، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه. فقال الملك: الله أكبر الله أكبر، فقيل له

من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا أكبر أنا أكبر، ثم قال الملك: أشهد أن لا إله إلا الله، فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا الله لا إله إلا أنا. وذكر مثل هذا في بقية الأذان، إلا أنه لم يذكر جواباً على قوله حي على الصلاة حي على الفلاح. قال: ثم أخذ الملك بيد محمد صلى الله عليه وسلم فقدّمه، فأمّ أهل السماء فيهم آدم ونوح. قال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين: كمل الله لمحمد صلى الله عليه وسلم الشرف على أهل السماوات والأرض. قال القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله: وما ذكر في هذا الحديث من ذكر الحجاب فهو في حق المخلوق لا في حق الخالق، فهم المحجوبون، والحق سبحانه منزه عما يحجبه، فإن الحجاب يحيط بمقدار محسوس ولكن حجبه عن أبصار خلقه وبصائرهم وإدراكاتهم بما شاء، كيف شاء، ومتى شاء. لقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥]. فقوله في الحديث: إذ خرج ملك من الحجاب، يجب أن يقال: إنه حجاب حجب به من وراءه من ملائكته عن إطلاع ما دونه من سلطانه وعظمته وعجائب ملكوته، ويدل على هذا من الحديث قول جبريل عليه السلام عن الملك الذي خرج من ورائه: إن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه. فدل على أن هذا الحجاب لم يختص بالذات، ويدل عليه قول كعب في تفسيره سدرة المنتهى قال: إليها ينتهي علم الملائكة، وعندها يجدون أمر الله لا يتجاوزها علمهم. وأما قوله: الذي يلي الرحمن، فحمل على حذف مضاف، أي: الذي يلي عرش الرحمن أو أمراً ما من عظيم آياته أو مبادي حقائق معارفه بما هو أعلم به، كما قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهلها. وقوله: فقيل من وراء الحجاب: صدق أنا أكبر؛ فظاهره أنه سمع في هذا الموطن كلام الله، ولكن من وراء الحجاب، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١] أي: وهو لا يراه حجب بصره عن رؤيته.

فصل:

أجمع العلماء على أن الأذان لا يكون إلا بعد دخول الوقت في سائر الصلوات وكذلك في الصبح بعد طلوع الفجر، حتى قالت طائفة منهم: من أذّن للصبح قبل الفجر فإنه يعيد الأذان مرة أخرى بعده، وهو مذهب الثوري رحمه الله. وذكر ثابت عن الحسن قال: كان إذا سمع المؤذن بليل قال: علوج تباري الديوك تبارياً وهل كان الأذان على عهد محمد صلى الله عليه وسلم إلا بعد ما يطلع الفجر. وأجازت طائفة من العلماء الأذان بالليل وهو قول مالك رضي الله عنه، وجماعة كثيرة من العلماء، وحجتهم قول

النبي عليه الصلاة والسلام: إن بلالاً ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم. وقوله في الحديث: علوج، يصفهم بالجهل ولم يكونوا علوجاً. وهذه اللفظة كثيراً ما يستعملونها إذا جهلوا الرجل. كما قال سفيان رحمه الله رأى قوماً يزدحمون على جنازة فقال: علوج يتنافسون في حمله ولا يتنافسون في عمله. انتهى.

فصل:

وتقدم اللدود، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدّ، كان ذلك في مرضه حين تمادى به وجعه حتى غمر، واجتمع إليه نساء من نسائه: أم سلمة وميمونة، ونساء من المسلمين منهن: أسماء بنت عميس، وعنده العباس، وأجمعوا على أن يلدّوه. وقال العباس لا تلدّنه، قال: فلدّوه، فلما أفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من صنع هذا بي. قالوا: يا رسول الله عمك. قال: هذا دوائي أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض، وأشار نحو أرض الحبشة، قال: ولمَ فعلتم ذلك؟ فقال عمه العباس: خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجنب. فقال: إن ذلك لداء ما كان الله ليعذبني به. لا يبقى في البيت أحد إلا لدّ الأعمى، فقد لدّت ميمونة، وإنها لصائمة، لقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم عقوبة لهم بما صنعوا به، كذا وقع في السير.

وجاء في البخاري من طريق عائشة رضي الله عنها قالت: لددناه في مرضه، فجعل يشير إلينا أن لا تلدوني. فقلنا: كراهية المريض للدواء، فلما أفاق قال: ألم أنهكم أن تلدوني؟. فقلنا: كراهية المريض للدواء. فقال: لا يبقى أحد في البيت إلا لدّ وأنا أنظر، إلا العباس فإنه لم يشهدكم.

قلت: وهذا النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه علم أن الله لم يبتله بذلك الداء، وأما غيره فجائز له. كيف وقد قال عليه الصلاة والسلام: إن خير ما تداويتم به الحجامة والسعوط واللدود والمشي.

فصل:

وتقدم لدّ. ومنه في القرآن: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]. جاء في التفسير أي: كاذب القول. قيل نزلت في الأخنس بن شريق، ونزل فيه أيضاً: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١٣]، وليس الزنيم الذي يعرفه الناس. قال بعض العلماء ما كان الله ليعير أحداً بنسبه في الدنيا وإنما هو كما قال الحسن رضي الله عنه: الزنيم: اللئيم الضريبة، أي: الطبيعة. وقال غيره

الزنيم: المعروف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها. ويقال: شاة زنمة وهو ما تعلق عند خلوف المعزى. وقد تقدم تفسير العتلّ أنه الغليظ الجافي، والله أعلم. ونزل في الأخنس أيضاً: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١]، وفي الحديث من لفظ الألد ما روت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أبغض الخلق إلى الله الألد الخصم.

فصل:

وتقدم لدّ: اسم بلد وهو مذكور في حديث الدجال، حين يبعث الله عز وجل عيسى ابن مريم عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، وذكر الحديث بطوله. وفيه: فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ فيقتله. يعني المقتول الدجال لعنه الله.

فصل:

تقدم في حرف الذال من الحديث: والنخل قد ذللت. رواه مالك رضي الله عنه في الموطأ من طريق عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما أن رجلاً من الأنصار كان يصلي في حائط له بالقف ـ واد من أودية المدينة ـ في زمن الثمر، والنخل قد ذللت فهي مقطوفة بثمرها، فنظر إليها فأعجبه ما رأى من ثمرها، ثم رجع إلى صلاته فإذا هو لا يدري كم صلى. فقال: لقد أصابتني في مالي هذا فتنة. فجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو يومئذ خليفة فذكر له ذلك وقال هو: صدقتها اجعله في سبيل الخير. فباعه عثمان بخمسين ألفاً، فسمى ذلك الخمسون، وروي: الخمسين.

قال بعض أشياخي رحمه الله هنا كلاماً هذا معناه: لستم تعرفون أنتم من سها في صلاته إلا سجد قبل السلام أو سجد بعد السلام، وأما أن يفعل أحد مثل ما فعل الأنصاري فلا أليست سنة ينبغي أن تتبع؟! فإن قلت لم يكن ذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فتكون سنة، فقد اعترى مثل هذه القصة لأبي طلحة الأنصاري، كان يصلي في حائط فطار دبسي(*) فطفق يتردد ويلتمس مخرجاً، فأعجبه ذلك، فجعل يتبعه بصره ساعة، ثم رجع إلى صلاته فإذا هو لا يدري كم صلى، فقال: لقد أصابتني في مالي هذا فتنة. فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له الذي أصابه في حائطه من الفتنة، وقال: يا رسول الله هو صدقة لله فضعه حيث شئت. فهذا بمحضر النبي صلى الله عليه وسلم، ولو كره ذلك لرده وقال: امسك مالك واسجد سجدتين. ليس الأمر كذلك، لكل مقام مقال ولكل زمان رجال.

(*) قوله: دبسي: هو طائر صغير. قيل: هو ذكر اليمام.

وأبو طلحة هذا رضي الله عنه هو المتصدق بأحب أمواله إليه ـ بيرحاء ـ لما أنزل الله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] فأمضاه، وساعده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ذلك مال رابح. وقد تقدم.

وأذكر في هذا الخبر الذي فيه ذكر الدبسي رسالة كتب بها الفقيه الخطيب يصف لطف غلته، وكان الخارص قد ظلمه فيها: تالله ما شغلت عن الصلاة قط إنسياً إلا من الجهة الأخرى ولا منعت عن مطاره دبسياً، إلى هلم جراً، بل لو رزق الله الفيل جناحان وطار في أكثفها غصوناً لما لقي إلا براحاً ولكان عن مباشرتها مصوناً. في كلام عجيب طويل. انظره في التكميل.

فصل:

وتقدم لواذاً: وفي التنزيل: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ [النور: ٦٣] نزلت فيمن كان من المنافقين يتسلل من بين المسلمين عن حفر الخندق، وكان الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها يذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ويستأذنه في اللحوق لحاجته، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتساباً له. ففي ذلك نزل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [النور: ٦٢] الآية في المؤمنين، وقال في المنافقين: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ [النور: ٦٣] الآية. وكان حفر الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة النبوية، عمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ترغيباً للمسلمين في الأجر. وقد تقدم أنه كان ينقل معهم التراب حتى وارى التراب شعر بطنه، وعمل فيه المسلمون، وأبطأ عنه رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف في العمل ويتسللون إلى أهليهم بغير علم ولا إذن من النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم. وكان المسلمون يرتجزون والنبي صلى الله عليه وسلم يقول معهم، وكان معهم رجل اسمه جعيل فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عمراً، وكانوا يقولون:

سماه من بعد جعيل عمرا ... وكان للبائس يوماً ظهرا

فإذا مروا بعمراً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عمراً، وإذا مروا بظهراً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ظهراً.

معجزات ظهرت في حفر الخندق

وفي الخندق ظهرت من النبي صلى الله عليه وسلم آيات ومعجزات منها: أن ابنة بشير بن سعد ـ وهي أخت النعمان بن بشير ـ قالت: دعتني أمي عمرة بنت رواحة، فأعطتني حفنة من تمر ثم قالت لي: أي بنية اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما. قالت: فأخذتها وانطلقت بها، فمررت برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألتمس أبي وخالي. فقال: تعالي يا بنية ما هذا الذي معك؟ قلت: يا رسول الله هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغديان. قال: هاتيه. فصببته في كفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ملأهما، ثم أمر بثوب فبسط له، ثم رمى بالتمر عليه فتبدّد فوق الثوب، ثم قال لإنسان: اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب.

ومثل هذا اعترى لجابر بن عبد الله في الخندق أيضاً، ذبح شويهة غير سمينة، وشواها وصنع معها شيئاً من خبز هذا الشعير، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك وقال: أحب أن تنصرف معي إلى منزلي، قال: وأنا أريد أن ينصرف معي رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده، قال: فلما أن قلت له ذلك قال: نعم. ثم أمر صارخاً فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت جابر. قال فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، قال: فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل الناس معه، قال: فجلس وأخرجناها إليه، قال: فبرك وسمى الله، ثم أكل. وتواردها الناس، كلما فرغ منهم قوم قاموا، وجاء ناس فأكلوا، حتى صدر أهل الخندق عنها.

ومثل هذا ما خرج أبو نعيم الحافظ ـ رحمه الله ـ عن واثلة بن الأسقع قال: حضر رمضان ونحن في الصفة فصمنا، فكنا إذا أفطرنا أتى كل رجل منا رجلاً فأخذه فانطلق به فعشاه، فأتت علينا ليلة لم يأتنا أحد، فأصبحنا صياماً، ثم أتت القابلة علينا فلم يأتنا أحد، فانطلقنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه بالذي كان من أمرنا، فأرسل إلى كل امرأة من نسائه يسألها هل عندها شيء، فما بقيت امرأة منهن إلا أرسلت تُقسم ما أمسى في بيتها ما يأكل ذو كبد. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجتمعوا، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اللهم إنا نسألك من فضلك ورحمتك، فإنهما بيدك، ولا يملكهما أحد غيرك. فلم يكن إلا ومستأذن يستأذن، فإذا شاة مصلية ورغف، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضعت بين أيدينا، فأكلنا حتى شبعنا، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا سألنا الله عز وجل من فضله

ورحمته وقد دخر لنا عنده رحمته.

وعن واثلة أيضاً قال: كنت من أصحاب الصفة، فشكا أصحابي الجوع، فقالوا: يا واثلة اذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستطعم لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهبت فقلت: يا رسول الله إن أصحابي يشكون الجوع. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة هل عندك من شيء؟. قالت: يا رسول الله ما عندي إلا فتات خبز. قال: هاتيه. فجاءت بجراب، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحفة، فأفرغ الخبز في الصحفة، ثم جعل يصلح الثريد بيده وهو يربو حتى امتلأت الصحفة، قال: يا واثلة اذهب فجئني بعشرة من أصحابك وأنت عاشرهم. فذهبت وجئت بعشرة من أصحابي وأنا عاشرهم. فقال: اجلسوا وقولوا باسم الله، خذوا من حواليها ولا تأخذوا من أعلاها، فإن البركة تنحدر من أعلاها، فأكلوا حتى شبعوا، ثم قاموا وفي الصحفة مثل ما كان فيها، ثم جعل يصلحها بيده وهي تربو حتى امتلأت الصحفة ثم قال: يا واثلة اذهب فجئني بعشرة من أصحابك، فجئت بهم فقال: اجلسوا، فجلسوا فأكلوا حتى شبعوا، ثم قال: اذهب فجيء بعشرة من أصحابك، فذهبت وجئت بعشرة، ففعلوا مثل ذلك، فقال: هل بقي أحد؟ فقلت: نعم عشرة. قال: اذهب فجيء بهم، فجئت بهم، فقال: اجلسوا، فجلسوا فأكلوا حتى شبعوا ثم قاموا، وبقي في الصحفة مثل ما كان، ثم قال: يا واثلة اذهب بها إلى عائشة.

وقريب من هذه القصة حديث أم سليم رضي الله عنها، إذ أرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم أقراصاً من شعير، فجاء إلى بيتها بالناس فأكلوا من تلك الأقراص بعد أن آدمته، فدخل عشرة وخرج عشرة حتى شبعوا كلهم، والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون رجلاً. خرجه مالك رضي الله عنه في الموطأ.

وأغرب من هذا ما خرجه مسلم رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل بأهله، قال: فصنعت أمي ـ أم سليم حيساً ـ فجعلته في تور، فقالت: يا أنس اذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل: بعثت بهذا إليك أمي وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا منا قليل يا رسول الله. قال: فذهبت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إن أمي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله. فقال: ضعه، ثم قال: اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً وفلاناً ومن لقيت، وسمى رجالاً، قال: فدعوت من سمى ومن لقيت، قال: فقلت لأنس: كم عدد كنتم؟ قال: زهاء ثلاثمائة. قال: وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: هات التور. فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم: ليتحلق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه. قال: فأكلوا حتى شبعوا. قال: فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم. فقال: يا أنس ارفع. فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أو حين رفعت.

ومن كتاب الحلية أيضاً عن واثلة رضي الله عنه قال: كنت من فقراء المسلمين من أهل الصفة، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كيف أنتم بعدي إذا شبعتم من خبز البر والزيت وأكلتم ألوان الطعام، ولبستم أنواع الثياب، فأنتم اليوم خير أم ذاك. قال قلنا: ذاك. قال: بل أنتم اليوم خير. قال واثلة: فما ذهبت بنا الأيام حتى أكلنا ألوان الطعام ولبسنا أنواع الثياب، وركبنا المراكب.

وخرج أيضاً أبو نعيم عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر حديثاً طويلاً آخره: فإنّ من ورائكم أياماً الصبر فيهنّ مثل القبض على الجمر، للعامل فيها مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله. قال وزاد في غيره: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: أجر خمسين منكم.

وأبو ثعلبة هذا كان يقول: إني لأرجو أن لا يخنقني الله كما أراكم تخنقون عند الموت. قال: فبينما هو يصلي في جوف الليل قبض وهو ساجد، فرأت ابنته أن أباها قد مات فاستيقظت فزعة فنادت أمها: أين أبي؟ قالت: في مصلاه. فنادته فلم يجبها، فأتته فوجدته ساجداً فحركته فوقع لجنبه ميتاً.

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم، حديث أم معبد رضي الله عنها، الذي حدّث به حبيش بن خالد رضي الله عنه، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة رضي الله عنهما، ودليلهما الليثي عبد الله بن الأريقط، مروا على خيمتي أم معبد الخزاعية وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة، ثم تسقي وتطعم، فسألوها تمراً ولحماً ليشتروا منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك. وكان القوم مرملين(*)، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كسر الخيمة فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. قال: هل لها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك. قال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: نعم بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها. فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسح بيده ضرعها وسمى الله تعالى ودعا لها في شاتها فتفاجت عليه ودرّت واجترت، ودعا بإناء عريض الرهط

(*) قوله: مرملين: أي نفد زادهم.

فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب آخرهم، ثم أراضوا، ثم حلب فيه ثانياً بعد بدء حتى امتلأ الإناء ثم غادره عندها وبايعها وارتحلوا عنها، فقلما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً تساوك هزالاً مخاخهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد والشاة عازب حيال ولا حلوب في البيت؟ قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا، قال: صفيه لي يا أم معبد. قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة أبلج الوجه حسن الخلق لم تعبه نجلة ولم تزريه صعلة وسيماً قسيما في عينيه دعج وفي أشفاره وطف، وفي عنقه سطع، وفي صوته صحل، وفي لحيته كثاثة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء. أجمل الناس وأبهاه من بعيد وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هذر، كان منطقه خرزات نظم يتحدرن، ربعة لا ييأس من طول ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إن قال أنصتوا، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود لا عابس ولا مفند. قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت بأن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، فأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين قالا خيمتي أم معبد
هما نزلاها بالهدى فاهتدت به ... فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيا لقصي لما روى الله عنكم ... به من فعال لا تجارى وسودد
ليهن بني كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت ... عليه صريحا ضرة الشاة مزبد
فغادرها رهناً لديها لحالب ... يردّدها في مصدر ثم مورد

فلما سمع ذلك حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه جعل يجاوب الهاتف وهو يقول في ذلك:

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم ... وقدس من يسري إليهم ويغتدي
ترحل عن قوم فضلت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم ... وأرشدهم من يتبع الحق يرشد
وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا ... عمايتهم هاد به كل مهتد

لقد نزلت منه على أهل يثرب ... ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مسجد
وإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في اليوم أو في ضحى غد
ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد
ويهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

قلت: هذه بعض المعجزات والآيات البينات.

وكم له من مثلها وكم وكم ... ومن يطيق عدها عدّ الأكم

وقال أيضاً:

وكم له من آية من ذا المثال ... ومن يطيق عدها عدّ الرمال

فرغ بعض ما فتح الله من الكلام على ما في الباب من النكت، ولو تتبعت لكانت أطول، فلنقتصر على هذا، ولنأخذ في غيره إن شاء الله تعالى، من الشرط المعروف من ذكر ملح القوافي والحروف.

خرجت من شيء إلى غيره ... من جيد ما مثله جيد
وكله علم ومن حقه ... مهما يجئ فاجبذه يا سيد

وقلت أيضاً:

خرجت من شيء إلى غيره ... والقول بعضه بعضاً يحبذ
لكنه علم ومن حقه ... مهما يجئ يؤخذ ولا ينبذ

وقلت أيضاً:

خرجت من شيء إلى غيره ... لكن من علم لعلم جديد
من كل فنّ فيه حتى انتهى ... القول إلى ذكر الحميد المجيد
وبعد ذكر النبي الرضي ... محمد فافخر به يا مريد
وكل من يسمع تأليفنا ... يقول يا قارئ هل من مزيد

وقلت أيضاً:

خرجت من شيء إلى غيره ... لكن من علم لعلم لذيذ
أحلى لدى الطالب ذي النبل من ... لَحم سمين مع خبز السميذ
وإن تشا أيضاً فقل فيه من ... قرص حواريّ وعجل حنيذ
ومن نمير الماء عند الظما ... لا أرتضي ذكر حلال النبيذ

باب الألف مع الراء وأختها

وأرّ وآر وأرّ وأز وآز وأز وزل ورل

أرّ: أما أرّ: ففعل ماض من قولهم: أرّ الرجل المرأة فيؤرّها أرّاً: إذا جامعها، فهو آرّ، فإذا كثر ذلك منه قالوا: مئر. قالت ليلى بنت الحمارس:

بلـــــت بـــــه علابطـــــاً مئـــــرّا

العلابط: الغليظ الشديد. وقولها بلت به: كأنه أتيح لها أو قضى لها. يقولون: لئن بللت به لتبلن بالأسد، وربما قالوا في أرّ: آر، بالهمز، يئير. قال الشاعر:

ولا غـرو إن كـان الأعيـرج آرهـا فمـــا الـــناس إلا آيـــر ومئيـــر

ومن هذا الشكل: أرِ، أمر من: أرى يري، قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما: رب أرني: أعطني. ذكره البخاري. ويقرأ (أرْني) بسكون الراء. وقال حكاية عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ [البقرة: ١٢٨]. وقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ومن شكله أيضاً: أرّ نارك. من قولهم: أرّيت النار تأرية: ذكيتها، وأرّه أيضاً: بمعنى أثبته. قال:

لا يـــستأرى لـمــــا فــــي القــــدر يــــرقبه

أي: لا يتثبت ويحتبس. وفي الحديث أن رجلاً شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأته، فقال: اللهم أرّ بينهما. يريد: ثبت الودّ ومكنه. والله أعلم.

والآريّ من هذا، وهو محبس الدابة ومربطها، مأخوذ من تأريت بالمكان إذا أقمت فيه. وقيل في الآريّ: إنه المعلف. يقال الدابة تأري إلى الدابة: تنضم إليها تأكل معها في معلف واحد وتأرت الدابة تأرية. ومنه قول بعض النخاسين: جاءت هذه الدابة من آريّ فلانة وربما كذب. ووقع في البخاري: قيل لإبراهيم: إن بعض النخاسين يسمى آريّ خراسان وسجستان، فيقول جاء أمس من خراسان، وجاء اليوم من سجستان، فكرهه كراهية شديدة.

أذكرني هذا الخبر رسالة كتب بها إليّ الخطيب أبو محمد عبد الوهاب رضي الله عنه، يذكر فيها قول بعض النخاسين: اشتروا هذه الأتان، فبالأمس أقبلت من سجستان وعليها عكم تمر وأبو عمرو في كلام جميل انظره في التكميل.

ووزن آريّ: فاعول، وجمعه أواري. قال:

إلا الأواريّ لأيـــــاً مـــــا أبيـــــنها

وقال: الأوار ليس من هذا، هو حر النار والشمس، ويكون في الجوف من العطش، ويستعمل في الحب. قال الشاعر:

إذا وجدت أوار الحب في كبدي أقبلت نحو سقاء القوم أبترد
هذا بردت ببرد الماء ظاهره فمن لحر على الأحشاء يتقد

وقد تقدم من قاله.

وأما الأرة: فهو مستوقد النار، وهي الحفرة، وتجمع على: أرين، وفي الرفع: أرون. قال كعب بن مالك:

ويوم له وهج دائم شديد التهاول حامي الأرينا
طويل شديد أوار القتال .... البيت

والأرة في غير هذا من قولهم: أريت الشيء إذا عملته، ومنه الأري: وهو عمل النحل وفعلها، ثم سمي العسل أرياً لهذا، وأنشد:

وله طعمان شري وأري وكلا الطعمين قد ذاق كل

فالأرى: العسل، والشرى: الحنظل. وقال الشاعر:

وجاؤوا بمزج لم ير الناس مثله هو الضحك إلا أنه عمل النحل

والضحك هو: الزبد الأبيض، وهو أيضاً: الطلع حين ينشق، تشبه الأسنان به لبياضه وتراصفه وقد تقدم.

ويقال أرت النحل تأرى أرياً: إذا عملت العسل، وأرت القدر: التزق بأسفلها شيء من الاحتراق، مثل شاطت. وأرى صدره: وغر، ويحتمل أن يكون أرى هنا بمعنى ورى على مذهبهم في إبدال الواو بالهمزة. وسيأتي ورى.

ومن شكل أرة: أرة جبل أحمر من جبال تهامة يقابل قدسا، وقدس جبل العرج. قال خالد بن عامر:

أر بخلص دون أرة بدنا نواعم كالغزلان مرضى قلوبها

وقد ذكر في الحديث قدس فيما كتب به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وحيث يصلح الزرع من قدس.

ارار: والأرار: ما يؤر به الراعي رحم الناقة إذا انقطع ولادها، والأر فعله. وهو أن يأخذ غصن قتادة فيضرب به الأرض حتى يلين، ثم يبله ويذر عليه ملحاً مدقوقاً، ويؤرّ به رحم الناقة حتى يدميها. وإن جعلت الواو أصلية قلت: وأر على وزن فعل. تقول: وأره يئره وأراً: إذا أفزعه.

ومن شكله: وار، موقد النار على وزن قاض، اسم فاعل. من: ورى يري فهو

وار، وقد تقدم. ومثله: وار، للجمل المكتنز شحماً الكثير لحماً. وقد تقدم الشاهد عليه بقوله:

لـم يخـل فـي لـيل ولا نهـار مـن نحـر وار واقـتداح وار

وأما آر بالمد: فاسم الفاعل، وأرّ بالقصر للمصدر إذا رفعته كما تقدم.

أز: وأما أز: فمن الأزيز، وهي الحركة الشديدة الإزعاج. يقال: أز يؤز أزاً فهو آز. وهذه هي الألفاظ المذكورة في البيت. يقال: أزت القدر، إذا اشتد غليانها. والمصدر من هذا: أز، كما تقدم. ويقال: أزاز وأزيز، قال رؤبة:

لا يأخـذ التأفـيك والتحـزي فيـنا ولا قـول العـدا ذو الأز

التأفيك من قولهم: أفك الرجل عن الطريق، إذا ضلّ. وفي التنزيل: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات: ٩] أي: يطرد عنه. و: ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥] أي يصرفون. والتحزي مأخوذ من الحازي وهو الكاهن، ويجمع على حزاء. وفي الحديث: كان هرقل حزاء ينظر في النجوم.

والأز أيضاً: وجع يأخذ في عرق أو خراج. والرجل مؤتز، أي: يجد أزاً من الوجع. ومن الأزيز: الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي ويسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. وتقول أززت الرجل أزاً: إذا حملته على الشيء وأزعجته إليه. وفي التنزيل: ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣] أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً وتسوقهم، وأصله التحريك كما تقدم فيما مضى.

معكوس البيت:

وراء وراء وراء ورا وراء وراء وزل وزل

هذالبيت كما ترى مصنوع مرقوع، لكن شرحه مرفوع، ويكاد أن يكون كلاماً مفهوماً معرباً، وراء وراء معطوف على الحروف التي في البيت قبله وراء ورا وراء وراء، يكون معناه وناظر وراء ولد ابن ابن على ما يفسر.

راء: أما راء الأول: فحرف من حروف المعجم وسيأتي الكلام عليها في آخر الباب إن شاء الله تعالى.

وأما راء الثاني فشجر معروف. قال أبو حنيفة: هو من أغلاث الشجر، ويكون مثل قامة الإنسان، وله خيطان، يعني قضبان، وزهر أبيض يحشى منه المخادّ فيكون كالريش لخفته ولينه لأنه كالقطن، وأنشد:

تـرى ودك الـسديف علـى لِحـاهم كـمـثل الـراء لـبده الـصقيع

وواحده: راءة، وتصغيره: رويئة. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

لما دخل الغار هو وأبو بكر رضي الله عنه أنبت الله على بابه الراءة. وأما راء فاسم فاعل من رأى. قال الشاعر:

فــــربك راء مــــا عملــــت وســـــامع

ورا أيضاً من الشكل إذا كتبته كذا واجتزيت بالمد كما اجتزيت في راء بالهمز عن حرف آخر. ومستقبل رأى يرى، وربما قالوه على الأصل: يرأى. قال الشاعر:

ومـــن يتمنـــى العـــيش يـــرأى ويـــسمع

وعلى هذا قرئ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [الفرقان: ٤٥] و: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] لأن الأصل ترأى كما تقدم، فلما حذفت الهمزة للتخفيف بقي تر.

رأرأ: ومن مضاعف هذا الباب: رأرأ السراب، ورأرأت المرأة بعينها: برقت. وفي التكميل من هذا:

أرى راى راء راى أرى راء رأرآ

وهذا البيت مفسر فيه مع ما لي ولغيري من هذا النوع من البديع، مما هو مذكور في كراسة البديع من التكميل.

تزازا: ومن مضاعف الزاي: تزأزأت من الرجل تزأزؤاً: إذا تصاغرت له وفرقت منه.

ورا: وأما ورى: ففعل، والواو فيه أصلية وكتبته بالألف، وكتابته بالياء أصح. وسيأتي تفسيره بعد. وإنما صنع به في البيت ما رأيت لإقامة الشكل. وقد يجوز في الشعر أكثر من هذا، وكتابة ذوات الياء بالألف جائز في غير الشعر، فكيف به فيه وهو الوعر، وقد قدمت لك أنه مرقوع مصنوع، فاستفد ولا تنتقد، وإن شئت فانتقد واستقد. وفي علمك أن لغة العرب واسعة إلا من كانت معرفته شاسعة. ألم تسمع وغيرك العاجز ما قال الراجز:

كلفنـــي قلبـــي مـــن الـــبلايا جاريـــة ملـــيحة الثـــنايا

لـــم تـــرها الأرض ولا الـــسمايا

ومن مذهبهم المأثور أنهم قالوا في الكلام المنثور: آتيه بالغدايا والعشايا. وسترى للخطيب الجليل في التكميل من هذا المعنى فصلاً جزلاً استشهد فيه بهذا الرجز وغيره.

قلت: وأنت يا ذا المعقول لا بدّ لك أن تقول: إما أرادوا بقولهم: ولا السمايا، إتباع القوافي للموافقة إذ من شأنهم المطابقة، وأما أرادوا ولا السماء ثم طرحوا الهمزة استخفافاً، ويكون يا بعدها لمنادى مضمر، يريدون: ولا السماء يا هذا، أو يا فلان. وكيف

ما دارت الحال فليس هذا عندهم من المحال، بل له في ميدان كلامهم مجال، ونطق به من فصحائهم رجال. وقد جاء في الكتاب العزيز ما يقوّي هذا الغرض، ويشفي من المرض، وهو ما قرأ به الكسائي من قبل في سورة النمل: ﴿ألا يا اسجدوا لله﴾[الآية: ٢٥] على معنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا لله. كذا قاله المهدوي في التحصيل، وقال في إعرابه: إنما دخل حرف النداء هنا على الأمر لأنه موضع يحتاج فيه إلى استعطاف المأمور لتأكيد ما يؤمر به، كما أن النداء موضع يحتاج فيه إلى استعطاف المنادى لما ينادى له، ويجوز أن لا يراد منادى ويجوز أن يراد منادى محذوف كما قال:

يــــا لعـــــنة الله والأقـــــوام كلهـــــم

فهذا على حذف المنادى. انتهى كلامه رضي الله عنه.

قلت: ومثل هذا في الشعر كثير، قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وقلت له يا اذهب وهارون فادعوا إلى الله فرعون الذي كان طاغيا

أراد: يا هذا اذهب. وقال غيلان:

ألا يــا اسـلمي يـا دار مـي علـى البلـى

وقال المازري رحمه الله وغيره: أما قولهم: إني لآتية بالغدايا والعشايا، فإنما جمعت الغداة غدايا لما ضمت إلى العشايا، والعشايا على بابها جمع عشية، كما قالوا: ضحية وضحايا، وجمع الغداة على بابها: غدوات، ويستشهد على هذا بقول الشاعر:

هـــتاك أخبـــية ولاج أبــــوبة يخلـط بالـشر مـنه الجـد واللعـبا

فجمع الباب على أبوبة، وبابه أبواب لما كان متبعاً لأخبية. قال ابن الأعرابي: الغدايا جمع غدية وأنشد:

ألا لـيت حظـي مـن زيـارة أمـيه غـديات قـيض أو عـشيات أسـقيه

وفي الحديث المرفوع من نوع ما تقدم: ارجعن مأزورات غير مأجورات. ولو لم يتبع وأفرد لكان موزورات، وكذا وقع في المعاني للنحاس: ارجعن موزورات. وقال بعد هذا: قال أبو عبيدة: والعامة تقول: مأزورات. ولا وجه له لأنه من الوزر.

ونوع من هذا قوله عليه الصلاة والسلام: مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى. فخزايا على بابه جمع خزيان، مثل حيارى جمع حيران، وأما ندامى فلم يرد أنه جمع نديم الذي يقال منه ندمان، وإنما أراد جمع نادم، وبابه أن يجمع على نادمين، لكن لما أتبعه خزايا جاء به على وزنه، والله أعلم.

ومثله في الحديث: خير المال سكة مأبورة وفرس مأمورة. جاء بمأمورة على وزن مأبورة ولو أفرد لقال: مؤمرة، لأن اللغة المشهورة آمرها الله، بالمد، فهي مؤمرة.

وفيه لغة أخرى: أمرها الله، بالقصر، فعلى هذه اللغة يقال مأمورة وتزول الضرورة. قلت:

ما أحسن العلم متى كنت في ضيق تراه عنك قد فرّجا
ومن يكن واسع علم إذا يخطئ يلقى للخطا مخرجا

رجع الكلام إلى ورى: تقدم أنه فعل ماض، وهو من ذوات الياء لأنك تقول في ماضيه وراه الله بكذا، أي: أصابه بداء في جوفه حتى يبلغ رئته. وتقول في مستقبله: يري ورياً فهو موريّ، مشدداً غير مهموز، وهو أن يدوي جوفه. قال الشاعر:

وراهن ربي مثل ما قد ورينني وأحمى على أكبادهن المكاويا

يريد النساء. وتقول في الأمر منه: ريا رجل، وللاثنين: ريا، وللجمع: روا، وللمؤنث: ري، والاسم منه: الورى بالتحريك. قاله الفراء. وقال يقال: سلط الله عليه الورا وحمى خيبرا.

وقال أبو عبيد: ورياً بالتسكين، وأنشد:

قالت له ورياً إذا تنحنحا

أي: تدعو عليه بالورى. كذا وقع في كتابه تنحنحا، ووقع في موقع آخر: تنحنح، لأن بعده ما يدل عليه وهو:

تدعو عليه الله بالذرحرح

قلت: وما زال الشيخ المسكين إذا قلت بركته، وضعفت حركته، تدعو عليه امرأته، لا سيما إن كانت في السن شابة، وفي السمن دابة. ألم تسمع ما قاله بعض الشعراء، وأظنه كان من الشيوخ الكبراء:

شر قرين للكبير بعلته إذا رأته قد تولت شرته
وانتقصت بعد الشباب مرته وهي عفرناة(*) الشباب جنته
تدعو له الله بداء يكفته تولغ كلباً سؤره أو تكفته
وتنتحي لحلقه فتسبته وتدفع الشيخ فتبدو جهوته
إنا مللناه وطالت صحبته

وفي الحديث من هذا: لأن يَمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له أن يَمتلئ شعراً. وسيأتي في التكميل في كراسة اللزوم لفظة ره في قطعة لزومية حصرت فيها القافية إن شاء الله تعالى.

(*) العفرناة ـ بفتح الأول والثاني وسكون الثالث ـ بمعنى: القوية.

وراء: وأما وراء وراء: فالواو فيهما أصلية، و: وراء: ضد قدام، وتشبهها في التأنيث، وليس في ظروف المكان مؤنث غيرهما يظهر ذلك في التصغير. تقول قديديمة ووريئة قال الشاعر:

قديديمة التجريب والحلم إنني أرى غفلات العين قبل التجارب

وتصغر أيضاً ورية.

و: وراء من الأضداد، تكون بمعنى خلف وأمام، ولذلك فسر قوله تعالى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الجاثية: ١٠] وكذلك: ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ [إبراهيم: ١٦] لأنه مشتق من التواري والاستتار ومنه وري بكذا، وسيأتي بحول الله. وكذلك قالوا في قوله: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩] أن معناه أمامهم، وكذلك قرأها ابن عباس رضي الله عنهما: (وكان أمامهم). ذكره مسلم والبخاري. وجاء في الحديث من هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الحتوف التي تصيب ابن آدم وقال في آخره: إن أخطأه هذا كان من ورائه الهرم. ويستشهد على ذلك بقول لبيد الذي تقدم:

أليس ورائي إن تراخت منيتي

البيت، وبقول الشاعر:

عواصي إلا ما جعلت وراءها عصا مربد يغشى نحوراً وأذرعا

فهذا معنى أمام. ألا تراه يقول: يغشى نحوراً وأذرعاً. يقال: لقيته وراء فرفعه على الغاية كما تقول: من قبل ومن بعد، لأنه غير متمكن. قال الشاعر:

إذا أنا لم أومن عليك ولم يكن لقاؤك إلا من وراء وراء

ويقولون: وراءك أوسع لك، نصبوه بالفعل المقدر وهو تأخر. وقال صاحب الغريبين: زعم أبو عبيدة وأبو علي قطرب أن وراء في معنى قدام، وهو من الأضداد. وهذا غير محصل إلا أن الأمام ضد ورا، وإنما يصلح هذا في الأماكن والأوقات، كقول الرجل إذا وعد وعداً في رجب لرمضان، ثم قال: من ورائك شعبان، جاز وإن كان أمامه، لأنه يخلفه إلى وقت وعده. ومنه قول لبيد:

أليس ورائي إن تراخت منيتي

البيت وقد تقدم. يريد أمامي. ويكون وراء أيضاً بمعنى بعد كما قال النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

أي ليس بعد الله.

وراء: وأما وراء فهو: ابن الابن؛ يمد ويهمز. حكي عن الشعبي وكان معه ابن ابنه فقيل له: هذا ابنك؟ فقال: هو ولدي من الوراء. ذكر هذا ابن دريد رحمه الله في تفسير البيت الذي في المقصورة له، وهو:

عقل الكبير من الورى | في الصالحات من الوراء

والورى من هذا الشكل لو كان منكراً، ولكن قل ما يلفظ به إلا معرفاً. الورى وهم الخلق. قال ابن دريد: ويقال ما أدري أي الورى هو.

وروى الشعبي في قوله تعالى: ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] قال: الوراء ولد الولد. وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى ﴾ [مريم: ٥] يعني من قدامي كما تقدم. وقيل: من بعد موتي، وقراءة ابن عباس: (خفت الموالي من ورائي)، قلت: وموضع الموالي رفع.

ويروى عن ابن كثير: من ورائي بفتح الياء، وفسر ابن دريد الوراء المذكور في بيته المتقدم قال: الوراء أيضاً يسمى الخلف. ولذلك قال المهدوي في قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ [مريم: ٥٩] قال: خلف من بعدهم أبناؤهم. والخلف يستعمل للواحد وأكثر منه، وللمذكر والمؤنث، وأكثر ما يستعمل في الذم بتسكين اللام، وفي المدح بفتحها.

وقيل إن الخلف مشتق من: خلف اللبن، إذا طال مكثه حتى يفسد، ومنه: تخلف فم الصائم، إذا تغير ريحه. وقيل: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ [مريم: ٥٩] النصارى بعد اليهود. والخلف: الرديء من القول. وفي المثل: سكت ألفاً ونطق خلفاً. أي: سكت عن ألف كلمة ثم نطق بالخطأ.

وقيل: الخلف بالتسكين في الوجهين. يقال: فلان خلف سوء وخلف صدق. قال حسان ابن ثابت:

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا | لأولنا في طاعة الله تابع

فهذا الخلف الممدوح. ومن الخلف المذموم قول لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم | وبقيت في خلف كجلد الأجرب

وقال الخطابي: يقال فلان خلف صدق من أبيه، وخلف سوء من أمه، متحركة اللام فيهما فإذا لم يذكروا خيراً ولا شراً، قالوا في الخير: خلف، بالتحريك، وفي الشر: خلف، بالتسكين. والخلف ما أتى بعد السلف.

وفي الحديث: يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له. قال بعض أهل العلم:

ومن رواه بإسكان اللام فقد أزال الخبر عن جهته وأحال في معناه، لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أراد مدح حملة العلم ولم يرد ذمهم.

قال ثابت رحمه الله: والخالفة من الناس الذي لا خير فيه. قال أبو حاتم: سمعت عمارة ابن عقيل يقول: كان في أهل جرير مائة وخمسة بين رجل وامرأة يقولون الشعر، ولم يكن للفرزدق إلا ابن خالفة.

ومما لم يتزن وهو من الشكل: وزأ. تقول: وزأت اللحم وزأً: أيبسته. ووزأت القربة: ملأتها. وتوزأت من الطعام: امتلأت.

و: وزى: مقصور تدخل عليه الألف واللام، فتقول: الوزى: وهو القصير. كذا فسره ابن دريد في قوله:

ومدّ ضبعيّ أبو العباس من بعد انقباض الذرع والباع الوزى

وأبو العباس هذا هو أحمد بن عبيد الله بن ميكال.

وبقي أيضاً: ورى: فعل من التورية التي هي التغطية، يكتب بالياء على الأصل وبالألف للضرورة. يقال: وريت الخبر أوريه تورية: إذا سترته وأظهرت غيره.

قال أبو عبيد: لا أراه إلا من وراء الإنسان لأنه إذا قال: وريته، فكأنه جعله وراءه. وقال غيره: جعل التبيين وراءه.

وفي الحديث منه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة ورى بغيرها، وقد تقدم مثال ذلك.

ومن هذا الباب: وري الزند، لغة في ورى. وتقول: يرى فيهما إذا خرجت ناره، قاله ابن عزيز، فإن عكست هذه اللفظة جاء منها: ارو: أمر من روى يروي في العلم. وارو زيداً من العلم والماء، وارو أنت، لأنه من روى يروي.

ويأتي من مقلوبه راو فيهما. ووار من ورى الزند. وفي الحديث: اذهب فوار أباك.

مقلوب البيت ألف بين حرفين

وزار وزار وراز ورار وزار وراز وذل وذل

وهذا البيت أيضاً كما تراه موصول معلول، لم أجد من هذا الشكل لأجل قلته إلا ما تراه بعد هذا مذكوراً بعلته، وبه كمل البيت واتزن، نعوذ بالله من الحزن.

زار: أما زار فمعلوم من الزيارة وليس فيه ما يحتاج إلى تفسير أكثر من أنهم يستعملون زار في الصحة وعاد في المرض. وشاهد ذلك قول بعضهم:

أعائداً جئت أم زائرا

والاسم من زار: زور، وسيأتي الكلام عليه مع أشكاله.

ومن شكله: زارّ ـ بالتشديد ـ من الزّر: هو العض وسيأتي. وقد بني من ذا الوزن ألفاظ مثل: شارّ، وضارّ وغيره. قال الأصمعي: وسأل أبو الأسود الدؤلي عن رجل ما فعلت به امرأته التي كانت تشارّه وتهارّه وتزارّه وتمارّه. ذكر هذا الخطابي رحمه الله وفسر: تشاره، من: الشر، وتهارّه: من الهرير، وتزارّه: من الزر، وتمارّه: من معنى تلوي عليه. ومنه الشيء الممرّ وهو المفتول.

زار: وأما زار فاسم فاعل من زرى يزري وازدرى يزدري: إذا استحقر الشيء واستخف به. وفي القرآن العزيز: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ ﴾ [هود: ٣١]. ولابن شرف من البديع بيتان من غير خلط فيهما: إن زار زار. ولي من قطعة لزومية:

أو يـــزدري بالـــناس يـــا ويحـــه ... مـــا جـاء فـيه لـو درى مـا ازدرى

انظر قطعتي في القافية المبدلة من التكميل، وبيتي ابن شرف في كراسة البديع منه.

راز: وأما راز فمن قولك: رزت الشيء: إذا خمنته وقدرته. لتقف على حقيقته، والمصدر منه: روز. وسيأتي مع زور إن شاء الله تعالى.

ومنه رأز البناء، مهموز، وهو الذي يقيس به. وجمعه رازه. وأما زارة بتقديم الزاي فهي الأجمة ذات الحلفاء والماء. قاله (ع).

رار: وأما رار براءين فهو من نعت المخ المياع. يقال: مخ رار ورير. قال الشاعر:

لـــو كـــنت ريحـــاً كـــنت زمهريـــراً ... أو كـــنت مخـــاً كـــنت مخـــاً ريـــرا

والرير بفتح الراء وتسكين الياء: الماء الذي يخرج من في الصبي.

زار: وأما زار فهي اللفظة التي أخبرتك أن البيت معلول بسببها ولأمر أتيت بها.

راز: وكذلك راز التي بعدها فلا تحسبها عليّ خطأً ولا تعدها غلطاً. أردت أن أستخرج منهما علماً فاحلم حتى تسمعه كلماً. وإلا فعندي البدل فدع الجدل.

أردت بزار: زأر من الزئير: وهو صوت الأسد، وترديده في حلقه. يقال: زأر يزأر زأراً وزئيراً. فهو زائر، ويقال أيضاً: تزأر بالتشديد على وزن تفعّل، فلما لم يتزن زأر أسقطت الهمزة للضرورة كما أسقطوها في الراس والباس.

فإن قلت هذه الهمزة هنا ساكنة وفي زأر متحركة. قلت: قد قرأ نافع وابن عامر: (سال سايل) والباقون: (سأل) بالهمز. على أن يكون معناهما جميعاً من السؤال، والسائل هنا هو النضر بن الحارث بن كلدة حين قال: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ

مِنْ عِندِكَ ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية. وأما من جعل سال من السيلان بغير همز فعلى بابه، وسايل عنده: واد في جهنم، أعاذنا الله منه، وهي قراءة ابن زيد وغيره.

وقرأ ابن عباس: (سال سيل) وهذا إن شاء الله ليس فيه بأس إذا أمن الإلباس، لأنك إذا قلت: زار الأسد، لم يشبه زار الولد، وكذلك إذا قلت: سال اليوم الوادي، لم يشبه سال القوم أولادي، ومن مذهب العرب حذف الهمزة راساً ولا أرى به باساً. ألا ترى أن ابن محيصن قرأ: (واستبرق) بغير همز وكذلك قرأ: (واتيتم أحداهن قنطاراً) بالحذف أيضاً. وقالوا محسن زيداً وماجل عمراً، وقالوا: سحاق، وقالوا: سامة، يريدون أسامة وإسحاق، وقال الشاعر:

إن لـــم أقاتـــل فالبـــسوني بـــرقعا

انظر هذا كله في التحصيل للمهدوي، وانظر فيه أيضاً قراءة من قرأ: (وإذا المورودة سالت) و(سيلت). وأغرب من هذا قراءة الأعمش: (وإذا المودة) على وزن المروة.

قلت: وهب الشعر بيت الضرورة، فما تقدم أيّ ضرورة دعته إليه، ولو لم يكن ذلك جائزاً عندهم على أن الشاعر قد كان يمكنه أن يقول:

إن لـــم أقاتـــل البـــسوني بـــرقعا

ويتزن البيت وتزول الضرورة.

وفي الفصل بعد هذا نوع منه آخر، ولا يعجب من هذا، قد يفعلون ضد ما تقدم، يهمزون ما لا أصل له في الهمز. قرأ أبو أيوب السختياني: (غير المغضوب عليهم ولا الضألين) بهمز موضع الألف بغير مد. قال صاحب التحصيل: وهو مذهب لبعض العرب يقولون: دأبة وشأبة ومأدة. وعليه قول كثير:

إذا مـــا العوالـــي بالغبـــيط احمـــأرّت

يفعلون ذلك فراراً من التقاء الساكنين فيحركون الألف فتنقلب همزة. وقال الآخر:

وبعد انتهاض الشيب من كل جانب — علـــى لمتـــي اشـــعألّ بهـــيمها

يريد إشعال، والعلة واحدة.

راز: وأما راز الآخر فلي فيه جواب حاضر، أردت رازي وهو اسم فاعل من رزأ يرزأ إذا أصاب من مال غيره شيئاً. وفي الحديث: فلم يرزأ حكيم أحداً شيئاً حتى مات.

ويقال: فلان مرزأ، إذا كان كريماً يصاب منه. وهو بالهمز، وتركته أنا تخفيفاً كما تقدم على مذهب العرب في تركهم الهمز من وسط الكلمة ومن أولها فضلاً عن

آخرها. وقد جاء في الحديث غير مهموز. خرج الخطابي رحمه الله في تفسير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لبني العنبر: لولا أن الله لا يحب ضلالة العمل ما رزيناكم عقالاً، كذا رواه: رزيناكم، قال: وترك الهمز لغة لقريش.

قال أبو الفتح: قد حذفوا الهمزة وإن كانت أصلاً. قالوا: خذ، ومر، وكل، وويلمه، وذن لا أفعل، وجايجى، وسايس. وقال الشاعر:

وكــان حــاملكم مــنا ورافــدكم وحامـل المين بعد المين والالـف

أراد المئين والألف فحذف الهمزة وحرك اللام ضرورة.

قلت وقد قيل: قار، في قارئ. وقد كنت أحفظ في ذلك شعراً آخره كله قار ذهب عني الآن. وما قبله وما بعده يدل على أنه من القراءة، كما يدل إذا كان من القرى الذي هو طعام الضيف. وقال حسان رضي الله عنه:

ورهــنت الــيدين عــنهم جمــيعاً كــل كــف لهــا جــز مقــسوم

أراد جزء. وباب جزء، وهزؤ، وكفؤ، تسهيل الهمز وإبداله بغيره وحذفه مشهور مذكور. وكذلك: ردأ، ورئيا.

ومن أغرب البدل ما قيل في قوله تعالى: ﴿ مَوْبِلًا ﴾ [الكهف: ٥٨] قرئ في الشاذ: (مويلاً) بالياء، و(مَوّلاً) بواو مشددة. وقد نسبوا الرازي إلى الري على غير قياس. أرأيت لو اضطر شاعر على حذف الياء منه ألم يقل راز ويلحقه بباب قاض وغاز وإن كان معتلاً، كما قالوا في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ١٦٣]: إن الياء حذفت منه كما حذفت من بالة في قولهم: باليت به بالة والأصل بالية. وقد تقدم القول في: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] والله أعلم بكتابه.

وأنا قد اعتذرت عن هذا الحرف وصاحبه، وقد أفادك والحمد لله علماً أن قنعت به، وإن لم تقتنع فاجعل زار الذي هو عوض زأر مصدر زار مسكناً ولا يسكن ولا ينكسر البيت، كما قال النابغة:

ولا قــرار علــى زأر مــن الأســد

واجعل عوض راز الذي هو رازي راز البناء الذي تقدم.

وأنا لا آمرك أن تدع طريق الناس وتقول ما فيه إلباس، وإنما ذكرت ما ذكرت لتعلم وتفهم ما ربما لم تكن تفهم وتعلم وترك العتب كله أسلم. وصلى الله على النبي وسلم.

ويأتي من مقلوب هذا الباب: أزر وأرز وما شاكله، ويجتمع منها عشرة ألفاظ سأسوقها بعد الكلام على الزور الموعود به.

مقلوب البيت أيضاً الحرف بين الفين

لم أجد من هذا القبيل ما يأتلف منه بيت، غير أني وجدت منه ألفاظاً ستة لا تدخل في الوزن فسقتها للفائدة. منها:

أرى: فعل حال تخبر به عن نفسك وهو على ضربين: رؤية قلب، ورؤية عين، فرؤية القلب هي العلم، ورؤية العين هي الإبصار. ومثله أرى بهمزة التعدية. تقول: أرى زيداً عمراً كذا وكذا. قال الله تعالى: ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وفي: ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾ [الكهف: ٦٣] لغات: منهم من لا يهمز الألف وهي قراءة الأكثر، ومنهم من يهمز فيقول: أرأيت، ومنهم من يقول: أريت بغير ألف. قال الشاعر:

أريــتك إذ مــنعت كــلام ليلــى أتمنعنــي علــى ليلــى الــبكاء

وقد قالوا: ريت. قال الشاعر:

صــاح هــل ريــت أو ســمعت بــراع ردّ في الضرع ما قرى في الحلاب

ويروى في العلاب.

ومن شكل أرى: أري: تقول: أرى الأمر كذا، بمعنى أظن.

ومن شكله: آراء، جمع رأي، ويجمع على أرآء.

ومن شكله: إزاء ممدودة اسم وهي من ظروف المكان. تقول: قعدت إزاء زيد. كما تقول حذاءه وتلقاءه. وفي الحديث من هذا: إن موسى عليه السلام قعد بإزاء الحوض أو عند إزائه. ذكره الخطابي رحمه الله وقال: إزاء الحوض، مصب الماء. وأنشد:

يــبادر الحــوض إلــى إزائــه

وقال امرؤ القيس:

فــرماها فــي فرائــصها بــإزاء الحــوض أو عقــره

وقد تقدم عقر الحوض أنه مؤخره من قول أبي عبيدة. ويقال لما بين العقر والإزاء عضد الحوض.

ومن شكله: أزى، مقصور، فعل بمعنى تقبض وقصر، ذكره ابن دريد في مقصورته قال:

وظــل القــالص أضــحى قــد أزى

وفسره بما تقدم. فهذه تلك، وإن أردت أن تزيد فانصب بعض ألفاظ البيت الأول المرفوعة مثل أرا وأزا وشبهه تكن كهذه في الشكل، كمل هذا. وكنت وعدتك بالكلام في زور فها أنا أرجع إليك بعد كم دور. هذه اللفظة أيضاً يجتمع منها أشكال

في بعضها إشكال، فإذا فسرت يسرت. قد تقدم أن لفظة زور اسم من زار وأصله من الميل والانحراف. وفي التنزيل: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ [الكهف: ١٧] أي تميل. ولذلك سمي الزائر لأنه يميل إلى المزور. ومثله المضيف، ضفت إلى كذا ملت واستندت إليه. يقال للواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث زور. وجاء في الحديث: إن لنفسك عليك حقاً ولزورك عليك حقاً الحديث. قال البخاري رحمه الله.

يقال: هو زور، وهؤلاء زور، لأنها مصدر مثل: قوم رضى وعدل وغور. يقال: ماء غور ومياه غور وبئر غور، الغائر: الذي لا تناله الدلاء. انتهى كلامه رحمه الله.

وفي التنزيل: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠] وقال غيره: يقال: رجل زائر، وقوم زور وزوّار، مثل: سافر وسفر وسفّار، ونسوة زوروزور، مثل: قوم ونوح، وزائرات. والزور بالتحريك: الميل. وهو مثل الصعر، والزور في صدر الفرس: دخول إحدى النهدتين وخروج الأخرى. يقال للرجل: أزور، وللمرأة: زوراء، وبها زور، أي: ميل، إذا كانا كذلك. وقد تقدم:

سـلم تــرى الدالــيّ مــنه أزورا

وسيأتي البيت اللزومي الذي آخره:

مــن ذوي زور

ومن شكل أزور: ازورّ بمعنى نفر وتباعد، ومصدره ازورار. وسيأتي والزور أيضاً الصدر. قال الشاعر:

أصـبر مـن ذي ضـاغط عركـرك ألقـى بوانـي زوره للمبـرك

يصف الجمل وقد تقدم. ومن قاله في قافية الحاء في تفسير قافية البيت.

وقيل الزور الوسط من الصدر ومقدمه، وجمعه أزوار. ومن أسماء الصدر: الحيزوم. وقيل غيره، والبرك والبركة والجران، ومنه قول عليّ في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه: استخلف أبو بكر فأقام واستقام، واستخلف عمر رضي الله عنه فأقام واستقام. ثم ضرب الدين بجرانه. والمرة الواحدة من الزيارة: زورة. ومنه قول الشاعر:

قـد زرتـنا زورة فـي الدهـر واحـدة

وزورة بضم الزاي موضع بالحيرة. قال الشاعر:

كـأن لـم يكـن يـوماً بـزورة صـالح وبالقـصر ظـل دائـم وصـديق

وذكر أبو عبيد قول الشاعر:

ومـاء وردت علـى زورة كـمشي الـسبنتي يـراح الـشفيفا

وفسره قال: يروى على زورة وزورة، وبالفتح أجود، من الازورار والسبنتي التمر. والشفيف: الريح الباردة. ويراح: يجد الريح. وسيأتي الازورار بعد إن شاء الله تعالى.

ومن شكل زور: زور، وفي التنزيل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢] قال الضحاك: يعني الشرك. وقال ابن مسعود: الغناء. وقال مجاهد: الكذب. وسئل عنه ابن عباس رضي الله عنهما فقال: هي أعياد المشركين. فقيل: أوَمَا هو في شهادة الزور؟. فقال: لا. إنما آية شهادة الزور: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] يقال للزور: الزون، وهو كل شيء يعبد ويتخذ رباً من دون الله تعالى. ويقال فلان ما له زور ولا صيور، أي: رأي يرجع إليه. وقيل: الزور: كل كذب وخنا وسفه. فالمعنى لا يشهدون كل مشهد يكون فيه ذلك.

وقال محمد بن علي: شهادة الزور، ومعناه لا يشهدون الشهادة الزور. في حديث من قول النبي صلى الله عليه وسلم حين ذكر الكبائر: ألا وقول الزور، وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور. فما زال يقولها حتى قلنا ليته سكت. وفي رواية: حتى قلنا لا يسكت. والزور أيضاً: الشعر الذي تصل به الواصلة شعرها. كذلك سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ذكره عنه معاوية رضي الله عنه حين أخذ كبة من شعر فخطب الناس فذكره. وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواصلة والمستوصلة، يعني الفاعلة والمفعولة بها ذلك.

والزور أيضاً: الثوب الذي يدلس به، كما جاء في الحديث: المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور.

ومن شكله: زوّر، إذا أتقن الشيء وهيأه. ومنه قول عمر رضي الله عنه يوم سقيفة بني ساعدة: وكنت زوّرت في نفسي مقالة أعجبتني.

ومن شكله: روز بتقديم الراء، مصدر راز الشيء يروزه روزاً إذا خمنه، وقد تقدم. وأنشدني الفقيه أبو محمد عبد الحق لنفسه قطعة فيها:

ولا تـــرز نفـــسك فـــي دفعـــه   فالمـــرء قـــد يخطـــئ فـــي روزه

وكان قد حصر فيها القافية. وزاد فيه الخطيب بيتاً وأنا آخر. انظرها في القافية المبدلة من التكميل.

ومن هذا أو قريب منه الازورار وهو التباعد. ومنه ما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: رأيت في سريره ازوراراً عن سريري

صاحبيه، رضي الله عنهم وسيأتي خبره إن شاء الله تعالى مع قول الشاعر:

صـــدود الخـــدود وازورار المـــناكب

ومن هذا النوع الزوراء تأنيث الأزور وقد تقدم.

والزوراء أيضاً موضع السوق بالمدينة شرفها الله تعالى. وذكر البكري أن الزوراء اسم يقع على عدة مواضع منها: بغداد، وسماها معرفة بالألف واللام، قال: وأما زوراء معرفة بغير ألف ولام فهي زوراء: دار بالحيرة كانت للنعمان سميت بذلك لميلها.

وزوراء: اسم القوس. ومنه قول امرئ القيس:

عـــارض زوراء مـــن نـــشم

وكان للنبي صلى الله عليه وسلم قوسان أحدهما يقال لها الصفراء. والأخرى الزوراء. والزوراء أيضاً: اسم مال كان لأحيحة بن الجلاح الأنصاري. وفيه يقول الشاعر:

إنـي أقـيم علـى الـزوراء أعمـرها ... إن الكريم على الإخوان ذو المـال

والزوراء أيضاً: البئر البعيدة العقر. قال الشاعر:

إذ تجعـل الجـار فـي زوراء مظلمـة ... زلـخ المقـام وتطـوي دونـه المرسـا

والزوراء أيضاً: الأرض البعيدة. والزوراء: القدح. قال النابغة:

وتـسقي إذا مـا شـئت غيـر مـصرد ... بـزوراء فـي حافاتهـا المـسك كانـع

وقال ابن الأعرابي: إنما أراد بزوراء مكوكاً مستطيلاً من فضة يشربون فيه.

ويأتي من مقلوب

زور وزر ووزر ووزد

وسيأتي الكلام عليه.

فصل:

قد تقدم في أول الباب: أزّ وازّ، ومعلوم أن كل حرف مشدد حرفان أدغم الأول في الثاني. فإذا لم يدغم في مثل أز ظهر وجاء منه أزز. وهذا يتيسر فيتفسر، فلنذكر الأزز وما أشبهه ونفسره حتى تقول: سبحان الذي يسره.

اجتمع من هذا الشكل ألفاظ مشهورة لم تتزن فسيقت منثورة:

أزز: منهاأزز المتقدم، و: ازز، وهو: من نعت الضيق. يقال بيت أزز ضيق. قال الشاعر:

واجـــتمع الأقـــوام فـــي بـــيت أزز

ويقال أيضاً: بيت أزز بالفتح، إذا امتلأ ناساً. وجاء منه في الحديث: فدفعنا إلى

المسجد فإذا هو بأزز، أي: بجمع كثير، أي: قد غص بهم لكثرتهم. وصحفه بعض الرواة فقال: فإذا هو بأرز وليس بشيء ولا معنى له. ويروى: فإذا المسجد يتأزز. يقال: أزز البيت أززاً فهو أزز، تشبيهاً بالأزيز وهو صوت المرجل كما تقدم.

أرز: ومنها أرز، وهو شجر معلوم واحدها أرزة. وفي الحديث من هذا: مثل المنافق مثل الأرزة. قال أبو عمر: وهي الأرزة ـ مفتوحة الراء ـ وهو شجر معروف بالشام. يقال له: الأرز واحده أرزة، وهو الذي يسمى بالعراق الصنوبر، وإنما الصنوبر ثمر الأرز، فسمي الشجر الصنوبر من أجله، والأرز أيضاً مصدر أرز. وسيأتي.

ووقع في كتاب العين: والأرزن شجرة يقال لها الأرز. قال الزبيدي: والنون زائدة فيه. ومما قيل في الأرزن:

إني وجدك لا أقضي الغريم وإن ... حان القضاء وإن رقت له كبدي
إلا عصا أرزن .... البيت

وقال الآخر:

أعددت للضيفان كلباً ضارياً ... عندي وفضل هراوة من أرزن

وسيأتي البيت وحكايته. وفي مثل هؤلاء يقال: لا جرم، إذ ليسوا من أهل الكرم.

آزر: ومنها آزر اسم رجل. قال الحسن والسدي: آزر اسم أبي إبراهيم عليه السلام. وقيل كان له اسمان: آزر وتارخ. وفي التنزيل: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ [الأنعام: ٧٤] يقرأ كذا وهو المشهور. ويكون بدلاً من أبيه في موضع جر إذا جعلته اسماً. ومن جعله لقباً بمعنى مخطئ جعله نعتاً. كأنه قال لأبيه المخطئ. ويقرأ: (آزر) بالضم. وهي قراءة جماعة من الصحابة منهم: أبي وابن عباس رضي الله عنهم. ومعناه على ما قال الفراء: هي صفة ذم بلغتهم. كأنه قال: يا مخطئ. وقيل: معنى آزر: يا أعوج. ومعنى إبراهيم: أب رحيم. وقرأ ابن عباس: (أأزراً) بهمزتين تتخذ بغير ألف، نصبه بإضمار فعل تقديره: أتتخذ أأزرا، فيمن جعله اسم صنم وهو قول مجاهد. ويجوز أن يكون مشتقاً من الأزر الذي هو الظهر، أي: العون والقوة. فيكون مفعولاً من أجله، كأنه قال: أللقوة تتخذ أصناماً آلهة. وقرأ أبو إسماعيل الشامي: (أأزراً تتخذ) بمعنى وزراً أبدلت الواو همزة. ذكر معنى هذا كله المهدوي رحمه الله.

أرز: ومنها أرز ومعناه انقبض وانضم. يقال: أرز يأرز أرزاً. ويقال: أرزت ليلتنا تأرز أريزاً، الأريز: البرد الشديد. وأنشد:

يوم شمال بارد الأريز

وجاء في الحديث: إن الإسلام ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها.

وقال أبو عبيدة: قال الأصمعي: قوله يأرز، أي: ينضم إليها ويجتمع بعضه إلى بعض فيها، وأنشد لرؤبة يذم رجلاً:

فـــــــذاك بخـــــــال أروز الأرز

يعني أنه لا ينبسط للمعروف ولكنه ينضم بعضه إلى بعض. ومثله ما قال أبو الأسود الدؤلي: إن فلاناً إذا سئل أرز وإذا دعي اهتزأ. وقال: انتهز. شك الراوي، يعني إذا سئل المعروف تضامّ وإذا دعي إلى الطعام أو غيره مما يناله اهتز. قال زهير:

بـــآرزة الفقـــاة رلـــم يخـــنها قطـــاف فـــي الـــركاب ولا خـــلاء

يعني: الناقة. والآرزة: الشديدة المجتمعة بعضها إلى بعض. ذكر هذا أبو عبيدة، وقال ثابت: زعم بعض العلماء أن في الأرز معنى لم يتنبه له أبو عبيدة، قال: الأرز أن تدخل الحية الجحر على ذنبها، فآخر ما يبقى منها رأسها فيدخل بعد.

وكذلك الإسلام خرج من المدينة فهو ينكص إليها حتى يكون رأسه آخره كما كان أوّله خروجاً. قال: وإنما تأرز الحية على هذه الصفة التي وصفناها إذا كانت خائفة، وأما إذا كانت آمة فهي تبدأ برأسها فتدخله، وهو الانجحار.

قلت: قد فرغ هذا، وأزيدك هنا فائدة أخرى من شكل تأرز الحية الذي هو فعل تارز اسم فاعل من ترز إلا أن التاء في هذا أصلية، وفي تأرز الحية زائدة لأنه فعل. تقول: ترز الرجل، إذا مات ويبس، والتارز: اليابس بلا روح. وأنشد:

كـــأن الـــذي يرمـــى مـــن الـــوحش تـــارز

وقد أترزه الله. وفي بيت امرئ القيس من هذا:

بعجلـــزة قـــد أتـــرز الجـــري لحمهـــا كمـــيت كأنهـــا هـــراوة مـــنوال

أي: أذهبه الله وأيبسه. ومنه قيل: خبزتك تارزة، أي: يابسة. ذكر هذا أيضاً ثابت رحمه الله في تفسير قول مجاهد رحمه الله: لا تقوم الساعة حتى يكثر التراز. وفسر موت الفجأة.

ومنها أرزّ مشدد وهو هذا الحب الصغير المعدود في القطنية وهو الذي تدعوه العامة الرز. وفيه ست لغات ليس فيها واحدة من قول العامة وهي أرز كما تقدم. وأرز مخففة مثل رسل، وأرز بفتح الألف، وأرز بتسكين الراء، ورز بغير ألف، ورنز بنون. وقال الراجز في المشدد منها:

تفقـــأت شـــحماً كمـــا الأوز مـــن أكلهـــا الـــبهط بـــالأرز

والبهط: طعام أرز وماء وهو معرب، ومنها أزر ومعناه عون. من قوله تعالى: ﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴾ [طه: ٣١] أي: عوني وظهري. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾

[الفتح: ٢٩]. وقرأ ابن ذكوان: (فأزره) بغير مد. ومعناه فأعانه وقواه. يقال: أزرت فلاناً على الأمر، أي: قوّينه عليه وكنت له فيه ظهراً، وخص الظهر لأن القوّة فيه. ومن هذا الوزير لأنه يقوّي أمر الملك ويعينه على مصالح الرعية، ويحمل عنه ثقله، ومنه سمي الظهر أزراً لأنه موضع الثقل.

والأزر أيضاً معقد الإزار قاله (ع). ومنها أزر وأزر مخفف منه جمع إزار. وفي الحديث من قول النبي صلى الله عليه وسلم: أزرة المؤمن إلى نصف ساقيه. والإزار: ما يشد على الحقوين، وهما موضع الحجزة من السراويل. وربما سمي الإزار حقواً وجمعه حقيٌ وحقاء. وفي الحديث: فألقى إلينا حقوه. وفسر هذا الحديث يعني بحقوه إزاره. سمي بذلك لمجاورته ذلك الموضع من الإنسان.

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يأتزر إلى أنصاف ساقيه. ويقول: هكذا كانت أزرة صاحبي. يعني النبي صلى الله عليه وسلم. ثم اتسعت العرب في ذلك حتى كنوا به عن العفة وترك الريبة. كما قال الشاعر:

والطيبون معاقد الأزر

يعني الفروج المغطاة بالأزر، ثم اتسعوا أيضاً في ذلك حتى كنوا عن العفة بالثياب. فقالوا: فلان نقيّ الثياب، وفلان دنس الثياب. وقد تقدم هذا، ثم اتسعوا وزادوا حتى سموا المرأة إزاراً، كما قال الشاعر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ألا أبلغ أبا حفص رسولاً فدا لك من أخي ثقة إزاري

يسأله أن يحفظ له امرأته وكان غائباً عنها في غزاة. وقال ابن قتيبة وذكر البيت يعني بالإزار: البدن، أي: النفس. ثم قال: ويكون الإزار الأهل. ولعمري إن تفسيره بالأهل والمرأة أحسن، وتسمية المرأة بالإزار أليق لأن الحاجة منها إنما هو موضع الإزار، وهو ضرب حسن من الكناية. وقد قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] قالوا في التفسير: كل واحد من الزوجين يستتر بصاحبه فيما يكون بينهما من الجماع. والله أعلم بتأويل كتابه.

وذكر ابن إسحاق في تفسير حديث بيعة النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار بيعة العقبة قال لهم: تبايعوني على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم. قال: فأخذ البراء بن المعرور بيده فقال: نعم. والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا.

ومنها أزر بمعنى وزر كما تقدم في قراءة من قرأ: (أزر، أتتخذ) على مذهب من فسره بالوزر. أراد: وزراً تتخذ. فأبدل الواو بالهمزة، وهذا مشهور عندهم. قالوا: إشاح ووشاح، وإساد وساد، وقد تقدم هذا وشبهه.

ومنها أرز الجراد إذا غرز أذنابه في الأرض ليبيض. وسيأتي في باب رزأ لأنه يقال فيه رزأ أيضاً. ومنها ما يتصرف من أفعال بعض الألفاظ مثل: أزر بفلان، أمر من أزرى يزري الفعل الرباعي يكون من هذا مفتوح الألف. ومثل: أرز أمر من رزأ الثلاثي. ومثل: أزز من الأز، وأزر عمراً بالإزار، كما تقول: ردّه بالرداء، وما أشبه ذلك. مما إن طلب وجد. ربما بقيت ألفاظ لا أدريها ويدريها غيري. ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦].

أخـرجت شـيئاً يـا بنيـي للوجـود ... مـا إن تـرى غيـري عليك بـه يجـود
أعنـي بـه تألـيفه وهـو الجديـد ... أمـا مـضمن علمـه فمـن الجـدود
فاشـدد بـه كفيك كالـرجل الـشديد ... واحفظه فهـو الـرأي والقـول الـسديد
واعمـل بـصالح مـا تـراه بـه تـسود ... وتعـز مـن بيـن الـورى بيض وسـود

لما فرغت من تفسير هذه الأشكال وأزحت عنها بحمد الله الإشكال رأيت أنها لم تأتلف إلا من الراء والزاي والألف. فأردت أن أصنع بسائر أزواج حروف المعجم مثل هذا فلم يتصرف منها ما تصرف من الراء والزاي، ولم أجد من هذا القبيل إلا القليل مثل: أفق وأفق السماء. فعلمت أن هذين الحرفين أعني الزاي والراء أكثر في الكلام مرّاً مع أنهما في المخارج يختلفان ولا يأتلفان. اللهم إلا أنهما يشتبهان في الصورة، وأنهما من الحروف المجهورة، فعزمت على أن أجمع بينهما في الكلام، ولا أخلط معهما غيرهما في النظام، لا ألفاً ولا غيره مثل: زر ورز. فوجدت من ذلك عشر كلمات منتظمات، الشكل مؤتلف والمعنى مختلف. وليس ذلك لغيرهما، وإلا فقس بهما، فغاية ما تجد ذلك في بعض الأزواج دون بعض.

كالجيم والحاء في مثل: حج أنت، وحج زيد، وحج متقبل، وحج زيد عمراً من: الحجة، فإن قدمت الجيم قلت: جح، وتبدل الحاء بخاء فتقول: جخ، وقد تقدم تفسيره في بابه. لكن ذلك قليل.

وفي مثل القاف والفاء. كقولك في الأمر: قف. وفي المضعف قفّ شعري، وقف موضع وما أشبه ذلك، وسيأتي تفسيره في بابه، وكله لا يبلغ عدد كلمات الراء والزاي ولا نصفها.

وأما الدال والذال فلم أجد فيهما إلا ذد فلاناً عن الحوض.

وأما غيرهما فلا قليل ولا كثير مثل: العين والغين، والطاء والظاء، وغير ذلك. وربما فيهن لغة شاذة لا أدريها، وهذا كله في الحرفين معاً.

وأما في حرف واحد فلم يوجد منه في الكلام غير دد، وهو اللهو. وسيأتي

تفسيره. وآه شجر وليس بحرفين. وسيأتي أيضاً. وقالوا ببه وليس أيضاً حرفين من أجل التضعيف وقد زيد فيها أيضاً هاء السكت فقيل: ببه، أو تاء إن قيل ببة، وهو لقب رجل، وسيأتي أيضاً الكلام على هذه اللفظة في آخر هذا الباب إن شاء الله تعالى. ولا تلتفت إلى قول العامة زز فإنها ليست عربية وإن كانت هذه اللفظة عندي مروية.

قد تقدم في أول الكتاب بروايتي عن الحافظ قولهم: الحديث عز في عز، والفقه خز في خز، والكلام زز في زز. ولعل قائل هذا خاطب قوماً هذه اللفظة فاشية عندهم ولمطابقتها أيضاً الفقرة التي قبلها ولم يقلها لتعلم وتستعمل. وسترى في التكميل في هذه اللفظة كلاماً مسطوراً منظوماً ومنثوراً.

وإنما تقول العرب عوض هذه اللفظة: صفع قفاه وزخ ووجأ، وقد تقدم يجأ في عنقها، وتقدم أيضاً الشعر الذي رويته عن الحافظ رحمه الله.

وإذا مـــا أبـــي صـــفعت قفـــاه

البيت. وقال الحافظ أبو محمد:

وزخ كـــف الجهـــل فـــي قفـــاه

على أن بعض أهل اللغة قال: الصفع كلمة مولدة سمي الرجل بها صفعان. وأصل الزخ: الدفع. زخه يزخه زخاً إذا دفعه، وربما كني به عن النكاح. وروي عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه:

أفلـــح مـــن كانـــت لـــه مـــزخه يـــزخها ثـــم يـــنام الفخـــه

قال ابن دريد رحمه الله وقد ذكر القسم الأول: وهذا شيء لا أقدم على الكلام فيه. انظر ورعه رضي الله عنه. وقد فعل ذلك في أشياء كثيرة.

قال صاحب كتاب العين: زخ المرأة: نكحها. وزخة الرجل ومزخته: زوجته. وزخ ببوله إذا مدّه، وزخ بنفسه إذا وثب، ويقال: زخ يزخ زخيخاً. والزخيخ: بريق الجمر والحر. وللفقيه أبي محمد رحمه الله في المزخة والفخة كلام عجيب طويل انظره في التكميل.

فصل:

ولما كانت الراء والزاي عن سائر أخواتهما بمعزل ونزلتا مني أعز منزل. أردت أن أذكر منها الآن بعض ما وقع في القرآن أشرّف بذلك كتابي، وإلى الله مآبي. فلما شرعت في ذلك وجدتها على أنواع، ذواتي افتراق واجتماع: فالمفترقتان ما حال بينهما حائل، والمجتمعتان ما التصقتا التصاق الأنامل.

مثال المجتمعتين تقدم الراء فتقول: ﴿ رَزَقَكُمُ ﴾ [المائدة: ٨٨] رزقاً. وتقدم

الزاي فتقول:

﴿ زَرْعًا ﴾ [الكهف: ٣٢] و: ﴿ زُرْقًا ﴾ [طه: ١٠٢]. وتدخل بينهما حرفان، وتقدم الراء فتقول: ﴿ رَمْزًا ﴾ [آل عمران: ٤١] و: ﴿ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨]. وتقدم الزاي فتقول:

﴿ زُبُرًا ﴾ [المؤمنون: ٥٣] و: ﴿ زُمَرًا ﴾ [الزمر: ٧١] و: ﴿ زَهْرَةَ ﴾ [طه: ١٣١] و: ﴿ زَجْرَةٌ ﴾ [الصافات: ١٩]. وتجعل الحرف قبلهما،وتقدم الراء فتقول: ﴿ جُرُزًا ﴾ [الكهف: ٨]. وتقدم الزاي فتقول: ﴿ وِزْرَ ﴾ [النجم: ٣٨]

و: ﴿ وِزْرًا ﴾ [طه: ١٠٠] وقد تجتمع الراآن في كلمة واحدة بغير واسطة في مثل: ﴿ أَقْرَرْتُمْ ﴾ [البقرة: ٨٤] و: ﴿ أَقْرَرْنَا ﴾ [آل عمران: ٨١] وبواسطة في مثل: ﴿ حَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٢] و: ﴿ زَمْهَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٣] و: ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٠] وتقول في الزاي بغير واسطة: ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ [يس: ١٤] و: (تعززوه) على قراءة من قرأ بزاءين. وبواسطة مثل: ﴿ عَزِيزٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٩] و: ﴿ زُحْزِحَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وغير ذلك مما لم أذكر. ولم أشترط أن أحصر.

وسأفسر لك هذه الألفاظ وأتكلم على ما فيها من العوائد في فصل الفوائد، بحول الله وقوته، وهذا بعض ما في القرآن وأما في لفيف الكلام وتخفيف هذا الالتزام فمما لا ينضبط بزمام ولا يرتبط لإمام، بل هو بحر والسلام.

ولعمري لقد أردت أن أجمع ذلك فأحصره وأحرزه فأبرزه. فطال فيه المقال وآل إلى الملال، وكانت قد انثالت عليّ الألفاظ ولست من الحفاظ، حتى كثر العديد ولم يدر خراش ما يصيد. فقلت عند ذلك: أخزى الله الترك ما يقم هذا إلا الترك، ثم إني أجمعت نفسي بهذه العدة مدّه وأردت أن أعدّه وأحدّه، ورجعت عن ذلك الخاطر ثم شجعت نفسي وجعلت أخاطر حتى وقعت في باب بزاز وقزاز، وانتهيت إلى عزاز ونزاز، فمدت أو كدت وأنكرت ما ذكرت واستغفرت ربي وتبت ومحوت ما كتبت، ثم إني خشيت أن تكون السبة بي لائطة فسقت منها ما كان بغير واسطة ولا رابطة وقلت:

وجـــــدت ذاك أقلـــــه	وبالحـــــرا أن أقلـــــه
فاحفظـــه فهـــو يـــسير	واقـــبله لا تـــستقله
فإنـــه العلـــم فاشـــدد	بـــه يـــديك وقـــل لـــه
أهـــلاً بمـــن قـــد أتانـــي	مـــن بطـــن واد وقلـــه

اجتمع لي من هذا النوع بين: معكوسه، ومستقيمه، وتصريفه، وتقويمه، العشر كلمات المذكورات في الأوّل. فعليها وعلى تفسيرها المعوّل، فتلقاها باليمين فإنها العلق الثمين، واعرف للمؤلف قدر ما جمع من هذه اللمع، ومن كم ديوان لقطها، وكم من لذة نوم من عينه بسببها أسقطها، وادع له بالتوب من الحوب، وبالعفو عن الهفو، واعلم أني أردت بما تقدم قبل من الكلام الهزل تنشيطك لما يأتي بعده من الجزل، فانشط لما يأتي من القول في كلماتي وهي:

زرّ وزر وزرّ وزرّ وزر ورز ورز ورز ورز ورز

أما زر فواحد الأزرار: وهو شبه العقدة تدخل في العروة تشد بها الأطواق في الأعناق، وهو مستعمل في غير هذه البلدان، وأكثر ما يكون ذلك للولدان. وقد كان لقميص رسول الله صلى الله عليه وسلم زر، وبه سمي الرجل زراً، وزر السيف حده. ومنه قول هجرس بن كليب في كلامه: أما وسيفي وزريه ورمحي ونصليه وفرسي وأذنيه لا يدع الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه. ثم قتل جساساً وكان قد قتل أباه.

وزر أيضاً: زر القلب وهو عظم صغير به قوامه. قاله الأزهري. ومنه حديث سلمان رضي الله عنه يقول في عليّ رضي الله عنه: إنه لعالم الأرض وزرها الذي تسكن إليه. تقول من ذلك: زررت القميص أزره زراً وأزررته زراً: لغتان فصيحتان ذكرهما أبو عبيدة وأجازهما أبو زيد. ويقال: زررته: شددت أزراره، وأزررته: جعلت له زراً. ورأيت في حاشية الكتاب وأحسبه مشتقاً من الضيق: كأنه يزر على العنق، أي: يعضها، وأما زر فأمر من هذا الفعل. تقول: زر قميصك وازرره. وجاء منه في الحديث: وازرره ولو بشوكة. وزر أيضاً ما بني من هذا الفعل لما لم يسم فاعله. تقول منه: زر القميص في العنق، إذا شد، وأما زر ففعل وهو العض كما تقدم. يقال: زر الحمار أتنه، إذا عضها وطردها، يزرها زراً. وأنشد:

بليتيـــــه مـــــن زر الفحـــــول كـــــدوح

والليت: صفحة العنق، وهما ليتان، ويجمع على ليتة، مثل ديك وديكة، وفيل وفيلة. وقد جاء منه في الحديث: أصغى ليتاً ورفع ليتاً.

وأما زر فمصدر هذا الفعل وهو الشل والطرد والعض كما تقدم. وهو الطعن أيضاً، وأما زر فأمر من الزيارة. وفي الشهاب: زر غباً تزدد حباً. ومن مضاعفه: زرزور لهذا الطائر المعروف. وقال صاحب العين: طائر يزرزر. انتهى كلامه. وجمعه زرازير. ومنه في الحديث: أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر كالزرازير يتعارفون ويرزقون من كنز الجنة. كذا رأيته من كنز الجنة وأظنه من ثمر، والله أعلم. والزرزير: نبات تصبغ

به الثياب. ويقال: عيناه تزران، إذا توقدتا، ومثله تزهران.

هذا كله بتقديم الزاي، وقدمتها على الراء لأن فيها خمس لغات. يقال: زاو زي وزاء وزاء وزاي وهي أفصحها. ويأتي من معكوسه رز وهو فعل. تقول: رز الجراد أذنابه في الأرض إذا غرزها ليبيض. ورزة الباب اشتقاقها من هذا. تقول: سمعت رز الرعد ورز القوم إذا سمعت أصواتهم، وسمعت رز الفحل إذا سمعت هديره. وفي حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: من وجد في بطنه رزاً وهو يصلي فليقطع الصلاة وليتوضأ. فسره أبو عبيد بالصوت غير الشديد واستشهد عليه بقول أبي النجم:

كــأن فــي ربابــه الكــبار رز عــشار جلــن فــي عــشار

وقال أبو عمرو إنما هو الأرز مثل أرز الحية وهو دورانها وانقباضها، ومال أبو عبيد إلى القول الأول والله أعلم. وأما رز فهو الحب الذي يقال له الأرز وهي لغة فيه. وقد تقدم زار وزور بقي زير فرغ هذا.

زل: بقيت القوافي الأولى زل ورل. أما زل: فمن قولك زل الشيء عن الشيء إذا دحض عنه يزل، ويقال يزل زللاً وزلاً وزليلاً، وزل الرجل زلة قبيحة إذا وقع في أمره مكروه أو أخطأ خطأ قبيحاً. ومنه قولهم: نعوذ بالله من زلة العالم، لأنه إذا زل زل بزلته خلق كثير.

والمزلة المدحضة عن الصخرة الملساء وما أشبهها. وفي الحديث من هذا في صفة الصراط: مدحضة مزلة. قال الأعشى:

دون الــــسماء يــــزل بالغفــــر

الغفر: ولد الوعل والجمع: أغفار وغفر. وتقول: زللت بالفتح تزل بالكسر، ويقال أيضاً زللت بالكسر تزل بالفتح. وفي السير من قول عاصم رضي الله عنه: (تزل عن صفحتها المعابل) يعني: القوس، والمعابل: السهام. وفي القرآن من هذا: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم ﴾ [البقرة: ٢٠٩] أي: تنحيتم عن طريق الاستقامة. هو من زل، لكن لما اتصل بالضمير أظهر الحرف المدغم. كما تقول: مرّ ثم تقول: مررت، وفي ردّ تقول: رددت. هذا قياسه إلا أنه يختلف في المستقبل، فما كان منه متعدياً كان ثانيه مضموماً مثل: ردّ يردّ، ومرّ يمرّ، إلا ما شذ من نحو: يغل من غل ويغل معاً وهو قليل، وما كان غير متعد كان ثانيه مكسوراً نحو: خفّ يخف، إلا ثمانية أفعال جاءت فيها اللغتان جميعاً هي مذكورة في أدب الكتاب.

قال الأستاذ رحمه الله أغفلوا: هب يهب، وخب يخب، وجب يجب، وأج يؤج: إذا أسرع، وقد تقدم هذا الحرف. وتقول: أزللت إلى الرجل نعمة، مثل أسديت.

وفي الحديث: من أزلت إليه نعمة فليشكرها. وفي القرآن: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [البقرة: ٣٦]. وقرأ حمزة: (فأزالهما) بألف، وفسر ابن عزيز أزلهما معناه استزلهما، وأزالهما: نحاهما. قال يقال أزللته فزل وأزلته فزال، ويقال: أزال الله زواله، وزال الله زواله، بمعنى: إذا دعا عليه بالهلاك. قال الأعشى:

هذا النهار بدا لها من همها ... ما بالها بالليل زال زوالها

وكذلك زيل زويله، أي: ذهب ومات. ويقال: زالت الشمس تزول زوالاً وزولاناً. وسيأتي القول في معرفة الزوال في الفوائد إن شاء الله تعالى من هذا الباب. والأزل في غير هذا السريع. تقول: فرس أزل. والأزل من صفة الذئب لرقة مؤخره تشبه الخيل به لسرعته. قال الشاعر:

أزل إن قيد وإن قام نصب

يقول: إذا قام رأيته مشرف العنق والرأس. يقال: زل يزل زلاً وزليلاً. ويقال على هذا: خيل زل، وأغنام زل، والأزل بتخفيف اللام وتسكين الزاي: الضيق والشدة والحبس. يقال: قد أزلوا، وما لهم ما يزلونه أزلاً، إذا حبسوه عن المرعى من خوف. وقد تقدم في الحديث: أزلين. والأزل بفتح الزاي: القدم، تقول: كان ذلك في الأزل وسبق في الأزل كذا، أي: في القدم، والإزل بكسر الهمزة وسكون الزاي: الكذب. ذكره أبو عمرو وابن الأعرابي. وقال عمرو بن دارة:

يقولون أزل حب ليلى وودها ... وقد كذبوا ما في مودتها أزل

ورل: وأما ورل فالواو فيه أصلية، وسقته مع زل لإقامة الشكل، ويقوم به أيضاً معنى إذ ليس في الكلام رل. والورل: حيوان ألطف بدناً من الضب، وهو أشد منه وأجود سلاحاً وله شحمة، والأعراب يستطيبون لحم ذنبه، وهو خفيف الرأس والحركات ذاهباً وجائياً ويميناً وشمالاً، وله براثن أقوى من براثن الضب. ذكر هذا كله عمرو بن بحر.

تقول العرب في أمثالها: أظلم من حية وأظلم من ورل. والورل أظلم من الحية لأنه يأتي على الحيات كلها فيأكلها، وكل شدة يلقى ذو جحر من الحية تلقى مثل ذلك من الورل، وجمعه: ورلان. نعوذ بالله من الظلم وأهله، ونسأله السلامة من فضله.

زل: القافية الثانية وزل وزل. أما زل: فجمع أزل الذي تقدم. وزل أيضاً من نعت المكان الذي فيه الدحض والزلق. قال الشاعر:

لمن زحلوقة زل ... بها العينان تنهل

فسره أبو علي في النوادر الزحلوقة: آثار تزحلق الصبيان من فوق إلى أسفل.

قال: وأهل العالية يقولون زحلوفة بالفاء، وتميم يقولون: زحلوقة، بالقاف، وجمع زحلوفة زحاليف. ومنه قول الحجاج فيما كتب به إلى يزيد بن المهلب: أما بعد فقد بلغني أنك ركبت أمرين قبيحين وكلاهما زينه لك الشيطان وأتاك من باب الطمع والجشع والرثع فأقعدك عن زحاليفه فرمى بك مرمى بعيداً. أخرجه ثابت رحمه الله. وفسر الجشع قال: هو شدة الحرص. يقال: رجل جشع من قوم جشعين وجشاعى وأجشاع. ومثله: رجل طمع، كذلك إلى آخره. والرثع، قال: هو سوء الطمع، وقال: هو أن يأخذ نصيبه ويشترك في نصيب صاحبه. وقال: التزحلف والتزحلق والتزحلك واحد. وأنشد في الزحلوفة للكميت:

وفـــي مقـــام الـــصبا زحلـــوفة زلـــل

زل: وأما زل فأمر من زال، وكما جاء من قافية البيت الأول كلام له معنى وزل ورل فكذلك قافية هذا البيت الآخر له أيضاً معنى فزل وزل أي هذا موضع زل فاحذره وزل عنه.

القافية الثالثة قد تقدم زل جمع أزل، وزل أيضاً من نعت المكان الزلق، فهاتان لفظتان معنى إحداهما غير الأخرى. اجعل كل واحدة في قافية، وتقدم أنه يقال زل يزل، والأمر من هذا: زل يا زيد. اجعل هذه مع المتقدمة، وجاء منها قافية غير متكررة والحمد لله.

زلزل: ومن مضاعف هذه اللفظة: زلزل. أصل الزلزلة والزلزال: الاضطراب والحركة. وفي التنزيل منه كثير. وزلازل الدهر: شدائده. ويقال: ماء زلال وزلازل، إذا كان ينساغ بلا كلفة من صفائه.

ومعكوس زل لز. قد تقدم أنه ليس في الكلام رل وكذلك عكسه، لأن اللام والراء لا يجتمعان لقرب مخرجيهما إلا أن يكون قبلهما حرف، كما قالوا ورل وقد تقدم. وقالوا: أرل اسم جبل معروف، كما قال فيه الشاعر:

وهـبت الـريح مـن تلقـاء ذي أرل تزجي سـحاباً قلـيلاً ماؤهـا شبما

فكون الهمزة والواو قبلهما سهل النطق بهما، وكلما تباعدت المخارج كان الكلام أخف على اللسان، ولذلك لا تجتمع الدال مع الزاي في كلام العرب. حتى المهندس معرب من الهنداز، وكذلك الجيم والصاد حتى قالوا إن الاجاص دخيل في الكلام. قال الغنوي لا يقال الإنجاص.

قلت: وإنما يطلبون الأخف على اللسان فينطقون به. ألا تراهم لما أدخلوا الواو على الراء واللام في ورل كما تقدم خف النطق به. نعم، وفتحوا الواو من أجل فتحة

الراء وضموا الهمزة في أرل من أجل ضمة الراء. وقد فعلوا مثل ذلك في كثير من الكلام للإتباع وللجوار. قالوا في الإتباع: جحر ضب خرب، وفي بجاد مزمل، وقرئ خارج السبع: (الحمد لله) بضم اللام، و(الحمد لله) بكسر الدال. ذلك كله للإتباع، ولهذه الألفاظ المذكورة هنا في التكميل حكاية ظريفة ورسالةطريفة وقطع من الشعر شريفة.

رجع الكلام إلى الراء واللام. وكذلك إذا التقتا من كلمتين صعب النطق بهما أيضاً كقولك مرّ للمسجد، وهل رأيت زيداً حتى سهلوا ذلك بالادغام وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ ﴾ [الأنبياء: ١١٢] وشبهه على أن مرّ للمسجد ليس كقولك هل رأيت زيداً لأن اللام تدغم في الراء وذلك شائع وليس إدغام الراء في اللام كذلك.

وقالوا في قراءة أبي عمرو: (ويغفر لكم) بالإدغام مرفوعة غير معروفة وإنما شيء رواه القراء لا قوة له في القياس، ومن لم يدغم وقف على الكلمة الأولى قليلاً ثم ابتدأ الكلمة الأخرى. كما يروي حفص عن عاصم أنه كان يقف على ﴿ بَلْۜ ﴾ وقفة خفيفة ويبتدئ ﴿ رَانَ ﴾. ومن صعوبة الجمع بين اللام والراء أنشد بعض أهل العربية هذا البيت مصحفاً وهو هذا:

عافت الماء في الشتاء فقلنا ... برديه تصاد فيه سخينا

رواه كذا، وفسره على غلطه فقال: معنى برديه سخنيه. وقال وهو من الأضداد، واحتج بالبيت ولم يتابع على ذلك المعنى وغلط فيه. قال الذي ردّ عليه: إنما هو بل رديه من الورود، وأدغم اللام في الراء كما يقرأ: بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. ذكر ذلك ثابت رحمه الله وقال: تقول العرب: اسقني أوبرد، أي: ائتني به بارداً وقد تقدم. ومثل هذا البيت يلغز به، وشبيهه ما يروى عن الأصمعي رحمه الله تعالى أنه أنشد يوماً لطلبته:

لم ينالوا مثل الذي نلت منهم ... وسواء ما نلت منهم ونالوا

ثم قال لهم: كيف أوجب في آخر البيت ما نفي في أوله. فقالوا: لا ندري. قال: قد أجلتكم فيه شهراً. فقالوا: لو أجلتنا فيه سنة ما علمناه. فقال لهم: إنما هو لمى ترخيم لميا، ثم قال: نالوا مثل. ومثله ما أنشد المعري لنفسه:

ألفت خوص المطايا إنّ منكرة(*) ألف الغزال مقا ليتا مقاليتا

فهذا من التجنيس المركب، لأن مقا بمعنى: صقل وجلا، من قولهم: مقوت الشيء ومقيته إذا جلوته، والليت: صفحة العنق، والمقاليت من الإبل: التي لا يعيش لها ولد وكذلك من النساء.

قال الشاعر:

يظل مقاليت النساء يطأنه يقلن ألا يلقى على المرء مئزر

يصف مقتولاً، وكانت العرب تقول إذا كانت المرأة مقلات ووطئت قتيلاً عاش ولدها، ومثل ما تقدم من اللغز قول الآخر:

دنانيرنا من قرن ثور ولم يكن من الذهب المضروب عند القناطر

ألغز بالدنانير وليس كذلك وإنما هو دنا فعل ماض والنير الخشبة التي توضع على عنق الثور إذا قرن. ومثل ما تقدم من اللغز. قول آخر:

مررت على القبور فكلمتني وأيم الله ما نطقت بحرف

إنما هو: كلَّ متني؛ من الكلال الذي يعترى من التعب، ومتني: ظهري. على أن هذا يحتمل أن يبقى على حاله ولا يقال فيه مركب، لأن القبور موضع الاعتبار فكأنها تكلم من مرّ بها بلسان الحال لا بلسان المقال. وهذا جائز عند العرب كما قال عنترة:

وشكا إليّ بعبرة وتَحمحم

وللمعري وغيره من هذا النوع كثير كقوله:

أياديك عدت من أياديك صيحة بعثت بها ميت الكرى وهو نائم

هتفت فقال الناس أوس بن معير أو ابن رباح بالمحلة قائم

أوس هذا هو أبو محذورة مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعير بكسر الميم مفعل من: عار يعير في الأرض إذا ذهب. وابن رباح هو بلال أبوه رباح وأمه حمامة رضي الله عنه. ولي أيضاً في كتاب قوت القلوب أبيات أولها:

إنك ياقوت لياقوت كتبك مفروض وموقوت

انظره في التكميل.

فإذا لم يوجد رل ولا لر فليفسر زل ولز. أما زل، فقد تقدم. وأما لز، فمن قولك: لز الشيء بالشيء لزاً: إذا قرن به. ومنه قولهم: قد لززت بي يا فلان، وكل شيء دانيت

(*) قوله: خوص: هو جمع أخوص، وخوصاء من النوق: هي الغائرة العينين من الهزال. انظر ص ١١٦ من تنوير السقط المطبوع على ذمة جمعية المعارف.

به وقرنته فقد لززته. قال الشاعر:

أحـــسن بـــيت أهـــرا وبـــزا (*) كأنمـــا لـــز بـــصخر لـــزا

وقال الراجز:

وابـن اللـبون إذا مـا لـز فـي قـرن لـم يـستطع صـولة البـزل القناعـيس

ابن اللبون: الفصيل الذي أمه ذات لبن من حمل جاء بعده. والبازل: الذي بزل نابه أي: طلع. والقناعيس: جمع قنعاس وهو البعير العظيم الخلق. ويقال: لزه لزاً، إذا طعنه، وأجاز قوم لززت الشيء بالشيء وألززته به. ولم يجزها البصريون، وأجاز الأصمعي: لاززته ملازة ولزازاً إذا قارنته. يقال: خصم ملز: لازم للمخصومة، ويقال فيه: لزاز أيضاً، ويقال: هو لزاز شر، ولزيز شر، ولز شر. واللزاز: لزاز الباب: نطاق يلز به أي: يشدّ. والملزز الخلق: المجتمعه. ومن أفراس النبي صلى الله عليه وسلم: اللزاز، مشتق من هذا. وقد تقدم أنه كان له سواه السكب واللحيف والمرتجز واليعبوب. وفسر الخطابي منها السكب قال: قال الأصمعي رحمه الله: يقال فرس سكب وهو الكثير الجري. قال أبو داود:

وقـــد أغـــدو بطـــرف هـــيكل ذي مـــنعة وســـكب

وقال غيره: السكب يشبه لونه بلون الشقائق، وأنشد:

كالـــسكب المحمـــر فـــوق الـــرابية

واللزاز سمي بذلك لشدة تلززه. واللحيف لكثرة سبائبه يعني ذنبه. ومن غير الكتاب سمي بذلك لحسن صهيله. واليعبوب لكثرة جريه.

بقي الكلام على مخرج هذين الحرفين. مخرج الراء من أسلة اللسان إلى مقدّم الغار الأعلى، وهي من الحروف المزلقة. والزاي مخرجه من وسطه، وهو من الحروف المصمتة، وهما معاً من الحروف المجهورة كما تقدم. وصورتهما واحدة، ويختلفان في الاسم كما تقدم. تقول هذه راء فاسمها صورتها، وليس كذلك الزاي لأنك لا تكتبها إلا بياء بعد الألف. تقول هذه زاي فزيها، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] هي زاي فزيها؛ أي: اقرأ بالزاي، ومخرجها من وسط اللسان، ولها أختان من هذا المخرج: السين والصاد. إلا أن السين من وسط الفم مطمئنة على ظهر اللسان، ولذلك تنوب إحداهما في الكلمة مناب الأخرى، وتقوم مقامها عند طائفة من العرب. يقولون: صراط وسراط وزراط.

(*) الأهر: متاع البيت.

وقد قرئ بها ثلاثتها في السبع في القرآن. والسين الأصل والصاد بدل منها، تتفق الصاد مع الطاء في الاستعلاء والإطباق فيخف اللفظ، ونطق بالزاي فيها لتتفق مع الطاء في الشدّة والجهر، وأكثر ما تنقلب هذه الصاد زاياً إذا كانت ساكنة مثل قولهم: فلان يصدق في قوله ويزدق، وقد قرئ خارج السبع: (حتى يزدر الرعاء). فإذا قالوا صدق وزال الإشكال قالوا ذلك بالصاد. وكذلك صدر، وقد جمعوا بين الصاد والزاي في قافية قال الشاعر:

كـأن أصـوات القطـا المـنغص ... بالليـل أصـوات الحـصى المنقـز

كذا رويته المنغص بالصاد غير المعجمة، وفي الطرة المنغض بالضاد المنقوطة. وقال كاتبها: وهو الوجه. وسيأتي اشتراط الصاد والسين في باب الصاد إن شاء الله تعالى.

خـرجت مـن شـيء إلـى غيـره ... مـن أزّ أرا وهـو فعـل الـسرير
ثـم انتهـى الـشرح إلـى قـولهم ... رار وريـر ورزيـر وزيـر
وهـا أنـا أذكـر مـن بعـد ذا ... فـوائد الـباب بعـون القديـر

هذه قافية الراء وإن ترد قافية الزاي فقل:

خـرجت مـن شـيء إلـى غيـره ... مـن أز أزا ويجـوز الأزيـز
ثـم انتهـى الـشرح إلـى قـولهم ... أرض عـزاز ثـم شـاة عـزوز
وهـا أنـا أذكـر مـن بعـد ذا ... فـوائد الـباب بعـون العزيـز

فصل:

من فوائد ما تقدم في الباب من الكتاب من ذلك على بركة العزيز. ذكر الأزيز. تقدم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي ويسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. البكاء في الصلاة لا يفسدها بخلاف الضحك، بل هو محمود فيها، وفيه آثار عن الصحابة والتابعين. ويكفيك من ذلك قول عائشة رضي الله عنها في أبيها أبي بكر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم حين أمر أبا بكر أن يصلي بالناس: إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء. وهذه كانت صفته رضي الله عنه. كان إذا قرأ القرآن لم يملك دمعه، ووصفه بعضهم فقال: لم يزل دمعه يجري وجسمه يحرى حتى مات رضي الله عنه.

وهكذا تاليه في الفضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه. يقول ابن عباس رضي الله عنهما رأيته ينشج حتى اختلفت أضلاعه. قال: وكان جاري، فكان يقوم الليل ويصوم النهار. فلما ولي الخلافة قلت: لأنظرن الآن إلى عمله، فلم يزل على وتيرة

واحدة حتى مات رضي الله عنه.

وكان ابنه عبد الله رضي الله عنه يبكي حتى تثب الدموع من عينيه وثباً. وقال أفلح: رأيته طاف وجاء المقام فركع فرأيت موضع سجوده مبتلاً من ماء عينيه.

وعن محمد بن سيرين: رأيت مسلم بن يسار رضي الله عنه وقد رفع رأسه من السجود وكأن الماء صب في ذلك الموضع.

وأما الحسن بن أبي الحسن البصري رضي الله عنه فكان إذا ذكر الآخرة أو ذكرت له جاءت عيناه بأربع، وكان إذا عاد مريضاً لم ينتفع به يوماً وليلة، وإذا شيع جنازة لم ينتفع به أهله ثلاثة أيام. وقيل ليونس بن عبد الله: تعلم أحداً يعمل بعمل الحسن؟ فقال: والله ما أعرف أحداً يعمل بقوله فكيف بعمله. قيل: فصفه لنا. قال: إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أسير تضرب عنقه، فإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له.

وروي أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه خطب يوم جمعة فقرأ: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١] فلما بلغ: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ [التكوير: ١٢-١٣] بكى وارتج أهل المسجد بالبكاء حتى أريت أن حيطان المسجد تبكي معه. والأخبار في هذا كثيرة عن الصحابة والتابعين وتابعيهم. طائفة منهم غشيت من البكاء، وطائفة عميت. ولو جمعت أخبارهم لجاء منها ديوان، والله أعلم.

قلت: وحق ذلك لهم لأنهم كانوا متبعين يقتدي التابع بالصاحب، والصاحب بالنبي صلى الله عليه وسلم. وقد تقدم بكاؤه في الصلاة وغيرها.

قرأت على الحافظ رحمه الله في كتاب الأربعين للثقفي رضي الله عنه متصلاً بسنده إلى عطاء رضي الله عنه قال: دخلت أنا وابن عمر على عائشة رضي الله عنهم، فقالت: يا عبيد بن عمير ما لك لا ترى؟ فقال: يا أم المؤمنين أما سمعت ما قال الأول: (زر غبًا تزدد حبًا). فقال ابن عمر: دعانا من باطلكما، حدثينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فبكت ثم بكت وقالت: أتاني في ليلتي التي هي ليلتي فألصق جلده بجلدي ثم قال: يا هذه ائذني لي أن أتعبد لربي عز وجل. فقلت: إني أحب هواك وأحب قربك. فقام إلى قربة في البيت فتوضأ وما أكثر صب الماء ثم قام، فافتتح القراءة فبكى حتى جرت دموعه على خده، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه، فبكى حتى بلغت دموعه حجره، ثم بكى حتى بلغت دموعه الأرض، أو أصابت الأرض، فجاء بلال وهو يبكي فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر

الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً، وما يمنعني وقد أُنزل عليّ البارحة آية: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] حتى انتهى إلى قوله: ﴿ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١] فويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها. انتهى الحديث.

وقد عتب الله على قوم وعابهم بقلة البكاء فقال: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [النجم: ٥٩-٦٠] وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ [الأنعام: ٤٣] وأثنى على قوم بالبكاء فقال: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٥٨] وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية فسجد فقال: هذا السجود فأين البكاء؟.

وروي في الأخبار أن إبراهيم عليه السلام كان يسمع وجيب قلبه على مسيرة ميلين. وأما بكاء آدم وداود عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء فمشهور مذكور. روي أن آدم عليه السلام بكى ثلاثمائة سنة.

وكان نبينا صلى الله عليه وسلم يتعوذ من عين لا تدمع، وقال: أربعة من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا. أخرجه البزار. وقد رفع الله تعالى عن قوم بالبكاء الحرج والسبيل، فقال عزّ اسمه: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢] فصار هذا البكاء مدحاً لهم حتى كانوا يسمون البكائين تشريفاً لهم، وكانوا سبعة من الصحابة رضي الله عنهم. أحدهم عتبة بن زيد. خرج من الليل فصلى ما شاء الله ثم بكى وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ثم لم تجعل عندي ما أتقوّى به مع رسولك، ولم تجعل بيد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال أو جسد أو عرض، ثم أصبح مع الناس. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين المتصدق في هذه الليلة؟ فلم يقم أحدهم، ثم قال: أين المتصدق فليقم ولا يتزاهد ما صنع. فقام إليه فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبشر. فوالذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة. ذكر هذا ابن إسحاق من رواية يونس. وينظر قول هذا المتصدق إلى قوله عليه الصلاة والسلام: أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟ كان إذا خرج من منزله قال: اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك. لذلك قلت عند ذكر هذه

الفضائل من هؤلاء الأفاضل رضي الله عنهم:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... هذي الفضائل لا تلفى بذا الزمن
كانت فماتت مع القوم الذين مضوا ... إنا إلى الله يا لهفي ويا حزني
مضى لنا سلف لم يقفه خلف ... بل قد أتى كل خلف غير مؤتمن
يا رب ذا العلى أصلح جماعتنا ... ونجنا ربنا من هذه الفتن

يا أخي انظر جلوسنا، إلى متى نغالط نفوسنا، ألا ترى كيف كان القوم، وكيف نحن اليوم، هل نشبههم في ورد أو صدر أو خبر أو مختبر. أما وسيد البشر ومن أنزلت عليه السور، ما اجتمعنا إلا في الصور، وأما في الأفعال فقد تفرقنا شذر مذر. كان أصحاب الحسن رضي الله عنه يدخلون عليه ـ إذا الناس ناس والزمان زمان ـ فيقول لهم: ما أشبهكم بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فيفرحون، فيقول: نعم، رؤوسكم ولحاكم.

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها

وقبل هذا البيت:

لا والذي حجت قريش بيته ... مستقبلين الركن من بطحائها
ما أبصرت عيني خيام قبيلة ... إلا ذكرت أحبتي في فنائها

وقول الآخر:

بالله قل لي يا فتى ... أنا وأنت هكذا
لا والذي السما بنى ... عني حلفت عنك لا
فإن قلبي قد قسا ... لا رقة ولا بكا
ولا نقى ولا تقى ... بل غلظة ثم جفا
يا صاحبي ما لي جزا ... في كل ذا إلا العزا

وقد ذكرت هذه اللفظة أعني الأزيز في قطعة مطولة انظرها في التكميل، منها:

هذا النبي ذنوبه غفرت له ... طراً فأصبح وهو ذو قلب نقي
لكنه قد قال أخشاكم أنا ... منه وأعلمكم بما قد أتقي
ويقوم جوف الليل يدعو ربه ... بتضرع وتخشع وتملق
ولجوفه مثل الأزيز من البكا

الأبيات.

وتقدم: ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] هذه الآية نزع بها القاضي أبو بكر بن الباقلاني من أهل البصرة رضي الله عنه، أرسل إليه

فناخسرو بن الحسين ملك شيراز للمناظرة في أصول الدين على مذهب أهل السنّة مع المعتزلة. فدخل مجلس الملك وقد غص بالناس، فلم يجد موضعاً يقعد فيه إلا موضعاً رآه خالياً عن يمين الملك. فتخطى وقعد فيه فبهت الحاضرون من جراءته مع غربته بينهم، وسقط في أيديهم، وعلموا أنه غالب وكان شاباً فسمع واحداً من المعتزلة يقول لصاحبه سراً: إني لأرى هذا الشاب حديد الذهن يتوقد ذكاء. فقال له الآخر: ما هو إلا شيطان، فرفع القاضي صوته يقرأ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]، فعلموا أنهم قد رموا منه بداهية. وكانت أول مسألة دارت بينهم، سألوه: هل لله تعالى أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه؟ فقال لهم رحمه الله: إن أردتُم بالتكليف القول المجرد فقد وجد. وذلك أن الله تعالى قال: ﴿ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٥٠] ونحن لا نقدر أن نكون حجارة ولا حديداً. وقال: ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١] فطالبهم بما لا يعلمون. وقال تعالى: ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم: ٤٢] فهذا كله أمر بما لا يقدر الخلق عليه. وإن أردتم بالتكليف الذي نعرفه وهو ما يصح فعله وتركه فالكلام متناقض وسؤالكم فاسد. ولا يستحق على السؤال الفاسد جواب. ثم جرت بينهم مناظرات ومسائل ظهر فيها القاضي رحمه الله على المعتزلة. فدونت واتخذت أصلاً، والحمد لله.

ونشأ أبو بكر هذا يعلم العلم ويدرسه، ويؤلف التآليف ولا يأخذ على ذلك شيئاً من عرض الدنيا، ويشتري حوائجه بنفسه، فيكلمه الطلبة في ذلك ليتحملوا عنه مؤنتها فيأبى ويقول: أخاف أن يكون من بعض أجري على تعليمي. وذكر عنه أنه حسبت تآليفه وإملاآته ثم قسمت على عمره من مولده إلى موته فوجد أنه يقع لكل يوم منها عشر ورقات أو نحوها. وروى عنه بعض طلبته أنه قال: لي خمسون عاماً متغرباً عن أهلي وعن وطني أطلب العلم آخذاً له ومأخوذاً عني. ومات آخر ذلك غريباً بالقيروان. رضي الله عنه.

وتقدم ذكر الخلف وقول لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب

وبعده:

يتحدّثون خلابة وملاذة ... ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

وهذا الشعر تمثلت به عائشة رضي الله عنها وقالت: فكيف بلبيد بن ربيعة لو

أدرك من أنا بين ظهريه. كذا رواه ثابت رحمه الله. وروى: (وبقيت في خلف). وفي رواية له: (وبقيت في نسل)، وفي روايتي البيت الأول بالإسناد المسلسل عن شيخي الفقيه العثماني رحمه الله إلى شيخي محمد بن إبراهيم الرازي ومنه إلى غيره كذلك إلى عائشة رضي الله عنها، وقالت: رحم الله لبيداً لو عاش إلى دهرنا هذا. وكذلك كان كل واحد منهم يقول: رحم الله فلاناً، يعني شيخه، لو عاش إلى زماننا هذا. وبعضهم يقول: لو أدرك زماننا هذا. وقال شيخي العثماني أيضاً وقلته أنا واتصل السند بالتسلسل مني إلى أمي عائشة رضي الله عنها. وإن أردته يا ولدي مسلسلاً بسندي فانظره في جزء المسلسلات.

وروي عن يونس رحمه الله أنه قال ـ وذكر عنده تمثل عائشة رضي الله عنها بالشعر المتقدم وقولها بعده ما قالت ـ فقال: من يعذرني من عائشة أم المؤمنين؟ نشأت في حجر أبي قحافة وأم رومان، حتى إذا صارت زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنة الصديق وأم المؤمنين يعطيها معاوية مائة ألف فتقسمها في يوم واحد ثم تبكي على زمن لبيد.

وأغرب من هذا ما يروى عن الشعبي قال: جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال: يا ابن عباس إني سمعت عائشة تذم دهرها وهي تتمثل ببيتي لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب
يتأكلون خيانة ومشحة ... ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

قال: فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لئن ذمت عائشة دهرها، لقد ذمت عاد دهرها. قيل وجد في خزائن عاد سهم مفوّق كأطول ما يكون من رماحنا وإذا عليه مكتوب:

أليس إلى أجباد صبح بذي اللوى ... لوى الرمل فاعذر للنفوس معاد
بلاد بها كنا وكنا نحبها ... إذا الناس ناس والبلاد بلاد

ذكر هذا الخبر ثابت رحمه الله. وذكر أيضاً عن ابن أحمر قال: كنا عند أبي نعيم فذكروا قول لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب

فقال أبو نعيم:

ذهب الناس واستقلوا فصرنا ... خلفاً في أراذل النسناس
من أناس نعدهم من عديد ... فإذا كوشفوا فليسوا بناس
كلما جئت أبتغي النيل منهم ... بدؤوني قبل السؤال بياس

وبكــوا لــي حتــى تمنيت أنــي ... خلــصت عــند ذاك رأســاً بــراس

وقع في حلية الأولياء قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذهب الناس وبقي النسناس. قيل: وما النسناس؟ قال: الذين يشبهون بالناس وليسوا بالناس. ومن كتاب تفضيل الكلاب وأنشد قول لبيد:

ذهــب الــذين يعــاش فــي أكــنافهم ... وبقــيت فــي خلــف كجلــد الأجــرب

يــــتأكلون خــــيانة ومــــشحة ... ويعــاب قــائلهم وإن لــم يــشغب

قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن يزيد النحوي قال: ذكر لي بعض المشايخ قال: كنت عند بشر بن الحارث عشية فرأيته مغموماً فما تكلم حتى غربت الشمس، ثم رفع رأسه فقال:

ذهــب الــرجال المقــتدى بفعــالهم ... والمنكــرون لكــل أمــر منكــر

وبقــيت فــي خلــف يــزين بعــضهم ... بعــضاً لــيدفع معــور عــن معــور

وأنشد أيضاً لغيره:

ذهــب الــذين إذا رأونــي مقــبلاً ... سـروا وقالــوا مــرحباً بالمقــبل

وبقــي الــذين إذا رأونــي مقــبلاً ... سـيؤوا وقالــوا ليــته لــم يقــبل

وقال آخر:

ذهــب الــذين إذا غــضبت تحملــوا ... وإذا جهلــت علــيهم لــم يجهلــوا

وإذا أصــبت غنــيمة فــرحوا بهــا ... وإذا بخلــت علــيهم لــم يــبخلوا

قال وأنشدني أبو عبيد الله الدستواني:

ذهــب الــذين هــم الغــياث المنــزل ... وبقــي الــذين هــم العــذاب المرســل

وتقطعــت أرحــام أهــل زمانــنا ... وكأنمــا خلقــت وليــست توصــل

الــناس مــشتبهون مــن كــشفته ... كــشفت منــه عــن الــذي لا يحمــل

أمــا الفقيــر فحاســد متفطــر ... حــسداً وأمــا ذو الثــراء فيــبخل

ويظــن أن لــه بكثــرة مالــه ... فــضلاً علــيك وغيــره المتفــضل

وأنشدني أبو يعقوب الأديب:

ذهــب الكــرام فأصــبحوا أمــواتاً ... ورقــاً تطيــر بــه الــرياح رفاتــا

وتــبدلت عرصــاتهم مــن بعــدهم ... بــسوى ثــبات الــصالحين ثــباتا

وبقــيت فــي خلــف أحــاذر شــره ... وأخــاف فــيه مــن الــصديق بــياتا

وقال آخر:

ذهــب الــناس وانقــضت دولــة ... الــناس فكــل إلا القلــيل كــلاب

غيـر أن الوجـوه فـي صـور الإنـ ـس وأبـدانهم علـيها الثـياب
لـست تلقـى إلا بخـيلاً كـذوبا بـين عينـيه للإيـاس كـتاب
إن مـن لـم يكـن علـى النـاس ذئباً أكلـته فـي ذا الـزمان الـذئاب

وقال الشاعر:

ذهـب الـذين فـضولهم معلـومة ولهـم إذا قحـط الـزمان جفـان
ذهـبوا فلـيس لهـم نظيـر واحـد إذ لا تـراهم لا أبـا لـك كانـوا
لـم يبق مـن أهـل الفـضائل والنهـى إلا فـلان باسـمه وفـلان

و قال الشاعر:

ذهـب الـذين علـيهم وجـدي وبقـيت بعـد فـراقهم وحـدي
سـلف مـضى وبقـيت بعـدهم وكـذاك يـذهب مـن بقـي بعـدي

إلى غير ذلك من هذا النوع كثير اختصرته. وتقدم: سكت ألفاً ونطق خلفاً. يروى أن أعرابياً كان مع قوم فحبق حبقة فتشور وأشار بإبهامه إلى استه وقال: إنها خلف نطقت خلفاً، وقد ظهر لي في قول الأعرابي معنى لم أره لغيري. يحتمل أن يريد بقوله إنها خلف ضد أمام، ويكون أدخل في الفصاحة لاختلاف اللفظين، والله أعلم.

والشيء يذكر بالشيء فمما كتبته عن الحافظ وقرأته عليه في ملح الآداب قال: سمعت أبا القاسم الحسين بن الفتح الهمداني يقول: سمعت أبا مقاتل الشيباني بهمدان يقول: دخل أبو الفضل الهمداني الملقب بالبديع صاحب المقامات على الصاحب إسماعيل بن عباد الوزير، فتزحزح له وأجلسه معه على سريره، فحبق حبقة وأراد أن ينفي عن نفسه التهمة فقال: يا مولانا هذا صرير التخت. فقال: بل صفير النحت. فخرج خجلاً وانقطع عن المثول بين يديه، فكتب إليه الصاحب:

قـل للـصفيريّ إذ ولـى علـى خجـل مـن ضـرطة أشـبهت نايـاً علـى عـود
فإنهـا الـريح لا تـستطيع تـدفعها إذ لـست أنـت سـليمان بـن داود

قلت والشيء أيضاً يعرف بضده، أين حال هذا الوزير من حاتم الأصم رضي الله عنه، روى أنه جاءته امرأة تستفتيه في أمر فتحركت فصوتت فخجلت المرأة، وجعل يتصامم لها ويقول: أعيدي سؤالك فإني لا أسمعه. فذهب عن المرأة ما كان أصابها من الخجل، وانبسطت في الكلام وخرجت عنه وقالت: إنه أصم. فجرى عليه ذلك اللقب إلى أن مات رضي الله عنه.

وللخطيب أبي محمد عبد الوهاب رحمه الله في رسالة الحمار غير أن العير يحبق في السير فأنا أجل شعري عن الضراط وأحمله على غير هذا الصراط. انظره في

التكميل. وأنشدني ذات يوم رحمه الله قال: مدح شاعر أحد الشجعان فقال:

تـــراه يـــوم الـــروع فـــي نفـــسه فـــي عـــسكر يهـــزم جيـــشين

ثم قال ويضرط وسكت فقال له: ويلك ماهذا؟ فقال: لا أكمل البيت أو تعطيني. فأمر له بعطاء فقال:

ويـــضرط العلـــج إذا مـــا رأى صـــلعته مـــن رأس ميلـــين

وقال آخر في الضراط وكان حكيماً مثل بقراط:

لا تُمسك الـضرطة إذا ما عرضت وخلها وافتح لها ما استفتحت
فـإن داء الـداء فـي إمـساكها والـروح والـراحة فـي فكاكها

وقالوا فيها صوتها دباغها يعني أنها لا ريح لها، ولا تستبشع هذه اللفظة فقد جاءت في الحديث في مواضع. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا ثوّب بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع النداء. وقد تقدم. وقال أبو هريرة رضي الله عنه، وقد سئل عن الحدث الذي ينقض الوضوء فقيل له: فما الحدث يا أبا هريرة؟ قال: فساء أو ضراط.

وتقدم أيضاً في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً. فسره أبو عبيدة وقال عن الشعبي يعني من الشعر الذي هجي به النبي صلى الله عليه وسلم: لو كان شطر بيت لكان كفراً. فكأنه إذا حمل وجه الحديث على امتلاء القلب منه فهم أنه رخص في القليل منه، ولكن وجهه عندي أن يمتلئ قلبه حتى يغلب عليه فيشغله عن القرآن وذكر الله فيكون الغالب عليه من أيّ الشعر كان. فأما إذا كان القرآن والعلم الغالب عليه فليس جوف هذا بممتلئ من الشعر.

ووقع في كتاب الأستاذ رحمه الله أن عائشة رضي الله عنها تأوّلت الحديث في الأشعار التي يهجى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنكرت قول من حمله على العموم في جميع الشعر، وذكر أن ذلك ذكره ابن وهب في جامعه، وقال الأستاذ رحمه الله: فعلى هذا القول ليس في الحديث إلا امتلاء الجوف منه. وأما رواية اليسير على الحكاية والاستشهاد على اللغة فلم يدخل في النهي، والله أعلم. انتهى كلامه رحمه الله.

وقد روى ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنهاأنها قالت حين أنشدت قول لبيد:

ذهـب الـذين يعـاش فـي أكـنافهم وبقيت فـي خلـف كجلـد الأجـرب

إني لأروي له ألف بيت وإنه أقل ما أروي لغيره.

وتقدم في الحديث: كان من ورائه الهرم، وهو حديث ذكره مطرف بن عبد الله عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله مثل ابن آدم ومثل عنده تسعة وتسعين حتفاً ثم قال: إن أخطأه هذا كان من ورائه الهرم. وقال لبيد:

حبائله مبثوثة بسبيله ويفنى إذا ما أخطأته الحبائل

ومعنى قوله يفنى يهرم، من قولهم: شيخ فان، أي: هرم، فمن ورائه هنا بمعنى: أمام، وكذلك يقال: الموت من ورائك أي: من قدامك، ويومي هذا إلى الحديث الآخر: كفى بالسلامة داء، وقد تقدم. وروى سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مثل الذي يفر من الموت كالثعلب تطلبه الأرض فجعل يسعى حتى إذا عيي وانبهر دخل في جحره فقالت له الأرض عند سبلته: يا ثعلب ديني ديني، فخرج وله خصاص فلم يزل كذلك حتى انقطع عنقه فمات. خرجه ثابت. وفسر السبلة يعني الشعرات التي حول الفم وهي من الإنسان الشارب. وقال بعضهم: السبلة ما فوق الذقن من الشعر إلى منقطعه. ذكر في هذا الحديث الدين وأنه ليس منه لصاحبه فوات إلى الممات، نعم وتبقى بعد الممات مطالبات، وقد وردت في تعظيمه أحاديث منها: الدين شين للدين، والدين هم بالليل مذلة بالنهار. وآية الله في أرضه إذا أراد أن يذل عبده ابتلاه بالدين وجعله في عنقه. وقال عليه الصلاة والسلام: أعوذ بالله من الكفر والدين، قيل: يا رسول الله أيعدل الكفر الدين؟ قال: نعم. وخرج أبو جعفر الطبري عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تخيفوا المسلمين بعد أمنها، قالوا: يا رسول الله وما ذاك؟ قال: الدين. وفي الترمذي: نفس المرء معلقة بدينه حتى يقضى عنه. وحديثه الآخر في الذي قال له: إن قتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر أيكفّر الله عن خطاياي، قال في آخره: نعم. إلا الدين، كذلك قال لي جبريل. وحديثه الآخر الذي قال لأصحابه: صلوا على صاحبكم من أجل الدين الذي كان عليه. وغير ذلك من هذا النوع كثير، وإنما يترخص في الدين عند الحاجة والضرورة مع السعي في أدائه والحرص على قضائه. كما قال عليه الصلاة والسلام: من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله. وقال الشاعر وقد أخذ ديناً من أجل الغير واكتسب لهم ضروب الخير:

يعيرني قومي بديني وإنّما تداينت في أشياء تكسبهم حمدا

ووقع في الشهاب: أقلل من الدين تعش حراً. وقد نظمت أنا هذا المعنى فقلت:

يا صاحب الدين ألم تسمعن قول النبي الناصح البرا
وهو يوصي بعض أصحابه أقلل من الدين تعش حرا

وتقدم زار: وفضل الزيارة كبير، وأجرها كثير، ويكفي من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ. انظر رحمك الله: ماذا تحت قوله: (فيّ) أي لا تكون تلك الزيارة والمجالسة والبذل إلا لله تعالى خالصاً ولا تكون لغرض ولا عرض ولا عن عوض.

كما يروى أن رجلاً زار أخاً له في قرية فبعث الله على مدرجته ملكاً فسأله: أبينك وبين هذا الذي تزوره رحم تصلها، أو نعمة تربها؟ قال: لا. قال: فلمَ تزوره؟ قال: أحببته في الله. قال: إني رسول الله إليك أخبرك أنه يحبك كما أحببته. وفي الحديث: إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى: طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً. أو كما قال.

وفي الرقائق حدثنا نعيم. قال: حدثنا ابن المبارك قال: حدثنا شريك عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذيل قال: خرج عمار بن ياسر إلى أصحابه وهم ينتظرونه فقالوا: أبطأت علينا أيها الأمير. فقال: إني سأحدثكم حديثاً، إن أخاً لكم ممن كان قبلكم هو موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب حدثني بأحب خلقك إليك. قال: لمَ؟ قال: لأحبه لك. قال: سأحدّثك، رجل في طرف الأرض يعبدني، سمع به أخ له في طرف الأرض لا يعرفه فإن أصابته مصيبة فكأنما أصابته وإن شاكته شوكة فكأنما شاكته لا يحبه إلا لي فذلك أحب خلقي إليّ. ثم قال: يا رب خلقت خلقاً فجعلتهم في النار. فأوحى الله إليه أن ازرع زرعاً فزرعه وسقاه وقام عليه حتى حصده وداسه. فقال له: ما فعل زرعك يا موسى؟ قال: قد رفعته. قال: فما تركت منه؟ قال: ما لا خير فيه. قال: فإني لا أدخل النار إلا من لا خير فيه.

ويروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من عبد يزور أخاً له في الله إلا قال الله في ملكوت عرشه عبدي: زار فيّ عليّ قراه ولن أرض لعبدي بقرى إلا الجنة. خرج علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية في باب الحب في الله والبغض في الله عن ليث عن صاحب له قال: من زار أخاً له لا يزوره إلا لله ابتغاء مرضاة الله والتماس ما عند الله تنجيزاً لوعد الله وحفظاً لحق أخيه إلا حياه كل ملك بتحية لا يحييه بها صاحبه وصاح شجر الجنة: هذا فلان زار فلاناً لله عز وجل.

وروي أن بشر بن الحارث قال: كان لي أخ مواخ فبلغني أنه يأتي القاضي بالليل، فكتبت إليه: يا أخي بلغني أنك تأتي القاضي بالليل فاعلم أن الذي يراك بالنهار يراك

بالليل، وهذا آخر كتابي إليك فاعلمه والسلام.

وروي عن رجل من أعوان داود الطائي قال: دخلت على داود فقال لي: ما جاء بك؟ قلت: زيارتك. فقال لي: أما أنت فقد عملت خيراً حين زرت، ولكن انظر ماذا ينزل بي أنا إذا قيل لي من أنت فتزار أمن العباد أنت؟ لا والله. أمن الزهاد أنت؟ لا والله. أمن الصالحين أنت؟ لا والله. ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول: كنت في الشبيبة فاسقاً، فلما شخت صرت مرائياً، والله للمرائي شرّ من الفاسق. والكلام في زيارة الإخوان لو جمع لجاء منه ديوان.

وتقدم الزور الذي هو الكذب. وقد قيل قبل هذا من الكلام فيه ما إذا سمعه عاقل يكفيه وعن خاطره ينفيه. وتقدم في الحديث: المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور. وسببه أن امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن لي ضرة فهل لي أن أتشبع من مال زوجي بما لم يعطني؟ فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور. أو كما جاء الخبر وفسره أبو عبيد رحمه الله فقال: هو الرجل يلبس الثياب تشبه ثياب الصالحين أهل الزهد يريد بذلك الناس ويظهر من التخشع والتقشف أكثر مما في قلبه. فهذه ثياب الزور. وقال فيه أيضاً وجه آخر يحتمل أن يريد بالثياب الأنفس. تقول العرب: فلان نقيّ الثياب، إذا كان بريئاً من الدنس والآثام. وفلان دنس الثياب إذا كان مغموصاً عليه في دينه. قال امرؤ القيس:

ثياب بني عمرو طهارى نقية ... وأوجههم عند المشاهد غرّان

هذا على الكناية، وعلى الحقيقة نقاء الثوب محمود. وعند أهل المروءات موجود، ومن أمثالهم في ذلك: المروءة الظاهرة في الثياب الطاهرة. وفي القرآن العزيز: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤] قيل معناه لا تلبسها على معصيتي، وقيل غير ذلك. ورأى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً يجر ثيابه فقال: يا هذا أقصر من ثيابك فإنه أنقى وأتقى وأبقى. نظمه بعض المحدثين فقال:

تقصيرك الثوب حقا ... أنقى وأتقى وأبقى

وتقدم الزير، وتصغيره: زوير، وهو كل شيء يعقل عند الحرب من رجل أو دابة. فيقال: لا تفر حتى يفر هذا. وفي اشتقاقه قولان أحدهما أنه ربما زار وأزار قومه الموت، والثاني أن اشتقاقه من اللزوم لموضعه، ولذلك سمي ملازم النساء ومحادثهن زيراً. وممن جعل نفسه زويراً من المشهورين حرب بن أمية وحضير الكاتب الأوسي عقل نفسه وجعلها زويراً يوم بغاث. وجعل الناس جمل عائشة رضي الله عنها يوم الجمل زويراً فأناخوه وهي عليه وقالوا: لا نفرّ حتى يفرّ هذا، فلم يصبر أحد في الحرب

صبرهم. ورمي هودج عائشة رضي الله عنها بالسهام حتى صار كالفرخ المعضب وكان قد حصن عليه غاية التحصين. ذكر ذلك البكري.

وتقدم: (زر غبّاً تزدد حبّاً). وتقدم أن عبيد بن عمير تمثل به عند عائشة رضي الله عنها، وقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: دعانا من باطلكما، وهذا المثل وقع في الشهاب. وذكر شارحه أبو القاسم البابي رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك لأبي هريرة، فقالت عائشة رضي الله عنها:

أكثرت في زوره فملك ... وزدت في ذاك فاستقلك
لو كنت ممن يزور غبّاً ... لكان في النفس قد أحلك

فقال عليه الصلاة والسلام: يا عائشة والله ما مللناه ولا قليناه ولكن أدنيناه. قال أبو القاسم وانتصب غبّاً على الظرف وحبّاً على التمييز والتفسير. وقال الوحشي شارح الشهاب أيضاً رحمه الله: قال ابن عمر ما زلت أسمع زر غبّاً تزدد حبّاً حتى سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهذا أدب منه صلى الله عليه وسلم لأمته، لأن الدؤب على الزيارة يبعث على الملل من الذي يزار والغب لها يبعث على البسط والإقبال على الزائر والرحب. قال الشاعر:

عليك بإقلال الزيارة إنها ... إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا
ألم تر أن الغيث يسأم دائباً ... ويسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

وقال الآخر:

إذا شئت أن تقلى فزر متواتراً ... وإن شئت أن تزداد حباً فزر غبّا

وتقدم من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وقد زوّرت مقالة في نفسي قد أعجبتني. كان ذلك يوم سقيفة بني ساعدة إذ اجتمع الأنصار فيها للبيعة وجاءهم أبو بكر وعمر رضي الله عن جميعهم. فقام خطيب الأنصار فأثنى على الله بما هو له أهل ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين منا، وذكر كلاماً طويلاً. قال عمر: فلما سكت أردت أن أتكلم وقد زورت مقالة في نفسي قد أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد. فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر. فكرهت أن أعصيه، فتكلم وهو كان أعلم مني وأفقه، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قالها في بديهته أو مثلها أو أفضل منها حتى سكت. وذكر تمام الخبر وبيعة الناس لأبي بكر رضي الله عنهم.

وتقدم الزوراء وأنها اسم لقوس رسول الله صلى الله عليه وسلم، الواحدة، واسم الأخرى الصفراء. وما زال العلماء رضي الله عنهم ينقبون عن أخبار رسول الله صلى

الله عليه وسلم ويبحثون عن أنباء الأمة ويقيدونها بالكتب في الكتب، فمن ذلك هاتان القوسان وكانت له عليه الصلاة والسلام كنانة تسمى الجمع، وسيف يسمى ذا الفقار لفقرات في وسطه، وكان ذلك السيف لنبيه ومنبه ابني الحجاج سلباه يوم بدر. ويقال إن أصله من حديدة وجدت مدفونة عند الكعبة فصنع منها ذو الفقار وصمصامة عمرو المشهورة عند العرب التي كانت تقط بها السيوف المنتخبة كما يقط الفجل، وكانت له عليه الصلاة والسلام راية تسمى العقاب، وحربة يقال لها النبعة، ودرع يقال لها ذات الفضول، وأخرى يقال لها فضة، وكان له ترس فيه تمثال كرأس الكبش، وكان عليه الصلاة والسلام يكرهه فأصبح يوماً وقد انمحى ولم يبق له أثر، وكان له قضيب يسمى الممشوق، ومرآة يقال لها المدلة، ورداء يسمى الحضرمي، وبه كان يشهد العيدين، وكانت له جفنة عظيمة يحملها أربعة رجال يقال لها الغراء، وكان له خمس من الخيل. وقد تقدم ذكرها وشرح أسمائها عند ذكر الخيل في آخر باب الألف والباء والتاء. وكانت له بغلة اسمها دلدل أهداها له المقوقس ملك الإسكندرية وماتت في زمن معاوية. وكان له حمار اسمه عفير، وسيأتي ذكره في باب الشين إن شاء الله تعالى.

قلت: والتعرف بمثل هذه الأسباب يؤكد المحبة بين الأحباب لا سيما من نبينا عليه الصلاة والسلام فإنها من مراعاة الذمام، ولا تضيع عند الكريم لحظة فكيف لفظة. والمعرفة ترفع الأقدار وتدني البعيد الدار.

قيل لمعاوية: إن بوّابك يأذن لأصحابه قبل أصحابك. فقال: إن المعرفة لتنفع عند الكلب العقور والجمل الصؤول فكيف بالرجل الكريم. قال لي الفقيه الخطيب أبو محمد رحمه الله وقت قراءتي عليه قول معاوية رضي الله عنه: إن المعرفة لتنفع عند الكلب العقور. فقال رحمه الله تعالى: فكيف عند الرب الغفور. وهذا من تجنيسه رحمه الله، تكرّم علينا بمعرفته ومعرفة أنبيائه حتى يجعلنا بذلك من أوليائه بمنه ويمنه.

وتقدّم صمصامة عمرو. وأذكر هنا ما أحفظه مما وقع فيه ذكر الصمصامة من النظم حسبما شرطته أيها الأخ المعظم من تقييدي ما أخاف من شروده فتأهب لوروده. ومن ذلك ما أنشدنيه بعض الأصحاب لبعض المحدثين، وكانت قد أصيبت يده فكتب إلى صديق له فقال:

أبا الحسين ولا شكوى لحادثة ... إلا نواك وما ألقاه من ألم
أشكو إليك الليالي إنها فتكت ... مني بحاملة الصمصام والقلم

وهذا الذي يأتي بعد أحسن من الذي مضى لكونه في الزهد:

برضاك إلا ما رحمت مقامي ... يوم اللقا وصفحت عن آثامي

يدعـوك معتـرفاً بـسالف ذنـبه ... عـبد يَمـتّ إلـيك بالإسـلام
إن أنـت لـم تعطـف عليه فمـن لـه ... ملـك الملـوك وكافـل الأيـتام
مـن عـدل حكمـك أتقـي لا أتقـي ... جـوراً لأنـك أعـدل الحكـام
لـو نالنـي التوفـيق مـنك أعاننـي ... وخـرجت مـن دنـياي كالصمـصام
وزهـدت فـيما لـيس يبصره سـوى ... أضـغاث أحـلام ذوو الأحـلام

الأحلام الأول: جمع حلم. والثاني: جمع حلم وهو العقل. وتقدّم في هذا الشعر الأيتام واليتم عند أهل التحقيق من قبل الآباء في بني آدم، وفي البهائم من قبل الأم، والذي يموت أبوه يقال له لطيم، والذي تموت أمه يقال له نجي. وتقدّم لمَ قيل للسيف ذو الفقار.

قال الأستاذ رحمه الله: يقال في هذا السيف ذو الفقار بالفتح جمع فقارة، وإن قيل: ذو الفقار بالكسر فهو جمع فقرة. وجاء في الخبر أن ريحاً هبت يوم أحد فسمعوا قائلاً يقول فيه:

لا سـيف إلا ذو الفقـار ... ولا فتـى إلا علـي

في أبيات. انتهكلامه. يريد بعليّ هاهنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ووقع في الكامل: فتى ولا كمالك، يعني مالك بن نويرة أخا متمم بن نويرة. وخبر مالك مشهور في حديث الردة، ووجد أخيه متمم عليه ورثاؤه إياه مشهور أيضاً. وكان متمم أعور العين فبكى على أخيه حتى جادت عينه العوراء بالدمع. وقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وددت أنك رثيت أخي زيد بن الخطاب كما رثيت أخاك مالك بن نويرة. ففعل فلم يجد ولم يبلغ ما بلغ من رثاء أخيه. فقال له في ذلك، فقال: إني لأجد لأخي ما لا أجد لأخيك. وقال له أيضاً: لو مات أخي كما مات أخوك لم أبكه. مات أخوك مسلماً ومات أخي كافراً، أو كما قال. ومن شعره:

وكـنا كندمانـي جذيمـة حقـبة ... مـن الدهـر حتى قيل لـن نتـصدعا
فلمـا تفـرقنا كأنـي ومالكـاً ... لطـول اجتماع لـم نـبت لـيلة معـا

وبهذا البيت تمثلت عائشة رضي الله عنها حين مات أخوها رضي الله عنهما.

وللخطيب أبي محمد قطعة حسنة ذكر فيها متمماً هذا. كان له صاحب يقال له محمد ابن يوسف ففارقه فكتب إليه رسالة لزومية أوّلها:

صـدّني البـين عـن لقائـك غيـره ... أن يـرى آنـساً بقـربك غيـره
أسـفي يـا ابـن يوسـف لـم يجـده ... بأخـيه مـتمم بـن نويـره

انظرها في التكميل.

وتقدّم في هذا الفصل: لا فتى إلا عليّ، وذو الفتوة عندهم من جمع المحامد والمحاسن والمكارم، ولذلك قالوا: من لم يتفتّ لم يحسن أن يتقرّا. معناه: من لم يكن بهذه الصفة لم يحسن أن يكون قارئاً. يعني أنه إذا جمع ما تقدّم كمل. وقد فسر حسان بن ثابت رضي الله عنه الفتى فشفى بما فيه أتى ذكر ثابت رحمه الله أن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عامر بن كريز رضي الله عنهم أتوه فاستخرجوه فخرج إليهم فقال: وا بأبي رهن القرية ألا حيث جلستم بعثتم إليّ فجئتكم. قالوا: إنا ذكرنا شيئاً وكان ذلك عند افتراق مجلسنا وكنت على طريقنا، فأحببنا أن نسألك عنه. قال: وما ذاك؟ قالوا: ذكرنا الفتى متى يكون فتى ومتى يخرج من حد الفتى؟ قال: قد قلت في ذلك شعراً. قالوا: وما ذاك؟ قال: قلت:

إن الفتى لفتى الهواجر والسرى وفتى الطعان ومدره الحدثان
إن كان كهلاً أو فتى فهو الفتى ليس الفتى بعملج الفتيان

فسره ثابت وقال: العملج: الدنيء، ورهن القرية: وجوهها. وأنشد في موضع آخر:

أنت الفتى وأنا الكاسيك حلته

أي: حلة الفتى، أي: أمدحك، وسمع بعض السلف بعض الفتيان يقول: الفتوة إنما هي الظرف والانهماك والمجون. فقال له: ويحك يا بني جزت والله عن طريق الحق، وحدت عن سبيل الصدق، والله ما الفتوة إلا نائل مبذول، وبشر مقبول، وطعام موضوع، وأذى مرفوع.

وتقدم الازورار وهو: التباعد. وجاء منه في حديث مؤتة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: رأيت في سريره ازوراراً عن سريري صاحبيه يعني جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة المقتولين هناك رضي الله عنهما. قال عليه الصلاة والسلام: فقلت مم هذا؟ فقيل لي: مضيا، وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد ثم مضى. وكان من حديثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثاً إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان وهم ثلاثة آلاف واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة. فالتقى المسلمون مع الروم وهم مع من انضم إليهم في مائتي ألف. فأقام المسلمون على معان، وهي من أرض الشام، ليلتين ينظرون في أمرهم. وقالوا نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا، فشجع الناس عبد الله بن رواحة فقال: يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم إليه تطلبون

الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة. قال فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة، فمضى الناس واقتتلوا فقاتل زيد براية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له أشقر فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قتل. فكان جعفر أول رجل عقر في الأسلام، ثم قاتل القوم واللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء. ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وتقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم نزل بعد ذلك ثم قاتل حتى قتل. فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه خبرهم وقال: لقد رفعوا في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورار عن سريري صاحبيه كما تقدم.

قال الأستاذ رضي الله عنه، وذكر من فضل جعفر رضي الله عنه، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمع فاطمة تقول حين جاء نعي جعفر: واعماه. فقال: على مثل جعفر فلتبك البواكي. وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: ما احتذى النعال ولا ركب المطايا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جعفر.

وقف على معنى الجناحين

قال الأستاذ رضي الله عنه: ومما ينبغي الوقوف عليه في معنى الجناحين يعني اللذين أعطيهما جعفر أنهما ليسا كما يسبق إلى الوهم أنهما مثل جناحي الطائر وريشه. لأن الصورة الآدمية أشرف الصور وأكملها، ولكنها عبارة عن صفة ملكية وقوة روحانية أعطيها جعفر كما أعطيتها الملائكة. وقد قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ [طه: ٢٢] فعبر عن العضد بالجناح توسعاً وليس ثم طيران، فكيف بمن أعطي القوة على الطيران مع الملائكة. أخلق به أدباً أن يوصف بالجناح مع كمال الصورة الآدمية وتمام الجوارح البشرية.

وقد قال أهل العلم في أجنحة الملائكة: ليست كما يتوهم من أجنحة الطير، ولكنها صفات ملكية لا تفهم إلا بالمعاينة. لقوله تعالى: ﴿ أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ ﴾ [فاطر: ١] فكيف تكون كأجنحة الطير على هذا، ولم ير طائر له ثلاثة أجنحة

ولا أربعة أجنحة، فكيف بستمائة جناح، كما جاء في صفة جبريل عليه السلام. فدل على أنها صفات لا تنضبط كيفيتها للفكر، ولا ورد أيضاً في بيانها خبر، فيجب علينا الإيمان بذلك.

تقدّم أن جعفر قطعت يده يوم مؤتة وقد فعل مثل هذا بسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه. قتل يوم اليمامة شهيداً آخذ اللواء بيمينه فقطعت ثم تناولها بشماله فقطعت ثم اعتنق اللواء، وجعل يقرأ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] إلى أن قتل رضي الله عنه.

ومما قال الشاعر في الازورار وقلة القرار، ولم يقل أحد أحسن منه:

إذا ما فررنا كان أسوأ فرارنا صدود خدود وازورار المناكب
صدود خدود والقنا متشاجر ولا تبرح الأقدام عند التضارب

وأحسن منه ما قال الآخر:

نعرض للسيوف إذا التقينا خدوداً لا تعرض للطام

ولي أنا من هذا النوع في القصيد المطول الذي لي في الجهاد وأوّله:

ألا يا حبذا خفق البنود

وفيه:

بكل مدبج بطل كمي جري القلسب ذي بأس شديد
صدوق في اللقاء مجرب لا يصدّ بخده أدنى صدود

وتقدّم ذكر مؤتة وهي قرية من أرض البلقاء من أرض الشام. ويقال بالهمز، وأما الموتة بغير همز: فضرب من الجنون.

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في صلاته: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه. وفسره راوي الحديث فقال: نفثه الشعر ونفخه الكبر، وهمزه الموتة.

وتقدّم: وار، ورير، وفسر أنه المخ الخفيف الذي ليس فيه خير. ويقال: هو مخ الدماغ. ومن كان مخه كذلك لم يحفظ شيئاً، وكانت العرب تتكرم عن أكل الدماغ وتراه نهماً. وأنشد شاهداً على ذلك:

لا يأكل الكلب السروق نعالنا ولا نبتغي المخ الذي في الجماجم

وفي قضاعة قبيلة يقال لها بلى لا تأكل الألية لقربها من الجواعر ولأنها طبق الاست. ويسمى المخ أيضاً نقياً، وأنشد أبو عبيد:

لا يشتكين عملاً ما اتقين ما دام مخ في سلامي أو عين

وفي الحديث: والعجفاء التي لا تنقى. وفيه: إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حقها من الكلأ، وإذا سافرتم بالجدب فاستنجوا عليها بنقيها. يعني الإبل. وجمع مخ: مخخة. يقال: أمخ العظم، صار ذا مخ، ومخخته: إذا أخرجت مخه. وعظم ممخخ وكذلك مخيخ. كما يقال مكان مجدب وجديب. وأمخت الشاة: إذا أكثرت سمناً. ويسمى المخ أيضاً الدماغ. ومنه قول أعرابي قيل له: كيف تأكل الرأس؟ قال: أفك لحييه وأبخص عينيه، وأعفص أذنيه، وأسحر خديه وبعد هذا ـ في رواية ـ وأرمي بالدماغ إلى من هو أحوج مني إليه. وتقدّم في البيت:

لا يأكل الكلب السروق نعالنا ولا نبتغي المخ الذي في الجماجم

يمدح قومه يقول: نعالنا مدبوغة بالقرظ ليس فيها دسم وإن أصابها الندى لم يظهر لها ريح فيسرقها الكلب بخلاف غيرنا. ومثله قول عنترة:

يحذى نعال السبت ليس بتوأم

يصفه بالشرف وأن نعاله مدبوغة بالقرظ وليس بغير دماغ فيلبس الجلد الفطير، وكل جلد لم يدبغ بقرظ فليس بسبت.

وفي الحديث من هذا أنه صلى الله عليه وسلم كان يلبس النعال التي ليس فيها شعر، ويتوضأ فيها وهي السبتية التي كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يلبسها، وسأله عنها ابن جريج فقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها. وذكر الحديث.

وقد تقدم ذكر الجلود وأسمائها. وقول عنترة: (ليس بتوأم) يمدحه بذلك لتمام خلقه، وأنه لم يضعف لكون آخر معه في بطن أمه. ومنه قول الشعبي: لولا أني زوحمت في الرحم ما قامت لأحد معي قائمة. ذكره ثابت في الدلائل. وقال: يقال إن أم خارجة كانت توأمته. يقال: هذه توأمة فلان، والجمع: توائم، وهذا توأم هذا، وهما توأمان، والجمع: توام على وزن فعال. وفي الحديث: لا يتوارث توام الزانية إلا بالأم. وذكر ثابت رحمه الله أيضاً: أن عاتكة بنت عبد المطلب كانت توأمة عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كذا قال في هذا الموضع توأمة، وقال يقال هذا توأم فلان، وهم توام، وهن توائم. وأنشد:

قالت لنا ودمعها توام كالدر إذ أرسله النظام

على الذين ارتحلوا سلام

ورأيت في موضع آخر رجزاً يشبهه وهو:

لهـــا مـــزاح ولهـــا كـــلام بجـوهـــر ألفـــه الـــنظـام
فـــيه لآلـــي كلهـــا تـــوام يـــسكرنا كأنـــه مـــدام
لهـــا بقلـــب المـصطلي ضـــرام فهـــو حـــلال غيـــر حـــرام
يـــشـفي ســـقاماً وهـــو الـــسـقام

والتومة في غير هذا دون همز بيضة النعامة. والتومة أيضاً القرط فيه حبة، والتومة أيضاً: اللؤلؤة. والتؤمة بالهمز: حبة تعمل من فضة كالدرة. وفي الحديث من قول النبي صلى الله عليه وسلم للمرأة: أتعجز إحداكن أن تتخذ تؤمتين. كذا ذكرها ابن قتيبة بالهمز، وكذا قرأتها على العثماني. وفي طرة الكتاب التومة غير مهموز وجمعها توام. وفي أسماء الرجال الحديث صالح مولى التومة. ومقلوب تومة تموت. ولي في ذلك:

صـــاح كـــسبت تـــومة مـــصوغة مـــن ذهـــب
ولـــو دريـــت عكـــسها لكـــسبها لـــم تـــذهب

ولي أيضاً من هذا النوع من المعكوس وهو لزومي:

انـــف عـــن نفـــسك إن كـــنت مطـيقاً عكـــس أنـــف
لـــست تقـــوى فاحـــتمله مكـــرهاً راغـــم أنـــف

وما زلت مولعاً بهذا المعكوس حتى عكست لفظة معكوس فوجدت فيها سوك عم فقلت في ذاك ونفسي قد عنيت لا إياك:

تـــشاغلت بمعكـــوس حـــروف ضـــمها شـــعر
وفـــي معكـــوس معكـــوس كـــلام شـــرحه شـــر
فاذكرنـــي بحـــال قـــا ل ســـوء ك عـــم يـــا عمـــرو
وذا قـــال ومـــوعظة ويكفـــي مـــن لـــه حـــزر

وسترى ما لي من هذا النوع في كراسة البديع من التكميل إن شاء الله تعالى.

ومن نوع تومة: تنومة، واحدة التنوم، وهو شجر له حب أسود ستراه في باب الباء إن شاء الله تعالى.

والتيمة مما يقرب من التومة لأن الياء أخت الواو فلتذكر معها، هي الشاة التي يخليها الرجل في منزله وليست بسائمة. وفي الحديث: التيمة لأهلها. تقول من ذلك: أتام الرجل يتام إتياماً إذا ذبح تيمته وهو افتعل منها. قال الحطيئة:

فمـــا تـــتام جـــارة آل لأي ولكـــن تـــضمنون لهـــا قـــراها

والتيماء: الفلاة. وتيماء اسم موضع. قال امرؤ القيس.

وتـــيماء لـــم يتــرك بهـــا فـــرع نخلـــة

والتتيم في اللغة التذلل والتعبد، من قولهم: تيمه الحب فهو متيم، أي: عبده وذلله. ويقال أيضاً: تامته فلانة. قال لقيط:

تامت فؤادك لم يحزنك ما صنعت إحـدى نـساء بني ذهـل بـن شـيبانا

ومن معنى: تيمه، أي: عبده، سمي الرجل: تيم الله، أي: عبد الله. ولذلك سموا في الجاهلية تيم اللات، أي: عبدها. وهو كثير في الأنصار وفي قريش، ومنهم رهط أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وإذ وقع ذكر المخ، فدونك فيه حكاية أيها الأخ:

فديـــتك يـــا بنـــيّ اسـمع حديـثاً أفـــيدكه أيـــا أملـــي وســـولي

تـــريد تـــراه ســـمّ الله واذكـــره واشـــكره وصـــل علـــى الرســـول

لطيفة: كنت أقرأ على الحافظ بالإسكندرية رحمه الله وحرسها جزءاً من تأليفه، فمررت فيه بحديث يرويه عن أشياخه عن الشافعي رضي الله عنهم قال: الفول يزيد في الدماغ، والدماغ يزيد في العقل. وأهل تلك البلاد ينقطون الفاء بواحدة من فوق وينقطون القاف باثنين من فوق أيضاً. فلم ألق بالي وحسبت الفاء قافاً فقرأت: (القول يزيد في الدماغ). فضحك وكان حلواً ظريفاً رحمه الله، وقال لي: القول يفرغ الدماغ، أو نحو هذه الكلمة، فقلت له: القول عندي في الكتاب، فقال: إنما هو الفول. فأعلمني بمذهبهم في النقط. فقلت له: كيف يزيد الفول في العقل ونحن نقول في بلادنا بخلاف ذلك؟ فضحك وقال: سألت عن هذه المسألة شيخي فلاناً أنسيت أنا اسمه قال: فقلت له: كيف هذا وطبرستان أكثر بلاد الله فولاً وأهلها أخف الناس عقولاً؟. فقال لي: لولا الفول لطاروا.

قلت: ويقوي قول الشافعي رضي الله عنه ما ذكر لي بعض الأطباء وهو من حكمة الله تعالى أن الصبي يولد ليس له مخ، وإن كان فخفيف مياع، ولذلك لا يقدر على القعود فضلاً عن القيام، فبمقدار ما يشتد من دماغه يقوى، حتى يقدر على القعود ولا يقدر على القيام، ثم لا يزال يشتدّ دماغه حتى يكمل. فحينئذ يقف ثم يأخذ في المشي والحركة ثم الجري. وشبهه بمنزلة المركب في الماء لا يستقيم استقراره في الماء حتى يتم وسقه. فقلت له: هذا بخلاف الرأس هذا أسفل وذاك فوق. فقال: وحكمة الله في الأشياء ليست تجري على قياس واحد. ألا ترى الأنثيين هما في أسفل الإنسان وبهما تمسك اللحية في الوجه وهو أعلى. وإلا فانظر إلى الخصي كيف هو دون لحية لما لم تكن له أنثيان، وحدثني أنه كان يعرف رجلاً كثيف اللحية وكان أيداً شديداً فحمل ذات يوم مع أصحابه حجر رحا فلشدته أمسك لهم المغزل وهو اسم

العود الطويل الذي يجعل في عين الرحا وبه تحكم وتملك، فزهق الحجر والتف العود في سراويله فانضغطت الأنثيان فندرتا ثم عولج حتى استراح وسقطت لحيته من وجهه. فقال لقد رأيته بعد ذلك أمرد ليس في وجهه شيء من شعر لحيته. فسبحان الحكيم العليم الذي دبر الأشياء بحكمته وجعل بعضها مرتبطاً ببعض. ويخلق ما لا تعلمون.

وكذلك يذكر أن شؤون الرأس إنما تشتد وتتلاحم وتصلب إذا اكتمل الرجل، وما دام صغير فإنها مفرقة. ومنه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سأل ابن عباس عن شيء فأجابه، فالتفت إلى المهاجرين فقال: أعييتموني أن تأتوا بمثل ما جاء به هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه. وواحد الشؤون: شأن، وهي السلاسل التي تجمع بين القبائل والفراش، يقال: هي أربع قبائل للرجل، وثلاث للمرأة، ومن الشؤون يخرج الدمع. ومنه يقال: استمدت شؤونه. وفي الحديث في شأن: والغسل من الجنابة لم تصب على رأسها فتدلك حتى تبلغ شؤون رأسها. والشؤون أيضاً الخطوب واحدها شأن. والشأن الأمر والحال، وفي القرآن العزيز: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩] جاء في التفسير يميت ويحيي ما يولد ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويشفي مريضاً ويفك عانياً وشأنه كثير لا يحصى لا إله إلا هو. وسيأتي بقية الكلام على هذه اللفظة في حرف الشين إن شاء الله تعالى.

وتقدّم آزر. جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يلقى إبراهيم أباه فيقول: يا رب إنك قد وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟. فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار. خرجه البخاري. وجاء في حديث آخر أنه يحمل أباه ليجوز به الصراط فينظر فإذا هو عيلام أمدر. والأمدر: المنتفخ الجوف، ويروى أمجر وهو مثله. والعيلام: ذكر الضبعان. وكذلك الذيخ وعثيل، ويجمع الذيخ ذيخة. ويقال: ذيخت الرجل تذييخاً: ذللته.

قال بعض العلماء: إنما مسخ الله تعالى آزر ذيخاً لأنه أحمق الدواب، وكذلك كان آزر أحمق الناس، لأنه باع آخرته بدنيا غيره، وهو نمرود، ولو باع آخرته بدنيا نفسه لكان أقل حمقاً والله أعلم بما أراد.

وقد بلغ من حمق الضبع أن الصائد يخدعها بالكلام. يقول لها: أبشري أم عامر بجراد عضال، وكذا وكذا، حتى تستأنس، ويضع الحبل في عنقها. وربّما قال: هذه ليست أم عامر، يخدعها بذلك أيضاً فتسكن، وربّما ضرب بيده عند باب الجحر

فتحسبه شيئاً تصيده فتخرج لتأخذه فتصاد.

وهي دابة على قدر الكبش أو أصغر. وجاء منها في الحديث عن أبي عمارة قال: قلت لجابر: الضبع أصيد هي؟ قال: نعم. قال قلت: آكلها؟. قال: نعم. قال قلت: أقاله رسول الله صلى الله عليه؟ قال: نعم. وفي حديث آخر عن خزيمة بن جزء قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل الضبع. فقال: أوَيأكل الضبع أحد؟ وسألته عن أكل الذئب فقال: أوَيأكل الذئب أحد فيه خير؟ خرج الحديثين الترمذي وصحح الأول وضعف الثاني.

وذكر أبو عبيدة في حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ وسئل عن الضبع؛ فقال: الفرعل تلك نعجة من الغنم. وفسر الحديث. وقال في آخره فقال: إنها حلال بمنزلة الغنم تؤكل.

وتقدّم: أم عامر وهي كنيتها، وتكنى أيضاً: أم عمرو، وأم الهتبر، وأم خنور، وتسمى حضاجر، وجعار، وقثام، وجيأل وجمعها جيائل، وعيثوم، وقد تقدم عيلام وذيخ وعثيل. ويقال لأولادها إذا كان بعضها من بعض: فراعل واحدها فرعل. ولأولادها من الذئاب ـ لأنها تغشاها فتحمل منها ـ: عسابر، واحدها عسبارة. ويقال له أيضاً: سمع وهو أخبث الذئاب وأسمعها، ولذلك ضرب به المثل فيقال: أسمع من سمع أزل، والأزل: القليل لحم العجز. يقال لعام المجاعة: سنة وضبع.

ومن ذلك قول بنت خفاف بن ايماء الغفاري لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذكرت أولادها الصغار وخشيت أن تأكلهم الضبع. وإن أردت الخبر باجتماعه فتأهب لاستماعه: خرج البخاري رحمه الله عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق، فلحقت عمراً امرأة شابة. فقالت: يا أمير المؤمنين هلك زوجي وترك صبية صغاراً، والله ما ينضجون كراعاً، وما لهم زرع ولا ضرع، وخشيت أن تأكلهم الضبع، وأنا بنت خفاف بن إيماء الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم، فوقف معها عمر ولم يمض وقال: مرحباً بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهر كان مربوطاً في الدار، فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاماً، وحمل بينهما نفقة وثياباً، ثم ناولها بخطامه ثم قال: اقتاديه فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير. فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها. فقال عمر: ثكلتك أمك. إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصناً زماناً فافتتحاه ثم أصبحنا نستقي بسهامهما فيه. انتهى حديث البخاري.

وإن أردت أن أزيدك فأفيدك فاستمع تنتفع. سئل شريح رحمه الله عن الرجل

يطلق المرأة فلم يرتجعها حتى تنقضي عدتها. فقال: ليس له إلا فسوة الضبع. خرجه البخاري رحمه الله. وفسره أنه لم يبق له عليها حق، وضرب المثل بشيء لا خير فيه. كما يقال: لا شيء له إلا الريح، ولا شيء له إلا التراب، ونحو هذا من الكلام. قال: وفيه وجه آخر عن ابن الأعرابي قال: فسوة الضبع شجرة تحمل كالخشخاش لا يتحصل منه شيء.

وتقدّم ذكر زير، في البيت الذي أنشده الأحمر، فإني غير زير، وهذه اللفظة من الكلمات التي اجتمع فيها الحرفان الزاي مع الراء، وهي التي نبذتها بالعراء وتركتها من وراء، وقد ساقني إلى تفسيرها قدر الرحمن، وعسى ذلك لخير منَّ به المنّان. أفسر بعدها ما وعدتك به من تفسير ما تقدّم من ألفاظ القرآن كالرجز والرجز والوزر والرجز فهو أولى بالتفسير من الزير، وإن كان كل ذلك لا يستغنى عنه، ولا بد للطالب منه.

أما الزير: فهو الرجل الذي يحب مجالسة النساء ومحادثتهن. يقال: هو حدث نساء، وزير نساء، أي: يزورهن ويتحدث إليهن. وهذا وصف ذم، والموصوف بذلك أخوهم، وكذلك يقال: هو خلب نساء وطلب نساء وخطب نساء، وجمعه أخطاب، وكذلك أزوار وأخلاب وأطلاب. وقال أبو حنيفة رحمه الله الزير: الكتان، والأبق: القنب. وأنشد:

وبكـــرة ومحـــوراً صـــراراً ومـــسداً مـــن أبـــق مغـــارا

والزير أيضاً: آلة من آلات اللهو كالعود وغيره. وأنشد الحافظ بالإسكندرية لبعضهم فقال:

صـــوت الـــزنام ورنـــة الزيـــر قـــد أوقعانـــي فـــي ألـــف دردور

في أبيات. ولي من قطعة لزومية أخاطب شخصين:

ألـم تـصيخا إلـى زور يقـال علـى زيـر يـدار وزيـر مـن ذرى زور

وقبله أقول:

أراد ذو الغمـر تنقيـصي فقلـت وهـل في قـوة الغمـر نـزف الغمـر بالغمـر

وتقدّم ذكر الأرز: ورأيت فيه حكاية إن صحت فهي آية. كان الحسن بن سويد يؤاكل المأمون فقدمت أرزة فقال الحسن: الأرز يزيد في العمر. فسئل عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين إن طب الهند صحيح، وهم يقولون: إن الأرز يري منامات حسنة، ومن رأى مناماً حسناً كان في نهارين. فاستحسن المأمون ذلك ووصله.

والذي جاء في الحديث الصحيح: إن صلة الرحم تزيد في العمر. وللعلماء فيه قولان: أحدهما: إن الله كتب عمر ابن آدم عشرين سنة مثلاً، إن قطع رحمه، وإن

وصلها بلغه أربعين سنة أيضاً، وقد قدر أنه يصل رحمه أيضاً، ولا بد فينتهي إلى ما قدر عليه. ومثله في القطيعة.

والقول الآخر: ينظر إلى حديث الأرز من وجه، وذلك أنه قيل في معناه: إنه يعيش في إحسان طيب العيش قرير العين موفقاً للأعمال الصالحة في الأوقات الفاضلة التي تزكو بها الأعمال، فيكون عمره وإن كان عشرين سنة مثلاً، خيراً من أربعين، بضد ما تقدّم، والله أعلم.

ذكر تفسير ألفاظ القرآن الذي هو الحق. أولها: الرزق؛ رزقنا الله السداد في القول والعمل حتى ننال بذلك الأمل. اعلم أن الرزق قد يكون غير القوت من سائر الأشياء. ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] فهذا عام معناه الخصوص لأن كثيراً من الدواب هلك قبل أن يرزق. قال صاحب التحصيل: كل دابة لم ترزق رزقاً تعيش به فقد رزقت روحاً. ويقال: فلان رزق علماً، وفلان رزق صبراً وعملاً صالحاً وزوجاً وولداً. كما يقال رزق مالاً، وكذلك في المطعوم والمشروب. وليس كل ما رزق الإنسان يأكله، ألا تسمع إلى قوله عليه الصلاة والسلام: ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فإنما هو مال الوارث. أو كما قال عليه الصلاة والسلام. وجاء في حديث آخر: ما فوق الخبز وجرة الماء وظل الحائط أو ظل شجرة فضل يحاسب به ابن آدم يوم القيامة. وفي حديث آخر: وثوب يواري عورة ابن آدم. فأما كل شيء فضل عن ذلك ليس لابن آدم فيه حق. وقال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [المنافقون: ٧]. قال بعض العلماء: خزائن السماوات معلومة كالشمس والقمر والمطر والرياح، وخزائن الأرض النبات والمعادن وغير ذلك. ومن خزائن الأرض أيضاً بنو آدم بعضهم خزانة لبعض. يجمع الإنسان لزوجه وزوج ابنته وزوج ولده وللوارث كما تقدم، وهو المسكين المطلوب به غداً. ولي في هذا المعنى قطعة مطولة منها:

فيأكله من لم تسنله مشقة ... عليه وهذا وحده فيه يطلب
ويسأل عنه مرة بعد مرة ... وربّتما بعد السؤال يعذب

انظرها في التكميل. وأما رزق الغذاء فلا بد منه، لا يأكل أحد رزق أحد أبداً. قال علي رضي الله عنه: الرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك، فأما الرزق الذي يطلبك فرزق الغذاء، وأما الذي تطلبه أنت فما تكون فيه خازناً لغيرك، والله يرزق العبد الحرام كما يرزقه الحلال. لا رازق إلا الله كما لا إله إلا الله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من مؤمن ولا فاجر إلا كتب الله له رزقه من الحلال فإذا صبر أتاه، وإن جزع فتناول شيئاً من الحرام نقصه الله من رزقه الحلال.

وقال بعض العلماء: لا بد لكل حي من رزق حتى لو دعا العبد فقال: اللهم لا ترزقني. لقال الله تعالى له: يا جاهل إني خلقتك ولا بد لك من رزق وأنت في سؤالك هذا عاص. نسأل الله تعالى أن يرزقنا حلالاً طيباً ويستعملنا صالحاً.

وقد قيل في الرزق الطيب: إنه الحلال. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ﴾ [الأعراف: ٣٢] ما حرموا من أنعامهم، وقيل الحلال كما تقدم. وقيل اللذيذ من الأطعمة بعد أن يكون حلالاً. وقال بعض العلماء: لو هرب الإنسان من رزقه لطلبه حتى يصل إليه كما لو هرب من الموت لأدركه، وكما لا يقدر الإنسان أن يزيد في عمره ساعة ولا نفساً ولا طرفة عين، فكذلك لا يقدر أن يزيد في رزقه ذرة. نعم ولو اجتمع الخلائق كلهم على ذلك لعجزوا عنه. وقال عليه الصلاة والسلام لرجلين من أصحابه وهما حبة بن خالد وسواء بن خالد: لا تيأسا من الرزق ما تهززت رؤوسكما، فإن الولد تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ثم يرزقه الله عز وجل. خرجه ثابت رحمه الله، وقال: القشرة اسم الثوب. وكل ملبوس قشر، والقشار: جلد الحية التي تزيله عنها. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: اختلف الناس في كل شيء إلا الأجل والرزق وأجمعوا أن لا رازق إلا الله ولا مميت إلا الله. وقال: إن الله تعالى لما خلق الأرزاق أمر الرياح أن تفرقها في أقطار الأرض ففرقتها، فمن الناس من وقع رزقه في مائة ألف موضع، ومنهم من وقع رزقه في عشرة آلاف، ومنهم من وقع رزقه في كذا وينقص من العدد، حتى قال: ومنهم من وقع رزقه على باب منزله يغدو ويروح إليه. فكل عبد يسعى بأثره الذي كتب له حتى يستوفي رزقه الذي قسم له، فإذا فني أثره واستوفى رزقه جاء ملك الموت وقبض روحه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم للزبير بن العوام رضي الله عنه: إن مفاتيح الرزق مبسوطة بباب العرش بقدر نفقاتهم، فمن كثر كثر له، ومن قتر قتر له، واعلم أن العبد لا ينقطع رزقه أبداً منذ ظهرت خلقته، كان في بطن أمه غذاؤه كل ما يفيض من دم الحيض مما تفيض به الأرحام، يعيش بذلك جسمه من ظاهره ومعاه المستطيل من سرته متصل بمعا أمه، يصل من بطنها مخ الطعام إلى بطنه فيعيش بذلك باطنه، فإذا أذن الله لخروجه بعث إليه الملك فقطع ذلك المعا من موضع اتصاله بمعا أمه، فإذا دخل في الدنيا جعل رزقه من الدنيا، فإذا خرج من الدنيا فآخر رزقه من الدنيا أول رزقه في الآخرة، فإذا دخل في الآخرة كان رزقه في البرزخ، كما كان في الدنيا بتلك المعاني

كمعانيه المحتملة، لذلك فإذا خرج من البرزخ ودخل في القيامة كان رزقه في الموقف على قدر حاله هناك، فإذا خرج من القيامة ودخل إحدى الدارين انتقل رزقه إليها، فكان منها إلى الأبد. فهذه حدوه رزقه الأربعة. وكذلك عمره وأثره ومكانه من المواضع.

والمرء لما لبث في الوجود لم يرد إلى العدم، ولكن ينقل من مكان إلى مكان، ويمد بمعا من معان، كما نقل في فطرة الأربع من تراب، إلى نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، وهي أطباقه التي يركبها من قوله تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق: ١٩]، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤] و﴿ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [المائدة: ١١٤]، والأشياء كلها على ضربين مسخر لك ومسلط عليك، فما سخر لك سلطت عليه، وهذا موضع الشكر لأنها نعمة، وما سلط عليك فقد سخرت له، وهذا موضع الصبر لأنه بلاء. نعوذ بالله من البلاء وسوء القضاء.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ [العنكبوت: ٦٠] أي لا تخبأ وقيل لا ترفع شيئاً لغد. وقال ابن عيينة: ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة. وزاد غيره النحلة. وقال صاحب التحصيل في قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ [الذاريات: ٢٢] أي عند الله في السماء. وقيل المعنى: في السماء تقدير رزقكم. وكذلك: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢]. قال ابن عباس رضي الله عنه: تجعلون شرككم التكذيب. وعنه أيضاً يعني به الاستسقاء بالأنواء. وقال أبو حامد رحمه الله ـ وذكر الرزق وتدبيره ـ: إنه البلية الكبرى لعامة الخلق أتعبت نفوسهم وشغلت قلوبهم وأكثرت همومهم وضيعت أعمارهم وأعظمت مشقتهم وأوزارهم، وعدلت بهم عن خدمة الله تعالى إلى خدمة الدنيا وخدمة المخلوقين، فعاشوا في الدنيا في غفلة وظلمة وتعب ونصب ومهانة وذل، وقدموا الآخرة مفاليس بين أيديهم الحساب والعذاب، إن لم يرحم الله تعالى بفضله. وانظر كم آية أنزل الله تعالى في ذلك، وكم ذكر من وعده وضمانه وقسمه على ذلك.

ولم تزل الأنبياء والعلماء يعظون الناس ويصنفون لهم الكتب ويضربون لهم الأمثال ويخوّفونهم بالله تعالى، ومع ذلك لا يهتدون ولا يتقون ولا يطمئنون، بل هم في غمرة من ذلك يخافون أن يفوتهم غذاء أو عشاء، وأصل ذلك كله قلة التدبر لآيات الله سبحانه، وقلة التفكر في صنائع الله، وترك التذكر لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترك التأمل لأقوال الصالحين.

كما ذكر عن بعض الصالحين أنه قال: ما قدر لماضغيك أن يمضغاه فلا يمضغه

غيرك. فكل ويحك رزقك بالعز ولا تأكله بالذل.

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: مكتوب على ظهر الحب والنوى رزق فلان ابن فلان، والله تعالى قد ضمن لك رزقك في كتابه وتكفل به وأقسم عليه، وأنت لا تطمئن بوعده ولا تسكن إلى قوله وضمانه، ولا تنظر إلى قسمه، بل يضطرب قلبك ويهتم.

فيا لها من فضيحة لو رأيت وبالها، ويا لها من مصيبة لو علمت مآلها. وما تقول لو وعدك ملك من ملوك الدنيا أنه يضيفك الليلة ويعشيك، وأنت حسن الظن فيه أنه صادق لا يكذب، ولا يخلف الوعد، بل لو وعدك بذلك سوقي أو يهودي أو نصراني أو مجوسي مستور عندك بظاهره عفيف في معاملته، ألست تثق بوعده وتطمئن لقوله ولا تهتم لعشائك تلك الليلة اتكالاً عليه. فما لك قد وعدك الله وضمن لك رزقك وتكفل به وأقسم عليه في غير موضع، وأنت لا تطمئن لوعده ولا تسكن إلى قوله، إذ يقول تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ [الروم: ٤٠] وهذا يدل على أن الرزق من الله لا غير كالخلق. ثم لم يكتف بالأدلة حتى وعد فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ [الذاريات: ٥٨] ثم لم يكتف بالوعد حتى ضمن فقال: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] ثم لم يكتف بالضمان حتى أقسم فقال: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣] ثم لم يكتف بذلك كله حتى أمرنا بالتوكل عليه وأبلغ وأنذر، فقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨] ولما نزل قوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الذاريات: ٢٣] قالت الملائكة: هلكت بنو آدم أغضبوا الرب حتى أقسم لهم على أرزاقهم.

وعن الحسن رضي الله عنه: لعن الله أقواماً أقسم لهم ربهم فلم يصدقوه. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أتطلب رزق الله من عند غيره ... وتصبح من خوف العواقب آمنا
وترضى بصراف وإن كان مشركاً ... ضميناً ولا ترضى بربك ضامنا

وقال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده.

ويروى عن إبراهيم الخواص رضي الله عنه قال: لقيت غلاماً في التيه كأنه سبيكة

فضة فقلت: إلى أين يا غلام؟ فقال: إلى مكة. فقلت: بلا زاد ولا راحلة؟ فقال: يا ضعيف اليقين الذي يقدر على حفظ السماوات والأرض يقدر أن يوصلني إلى مكة بغير زاد ولا راحلة. فلما دخلت مكة وإذا هو في الطواف يقول:

يـــا نفـــس ســـيحي أبـــدا ولا تُجيبـــي أحـــــدا
إلا الجليـــــل الـــــصمدا يـــا نفـــس موتـــي كمـــدا

فلما رآني قال: يا شيخ أنت مصر بعد على ذلك الضعف.

وقال أبو مطيع لحاتم الأصم: بلغني أنك تقطع المفاوز بالتوكل من غير زاد. قال حاتم: بأربعة أشياء، قال: ما هي؟ قال: أرى الدنيا والآخرة مملكة الله تعالى، وأرى الخلق كلهم عبيد الله وعياله، وأرى الأرزاق والأسباب كلها بيد الله، وأرى قضاء الله نافذاً في جميع أرض الله.

وعن بعض الحكماء أنه كان في بعض البوادي، فوسوس إليه الشيطان أنه متجرد وهذه بادية لا عمران فيها ولا ناس، فعزم على نفسه أن يمشي على تجرده وأن يترك الطريق حتى لا يقع بأحد من الناس، ولا يأكل شيئاً حتى يجعل في فيه السمن والعسل. ثم عدل عن الشارع ومر على وجهه. قال رحمه الله: فصبرت ما شاء الله فإذا بقافلة قد أضلت الطريق وهم يسيرون فلما أبصرتهم رميت بنفسي إلى الأرض لعلهم لا يبصرونني، فسيرهم الله حتى وقفوا عليّ فغمضت عيني فدنوا مني وقالوا: هذا منقطع به غشي عليه من الجوع والعطش، فهاتوا سمناً وعسلاً نجعله في فيه لعله يفيق. فأتوا بسمن وعسل فسددت فمي ولساني فأتوا بسكين فعالجوا فمي حتى فتحوه فضحكت ففتحت فمي. فلما رأوا ذلك قالوا: مجنون أنت؟ قلت: لا والحمد لله، وأخبرتهم ببعض ما جرى لي مع الشيطان.

قال أبو حامد رحمه الله: فإن قلت هل تدخل البادية بلا زاد والله تعالى يقول: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يحمل الزاد، وكذلك الصحابة والسلف الصالح رضي الله عنهم. فالجواب أن الآية فيها قولان: أحدهما أنه زاد الآخرة، ولذلك قال: ﴿خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ ولم يقل حطامها ولا أسبابها.

والثاني أنه كان قوم لا يأخذون زاداً في طريق الحج اتكالاً على الناس فيسألون ويلحون، وأما النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم، فيقال: إن ذلك مباح غير حرام، إنما الحرام تعليق القلب بالزاد وترك التوكل على الله سبحانه وتعالى، ثم ما ظنك برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الله له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ

ﭐلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] أعصاه في ذلك وعلّق قلبه بطعام أوشراب أو دراهم أو دنانير؟ كلا. وحاشا أن يكون ذلك بل كان قلبه مع الله تعالى وتوكله عليه. وإنما أخذ الزاد هو وأصحابه لبيان الجواز لا لميل قلوبهم عن الله تعالى إلى الزاد، والله أعلم.

وقال عليّ رضي الله عنه: إن هذا الرزق ينزل من السماء كقطر المطر إلى كل نفس ما كتب الله لها. انتهى.

فصل:

واذ تقدّم ذكر النملة فاسمع فيها نكتة تساوي رحلة: تقدّم أنها تجمع وترفع كما جاء في حديث سليمان عليه الصلاة والسلام أنه كان يفهم منطق الطير كما تقدم، ويفهم قول الحكل، والحكل: ما لا يسمع له صوت. يقال: فلان في لسانه حكلة، أي عجمة لا يبين الكلام. وقال العماني يمدح رجلاً:

ويفهم قول الحُكل لو أن نَملة تساود أخرى لم يفته سوادها

السواد: السرار. وسيأتي القول فيه. وقال رؤبة:

لو كنت قد أوتيت علم الحُكل علم سليمان كلام النمل

وفي القرآن العزيز: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] أي: لا يعلمون بكم.

جاء في التفسير: كان بالشام نملة كالذئاب، وأفهم الله النملة هذا ليكون معجزة لسليمان عليه الصلاة والسلام. فكان يكلم النملة وتكلمه، فسأل مرة نملة: كم تأكلين في السنة؟ فقالت: ثلاث حبات. فأخذ نملة وجعلها في حق وجعل معها ثلاثة حبات، ثم نظر إليها بعد سنة فوجدها قد أكلت حبة ونصف حبة. فقال: كيف هذا؟ فقالت: لما سجنتني هنا، وأنت ابن آدم تنسى، خشيت أن تنساني فوفرت قوت عام آخر. أو كما قال الحديث هذا معناه.

وجاء في بعض الأخبار أن المطر أبطأ عن قوم من بني إسرائيل فقالوا: إن لم نمطر هلكنا. فلما علم الله ذلك من قلوبهم ورأى أنهم قد اتكلوا على المطر أوحى الله تعالى إلى نبيهم: إني قد أمرت السماء أن لا تمطرهم، وأمرت الأرض أن لا تنبت لهم شيئاً، وقد أوحيت إلى أضعف خلقي أن يقوتهم في هذه السنة، فأمرهم أن يتتبعوا قرى النمل فليمتاروا منها قوت سنتهم، فأخرجت النمل ما كان عندها، فجعل الرجل منهم يأتي فيكتال قوت سنته وينصرف به، فلما كان في العام المقبل قالوا نزرع ولا نبالي جاء المطر أو لم يجئ فإن الله سيرزقنا. فلما علم الله ذلك منهم أوحى إلى نبيهم: إني قد

أمرت السماء أن تمطرهم ضعفي ما كانت تمطرهم وأمرت الأرض أن تخرج لهم ضعفي ما كانت تخرج لهم. فجعل الرجل منهم يكتال من غلته ضعفي ما كان يكتال. فقالوا: أما إذ قد فعل الله ذلك بنا فنشكر ونرد إلى النمل ضعفي ما أخذنا منها، ففعلوا ووضعوا في قرى النمل، فخرجت النمل فأخذت ما أعطت وتركت سائره. وقال الأحوص وذكر أن النمل يأكل في الشتاء ما جمع في الصيف:

ولهـــا بالمـاطـــرون إذا   أكـل الـنمل الـذي جمعـا
حـــرفة حتـــى إذا ارتــبعت   ســكنت مـــن جلـــق بـيعا
فـــي قـــباب وســـط دســكرة   حـــولها الـــزيتون قـــد نـــبعا

قال المفسرون: الماطرون: موضع بناحية الشام. ويروى الناطرون بالنون. وأنشد للهذلي فقال:

طـــال ليلـــي وبـــت كالمجـــنون   واعترتنـــي الهمـــوم بالماطـــرون

وفسره الناطر، والناطور: حافظ الكرم. والجمع نواطير. أنشدني هذه الأبيات الخطيب أبو محمد رحمه الله وسألته عن الماطرون فقال: هو الذي يقول له الناس عصير الرب. ثم إنه كتب إلي رسالة جواباً عن سؤال سألته فيه عن رجل فقال: أما فلان فإنه ابتغى بجبل نطرون نفقة وقنع بالماطرون نفقة، وأظنه لن يفارق الكن والكانون أو ينسلخ كانون، في كلام طويل جميل انظره في التكميل. قال بعض أهل اللغة: الكانون والكانونة: الموقد. وقد يقال للثقيل من الرجال كانون. قال الحطيئة:

أغـــربالاً إذا اســـتودعت ســـرّاً   وكانـــوناً علـــى المتحدّثيـــنا

وكانون من أسماء الشهور الأعجمية وقد تقدم. ولابن سارة يصف ناراً في الكوانين فقال:

لابـنة الـزند فـي الكوانـين جمـر   كالـدراريّ فـي دجـى الظلمـاء
خبرونـــي عـــنها ولا تكذبونـــي   ألـــديها صـــناعة الكيمـــياء
ســـبكت فحمهـــا صـــفائح تبـــر   رصـــعتها بالفـــضة البيـــضاء
كلمـــا ولـــول النـــسيم علـــيها   رقـــصت فـــي غلالـــة حمـــراء
لـو تـرانا مـن حـولها قلـت سـرب   يـــتعاطون أكـــؤس الـــصهباء
ســـفرت فـــي غـــشائها فأرتـــنا   حاجـب الـشمس طالعـاً بالعـشاء

وفي بعض الآثار أن نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام خرج يستسقي فرأى نملة قائمة على رجليها وهي تدعو وتقول: اللهم إنا خلق من خلقك وليس بنا غنى عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا. فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

وجاء في الحديث من ذكر النمل: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أربعة من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد.

وفي الحديث أيضاً أن نبياً من الأنبياء قرصته نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة واحدة أهلكت أمة من الأمم تسبح. وفي بعض الروايات فهلا نملة واحدة. جاء في خبر أنه عزير، وأنه لما أحرق قرية النمل أوحى الله إليه: يا عزير بلغ من أذاهن إياك أن تحرق قرية النمل بالنار. وإنما عضتك منها نملة واحدة. فقال: يا رب إنما عضتني تلك النملة الواحدة بقوتهن. ثم علم عزير أن هذا مثل ضربه الله له. وذلك أمر كان قد تقدم له، والله أعلم.

تقدم أن النملة تجمع، وقد وصف جرير بن عبد الله البجلي الذرة بالجمع، فقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قدم عليه من قبل سعد بن أبي وقاص فسأله عمر: كيف تركت سعد في ولايته؟ فقال: تركته أكرم الناس مقدرة وأحسنهم معذرة، وهو لهم كالأم البرة، يجمع لهم كما تجمع الذرة، مع أنه ميمون الأثر مرزوق الظفر. وذكر حديثاً طويلاً. خرج حديثه هذا ابن عبد البر رحمه الله.

وذكر جريراً هذا وفضله، وأنه كان سيداً في قومه، وتأخر إسلامه. قال جرير رضي الله عنه: أسلمت قبل موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين يوماً، ومع ذلك فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه. قال جرير: ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ولا رآني قط إلا ضحك وتبسم. وفيه قال عليه الصلاة والسلام: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. ويروى أن ذلك قاله في صفوان بن أمية. وفي جرير قال الشاعر:

لـــولا جريـــر هلكـــت بجـــيله نعـــم الفتـــى وبئـــست القبـــيله

فقال عمر رضي الله عنه: ما مدح من هجي قومه. وكان عمر رضي الله عنه يقول: جرير يوسف هذه الأمة. يعني في حسنه، وهو الذي قال لعمر بن الخطاب حين وجد في مجلسه رائحة كريهة من بعض جلسائه فقال: عزمت على صاحب هذه الرائحة إلا قام فتوضأ. فقال جرير: علينا كلنا يا أمير المؤمنين فاعزم. قال: عليكم كلكم عزمت. ثم قال: يا جرير ما زلت سيداً في الجاهلية والإسلام.

وكان عمر رضي الله عنه جلداً قوياً في الدين لا تأخذه في الله لومة لائم. ثم روي أنه خرجت منه ريح وهو يخطب فقال: أيها الناس إني فسوت. وذكر كلاماً معناه: إني لا أداهن ولا أداري، أو نحو هذا. فصرح بعيب نفسه رضي الله عنه، ولم يبال بالناس. بخلاف الحجاج، اعتراه مثل ذلك، فقال في أثناء خطبته: أيها الناس ما أراكم

تحسنون الوضوء. يا غلام، ائتني بوضوء وطست حتى أريهم الوضوء، فجاء بالماء فتوضأ على المنبر يريهم. وزعم أنه يعلمهم وهو يتوضأ من حدثه.

فصل:

وتقدم ذكر الزرع، وجاء في القرآن في مواضع، معنى زرع: أنبت، وبه سمي الغلام زرعة، على طريق التفاؤل بأن ينبته الله، من قولهم للغلام: زرعك الله، أي: أنبتك الله. وزرعه الله: إذا بلغه شبابه، وتصغير زرعة: زريع. وقد سمي بذلك قوم، وسموا بزارع كما سموا بنابت. وقال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤] وعلى هذا جاء الحديث، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يقولن أحدكم زرعت، وليقل حرثت. خرجه البزار من طريق أبي هريرة رضي الله عنه. فهذا مطابق للقرآن، نسب الحرث إلينا الذي هو عملنا، وأضاف الخلق - الذي هو الزرع - إليه سبحانه.

وكان أبو عبد الرحمن الجيلي رضي الله عنه يستعمل هذا المعنى فكان يكره أن يقول زرعت في أرض كذا وكذا. وسأل الحجاج رجلاً فقال له: زرعت. فقال: حرثت، والله هو الزارع. هذا هو الأدب مع الله تعالى لأن الله هو الزارع. وقال تعالى: ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال أيضاً: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ ﴾ [الأنبياء: ٧٨]: هذا هو الأصل، ثم قد يسمى الحرث زرعاً والزرع حرثاً اتساعاً بعد أن قد علم أن الله هو الزارع المنبت الخالق وحده. ألا ترى قوله تعالى: ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ﴾ [آل عمران: ١١٧]. وهل أصيب إلا المزروع في الأرض المحترثة.

وخرج مسلم في فضل الزرع والغرس عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يغرس مسلم غرساً ولا يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة. وقال تعالى: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ [يوسف: ٤٧]، وقال سعيد ابن المسيب رضي الله عنه: إنما يزرع ثلاثة رجل له أرض فهو يزرعها، ورجل منح أرضاً، ورجل استكرى أرضاً بذهب أو فضة. وفي البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى ولكني أحب أن أزرع. قال: فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال. فيقول الله: دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء. فقال أعرابي: والله لا نجده إلا أنصارياً أو قرشياً فإنهم أصحاب زرع. فضحك

النبي صلى الله عليه وسلم.

وذكر علي بن عبد العزيز في المنتخب في الحض على الغرس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها. وقد تقدم قوله عليه الصلاة والسلام: احرثوا فإن الحرث مبارك، وأكثروا فيه من الجماجم. انظره في باب الجيم.

ومن الحض على الزرع أيضاً قول عروة بن الزبير رضي الله عنه: عليك بالزرع فإن العرب تتمثل فيه بيتاً:

تتبع خبايا الأرض وادع مليكها لعلك يوماً أن تُجاب فترزقا

ووقع في الشهاب: التمسوا الرزق في خبايا الأرض. وفسر بهذا المعنى، وقيل أيضاً يعني به ما تحت الأرض من المعادن، والله أعلم بما أراد من ذلك.

وفي الحديث: من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة. وجاء في حديث آخر: ويأتي وقت فييبس فيه بعضها فيقال إن صاحبها قد اغتاب، أو نحو ما هذا معناه. وجاء عن أبي سليمان الداراني رضي الله عنه: إن في الجنة قيعاناً فإذا أخذ الذاكر في الذكر أخذت الملائكة في غرس الأشجار، فربما يقف بعض الملائكة فيقال: لمَ وقفت؟ فيقول: فتر صاحبي. وكذلك جاء أن درج الجنة تبنى بالذكر، فإذا أمسك عن الذكر أمسكوا عن البناء. فيقولون: حتى تأتينا نفقة.

فائدة زائدة في حسن الأدب في الذكر :

لا ينبغي للعبد أن يقول الحمد لله حتى يكملها برب العالمين، كذلك أمر بعض أشياخنا رحمه الله. وكذلك لا يقول سبحان الله حتى يقول وبحمده. لأنه يروى أن العبد إذا قال سبحان الله قالت الملائكة وبحمده. وإذا قال سبحان الله وبحمده صلت عليه الملائكة.

وفي المنتخب: إن الله اختط حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرس غراسها بيده وقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال: طوبى لك منزل الملوك. وجاء في الحديث: لا يزال الله تعالى يغرس في الإسلام قوماً يعملون بطاعة الله. وفي رواية: يستعملهم في طاعته. رواه أبو عتبة الخولاني رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان أبو عتبة رضي الله عنه هذا يقول: لقد رأيتني وأنا قد أسبلت شعري في الجاهلية حتى أجزه لصنم لنا فأخره الله حتى جزته في الإسلام. وكان أبو عتبة المذكور قد صلى للقبلتين.

قلت: وكان أبي رحمه الله كثير الخير والبر من صلاة وصيام وصدقة وقراءة

وذكر، وسمعته مع ذلك يقول: أرجى عملي معي الغرس. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يغرس مسلم غرساً ولا يزرع زرعاً، الحديث المتقدم الذي آخره: إلا كانت له صدقة. قال رحمه الله: غرست بيدي أكثر من اثني عشر ألف نقلة بين: لوز، وتين، وعنب، وغير ذلك كلها قد أكل منها، نفعه الله بها.

وفي المنتخب: من يغرس غرساً كتب له من الأجر بقدر ما يخرج من ثمر ذلك الغرس. وسمعت بعض الأشياخ يقول: الزارعون هم المتوكلون يعمد أحدهم إلى مد طعام ربما ليس له غيره في عام مجاعة فيودعه بطن الأرض ثم يقعد متوكلاً على ربه أن يرزقه به أمداداً أو كلاماً هذا معناه.

فصل:

وأما زرقاً من قوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه: ١٠٢] فهي صفة منكرة مكروهة في الآخرة، وعلامة لأهل النار. عافانا الله. قيل في التفسير: يعني زرق الألوان إلا أنهم شعثون متغيرون. وقيل: عمياً، وقيل: زرق العيون من العطش. قال ابن عباس رضي الله عنهما: في يوم القيامة أحوال، ففي حال يقومون عمياً وفي حال يكونون زرقاً، وقيل: يقومون من قبورهم يبصرون ثم يعمون في الحشر. وقيل: لا يبصرون شيئاً إلا جهنم. وقال الحسن: عمياً عما يسرهم، وكذلك قال في قوله تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [الرحمن: ٤١] قال: سواد العيون وزرقة الأعين. وقال الفرزدق:

لقد خاب من أولاد آدم من مشى ... إلى النار مغلول القلادة أزرقا

هذا حديث الآخرة.

وأما الدنيا فلا فضل للأكحل على الأزرق، ولا للأزرق على الأكحل إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى أعمالكم وتقوى قلوبكم. أو كما جاء في الخبر، بل ربما قد تمدح الزرقاء. جاء في الحديث: تزوجوا الزرق فإن فيهن يمناً. ذكره شارح الشهاب البابي رحمه الله.

وقد يوصف الأزرق بحدة البصر وجودة النظر، ويكفي من ذلك زرقاء اليمامة المضروب بها المثل إلى يوم القيامة. ذكر أنها كانت تبصر على مسيرة ثلاثة أيام، واسمها اليمامة وبها سميت البلد، وذكر الجاحظ أنها كانت من بنات لقمان بن عاد، وأن اسمها عنز، وكانت زرقاء. وكانت الزباء زرقاء. وكانت البسوس زرقاء. وقال محمد بن حبيب: كانت الزرقاء امرأة من جديس، وكانت تبصر على مسيرة ثلاثة أيام

- كما تقدم - فأغار على قومها حسان فأعلمت بذلك قومها فلم يصدقوها، حتى استؤصلوا، وأخذت الزرقاء فشق عيناها، فإذا فيها عروق سود من الإثمد وكانت أول من اكتحل به من العرب.

وأما ﴿ رَمْزًا ﴾: فإن الرمز في اللغة: الإيماء بالشفتين، وقد يستعمل في الإيماء بالحاجبين واليدين وأصله الحركة. والذي قيل له: ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [آل عمران: ٤١] هو زكريا صلوات الله وسلامه عليه.

قال ابن سلام: عوتب بذلك لأنه سأل الله الآية بعد أن شافهته الملائكة بالبشرى بيحيى، وسبب ذلك أنه لما حررت امرأة عمران ما في بطنها لله، وكانوا يحررون الذكور، فكان المحرر إذا حرر يكون في المسجد، يقوم عليه ويكنسه ولا يبرح عنه، وكانت المرأة لا تستطيع أن تصنع ذلك لما يصيبها من الأذى ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ ويقرأ: (وضعتُ)، ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦] أي: الملعون أن يضلها وإياهم. قلت: أجاب الله دعاءها.

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦]، وقال الكلبي: لما وضعتها لفتها في خرقتها ثم أرسلت بها إلى بيت المقدس فوضعتها فيه، فتنافسها الأحبار بنو هارون، فقال لهم زكريا: أنا أحقكم بها عندي أختها فذروها لي. فقالت الأحبار: لو تركت لأفقر الناس إليها لتركت لأمها، ولكنا نقترع عليها فهي لمن خرج سهمه، فاقترعوا عليها بأقلامهم التي كانوا يكتبون بها الوحي، فقرعهم زكريا فضمها إليه، واسترضع لها، حتى إذا شبت بنى لها محراباً في المسجد، وجعل بابه في وسطه لا يرتقى إليه إلا بسلم ولا يأمن عليها غيره، فكان ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ [آل عمران: ٣٧] يجد فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، ﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران: ٣٧-٣٨] يعني تقية.

وكانت امرأة زكريا عاقراً قد دخلت في السن، وزكريا شيخ كبير، ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩] الآية، ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] الآية قال الحسن: أراد أن يعلم كيف وهب له ذلك وهو كبير وامرأته عاقر ليزداد علماً ثم سأل الآية: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] عوتب فأخذ بلسانه فجعل لا يفيض الكلام وإنما عوتب لأن الملائكة شافهته بيحيى مشافهة فسأل الآية كما تقدم. وجاء في سورة كهيعص: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] يعني صحيحاً لا يمنعك الكلام مرض.

وأما ركزاً: من قوله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨] فمعناه هل ترى منهم من أحد أو تسمع لهم صوتاً. والركز في اللغة: الصوت الخفي. وقيل: صوت وقع الأقدام.

وأما ﴿زُبُرًا﴾ [المؤمنون: ٥٣]: فجمع زبور، وهو: الكتب. يقال زبرت وكتبت بمعنى. وأصل الزبر: الزجر، وسمي الكتاب به لأن الزجر فيه، ويقال: زبر فلان فلاناً، إذا انتهره، وقد تقدّم في حديث ابن عمر: فزبره عبد الله وقال: أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول لا أدعهن، يعني النساء في خروجهن إلى المسجد. وجاء في الحديث: لا زبر له؛ بفتح الزاي وتسكين الباء؛ وفسره الراوي لا عقل له. والزبر؛ بفتح الباء: قطع الحديد واحدتها زبرة. وهي التي أعدها ذو القرنين لبناء سد يأجوج ومأجوج، ولم يبن بها زبراً بل صيرها لبناً، وحينئذ صح له بها البناء.

ذكر أبو عبيد البكري أن معاوية رضي الله عنه أرسل خمسة وعشرين رجلاً إلى سد يأجوج ومأجوج ينظرون كيف هو، وكتب إلى ملك الخزر أن يجاوز بهم إلى من خلفهم، وأهدى إليه هدايا، فوصلوا إليه ورجعوا بصفته.

وكذلك فعل الواثق بالله تعالى أيضاً، وجه إليه خمسين رجلاً، ومكثوا في الطريق صادرين وواردين ثمانية وعشرين شهراً، وكان المقدّم عليهم سلام الترجمان. ووصف أيضاً صفته، وما رأى في طريقه من العجائب، وحدّث أنه انتهى مع أصحابه إلى حصن يقرب من الجبل الذي هو آخر الصدفين، وبه قوم مسلمون يتكلمون بالعربية وبالفارسية، يقرؤون القرآن، ولهم مساجد، فسألونا: من أين أقبلنا؟ فأخبرناهم إنا رسل أمير المؤمنين، فجعلوا يتعجبون ويقولون: أمير المؤمنين!. ونقول: نعم. فيقولون: شيخ هو أوشاب؟. فقلنا: شاب. فعجبوا أيضاً.

وذكر أيضاً أنه رأى آلة البناء من قدور الحديد، ومغارف الحديد، وبقايا من لبن

الحديد، وقدر اللبنة منها ذراع ونصف في سمك شبر، وذكر أن لون السد كله محبر. كذا جاء في الحديث.

قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: إني رأيت السد. قال: كيف رأيته؟ قال: كأنه حبرة. قال: قد رأيته.

وذكر أبو عبيد المذكور أن بين الجبلين مائة فرسخ، وأن ذا القرنين حفر له أساساً حتى بلغ الماء، ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً، وجعل حشوه الصخور، ثم علا على وجه الأرض زبر الحديد والنحاس والصفر، وصار كأنه برد محبر كما تقدم.

وأما ﴿ زُمَرًا ﴾ [الزمر: ٧١]: فهي الجماعات في تفرقة واحد، واحدتها زمرة. وقيل: الذين لهم صوت كصوت المزمار. قاله المهدوي رحمه الله.

وأما ﴿ ٱلْجُرُزِ ﴾ [السجدة: ٢٧]: فهي الأرض اليابسة التي لا نبات فيها. قال عكرمة: هي الأرض الظمأى. وجمع جرز: أجراز. يقال: سنون أجراز وهي التي لا يكون فيها مطر ويكون فيها جدوبة ويبس وشدة. قال ذو الرمة يصف إبلاً:

طوى النحز والأجراز ما في بطونها ... فما بقيت إلا الضلوع الجراشع

والجراز: السيف الماضي في الضريبة. ذكره صاحب النوادر وأنشد:

قد يفل السيف وهو جراز ... ويصول الليث وهو عقير

وقال ابن عباس في الأرض الجرز: هي أرض باليمن. روي أنها أرض لا أنهار فيها وأنها بعيدة من البحر، وأنها يأتي لها كل عام واديان، فيزرعون ثلاث مرات في كل عام. والجرزة بسكون الراء: الحزمة تجرز من الأرض. ذكره ثابت في حديث ابن عباس رضي الله عنهم.

وذكر فرعون موسى قال: فحشر له كل ساحر متعالم، فجعلت العصا بدعوة موسى تلتبس بالحبال حتى صارت جرزاً إلى الثعبان، تدخل في فيه حتى ما أبقت عصا ولا حبلاً. فسره ثابت بالحزمة كما تقدم. قال: والجرز أيضاً مصدر: جرزت الأرض جرزاً فهي مجروزة، وقالوا: أرض جرز وأجراز؛ يجمعون على سعة الأرض. قاله ثابت أيضاً.

وأما برز: فمعناه ظهر، ومنه الأرض البراز أي: التي لا شيء يسترها، فهي ظاهرة، وهي التي كره الاغتسال فيها لقلة التستر. قال الشاعر:

إذا علتك الشمس في المفاز ... فأين تنحاز عن البراز

وقد يسمى قضاء الحاجة: البراز باسم المكان، كما سموه: الغائط باسم المكان المنخفض. وقالوا: فلان يتبرز؛ يريدون ذلك. وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه

قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبرز لحاجته، فآتيه بالماء فيغسل به. أخرجه مسلم. وخرج غيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد البراز أبعد.

وأما ﴿ وِزْرًا ﴾ [طه: ١٠٠]: فأصله ما حمله الإنسان مما يثقله، في قوله تعالى: ﴿ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنعام: ٣١] أي: أثقالهم، يعني: آثامهم. قلت: وأي حمل أثقل من الذنب عافانا الله منه. وقد أكثر الناس القول في ثقل الذنوب.

وروي في بعض الأخبار أن الأرض تقول: يا رب حملتني الجبال الرواسي بأكنافها وصخورها، فلم تثقل علي، وحملتني ابن آدم فثقل عليّ بذنوبه، يا رب، ائذن لي فأبتلعه فأستريح منه. فيقول الله تبارك وتعالى: بل وسعه حلمي، فإن تاب قبل الممات تبت عليه، وهانت عليّ ذنوبه، وإلا فما له عندي أشد مما تريدين به، فاصبري إلى أجله الذي أجلت له. ومن أحسن ما رأيت من ذلك منظوماً على ظهر كتاب:

فبالله إلا ما دعوت بنية ... لكاتبه بالعفو فهو مثقل
فإن الذي تدعو رؤوف بخلقه ... كريم عليهم ليس بالعفو يبخل

ولعلك يا قارئ هذا الكتاب تدعو لكاتبه أيضاً بالمتاب، ولي في ذلك قطعة مطولة:

ثقلت بالذنب لا أستطيع أحمله ... فكيف لي يا إلهي بالنجاة غدا

قد كتبتها في التكميل.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤] يعني يضع أهل الحرب السلاح حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم. سمي السلاح أوزاراً؛ لأنه يثقل على صاحبه حمله. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨]؛ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الناس قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يؤخذ المولى بذنب الولي. فأنزل الله في صحف إبراهيم عليه السلام: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٨]. وقيل: نزلت في شأن رجل من المشركين ضمن لرجل ممن تبع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إن رجع تحمل عنه عذاب الآخرة. فقال الله تعالى: ألم يخبر هذا المضمون له بما في صحف إبراهيم وموسى، أنه لا تزر وازرة وزر أخرى. أي: لا تحمل حاملة ثقل أخرى. أي: لا تؤاخذ نفس بذنب غيرها. وكذلك قوله تعالى: ﴿ حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ﴾ [طه: ٨٧] أي: حملنا أثقالاً من حليهم.

وأما الوزر: فهو الجبل والملجأ كالحصن وغيره. وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾

[القيامة: ١١] أي: لا ملجأ. ومنه اشتقاق الوزير، من قوله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴾ [طه: ٢٩] أي: صاحباً ألجأ إليه. يقال: تأزرت فلاناً على الأمر أي قويته عليه. وقد تقدم: ﴿ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ [الفتح: ٢٩] أي: قواه. ووازرت فلاناً: صرت له وزيراً. وقيل: اشتقاق الوزير من الوزر وهو الحمل، لأن الوزير يحمل عن السلطان الثقل. والله أعلم.

ولا بد للناس من أمير، ولا بد للأمير من وزير، فإذا أراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً إن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه، وضده بضده. كما يروى أن أحد الأمراء قال لوزيره: قلّ مال بيت المسلمين فأضعف على الرعية الخراج والاستغلال. فقال له الوزير ـ وكان سائساً ـ أفعل. فخرج إلى الرعية وقال لهم: إن الأمير ـ أيده الله ـ نظر إليكم ورأى أنكم مثقلون بالمغارم فحط عنكم نصف ذلك، فأخلصوا له في الدعاء، واجتهدوا في العمل، وزيدوا في الحرث والغرس، واتسعوا في المتاجر. ففرح الناس بذلك وعملوا ما أمرهم الوزير، وبارك الله لهم في عامهم وعملهم، فلما جاء الاستغلال قبض منهم ببركة الله تعالى وحسن نية الوزير. وربما زادوا في الحرث الذي أراد الأمير ولم يضر أحداً من الرعية ولا ظلم، بل حط عنهم نصف ما كان قبل عليهم، فرفع للأمير ما أراد، فشكره ولم يعلم باطن الأمر. وقال له: أضعف العدد عليهم مرة أخرى. ففعل الوزير معهم مثل ذلك الفعل الأوّل، وقال لهم: قد حطّ الأمير نصف العدد، فاتسعوا في العمل كذلك. فكان لهم ذلك، وأنهى الله لهم حالهم، ورفع الوزير ما أراد الأمير، فقال له في العام الثالث كذلك، فقال لهم مثل ذلك، كما تقدم. فلما كان في العام الرابع أشار عليه الأمير بالعادة، فقال له الوزير: على رسلك كان من الأمر كذا وكذا، وحكى له الأمر، فشكره الأمير على حسن تدبيره وجميل نظره وأمره أن يبقوا على الرسم الأخير. فكان ذلك ما عاش، وعاش الناس في أيامه إلى أن انقرضوا رحمهم الله تعالى. هذا معنى الحكاية والله أعلم.

وأما زهرة الحياة الدنيا: فمعناه زينتها. فإن فتحت الهاء فهو: نور النبات، فإن ضممت الزاي وسكنت الهاء فهو: النجم المعروف، وقد تفتح الهاء في النجم أيضاً، فيقال: زهرة. ذكره ابن سلام رحمه الله في تفسيره الكبير.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: كانت الزهرة امرأة جميلة، فخاصمت إلى الملكين، فراوداها فقالت: لا أفعل حتى تعلماني الاسم الأعظم الذي إذا تكلم به عرج إلى السماء، فعلماها فعرجت، فمسخها الله كوكباً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تدرون ما هذه الكوكبة الحمراء في قومها، يعني: الزهرة، كانت تسمى

بيدخت. وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا رآها قال: لا مرحباً بك ولا أهلاً.

قلت: إنما قال هذا رحمه الله لأنها كانت بقدر الله سبب فتنة هاروت وماروت وتعذيبهما إلى يوم القيامة، وكانا من الملائكة.

وقال مجاهد: عجبت الملائكة من ظلم بني آدم، وقد جاءتهم الرسل فقال لهم ربهم: اختاروا منكم اثنين أنزلهما يحكمان في الأرض، فكانا هاروت وماروت. فحكما فعدلا، حتى نزلت عليهما الزهرة في صورة أحسن امرأة تخاصم، فافتتنا بها، فراوداها عن نفسها، فطارت الزهرة فرجعت حيث كانت. ورجعا إلى السماء الدنيا فزجرا، فرجعا فاستشفعا برجل من بني آدم. فقالا له: سمعنا ربك يذكرك بخير. فقال لهما: كيف يستشفع أهل الأرض لأهل السماء؟ ثم دعا لهما. فخيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فنظر أحدهما إلى الآخر فقال: ألم تعلم أن أمواج عذاب الله تعالى في الآخرة كذا وكذا في الخلد أيضاً، فاختارا عذاب الدنيا، فهما يعذبان ببابل. ذكر في هذا الخبر أن الزهرة نزلت من السماء، وذكر عن مجاهد أن المرأة التي افتتنا بها كانت من نساء أهل الدنيا، وقد تقدم هذا، وأنها مسخت كوكباً، والله أعلم.

وكذلك قالوا: إن سهيلاً كان عشاراً فمسخ، وإن العنكبوت كان امرأة عاصية لزوجها، والفيل لوطياً، والدب مؤنثاً، والضب سارقاً للحجاج، والأرنب امرأة لا تغتسل من الحيض، والخنفساء امرأة سحرت ضرتها، والوطواط سارقاً للرطب من رؤوس النخل، والقنفذ سيئ الخلق، والعقرب رجلاً همازاً، والدعموص نماماً، والخريت ديوثاً، والقردة اعتدوا في السبت، والخنازير سألوا نزول المائدة ثم كذبوا بها. جميعهم خمسة عشر مسخهم الله تعالى، نعوذ بالله من سخطه. هذا ذكره أهل التفسير، والذي جاء في الصحيح أن من مسخ لم يجعل لهم نسل وأنهم عاشوا حتى ماتوا ولم يتناسلوا، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك.

خرج مسلم رحمه الله في حديث ذكر فيه: قال رجل: يا رسول الله القردة والخنازير هي مما مسخ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك.

فائدة في القرد: خرج عبد الملك بن حبيب رحمه الله قال في القرد: لا يحل بيعه ولا أكل ثمنه ولا أكل لحمه، ولا اتخاذه وحبسه. قال: وقد حدثني ابن الماجشون عن الدراوردي عن عامر الشعبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: نهى عن بيع القرد، وأكل لحمه وثمنه. وقال عن ابن شهاب: إن سفينة مولى أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم جاء بقرد من الشام إلى المدينة، فاجتمع الناس ينظرون إليه ويعجبون منه،

فأخبر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأرسل إلى سفينة فقال: والله لتخرجن بهذا القرد الذي جئت به حتى تردّه من حيث جئت به، فخرج به حتى بلغه أوائل الشام.

وأما ﴿ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [الصافات: ١٩]: فيعني نفخة الصور، والزجرة الواحدة: الصيحة بشدة وانتهار، والصور: قرن فيه ثقب بعدد أرواح الخلائق، وينفخ فيه ملك يقوم بين السماء والأرض، فيذهب كل روح إلى جسده فيدخل فيه. وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه، وحني جبهته ينتظر متي يؤمربالنفخ. قالوا: يا رسول الله وما تأمرنا؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل. وهذه النفخة الأولى التي يموت بها كل حي وهي نفخة الصعق، وله فيه نفخة أخرى يحيي بها كل ميت، وهي نفخة النشور، ولا يكون ذلك حتى يرسل الله على الأرض مطراً مثل مني الرجال ينبت الله منه أجسام بني آدم، فتدخل فيها الأرواح بالنفخة الأخرى، ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

وما بين النفختين أربعون، كذا جاء أربعون. وقد سئل عن ذلك أبو هريرة رضي الله عنه فقيل له: سنة؟ قال: أبيت، فقيل له: شهر؟ وقد تقدم. وجاء في تفسير ابن سلام أربعون سنة مفسرة، وفي النفخة الأولى يموت الخلق كلهم كما تقدم، وآخر من يبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يموت جبريل وميكائيل وإسرافيل، ثم يقول الله تعالى لملك الموت: مت، فيموت. وقد تقدم أن الله تعالى يقول بعد فناء الخلق كلهم: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾؟ فلا يجيبه أحد، فيردّ على نفسه: ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦] قهر العباد بالموت.

وأما ﴿ ٱلرُّجْزَ ﴾: أعاذنا الله منه؛ فإنه العذاب، ورجز الشيطان لطخه وما يدعو إليه من الكفر. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر: ٥] فمعناه هنا الأوثان. فقيل: أساف ونائلة صنمان كانا عند البيت. وقيل: (الرجز) هنا العذاب بعينه، ويكون على حذف مضاف، التقدير: (وعمل الرجز فاهجر) أي: العمل المؤدي إلى العذاب. ولما كانت الأوثان سبباً إلى العذاب سميت به على حد مذهبهم في تسمية الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له أو مسبباً له. والرجز والرجس واحد في معنى العذاب، والرجس أيضاً: القذر والنتن. وفسر قوله تعالى: ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٥] أي عذاباً إلى عذابهم بما تجدد من كفرهم. وقيل: نتناً إلى نتنهم. أي: كفراً إلى كفرهم. وكني عن الكفر بالنتن، كما كني عن الأوثان بالرجز، والله أعلم.

وأما ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ [يس: ١٤]: فمعناه قوينا وشددنا، وقرئت: (فعززنا)

بالتخفيف. قال كعب ووهب: القرية التي جاءها المرسلون هي أنطاكية. كان أهلها يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم اثنين وهما صادق وصدوق، والثالث شمعون عزز الله به الاثنين أي: قواهما. وقوله تعالى: ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩] بالراء فمعناه تعظموه وتفخموه. ومن قرأ: (وتعزّزوه) على قراءة من قرأه بالزاي؛ وهو من هذا. وقال قتادة رضي الله عنه تنصروه. وقد قرئ أيضاً: (تعزروه) فمعناه تمنعوه وتمنعوا دينه، والضمير في هذا وفي: ﴿ تُوَقِّرُوهُ ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم، والضمير في: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ لله تبارك وتعالى. والعزيز في كلام العرب: القاهر الغالب الذي لا يمتنع عليه من أراده. وهذه صفة العزيز حقيقة، وهو الله تعالى وحده. وتقول العرب: من عز بز أي: من غلب سلب، كما قالت الخنساء:

كأن لم يكونوا حمى يتقى ... أذى الناس إذ ذاك من عز بزا

ومن ذلك أيضاً قولهم: عزته فبززته، والاسم البزيزى وهي: التغلب والسلب، والبزة الشارة الحسنة. قال الشاعر:

لاين إذا عزك من تخاشن

وقال الله تعالى: ﴿ وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٣] أي: غلبني. ومن هذا قول الناس: أدام الله عزك، أي: غلبتك وظفرك. ويجوز: إعزازك، وهو مصدر: أعزك. ويجوز أيضاً: تعزيزك، وهو مصدر: عزز. ويقال: اعزز عليّ بكذا، أي: ما أعظمه عليّ. وملك أعز، أي: عزيز. وتقدم قول الله تعالى: ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] وهو من هذا، أي: يعازون الكافرين يغالبونهم ويمانعونهم. يقال: عزه يعزه عزاً، إذا غلبه. والمطر يعزز الأرض: إذا لبدها، وأعززنا في الأرض إعزازاً: إذا وافقت بلداً غليظاً، وعاز الرجل إبله وغنمه: إذا كانت مراضاً لا تقدر على أن ترعى فيحتش لها. والعزز الذي جاء في الحديث هي الأرض الشديدة. كان عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يبول فأتى عززاً من الأرض، أخذ عوداً من الأرض فنكت به حتى يثري، ثم يبول، كذا وقع في الحديث. والمشهور عزازاً بالألف. قال الخليل: العزاز: أرض صلبة ليست بذات حجارة ولا يعلوها الماء. والعزوز: الشاة الضيقة الإحليل تحلب بجهد وجمعها عزز. يقال: عززت الشاة وأعززت وتعززت، ومثلها: الحصور أيضاً حصرت وأحصرت. قال: والعزاء: الشديدة. وهذا قول أبي جعفر النحاس وغيره.

وجاء من ذلك في حديث موسى عليه السلام أنه آجر نفسه من شعيب عليهما الصلاة والسلام بشبع بطنه وعفة فرجه. فقال له شعيب: لك منها ـ من نتاج غنمه ـ ما

جاءت به قالب لون. قال: فلما كان عند السقي وضع قضيباً على الحوض فجاءت به كله قالب لون غير واحدة أو اثنتين ليس فيها عزوز ولا فشوش ولا كموش ولا ضبوب ولا ثعول. خرجه الخطابي وفسره العزوز: من الشياه البكية التي تجهد حتى ينزل لها لبن كما تقدم، والفشوش: التي ينفش لبنها بسرعة إذا هي حلبت لسعة الإحليل، والكموش: الصغيرة الضرع، والضبوب: الضيقة ثقب الإحليل، والثعول: التي لها زيادة حلمة. وأنشد:

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها ... أفاويق حتى ما يدر لها ثعل

إذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا ... ولكن حسن القول خالفه الفعل

تقدم في هذا الحديث: أن موسى عليه الصلاة والسلام آجر نفسه بشبع بطنه، وكذلك كان لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه غلام يخدمه بطعام بطنه.

وأما ﴿ زُحْزِحَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]: فمعناه نحي وبعد.

وأما ﴿ أَقْرَرْتُمْ ﴾ [البقرة: ٨٤]، و﴿ أَقْرَرْنَا ﴾ [آل عمران: ٨١]: فمعناه مفهوم ضد الجحود.

وأما قمطريرا: من قوله تعالى: ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٠] فقال ابن عباس رضي الله عنهما: القمطرير: الطويل. والعبوس: الضيق. وقيل: القمطرير: الشديد في الشر والطويل في البلاء. نعوذ بالله من جميع بلائه، ونستوهبه جزيل آلائه، ونسأله أن يسهل علينا ما نخاف عسره، حتى ننال بكرمه يسره.

وأما: ﴿ قَوَارِيرَا ۝ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: ١٥-١٦] فالقوارير الزجاج، وكذلك هو في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ [النمل: ٤٤] هو ها هنا حقيقة. وفي قوله تعالى: ﴿ قَوَارِيرَا ۝ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ على التشبيه، أي: قد اجتمع في تلك الأكواب صفاء القوارير وبياض الفضة. كما تقول: أتانا بشراب من نور كأنه نور. كما قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٨] أي: لهن صفاء الياقوت وبياض المرجان. والمرجان: صغار اللؤلؤ. وقيل كباره. وقد يكنى عن النساء بالقوارير لضعفهن وسرعة الانكسار في القوارير. ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لغلامه أنجشة: رويدك يا أنجشة لا تكسر القوارير. يعني ضعفة النساء وكان أنجشة هذا يحدو بالإبل وعليها النساء وكان حسن الصوت. قال أبو قلابة: فتكلم النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة لو تكلم بها بعضكم لعبتموها عليه، قوله: سوقك بالقوارير. وفي بعض الروايات: يا أنجش. ذكره البخاري في باب من دعا صاحبه فنقص من اسمه

حرفاً. وفيه: يا عائش هذا جبريل جاء يقرئك السلام.

وخرج البزاز أن المقوقس أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدح قوارير، فكان يشرب فيه. وتقدّم: ﴿ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: ١٦]. قال بعض أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: ١٥] فيه دليل على أن أرض الجنة من فضة، إذ المعهود في الدنيا اتخاذ الآنية من الأرض. وهذا القول حسن، لولا أن في الجنة آنية من ذهب أيضاً شاهد ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: من شرب في آنية الذهب والفضة في الدنيا لم يشرب بهما في الآخرة. وقال كذلك في الحرير والخمر. ثم قال في آخر الحديث: لباس أهل الجنة، وشراب أهل الجنة، وآنية أهل الجنة، وسيأتي في الباب بعد إن شاء الله تعالى.

وجاء في القرآن العزيز: ﴿ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: ٢١] وفي موضع آخر: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ [فاطر: ٣٣] أي: ويحلون لؤلؤاً. وفي تفسير ابن سلام: ليس من أهل الجنة أحد إلا وفي يده ثلاثة أساور: أسورة من ذهب، وأسورة من فضة، وأسورة من لؤلؤ، وجمع أسوار: أسورة، وجمع أسورة: أساور، فإن زدت هاء وقلت: أساورة فهو جمع أسوار. يقال أسوار بالضم وهو الفارس من العجم، ومعناه ذو الفرس أو أعالي الفرس، وقيل: هم قواد الفرس. قالت الخنساء:

مثل الرديني لم تدنس شبيبته ... كأنه تحت طي البرد أسوار

وقد يقال أيضاً للذي يجعل في الذراع: أسوار، بالألف.

وقد جاء في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم قال: رأيت في يدي أسوارين من ذهب. انظره في البخاري. في بعض الروايات أسوارين بالألف. وسيأتي ذلك مفسراً في حديث مسيلمة الكذاب في باب الألف واللام إن شاء الله تعالى.

وجاء في الهداية قال مكي: واحد الأساورة، أسوار، وفي قراءة أبيّ: (أساوير) بياء، قال وهذا يدل على أن الواحد أسوار، ولكن لما دخلت الهاء في أساور حذفت الياء لأنهما يتعاقبان في هذا النحو نحو: دهاقين ودهاقنة، وزناديق وزنادقة. وفيه ثلاث لغات: أسوار وِسوار وسُوار بمعنى، وقيل: إن أساورة جمع أسورة، وأسورة جمع سوار أو سوار. والقلب من الأسورة ما كان فلذاً واحداً وقد يكون من فضة، والوقف يكون من فضة وغيرها، وأكثر ما يكون من الذبل، والذبل: ظهر السلحفاة البحرية تتخذ منه الأسورة. والمسك أيضاً: جمع مسكة، أيضاً يصنع من الذبل ومن العاج. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لثوبان: يا ثوبان اشتر لفاطمة قلادة من عصب

وسوارين من عاج.

وجاء في الحديث من هذا عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في يديها قلبين ملويين من ذهب فقال: ألقيهما عنك واجعلي قلبين من فضة وصفريهما بزعفران.

وقالت عائشة رضي الله عنها في حديث آخر: ما علمت حتى دخلت على زينب وهي غضبى ثم قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: حسبك إذا قلبت لك بنت أبي بكر ذريعتها، ثم أقبلت عليّ فأعرضت عنها، حتى قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: دونك فانتصري. فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبست ريقتها في فمها ما تردّ شيئاً. فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه.

وقد تسمى الحية قلباً تشبه به، والقلب بفتح القاف: الفؤاد، والقلب قلب العقرب المنزلة التي بعد الإكليل، وفي معرفة ذلك فائدة يستدل بطلوعه على القبلة من حيث يطلع أول طلوعه فهي القبلة، وقلب كل شيء خالصه، ومنه قلب النخلة. وفي هذا ثلاث لغات قلب وقلب وقلب والجمع القلبة، ورجل حول قلب، والقلوب على وزن الخنوص: الذئب. قال الشاعر:

فيا أمنا بكى على أم واهب ... أكيلة قلوب ببعض المذاهب

ويقال أيضاً قليب على وزن سكين، والقلب بفتح اللام: انقلاب الشفة. رجل أقلب. والقلب بضم القاف واللام: جمع قليب وهي البئر، وقليب بدر مشهور. وأنشدني الفقيه أبو محمد العثماني رحمه الله بالإسكندرية لبعضهم في القلب:

قلب وقلب في يديك ... معذب ومنعم

ظمآن يطلب قطرة ... تشفي صداه وتنعم

والشعر المشهور في هذا:

تَجول خلاخيل النساء ولا أرى ... لرملة خلخالاً يجول ولا قلبا

الأبيات.

فرغت من تفسير ما تقدّم من ألفاظ القرآن بحمد الله المنان، ولو تتبعت الكلام على كل لفظة لما فرغت، مثل لفظة: قلب، لو عكستها لجاء منها بلق جمع أبلق، ومن مقلوبها لبق الرجل لباقة إذا كان حلواً ظريفاً. ومن مقلوبها: قبل ضد بعد، وقبل ضد دبر، وقبل بمعنى ضمن. وسيأتي في باب الظاء تفسير هذه الألفاظ. وقبل فلان كذا ضد ردّ. وقبل المرأة. ومن مقلوبها: لقب، ومعكوس لقب: بقل: النبات. وسيأتي تفسيره. قال الشاعر:

وفـي البقل إلا أن وقـى الله شـره — شياطين ينزو بعضهن على بعض

ولي في البقل أبيات حسان قلتهن بسبب إنسان، قد ذكرت الأبيات والحكاية في التكميل وأوّلها:

لأكـل البقل يـا خلـي — بـلا زيـت ولا خـل

◆◆◆

خـرجت مـن شـيء إلـى غيـره — نـسألك اللهـم مـن خيـره

لكـن للعلـم فـنون فمـن — يـرق لهـا أوغـل فـي سـيره

فـلا تلمـه فـي الـذي قالـه — واكفـف هـداك الله عـن ضـيره

بقيت الأزواج العشرة التي منها: الزر والزر. أما زر: فواحد الأزرار، وهو شبه العقدة الكبيرة تدخل في العروة، يمسك بها الأطواق في الأعناق. وهو مستعمل في غير هذه البلدان، وأكثر ما يكون للولدان، وقد كان لقميص رسول الله صلى الله عليه وسلم زر. حدث معاوية ابن قرة عن أبيه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من قريش وإن قميصه لمطلق، أو قال: زر قميصه مطلق، الحديث.

◆◆◆

وقد جاء في الحديث في صفة خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذكر الترمذي بسنده إلى السائب بن يزيد قال: ذهبت بي خالتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن ابن أختي وجع، فمسح رأسي ودعا لي بالبركة، وتوضأ، فشربت من وضوئه، وقمت خلف ظهره فنظرت إلى الخاتم بين كتفيه فإذا هو مثل زر الحجلة. فسره بعضهم بالزر المذكور قبل هذا وقال: الحجلة هي الستر نحو الكلة ذات الزر والعروة. وقال الترمذي: زر الحجلة يقال إنه بيض له، وقيل عنه: إنه وهم فيه لأن توهم الحجلة من القبح. وقالوا: إنما هو زر الكلة ونحوها، كما تقدم. ولا أدري كيف هذا، ولا لأي شيء ينسب إليه الوهم في ذلك. وقد جاء ما يقوي قوله في الحديث المروي عن جابر بن سمرة قال: رأيت الخاتم بين كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم غدة حمراء مثل بيضة الحمامة. وفي حديث آخر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، وقد سئل عن خاتم النبوة، فقال: كان في ظهره بضعة ناشزة، ومع ذلك فالله أعلم.

وقال مسلم عن جابر بن سمرة: رأيت الخاتم عند كتفيه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده. وفي حديث آخر: كأثر المحجم وحوله خيلان فيه شعرات سود وفي آخره كالتفاحة، وفي آخر: كركبة العنز. وجاء في الحديث أنه لم يولد به، ولكن وضع بين كتفيه إذ غسل الملكان قلبه وخاطه أحدهما. قال عليه الصلاة والسلام: وجعل الخاتم بين كتفي كما هو الآن، ووليا عني فكأني أعاين الأمر معاينة.

وجاء في صفة الخاتم أيضاً ما رواه عبد الله بن سرجس قال: رأيت الذي بظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه جمع. خرجه ثابت رحمه الله وبعد السند في الحديث، قال: الجمع مثل المحجمة الضخمة، والمعروف في العربية الجمع جمع الكف. يقال: ضربت فلاناً بجمع كفي، ومنهم من يكسر ويقول أعطيته جمع الكف، كما يقولون: ملء الكف. أذكرني قوله ملء الكف أبياتاً أنشدنيها بعض الأصحاب لرجل أنسيت اسمه كان يقول الشعر على البديهة، وكان مشهوراً بذلك فلقيه بعض من كان ينكر ذلك، فأخذ حجراً من الأرض وقال له: قل في هذا شيئاً. فقال:

وصماء ملء الكف من يابس الصفا ... حكت قلب معشوق وكف بخيل
ضربت بها قرني فخر مجندلاً ... كعهدي بماض الشفرتين صقيل
إذا عدم الناس السلاح فإنني ... سلاحي موجود بكل سبيل

ومثله قول الآخر وقد منعوه السلاح:

فإن تمنعوا منا السلاح فعندنا ... سلاح لنا لا يشترى بالدراهم
جلاميد أملاء الأكف كأنها ... رؤوس رجال حلقت بالمواسم

وقد فسر قوله عليه الصلاة والسلام: المرأة تموت بجمع شهيد. قالوا: هي البكر المجتمعة البكارة، وقالوا: التي تموت من النفاس، والله أعلم. وقد قالوا في هذا أيضاً: جمع، بالكسر. قالوا: فلانة من زوجها بجمع وجمع، أي: لم يفتضها.

قالت الدهناء بنت مسحل امرأة العجاج للعامل: أصلح الله الأمير إني منه بجمع، أي: عذراء، ورأيت في بعض كتب اللغة شاهداً على هذا لأعرابي ورد ماء:

وردناه في مجرى سهيل يمانيا ... بعصر البرى ما بين جمع وخارج

وقد تقدم اسم كنانة النبي صلى الله عليه وسلم: الجمع، والجمع، بالفتح: ضرب من التمر رديء. وفي الحديث: بع الجمع بالدراهم وابتع بالدراهم جنيباً. والجنيب: ضرب من التمر طيب. وقال ابن قتيبة: كل لون لا يعرف من التمر فهو جمع.

يقال: كثر الجمع في أرض بني فلان، واللون بهذا الاسم هو الدقل، وجمع أيضاً: أحد أسماء المزدلفة، ويقال لها أيضاً المشعر الحرام، فلها ثلاثة أسماء، وزاد عبد الملك بن حبيب رابعاً وهو قزح. وروي عن عليّ بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على قزح وقال: هذا قزح وهذا الموقف وجمع كلها موقف. ذكر هذا أبو عبيد البكري في المعجم.

ولي من أرجوزة مطولة أذكر فيها رجل حج وكان قد منع فلج:

فصار وهو قائل ... لكل لاح عاذل

القـــــصد للمقـــــام | خيـــر مـــن المقـــام
فأخـــتار أرض جمـــع | ثـــم أمتطـــي فـــي جمـــع
مـــن صـــحبه المحجـــه | يبغـــــي أداء حجـــه

انظرها بكمالها في التكميل وهي نحو خمسمائة بيت.

رجع الكلام إلى الزر: وقد تقدم أنه سمي الرجل زراً منهم: زر بن حبيش رضي الله عنه وكان من أعرف الناس. كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يسأله عن العربية. قاله الخطابي. وروى غيره أن زراً هذا عاش مائة وعشرين سنة، فلما أدركته الوفاة أنشد يقول:

إذا الـــرجال ولـــدت أولادهـــا | وارتعـــشت مـــن كبـــر أكـــبادها
وجعلـــت أســـقامها تعـــتادها | تلـــك زروع قـــد دنـــا حـــصادها

وكان من قراء التابعين رحمه الله.

ومما قيل في الزر في كتمان السر: سرك لا تسمعه لزرك، وما أحسن هذا وأحسن منه قول الآخر: سرك أسيرك فإذا بحت به كنت أسيره. كما قال الشاعر:

إذا جـــاوز الاثنـــين ســـر فإنـــه | يـــبث وإفـــشاء الحـــديث قمـــين

وقالوا: قلوب الأحرار قبور الأسرار.

ومما يستحسن من الأشعار في الزر المستعار بعض ما قاله بعض الملوك لأحد عماله وقد عتب عليه في بعض أعماله: والله لولا الحنث في دمك لألبستك منه قميصاً لا تشد عليه زراً، ثم أمر به إلى الحبس. أخذه الشاعر فقال:

طوّقـــته بحـــسام طـــوق داهـــية | مـــا يـــستطيع علـــيه شـــد أزرار

وقال آخر:

طوّقـــته بالحـــسام طـــوق ردى | أغـــناه عـــن مـــس طـــوقه بـــيده

وقال آخر:

طوّقـــته بالحـــسام منتـــضياً | آخـــر طـــوق يـــشد فـــي عـــنقه

نعوذ بالله من هذه الأزرار ومن سوء الأقدار.

وفي الحديث؛ من تصريف هذه اللفظة؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم أهديت له أقبية من ديباج مزررة بالذهب، فقبلها وقسمها في ناس من أصحابه. يحتمل أن يكون هذا قبل نهيه عن لبس الحرير، أو يكون أهداها لهم ليبيعوها وينتفعوا بثمنها، كما صنع بعمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ سأله عن الحلة التي أهداها إليه، فقال: إني لم أبعث إليك بها لتلبسها ولكن لتصيب بها، فكساها عمر أخاً له مشركاً بمكة. ويحتمل أن

يكون أهداها لهم ليلبسوها في الحرب. فقد جاءت في ذلك رخصة وذلك لعلة، والله أعلم.

ذكر أبو أحمد عن الحسن بن ظهير؛ وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال: رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام في القمص الحرير في السفر من حكة كانت بهما أو وجع كان بهما. خرجه مسلم.

وخرج أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الثوب المصمت من الحرير. فأما المعلم من الحرير وسدى الثوب فلا بأس به.

قال أبو داود: عشرون نفساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل أو أكثر لبسوا الخز.

قال أبو الحسن اللخمي رحمه الله: الخز يعمل الآن بالأندلس داخل في جملة الحرير لأن سداه ولحمته حرير وليس كالذي يعمل في المشرق.

وقال أبو محمد عبد الوهاب البغدادي رحمه الله: يجوز لباس الخز لأنه ليس بحرير وقد لبسه السلف وكرهه مالك لأجل السرف. وسيأتي تفسير الخز في باب الهاء مع القز المذكورين في بيت الخنساء:

ونلبس في الحرب سرد الحديد وفي السلم خزاً وعصباً وقزا

قال: والخز يصنع من الحرير ومن وبر الخزز وهو ذكر الأرانب، وإلا فليس هو خزاً.

ومن العلماء من كره ذلك أجمع، وهو الأحوط لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله أحل لإناث أمتي الحرير والذهب وحرمه على ذكورها. فدخل في هذا الصبيان وغيرهم. وقال في حديث آخر: من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة. وتمام الحديث: ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن شرب في آنية الذهب والفضة في الدنيا لم يشرب بها في الآخرة. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة. خرجه النسائي رحمه الله وقد تقدم بعضه. وتقدّم ذكر الحلة التي أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه فجاء بها، وقال له: بعثت إليّ بهذه وقد قلت في حلة عطارد ما قلت. وكان عمر رضي الله عنه قد قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن عطارداً أقام حلة في السوق يعني للبيع. فلو اشتريتها يا رسول الله فلبستها للجمعة وللوفد إذا قدموا عليك.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة. أو كما قال.

وكان عطارد هذا رئيس تميم، وكان أبوه حاجب بن زرارة من أوفى الناس بعهد، وهو صاحب القوس المشهورة. وفد حاجب هذا على كسرى حين منع تميماً من ريف العراق يطلب إليه أن ينزل فيه مع قبيلته، فاستأذن عليه، فأومى إليه كسرى قبل أن يدخل: أسيد العرب أنت؟ قال: لا. قال: فسيد مضر أنت؟ قال: لا. قال: فسيد بني أبيك أنت؟ قال: لا. ثم أذن له فلما دخل عليه قال: من أنت؟ قال: سيد العرب. قال: ألست قلت إذ أوميت إليك أسيد العرب أنت فقلت لا حتى اقتصرت بك على بني أبيك فقلت لا. قال له: أيها الملك لم أكن كذلك حتى دخلت عليك فلما دخلت عليك صرت سيد العرب. قال كسرى: املؤوا فاه درراً. ثم قال: إنكم معشر العرب غدر، فإن أذنت لكم أفسدتم العباد وأغرتم على العباد وآذيتموني. قال حاجب: فإني ضامن للملك أن لا يفعلوا. قال: فمن لي بأن تفي أنت. قال: أرهنك قوسي. فلما جاء بها ضحك من حوله وقالوا: لهذه العصا تفي؟ قال كسرى: ما كان ليسلمها لشيء أبداً، فقبضها منه وأذن لهم أن يدخلوا الريف، ثم مات حاجب فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه فقال له: ما أنت الذي رهنتها. قال: أجل قال: فما فعل؟ قال: هلك، وهو أبي وقد وفى له قومه، ووفى هو للملك، فردها عليه وكساه حلة، وهي التي أقامها بسوق المدينة فباعها من رجل من اليهود بأربعة آلاف درهم.

ويذكر أن عطارد هذا أهداها للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها منه فباعها من اليهودي. وللخطيب أبي محمد رسالة على حروف المعجم منثوراً ومنظوماً ذكر في فصل منها حاجباً هذا فقال: ولقد رأيت الثناء حقاً واجباً على من غدا للعلى عيناً وحاجباً، وسلب الوفاء صاحب القوس حاجباً. هذا بعض النثر. ومن منظومه:

مــــن ذا يفـــيد فديـــتكم زوّاره	خطــط الــنوال غــرائباً ورغائــبا
أم مــن غــدا خــدن العلــى وقــرينها	فظنـــنت ذا عيــناً وهـــذا حاجـــبا

انظرها في التكميل.

وتقدّم ذكر الحديث المذكور فيه الليث، وهو حديث كبير، وفيه علم كثير، وقد رأيت أن أثبته هنا بكماله فهو أتم لجماله. رواه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً، فيبعث الله عز وجل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع

سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله عز وجل ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أوإيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كنة جبل لدخلت عليه حتى تقبضه. قال: سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فيبقى أشرار الناس، في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً. فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستحيون؟ فيقولون: ما تأمرنا؟. فيأمرهم بعبادة الأوثان. وهم في ذلك دارّ رزقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً. قال: فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق ويصعق الناس. ثم يرسل الله؛ أو قال: ينزل الله مطراً كأنه الطل أو الظل - نعمان الشاك -، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤] ثم يقال: أخرجوا بعث النار. فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون. قال: فذلك يوم ﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧] فذلك ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [القلم: ٤٢].

تقدّم في هذا الحديث أن مكث الدجال في الدنيا أربعون على الشك. ويأتي في الحديث بعد هذا أربعون يوماً بغير شك. نعمان المذكور قيل: هو النعمان بن سالم، أحد رواة الحديث رحمهم الله. وحديث الدجال مفزع مهم. كثيراً ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من شره، ويأمر بذلك الصحابة رضي الله عنهم. وهو فتنة من أكبر الفتن. ومن فتنته أن معه نهرين من ماء، ونهرين من نار، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم من أدرك ذلك من أمته كيف يصنع. فقال: لأنا أعلم بما مع الدجال، معه نهران يجريان، أحدهما رأي العين ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تؤجج، فما أدركه أحد فليأت الذي يراه ناراً، فليغمض ثم ليطأطئ رأسه فيشرب فإنه ماء بارد. خرجه مسلم.

وقال أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سمع بالدجال فليفر منه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه بما يبعث به من الشبهات. فمن شبهاته قتله الرجل المؤمن وإحياؤه إياه بعد ذلك، ويأتي القوم فيؤمنون به فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعاً وأمدّه خواصر. ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل. ثم يدعو رجلاً جزلاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه

جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك. وذكر باقي الحديث. وفيه قلنا: يا رسول الله ما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة تكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره. قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح. وحكى قاسم بن أصبغ نحواً مما تقدّم في هذا الحديث من أن مكثه أربعون يوماً وزاد: وله حمار يركبه عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً.

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ونعته، وقد تقدم أن بين عينيه مكتوب كافر، يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ. فمن فتنته ما خرج أبو داود الطيالسي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: معه ملكان يشبّهان بنبيين من الأنبياء إني لأعرف اسميهما وأسماء آبائهما، لو شئت أن أسميهما سميتهما، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره فيقول: ألست بربكم أحيي وأميت فيقول أحدهما: كذبت. فلا يسمعه من الناس أحد إلا صاحبه. ويقول الآخر صدقت، وذلك فتنة. وذكر باقي الحديث، ومعناه الذي يقول صدقت يريد صاحبه في قوله للدجال: كذبت. والله أعلم.

ومن شبهاته وفتنته ما روت أسماء بنت يزيد قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي، فذكر الدجال فقال: إن بين يديه ثلاث سنين، سنة تمسك السماء فيها ثلث قطرها والأرض ثلث نباتها، والثانية تمسك السماء ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها، والثالثة تمسك السماء قطرها كله والأرض نباتها كله، فلا تبقي ذات ظلف ولا ذات ضرس من البهائم إلا هلكت. وإن من أشد فتنته أنه يأتي الأعرابي فيقول: أرأيت إن أحييت لك إبلك ألست تعلم أني ربك؟ فيقول: بلى. فيمثل له نحو إبله كأحسن ما تكون ضروعاً وأعظمها أسنمة. قال ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه فيقول: أرأيت إن أحييت لك أباك وأخاك ألست تعلم أني ربك؟ فيقول: بلى. فيمثل له الشياطين نحو أبيه ونحو أخيه. قالت أسماء: ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجع والقوم في اهتمام وغم مما حدثهم. قالت: فأخذ بلحمتي الباب ثم قال: مهيم. قالت أسماء: فقلت يا رسول الله لقد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال. قال: إن يخرج وأنا حي فأنا حجيجه، وإلا فإن ربي خليفتي على كل مؤمن. قلت: يا رسول الله والله إنا لنعجن عجيننا فما نخبزه حتى نجوع، فكيف بالمؤمنين يومئذ؟ قال: يجزيهم ما يجزي أهل السماء من التسبيح والتقديس.

وخرج البخاري رحمه الله بسنده إلى المغيرة بن شعبة قال: ما سأل أحد النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال أكثر مما سألته، وإنه قال لي: لا يضرك منه، قلت:

إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء، قال: هو أهون على الله من ذلك.

وتقدّم في القافية: زل، وأن مضاعفه زلزل، ومعناه حرّك. وفي التنزيل: ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١] أي أصابتهم الشدة حين حركوا بالخوف، وكذلك: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١] أي: حركت من جوانبها كلها وذلك يوم القيامة. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١].

خرج ابن سلام عن الحسن قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير له قد فرق بين أصحابه السير، إذ رفع صوته فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ١-٢] فلما سمعوا صوت نبيهم اغضوضبوا، فقال: هل تدرون أي يوم ذلكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذلكم يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار، قال: فيقول يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إنساناً إلى النار وواحداً إلى الجنة. فلما سمعوا ما قال نبيهم انبسوا حتى ما يجلي رجل منهم عن واضحة. فلما رأى ذلك في وجوههم قال: اعلموا وأبشروا، فوالذي نفسي بيده ما أنتم في الأرض إلا كالرقمة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير، وإنكم مع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج، ومن هلك، يعني: ومن كفر من بني إبليس، وتكمل العدة من المنافقين.

وجاء في الحديث من ذكر الزلزلة، وجمعها: زلازل، ما خرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تقوم الساعة حتى... وذكر أشياء منها: يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتكثر الفتن، ويكثر الهرج؛ وهو القتل؛ الحديث.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهل المدينة وقد أصابتهم زلزلة شديدة: يا أهل المدينة أحزنتم؟ والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم. أو كما قال. وجاء في الحديث: إذا اتخذ الفيء دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً، وتعلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته، وعقّ أمه، وأدنى صديقه، وأقصى أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وساد القبيلة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وظهرت القينات والمعازف، وشربت الخمر، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك: ريحاً، وزلزلة، وخسفاً، ومسخاً، وقذفاً وآيات تتتابع كنظام انقطع سلكه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، إذ خرج لجنازة ميمونة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم: فإذا رفعتم نعشها فلا تزعزعوا ولا تزلزلوا وارفقوا. وذكر تَمام الخبر.

وتقدّم زالت الشمس، ووعدتك أن أذكر لك في معرفة الزوال فصلاً فدونكه فاتخذه أصلاً.

فصل:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والأظلة لذكر الله.

قلت: ومعرفة الزوال فرض، لأنه وقت للظهر لا يجوز قبله وكذلك الجمعة. لا سيما لمن يصلي أول الوقت إذ هو الأفضل. كما جاء: أول الوقت رضوان الله، ووسط الوقت رحمة الله، وآخر الوقت عفو الله. قال بعض العلماء: إن للشمس سبعة أزولة ثلاثة منها لا يعلم بها البشر: الزوال الأول: الذي تزول عن قطب الفلك الأعلى لا يشهده ولا يعلمه إلا الله تعالى، والزوال الثاني: عن وسط الفلك لا يعلمه من خلق الله إلا خزان الشمس الموكلون بها الذين يسوقونها على العجلة المركبة في الفلك ويرمونها بجبال الثلج لينكسر حرها ويخمد شعاعها على العالمين، والزوال الثالث: يعلمه ملائكة الأرض، والزوال الرابع: وهو على ثلاثة دقائق وهو ربع شعيرة والشعيرة جزء من اثني عشر جزءاً من ساعة، والساعة اثنتا عشرة دقيقة، والدقيقة اثنتا عشرة شعيرة، والشعيرة أربعة وعشرون نفساً، فيعلم هذا الزوال المذكور حذاق المنجمين، أهل العلم بتقدير سير الشمس في الشتاء والصيف في فلكها. يقوّمون ذلك بالنظر في الآلات المعدة لعلم هذا الشأن. فإذا زال الزوال الخامس نصف شعيرة، وهو ست دقائق، عرف زوالها من أهل الحساب والتقاويم من دون أولئك في المعرفة، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]. فإذا زالت شعيرة، وهو الزوال السادس المشترك، وهو جزء من ساعة، عرف ذلك علماء المؤذنين وأصحاب مراعاة الأوقات. وإذا زالت ثلاث شعائر، وهو الزوال السابع، وهو ربع ساعة، عرف الناس كلهم زوالها، وعند هذا الوقت صلاة الكافة، وهو أوسط الوقت وأوسعه، وهذا كله لبعد منصب السماء، ولاستواء تقويم صنعتها في الأفق الأعلى، ولإتقان صنعتها.

وقد يروى في خبر أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عليه الصلاة والسلام: هل زالت الشمس؟ فقال: لا نعم. فقال: كيف هذا؟ فقال: بين قولي لا ونعم قطعت من الفلك خمسين ألف فرسخ. وقد تقدم هذا كله. فكان النبي صلى الله عليه

وسلم سأله عن زوالها على علم الله عز وجل. ذكر هذا أبو طالب رحمه الله.

وذكر أبو عبيد البكري في الممالك والمسالك أن الشمس أعظم من الأرض مائة وستين مرة. فالأرض كلها نصف عشر ثمن جزء من الشمس، وذكر أن قطر الشمس اثنان وأربعون ألف ميل، وسائر الكواكب العلوية أعظم من الأرض بدون هذه النسبة، وما تحت الشمس منها أقل من الأرض، فأما القمر فأعظم من الأرض سبعاً وثلاثين مرة، وأقرب بُعْد القمر من الأرض مائة ألف ميل وثمانية وعشرون ألف ميل. وبعد زحل عن الأرض سبعة وسبعون ألف ألف ميل إلا شيئاً. وزاد غيره: وجرمه أعظم من الأرض إحدى وتسعون مرة.

وقال أبو حامد: اتفق المهندسون على أن الشمس مثل الأرض مائة مرة ونيفاً وستاً وستين مرة، وأصغر كوكب تراه: مثل الأرض ثماني مرات، وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة مرة وعشرين مرة من الأرض.

وذكر بطليموس أن دور الفلك الأعظم أربعمائة ألف ألف ميل وعشرة آلاف ألف وثمانمائة ألف وثمانية عشر ألفاً وخمسمائة وسبعون ميلاً، وأن دور الأرض عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل، ومساحة ربع الأرض المسكون ثلاثة وثلاثون ألفاً وخمسون ألف ميل. وقيل: إن أقرب الأرضين إلى السماء بيت المقدس باثني عشر ميلاً.

قلت: وهذا كما تراه لا دليل عليه من الحديث، ولا يعلم هذا إلا من قول المنجمين، وبرهانهم في ذلك الآيات التي يعرفونها بالمساحات. وقد جاء في التفسير أن غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماءين مثل ذلك. وكم من ألف ميل في هذه المسافة.

وكذلك قولهم الشمس في موضع كذا، والقمر في موضع كذا، وزحل في كذا. والله تعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [الملك: ٥] فأضاف ذلك إلى السماء الدنيا، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك كله.

خرج من هذا أن معرفة الوقت لا بد منه لأن في الحديث: أحب عباد الله إلى الله عز وجل الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله تعالى. قال بعض العلماء: هم العلماء بالحساب لأن الله تعالى يقول: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥] وفي موضع آخر: ﴿ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [الإسراء: ١٢].

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عماله أن صلوا الظهر إذا كان الفيء ذراعاً إلى أن يكون ظل أحدكم مثله. الحديث.

والفيء في اللغة الرجوع، على ما يأتي تفسيره إن شاء الله تعالى. فمعنى فاء الظل أي: رجع من جانب المغرب إلى جانب المشرق، لأن الظل أول النهار، يكون ممتد إلى جهة المغرب، ثم لا تزال الشمس ترتفع وينقص الظل حتى لا يرى للقائم ظل البتة. وهذا في البلاد التي تكون الشمس فيها وسط النهار على قمة الرأس تقف فلا ترى لنفسك ظلاً، وليس ذلك في كل بلد ولا في كل العام. فإذا زالت الشمس أخذ الظل في الميل إلى جهة المشرق، ثم لا يزال يمتد حتى إلى الليل كما فعل في أول النهار. و﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ذراعاً، يريد أن كل إنسان طوله أربعة أذرع من ذراع نفسه، الصغير والكبير في ذلك سواء. يقول: إن لم يكن لك ميزان تزن به الشمس فزنه بقامتك إن كنت مسافراً أو في مكان لا تسمع فيه الأذان فقسه بظلك، لا يزال الظل ينقص من جهة المغرب حتى يستوي ثم يأخذ في الزيادة إلى جهة المشرق، فمن حيث ابتدأ الظل بالزيادة فاحسبه، فإذا زاد مقدار ذراع وهو ربع القامة فهو الوقت المستحب لصلاة الجماعة، وأما المنفرد فجائز له الصلاة أول الزوال في أول الوقت وهو أفضل، وإن لم تقسه بنفسك فقسه بعود، أقمه في موضع مستوٍ وانظر زيادة الظل ونقصانه، فإن كنت في بلد لاظل فيه للقائم أصلاً فأخر الصلاة في الجماعة إلى زيادة الظل ربع ذلك القائم من أصله، وإن كنت في بلد تزول فيه الشمس، وللقائم ظل فمن ربع القائم بعد الظل الذي زالت عليه الشمس تصب الوقت بلا خلاف إن شاء الله تعالى.

والصلاة لا تحل قبل الوقت فلتؤخرها حتى تستيقن أن الوقت قد تمكن فهو أحوط. وتستدل على ذلك أيضاً بأن يكون ظلك مثلك. وقيل ذلك أحسن، وهو آخر وقت الظهر وأول وقت العصر، ثم تصلي العصر بعد ذلك بقليل إلى أن يكون ظلك مثليك، وقيل ذلك أحسن. وتحتاج أيضاً إلى معرفة القبلة فتستدل عليها بالليل بقلب العقرب أول طلوعه، وبالنهار بطلوع الشمس وغروبها. وتحتاج أيضاً في ذلك إلى علم آخر لأنها تطلع في زمن الشتاء وقصر النهار من قريب من القبلة، وتطلع في الصيف من المشرق لأنها ذات مشارق ومغارب على عدد الأيام، وذات مشرقين ومغربين: مشرق في الشتاء ومشرق في الصيف. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما بين المشرق والمغرب قبلة إذا توجه قبل البيت. يريد والله أعلم: آخر المشارق وآخر المغارب لقرب ذلك من القبلة، ولا بد من التوجه إلى القبلة، وأضيق ما هي عند البيت لأنك إذا انحرفت عنها قليلاً خرجت عنها، وهي تتسع على البعد، لكن لا بد أن تنويها بقلبك وتتحراها بمعرفتك وإن كنت لم ترها. والكعبة شرفها الله تعالى قبلة المسلمين

كلهم نحوها يصلون حيث كانوا، كما قال تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

ولما وصلت إلى مكة شرفها الله تعالى سنة إحدى وستين وخمسمائة، أردت أن أعلم كيف نتوجه إلى البيت من بلادنا فاختبرتها ثم بشيء لا ينكر عليك، وقفت أمام الحجر قبالة الميزاب من البيت ـ أكرمه الله تعالى ـ عند مغيب الشفق في أول ليلة من أغشت، والشمس إذا ذاك في الزبرة، فكان الطالع في ذلك الوقت على جبل أبي قبيس ـ وهو قبالة الحجر الأسود ـ سعد الأخبية قبالة إمام المنكب الأيسر، وغربت الزبرة خلف المنكب الأيمن، وسعد الذابح قبالة الوجه، والسماك على رأس الكتف الأيمن كأنه من خلفه قليلاً يقابل شحمة الأذن، ويقابله من الجهة الأخرى على الشمال النجم الذي على هودج البعير، فلما انتصف الليل صار سعد الأخبية أمام الوجه، وغربت الشولة وطلعت الثريا. تقف كما قلت لك ولا ترفع رأسك ولا تطأطئه، ولا تفتل عنقك يميناً ولا شمالاً، فتبصر سعد الأخبية بين عينيك، والشولة على حاجبك الأيمن، والثريا على حاجبك الأيسر. لكن إذا غابت الشولة ويقرب القلب على يمينك يقابل ذراعك، ويطلع على ذراعك الأيسر ثلاثة أنجم تشبه البطين، وهي بين البطين والبرجيس. فإذا طلع الفجر أو قارب طلعت الجوزاء على جبل أبي قبيس معترضة، وغرب النسر الواقع في الموضع الذي تغرب فيه الزهرة، ويكون على قمة الرأس الحوت. ولا تقل كيف تكون الشمس بالزبرة والفجر بالهقعة، إنما أخبرت بالظاهر لأن مكة ـ أكرمها الله ـ في بطن واد والجبال محدقة بها من كل جانب. ومعلوم أن الطالع بالفجر ذلك الوقت الطرف لكن حال الجبال دون رؤيته، وأيضاً فإن جبل أبي قبيس إنما هو بين المشرق والجهة التي هي قبلتنا نحن، ويكون النسر في الواقع في هذا الوقت على كتفك الأيمن خلف ظهرك، والعوّا بين كتفيك، وعلى الأيسر منهما الفرقدان، ووقت العشاء الآخرة من ذلك الشهر تبصر سطراً مستوياً قد أخذ من بين المغرب والقبلة أمام وجهك إلى بين المشرق والقبلة، كان طرفه إلى المغرب أميل قليلاً، فيه الشولة والنعائم والبلدة والسعود الأربعة، وأحد نجمي الفرغ المؤخر الذي من جهة القبلة، ووافق أن كان قد اجتمع في البلد زحل والمشتري، وأسفل منها قليلاً المريخ، ويقرب منهما سعد الذابح، فكأنهما في صف معوج قليلاً. أراك الله ذاك هناك فهو مناك.

وذا فصل الفوائد قد تقضى ... وآخذ بعد في طاء وظاء
فلا تنس المؤلف من دعاء ... بظهر الغيب في خير انقضاء

باب الألف مع الطاء وأختها الظاء ومعكوسهما

وأط وأط واط وطا وطاء وظاء وطل وظل

لما لم أجد ما أكمل به البيت من جنسه أكملته بعكسه.

أما أط: فهو فعل ماض. تقول منه: أط يئط أطاً وأطيطاً. والأطيط صوت الرحل الجديد والنسع إذا سمعت له صريراً، وكل شيء يشبه ذلك فهو أطيط. وقد تقدم في أول الكتاب في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: إن بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً. وفي آخره حتى يسمع له أطيط من الزحام. وأطت الإبل وأدت: إذا مدت أصواتها. وقال الأعشى:

ألست منتهياً من نحت أثلتها ولست ضائرها ما أطت الإبل

وقال الآخر:

يطحرن ساعات الأنا الغبوق من كظة الأطاطة السبوق

يصف إبلاً امتلأت بطونها. ومعنى يطحرن: يتنفسن تنفساً شبيهاً بالأنين. والأنى: وقت الشرب بالعشي. وسيأتي تفسيره في باب الألف والنون إن شاء الله تعالى. والطحر: التنفس الشديد، وهو الطحار أيضاً. والأطيط: انحناء الظهر من الجوع. والأطاط: الصياح، والأطيط أيضاً: الجوع. قال الراجز:

هل في دجوب الحرة المخيط وذيلة تشفي من الأطيط

الدجوب: وعاء أو غرارة. والوذيلة: السبيكة من الفضة. شبه القطعة من السنام بالوذيلة لبياضها، فهذا أط، وأط مصدره، وأط: أمر منه.

ومما لم يذكر في البيت: آط بالمد: اسم رجل من بني سعد بن زيد مناة، استعمله خالد بن الوليد رضي الله عنه على قبض الخراج بموضع من العراق يقال له رودمستان، فنزل على نهر هناك فيقال له إلى اليوم نهر آط. وكان أبوه يكنى أبا آط، فهو آط ابن أبي آط. ذكره صاحب الفتوح.

وأما معكوسه: طأ، فأمر من: وطئ. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٢] أقوال منها: أن معناه طأ الأرض برجليك في صلاتك، لما كان يلقاه من التعب في قيام الليل. يروى أنه كان يقوم على رجل واحدة ويرفع الأخرى. والألف بعد الطاء بدل من الهمزة والهاء كناية عن الأرض، وأضمرت قبل الذكر لأن ذلك معلوم، كما أضمرت في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ [ص: ٣٢] يعني الشمس، أو الخيل، على القولين في ذلك. وقيل في: طه، معناه: يا

رجل بالنبطية. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل إنها لغة معروفة في عكل؛ أي: يا رجل. قال الشاعر:

إن السفاهة طه من شمائلكم ... لا بارك الله في القوم الملاعين

وقال آخر:

هتفت بطه في القتال فلم يجب ... فخفت عليه أن يكون مزايلا

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لي عشرة أسماء منها: طه ويس. أراد يا طاهر، ويا سيد. حكي ذلك عن جعفر الصادق رضي الله عنه. والمصدر من هذا الفعل - أعني طاء: وطء، وقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي: أمكن موقعاً ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] أي: أشد قيلاً لِخلو القلب من الأشغال وهدوّ الأصوات، فهو بمعنى: أخف، والله أعلم. وقيل أشد من عمل النهار، لأن أصل الوطء: الثقل، من قولهم: اشتدت وطأة السلطان. قال الشاعر:

ووطأتنا وطأ على حنق ... وطء المقيد يابس الهرم

فكأن المصلي إذا ترك النوم والراحة التي جعلت في الليل واشتغل بالعبادة فيه ثقل على العبد من أجل ما يتكلف فيه، لا سيما مع قطع العبادة، وذلك صعب ثقيل، وعلى قدر التعب يكون الأجر، كما قال عليه الصلاة والسلام لإحدى نسائه: أجرك على قدر نصبك.

ومن قرأ: (وطاء) فالمعنى: أشد مهاداً للتصرف في التفكر والتدبر، لأنه يواطئ السمع والبصر القلب أي: يوافقانه، ومنه: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] أي: ليوافقوا. ويقال: وطأت الأمر: هيأته. وكذلك الفراش، والوطء: كل ما سهل. وقد وطئ وطأ ووطئت الجارية، والموطئ: موضع الوطء، والوطأة: طعام يتخذ من التمر. وجاء في الحديث من معنى وطأ أن جبريل عليه الصلاة والسلام صلى بالنبي صلى الله عليه وسلم حين غاب الشفق واتطأ العشاء هو افتعل من: وطأت الشيء فاتطأ، أي: هيأته وأصلحته.

وأما وطاء وظاء: فهما الحرفان من حروف التهجي، ولا كلام فيهما أكثر مما تقدم في اسميهما، وما بقي من مخرجيهما. ولم أجد طاء إلا والواو من نفس الكلمة مثل: وطأ مصدر وطأ، وقد تقدم. ووجدت طاة؛ وهو: بعد الذهاب في الأرض. ذكر ابن جني أن طيئاً اشتق من الطاة ولم يرض قول القتيبي: إنه من طوى من قبل الهمزة والله أعلم. فإن قدمت الهمزة وقلت: الطآة مثل الطفاة فهي الحمأة. قاله أبو سعيد في المصنف. فأما أطاء: فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا، وأختها في المخرج:

الدال، ولذلك يجمعان في قافية واحدة كما قال:

والله لـــولا شـــيخنا عـــباد ما مكـــرونا بعـــدها أو كـــادوا

ثم قال في القافية بعد ذلك الفرشاط والملطاط.

وقد تقدم: أطت الإبل وأدت بمعنى، والتاء أيضاً أختها في المخرج، وقد تقدم اشتراكهما في مثل: قتر، وقطر، وأقطار، وأقتار. ولذلك أبدلها طاء في باب افتعل نحو: اصطبر واضطرب.

وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وكلها من الحروف المجهورة وتزيد عليها الطاء والظاء أنهما من حروف الإطباق، لأنك إذا لفظت بهما أطبقت عليهما حتى يمتنع النفس أن يجري معهما، وربما جمعوا بين الطاء والظاء في قافية واحدة قال الشاعر:

أرقـــش ظمـــآن إذا عـــض لفـــظ أمـــر مـــن صـــبر ومقـــر وحطـــظ

ويروى: (وحضض) بالضاد، وهو دواء.

وأما الظاء والذال فلا يجتمعان في كلمة واحدة لبعد مخرج أحدهما من الآخر.

وقد ضرب بهما المعري المثل في البعد، فقال:

أراهـــم يـــضحكون إلـــي غـــشا وتغـــشاني المـــشاقص والخطـــاء

فلـــست لهـــم وإن قـــربوا ألـــيفاً كمـــا لـــم تألـــف ذال وظـــاء

كمل البيت ومعكوسه.

وأما مقلوبه: حرف بين ألفين، فما تجده إلا بالألف الزائدة. قولك إذا استفهمت: آطاء هذه أو ظاء؟ وإذا أخبرت عن نفسك فقلت: أنا أطأ هذه الأرض أو الجارية. وأما ألف أصلية فما وجدت إلا قول عمر رضي الله عنه أنه قال: فيم الرملان وقد أطأ الله الإسلام ونفى الكفر وأهله. ثم قال: وأيم الله ما ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقوله أطأ يجوز كتبه بالألف كما تقدم، ومعناه أعلاه وأوطأه. كما تقول: أوطأت فلاناً دابتي حتى وطئته. ويقال أوطأته وأطأته. مثل أوصدت الباب وأصدته، وأوسدت الكلب وأسدته. ويروى في قول عمر رضي الله عنه: وقد أطأ الله الإسلام. ومعناه مكنه وبسطه، والرملان والرمل واحد، وهو الطواف بسرعة حول البيت. يقال: رمل يرمل رملاً، والقوم يرملون، وقد تقدم ما لي في قلب هذه اللفظة وفي عكسها من الألفاظ في التكميل.

وأما مقلوبه: ألف بين حرفين، فما وجدت فيه أيضاً سوى: طاط؛ يقال للرجل الشديد الخصومة. ويقال أيضاً للرجل الطويل، والأشهر في هذه طوط، والطاط أيضاً

والطائط: الفحل الهائج. وفحول طاطة، قاله الزبيدي. والطوط: الحية، والطوط: القطن. قال الشاعر:

مـــن المـــدقمس أو مـــن فاخـــر الطـــوط

والوطواط: شجر القطن. والوطواط أيضاً: الرجل الضعيف الجبان، والوطواط المشهور: الخفاش وجمعه وطاوط. جاء منه في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: لما أحرق بيت المقدس كانت الأوزاغ تنفخه بأفواهها، وكانت الوطاوط تطفئه بأجنحتها. فرغ هذا وبقي مضاعف هذه الكلمة: طأطأ فلان رأسه: إذا أماله وخفضه. وكذلك الشيء وهو كثير، وسيأتي إن شاء الله تعالى.

وأما الظاء المنقوطة: فلم أجد فيها سوى مضاعفها: ظاءظاء، وهي حكاية صوت الأعلم أو الأهتم، وفيه غنة وتقول في هجائها ظييت ظاء: إذا صورتها، قاله الزبيدي رحمه الله تعالى.

بقيت القافية: وطل وظل. أما طل: فمن قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥] فقد فسر فقالوا: الوابل: المطر العظيم الشديد الوقع. والطل: الندى، وقيل: المطر الدائم الصغير، وقيل: هو أكثر من الندى وأقل من المطر. يقال: طلت ليلته فهي مطلولة وطلة. ويقال لكل شيء ند: طل، وأنشد:

كـــأنّ الخزامـــى طلـــة فـــي ثـــيابها

أي: ندية طيبة الرائحة.

قال الخطابي رحمه الله: قال الأصمعي: أخف المطر وأنفعه: الطل، ثم الرذاذ ثم البغش. يقال: بغشت الأرض تبغش فهي مبغوشة: إذا نديت. وأرض مرذ: عليها من الرذاذ، ولا يقال: مرذة ولا مرذوذة. ويقال مطلولة: من الطل. وقال غيره الرث: القليل من المطر، والرك: أكثر منه، وجمعه: ركاك. يقال: رثثت السماء ترثث ترثيثاً، ورسغت: كثر المطر حتى يغيب فيه الرسغ. وقالوا: الرذاذ أكثر من الطش والبغش، والطل أقل من الرك، والرك أقل من الطش، والطش أقل من القطقط، والوابل أعلى ذلك كله، والضباب: ندى كالغمام، وتصغير بغش بغيش، ومنه في الحديث: فأصابهم بغيش. وفي حديث آخر: فأصابهم رك.

ومن شكل طل: طل، أمر من: طال يطول، إذا صار طويلاً، وطل أيضاً: أمر من طال يطول، من الطول إذا تفضل بالمال وغيره. ومنه قوله تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣] أي ذي الغنى؛ تفسير ابن سلام. ومن شكله طلّ: بتشديد اللام. يقال: طلّ دمه يطل طلاً وطلولاً؛ إذا لم يثأر به. والدم مطلول وطليل. وقد قالوا: طل دمه فهو

مطل، ولم يعرفها الأصمعي، وقال الشاعر:

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلاً دمه ما يطل

والطلل: الشخص، وطلل الدار: بقايا كالدكان يجلس عليه، وطلة الرجل: امرأته. قال الشاعر:

ألا بكرت طلتي تعذل وأسماء في قولها أعزل
تريد سليماك جمع التلاد والضيف يطلب ما يأكل

وقع هذا الشعر في النوادر، وذكر جميع أسماء المرأة، قال: يقال: هي بعلته، وربضته، وجفنته، وشهلته، وحوبته، وحليلته، وعرسه. فإن زدت على طل ألفاً جاء منه: أطل، ومعناه أشرف تقول: أطل يطل فهو مطل. ومنه يقال: أبو المطل، للرجل القصير، كما يقال للديغ: سليم.

ومن هذا الباب: الطلاطلة، ويقال: الطلطلة على فعللة؛ وهي: الداء العضال؛ يقال: رماه الله بالطلاطلة. قال الراجز يصف دلواً:

قتلتني رميت بالطلاطلة كان في عرقويتيك نازلة

ومعكوس طل: لط. يقال: لط فلان على حق فلان: إذا جحده. وكل شيء سترت دونه فقد لططته؛ وهو لط. ويقال: لط بالباطل دون الحق. والط: إذا ستر الحق وأظهر غيره، وأنشد:

ولا تلط وراء الباب بالستر

أي: لا تسترها. وفي الحديث من هذا: ولط دوني بحجاب رفرفه الدر والياقوت فأوحى الله إليّ ما شاء أن يوحي. ويقال: لطت الناقة بذنبها: إذا جعلته بين فخذيها. وقد تقدم في أول الكتاب: أخلفت الوعد ولطت بالذنب. ويقال أيضاً: ألطت بذنبها، واللط: قلادة من حنظل، والجمع: لطاط. وأنشد:

وجه عجوز جليت في لط

وقال الشاعر:

جوار تحلين اللطاط يزينها صوائح أحواف من الأدم الصرف

الأحواف: جمع حوف، وهو شبيه بالمتزر، يتخذ للصبيان من أدم، ويشق من أسافله ليمكن المشي فيه. وهو الذي يسمى: الرهط؛ تلبسه الحيض، وجمعه: رهاط وأرهطة. وأنشد:

إذا ما أشا غير زهو الملو ك أجعلك رهطاً على حيض

كذا ذكره ابن قتيبة في المشكل: حيض، ورواه ثابت في الدلائل: على حبض.

وقال عن الهجري: هي الجارية بنت ست سنين أو سبع. قال: ومن قال حيض صحف.

ومن الحوف حديث عائشة رضي الله عنها قالت: تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليّ حوف، فما هو إلا أن تزوجني فألقى عليّ الحياء. خرجه ثابت رحمه الله.

ومن مضاعف لط: لطلط وهي: المسنة التي قد تساقطت أسنانها. قال أبو زيد: يقال للناقة بعد البزول: شارف، ثم عرزم، ثم لطلط، ثم حجرش، ثم دلقم، إذا سقطت أسنانها هرماً. واللطلط: الغليظ من الأسنان. وقالوا: رجل ألط بين اللطلط، وكذلك العجوز. فأما قولهم: لاط ملط، فهو مثل قولهم: خبيث مخبث، أي: له أصحاب خبثاء.

ومن لفيف هذا الباب مما يقرب من هذه اللفظة: لاط، ذكر صاحب السير حديث أبي لهب وبعثه العاص بن هشام: وكان لاط له بأربعة آلاف درهم. أي: أربى له، وكذا جاء اللياط مفسراً في غريب الحديث للخطابي رحمه الله، وهو قوله عليه الصلاة والسلام في الكتاب الذي كتبه لثقيف: وما كان لهم من دين إلا رهن فيه فهو لياط مبرأ من الله تعالى.

وقال أبو عبيد رحمه الله: سمي الربا لياطاً لأنه ملصق بالبيع وليس ببيع. وقيل: سمي الربا لياطاً لأنه لاصق بصاحبه لا يقضيه ولا يوضع عنه، وأصل هذا من اللصوق. ومنه كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يليط أولاد الجاهلية بمن استلاطهم، يعني: يلصق. ومنه الملتاط بالقلب يعني: الملتصق به. ومنه قول أبي بكر رضي الله عنه حين سئل: من أحب الناس إليك؟ قال: عمر، ثم قال: اللهم إلا الولد، فإن الولد ألوط، يعني ألصق.

ومما يقرب منه في اللفظ ويوافقه في معنى الإلصاق ما يجعل بين الحجارة وهو الملاط، يجعل بين الحجارة في البناء للإلصاق، وفي صفة: الجنة بناؤها لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك. والملط: الذي لا يبالي ما صنع، والجمع ملوط وأملاط، وقد ملط ملوطاً. والملاطان: جانبا السنام، ومنه قوله:

لِمـــن جمـــل رخـــو الْمـــلاط نَجـــيب

والملطاء ـ ممدود على فعلاء ـ: شجة يقال لها السمحاق. والأملط: الذي لا شعر له في جسده، وقد ملط ملطاً. وقد تقدم في الحديث: أول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله. يعني: يلصقه بالطين ويصلحه لئلا يخرج منه الماء.

وفي الحديث: إن كنت تليط حوضها. ويروى: تلوط، أيضاً. قال ابن حبيب: وتلوط هو الصواب، ومعناه: تسطح حوضها تسويه وتلصقه لئلا يخرج الماء منه. ومنه

قيل في حروف الإتباع: شيطان ليطان؛ أي: ملتصق. ومن هذا الباب أو قريب منه: الليطة؛ وجمعها: ليط، وهي القصبة، وقيل قشرة الصلب، وكل شيء له صلابة كالقناة والقصب فالقطعة منه ليطة.

وفي حديث سعيد بن المسيب رضي الله عنه من هذا قال: الشصير والليطة والظرر كل إذا فري وأجهز. خرجه ثابت رحمه الله. وقال في تفسيره عن عمرو بن الحارث: الشصير العصا إذا تكسرت يخرج من وسطها شظية بيضاء رقيقة، يريد ـ والله أعلم ـ أن الذبح بهذه الأشياء المذكورة جائز. وأما الظرر: فهو الحجر، وجمعه ظرّان، ومنه قوله:

تطاير ظران الحصا بمناسم

البيت. والليط أيضاً: اللون، ولاط في الأمر لاطاً شديداً: إذا ألح.

ومن مقلوبه: اللط؛ وهو: لزوق الشيء بالشيء. ويقال: ألقى عليه لطاته؛ أي: ثقله. ومقلوبه: طال الشيء طولاً، ورجل طوال، أي: طويل جداً، والطوال: جمع الطويل، والطيال لغة، ورجل ذو طول في قدرته، والطول والطويلة: الحبل الطويل؛ يمد بقائمة الدابة. والطول: التمادي. يقال: طال طولك وطيلك، والطوال: مدى الدهر، والطول: طول في مشفر البعير الأعلى، يقال منه: جمل أطول، ومقلوبه: الطلاوة: الحسن، والطلاوة والطلوان: الريق يجف على الأسنان.

وأما الظل في القافية فمعروف وهو في أول النهار. فإذا نسخته الشمس ثم رجع فهو فيء، سمي فيئاً لأنه فاء من هذه الجهة إلى الجهة الأخرى. وسيأتي الكلام عليه في باب الفاء إن شاء الله تعالى. وجمع الظل ظلال. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١] وقال: ﴿وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، ويجمع أيضاً على أظلة. وفي الحديث من صفة الأولياء: يراعون الشمس والأظلة لذكر الله تعالى. والظل أيضاً: ما أظلك من سحاب ونحوه، وظل الليل: سواده. يقال: أتانا في ظل الليل. قال ذو الرمة:

قد أعسف النازح المجهول معسفه ... في ظل أخضر تدعة هامه اليوم

والظل أيضاً: العز والمنعة. يقال: فلان في ظل فلان. أي: في عزه، وأنشد:

فلو كنت مولى الظل أو في ظلاله ... ظلمت ولكن لا يدا لك في الظلم

أي: لو كنت ذا عز، أو في ظلال عز، أو مولى الظل، يريد: صاحب عز. وقد تقدم البيت. وأنه يقال: لا يدا لك، ولا يقال: لا يدان. وفي الحديث: السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم. والظل أيضاً بمعنى: القرب. تقول: أظلنا شهر

رمضان؛ أي: قرب منا. وأظلك فلان أي: دنا منك؛ كأنه ألقى ظله عليك، وأظل يومنا: إذا كان ذا ظل، وأظل البعير ما تحت منسمه، قال:

ربّما أبركها في محك جعجع ينقب فيه الأظل

وتقول: ظل فلان يفعل كذا وكذا ظلولاً: إذا فعله نهاراً. فأما بالليل فلا يقال منه إلا: بات يفعل كذا. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: أظلني يوم عرفة وأنا حائض. فذكرت اليوم هذا أصله ثم قد توسعوا فيه. قال عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

أي أظل عليه. وفي القرآن من هذا: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ [طه: ٩٧] وقد أقاموا على عبادته بالليل والنهار حتى رجع إليهم موسى من ميعاده. وتقول: ظلت أفعل كذا؛ وظللت، قال الشاعر:

ظللت ردائي فوق رأسي قاعدا

البيت. وفي القرآن العظيم: ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٥] و: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ [طه: ٩٧] قراءة قتادة وابن مسعود: (ظِلت) بكسر الظاء. وقرأ الأخفش: (ظللت) بلامين. والمظلة: ما استظللت به من شجر أو غيرها ومثله المظلة. وفي القرآن: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء: ١٨٩] قال ابن عباس رضي الله عنهما: أصابهم حر شديد، فأرسل الله سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها، فلما صاروا تحتها صيح بهم فهلكوا. وقيل: خرجوا إلى الغيضة يستظلون بها، فأضرمها الله عليهم ناراً. نعوذ بالله من نقمه، ونسأله من نعمه.

ومعكوس ظل: لظ. يقال: رجل لظ وملظاظ: إذا كان ملازماً للشيء ملحاً عليه. ويقال: لظ وألظ لظيظاً وهو: الإلحاح. وفي الحديث: ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام. ومعناه: الزموا هذه الدعوة وألحوا بهذه الكلمة، والله أعلم.

ويقال: تلاظ القوم لظاظاً وملاظة: إذا لزم بعضهم بعضاً فلم يفترقوا في حرب أو غيرها. وأنشد:

والجد بجد وقدراً ملظاظاً

يروى: الجد، ضد الهزل، والجد الذي هو: البخت والسعد.

وللخطيب أبي محمد من هذه اللفظة:

فاصطنعني إنني رجل بجميل الشكر ملظاظ

أي: ملظ، انظره في رسالته التي على حروف المعجم المذكورة في التكميل:

خرجت من شيء إلى غيره ... من أط أطاً ويجوز الأطيط
وكله علم ويحتاجه ... يقظان لا نومان أو ذو عطيط
وها أنا أذكر من بعد ذا ... فوائد الباب المديد المطيط

فصل من فوائد هذا الباب

فيه علوم سهلة الموطا ... أخرتها للطاء من أجل الطا
والعلن من يحرمه فأخطا ... فالسوم منه يا خليلي بطا

تقدّم: أط ومصدره: الأطيط، وقد فسر في الحديث: أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله. وفي القرآن مصداق هذا الخبر قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي: عن عبادته، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩-٥٠]. وجاء في الخبر: أن لله ملائكة سجوداً ما رفعوا رؤوسهم منذ خلقهم، ثم يقولون إذا أمروا برفع رؤوسهم عند انقضاء مدتهم: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. وكذلك: لله ملائكة قيام وآخرون ركوع وآخرون كذا وآخرون كذا: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات: ١٦٤-١٦٦]. وقد تقدم ذكر الأطيط في حديث المصراعين، وفيه بشرى كبيرة والحمد لله. وذلك أنه لو لم يدخل الجنة إلا فلان الصالح، وفلان الفاضل، لم يكن للباب أطيط، ولا كان ثم زحام من أبناء سام وحام، لكن يرجو هذا غير العفيف أن يكون من اللفيف فإن الله تعالى كريم، وشأن لا إله إلا الله عظيم. ومع هذا فخف واحذر، وعش ولا تغتر، فقد ورد في صحيح الأخبار أن طائفة من الموحدين يدخلون النار، نعوذ بالله من سوء الأقدار، ومن رؤية هذه الدار.

وجاء في لفظ: طأطأ، وتطاطأ، والطاطأ، والطآطئ، أحاديث وأخبار، فما أعجبني منها واستغربته فهنا كتبته. فمن ذلك حديث ((سفينة)) مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ركبت البحر في سفينة فانكسرت، فركبت لوحاً، فطرحني إلى أجمة فيها الأسد، فلم يرعني إلا به. فقلت له: يا أبا الحارث أنا ((سفينة)) مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فطأطأ رأسه ثم غمزني بمنكبه وسعى، قال: فما زال يغمزني ويهديني إلى الطريق حتى أوقفني على الطريق، وهمهم فظننت أنه يودعني. وكان سبب تسميته رضي الله عنه ((سفينة)) قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر،

وكان إذا أعيا بعض القوم ألقى عليّ سيفه وألقى عليّ ترسه حتى حملت من ذلك شيئاً يسيراً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنت ((سفينة)). وقال الشاعر من هذه اللفظة في عثمان رضي الله عنه:

الشيخ عثمان ونعم المتبع ... طأطأ للموت جراناً فوضع
محتسباً نفس شهيد قد رفع

ومن لفظ: أطأ، ما أنشد ثابت رحمه الله في الدلائل، فيما يروى عن إسماعيل الأسدي قال: أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطوسي صاحب أبي عبيد القاسم بن سلام سنة ثلاث وأربعين ومائتين، قال: أنشدنا أبو عبيد:

ولما رأيتك تنسى الإخا ... ء ولا قدر عندك للمعدم
وتجفو الشريف إذا ما أقل ... وتدني الدنيّ على الدرهم
ولا فضل عندك بين العفيف ... وذي الفضل والمعدم المجرم
وهبت أخاك للأعميين ... والأثرمين ولم أظلم
ولا أطأ الشوك فوق البساط ... ولا آكل الشهد بالعلقم

قال أبو عبيد: الأعميان: السيل والنار. قال ثابت: تقول العرب: الأثرمان الدهر والموت، ساقه في حديث أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أنه ما رأى أثرم أحسن منه. قال: الثرم هو أن تنقلع السن من أصلها. تقول: رجل أثرم، وامرأة ثرماء. وقد ثرم يثرم: إذا ثرمت سنه. وقد أثرمه الله أي: صيره الله أثرم. وكان من حديث أبي عبيدة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما جرحه ابن قمئة ـ لعنه الله ـ يوم أحد، دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته الشريفة فنزع أبو عبيدة إحدى الحلقتين من وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم بأسنانه، وجبذها برفق لئلا تؤذيه، فلشدة عضه على الحلقة سقطت ثنيته رضي الله عنه، ثم فعل بالأخرى مثل ذلك، فسقطت ثنيته الأخرى.

فإن قدمت الراء على الثاء جاء منه: أرثم. تقول العرب منه: رثمت أنف الرجل فهو أرثم، وقد رثم رثماً. ومنه الحديث المروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان يزاحم على الركن حتى رثم أنفه.

وقد يسمى ما يطأ الإنسان برجليه من الأرض: الطأطاء. ومنه قول الكميت:

ذو أربع ركبت في الرأس تكلؤه ... مما أراب ودون الكائن الإبل
منهما اثنتان لما الطأطاء تحجبه ... والأخريان لما أوفى به القبل

خرجه ثابت رحمه الله. وقال: ذو أربع يعني: أذنيه وعينيه. والاثنتان يعني: الأذنين. لما الطأطاء تحجبه: وهو ما يطأ من الأرض. يقول: إذا كان موضع يوارى عنه

ما فيه يسمع. والأخريان لما أوفى: لما أشرف به. والقبل: ما استقبلك من مشرف. ومنه:

فقلت للركب لما أن علا بهم من عن يمين الحبيا نظرة قبل

ومنه قول الأعرابي في حديث: الحق يقبل فمن انتهى إليه اكتفى، ومن قصر عنه عجز. قال: معنى يقبل: يقول تعرفه إذا نظرت إليه. وقال أبو زيد: سمعت من يقول: رأيته قبلاً ومقابلة وعياناً كله واحد. وفعلت ذلك من ذي قبل لم يقولوا غيره، وتقول: لا قبل لي به أي: لا طاقة. وقال الله تعالى: ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ [الكهف: ٥٥] أي: ظاهراً يرونه ويعرفونه. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه، وصلّوا بدمشق صلاة العشاء، وكانت ليلة مطر وثلج وشفان: لو يعلم الناس ما في هذه الصلاة من الخير لحضروها بذراريهم، ثم قال أبو الدرداء: لولا أن الله يدفع بمن يحضر المساجد عن من لم يحضرها، أو بالقراءة عن من لا يقرأ، لجاءهم العذاب قبلاً. قوله شفان يعني: الشفيف، برد ريح في نداوة، قال الشاعر:

ألجاه شفان لها شفيف

وفسر قتادة قول الله تعالى: ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٩٢] أي: عياناً قاله ابن سلام. وقال محمد بن أبي زمنين: قبيلاً، مأخوذة من المقابلة. قال غيره: ومنه قيل للمقابلة: قبيل وقبول، كما قال الشاعر:

كصرخة قبلي يسرتها قبيلها

والقبيل في هذا: الضامن. ويقال له أيضاً: الكفيل والزعيم. ومن هذا الحديث: الزعيم غارم. ومن القبيل الذي هو الكفيل ما خرج ثابت أيضاً: خاصم أعرابي من أهل اليمامة امرأته، فادعى عليها دعوى، فأنكرته وجحدت. فقيل للأعرابي: فهات بينتك، فقال: قبلها حتى أجيء بشهودي. قال: لا أقبلها. قال: فارطمها. قال: لا أرطمها. قال: معنى قبلها: خذ منها كفيلاً. وارطمها: احبسها في السجن.

ومن أطأ: ما خرج ثابت أيضاً عن رجل من الموالي ـ كان يقال: إنه من أشد الناس في ذلك الزمان ـ دخل على الحجاج مع أصحاب له رسلاً ـ قال الشعبي راوي الحديث ـ: عمايمهم على أوساطهم، وسيوفهم على عواتقهم، وكتبهم بأيمانهم. فسألهم واحداً واحداً عن المطر هل كان وراءك من غيث؟ فيقول: نعم. ويصف المطر بكلام فصيح فيه طول، وكلهم كذلك حتى انتهى إلى هذا الرجل من الموالي المذكور. فقال: هل كان وراءك من غيث؟ قال: نعم. ولكني لا أحسن أن أقول كما يقول هؤلاء. فقال: قل كما تحسن. فقال: أصابتني سحابة بحلوان، فلم أزل أطأ في أثرها حتى دخلت على

الأمير. قال الحجاج: لئن كنت أقصرهم في المطر خطبة إنك لأطولهم بالسيف خطوة. أخذ الحجاج هذا الكلام من قول الشاعر ـ وقد تقدم ـ:

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وكان جواب أحد الرسل؛ إذ قال له الحجاج: هل كان وراءك من غيث؟ قال: نعم. وسمعت رجلاً يقول: هلموا ظعنكم إلى محلة تطفأ فيها النيران، وتشتكي فيها النساء، وتتنافس فيها المعزى. قال الشعبي: فلم يدر الحجاج ما قال، فقال: ويحك إنما تحدث أهل الشام! فأفهمهم. قال: نعم ـ أصلح الله الأمير ـ أخصب الناس، وكان التمر والزبد والسمن واللبن، فلا توقد نار يختبز فيها. وأما تنافس المعزى: فإنها ترى من أنوار الشجر وأنواع التمر وأنوار النبات ما يشبع بطونها ولا يشبع عيونها. كذا رأيت، ولم يذكر تفسير: تشتكي النساء، ولعله أراد أن النساء يكثر تعبهن لكثرة الحلب، وسلي السمن، واستخراج الزبد، فيشتكين ذلك العمل والتعب. وقد يفسر هذا على معنى آخر إذا وصف العام بالجدب.

وقال ثابت: بعث قوم رائداً لهم، فلما رجع قالوا له: ما وراءك؟ قال: رأيت عشباً يشبع فيه الجمل البروك، وتشكت منه النساء، وهم الرجل بأخيه. قال ابن الأعرابي يقول: العشب قصير لا يناله الجمل من قصره حتى يبرك. وقوله: وتشكت منه النساء، يقول: من قلّته، إنما تحلب الغنم في شكوة، والشكوة: مسك السخلة ما رضع، فإذا فطم ـ وإفطامه أن يدع الرضاع ـ فمسكه يقال له البدرة، فإذا أجذع فجلده سقاء؛ وقد تقدم هذا. يقال: سخلة ذكر، وسخلة أنثى، وشكوة، وثلاث شكوات، وهي: الشكاء. وقال غير ابن الأعرابي: همّ الرجل بأخيه، أي: همَّ به أن يدعوه إلى منزله، كما كانوا يفعلون في الخصب. ويقال غير هذا: إن الخصب يدعو إلى غزو الجيران، وإلى أن يأكل القوي الضعيف، كما قال الشاعر:

قوم إذا نبت الربيع لهم نبتت عداوتهم مع البقل

وقال الآخر:

صديق كلما كنتم بشرّ وأعداء إذا كنتم بخير

وكذلك قيل في تفسير تنافس المعزى معنى آخر: قيل لأعرابي ما وراءك؟ قال: خلفت أرضاً تظالم معزاها. يقال: سمنت، وأشرت، فتظالمت. قلت: انظر الحجاج على فصاحته التي يضرب بها المثل لم يفهم قول أحد الرسل. يقال في مثل: أفصح من الحجاج. وكتب إليّ الخطيب أبو محمد رحمه الله في جواب كتاب كتبت به إليه:

وافى كتابك يا أبا الحجاج تبدو عليه فصاحة الحجاج

لَمّا لَمحت حروفه انحرف القذى عن ناظريّ وحاد عن منهاج

من شعر يطول.

رجع الكلام: مثل ما جرى للحجاج ما خرج ثابت رحمه الله عن رجل ـ ولم يسمه ـ قال: أرسلني أمير الكوفة بكتاب إلى سليمان بن عبد الملك، فقال: إن أمير المؤمنين رجل بدوي وسيسألك عن السماء، فهل تقوم بذلك؟. فقلت: لا والله. قال: فلما أصحرت؛ فإذا أنا بأعرابي فقلت: يا أعرابي هل لك في درهمين؟ قال: حريص والله عليهما، محتاج إليهما، ولكن ما سببهما؟ قلت: تصف لي هذه السماء. قال: ويعبأ أحد بذلك؟. قلت له: نعم؛ السائل لك يعبأ بذلك. قال: أتعجز أن تقول: أصابتنا سماء عقد لها الثرى، وقامت بها الغدر، ولم نزل منها في مثل مجر الضبع حتى قدمت إليك. قال: فأخرجت قرطاساً فكتبت ما قال. قال: ودفعت إليه الدرهمين، فكنت أقرأ ما كتبت على ناقتي وذلك هجيراي. فلما دنوت من سليمان بن عبد الملك، نزلت عن ناقتي فعقلتها ثم سلمت عليه بالخلافة ـ يريد أن يذرب به لسانه ـ ثم توصلت إلى سليمان، فلما ناولته الكتاب قال: هل وراءك من غيث؟، قلت: نعم. وقلت له ما حفظت. قال: فكسر سليمان إحدى عينيه وقال: أما والله إن هذا الكلام لكلام ما أنت بأبي عذرته. فقلت: صدق والله قول أمير المؤمنين، وحدثته بالحديث. قال: فلقد رأيت سليمان ممسكاً على بطنه من الضحك. قوله في الخبر: ما أنت بأبي عذرته، يقول: ليس من تلقائك ولكنك سمعته فأديته. وقوله: مجر الضبع، فإن الضبع يختفي في وجاره ولا تكاد تجده إلا بنجوة. فإذا عظم السيل دخل عليه النافقاء فاستخرجه. فلذلك يقال: مجر الضبع. وقوله: بعث قوم رائداً لهم، فالرائد الذي يرود الغيث ويرتاده أي: يطلبه. يقال: راد يرود روداً ورياداً، والجمع: رواد، وقد يقال للرائد: راد. كما قالوا للعارية: عارة، قال الشاعر:

فأخلف وأتلف إنّما المال عارة فكله مع الدهر الذي هو آكله

وقال الحجاج لأعرابي كلمة؛ فوجده فصيحاً؛ كيف تركت الناس وراءك؟. قال: أصلح الله الأمير؛ حين تفرقوا في الغيطان، وأخمدوا النيران، وتشكت النساء، وعرض الشتاء، ومات الكلب. فقال الحجاج لأصحابه: أخصباً نعت أم جدباً؟. قالوا: جدباً. قال: بل خصباً. وفسر معنى تفرقوا في الغيطان: أعشبوا؛ فإبلهم وغنمهم ترعى. وأخمدوا النيران معناه: استغنوا باللبن أن يشتووا اللحم، وتشكت النساء أعضادهن من كثرة المخض للألبان. ومات الكلب: لم تتماوت أنعامهم فيأكل جيفها. ومن الأمثال: نعم كلب في بؤس أهله، لأنه إنما ينعم في الجدب ويموت في الخصب. ومن قولهم

إذا مطروا: ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم؛ يعني المطر. ومن أجل ذلك يذكر. قال الشاعر:

إذا نـزل الـسماء بـأرض قـوم رعيـناه وإن كانـوا غـضابا

وكما قيل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] إن رحمة الله هنا: المطر فلذلك ذكر. وكذلك في قول الله تعالى: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ [المزمل: ١٨] ذكر ذلك على معنى السقف، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال عز وجل: ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ [الطور: ٥].

ومن ملح هذا الباب في طأطأ: ما ذكر البكري أن كثيراً الشاعر كان قصيراً، لا يبلغ ضروع الإبل، وكان إذا دخل على عبد الملك قال له: تطأطأ لا يصيب رأسك السقف. وهو الذي قال له إذ رآه: تسمع بالمعيدي لا أن تراه. ومن حديث النبي عليه الصلاة والسلام: إن الأسد أكل ابناً لحواء فسبته، فسبها، فشكت ذلك إلى آدم عليه الصلاة والسلام، فقال له: أتجمع بين أن تفجعها بابنها وتسبها، اخسأ، فطأطأ رأسه فهو لا يقدر أن يرفعه. خرجه ابن قتيبة في شرح الحديث.

ومن أحسن ما رأيت في: الطأطأة، قول الأحنف بن قيس: لقد مرت عليّ مائة هنة، كلها أطاطي لها رأسي فتجوزني، ولو نصبت لإحداهن لاصطلمتني. ينظر هذا إلى قول يعقوب الخزاعي:

لَمّـا رأيـت القـنا الْخطـى مـشرعة والـشر فـي الأيـدي مـصاليتا
طأطأت رأسي فجازوني ولو وقفوا طأطأتــه أبــداً أو يــبلغ الْحــوتا
قــالا تعيــر بعــد الـيوم قلـت ذرا عــاري علـيّ وقــوماً أنـتما مــوتا

وينظر هذا المعنى إلى قول الشني الأعور ـ وكان يجبن ـ قال له أميره في بعض الحروب: تقدم يا شني فإنها زيادة ألف في عطائك. قال: أخاف أن يذهب العطاء كله، وأنشد يقول:

يقــول لــي الأميــر وقــد بــرزنا تقـدّم حـين جـد بـنا المـراس
فمــا لــي إن أطعــتك مــن حــياة ومــا لــي غيــر هــذا الـرأس راس

وقيل لرجل ولي الحرب: لا تهرب، فإن الأمير يغضب عليك. فقال: إن يغضب عليّ وأنا حي أحب إليّ من أن يرضى عني وأنا ميت.

ومثل هذا ما كتبه إليّ الفقيه الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن عليّ رضي الله عنه في كلام كثير، منه ـ ولعله والله يغفر له ينشد ـ:

إذا التقى الصفان وتدانى الصنفان
ونظر إلى سرعان الخيل وعاد النهار كالليل
لست على القرن بعطاف ولا لدى الحرب بوقاف
لكنني أهرب مستعجلاً لو ربطت رجلي إلى قاف

وإن سمع: يا خيل الله، أخذته أم ملدم، وتأخر ولم يتقدّم، وينشد:

وقد قامت الحرب العوان كأنها من الهول بحر في تدافقه طما
وقالوا تقدّم قلت لست بفاعل أخاف على فخارتي أن تحطما

ثم حكى قصيراً حين ركب العصا، وقال: اللهم اغفر لمن عصى. العصا: اسم فرس لجذيمة ركبها قصير، وقصير: هو صاحب الزباء، وحديثه مشهور، وقد تقدم.

وإذا وقعنا في حديث هذا الجبان، فلنكفره بما يروى عن أحد الشجعان: إنه طعن في بطنه فخرجت حشوته، فردها في جوفه وعصب عليها عمامته، ثم حمل فقتل سبعة، وحينئذ مات رحمه الله. وآخر قطعت رجله فأخذها واتبع ضاربه، وما زال ينخعه بها حتى قتله وهو يقول:

يا نفس لن تراعي إن قطعت كراعي
إن معي ذراعي ينخعه يضربه في موضع النخاع

وقصة معاذ بن عمرو بن الجموح رضي الله عنه حين قال: ضربت يوم بدر على عاتقي، فطرحت يدي، فعلقت بجلدة من جنبي، فقاتلت عامة يومي وأنا أسحبها خلفي، فلما آذتني، وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها. ومن الشجعان: البراء بن مالك رضي الله عنه، قتل من المشركين مائة رجل مبارزة، سوى من شارك فيه، وهو أخو أنس بن مالك لأمه وهو الذي ألقي على ترس وطرح على جدار الحديقة التي كان فيها مسيلمة، وجرح يومئذ بضعاً وثمانين جراحة، فحمل إلى رحله ودووي، وأقام عليه خالد شهراً. وكان رضي الله عنه مجاب الدعوة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كم من ضعيف مستضعف ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك. ولقي مرة زحفاً من المشركين قد أوجعوا في المسلمين فقالوا: يا براء إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنك لو أقسمت على الله لأبرك، فأقسم لنا على ربك قال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم. فكان ذلك، ثم التقوا على قنطرة السوس وقد أوجعوا في المسلمين. فقالوا: يا براء أقسم لنا على ربك. فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيي صلى الله عليه وسلم، فمنحوا أكتافهم وقتل شهيداً رضي الله عنه.

فائدة:

يقال: رجل شجاع من قوم أشجعة وشجعان، مثل غلام وأغلمة وغلمان. ويقال أيضاً: رجل شجيع وشجعان، كجريب وجربان، وامرأة شجاعة. وقيل: لا توصف به. وقد تقدم طرف من ذكر شجعان الرجال.

الشجاعات من النساء

وأذكر هنا فصلاً عن النساء ربات الحجال. أولاهن بالتقدم: أم عمارة بنت كعب الأنصارية، وهي أم حبيب الذي قتله مسيلمة الكذاب. أخذه فقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟. فيقول: نعم. ويقول مسيلمة: أتشهد أني رسول الله؟. فيقول: لا أسمع. وجعل يقطعه عضواً عضوا كذلك حتى مات. شهدت بيعة العقبة وأحداً وبيعة الرضوان، ثم شهدت اليمامة، ثم أنفذت مع ابنها عبد الله بن زيد بفسطاط مسيلمة فوجدها ابنها عبد الله قد سبقته إليه وقاتلت حتى قطعت يدها، وجرحت يومئذ اثني عشر جرحاً من بين طعنة وضربة.

وأم حكيم بنت الحارث بن هشام، زوج عكرمة بن أبي جهل، قتل يوم أجنادين شهيداً رضي الله عنه. فتزوجها بعده خالد بن سعيد، وبنى بها هناك وهم يقاتلون الروم، فقتل صبيحة بنائه بها رضي الله عنه ورحمه الله، وشهدت أم حكيم القتال، وقتلت سبعة من الروم بعمود الفسطاط الذي بات فيه خالد معرساً بها عند القنطرة التي بمرج الصفر، فهي تسمى قنطرة أم حكيم إلى اليوم.

ومنهن الخنساء الشاعرة واسمها: تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية. حضرت حرب القادسية رضي الله عنها، ومعها بنوها أربعة رجال، فقالت لهم من أول الليل: يا بنيّ إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية. يقول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله تعالى سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سياقها، وجللت ناراً على أرواقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالمغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة. فخرج

بنوها قابلين لنصحها، عازمين على قولها. فلما أضاء لهم الصبح بادروا مراكزهم، وأنشأ أولهم يقول:

يا إخوتي إن العجوز الناصحه ... قد نصحتنا إذ دعتنا البارحه
بمقالة ذات بيان واضحه ... فباكروا الحرب الضروس الكالحه
وإنما تلقون عند الصائحه ... من آل ساسان كلاباً نابحه
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحه ... وأنتمو بين حياة صالحه
وميتة تورث غنماً رابحه

وتقدّم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه. ثم حمل الثاني وهو يقول:

إن العجوز ذات حزم وجلد ... والنظر الأوفق والرأي السدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد ... نصيحة منها وبراً بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد ... إما بفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عيش الأبد ... في جنة الفردوس والعيش الرغد

وقاتل حتى استشهد رضي الله عنه ورحمه. ثم حمل الثالث وهو يقول:

والله لا نعصي العجوز حرفاً ... قد أمرتنا حرباً وعطفا
نصحاً وبراً صادقاً ولطفا ... فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتى تلفوا آل كسرى لفا ... أو يكشفوكم عن حماكم كشفا
إنا نرى التقصير عنهم ضعفاً ... والقتل فيهم نجدة وعرفا

فقاتل حتى استشهد رضي الله عنه. ثم حمل الرابع وهو يقول:

لست لخنساء ولا للأخرم ... ولا لعمرو ذي السناء الأقدم
إن لم أرد في الجيش جيش الأعجم ... ماض على الهول خضم خضرم
إما لفوز عاجل ومغنم ... أو لوفاة في سبيل الأكرم

فقاتل حتى قتل، رضي الله عنهم ورحمهم. فبلغها الخبر فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة، لكل واحد مائتا درهم، حتى قبض رضي الله عنه. وسيأتي من ذكرها في باب الهاء مع ذكر غيرها. وذكر في حديث الخنساء حديث فتى من العرب جرحه صاحب له، فجاء إلى أمه يستسقيها ماء. فقالت له: إن الماء لن يفوتك أبداً اذهب فخذ ثأرك، وأخرجته ولم تسقه.

وتقدّم في القافية: طل وظل. وأذكر من فوائد طل حكاية طريفة عن امرأة ظريفة

كانت تهوى غلاماً اسمه طل، وكانت من كرائم الرشيد، فنمى الخبر إليه، فأقصى ذلك الغلام وأبعده غاية الإبعاد. وأوعد بالجارية نهاية الإيعاد، وقال لها: لئن ذكرته لأقتلنك. فدخل عليها ذات يوم على غفلة وهي تقرأ: ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] فالذي نهى عنه أمير المؤمنين. فاستحيا من ذلك وقال لها: ولا كل هذا.

وتقدّم: أطل، ومعناه: أشرف. وأنه يقال: أطل الرجل على كذا فهو مطل. ومنه سمي الرجل القصير: أبو المطل، على القلب، كما قالوا للغراب: أبو الأعور لحدة بصره، وللأسود: أبو البيضاء، وللديغ: سليم، على جهة التفاؤل، وللقفر: مفازة، وهي مهلكة، وهذا كثير.

وأذكر هنا قطعة من الشعر تستطرف وتستظرف. قال بعض الأدباء في غلام له اسمه سعادة:

لي عبد سوء وعبد السوء منقصة ... والمسترق لعبد السوء مولاه
قالوا سعادة فأل من سعادته ... كأنهم جهلوا اسماً ضد معناه
هذا الغراب أبو البيضاء كنيته ... وانظر بأي سواد خصه الله

وأما الظل: فقد تقدم القول فيه، وأزيدك هنا فائدة: خرج أبو أحمد بن عدي رحمه الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه نهى أن يقعد الرجل بين الظل والشمس، وقال: إنه مقعد الشيطان. وخرج أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: إذا كان أحدكم في الشمس فقلص عنه الظل فصار بعضه في الظل وبعضه في الشمس فليقم. وفي رواية: إذا كان أحدكم في الفيء.

وذا فصل الفوائد قد تقضى ... وآخذ بعد في ألف وكاف
فلا تنس المؤلف من دعاء ... ألا إن الدعا شاف وكاف

باب الألف مع الكاف

وأك وأك وأك وأك ... وكل وكل وكل وكل
دامت لنا ولكم العافية، لما لم أجد ما أكمله أكملت بالقافية.

أما أك الأول: فهو فعل. تقول منه: أك يومنا يؤك أكاً: إذا اشتد حره وسكن ريحه. ويقال: عك أيضاً، والعكة: الرملة الحارة، والجمع: عكاك.

وأما أك الثاني: فمصدر هذا الفعل.

وأما أك الثالث: فنعت لليوم، يقال: يوم عك أك، وعكيك أكيك. قال الراجز:

إذا الشريب أخذته عكه ... فخله حتى يبك بكه

الشريب: الشريك في الشرب. أي: خله حتى يورد إبله الحوض فتتباك عليه، أي: تزدحم.

وقال بعض أهل اللغة: سميت مكة: بكة؛ لأن الرجال يتباكون فيها، أي: يزدحمون. وكل شيء تراكب فقد تباك. وقيل: سميت مكة من قولهم: مك الصبي ثدي أمه يمكه مكاً: إذا استقصى مصه، وكذلك كل راضع. فاشتق اسم مكة من هذا المعنى لقلة الماء بها، لأنهم يمكون الماء أي: يستخرجونه باستسقاء. يقال: رجل مكان ومصان وملجان، ويقال: لئيم راضع يرضع الغنم للؤمه ولا يحلب لئلا يسمع صوت الحلب فيقصد. وقال قوم: سميت مكة لأنها تمك من ظلم فيها، أي: تمعصه وتهلكه. وقال ابن عزيز: سميت مكة لاجتذابها الناس. وفي الحديث: لا تمككوا على غرمائكم، أي: لا تستقصوا. وقال المهدوي: سميت مكة لأنها تمك المخ من العظم بما ينال قاصدها من المشقة. من قولهم: مككت العظم: إذا استخرجت ما فيه. ومن قال: بكة بالباء؛ فمن البك؛ وهو الزحم. فالناس يزدحمون فيها للطواف. تباك الناس: إذا ازدحموا. كما تقدم. وقيل سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة. والبك: دق العنق. كأنهم إذا ألحدوا فيها لم ينظروا. وقال بعضهم: بككته أبكه: إذا وضعت منه ورددت نخوته. قال ثابت: وهذه أقوال كثيرة، وبعضها قريب من بعض، والله أعلم بما أراده من ذلك.

وأما ألك الآخر: فمعناه زحم. يقال: أكه أكاً: إذا زحمه، مثل: بكه. وهذا أيضاً قريب مما تقدّم، ولكن كذا قال أهل العلم، ولكل معنى فصيح ومغنى فسيح، والحمد لله.

ومعكوس ألك: كاء. يقال: كاء عني يكاء: إذا ارتدع. قال: والكأ من غير لفظ كاء، وجعله من باب: كأى يكأى كأواً: إذا ارتدع. ومن مضاعفه: كأكأ، يقال: كأكأته عني فتكأكأ: إذا ارتدع، وكذلك تكأكأ بمعنى: جبن ونقص. والمتكأكئ: القصير. والتكأكؤ: التجمع. ومنه قول عيسى بن عمر إذ سقط حماره فاجتمع عليه الناس فقال: ما لكم تكأكأتم عليّ تكأكؤكم على ذي جنة، افرنقعوا عني. والافرنقاع: الزوال عن الشيء.

وأما مقلوبها ألف بين حرفين: كاك، فمهمل لا أعرف فيه شيئاً غير لقب رجل من أصحاب الحديث؛ شيخ شيخي العثماني؛ قال في حديث كتب إليّ أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز ـ يعرف بـ كاك الحنفي ـ وذكر حديث الديك الأبيض المسلسل. انظره في باب العين من هذا الكتاب.

وكذلك حرف بين ألفين: أكا، ليس فيه ما أعلم إلا مصدر: ألك أكاً. اللهم إلا إن كان يقال: إكاء في وكاء، فإن ذلك جائز عندهم. كما قالوا: إكاف في وكاف، وإشاح في

وشاح، فإن كان سمع ذلك فحسن، وإلا فلا أحدث لغة جديدة. فرغ هذا بقي شرح القافية وما تقدمها.

أما كلّ: ففعل ماض، تقول: كلّ السيف والشفرة كلاً وكلولاً، وسيف كليل، وكلّ الرجل والدابة كلاً: إذا أعيا. وكلّ البصر كلّة. ما اجتمع في الفعل افترق في المصدر، وهذه مثل وجد. ألا تراهم يقولون: وجد في المال وجداً وجدة. وفي وجد هذا ثلاث لغات: وُجْدِ ووِجْدِ ووَجِدْ، وفي القرآن العزيز: ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ [الطلاق: ٦] قرئ بها ثلاثتها، قاله ابن السيد. وفي الضالة: وجد وجداناً، وفي الحزن: وجد وجداً، وفي الغضب: موجدة. هذا عملهم في المصدر. فرقوا بين معاني وجد. وقد يكتنف الواحد معاني كثيرة، فيشتق لكل معنى منها اسم من اسم ذلك الشيء، كاشتقاقهم من البطن الخميص: مبطن، وللعظيم البطن إذا كان خلقة: بطين، فإن كان من كثرة الأكل قيل: مبطان. وللمنهوم: بطين، وللعليل البطن: مبطون. ولما أنشد تميم بن نويرة رثاءه في أخيه مالك وكان فيه:

فتـــى غيـــر مـــبطان العـــشيات أروعـــا

إلى غير ذلك مما مدحه به؛ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقد قلت كلاماً وذكرت خصالاً قلما تكون في الرجل. قال: يا أمير المؤمنين ما كذبت في حرف واحد، إلا أني أعلم أني قلت: غير مبطان العشيات، وقد علمت أنه كان بطيناً حادراً. قال عمر: وأبيك إن هذه لخصلة يسيرة فيما يقال عن الشعراء.

والحادر: المجتمع الخلق. وقد يفرقون بحركة البناء في الحرف الواحد بين المعنيين. فيقولون: رجل لعنة؛ إذا كان يلعنه الناس، فإن كان هو اللاعن قالوا: لعَنة بتحريك العين. ومثله سبة للمفعول وسببة للفاعل. وكذلك هزءة وهزأة وسخرة وسخرة، وضحكة وضحكة، وخدعة وخدعة. وقالوا للماء الذي لا يشرب لملوحته إلا عند الضرورة: شروب، ولما دونه مما يتجوز به: شريب ونضح: لرشاش الماء القليل، فإن كثر فهو: نضخ، وللقبض بأطراف الأصابع: قبص، وبالكف قبض. وأحفظ في هذا المعنى بيتاً لم أر أحسن منه في معناه يصف الزهد والقناعة:

كفـــاهم أقـــل الـــزاد إذ قـــنعوا بـــه ومن قنع استغنى عن القبض بالقبص

رجع: وقالوا للأكل بأطراف الأسنان: قضم، وبالفم: خضم. ولما ارتفع من الأرض: حزن. فإن زاد قليلاً قيل: حزم. وللعطاء: شكر، فإن كان عن مكافأة قيل: شكم.

وأما كلّ: فأصله الثقل. يقال: ألقى فلان عليّ كله؛ أي: ثقله، وفي التنزيل:

﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ ﴾ [النحل: ٧٦] نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ ومولى له كافر. وقيل: (الأبكم) أبي بن خلف كان لا ينطق بخير، وهو كلّ على قومه، كان يؤذيهم ويؤذي عثمان بن عفان رضي الله عنه، والذي يأمر بالعدل، قيل: هو حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. وقيل: الأبكم مثل الصنم لأنه لا يسمع ولا ينفع، وهو كلّ على عابده، يخدمه ويحمله ويضعه. والله أعلم بكتابه.

وتقول من هذا: كل الرجل كلولاً: إذا كان كلاً على أهله. والكل: للواحد وللجمع، وقد يجمع على: كلول. ويقال أيضاً: كل الرجل: إذا لم يكن له ولد.

وأما كُلّ: فكلمة تُجمع بها الأجزاء، ونقيضها: بعض. وتتصل بها ما فتقول: كلما؛ تكتبها متصلة إذا كانت ظرفاً. تقول: كلما سألته أعطاني، ومنه قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٦٤] فإن لم تكن ظرفاً فصلت. تقول: أعطني كل ما عندك، وكل ما عندي لك مباح. وجاءت في القرآن مرفوعة؛ كقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤] ومجرورة في قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ [فاطر: ١٢] ومنصوبة في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [هود: ١١١] على أن هذه قرأها عصمة عن الأعمش (وإن كلٌّ) بالرفع، وقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر: (وإنْ كلاً) بالنصب وتخفيف: (إن). وقرأ الباقون: (وإن كلاً)، والفتح في: (إن) الأصل، و(إن) مخففة ولكنها تستعمل، و: (كلاً) بالوجهين؛ بمعنى.

وأما: (وكل) فالواو فيه أصلية، وهو الرجل العاجز الذي يكل أموره لغيره عجزاً وضعفاً، بمنزلة الإمّعة الذي يميل مع كل أحد، ولا يفكر ولا ينظر، كما قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

ولست بإمّعة في الرجال ... يسائل ذاك وذا ما الخبر

وقد تقدم. وذكر الخطابي رحمه الله في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا مشى مجتمعاً يعرف في مشيته أنه غير غرض، ولا وكل. وفسر الغرض: الملول الصدر. والغرض: الملالة، والغرض أيضاً: شدة النزاع إلى الشيء والاشتياق إلى قربه، قال الشاعر:

وإن يك لم يغرض فإني وناقتي ... بحجر إلى أهل الحمى غرضان
تحن فتبدي ما بها من صبابة ... وأخفي الذي لولا الأسى لقضاني

أراد لقضى عليّ. وقوله: غير؛ وكل؛ معناه: غير ضعيف ولا ثقيل الحركات. قال

الراجز:

ولا تكونن كهلوف وكل   يصبح في مضجعه قد انجدل

قال: ويقال: إن الوكل الذي يكل الأمور إلى غيره ولا يباشرها بنفسه، ومنه قولهم في المثل: فلان وكلة تكلة، أي: عاجز يكل أمره إلى غيره. وسقت الوكل وليست الواو زائدة لتكثير الفائدة، ولو شئت لجعلت عوضه: وكل، أمر من الكيل، ومن قولك: وكلت أمري إلى فلان. تقول من هذا: كل أمرك إلى الله، وتكون الواو في هذا للعطف مثل أصحابه، وكذلك كل: أمر من الأكل، والمصدر من هذا مفتوح الألف، والاسم: أكل بضمها، من قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٥] و﴿ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وفي الحديث من هذا: ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان. وفي لفظ آخر: الأكلة والأكلتان.

فائدة:

تقدّم قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٥] اختلف في الحين. يروى أن رجلاً أتى أبا بكر الصديق رضي الله عنه فقال: إني حلفت أن لا أكلم أخي حيناً. فقال له أبو بكر: لا تكلمه حياتك. ثم أتى عمر رضي الله عنه فقال له: لا تكلمه سنة. ثم أتى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: لا تكلمه إلى غروب الشمس. فقال الرجل: سبحان الله! ثلاثة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في أمر واحد، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أصحابي كالنجوم من اقتدى بشيء منهم اهتدى.

قال الذي ذكر هذا الخبر وهو الفقيه أبو محمد عبد الله بن الوحشي الوراق رحمه الله في شرح كتاب الشهاب قال: تأوّل أبو بكر رضي الله عنه يمين هذا الرجل خبر قوم يونس: ﴿ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٨]، وذلك إلى أن ماتوا. وتأوّل عمر رضي الله عنه قول الله عز وجل: ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٥] وذلك كل عام. وتأوّل عليّ رضي الله عنه قول الله: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧].

قال: وأذكر لعليّ رضي الله عنه تأويلاً آخر، الحين: ستة أشهر. وتأوّل في ذلك قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١] وهو الحمل ستة أشهر؛ لأن الحمل مجهول ليس بمعلوم أذكر هو أم أنثى، فيذكره أهله. فالحمل شيء، وهو غير مذكور تلك المدة.

بقي من هذا معكوسه: لك؛ مخففاً جار ومجرور، كما تقول: له ولها. وأما للكّ مثقلاً: فهذا الذي يصبغ به. ولكن قال ابن دريد: ليس بعربي صحيح. واللك واللك واللكيك: اللحم بعينه إذا كان مكتنزاً. ولك: اسم بلد. واللكيون: قبائل بالإسكندرية يعرفون بذلك. وتقول: التكت الجماعة، إذا ازدحموا. وعسكر لك. وفرس لكيك: إذا كان مكتنز اللحم كما تقدم. وناقة لكية. ولككت الرجل: دفعته. واللكاك: الزحام. واللكك: ما ينحت من الجلد الملكوك. واللوك: مصدر: لاك طعامه، إذا مضغه ولم يسغه. ولاك الفرس اللجام. وفلان يلوك أعراض الناس، أي: يقع فيهم. ومنه قول الناس: حب الملوك، لهذا الذي يؤكل إنما هو: الحب الملوك ـ بفتح الميم ـ سمعته من بعض الشيوخ. وتقول: لكه أي: ضربه، مثل صكه.

ومن مضاعف كل: كلكل وهو الصدر، والكلكال: لغة فيه، وصدر كل شيء: كلكله. والكلكل: ـ بالضم ـ الرجل الضرب. والكلاكل: جمع كلكل. والكلاكل أيضاً: الجماعات. والإكليل: من المنازل. والإكليل: عصابة من الجوهر تصنع للملوك تحيط بالرأس. ومنها في الحديث في شأن الاستصحاء بعد الاستسقاء إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم حوالينا ولا علينا. فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالإكليل. هذه النهاية في العناية، استسقى فسقي واستصحى فوقي، صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم.

رجع: ويقال: روضة مكللة، محفوفة بالنور. والكلة: معروفة عربية. والكلالة في القرآن قيل: هي من تكلل النسب بالنسب: إذا أحاط به كالإكليل، كابن العم وما أشبهه. وقيل: الكلالة هم الإخوة للأم.

بقي الكلام على الكاف ومَخرجها: الكاف تذكر وتؤنث كسائر الحروف قال الشاعر:

كمـــا بنـــيت كـــاف يلـــوح رســـيمها

وتكون للخطاب، ولا موضع لها من الإعراب. مثل: ذلك، وأولئك، وتلك، ورويدك. وتكسر للمؤنث. ومن العرب من يبدلها في الوقف شيئاً فيقول: عليش، ومنش. ولا يكون ذلك إلا في خطاب المؤنث. وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى في باب الشين مستوفي.

ومنهم من يجعلها عوضاً من القاف أو بينهما فيقول: كال، عوض: قال، وذلك لقرب المخرج، بل هما من مخرج واحد من أقصى الفم من أسفل اللسان، وكذلك الجيم والشين، وهما أيضاً من الحروف المهموسة، ولذلك لا يجتمعان في كلمة

واحدة ليس بينهما حاجز. لا يقال: قلك ولا كق. وبنو تميم هم الذين يلحقون القاف بالكاف فتغلظ جداً فيقولون: كال، عوض: قال، كما تقدم. قال شاعرهم:

ولا أكول لكدر الكوم كد نضجت ... ولا أكول لباب الدار مكفول

يريد:

ولا أقول لقدر القوم قد نضجت ... ولا أقول لباب الدار مقفول

وفي البخاري: القسط والكسط، مثل: الكافور والقافور، وكذلك جاء في حديث الرجل الذي أمر أهله أن يحرقوه بعد موته قال: وإذا صرت فحماً فاسحقوني، أو قال: فاسحكوني. وفي التنزيل: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴾ [الضحى: ٩] وقرأ ابن مسعود: (فلا تكهر). والكاف من حروف الجر وفيها معنى التشبيه في قوله: زيد كعمرو، وتجيء للتوكيد في قوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [الشورى: ١١] والمعنى: ليس مثله شيء. وقيل: إن مثل هنا للتوكيد. والمعنى: ليس كهو شيء. وإنما نشأ الخلاف هنا لكون الكاف ومثل بمعنى واحد في التشبيه، والله أعلم. ولذلك لا يجتمعان إلا أن تقدّم الكاف على مثل. فتقول: زيد كمثل عمرو، ولا تقل: زيد مثل كعمرو. وربما جاء هذا في الشعر وذلك للضرورة، ولأنه يجوز فيه ما لا يجوز في الكلام، كما تقدم. قال رؤبة:

وصيروا مثل كعصف مأكول

وقد تكلم العلماء في مثل ذلك واستدلوا على أن الكاف هنا حرف لكنها مقحمة لتأكيد التشبيه، كما أقحمت اللام في قوله: يا بؤس للعرب. وهذان الحرفان ـ أعني الكاف واللام ـ لا يقحم من حروف الجر سواهما. وكذلك هي حرف في قوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [الشورى: ١١] إذ لا يحسن أن يقال: ليس مثل مثله. وقد تكون الكاف اسماً في مثل: رأيتك كالهاء في رأيته. ولذلك قالوا في قول الشاعر:

ورحنا بكابن الماء ينفض رأسه

وقالوا: دخول حرف الجر عليها دليل على أنها اسم، وكذلك دخول الكاف في قوله: وصاليات ككما يؤثفين. قال الأستاذ رحمه الله وقد ذكر هنا دخول الكاف على مثله في قوله: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [الشورى: ١١] مستقيم؛ لأن: مثل، اسم تقدّم عليه حرف الجر فعمل فيه وهكذا حكمه. ودخول مثل على الكاف في البيت المتقدم الذي هو:

فصيروا مثل كعصف مأكول

قبيح لتقدّم الاسم على الحرف ولولا الإقحام لما جاز.

فصل:

وتقول من الكاف: كوّفت كافاً، أي: كتبتها. وكوّف الرجل تكويفاً: أتى الكوفة، وتكوّف أي: تشبه بهم أو انتسب إليهم. قال الشاعر:

تـيمن الإنـسان يبغـي الغنـى ... مـن بعـد مـا بـصّر أو كـوّفا

وقد تقدم هذا الشعر بكماله في باب الدال.

والكوفة: الرملة الحمراء وبها سميت البلدة. وكوفان أيضاً: اسم الكوفة. وتقول: تركتهم في كوفان، أي: في مشقة وعناء.

ومعكوس كاف: فاك، وهو أفصح من: فمك، فقد كره أن يقال: فم إلا في الشعر كما قال:

يـصبح عطـشان وفـي البحـر فمـه

وكما قال الآخر:

مـا للغـراب ولـي ... دق الإلـه فمـه

وقبل هذا البيت:

صـاح الغـراب بمـه ... بالبـين مـن سـلمه

صـاح الغـراب بـنا ... فـي لـيلة شـبمه

مـا للغـراب ولـي ... دق الإلـه فمـه

والذي يكثر في الحديث: فوه، كقوله عليه الصلاة والسلام: حتى اللقمة يضعها في في امرأته. وفي كتاب الله تعالى: ﴿ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ [الرعد: ١٤]. ومن مقلوبه إفك وهو الكذب والباطل وفي القرآن من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾ [النور: ١١] وكذلك: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات: ٩] أي: يصرف عنه من صرف. وفي الحديث منه كثير، وهو الكذب والزور، وقد تقدم.

وإن كتبت كفا ـ بالألف ـ فهو أيضاً من مقلوب كاف. قال الله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٣] وقال عليه الصلاة والسلام: حسبي الله وكفى. ومعنى كفى: حسب، ومعنى حسب: كفى، تفسر إحداهما بالأخرى.

ومن مقلوبها أيضاً: أكف جمع: كف. واكف عينا كذا: أي اصرفه. فإن حذفت الألف جاء منه: كف المتقدم وكف. والكفة: كفة الميزان، وكفة الحابل وهي: شبكة الصائد. ومعكوس كف: فك، وهو اللحي، كما قال الشاعر:

كـأن بـين فكهـا والفـك ... فـارة مـسك ذبحـت فـي سـك

وفك: أمر من فك، وكذا تبنيه لما لم يسمّ فاعله. وفي القرآن العظيم: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [البلد: ١٣] أي: عتقها. وفي الحديث: فكوا العاني؛ وهو الأسير، من قوله عليه الصلاة والسلام استوصوا بالنساء خيراً فهن عوان عندكم. أي: أسيرات.

فرغ هذا بقي من ملح هذا الباب ما ذكرته في التكميل مقطعات نحو خمسة عشر بيتاً في كل كلمة من البيت كاف مثل:

ركبت الكبائر والمهلكات وامسك كل حكيم وكف

وهذه القطعة خمسة أبيات قوافيها كلها وكف والمعاني مختلفة، وعلى بعضها جواب للفقيه أبي محمد عبد الوهاب رضي الله عنه شعر موزون مع كلام منثور كالدر المخزون، لو رآها الحريري قبل وفاته لم يفخر بقوله: قابلت الشتاء بكافاته.

وأذكر لك من ذلك هنا بيتاً واحداً على جهة التعطيش إلى التفتيش والتشوق إلى التذوق كتب إليّ رضي الله عنه:

كرمت فكنت كغيث وكف وكاملت كعباً فكم وكف

ولي من الكلمات المقلوبة في الكاف مع اللام ما يقال لمن كل باللام. (لك، كل، كلا، لك، لك، كل) ومعنى لك الأولى: أي: لك أقول. وسيأتي تفسير كل إن شاء الله تعالى.

ومن الملح في الكاف ما يروى أن عبد الملك بن مروان قال لسويد: أخبرني عن عشرة أشياء في جسدك أوائل أسمائها كاف ولك بدرة. فقال: الكف، والكوع، والكرسوع، والكتف، والكاهل، والكبد، والكرش، والكلية، والكفل، والكعب. فقال: أخطأت ليس للإنسان كرش. هات تمام العشرة. فقال: أبلعني ريقي. فقال: قد أبلعتك الفرات ولن تأتي بها. فقام سويد إلى الخلاء ليهريق الماء، فلما حل سراويله تذكر الكمرة، فجعل يعدو وهو محلول السراويل فصاح: الكمرة؛ وهي تمام العشرة. فضحك عبد الملك وأمر له ببدرة.

خرجت من أك فهو يوك أكاً إلى لك ومنه إلى اللكاك
وأقصد للفوائد بعد هذا أمك ضروعها أي امتكاك

فصل من الفوائد والزوائد:

لم أجد في لفظ: كا، غير ما تقدّم. وجاءت: كي، وهذه اللفظة تكون في أول أسماء الفرس، وهم ملوك يقال لهم الكينية لأن كل واحد منهم يضاف إلى: كي، وهو البهاء. ويقال معناه إدراك الثأر، وأول من تسمى بـ كي أفريدون، وقاتل الضحاك بثأر

جده الذي قال الشاعر فيه:

وكأنه الضحاك في فتكاته بالعالمين وأنت أفريدون

ثم صار الملك في عقبه إلى منوشهر، الذي بعث موسى عليه الصلاة والسلام في زمنه. ثم إلى كي قاووس، وكان في زمن سليمان عليه الصلاة والسلام. ثم إلى كي يستاشف. ثم إلى أردشير الذي كان يقتل كل من ظهر عليه من ملوك الأشغانيين إلى أن قتل منهم ملكاً يقال له الأردوان واستولى على قصره فألفى فيه امرأة جميلة رائعة الحسن فقال لها: ما أنت؟ فقالت: أمة من إماء الملك، وكانت بنت الملك الأردوان لاذت بهذه الحيلة من القتل، لأنه كان لا يبقي منهم ذكر ولا أنثى، فصدق قولها وتسراها فحملت منه، فلما أثقلت استبشرت بالأمان فأقرت بأنها بنت الأشغاني الذي قتل، فدعا وزيراً له ناصحاً فقال: استودع هذه بطن الأرض. فكره الوزير أن يقتلها وفي بطنها ابن الملك، وكره أن يعصي أمره، فاتخذ لها قصراً تحت الأرض، ثم خصى نفسه، وصبر مذاكيره وجعلها في حريرة، وجعل الحريرة في حق وختم عليه، ثم جاء به إلى الملك واستودعه إياه. وجعل لا يدخل لتلك المرأة في ذلك القصر سواه، ولا تراها إلا عينيه حتى وضعت المولود ذكراً، فكره أن يسميه قبل أبيه فسماه: شاه بور، ومعناه ابن الملك. فكان الصبي يدعى بهذا ولا يعرف لنفسه اسماً غيره. فلما قبل التعليم نظر في تعليمه وتقويم أوده واجتهد في كل ما يصلحه إلى أن ترعرع الغلام. فدخل الوزير يوماً على أردشير وهو واجم فقال: لا يسووك الله أيها الملك فقد ساءني إطراقك ووجومك. فقال: كبرت سني وليس لي ابن أقلده الأمر بعدي وأخاف انتشار الأمر بعد انتظامه وافتراق الكلمة بعد اجتماعها. فقال له: إن لي عندك وديعة أيها الملك وقد احتجت إليها. فأخرج إليه الحقة بختمها ففض الخاتم وأخرج المذاكير منها. فقال له الملك: ما هذا؟. فقال: كرهت أن أعصي الملك حين أمرني في الجارية بما أمر، فاستودعتها بطن الأرض حية حتى أخرج الله منها سليل الملك، وأرضعته وحضنته وها هو ذا عندي فإن أمر الملك جئته. فأمر الملك بإحضاره في مائة غلام من أولاد فارس بأيديهم الصوالج يلعبون بالكرة، فلعبوا في القصر، فكانت الكرة إذا بلغت إلى إيوان الملك يتهيبون أخذها حتى صارت للغلام فوقعت في سرير الملك، فتقدم حتى أخذها ولم يهب ذلك، فقال الملك: ابني والشمس! متعجباً من عزة نفسه وصرامته. ثم قال له: ما اسمك يا غلام؟ قال شاه بور. فقال: صدقت أنت ابني، وقد سميتك بهذا الاسم. وبور هو الابن، وشاه هو الملك بلسانهم. وإضافتهم مقلوبة يقدمون المضاف إليه على المضاف كما تقدم في كلمة: كي، التي كانت في أسماء

الملوك الكينية؛ فكانوا يضافون إلى كي.

ثم إن أردشير عهد إلى ابنه شاه بور. ثم إن العرب غيرت هذا الاسم فقالوا سابور. فسمي بهذا الاسم ملوك من بني ساسان منهم: سابور ذو الأكتاف الذي وطئ أرض العرب، وكان يخلع أكتافهم، حتى مر بأرض تميم ففروا منه وتركوا عمرو بن تميم وهو ابن ثلاثمائة سنة لم يقدر على الفرار، وكان في قفة معلقة في عمود الخيمة من الكبر، فأخذ وجيء به إلى الملك فاستنطقه سابور فوجد عنده رأياً ودهاء. فقال له: أيها الملك لم تفعل هذا بالعرب؟ فقال: يزعمون أن ملكنا يصير إليهم على يد نبي يبعث في آخر الزمان. فقال عمرو: فأين حلم الملوك وعقلهم؟ إن يكن هذا الأمر باطلاً فلا يضرك، وإن يكن حقاً ألفوك ولم تتخذ عندهم يداً يكافئونك عليها ويحفظونك بها في ذويك. فقال: إن سابور انصرف عنهم واستبقى بقيتهم وأحسن إليهم بعد ذلك، والله أعلم.

ثم كان أبرويز بن هرمز تفسيره بالعربية مظفر، وهو الذي عرض على الله تعالى في المنام فقال له سلم ما في يديك إلى صاحب الهراوة. فلم يزل مذعوراً من ذلك حتى كتب إليه النعمان بظهور النبي صلى الله عليه وسلم بتهامة، فعلم أن الأمر سيصير إليه حتى كان من أمره ما كان، وهو الذي سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حجة الله على كسرى؟ فقال: إن الله أرسل إليه ملكاً فسلك يده في جدار مجلسه حتى أخرجها إليه وهي تتلألأ نوراً. فارتاع كسرى فقال له الملك: لم ترع يا كسرى. إن الله قد بعث رسوله فأسلم تسلم. فقال: سأنظر. ذكر ذلك الطبري رحمه الله في أعلام كثيرة من النبوة عرضت على أبرويز.

ذكر في هذا الخبر: أبرويز وهو اسمه، ولعله تبع المذكور في القرآن، فإن ابن شاهين لما ذكر هذه الأحاديث أدخل بينها حديث أبي قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [ق: ١٤]: إن عائشة رضي الله عنها قالت: كان تبع رجلاً ـ تعني صالحاً ـ. قال كعب رضي الله عنه: ذم الله تعالى قومه ولم يذمه، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبه، ثم قال: كسرى، وهذا الاسم ـ أعني كسرى ـ يتسمى به كل ملك للفرس، كما تسمي الروم ملكهم: قيصر، والشام: هرقل، والترك: خاقان. وقيصر بلسانهم الذي بقر بطن أمه عنه، واليمن: تبعاً، وحمير: قيلاً، ومأرب: اسم لكل ملك كان يلي سبأ، والحبشة: النجاشي، والمسلمون: أمير المؤمنين. ولكل واحد منهم بعد هذا اسم يختص به. فالنجاشي الذي صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم اسمه: أصحمة، وتفسيره عطية.

قال المازري: وتسمى بعد هذا أيضاً: سابور بن أبرويز؛ أخو شيرويه، وملك نحواً من شهرين في مدة النبي صلى الله عليه وسلم. وملك أخوه شيرويه نحواً من ستة أشهر. ثم ملكت أختهما بوران، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لا يفلح قوم تملكهم امرأة. فملكت سنة، ثم هلكت وتشتت أمرهم كل الشتات، ثم اجتمع أمرهم على يزدجرد بن شهريار بن أبرويز، والمسلمون قد غلبوا على أطراف أرضهم، ثم كانت حروب القادسية معهم إلى أن قهرهم الإسلام، وفتحت بلادهم على يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واستؤصل أمرهم والحمد لله.

وسابور تنسب إليه الثياب السابرية. قاله الخطابي. وزعم أنه من النسب الذي غير، فإذا نسبوا إلى نيسابور المدينة قالوا: سابوري، على القياس. وزعم بعضهم أن: ني هو القصب، وكانت مقصبة، فبناها سابور مدينة فنسبت إليه. وقد تقدم، والله أعلم.

ومثل الأقاصرة والأكاسرة في التسمية: التبابعة، كانوا كثيرة. ومعنى: تبع في لغة اليمن: الملك المتبوع. وقال المسعودي: لا يقال للملك تبع حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت. وأول التبابعة: الحارث الرائش، وهو ابن همال بن ذي شدد، وسمي الرائش لأنه راش الناس بما أوسعهم من العطاء، وقسم فيهم من المغانم، وكان أول من غنم فيما ذكروا. وتبع الأوسط هو حسان بن تبان أسعد أبي كرب، وتبان أسعد تبع الآخر بن كليكرب بن زيد. وقال ابن إسحاق في السيرة: وزيد تبع الأول بن عمرو بن ذي الاذعار بن أبرهة ذي المنار ابن الريش. وقال ابن هشام بن الرائش. ويذكر أن تبعاً أراد تخريب المدينة واستيصال اليهود. فقال له رجل منهم له مائتان وخمسون سنة: الملك أجل من أن يطير به نزق أو يستخفه غضب، وأمره أعظم من أن يضيق عنا حلمه، أو يخرم صفحه، مع أن هذه البلدة مهاجر نبي يبعث بدين إبراهيم، وهو أحد الحبرين اللذين ذكر ابن إسحاق. وذكر ثابت في الدلائل أن اسم أحدهما سحيت والآخر منبه. وروى يونس عن ابن إسحاق قال: واسم الحبر الذي كلم الملك بنيامين، ثم كان من أمر هذا الملك أنه آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم حين أعلم بخبره وقال في ذلك:

شهدت على أحمد أنه ... نبي من الله باري النسم
فلو مد عمري إلى عمره ... لكنت وزيراً له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه ... وفرجت عن صدره كل غم

وذكر ابن الكلبي عن رجل من ذي الكلاع قال: أقبل سيل فخرق موضعاً باليمن، فأبدى عن أزج، فإذا سرير عليه ميت عليه ثياب وشي مذهبة، في رأسه تاج، بين يديه

محجن من ذهب في رأسه ياقوتة حمراء. وإذا لوح فيه: بسم الله رب حمير، أنا حسان بن عمرو القيل، مت في زمان هيد، وما هيد، هلك فيها اثنا عشر ألف قيل، كنت آخرهم قيلاً. وذكره ابن أبي الدنيا في كتاب القبور.

وذكر أيضاً أبو إسحاق الزجاج أن قبراً حفر بصنعاء، فوجد فيه امرأتان معهما لوح من فضة مكتوب بالذهب، وفيه: هذا قبر لـ مينا وحبا، ابنتي تبع، ماتتا وهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وعلى ذلك مات أيضاً الصالحون قبلهما.

ويذكر أنه قال: لما افتتحت الشأم على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أصيب جبل فيه غار، فإذا على الغار قفل، فكسر القفل فوجد في الغار لوح من حديد فيه مكتوب بالذهب:

مـــا اخـــتلف اللـــيل والـــنهار ولا ... دارت نُجـوم الـــسماء فـــي الفلـــك
إلا بـــنقل النعـــيم عـــن ملـــك ... قـــد انتهـــى ملكـــه إلـــى ملـــك
وملـــك ذي العـــرش دائـــم أبـــداً ... لـــيس بفـــان ولا بمـــشترك

قال: فبعث باللوح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقرأه وبكى وقال رحمه الله: كاتب هذا مؤمن، لم يجد لإيمانه موضعاً يستره فيه إلا هذا الغار. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا أدري أتبع نبي أم لا. وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا تسبوا تبعاً فإنه كان مؤمناً. فإن صح الحديث الأخير فإنما هو بعد ما أعلم بحاله، ولا أدري أي التبابعة أراد. غير أن في حديث معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تسبوا تبعاً الحميري فإنه أول من كسا الكعبة. فهذا أصح من الحديث الأول وأبين، حيث ذكر فيه الحميري، وهو تبان أسعد الذي تقدّم ذكره. وقد كان تبع الأول أيضاً مؤمناً بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو الرائش، وقد قال شعراً ينبئ فيه بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم، يقول فيه:

ويأتـــي بعـــدهم رجـــل عظـــيم ... نبـــي لا يـــرخص فـــي الحـــرام

وقد قيل: إنه القائل:

مـــنع الـــبقاء تـــصرف الـــشمس ... وطلـــوعها مـــن حـــيث لا تُمـــسي

وقد تقدم بعضها، وقيل: إن هذا الشعر لتبع الآخر، والله أعلم. ومن هذا البيت أخذ أبو تمام قوله:

ألقـى إلـى كعـبة الـرحمن أرحلـه ... والشمس قد نفضت ورساً على الأصل

وذكر ابن إسحاق في السيرة قال: كان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها، فتوجه إلى مكة وهي طريقه إلى اليمن بعد ما قال له الحبران ما قالاه، وأمراه أن يعظم

حرمة الكعبة، ففعل ذلك. طاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون، ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل. وأري في المنام أن يكسو البيت فكساه الخصف. ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملاء والوصائل، فكان تبع أول من كسا البيت، وأوصى به ولاته فيما يزعمون. والخصف: جمع خصفة وهو شيء ينسج من الخوص والليف، والخصف أيضاً: ثياب غلاظ. والخصف أيضاً: لغة من الخزف من كتاب العين. والخزف: شقف الفخار، والملاء: الملاحف. والخصف بضم الخاء وسكون الصاد: وهو الجوزاء، قاله أبو حنيفة. ويروى أن تبعاً كان كسا البيت المسوح والأنطاع فانتفض البيت فزال ذلك عنه، وفعل ذلك حين كساه الخصف. فلما كساه الملاء والوصائل قبلها. وقال حين كساه:

وكسونا البيت الذي حرم اللّـ ـه ملاء معضداً وبرودا
وأقمنا به من الشهر عشراً وجعلنا لبابه إقليدا
ونحرنا بالشعب ستة آلا ف فترى الناس نحوهن ورودا
ثم سرنا عنه نؤم سهيلاً فرفعنا لواءنا معقودا

وقال القتيبي: كانت قصة تبع قبل الإسلام بسبعمائة عام. وقال ابن إسحاق في غير السيرة: أول من كسا الكعبة الديباج الحجاج. وذكر جماعة سواه منهم الدارقطني أن نتيلة بنت جناب أم العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه كانت قد أضلت العباس صغيراً، فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبة الديباج، ففعلت ذلك حين وجدته، وكانت من بيت مملكة. وقال الزبير: ـ النسابة ـ أول من كساها الديباج عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما. وقيل خالد بن جعفر بن كلاب قبل الإسلام. وقد تقدم ذلك. وحديث تبع أطول من هذا.

خرج الشيخ أبو بكر محمد بن علي بن عمر المطوعي النيسابوري رحمه الله في كتابه الذي سماه: (من صبر ظفر) نسبه إلى مؤلف كتاب السير بسنده إلى محمد بن إسحاق المطلبي. قال: سار تبع الأول إلى الكعبة يريد هدمها، وكان من الخمسة الذين كانت لهم الدنيا بأسرها، وكان له وزراء، فاختار منهم واحداً فأخرجه معه، وكان يسمى عمياريسا، لينظر إلى مملكته، وخرج في مائة ألف وثلاثين ألفاً من الفرسان، ومائة ألف وثلاثة عشر ألفاً من الرجال، فكان يدخل في كل بلدة فكانوا يعظمونه، وكان يختار من كل بلد عشرة أنفس من حكمائهم، حتى جاء إلى مكة فكان معه أربعة آلاف رجل من الحكماء والعلماء الذين اختارهم من بلدان مختلفة. فلم يتحرك له أحد من أهل مكة ولم يعظموه، فغضب عليهم ودعا عمياريسا وزيره وقال له: كيف شأن أهل هذه البلدة

الذين لم يهابوني ولم يهابوا عسكري، كيف شأنهم وأمرهم؟. قال الوزير: إنهم قوم أعرابيون جاهلون ما يعرفون شيئاً، وإن لهم بيتاً يقال له الكعبة وإنهم يعجبون بهذا البيت، ويسجدون للطواغيت والأصنام من دون الله تعالى. فقال الملك: إنهم معجبون بهذا البيت؟. قال: نعم. فنزل الملك ببطحاء مكة مع عسكره وتفكر في نفسه دون الوزير ودون الناس، وعزم أن يأمرهم بهدم البيت، وإنّ التي سميت كعبة تشتهر خربة، وأن يقتل أهلهم ويسبي نساءهم وذراريهم. فأخذه الله تعالى بالصداع، وقيح مرار أذنيه وأنفه وفمه كل يسيل قيحاً منتناً، فلم يكن أحد منهم يصبر عنده طرفة عين من أجل الريح. فاستقذر لذلك وقال لوزيره: اجمع العلماء والأطباء وشاورهم في أمري. فاجتمع العلماء والأطباء فلم يصبر أحداً منهم على نتنه، ولم تمكنهم مداواته. فقال: قد جمعت الحكماء من بلدان مختلفة ووقعت في هذه العلة ولم يقم أحد منكم في مداواتي. فقالوا بأجمعهم: إنا قوم أمرنا أمر الدنيا، وهذا أمر سماوي ولا يستطاع رد أمر السماء. واشتد الأمر على الملك فتفرق عنه الناس وأمره كل ساعة أشد حتى أقبل الليل وجاء أحد العلماء إلى وزيره فقال: إن بيني وبينك سراً وهو إن كان الملك يصدقني في كلامه وما نواه في قلبه عالجته. فاستبشر الوزير بذلك وأخذه وحمله إلى الملك وقال للملك: إن رجلاً من العلماء ذكر إن صدق الملك في كلامه وما نواه في قلبه ولم يكتم شيئاً منه عالجته. فاستبشر الملك بذلك وأذن له بالدخول عليه. فدخل عليه فقال: إن بيني وبينك سراً أريد الخلوة بك. فخلا به فقال: هل نويت في هذا البيت أمراً؟. فقال: نويت أن أخرب هذا البيت، وأقتل رجالهم وأسبي نساءهم. فقال: إن وجعك وبلاءك من هذا. اعلم أن صاحب هذا البيت قوي يعلم الأسرار، فيجب أن تخرج من قلبك جميع ما نويته، ولك خير الدنيا والآخرة. قال الملك: قد أخرجت جميع المكروهات من قلبي ونويت جميع الخيرات والمعروفات فلم يخرج العالم الناصح من عنده حتى برئ من العلة، وعافاه الله تعالى من ساعته، وخرج من منزله صحيحاً على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخلع على الكعبة سبعة أثواب، وهو أول من كسا البيت، ودعا أهل مكة وأمرهم بحفظ الكعبة، وخرج هو إلى يثرب.

ويثرب هي بقعة فيها عين ماء ليس فيها نبات ولا بيت ولا أحد، فنزل على رأس العين مع عسكره فجمع العلماء والحكماء الذين كانوا معه، واختارهم من بلدان مختلفة، ورئيس العلماء الناصح الشفيق لدين الله تعالى الذي أعلم الملك بشأن الكعبة، ثم إنهم اجتمعوا وتشاوروا، فاعتزل من بين أربعة آلاف رجل عالم أربعمائة كانوا ممن كان أعلم وأفهم، وبايع كل واحد منهم صاحبه أنهم لا يخرجون من ذلك المقام وإن

ضربهم الملك وحرقهم وقتلهم وقرضهم، وجاؤوا بجملتهم ووقفوا بباب الملك وقالوا: إنا خرجنا من بلدانا وطفنا مع الملك زماننا وجئنا إلى هذا المقام إلى أن نموت فيه وإن قتلنا أو أحرقنا. فقال الملك للوزير: انظر ما شأنهم يمتنعون من الخروج معي وأنا أحتاج إليهم ولا أستغني عنهم، وأي حكمة في نزولهم في هذا المقام واختيارهم له. فخرج وجمعهم وذكر لهم قول الملك، فقالوا للوزير مثل ما قالوا للملك. قال الوزير: فما الحكمة في ذلك؟. فقالوا: أيها الوزير اعلم أن الله تعالى قد شرف هذا البيت وشرف هذه البلدة بسبب هذا الرجل الذي يخرج، يقال له محمد صلى الله عليه وسلم إمام الحق وصاحب القضيب والناقة والتاج والهراوة وصاحب القرآن والقبلة، وصاحب اللواء والمنبر، وصاحب قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ومولده بمكة وهجرته إلى هاهنا، فطوبى لمن أدركه وآمن به، وكنا على رجاء أن ندركه أو يدركه أولادنا. فلما سمع الوزير مقالتهم همّ أن يقيم معهم. فلما جاء وقت الرحيل أمر الملك أن يرتحلوا فقالوا بأجمعهم: لا نرتحل، وقد أخبرنا الوزير بحكمة مقامنا ها هنا. فدعا الملك الوزير فقال له: لمَ لا تخبرنا بمقالة القوم؟. فقال: لأني عزمت على المقام معهم، وخفت أن لا تدعني، وأعلم أنهم لا يخرجون. فلما سمع الملك منه تفكر أن يقيم معهم سنة، رجاء أن يدرك محمداً صلى الله عليه وسلم، وأمر الملك أن يبنوا أربعمائة دار، واشترى لكل واحد منهم جارية وأعتقها وزوّجها منه، وأعطى لكل واحد منهم عطاء جزيلاً، وأمروا أن يقيموا في ذلك الموضع إلى وقت محمد صلى الله عليه وسلم، وكتب الملك كتاباً وختمه بالذهب ودفع الكتاب إلى العالم الذي نصحه في شأن الكعبة وأمره أن يدفع الكتاب إلى محمد صلى الله عليه وسلم إن أدركه، وإن لم يدركه دفعه إلى أولاده وأولاد أولاده أبداً ما تناسلوا، إلى حين يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان في الكتاب:

أما بعد: يا محمد فإني آمنت بك وبكتابك الذي أنزله الله عليك وأنا على دينك وسنتك وآمنت بربك ورب كل شيء وبكل ما جاء من ربك ومن شرائع الإيمان والإسلام، وإني قبلت ذلك، فإن أدركتك فبها ونعمت، وإن لم أدركك فاشفع لي يوم القيامة، ولا تنسني فإني من أمتك الأولين، وبايعتك قبل مجيئك، وقبل إرسال الله تعالى إياك، وأنا على ملتك وملة إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم. وختم الكتاب بالذهب ونقش عليه: ﴿ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ ﴾ [الروم: ٤-٥]. وكتب على عنوان الكتاب: إلى محمد بن عبد الله خاتم النبيين، ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم. من تبع

الأول بن الأقرن أمانة الله في يد من وقع إليه أن يوصله إلى صاحبه. ودفع الكتاب إلى العالم الذي نصح له في شأن الكعبة وأمره بحفظه. وخرج تبع من يثرب وهي الموضع الذي نزل العلماء فيه، وهو مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسار حتى مرّ بقلسان وهي بلدة من بلاد الهند ومات بها، ومن اليوم الذي مات فيه إلى اليوم الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا زيادة ولا نقصان.

ثم إن أهل المدينة الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أولاد أولئك العلماء الأربعمائة الذين سكنوا دور تبع إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعوا بخروجه استشاروا في إيصال الكتاب إليه فأشار إليهم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وكان قد هاجر قبل النبي صلى الله عليه وسلم أن اختاروا رجلاً ثقة وابعثوا بالكتاب معه إليه، فاختاروا رجلاً يقال له أبو ليلى، وكان من الأنصار، ودفعوا إليه الكتاب وأوصوه بمحافظة الكتاب والتبليغ. فأخذ الكتاب وخرج به من المدينة على طريق مكة فوجد محمداً صلى الله عليه وسلم في قبيلة من بني سليم، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل فدعاه فقال: أنت أبو ليلى؟. قال: نعم. قال: ومعك كتاب تبع الأول؟. فبقي الرجل متفكراً فذكر في نفسه أن هذا من العجب ولم يعرفه. فقال: من أنت فإني لست أعرف في وجهك أثر السحر، وتوهم أنه ساحر، فقال: لا. بل أنا محمد؛ وعلى تبع السلام الكثير الجزيل من يومنا هذا إلى يوم القيامة. هات الكتاب. ففتح الرجل رحله وكان يخفي الكتاب فدفعه إليه صلى الله عليه وسلم، فقرأه أبو بكر رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: مرحباً بالأخ الصالح ثلاث مرات. فأمر أبا ليلى بالرجوع إلى المدينة، وأن يبشر القوم بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعطاه كل واحد عطية على تلك البشارة.

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أهل القبائل أن ينزل عليهم وتعلقوا بناقته. فقال: دعوها فإنها مأمورة. حتى جاءت إلى دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فبركت ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار أبي أيوب. وأبو أيوب رحمه الله كان من أولاد العالم الناصح لتبع في شأن الكعبة. والأنصار الذين كانوا ينتظرونه، وهم من أولاد العلماء الذين كانوا بيثرب في دور تبع التي بناها لهم الملك. والدار التي نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها هي الدار التي بناها تبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

وإذ وقع ذكر أبي أيوب رضي الله عنه، فلنذكر من فضله ما يدل على عقله. اسمه

خالد ابن زيد، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مولعاً بالجهاد، وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة: ٤١] فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً. وآخرها مات بالغزو بالقسطنطينية من أرض الروم. مرض فعاده يزيد ـ وهو الأمير ـ فقال له: أوصني. فقال: إذا أنا مت فكفنوني، ثم مر الناس فليركبوا ثم يسيروا في أرض العدو، حتى إذا لم يجدوا مساغاً فادفنوني. قال ففعلوا ذلك. قال وأمر خالد الخيل أن تقبل وتدبر على قبره حتى عفت أثره. ويقال: إن الروم قالت للمسلمين في صبيحة دفنهم لأبي أيوب: لقد كان لكم الليلة شأن عظيم. فقالوا: هذا رجل من أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقدمهم إسلاماً، مات ودفناه حيث رأيتم، والله لئن نبش لا يضرب لكم ناقوس في أرض العرب ما كانت لنا مملكة.

قال مجاهد رحمه الله تعالى: فكانوا إذا أمحلوا كشفوا عن قبره فمطروا. وقال ابن القاسم عن مالك رضي الله عنه: بلغني عن قبر أبي أيوب رضي الله عنه أن الروم يستسقون به ويستصحون، رضي الله عنه، قال:

وإذ خرجت من ثقاف الكاف ... فاسمع كلاماً هو شاف كافي
بعث الرسول المصطفى المصافي ... أرسله بالعدل والإنصاف
لكل قيل كان في مخلاف ... يدعوهم لترك الاختلاف
بل لاجتماع ثم لائتلاف ... ينجي من الإتلاف بالتلافي

قدم عمرو بن العاص رضي الله عنه على الجلندى فقال له: يا جلندى إنك وإن كنت منا بعيداً فإنك من الله غير بعيد، إن الذي تفرد بخلقك أهل أن تفرده بعبادتك، وأن لا تشرك به من لم يشرك فيك، واعلم أن الذي يميتك هو الذي أحياك، ويعيدك الذي براك، فانظر في هذا النبي الأمي الذي جاء بالدنيا والآخرة، فإن كان يريد به أجراً فامنعه أو يميل به هوى فدعه، ثم انظر فيما يجيء به، هل يشبه ما تجيء به الناس، فإن كان يشبهه فسله العيان، وتخبر عليه في الخبر، وإن كان لا يشبهه فاقبل ما قال وخف ما وعد.

قال الجلندى: إنه والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويغلب فلا يضجر، وأنه يفي بالوعد، وينجز العهد، وأنه لا يزال بسر قد اطلع عليه لا يساوي فيه أهله، وأشهد أنه نبي.

وقدم المهاجر بن أبي أمية على الحارث بن عبد كلال فقال له: يا حارث إنك كنت أول من عرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم نفسه فخطئت عنه، وإنه أعظم

الملوك قدراً. فإذا نظرت في غلبة الملوك فانظر في غالب الملوك، وإذا سرك يومك فخف غدك. وقد كان قبلك ملوك ذهبت آثارها وبقيت أخبارها، عاشوا طويلاً وأمّلوا بعيداً وتزوّدوا قليلاً، منهم من أدركه الموت، ومنهم من أكلته النقم، وإني أدعوك إلى الرب الذي إن أردت الهدى لم يمنعك، وإن أرادك لم يمنعه منك أحد، وأدعوك إلى النبي الأمي الذي ليس له شيء أحسن مما يأمر به، ولا أقبح مما ينهي عنه، واعلم أن لك رباً يميت الحي ويحيي الميت ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. فقال الحارث: قد كان هذا النبي عرض نفسه عليّ فخطئت عنه، وكان ذخراً لمن صار إليه، وكان أمره أمراً بيناً فحضره اليأس وغاب عنه الطمع، ولم تكن له قرابة أحمله عليها، ولا لي فيه هوى أبتغيه له، غير أني أرى أمراً ليس يوسوسه الكذب ولم يسنده الباطل. له بدء سار، وعاقبة نافعة وسأنظره.

وقدم شجاع بن وهب على جبلة بن الأيهم بن الحارث بن أبي شمر فقال له: يا جبلة إن قومك نقلوا هذا النبي الأمي من داره إلى دارهم، يعني الأنصار. فآووه ومنعوه، وإن هذا الدين الذي أنت عليه ليس بدين آبائك، ولكنك ملكت بالشأم وجاورت بها الروم، ولو جاورت كسرى دنت بدين الفرس لملك العراق، وقد أقر بهذا النبي الأمي من أهل دينك، من إن فضلناه عليك لم يغضبك، وإن فضلناك عليهم لم يرضك، فإن أسلمت أطاعتك الشأم وهابتك الروم وإن لم يفعلوا كانت لهم الدنيا ولك الآخرة، وكنت قد استبدلت المساجد بالبيع، والأذان بالناقوس، والجمع بالشعانين، والقبلة بالصليب، وكان ما عند الله خيراً وأبقى. فقال له جبلة: إني والله لوددت أن الناس اجتمعوا على هذا النبي الأمي اجتماعهم على خالق السماوات والأرض، ولقد سرني اجتماع قومي له، وأعجبني قتله لأهل الأوثان واليهود، واستبقاؤه النصارى، ولقد دعاني قيصر إلى قتل أصحابه يوم مؤتة فأبيت عليه، فانتدب له مالك بن نافلة ابن سعد العشيرة فقتله الله، ولكني لست أرى حقاً ينفعه، ولا باطلاً يضره، والذي يمدني إليه أقوى من الذي يخليني عنه.

وأسلم جبلة هذا، ثم تنصر من أجل لطمة لطمها حوكم فيها إلى أبي عبيدة بن الجراح. وكان طوله اثني عشر شبراً، وكان يمسح برجليه الأرض وهو راكب، وقد تقدم في أول الكتاب من كان طوله عشرة أشبار مثل عبادة بن الصامت وغيره رضي الله عنهم. كذا وقع في كتاب الأستاذ رحمه الله.

ورأيت في العقد: أنه قدم من الشأم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحضر معه الموسم وقد أسلم، فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطئ على إزاره رجل من بني

فزارة، فالتفت إليه جبلة مغضباً فلطمه فهشم أنفه، فاستعدى عليه الفزازي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر: ما حملك على هذا؟. فقال: وطئ إزاري فحله، ولولا حرمة البيت لأخذت الذي فيه عيناه. فقال عمر: أما أنت فاقررت، فإما أن ترضيه وإلا أقدته منك. قال: أتقيده مني وأنا ملك وهو سوقة. قال: يا جبلة إنه قد جمعك وإياه الإسلام. قال: والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية. قال عمر: هو ذاك. قال: إذاً أتنصر. قال: إن تنصرت ضربت عنقك. قال: أخرني إلى غد. قال: قد فعلت. فلما كان في جنح الليل خرج هو وأصحابه فلم ينثن حتى دخل القسطنطينية على هرقل، فتنصر ومات بها نصرانياً. نعوذ بالله من الحور بعد الكور. وكان آخر أمره أنه ندم على ما كان منه وقال:

تنصرت الأشراف من أجل لطمة ... وما كان مني لو صبرت لها ضرر
تكنفني منها لجاج ونخوة ... وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني ... رجعت إلى الأمر الذي قاله عمر
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة ... وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر

ولما وفد عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه على النجاشي بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا أصحمة إن علي القول وعليك الاستماع. إنك في الرقة علينا كأنك منا، وكأنا بالثقة بك منك، لأنا لم نظن منك خيراً قط إلا نلناه، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاض لا يجور، وفي ذلك رفع الحد وإصابة المفصل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم عليه السلام. وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم بك، وأمنك على ما خافهم عليه، لخبر سالف وأجر ينتظر. فقال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى عليه السلام براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل وأن العيان له ليس بأشفى من الخبر عنه، ولكن أعواني من الحبش قليل، فانظرني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب.

وكان آخر أمره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ صلى عليه وأصحابه بالمدينة؛ وكان كتاب النبي صلى الله عليه وسلم: إلى النجاشي أصحمة ملك الحبشة، سلام الله، فإني أحمد الله إليك الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الحصان، فحملت به، كما خلق آدم عليه السلام بيده، ونفخ فيه من روحه، إني أدعوك إلى الله وحده لا

شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي، وأوصي بمن معه من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرهم، فإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبل نصيحتي. والسلام على من اتبع الهدى.

فراجعه النجاشي رضي الله عنه: بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من النجاشي أصحمة بن أبحر. سلام يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام. أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله وما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام. فورب السماء والأرض إنه لكما قلت، وقد عرفنا قدر ما بعثت به إلينا وقربنا ابن عمك وأصحابه، وأنا أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً. قد بايعناك مبايعة ابن عمك، وأسلمت لله رب العالمين. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وهذا هو الذي صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات وهو ببلاده، رفع إليه نعشه فرآه من المدينة.

وأما أبرويز وتفسيره المظفر، وكان له ألف فيل وخمسون ألف فرس وثلاثة آلاف امرأة فيما ذكر الطبري رحمه الله، وهو الملقب كسرى. فلما قدم عبد الله بن حذافة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على كسرى قال: يا معشر الفرس إنكم عشتم بأحلامكم لعدة أيامكم بغير نبي ولا كتاب، ولا تملك من الأرض إلا ما في يديك، وما لا تملك منهم أكثر، وقد ملك الأرض قبلك ملوك أهل الدنيا وأهل الآخرة، فأخذ أهل الآخرة بحظها من الدنيا، وضيع أهل الدنيا حظهم من الآخرة، فاختلفوا في سعي الدنيا واستووا في عدل الآخرة، وقد صغر هذا الأمر عندك. إنا أتيناك به وقد والله جاءك من حيث خفت، وما تصغيرك إياه بالذي يدفعه عنك، ولا تكذيبك به بالذي سيخرجك عنه. وفي وقعة ذي قار على ذلك دليل.

فأخذ الكتاب فمزقه ثم قال: لي ملك هنيّ، ولا أخشى عليه أن أغلب، ولا أشارك فيه، وقد ملك فرعون بني إسرائيل ولستم بخير منهم فما يمنعني أن أملككم وأنا خير منه، فأما هذا الملك فقد علمنا أنه يصير إلى الكلاب وأنتم أولئك تشبع بطونكم وتأبى عيونكم، فأما وقعة ذي قار فهي بوقعة الشأم. قال فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمزقوا كل ممزق، فكان ذلك والحمد لله.

قال ابن سيدة رحمه الله يقال: أبرَوِيز وأبرِويز؛ بفتح الواو وكسرها، ويقال إنه كسرى الآخر الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وهو الذي كتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام. فلما ورد

عليه كتابه غضب ومزق الكتاب. فقال صلى الله عليه وسلم: اللهم مزق ملكه كل ممزق.

ثم كتب إلى فيروز: اذهب إلى مكة فجئني بهذا العبد الذي دعاني إلى غير ديني، وقدم اسمه في الخطاب على اسمي. فجاء فيروز إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن ربي أمرني أن أحملك إليه. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن ربي أخبرني أنه قد قتل ربك البارحة، فأقم حتى تعلم، فإن كان ما قلت حقاً، وإلا فأنت من وراء أمرك. ففزع فيروز وهاب أن يقدم عليه. ثم وردت الأخبار من كل ناحية بأن كسرى قد ثار عليه ابنه شيرويه فقتله تلك الليلة بعينها، فأسلم فيروز وحسن إسلامه. وهو الذي قتل الأسود العنسي وسيأتي خبره.

وقدم سليط بن عمرو العامري رضي الله عنه على هوذة بن علي ـ وكان كسرى قد توجه له ـ فقال: يا هوذة إنما سوّدتك أعظم حائلة، وأرواح في النار، وإنما السيد من منع بالإيمان، ثم زوّد بالتقوى، إن قوماً سعدوا برأيك فلا تشقين به، وإني آمرك بخير مأمور به، وأنهاك عن شر منهي عنه، آمرك بعبادة الله، وأنهاك عن عبادة الشيطان، فإن في عبادة الله الجنة، وفي عبادة الشيطان النار. فإن قبلت نلت ما رجوت وأمنت ما خفت، وإن أبيت فبيننا وبينك كشف الغطاء وهول المطلع. فقال هوذة: يا سليط سوّدني من لو سوّدك شرفت به، وقد كان لي رأي أختبر به الأمور ففقدته فموضعه من قلبي هواء، فاجعل لي فسحة يرجع إليّ رأيي فأجيبك به إن شاء الله تعالى. وقال هوذة بن علي في شأن سليط:

أتاني سليط والحوادث جمة ... فقلت له ماذا يقول سليط
فقال التي فيها علي غضاضة ... وفيها رجاء مطمع وقنوط
فقلت له غاب الذي كنت أجتلي ... به الأمر عني فالصعود هبوط
وقد كان لي والله بالغ أمره ... أبا النصر جاش في الأمور ربيط
فأذهبه خوف النبي محمد ... فهوذة من بين الرجال سقيط
أحاذر منه سورة هاشمية ... فوارسها وسط الرجال عبيط
فلا تعجلني يا سليط فإننا ... نبادر أمراً والقضاء محيط

ولما وفد دحية بن خليفة الكلبي على قيصر قال له: يا قيصر أرسلني إليك من هو خير منك، والذي أرسله هو خير منه ومنك، فاسمع بذل ثم أجب بنصح، فإنك إن لم تذلل لم تفهم، وإن لم تنصح لم تنصف. قال: هات. قال: هل تعلم أكان المسيح يصلي؟. قال: نعم. قال: فإني أدعوك إلى من كان المسيح يصلي له، وأدعوك إلى من

دبر خلق السماوات والأرض والمسيح في بطن أمه، وأدعوك إلى هذا النبي الأمي الذي بشر به موسى وبشر به عيسى ابن مريم بعده، وعندك من ذلك أثارة من علم تكفي من العيان وتشفي من الخبر، فإن أجبت كانت لك الدنيا والآخرة، وإلا ذهبت عنك الآخرة وشوركت في الدنيا، واعلم أن لك رباً يقصم الجبابرة ويغير النعم. فأخذ قيصر الكتاب فوضعه على عينيه ورأسه ثم قبله وقال: أما والله ما تركت كتاباً إلا قرأته ولا عالماً إلا سألته، فما رأيت إلا خيراً، فأمهلني حتى أنظر من كان المسيح يصلي له، فإني أكره أن أجيبك اليوم بأسراري غداً ما هو أحسن منه، فأرجع عنه فيضرني ذلك ولا ينفعني، فأقم حتى أنظر. ويروى أن هرقل وضع كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كتب إليه في قصبة من ذهب تعظيماً له، وأنهم لا يزالون يتوارثونه كابراً عن كابر في أرفع صوان وأعز مكان، حتى كان أدفونس الذي تغلب على طليطلة وما أخذ أخذها من بلاد الأندلس، ثم كان عند ابن بنته المعروف بالسليطين. وقد حدث عبد الملك بن سعيد وكان من قواد أجناد المسلمين قال: سألته رؤيته، قال فأخرجه إليّ فاستعبرت فأردت تقبيله، وأخذه بيدي فمنعني من ذلك صيانة له وضناً به عليّ. نقلت هذا من كتاب الأستاذ رحمه الله.

وقدم حاطب بن بلتعة على المقوقس، واسمه جريج بن مينا، وقال له: إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك. قال: هات: قال: إن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام، الكافي به الله فذر ما سواه. إن هذا النبي صلى الله عليه وسلم دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له يهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به. قال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوم، وسأنظر. وأهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم مارية القبطية بنت شمعون، أم إبراهيم وأختها معها واسمها سيرين، وهي أم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت. وغلاماً اسمه مابور، وبغلة اسمها دلدل، وكسوة وقدحاً من قوارير كان يشرب فيه النبي صلى الله عليه وسلم.

وقدم العلاء بن الحضرمي على المنذر بن ساوى فقال له: يا منذر إنك عظيم

العقل في الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة. إن هذه المجوسية شر دين، ليس فيها تكريم العرب ولا علم أهل الكتاب. تنكحون ما يستحيى من نكاحه، وتأكلون ما يتكره عن أكله، وتعبدون في الدنيا ناراً تأكلكم يوم القيامة، ولست بعديم رأي ولا عقل، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب أن تصدقه ولمن لا يخون أن تأمنه، ولمن لا يخلف أن تثق منه، فإن كان هذا هكذا فهو هذا النبي الأمي، والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه، أو ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه إن كان ذلك منه على أمنية العقل وفكر أهل البصر. فقال المنذر: قد نظرت في هذا الذي في يدي فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرت في دينكم فوجدته للآخرة والدنيا، فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت، ولقد عجبت أمس ممن يقبله، وعجبت اليوم ممن يأباه. وإن من إعظام ما جاء به أن يعظم رسوله وسأنظر.

وذا فصل الفوائد قد تقضى وآخذ بعد في ألف ولام
فأنظم منهما بيتاً ومن بعـ ـد أشرحه بميسور الكلام
فإن أرضاك فاضممه وإلا فلا تذممه وانفذ بالسلام

باب الألف مع اللام

وال وال وال وال وال وال وال وال وال

اما ال: ففعل. تقول: أل الشيء يئل ألاً: إذا برق ولمع، وبه سميت الحربة ألة للمعانها. وأل الفرس يئل ألاً: إذا اضطرب في مشيه. وألت فرائصه: إذا لمع في عدوه. قال الشاعر:

حتى رميت بها يئل فريصها وكأنّ صهوتها مداك رخام

المداك: الصلابة. وصهوة كل شيء: أعلاه. وأل الرجل في مشيه: إذا اهتز. ويقال: أل في السير: إذا أسرع، يؤل ألاً. وأل لونه: صفا. والألة: الحربة كما تقدم. يقال أله يؤله ألاً: إذا طعنه بالحربة، وجمعها: أل. وكانوا يقولون لرجب: منصل الأل. قال الأعشى:

تداركه في منصل الأل بعد ما مضى غير دأداء وقد كاد يعطب

والألة أيضاً: أداة الحرب، والجمع: ألال. وألال: أيضاً جبل معروف بعرفات، وهو عن يمين الإمام إذا وقف بها. قال النابغة:

يـــــرون ألالاً ســـــيرهن التـدافع

وسمي: ألالاً من أجل أن الحجيج إذا رأوه ألوا في السير؛ أي: اجتهدوا فيه

ليدركوا الموقف. قال الراجز:

مهسر أبي الحبحاب لا تشلى ... بارك فيه الله من ذي ال

أي: من ذي اجتهاد. وفي الحديث: عجب ربكم من ألكم وقنوطكم. قال الخطابي: يرويه المحدثون بالكسر؛ أي: إلكم؛ وإنما هو ألكم بالفتح، يريد: رفع الصوت بالدعاء. والأليل: صوت الحجر، والأليل أيضاً: من المرض، وهو الأنين. قال الشاعر:

له بعد نومات العيون أليل

يريد: الأنين. قاله ابن قتيبة. وقال أبو علي في النوادر: سمعت خرير الماء وأليله أي: صوت جريه.

وأما ال: فمصدر هذا الفعل المتقدم إذا كان منصوباً؛ يقال: أل يؤل ألأ وأليلاً وألأ، وهو أن يرفع صوته بالدعاء. قاله أبو عبيد، وأنشد:

إذا دعت أللها الكاعب الفضل

وقال يجوز أن يريد: الألل ثم ثناه. ويقال أذن مؤللة أي: محدّدة، والألّلان: وجها السكين، وكذلك كل شيء عريض، والأليلة: ما يجد الإنسان من وجع الحمى، وهو يئل من ذلك،

وألت الشيء تأليلاً: دققت وحددت طرفه. قال طرفة:

مؤللتان تعرف العتق فيهما

يريد: أذني ناقته.

وأما ال: فمن هذا الفعل أيضاً بني لما لم يسم فاعله. تقول: أل فلان: إذا طعن بالألة. وفي الحديث من هذا: تربت يداك وألت. وقالت عمرة بنت سعد المدعوة أم خارجة: ما له أل وغل؛ في خبر طويل. فـ أل من هذا، وغل من الغل، أي: جن حتى يشد بالغل وأل، وسل: من السل وسيأتي.

وأما ال: فمعناه الأول في بعض اللغات، وأنشد:

لمن زحلوقة زل ... بها العينان تنهل

ينادي الآخر الأل ... ألا حلوا ألا حلوا

فالأل هنا بمعنى: الأول، وقد تقدم الرجز. والقول في زحلوقة بالفاء القاف.

وأما آل: فمعناه رجع وصار. تقول: آل يؤول آلأ، وآل اللبن يؤول أولاً وأوولاً: إذا خثر وآل يثيل، والتأويل الذي هو: التفسير، من آل؛ كقولك: تأويل هذه الكلمة على كذا أي: تصير إلى كذا بمعنى ترجع. وأوّلته تأويلاً بمعنى: صيرته.

وأما آل: فعلى وجوه؛ أجعل منها للفظي البيت وجهين، وأجعل سائرها كالملح والزين. آل الرجل: أتباعه وأهل دينه، كما تقول: آل محمد صلى الله عليه وسلم، وآل فرعون لعنه الله وقيل أيضاً: آل الرجل: خاصته الذين يؤول أمرهم إليه في نسبته أو صحبته أو مذهبه. لأنه من: آل يؤول أي: يرجع إليهم، ويصير مثل الذي تقدّم. وأصله أول، وقيل: أهل قلبت الهاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفاً وجمعه: آلون، وتصغيره: أويل، فيما حكاه الكسائي، وحكى غيره أهيل. ذكر هذا الاشتقاق والتصريف المهدوي رحمه الله تعالى. وزاد غيره والجمع: أهال. قال الشاعر:

وبلـــدة مـــا الأنـــس مـــن أهالهـــا

وقد جمعوه: أهلات وأهلات؛ زادوا فيه التاء على غير قياس، كما جمعوا ليلة على ليال، وقد يقال: ليلات وهو أقيس، وأهل الرجل: زوجه، والأهل: أهل الدار، وكذا الأهلة، قال الشاعر:

وأهلــة ودّ قــد تــبوأت ودهــم ... وأبليتهم في الحمـد جهـدي ونائلي

أي: رب من هو أهل للود. ويقال: منزل آهل، أي: به أهله، وآهلك الله في الجنة أهالاً، أي: أدخلكها وزوجك فيها. ويقال: فلان أهل لكذا، ولا تقل مستأهل. وأهلك الله للخير، وقولهم: مرحباً وأهلاً، أي: أتيت سعة وأتيت أهلاً فاستأنس، والإهالة: الودك. وفي الحديث: وأتينا بإهالة سنخة.

ومنها آل: الذي هو السراب وجمعه: أوال، قاله المهدوي أيضاً. وكان ابن قتيبة يفرق بين الآل والسراب. قال في الكتاب الآل: أول النهار وآخره الذي يرفع كل شيء، وسمي: آلاً لأن الشخص هو الآل، فلما رفع الشخص قيل: هذا آل قد بدا وتبين، فعلى هذا يقال للشخص آل، وهو أحد الوجوه في هذه اللفظة، واستشهد بقول النابغة الجعدي:

حتـى لحقنـا بهـم تعـدو فوارسـنا ... كأنـــنا رعـــن قـــف نـــرفع الآلا

كذا رويته تعدو فوارسنا عن العثماني بالإسكندرية، ورويته بمالقة على أشياخي: بعدي فوارسنا.

قال ابن قتيبة ـ رحمه الله تعالى ـ وأما السراب: فهو الذي تراه نصف النهار كأنه ماء، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾ [النور: ٣٩]. وقال غيره: هما شيء واحد، والآل في المرتفع، والسراب يكون في المنخفض كما في الآية. وقيل له: سراب، لأنه ينسرب على وجه الأرض؛ أي: يذهب.

ومنها آل: اسم فاعل آلا يألو، إذا قصر، ويأتيك في الباب بعد هذا. ومنها آل

البعير: وهو ما أشرف من جسمه، ومنها آل الخيمة، أي: عمدها. والآل أيضاً: الأحوال، جمع الآلة، كما قال:

قـــد أركـــب الآلـــة بعـــد الآلـــة

أي: الحالة بعد الحالة، والآلة أيضاً: الأداة وجمعها: آلات. والآلة: الجنازة، قال الشاعر:

كـل ابـن أنثـى وإن طالـت سـلامته يـوماً علـى آلـة حـدباء محمـول

والجنازة ـ بالكسر ـ: النعش، وبالفتح: بدن الميت. والأيالة: السياسة. يقال: آل الأمير رعيته يؤولها إيالة: أصلحها. ومنه قول بعضهم: قد ألنا وإيل علينا.

وأما ال: اللفظة الأخيرة كقوله تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ١٠] فإن ابن عزيز رحمه الله تعالى قال: الذمة: العهد، وقيل الذّمة: ما يجب أن يحفظ ويحمى. وقال في: الإل يجيء على خمسة أوجه: إل الله عز وجل، وإل عهد، وإل قرابة، وإل حلف، وإل جوار.

وقال البخاري في تفسير جبريل وإسرافيل جبر وإسراف: عبد، وإيل: الله. وقد تقدم قول الأستاذ رحمه الله تعالى في هذا الحرف في أول الكتاب. وقال ابن دريد: قال ابن الكلبي: كل اسم في العرب آخره: إل، أو إيل، فهو مضاف إلى الله عز وجل، نحو: شرحبيل، وعبد ياليل، وشراحيل، وما أشبه هذا إلا الزنجيل فإنه: الرجل الضئيل، قال الراجز:

لمـــا رأيـــت بعلهـــا زنجـــيلا

وبنو زنجيل: بطن من العرب من اليمن من طيئ.

قال غيره: وكانت العرب تجيء بالإل في معنى اسم الله عز وجل. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما تلي عليه سجع مسيلمة: إن هذا شيء ما خرج عن إل ولا بر، فأين ذهب بكم؟ قال أبو عبيدة: الإل: الله، والبر: الرجل الصالح. ومن العرب أيضاً من يجيء بالإل مخففاً، قال الأعشى:

أبـيض لا يـرهب الهـزال ولا يقطـع رحمـاً ولا يجـوز إلا

وقد تقدم في قول ابن عزيز أن الإل القرابة، وإن أردت الشاهد عليه فانظر قول حسان ابن ثابت رضي الله عنه:

لعمـرك إن إلـك فـي قـريش كـإل السـقب مـن رأل النـعام

ويجمع على الآل ويستشهد عليه بقول الشاعر:

فـلا آل مـن الآلال بينـي وبينكم فـلا تـألن جهـدا

بقي من هذا الشكل أن تجعل الواو أصلية فتقول: وال، انظره في باب الواو مع الألف في شكل وال. وال: اسم قرية على سيف البحر. وقد ذكرت هناك ما ذكره البكري فيها من العجائب.

ومعكوس البيت: لا. لا: حرف عطف وحرف نفي. يقال لك: أثم زيد؟. فتقول: لا، وتكون بمعنى لم، كقوله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣١] أي: لم يصدق ولم يصلّ، وكما قال الشاعر:

إن تغفر اللهم تغفر جما ... وأي عبد لك لا ألما

أي لم يلم، وهي تخرج الثاني مما دخل فيه الأول. تقول: قام زيد لا عمرو. كما قال أبو القاسم وأحسن ما استعملت فيه لا إله إلا الله، وقد تجعل لا اسماً فتعرب، كما قال الشاعر يمدح كريماً جعل لا على نفسه حريماً:

كأنك في الكتاب جعلت لا لا ... محرمة عليك فما تحل

ولا أيضاً: جمع لأي، وهو الثور، وسيأتي الكلام عليه في باب اللام ألف إن شاء الله تعالى.

مقلوب البيت حرف بين الفين

والا والا والا والا وال والا وال وال

اما إلا: فتكون استثناء؛ وهو أصلها، وتكون بمعنى: بل؛ في مثل قوله تعالى: ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ١-٣] أي: بل. وتكون بمعنى: إما؛ في مثل قولهم: إما أن تكلمني وإلا فاسكت، أي: وإما أن تسكت. وتكون إيجاباً بعد النفي.

ولها عمل في الأسماء من رفع ونصب وخفض، حسبما ذكر النحويون. وتكون إلا داخلة على أن التي للشرط في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣] فتدغم النون في اللام في اللفظ. قال بعضهم: ينبغي للكاتب أن يظهرها في الخط، وإن لم يظهرها فلينوها. ومثل ذلك: أن لا المفتوحة في قولك: أشهد أن لا إله إلا الله. وهذا أوكد لأنه يحتمل أن يكون معنى هذا: أشهد أنه لا إله إلا الله. كما قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] فهذه إلا. وتكون إلا أيضاً بمعنى: هلا؛ تقول: إلا فعلت كذا وكذا، وقد يخففونها فتقول: ألا فعلت، مخففاً.

وأما آلا: فهو: آل المتقدّم نصبته هنا، وألا: مصدر أل، وآلا: جمع ألة، وقد تقدم. ولم يبق إلا: آلى؛ بمعنى: أقسم. وفي الحديث: آلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم من نسائه شهراً. ومصدره إيلاء. وفي القرآن العزيز: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٦] تقول: آلى زيد؛ من الألية على فعيلة؛ من اليمين، وجمعها: ألايا. قال الشاعر:

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برت

والألية ـ بسكون اللام ـ: ألية الشاة؛ وهي: ذنبها، فإذا ثنيت تقول: أليان بلا تاء، قال الشاعر:

ترتج ألياه ارتجاج الوطب

وقد تقدم هذا في باب الألف عند ذكر الخصية، وقول الشاعر: (إن طال خصياه).

وتقول: رجل ألي، أي: عظيم الإلية.

وهذه اللفظة من هذا الباب. وتقول: امرأة عجزاء؛ ولا تقل: ألياء، وتقول: نعجة ألياء وكبش ألي؛ مثل الذي قلت في الرجل. وتقول: آلى فلان وائتلى يأتلي. وفي القرآن العزيز: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ [النور: ٢٢] قيل معناه: يحلف يفتعل، من الألية، وقيل المعنى: ولا يقصر، من قولهم: ما ألوت في كذا؛ أي: ما قصرت، فالتقدير على هذا: ولا يقصر أولو الفضل عن أن يؤتوا أولي القربى. قال النابغة الجعدي:

وأشمط عرياناً يشد كتافه يلام على جهد القتال وما ائتلى

يقال منه: ألى يألو؛ فهو آل، والمرأة آلية. وتقول: ألى بالتشديد عن الشيء يؤلي تألية: إذا أبطأ وقصر. قال الربيع بن ضبيع الفزاري:

وأن كنائني لنساء صدق وما ألى بني ولا أساؤوا

أي ما أبطؤوا. وهو فعلت من ألوت أي: قصرت كما تقدم. وتكون ألوت أيضاً بمعنى: تركت. كما قال سعيد لعمر رضي الله عنهما: ما ألوته حلاوة.

بقي من شكل ما تقدم في البيت مما لم يتزن: إلا. وإلا: واحد النعم، وسيأتي. وألا: التي للعرض. تقول: ألا تنزل عندي فتطعم، ألا تجلس فتتحدث، ومثل ذلك: ألا؛ التي فيها معنى التمني، كما قال:

ألا سبيل إلى نصر بن حجاج

وكما قال:

ألا موت يباع فأشتريه فإن العيش ما لا خير فيه

ومثل ذلك ألا للتحضيض كما قال الشاعر:

ألا طعـــان ألا فرســـان عاديـــة ألا تجـــشؤكم عـــند التنانيـــر

والألف في هذه كلها للاستفهام، وفي الاستفهام أيضاً طرف من الجد لأنهم لا يستفهمون إلا على ما لا يوقف على حقيقته. وألا: التي هي حرف يستفتح بها الكلام، ولا معنى لها إلا للتنبيه. تقول: ألا إن زيد الخارج؛ تريد بذلك أعلم أو أفهم أن الأمر كذا. وفي ضمها: ألق إلي بالك؛ أي: اقطع ما أنت فيه، وأصغ لما أقول. وجاء منه في القرآن كثير، وكذلك في الحديث. قال الله تعالى: ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ [هود: ٥]، ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ [هود: ٨]، ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] وقال عليه الصلاة والسلام: ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، الحديث. وقال: ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب. وغير ذلك. وقد يردفون بلا؛ لا؛ أخرى مثلها، قال الشاعر:

وقـــام يـــذود الـــناس عـــنها بـــسيفه يقـــول ألا لا مـــن ســـبيل إلـــى هـــند

ومن الشكل لا من الوزن، ألاء: مقصور الألف الأولى جمع: ألاة وهو: شجر مر الطعم حسن المنظر. قال الشاعر:

فـــإنكم ومـــدحكم جبيـــرا أبـــا لَجـــأ كمـــا امـــتدح الألاء

والاء أيضاً: موضع بين تبوك والمدينة، وهو أحد المساجد التي صلى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره إلى تبوك، ولعله سمي بالشجر المذكور. يقال: أرض مألاة؛ وأديم مألوء: إذا دبغ بالألاء. وأما الألوة: فهو عود الطيب. وفي الحديث في صفة أهل الجنة: ومجامرهم الألوة الألنجوج عود الطيب. كذا في الحديث الذي خرجه البخاري، ولا أدري قوله: الألنجوج أمن قول الراوي هو؛ أو من قول النبي صلى الله عليه وسلم. وفي الألوة أربع لغات: ألوة بضم الألف، وبفتحها. ولوة: بغير ألف والضم. ولية: بالياء وكسر اللام، قاله أبو حنيفة.

ومن الشكل: آلاء ـ بمد الألف ـ وهي النعم، قال تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣] واحدها: ألا؛ وألى؛ وإلى، قاله ابن عزيز. وإذ قالوا: إلى، فمن شكله: إلى، الحرف الذي هو للغاية، وسيأتي الكلام عليها في الفوائد، وتكون: إلى بمعنى: مع في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ [النساء: ٢] يريد: مع. وقال تعالى: ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٥٢]، ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤] والعرب تقول: الذود إلى الذود إبل، ومذهب سيبويه أن ألف إلى وعلى منقلبة عن واو، وذلك أنه لو سمي بهما رجلان لقيل في تثنيتهما ألوان

وعلوان؛ يريد بعد التسمية والنقل، فإذا اتصل بهما المضمر قلبتهما ياء فقلت: إليك وعليك، وبعض العرب يتركهما على حالهما فيقول: إلاك وعلاك، وكذلك يفعلون في ياء التثنية، كما قال: تزوّد منا بين أذناه طعنة، وسترى هذا مستوفى في باب: إن؛ عند قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ [طه: ٦٣] إن شاء الله تعالى.

ومن شكل إلى أولى على وزن علا؛ وهو جمع الذى؛ وهو من الجمع الذي لا واحد له من لفظه، كما قالوا: أولوا؛ ولا واحد له من لفظه. وواحده ذوو، وقالوا: أولات للإناث؛ واحدها ذات. وأما: أولى؛ من قولهم: ذهب العرب الأولى. كانوا يقولون: كذا وكذا فهو مقلوب من الأول لأنه جمع أول، مثل أخرى وأخر، ويقولون: أولئك وأولاك.

قال الكسائي: من قال أولئك فواحده ذلك، ومن قال: أولاك فواحده ذاك. وقد قالوا: أولالك، وأنشد ابن السكيت فقال:

أولالـك قومـي لـم يكونـوا إشـابة   وهـل يعـظ الـضليل إلا أولالكـا

وربما قالوا: أولئك في غير العقلاء، قال الشاعر:

ذم المـنازل بعـد منـزلة اللـوى   والعـيش بعـد أولـئك الأيـام

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]. فرغ هذا. وأما القافية: فقد ذكرت في أضعاف البيت الأول.

بقي الكلام في مخرج اللام لأن الألف قد تقدم الكلام عليها، أما اللام فمخرجها من حافة اللسان أدناها إلى منتهى طرفه، وهي من حروف الجر، وفي ضمنها الملك. قال الله تعالى: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ [الروم: ٤] و: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٠٩] وتأتي للاستحقاق في مثل قولك: الباب للدار والسرج للدابة، وكما تخفض تنصب بـ كي، وتجزم بالأمر، وتأتي بمعنى: إلى في مثل قوله تعالى: ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة: ٥]، و: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف: ٤٣] يدل على ذلك قوله تعالى في موضع آخر: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل: ٦٨]، و: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وهي تجتمع مع الوزن في قافية واحدة لقرب المخرج. وسترى ذلك في باب النون إن شاء الله تعالى. وقد قلت:

خـرجت مـن أل فهـو يـؤل الأ   إلـى آلـى ومـنه إلـى الألـيل
إلـى أشـياء محـتاج إلـيها   مـن الآداب ليـست بالقلـيل

وهــذا كلــه علــم ويــشفى بــذلكم العلــيل مــن الغلــيل
وآخــذ فــي الفــوائد بعــد هــذا علــى شــرطي فخــذها يــا خليلــي

فصل:

من فوائد هذا الباب تقدم أن رجباً كانوا يسمونه منصل الأل. وتقدم الشاهد عليه ورجب هذا من الأشهر الأربعة الحرم، وكانت العرب ـ لحرمته ـ إذا دخل لم يتركوا نصلاً في رمح ولا حديدة في سهم حتى ينسلخ، وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم حرمته فقال: ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان والثلاثة قبله وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب هو المعني بقوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ [المائدة: ٩٧] وقد ذكر ابن قتيبة رحمه الله تعالى معنى قوله تعالى: ﴿ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ فقال: إن أهل الجاهلية كانوا يتغايرون ويسفكون الدماء بغير حقها، ويأخذون الأموال بغير حلها، ويخيفون السبيل ويطلب الرجل منهم الثأر فيقتل غير قاتله، وربما أسرف في القتل فقتل بالواحد اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر من ذلك. قال الشاعر:

هــم قــتلوا مــنكم بظــنة واحــد ثمانــية ثــم اســتمروا فأربعــوا

يقول: اتهموكم بقتل رجل واحد منهم فقتلوا منكم ثمانية به، فجعل الله الكعبة البيت الحرام وما حولها من الحرم، والشهر الحرام، والهدي والقلائد، قياماً للناس، أي: أمناً لهم. فكان الرجل إذا خاف على نفسه جاء إلى الحرم، يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وإذا دخل الشهر الحرام تقسمتهم الرحل، وتوزعتهم النجع وانبسطوا في متاجرهم وأمنوا على أنفسهم وأموالهم. وإذا أهدى الرجل منهم هدياً وقلد بعيره من لحاء شجر الحرم أمن كيف انصرف وحيث سلك.

ولو ترك الناس على جاهليتهم وتغاورهم في كل موضع وكل شهر لفسدت الأرض وفني الناس وتقطعت السبل وبطلت المتاجر، ففعل الله ذلك لعلمه بما فيه من صلاح شؤونهم، وليعلموا أنه كما كان علم ما فيه من الخير لهم يعلم أيضاً ما في السماوات وما في الأرض من مصالح العباد ومرافقهم، وأنه بكل شيء عليم.

وتقدم أل فلان: إذا طعن بالآلة وهي الحربة، وجاء من هذا اللفظ في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت فأبصرت الماء، قال: نعم. فقالت لها عائشة رضي الله عنها: تربت

يداك وألت، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعيها وهل يكون الشبه إلاّ من قبل ذلك، إذا علا ماؤها ماء الرجل، أشبه الرجل أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه، فقول عائشة رضي الله عنها: تربت يداك وألت، هو من نوع ما تقدم، ولكن للعرب ألفاظ يقولونها لا يريدون بها وقوع الأمر مثل: تربت يداك، ولا أبا لك، وعقري، وحلقي، وقاتله الله. ويأتي الكلام على ذلك في باب اللام ألف إن شاء الله تعالى.

وجاء في حديث آخر بعد قوله: فمن أين يكون الشبه. إن ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا أو سبق يكون منه الشبه. وفي حديث اليهودي الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم: جئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: أينفعك إن حدثتك؟. قال: أتسمع بأذني، ثم قال: جئت أسألك عن الولد؟. فقال: ماء الرجل أبيض؛ وماء المرأة أصفر؛ فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله تعالى، وإذا علا مني المرأة ماء الرجل أنثا بإذن الله تعالى. فقال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي. ثم انصرف فذهب. فقال صلى الله عليه وسلم: لقد سألني عن الذي سألني عنه وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به.

وقال بعض العلماء: يكون التذكير والتأنيث بالسبق، والشبه بالعلو والكثرة. فإذا سبق ماء الرجل وكان أكثر جاء المولود ذكراً وأشبه أعمامه، وإذا سبق ماء المرأة وكان أكثر كانت أنثى وأشبهت أخوالها. وإذا سبق ماء الرجل وكان ماؤها أكثر كان ذكراً وأشبه أخواله، وإذا سبق ماء المرأة وكان ماء الرجل أكثر كانت أنثى وأشبهت أعمامها ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨] والله أعلم بهذا كله.

وتقدّم قول أم خارجة: ماله أل وغل. وهذه التي يضرب بها المثل في النكاح. فيقال أسرع من نكاح أم خارجة،كان الرجل يقول لها خطب فتقول نكح، وقد ولدت في عدة بطون من العرب حتى لو قال قائل إنه لا يكاد يتخلص من ولادتها أحد لكان مقارباً. واسمها عمرة بنت سعد، وكانت حسناء مقبولة، فالرجال يحبونها ولا يصبرون على ما تطلبهم به من الباءة فيطلقونها، وسبب قولها: أل وغل؛ أن بعض أزواجها طلقها، فرحل بها ابن لها من حيه إلى حيها، فرفع لها راكب، فلما تبينته قالت لابنها: هذا خاطب لي لا أشك فيه أتراه يعجلني أن أحل له ماله أل وغل.

وتقدّم آل الرجل: أتباعه وأشياعه. قلت في هذا أنس للمؤمنين وترويح لقلوبهم لأنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ومن آله، فحيث يدخل ندخل معه إن شاء الله

تعالى، والشاهد على ذلك قوله: ﴿ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] يريد أتباعه وأهل دينه، ولم يخرج هو منهم بدليل قوله تعالى في موضع آخر: ﴿ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢] قيل في أزواجهم: قرناؤهم. وقيل أشياعهم. وقال فيه: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ [هود: ٩٨] كذلك يقدمنا نبينا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلنا الجنة بكرم الله تعالى وجاه رسوله لديه، إذ جاءه: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى: ٥] وما يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل أحد من أمته النار، ومن دخل منهم بذنبه لا يرضى حتى يخرجه من النار بشفاعته، وشفاعته مشهورة والإيمان بها واجب.

وجاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتي الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى. أما إنها ليست للمؤمنين المتقين ولكنها للمؤمنين الخاطئين الملوثين، ولي من هذا المعنى وقد ذكرت فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قطعة منها:

وشــــفاعاته لأهـــل المعاصـــي والذنـوب العظـام مثلـي وصـنفي

انظرها بكمالها في التكميل.

ومع هذا كله فنقول: الحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من رؤية النار. وأنت أيها الناظر في أحرفي إذ قد رجوت من هذه الجهة فخف من الجهة الأخرى، حتى لا يفارقك الخوف فعساك تأمن إن شاء الله تعالى. قال عليه الصلاة والسلام: إن أوليائي منكم المتقون. وفي حديث آخر سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله من آل محمد؟. قال: كل تقي. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] وانظر قوله صلى الله عليه وسلم؛ إذ أمر أن ينذر عشيرته الأقربين؛ فجمع أقرباءه حتى عمته صفية وابنته فاطمة رضي الله عنهما وقال لهم: ما أغني عنكم من الله شيئاً قد أبلغتكم. في حديث طويل قد اختصرته.

وسئل مالك رضي الله عنه: من آل محمد؟ قال: أهل الاتباع له. ذكره أبو القاسم الجوهري في مسنده رحمه الله.

وتقدّم أل وقول أبي بكر رضي الله تعالى عنه لما تلي عليه سجع مسيلمة الكذاب: (يا ضفدع نقي كم تنقين لا الشراب تكدرين ولا الماء تمنعين) وفي رواية: (يا ضفدع بنت ضفدعين) إن هذا ما جاء عن أل ولا بر فأين ذهب بكم.

وقد تقدم قول ثمامة بن أثال الحنفي رضي الله عنه حين ارتدت بنو حنيفة قال

خطبنا وقال: يا بني حنيفة أين غربت قلوبكم ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ١-٣] أين هذا من: (يا ضفدع...) الخ. وقال: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقام بهذا الأمر من بعده رجل هو أفقههم في أنفسهم، لا تأخذه في الله لومة لائم، ثم بعث إليكم رجلاً لا يسمى باسمه ولا باسم أبيه يقال له سيف الله معه سيوف كثيرة، فانظروا في أنفسكم ثم قال شعراً رضي الله عنه:

مسيلمة ارجع ولا تمحك ... فإنك في الأمر لم تشرك
كذبت على الله في وحيه ... هواك هوى الأحمق الأنوك
ومناك قومك أن يمنعو ... ك وإن يأتهم خالد يدرك
فما لك من مصعد في السماء ... وما لك في الأرض من مسلك

فلما قال هذا أطاعه منهم ثلاثة آلاف فانحازوا إلى المسلمين. ففتَّ ذلك في أعضاد بني حنيفة.

وإذ وقعنا في ذكر هذا اللعين فلنذكر من أخباره ولنعلمه علماً طيباً وبالله نستعين. ولنذكر من أخباره ما يزيد في إنكاره. وكان اسمه ـ لعنه الله ـ مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب، ويكنى: أبا ثمامة. وقيل: أبا هارون، وكان قد تسمى بالرحمن، وذلك قبل مولد عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم. ولذلك كانت قريش تقول حين سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إنما تذكر رحمن اليمامة، وكان صاحب نيرنجات، يقال: إنه أول من أدخل البيضة في القارورة، وأول من وصل جناح الطائر المقصوص.

وكان أول أمره أن قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد بني حنيفة في وفد كثير فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر بعده تبعته. فأقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده قطعة من جريد حتى وقف عليه في أصحابه فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيك ما أريت. وكان صلى الله عليه وسلم قد رأى في النوم في يديه سوارين من ذهب ـ ووقع في بعض روايات البخاري أسوارين بالألف ـ فخطب الناس وقال في خطبته: رأيت في يدي أسوارين من ذهب فكرهتهما، فنفخت فيهما فطارا فأوّلتهما بهذين الكذابين صاحب اليمامة، وصاحب صنعاء. يريد: مسيلمة

والأسود العنسي لعنهما الله. قال بعض أهل العلم بالتفسير تأويل نفخه إياهما أنهما بريحه قتلا، لأنه لم يغزهما بنفسه، وتأويل الذهب أنه زخرف. فدل لفظه على زخرفهما وكذبهما، ودل الأسواران بلفظهما على أسوارين ملكين لأن الأساورة هم الملوك، وقد تقدم، ودلاً بمعناهما على التضييق لكون السوار مضيقاً على الذراع. والله أعلم بما أراد من ذلك.

رجع: فلما رجع مسيلمة إلى اليمامة تنبأ وتكذب لقومه، وقال: إني قد أشركت في الأمر معه فاتبعوه على ذلك، وكانوا قد أسلموا فارتدوا، وأحل لهم الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنبوة، وهو الذي قال: ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣] في تفسير الحسن وقتادة. وكان من بلاء الله عليه وعليهم وفتنته؛ أن رجلاً منهم يقال له: الدجال؛ واسمه نهار بن عنفوة، قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فآمن وتعلم سوراً من القرآن، وكان يذكر من صلاحه، ثم لحق بقومه بني حنيفة، وارتد عن الإسلام وآمن بمسيلمة، وشهد زوراً أن النبي صلى الله عليه وسلم قد شركه معه في النبوة، ونسب إليه بعض ما تعلم من سور القرآن، فافتتن بذلك قومه، وبذلك كتب مسيلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك، أما بعد: فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريش قوم يعتدون. وقدم عليه بالكتاب رجلان من قومه. فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قرأ كتابه: فما تقولان أنتما؟. قالا: نقول كما قال. فقال: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما. ثم كتب إلى مسيلمة: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

وكان من أمر الدجال أنه لما قدم المدينة جلس يوماً مع أبي هريرة رضي الله عنه وفرات ابن حبان، فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ضرس أحدكم في النار مثل أحد. فما زال أبو هريرة وفرات بن حبان خائفين على أنفسهما حتى بلغهما أن الدجال قد ارتد وآمن بمسيلمة، وشهد له بالزور كما تقدم. فلما بلغهما ذلك خرا ساجدين، وأمنا مما كانا يخافان. وقتل الدجال يوم اليمامة، قتله زيد بن الخطاب أخو عمر رضي الله عنهما، وقتل يومئذ زيد هذا قتله مسلمة بن صبيح الحنفي، وكان محكم بن الطفيل مدبر أمر مسيلمة وصاحب حربه، وكان أشرف منه في بني حنيفة، وقتل يومئذ لعنه الله. وكان لمسيلمة مؤذن يقال له: حجير، وكان أول ما أمر أن يذكر

مسيلمة في الأذان توقف، فقال محكم بن الطفيل: (صرح حجير) فذهبت مثلاً.

وتنبأت سجاح في زمنه، وتزوجها، وكانت تكنى بأم جنادر، وكان بينهما أخبار وأسرار يشنع بها التذكار، من أجل سجاح رحمها الله تعالى، لأنها أسلمت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلا تذكر إلا بخير، وقد عفا الله عما سلف.

وأما عدو الله مسيلمة فكان آخر أمره أن قتل باليمامة على مذهبه السوء قتله وحشي. على اختلاف فيه، وكان وحشي هو الذي قتل حمزة بن عبد المطلب يوم أحد، رضي الله عن حمزة؛ فكان يقول: إن كنت قتلت خير الناس ـ يعني حمزة ـ فقد قتلت شر الناس؛ يعني مسيلمة.

وتنبأ أيضاً الأسود العنسي المذكور، وسيأتي خبره. وفي ادعاء هؤلاء النبوة معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم، لأنه قال عليه الصلاة والسلام: لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالاً كلهم يدعون النبوة. ولما قتل مسيلمة لعنه الله في زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال رجل من بني حنيفة يرثيه:

لهفي عليك أبا ثمامه ... لهفي على ركني اليمامه
كم آية لك فيهم ... كالشمس تطلع من غمامه

قلت: تعساً لهذا القائل وكبًا لفيه، وأية آية كانت فيه، اللهم إلا من جهة العكس والنكس. تفل في بئر قوم سألوه ذلك تبركاً فملح ماؤها، قيل وذهب. ومسح رأس صبي فقرع قرعاً فاحشاً، وقرع كل مولود ولد له إلى يوم القيامة، ودعا لرجل في ابنين له بالبركة فرجع إلى منزله فوجد أحدهما سقط في البئر والآخر قد أكله الذئب. وسأله آخر أن يدعو لمولود ولد له أن يطيل عمره فجعل عمر المولود أربعين سنة فرجع إلى منزله مسروراً فوجده ينزع في الموت فمات من يومه ذلك، ومسح على عيني رجل استشفى بمسحه فابيضت عيناه. فهذه آياته الخبيثة الخسيسة التي كانت به مخصوصة.

وعاش لعنه الله مائة وخمسين سنة. وكان يأخذ الأبيات من الشعر المستحلى فيجعلها سوراً تتلى. حدث الأصمعي قال: نزلت برجل من الأعراب، فقام يصلي المغرب، فقرأ في الركعة الأولى: أفلح من هينم في صلاته، وأطعم المسكين من مخلاته، وحاط من بعيره وشاته. ثم ركع وسجد، وقام إلى الثانية وقرأ:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهن أبناء الرجال الأباعد

ثم ركع وسجد وتشهد، ثم قام إلى الثالثة فقرأ:

ويوسف إذ دلاه أبناء علة ... فأصبح في قعر الركية ثاويا

ثم ركع وسجد وتشهد، فقلت له: من أين لك هذا القول وليس من القرآن؟،

فقال: مه يا أصمعي أشهد الله على عمتي أنها تلقته من مسيلمة رسول الله مذ أربعين عاماً. فقلت له: إن هذا باطلاً فلا تعتقده.

وأما قرآنه الذي اختلقه افتراء على الذي خلقه، فمثل قوله: يا ضفدع بنت ضفدعين نقي كم تنقين لا الماء تكدرين ولا الشراب تمنعين. إلى أشياء مثل هذا من أسجاع وخرافات وترهات وسخافات. أردت أن أذكر منها في هذا الفصل ما جمعته وأوردته كما سمعته ثم استثقلته بعد أن نقلته فتركته لما فركته، واستعذت بالله من شر آفاته، وحمدت الله مولاي على مكافاته.

ومع هذا فلم أسكت بل أعملت في ثلبه جناني ولساني، ولو أمكنني إذ فاته سناني لقطعته خنقاً بأسناني، وقلت في ذلك المنحوس المنجوس سطراً من المقلوب المعكوس، الذي هو صناعتي وجل بضاعتي، وأثبتته بالصمغ الأحمر هنا يراعتي بمنتهى براعتي، وأحدقت بذلك السكر كلاماً منتظماً، وجعلته وسطه علماً، أبديت فيه ببناني بياني، فبينت بذلك المنظوم الموزون، ما في ذلك السطر المنثور من الدر المخزون، وكيف يعود إذا وهبته شعراً تخاله سحراً يتضمن الموزون المعكوس، سباً لمسيلمة الملعون المنكوس. وها هو أتم الله النعم لديك، قد مثل بين عينيك، فلا تنظره بعين الاحتقار، فتقول مه، فلهو عندي أغرب وأعجب من سجع مسيلمة الغدار وهو:

لمـــا رأيـــت صـــاحب الـيمامه ... مـسيلم المكنـــى أبـــا ثمامـــه
قـــد حـــاز مـــثل هـــذه الـــرذائل ... وحـــرم الخيـــر مـــع الفـــضائل
ثـــم الـــتفت فـــاه حـــين يقـــذف ... بهـــذيان مـــثله لا يعـــرف
كقـــوله المكـــذوب غيـــر الحـــق ... ضـــفدع بـــنت ضـــفدعين نقـــي
إلـــى ســـوى هـــذا مـــن البهـــتان ... والـــزور والفحـــشاء كالتهـــتان
وتفلـــه فـــي مـــاء بئـــر غيـــر مـــر ... فعـــاد ذاك المـــاء ملحـــاً ثـــم مـــر
شـــبهت فـــاه كإنـــاء قـــد ملـــي ... ســـمّاً بـــلاء ذا الـــشقي بـــه ابتلـــي
حينـــئذ قلـــت كلامـــاً نثـــرا ... معنـــى الـــذي قـــد قلـــت الآن شـــعرا
ســـطرته بـــين يـــديكم ســـطرا ... لتقـــرؤوه فـــتقولوا ســـحرا
وهـــاكم أحـــرفه محـــرجمة ... مكـــتوبة بحمـــرة كالتـــرجمة

(كلما التفتنا فاه قلت كل بهتان بلا كإناء ملئ سمّاً)

هـــذا كـــلام حـــسنه قلبـــي ملـــك ... وحـــق ذا فـــضوؤه جـــلا الحلـــك
فـــي ضـــمنه ســـر إذا أبديـــه لـــك ... تقـــول لـــي يـــا يوســـف مـــا أنـــبأك
تـــريد أن تـــسمعه باســـم الملـــك ... صـــل علـــى كـــل نبـــي أو ملـــك

والعن مسيلم الذي قبل سلك واعكس حروف السطر يبدو منه لك
أمسيلم إنا كلابنا تهب لك تلقها فإن تفت لا أم لك

فرغ هذا الرجز المذكور في مسيلمة اللعين، والحمد لله رب العالمين. فإن قنعت به، وإلا فقد قلت فيه أيضاً خمسة أبيات، وإن كانت لا تساوي خمس حبات، فهي أطبع من سجعه المفترى، وإلا فاقرأ وترى، فإني قلتها حين كرهت أن أملأ هذه الصحف بما قاله اللعين من السخف، وهي:

لعمرك إني حين أكتب ذا الذي تقوّله فكا مسيلمة البذي
أضفدع نقي كم تنقين إنني مضبع له مد يدي وكو يغذي
حمدت إلهي حين لم أك مثله ولا كنهار حذوه كان يحتذي
ولا كحجير إذ يقول محكم له لا تقف صرح حجير وشعوذ
وإني من ذا فارغ نازع إلى لغات بأبيات بها القلب قد غذي

قد تقدم ذكرهم، لعنهم الله وأخزاهم، وجعل جهنم مأواهم، ونهار: اسم الدجال، والدجال: لقب له، وتقدم اسم أبيه عنفوة، وقال فيه أبو حنيفة: عنثوة بالثاء المثلثة، وفسره قال: هو يابس الحلي، والحلي: النصي؛ وهو نبت، ويقال: كاغد بالدال؛ وكاغذ بالذال، وكاغظ: بالظاء. فاعلم ذلك وبالله التوفيق.

ودونك فائدة زائدة :

ضفدع ـ مثل خنصر ـ: واحد الضفادع، والأنثى ضفدعة، وناس يقولون: ضفدع بفتح الدال. قال الخليل ليس في الكلام فعلل إلا أربعة أحرف: درهم، وهجرع للطويل، وهبلع للأكول، وقلقم اسم رجل. قال ابن السيد: يقال: ضفدع وضفدع بكسر الدال وفتحها. وقد حكي: ضفدع بضم الضاد وفتح الدال؛ وهو نادر، وجمعه: ضفادع. وقد جاءت فيه لغة ضفادى. وأنشد سيبويه:

ومنهل ليس له حوازق ولضفادى جموّه نقانق

وقيل: إنما قال الشاعر ذلك ضرورة. قال ابن السيد: وليست بلغة وهو الصحيح، لأن الضفادى ليس لها واحد مستعمل من لفظها، وإنما المسموع ضفدع كما تقدم.

وتقدّم ذكر الأسود العنسي، وأنه تنبأ بصنعاء اليمن؛ لعنه الله، ولا بد أن نذكر أيضاً من خرافاته ما تستدل به على سخافاته، لأن الأشياء تعرف بأضدادها فيوقف على حقيقة إصدارها وإيرادها، فلولا الحمقى ما عرف العقلاء، ولولا الجهلاء ما ميّز العلماء. هو الأسود بن كعب، يلقب عبهلة، ويقال له: ذو الخمار؛ لأنه كان يغطي رأسه بخمار؛ إذا أتاه شيطاناه سحيق وشقيق وكان يتلو عليهم مما يلقيانه إليه فيقول:

(والماشات ميساً، والدارسات درساً، يحجون غضباً وفرادى، على قلائص بيض وصفر). انظر هذا الكلام ما أقربه من الغي وأشبهه بالعي يتفقاً، ولكن من الهزال، ويدعو بالجهل نزال نزال، لا حلاوة ولا طلاوة ولا فصاحة ولا ملاحة.

وكان أضعف من هذا الخبيث وأعجز، وأخف منه وأجرز، النضر بن الحارث، الذي عارض القرآن العظيم بكلام حادث، دل به على بهامته، وأن لا مخ بهامته. قال لعنه الله: (والطاحنات طحناً، فالعاجنات عجناً، فالخابزات خبزاً، فاللاقمات لقماً)، انظر هذا الهذيان الذي ينطق به لسان هذا الإنسان. هل يرضى بقوله الصبيان؟. ومع هذا السخف كان يقول: ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣] ما كان أسخفه لعنه الله.

ونرجع إلى ذكر الأسود الخبيث المبعد. كان لعنه الله يعلم بعي نفسه، فربما أدرج آيات من القرآن العزيز في لبسه. كان يأخذ من الرجل المسلم ما معه من القرآن فيدعيه ثم يقتله ولا يحييه. قدم على النبي صلى الله عليه وسلم النعمان السباق، وكان من أحبار يهود اليمن، فأسلم وتعلم سوراً من القرآن، ثم رجع إلى قومه، وحذره النبي صلى الله عليه وسلم الأسود هذا وخافه عليه، فكان ما خافه عليه الصلاة والسلام، أخذه الأسود عدو الله وأمنه حتى تعلم ما كان يحفظ من القرآن ثم قتله، وادعى ذلك لنفسه. وكيفية قتله: قطعه عضواً عضواً وهو يقول: أشهد أن محمداً رسول الله وأنك كذاب مفتري على الله الكذب. ثم حرقه بالنار. وقد فعل بأبي مسلم الخولاني واسمه عبد الله بن ثوب رضي الله عنه مثل هذا ولكن الله نجاه منه، أخذه وقال: أتشهد أني رسول الله؟. فقال: لا أسمع. فقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟. قال: نعم. فأمر بنار فقذفه فيها، فخرج أبو مسلم يرشح عرقاً، فقيل للأسود: انفه من بلادك وإلا أفسد عليك الناس، فأخرجه. ثم قدم المدينة وقال له عمر رضي الله عنهما: من أين أقبل الرجل؟. قال: من اليمن. قال: ما فعل الرجل الذي أحرقه الكذاب بالنار؟. قال: ذاك عبد الله بن ثوب. فقال له عمر رضي الله عنه: أنشدك الله أنت هو؟. فقال: نعم. فأخذه عمر وأجلسه بينه وبين أبي بكر وقال: الحمد لله الذي أرانا في هذه الأمة من فعل به ما فعل بإبراهيم خليل الرحمن.

وكان آخر أمر هذا اللعين أن المرزبانة ـ وهي من أبناء الذين كانوا باليمن رضي الله عنها ـ احتالت في قتله، وقد تقدم أنها كانت ممن ثبت على الإسلام مع قومها، وأنها لما بلغها موت النبي صلى الله عليه وسلم شقت درعها من بين يديها ومن خلفها، وجمعت النساء فبكين على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانت امرأة جميلة فغلب عليها الأسود العنسي لعنه الله واستنكحها فجعلت تشكو أمرها إلى قومها، إلى أن

ذكرت ذلك لفيروز الديلمي رضي الله عنه، وقد تقدم ذكره في حديث كسرى. وكان رجلاً صالحاً جلداً فقالت له: ألا تريحني من هذا الخبيث، وتنقذني مما أنا فيه، قد غلبني على نفسي، وهو مع ذلك لا يغتسل من جنابة ويستحل الحرام ويشرب الخمر ولا يتورع من الفواحش، يفتري على الله عز وجل ويدعي رسالته. فقال لها: وكيف؟. فقالت: أنا أحتال، فاعمل نفقاً في البستان حتى تدخل عليّ في ساعة يسكر فيها، ففعلت ذلك. ودخل عليها فيروز، وليس في البيت غيره والمرزبانة، وهو قد ثمل من الخمرة. قال: ونشبت سيفي فأبترك عليه، وكان طويل العثنون، فكسرت عنقه وجعلت وجهه في قفاه، ثم خرج من ذلك النفق وأخرج معه المرزبانة. وأراح الله منه العباد والبلاد، وأصلاه جهنم وبئس المهاد. ويروى أيضاً أن قيس بن مكسوح وذويه دخلوا مع فيروز من ذلك السرب فضربوه بأسيافهم حتى قتلوه وهو سكران وهم يرتجزون:

ضـل نبـي مـات وهـو سـكران والـناس تلقـى جلهـم كالـذبان

الـنور والـنار لـديهم سـيان

كذا وقع في الدرة.

وخرج النسائي عن عبد الله بن فيروز الديلمي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم برأس الأسود العنسي الكذاب، وفيه متصلاً به: يقال إن الخبر بقتل الأسود جاء إثر موت النبي صلى الله عليه وسلم.

وأذكر لك هنا حديث النعمان فإنه يجدد الإيمان. كان رضي الله عنه من أحبار يهود اليمن كما تقدم. فلما سمع بذكر النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه، وسأله عن أشياء، ثم قال: إن أبي كان يختم على سفر، ويقول: لا تقرأه حتى تسمع بنبي قد خرج بيثرب، فإذا سمعت به فافتحه. قلت: نعم. فلما سمعت بخروجك فتحت السفر فإذا فيه صفتك كما أراك الساعة. وإذا فيه ما تحل وما تحرم، وإذا فيه أنك خير الأنبياء، وأمتك خير الأمم، واسمك أحمد وأمتك الحمادون، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم صدورهم، لا يحضرون قتالاً إلا وجبريل معهم يتحنن عليهم كتحنن الطير على فراخه. ثم قال لي: إذا سمعت به فاخرج إليه وآمن به وصدق به. فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع أصحابه حديثه. فأتاه يوماً فقال له: حدثنا. فابتدأ الحديث، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أشهد أني رسول الله.

وتقدّم: ألى وائتلى، وقول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [النور: ٢٢] نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين أقسم أن لا ينفق على مسطح لما بلغه من قوله في

عائشة المطهرة رضي الله عنها وخوضه مع أهل الإفك في شأنها، فلما أنزل الله تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢] قال: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وعفا وصفح رضي الله عنه. فبمثل هذه الأخلاق ينبغي أن يقتدى وبهدي هذا الصديق يصلح أن يهتدى ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير. وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بنفسه، وقال: لأن يلج أحدكم بيمينه آثم له عند الله من أن يعطي الكفارة التي وجبت عليه. وفي مثل هذا أنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٤]. نسأل الله تعالى التوفيق إلى سواء الطريق.

وتقدّم: ما ألوته حلاوة. قال هذا رجل لعمر رضي الله عنه، عطش يوماً فاستسقى ماء، فأعطاه رجل إداوة فيها ماء فنبذ فيها تمرات فلما قربه عمر من فيه وجد الماء حلواً بارداً فأمسك وقال: أوه. فقال الرجل: والله ما ألوته حلاوة يا أمير المؤمنين. فقال عمر: ذلك الذي منعني، ويحك لولا الآخرة لشاركناكم في عيشكم.

وهذا شبيه بحديثه الآخر أنه قال: لو شئت لدعوت بصلاء وصناب وصلائق وكراكر وأسنمة. وفي حديث آخر: لو شئت أن يدهمق لي لفعلت، ولكن الله عاب قوماً فقال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠] خرجه أبو عبيد رحمه الله. وقال عن أبي عمرو: الصلاء: الشواء، والصناب: الخردل. والصلائق: ما يصلق من البقول وغيرها وهو بالسين. وقال غير أبي عمرو: الصلائق بالصاد: الخبز الرقيق، والكراكر والأسنمة معروفة. انتهى كلامه. وكان عمر رضي الله عنه يشدد على نفسه كثيراً وقد تقدم من شدته في هذا الكتاب كثير وأزيدك هنا أيضاً. أتي يوماً رضي الله عنه بشربة من ماء شيب بعسل فلما علم بذلك قال: اعزلوا عني حسابها، وتركه.

وهيأ له خالد بن الوليد رضي الله عنه طعاماً. فقال عمر: هذا لنا فما لفقراء المهاجرين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير؟ قال خالد: لهم الجنة يا أمير المؤمنين. فقال عمر: لئن فازوا بالجنة وكان حظنا من الدنيا فقد باينونا بوناً مبيناً؛ رضي الله عنه.

ومن شكل إلى: إلى: الحرف الخافض الذي هو انتهاء الغاية. وقد تكلم العلماء في قوله تعالى: ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ [المائدة: ٦] وكذلك إلى الكعبين في الرجلين فمنهم من أدخل ذلك كله في الغسل، ومنهم من جعل (إلى) حداً لم يتعده إلا على جهة الحوطة ولإزالة تكلف التحديد، ومنهم من فعل ذلك رغبة في إطالة الحلية. إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تبلغ الحلية من الإنسان إلى قدر مواضع الوضوء فمن أراد أن يطيل غرته وتحجيله فليفعل. قال الصاحب: فجعل يغسل إلى الآباط والمناكب. وقال في الساق كذلك يعني يطيله.

وقال المبرد في (إلى) إذا كان الثاني من جنس الأول فما بعد إلى داخل فيما قبلها نحو قوله تعالى: ﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ فالمرافق داخلة في الغسل لأنها من اليدين، وإذا كان ما بعد (إلى) ليس من جنس الأول فليس بداخل فيه. نحو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] فالليل ليس من جنس النهار فليس بداخل فيه، والله أعلم.

وتقدّم معكوس: ال (لا) وأحسن ما استعملت فيه (لا) قوله: لا إله إلا الله، فهي ثمن الجنة، ومفتاح الجنة، وهي كلمة التوحيد، وكلمة الإخلاص، وكلمة التقوى، ودعوة الحق، والعروة الوثقى، وهي الكلمة الطيبة. وتقدّم هجيرى أبي بكر رضي الله عنه أخذها ـ والله أعلم ـ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: جددوا إيمانكم بقول: لا إله إلا الله، خرجه البزار.

ومن فضل هذه الكلمة ما خرجه أيضاً بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن لله تعالى عموداً من نور بين يدي العرش فإذا قال العبد: لا إله إلا الله اهتز ذلك العمود، فيقول الله تعالى: اسكن. فيقول: كيف أسكن ولم يغفر لقائلها. فيقول: فإني قد غفرت له. فيسكن عند ذلك. ذكر أول الحديث مفتاح الجنة، وما أحسن هذا القول وأجوده، لولا أن ثم ما قيده. قيل لوهب رضي الله عنه: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟. قال: بلى. ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتحت وإلا لم يفتح لك. ومخرج هذا الحديث ـ والله أعلم ـ أن ذلك كان في أول الإسلام قبل الفرائض والحدود، فلما نزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس، الحديث. فإذاً هذه الخمس هي الأسنان، من جحد منها واحدة قتل. ألا ترى أن أبا بكر رضي الله عنه كيف قاتل مانعي الزكاة. وجاء في الرقائق عن الضحاك بن مزاحم. يقول أصحابك الحمقى: من قال لا إله إلا الله فله الجنة، وإنما كان ذلك قبل

الفرائض.

وقد سئل ابن عمر رضي الله عنهما: هل يضر معها عمل؟ أي: لا إله إلا الله، كما لا ينفع مع تركها عمل. فقال ابن عمر رضي الله عنهما: عش ولا تغتر. وهذا مثل وقد تقدم تفسيره.

وقيل لأبي الدرداء: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦] وإن زنى أو سرق. قال: إن خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق. وقال عليه الصلاة والسلام: من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة.

قال المازري: اختلف الناس في من عصى من أهل الشهادتين. فقالت المرجئة: لا تضره المعصية مع الإيمان. وقالت الخوارج: تضره المعصية ولا يكفر بها. وقالت المعتزلة: يخلد في النار إذا كانت معصيته كبيرة، ولا يوصف بأنه مؤمن ولا كافر، ولكنه يوصف بأنه فاسق. وقالت الأشعرية: بل هو مؤمن، وإن لم يغفر له وعذب، فلا بد من إخراجه من النار وإدخاله الجنة. وهذا الحديث حجة على الخوارج والمعتزلة.

وأما المرجئة فإن احتجت بظاهره على صحة ما قالت به، قلنا: نحمله على أنه غفر له وأخرج من النار بالشفاعة وأدخل الجنة، فيكون المعنى بقوله: دخل الجنة. أي: دخلها بعد مجازاته بالعذاب. وهذا لا بد من تأويله لما جاءت ظواهر كثيرة من عذاب بعض العصاة. فلا بد من تأويل هذا الحديث لئلا يتناقض ظواهر الشرع. وقوله في هذا الحديث: وهو يعلم، إشارة إلى الرد على من قال من الغلاة: إن مظهر الشهادتين يدخل الجنة، وإن لم يعتقد ذلك بقلبه. وقد قيد في حديث آخر بقوله: غير شاك فيهما. وهذا أيضاً يؤكد ما قلنا به، والحمد لله. انتهى كلامه.

ومما يشبه هذا القول ما يروى: أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال لعمر رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين أسألك؟. قال: سل. قال: أرأيت رجلاً لم يترك لله طاعة إلا عملها، ولم يدع لله معصية إلا اجتنبها، إلا أنه قبل أن يموت سجد لوثن أين هو؟. قال: في النار يا ابن عباس. قال: قد علمت أنك ستقول ذلك، أرأيت رجلاً لم يدع لله طاعة إلا اجتنبها، ولا معصية إلا فعلها، إلا أنه لأن يخر من السماء فتخطفه الطير، أو تهوي به الريح في مكان سحيق أحب إليه من أن يشرك بالله طرفة عين أين هو؟. قال: فسكت، قال: قلت: لكني أقول. قال: قل يا ابن عباس. قال: قلت: الله عز وجل بالرحمة أجود منه بالعقوبة. انتهى.

قلت: الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه صحيح، لكن هذا رجاء صريح، وأخاف من ركن إلى هذا المذهب أن يكون الخوف عنه قد ذهب. وقد تقدم قول ابن

عمر: عش ولا تغتر. ولم يقلها ابن عمر وحده، وقد سأل رجل ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، رضي الله عنهم فقال: كما لا ينفع مع الشرك عمل كذلك لا يضر مع الإيمان ذنب، فكلهم قال: عش ولا تغتر. يقول: لا تفرط في أعمال البر، وخذ في ذلك بأوثق الأمر، فإن كان الشأن هناك على ما ترجو من الرخص والسعة، كان ما كسبت زيادة في الخير. وإن كان ما تخاف كنت قد احتطت لنفسك. وقد قال: لا تغتر، من هو فوق هؤلاء، رسول الله صلى الله عليه وسلم، روي أن أبان بن عثمان رضي الله عنهما قال: أتيت عثمان بطهور وهو جالس على المقاعد، فتوضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وهو في هذا المجلس، فأحسن الوضوء ثم قال: من توضأ مثل هذا الوضوء، ثم أتى المسجد فركع ركعتين، غفر له ما تقدم من ذنبه. قال: وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تغتروا.

ومما يشبه ما تقدم من أنه لا يغتر بنفس لفظ الشهادتين دون عمل، ما خرج مسلم رضي الله عنه من طريق ابن شهاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث مالك بن الدخشن: فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بها وجه الله. قال ابن شهاب في آخر هذا الحديث: ثم نزلت بعد ذلك فرائض وأمور نرى أن الأمر انتهى إليها، فمن استطاع أن لا يغتر فلا يغتر.

وقد تقدم أيضاً حديث أبي ذر رضي الله عنه حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة. قال أبو ذر قلت: وإن زنى وإن سرق؟، قال: وإن زنى وإن سرق. قالها أبو ذر ثلاث مرات والنبي صلى الله عليه وسلم يقولها كذلك ثلاث مرات، ثم قال في الرابعة: رغم أنف أبي ذر. قال فخرج أبو ذر وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر.

قلت: وهذا الحديث أيضاً نوع مما تقدم، وقد قيده صلى الله عليه وسلم بقوله: ثم مات على ذلك. ويُخاف على المتكل على هذا أن ينهمك في المعاصي من السرقة والزنا والغيبة وفعل الخنا وغير ذلك من العقوق، وتضييع الحقوق، فيحال بينه وبين الشهادة، ويتبدل به عند آخر نفس، فلا يموت على ذلك. وقد قالوا في المصلي: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً. فكيف بتارك الصلاة وأخواتها، وإمكان النفس من شهواتها ولذاتها. نسأل الله تعالى الثبات إلى الممات. وسيأتي في فضل لا إله إلا الله حديث عالي الإسناد، فيه رجاء وتنفيس عن العباد.

وأذكر لك هنا حديثاً مفزعاً في حقوق الأمهات وهو مذكور في صحاح الأمهات، حدثنيه الحافظ السلفي بسنده مستوفى إلى عبد الله بن أبي أوفى قال: جاء

رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هاهنا غلام قد احتضر، يقال له: قل: لا إله إلا الله، فلا يستطيع أن يقولها. قال: أليس كان يقولها في حال حياته؟. قالوا: بلى. قال: فما منعه عنها عند موته؟. قال: فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهضنا معه حتى أتينا الغلام، فقال: يا غلام قل: لا إله إلا الله، فقال: لا أستطيع أن أقولها. قال: ولِمَ؟. قال: بعقوقي والدتي. قال: أحية هي؟. قال: نعم. قال: أحضروها، فحضرت، فقال: أرأيت لو أن ناراً أججت فقيل لك إن لم تشفعي له قذفناه في هذه النار. قالت: إذن كنت أشفع له. قال: فأشهدي الله تعالى وأشهدينا أنك قد رضيت عنه، فقالت: اللهم إني أشهدك وأشهد رسولك أني قد رضيت عن ابني. فقال: يا غلام قل: لا إله إلا الله، فقال: لا إله إلا الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي أنقذه من النار.

وتقدم: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] في ضمن هذه الآية التنبيه والحض على ذكر الله تعالى، لأنه وإن كان خبراً، فمعناه الحض على فعل هذا الخلق المحمود، لأن الله تعالى لم ينزل القرآن ولا ضرب فيه الأمثال ولا أخبر فيه بما أخبر من أحاديث الصالحين والطالحين ليمتعنا بغرائبه، ولا ليطرفنا بعجائبه، وإن كان كله عجباً، كما قال الله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [الجن: ١] وانظر قوله: ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ [الجن: ٢] كيف يعرب عن معناه، وعن أي شيء أنزل، وقد كان يكفي من هذا لو عقلنا ولو علمنا بعقلنا كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] والله ما أنزله إلا لنتدبر آياته، وننظر منها ما فعل بأوليائه فنمتثل، وما فعل بأعدائه فنجتنب. فهو الأمر الناهي الواعظ الزاجر المبشر المنذر. قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] وكما قال بعض أشياخي رحم الله جميعهم، وسئل فقيل له: لكل كتاب ترجمة، فما ترجمة كتاب الله تعالى؟. فقال: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]. حدثني بذلك الحافظ رحمه الله تعالى، قال: سمعت أبا الكرم المبارك بن فاخر بن يعقوب النحوي ببغداد يقول: سمعت القاضي أبا القاسم علي بن الحسن ابن علي التنوخي يقول: سمعت أبا الحسن علي بن عيسى النحوي يقول.

تذكرة: فقوله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] تنبيه على هذا الدواء العجيب لهذا العضو الغريب الذي يصدأ بالغفلة عن ذكر الله تعالى

الحميد، كما يصدأ الحديد، وجلاؤه بكثرة الذكر ودوام الحمد والشكر، ويخرب إذا لم يعمر بما من ذلك أمكن، كما يخرب البيت إذا لم يسكن، فلو لم يكن في الذكر إلا طمأنينة القلب وذهاب الحزن والكرب لكان ذلك كافياً، ومن هذه الأدواء شافياً، فكيف وفيه من الأجر وجزيل الذخر ما يكثر عن الحد، ويكبر عن العد.

ولي من قطعة مذكورة في التكميل:

كل هم يصيبني يتجلى عن فؤادي إذا هممت بذكره
أشكر الله وهو أهل لهذا وله الحمد إذ هداني لشكره

وبمقدار الذكر وكثرته تتضاعف الدرجات، وتتزايد الحسنات، ويكفي من ذلك شرفاً وفضلاً وعطاء وبذلاً، أنك تذكر الجليل الكبير، فيذكرك وأنت الذليل الحقير. قال الله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢] ولم يرض منه باليسير إنما رضي بالكثير. قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥] والفلاح هو البقاء في النعيم المقيم السرمد العظيم المؤبد.

وجاء عن بعض العلماء: ما أعلم في الدنيا شيئاً من البيوع يستطاع شراؤه بالكلام، ولا دستجة(*) بقل. ويستطاع شراء الجنة من رب العالمين بالكلام، وهو ذكر الله، وقراءة القرآن، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وقد تقدم هذا في أول الكتاب. وجاء من فضله في الحديث كثير، وخرج مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة. وهذا أيضاً يصلح أن تدريه، فإن له تأويلاً. لا يوصف الله تعالى بالحركة ولا بالسكون، ولا بالانتقال، إنما هذه كلها ضرب أمثال تدل على قرب الإجابة، وجزيل الإثابة.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢] معناه: اذكروني بطاعتكم أذكركم بمغفرتي. وقال ثابت البناني رحمه الله تعالى: إني لأعلم حين يذكرني ربي. ففزعوا منه وقالوا: تعلم ذلك؟. قال: نعم. قيل: فكيف؟. قال: إذا ذكرته ذكرني.

(*) الدستجة: معرب دسته؛ وهي: الحزمة.

وفي الحديث: ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله.

وجاء في فضل: (لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير) من قالها في يومه مائة مرة كتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك. ومن قال: (سبحان الله وبحمده) في يوم مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر. هذا من كتاب مسلم رحمه الله.

ومنه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة؟. فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟. قال: يسبح مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، أو تحط عنه ألف خطيئة.

وفي الترمذي عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا إله إلا الله، لا يضرك بأيهن بدأت. وفي الموطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله.

وهذا الباب كبير والذكر كثير، والذاكرون قليل والشاكرون عليه أقل، وقال الله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

ونرجع إلى المطلوب في قوله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] لعلك تعتقد أنه كل قلب، هيهات. بل هو كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] أفكل قلب هذا؟. وكل أحد له قلب، إنما أراد الله ـ والله أعلم بقوله: ﴿ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ قلب المؤمن العالم العامل التقي النقي، وإلا فانظر ما قبل الآية وما بعدها، قبلها: ﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧] ثم ذكر من هم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] ثم قال بعدها: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ [الرعد: ٢٩].

وكذلك جاء في التفسير أنها قلوب المؤمنين، وانظر ماذا أولاهم، وبماذا جازاهم، وماذا أعطاهم من الثواب. ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ ما أعذبها من كلمة على اللسان وأجمعها للإحسان. وأنفعها للإنسان، وهل: ﴿ حُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ إلا الحسنى؟.

وهل الحسنى إلا الجنة؟. وهل هي إلا للذين أحسنوا؟. و: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]؟. وهل الإحسان إلا ما فسره النبي صلى الله عليه وسلم إذ يقول: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فإذا كنت بهذه المثابة في العبادة، كانت لك الحسنى وزيادة. أتدري ما الزيادة؟ هي والله ما فسره العلماء: النظر إلى وجه الله الكريم في جنات النعيم، جزاء بما علمت ومجازاة لما عملت إذ كنت تؤمن بالغيب، وتعمل بلا ريب، فترى هنالك رأي العيان في الجنان ما كنت تؤمن به الآن بالجنان، ثم انظر لفظة: ﴿ طُوبَىٰ ﴾ ما أطيبها في النفس وأجلبها للأنس. قالوا وزنها (فعلى) من الطيب، ومعناها: العيش الطيب لهم، وأصلها طيبى. فلما كانت اسماً غير صفة ردت إلى فعلى. قاله المهدوي. وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن: ﴿ طُوبَىٰ ﴾: الجنة. وعنه أيضاً: فرح يقر أعينهم. وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال عكرمة: نعمة لهم. وقال النخعي: كرامة لهم. وهذا كله يرجع إلى أنها لفظة تجمع هذا كله، أو أكثر منه. فعبر كل واحد من هؤلاء الأجلة بما ظهر له. وفي باطنها ما يعلمه الله البر من البر واللطيف من اللطف.

وقالوا: هي شجرة في الجنة مسيرتها مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها، غرسها الرحمن بيده، ونفخ فيها من روحه، تنبت الحلي والحلل، وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة. ذكره المهدوي أيضاً، وقال: إنه يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم القول في معنى غرسها الرحمن عند ذكر خلق آدم صلى الله عليه وسلم، وهذا الذي ذكر في الحديث من الخير المطلوب قد سمعته الآذان، وخطر على القلوب، وثم خير عنده لم يذكر ولا انتشر ولا خطر على قلب بشر، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴾ [الواقعة: ٣٠] وموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، واقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وعنه: ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب.

وأما: ﴿ طُوبَىٰ ﴾ فمن أصلها تنبع أنهار الجنة، وهي: الخمر والعسل والماء واللبن، وهي مجلس لأهل الجنة ومتحدث لهم، ورقها رياط، وزهرها برود، وثمرها كسوة لأهل الجنة. ويقال: إن ﴿ طُوبَىٰ ﴾ هذه أصلها في قصر محمد صلى الله عليه وسلم، وما في الجنة قصر، ولا غرفة إلا وقد دخل فيها غصن من أصلها، وذلك والله أعلم، أنه لما أتانا بكلمة التوحيد الطيبة التي هي: لا إله إلا الله، وغرسها بإذن الله في قلوبنا وصعدت بركتها إلى الله تعالى، ولم يبق قلب مؤمن إلا دخله نور وخير من بركة تلك الكلمة، وكان هو صلى الله عليه وسلم أصلها بهدي الله حتى أضاءت بها في الدنيا قلوبنا ومساجدنا وبيوتنا وقبورنا وطارت بها نفوسنا حتى سميت مطمئنة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧] تعلقنا بتلك الأغصان ونحن في الأرض فجذبتنا إلى الجنة التي هي في السماء ودخلت علينا هنالك في قصورنا وزادتنا نوراً إلى نورنا، وبذكرنا نبينا صلى الله عليه وسلم يكون أصلها في قصره، فأخذنا في زيارته وقصده، وانتظم الشمل، ولم نخف فراقاً، واتفقت المعاني اتفاقاً، وكان عطاء ربك جزاء وفاقاً. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠] أي إلى الله يصعد الكلم الطيب وهو: لا إله إلا الله، وما جرى مجراه من الذكر، والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فلا بدّ من عمل صالح يكون على السنّة والاستقامة، يرفع ذلك الكلم الطيب. وهذه ترجمة لقول العلماء: الإيمان اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالجوارح، وبعد هذا كله رحمة الله. ومن كانت عنده هذه الثلاثة فهي أمارة رحمة الله عليه وعلامة السعادة والتيسير لليسرى إن شاء الله، ولكل شيء ضد؛ وضد هذه الأشياء فقدانها، عافانا الله.

فالحمد لله على نعمه، ونعوذ بالله من نقمه، وقد ضرب الله لنا المثل بذلك في كتابه حيث يقول: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] الآية. وقد فسرها العلماء وأراحونا من التكلم في ذلك مما ليس لنا أن نجترئ على شرحه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة: المؤمن، أصل الكلمة الطيبة في قلبه، وفرعها ثابت في السماء أي: يرتفع بها عمل المؤمن في السماء. وقيل معنى قوله: ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٥] أي: كلما صعدت إلى ربها أتاه خيرها ومنفعتها. قال الضحاك: هذا مثل ضربه الله للمؤمن، يطيع الله بالنهار والليل وكل حين، كهذه الشجرة التي تؤتي أكلها كل حين.

والشجرة هنا: شجرة في الجنة، ومعنى كل حين: بكرة وعشياً.

وقال البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦] الحين عند العرب: ما بين ساعة إلى ما لا يحصى عدده. ثم ذكر الله تعالى ضد ذلك كله بنوع آخر، مثل الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، كما قال في موضع آخر: ﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ [النور: ٢٦] و: ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣] لأنها طيبة والله طيب ولا يقبل الله إلا الطيب. جعلنا الله من الطيبين، واستعملنا في الطيبات، ورزقنا من الطيب الكثير الصيب.

فصل:

في ذكر بعض النعم ـ قلت: ونعم الله كثيرة لا تحصى، ومن يعد الحصى، وكيف يعد ما ليس له حد، وكيف ينتهي أحد إلى علم ما يقول فيه الواحد الأحد: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨] ـ كان الحسن رضي الله عنه يقول: ابن آدم متى تنفك من شكر النعم وأنت مرتهن بها، كلما شكرت نعمة تجد ذلك بالشكر أعظم منها عليك، فأنت بالشكر لا تنفك عن نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها. وأنشدوا:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عمّ سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
فما منهما إلا له فيه نعمة ... تضيق بها الأوهام والسر والجهر

ولله درّ الذي يقول:

من لا يقوم بشكر نعمة خلقه ... فمتى يقوم بشكر نعمة ربه

وكان مطرف بن عبد الله رضي الله عنه يقول: إلهي منك تكون النعمة وعليك تمامها، وأنت معين على شكرها وعليك ثوابها. وقال شبل بن عبد الله رضي الله عنه: أدنى الشكر أن لا تعصي الله بنعمه، فإن جوارحك كلها نعم من الله عليك فلا تعصه بها. قال غيره: هذه أدنى النعم. وأعلى نعمة الله على العبد المعرفة التي يعرف بها ربه ونفسه، فيعلم بما شاهده أنه لم يخلق نفسه وأن أباه وأمه ليس لهما من أمره أكثر من أنهما سببان وأن الفاعل الخالق غيرهما، وأنه يخلق بسبب وبغير سبب. كيف لا والسبب خلقه، ولا فرق بين خلقه من نقطة ماء فينبت حيوانات ذا لحم ودم وسمع وبصر وعظام مجوفة وأمعاء باطنة وعصب وشعر مما يعلم يقيناً أنه ليس لوالديه في

ذلك عمل، أو يخلقه دون هذا السبب! أعني: النطفة. بدليل ما نشاهده من الحيوانات المخلوقة في الحبوب والثمر الكائنة قبل وجودها في الشجر عدماً عندنا، معلومة عند خالقنا. ولو كان لأحد في الأمر حكم، أو في الخلق قدرة لكان ما يريد، ولم ينكر عليه من مراده مريد، إذ المجامع يريد ذكراً فيجيء أنثى، وقد لا يجيء لا ذا ولا ذا، ثم إذا جاء يريده على كذا فيجيء على خلافه يريد أنثى فيجيء ذكراً، يريد طويلاً فتلد امرأته قصيراً بخلافه. كما يحكى عن الأصمعي قال: كان أعرابي قبيحاً طويلاً، فخطب امرأة فقيل له أي ضرب تريدها؟. فقال: أريدها قصيرة جميلة فيأتي ولدها على جمالها وطولي، فتزوجها على تلك الصفة فجاء ولدها على قبحه وقصرها. خرجه ثابت رحمه الله.

يقال هذا الكلام لمن ينكر خلق عيسى عليه السلام من غير ذكر، وآدم عليه السلام من غير ذكر ولا أنثى. فإذا تحقق هذا علم أن لا خالق سواه، ولا نافع ولا ضار إلا هو، ولا هادي ولا مضل إلا الله، ولا محيي ولا مميت غيره، إنه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، و: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨] فيعلم بالنعمة التي أنعم الله عليه بها أنه مخلوق، وأنه مرزوق من أول خلقه، حكمة من الله تعالى، أول ذلك في بطن أمه وطول عمره وآخر رزق في الدنيا وأول رزق في الآخرة إما من النعيم وإما من الجحيم كما تقدم.

ومن ظن أن لا نعمة لله عليه إلا في مطعم أو مشرب أو ملبس أو منكح فما أجهله بنعم الله تعالى. فليأخذ أولاً بالجلي الظاهر دون الخفي الباطن. ألم يعلم أن في كل شعرة في جلده نعمتين أسفلها في جسده لين وأعلاها مطموس. أرأيت لو كان طرفها كالإبرة أو كالشوكة كيف كان يستقيم عيشه، وأن كل عرق فيه متحرك لو سكن، أو كل ساكن لو تحرك، أكان يتهني له حال أو يقر له قرار.

كما يروى أن عابداً عبد الله سبعين سنة، فأرسل الله له ملكاً يبشره بدخول الجنة برحمة الله تعالى. فقال في نفسه: بل بعملي. فاطلع الله على ذلك منه، فأوحى الله إلى عرق ساكن من عروقه أن يتحرك عليه، فاضطرب بذلك وقلق وانقطعت عبادته وذهبت أعماله شغلاً منه بنفسه. فأوحى الله إلى ذلك العرق فسكن، فرجع العبد إلى عبادته، فأوحى الله عز وجل إليه إنما قيمة عبادتك عرق واحد سكن من عروقك.

ومثل ذلك خبر الرجل الآخر الذي وقع في نفسه مثل هذا فيبقى في الجنة مثل مقدار أيام عبادته في الدنيا، ثم يأمر الله تعالى بإخراجه، فيندم ويتوب فيتركه في الجنة برحمته. هذا في شعرة أو عرق. كيف في عضو أو مفصل.

قال بعض أهل العلم: لله تعالى في كل عظم أربع نعم وقد تقدم عددها، وفي كل مفصل سبع نعم، وفي كل نفس نعمتان ولذتان يدخل بارداً ويخرج حاراً. أرأيت لو انعكس ذلك كيف يكون حاله عنده. وفي كل طرفة نعمتان ثم في غذائه بالطعام والشراب ودخوله من موضع واحد وخروجه من موضعين ليخرج حره وأذاه، ويبقى في الجسد قواه ومعناه. أرأيت لو احتبس في البطن. كما قال بعض العباد لأحد الملوك أرأيت لو منعت منك جرعة ماء أكنت تشتريها بنصف ملكك؟. قال: نعم. قال: أرأيت لو حبس عنك خروجها أكنت مفتدياً بالنصف الآخر؟. قال: نعم. قال: فإنما قيمة ملكك شربة وبولة.

ثم هذا الرغيف الذي قال فيه بعض العلماء: إنه لا يستدير حتى يعمل فيه ثلاثمائة وستون صنعة من السماء والأرض وما بينهما من الأجسام والأعراض والأفلاك وغير ذلك. أولهم ميكائيل الذي يكيل الماء من الخزائن فيفرغه على السحاب، ثم يحمله السحاب فيرسله، ثم الرعد والبرق، ثم الرياح والبهائم وبنو آدم ومعادن الأرض إلى غير ذلك. وآخرهم الخباز ثم الحطب والنار التي بها يصلح، ثم يأكله الإنسان ولا يلقي باله لهذه الأشياء. نعم وربما لا يشكر الله عليه ولا يذكره عند تناوله. وأعضاؤه الظاهرة والباطنة مسخرة له من غير أن يعلم بذلك. ألا ترى كيف يقبل الريق إلى الفم عند رؤية الطعام، ويتيسر ليسهل ازدراده، وهو لا يستدعيه ولا يلقي له بالاً، فإذا حصل في الجوف اقتسمته الأعضاء الباطنة وتوزعته. فمن صاعد إلى شعر الرأس ومنهبط إلى ظهر القدم. وكم ذا أذكر يافتى وإلى متى وإلى متى؟.

انظر وفكر ترى العجب! على أنهم قالوا: ليس العجب أن ترى العجب إنما العجب أن لا ترى العجب، يريدون أن هذه الأشياء في قدرة الله تعالى ليس فيها ما يعجب منه، هو يقدر على أكثر من هذا وأكثر وأكثر بلا نهاية ولا آخر، ويأتي طرف من ذلك إن شاء الله تعالى.

قال تعالى ـ بعد أن عدد نعمه قبلنا بأن سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ـ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وبعده: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، إن قلت هذه في الكفار. انظر إلى المسلم الذي لا يشكر الله تعالى على نعمه، ولا يؤدي ما أمر الله به، هل يقع عليه اسم الظلم والكفر أو لا؛ والظلم عند العرب: وضع الشيء في غير موضعه، والكفر: ترك الشكر، ولم يرد الكفر الذي ينقل عن الملة.

فقد بوّب البخاري رحمه الله في كتابه باب كفر دون كفر، وذكر حديث النساء

يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، ومعلوم أن معنى الكفر التغطية. كما يقال لليل: كافر، وللبحر: كافر، أي: ساتر. ويقال للزراع: كفار، كما قال تعالى: ﴿ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: الزراع، لأنهم إذا ألقوا البذر في الأرض كفروه، أي: غطوه. ولهذا سمي الكافر الحقيقي: كافراً، لأنه يغطي الحق بزعمه.

ومن نعم الله على العبد بعد معرفته بجميع ما تقدّم: نعمة الإسلام والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وحفظ القرآن إن أعطيه، كما جاء: من آتاه الله القرآن فذكر أن أحداً أغنى منه فقد استخف بما أنزل الله. ومن لم يتغن بالقرآن فليس منا. وقد تقدم هذا.

وكما يروى أن رجلاً اشتد به الفقر حتى أحزنه، فرأى في المنام قائلاً يقول له: تودّ لو أنا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينار؟. قال: لا. قال: فسورة كذا ولك كذا، حتى ذكر له عدداً قال له في آخر ذلك: معك ما قيمته مائة ألف وأنت تشكو الفقر.

ومثل هذا شكى رجل إلى بعض العلماء فقره فقال: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف؟ قال: لا. قال: فأخرس ولك كذا، واقطع ولك كذا، وقال في آخر ذلك: لله عندك عروض بخمسين ألفاً وأنت تشكوه!. وفوق هذا من يرى ما أنعم الله عليه به من المعرفة والإيمان فوق جميع ما ذكر.

ويقول: ما من مصيبة تصيب العبد إلا ولله فيها خمس نعم: الأولى أنها لم تكن أكبر منها، والثانية أنها كانت عليه فاستراح منها، والثالثة أنها عجلت له في الدنيا ولم تؤخر إلى الآخرة، والرابعة أنها كانت في ماله أو بدنه ولم تكن في دينه، والخامسة أن ثوابها أكبر منها. وهذا الباب كبير والقول فيه كثير. ولا بد أن أذكر لك منه شيئاً هنا، والله الموفق ربنا وإلهنا.

فصل:

لله تعالى على العبد نعم خاصة وعامة.

ومن نعم الله الخاصة: أنه ما من عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله لرأى من الله تعالى نعماً تخصه لا يشاركه فيها أحد، وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور: في العقل، والخلق، والعلم.

أما العقل: فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض من الله في عقله، يعتقد أنه أعقل الناس؛ وإن لم يكن كذلك. وقلما يطلبه من الله؛ وإن كان خالياً منه. ألا تراه يقول لغيره: لو عملت كذا وكذا، فيقول هذا: لا ـ وهو يريد أنه أعقل منه وأشد نظراً ـ. فإذا كان عند نفسه أعقل الناس، فينبغي أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة عنده. ومثله

كمثل رجل كثر ماله فهو يفرح به، وقد يُسرق المال ولا يعلم به، وفرحه به باق.

وأما الخلق: فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها، وأخلاقاً يذمها، وإنما يذمه من حيث يرى نفسه بريئاً عنها، فينبغي لهذا أيضاً أن يشكر الله تعالى إذا رأى نفسه أحسن خلقاً من غيره.

وأما العلم: فيعرف من نفسه ومن باطن أمره عيوباً وذنوباً لو اطلع أحد عليه لافتضح، فكيف لو اطلع عليه الناس كافة، وهذا شيء لا يشركه فيه غيره، فهذا أحوج الناس إلى الشكر، إذ أظهر الله عليه الجميل، وستر القبيح، وأخفى ذلك عن عيون الخلق، وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد من الناس.

وأما النعم غير هذه فكثيرة: يرى نفسه حسناً أحسن من غيره، ويطيب له غناؤه، ويعجبه ولده، ويفرح ببلده، ويفخر بنسبه وبصنعته، ويحمي أميره وشيخه، ويرى نفسه فوق كثير من الخلق؛ لا سيما أن جعله مؤمناً لا كافراً، أو ذكراً لا أنثى، وحياً لا جماداً، وإنساناً لا بهيمة، وصحيحاً لا مريضاً، ولا بد أن يختص ببعض هذه الأشياء، فينبغي أن يكثر حمد الله تعالى وشكره، ولا يكفر نعمه، وإن كان لا يقوم بالشكر فيعترف بذلك؛ فذلك منه شكر.

ومن نعم الله تعالى ما وقع في حديث أبي قلابة رضي الله عنه: يقول الله تعالى: اثنتان أعطيتكهما يا ابن آدم ولم يكن لك واحدة منهما، أما أنت فتبخلت بمالك حتى إذا أخذت بكظمك وصار لغيرك جعلت لك فيه نصيباً؛ أو قال: فريضة؛ أطهرك به وأزكيك، أو كالذي قال: وصلاة عبادي حين انقطع عملك، فلم يكن لك عمل. الكظم: مخرج النفس؛ يقال: غمني وأخذ بكظمي. خرجه ثابت رحمه الله، وقوله في هذا الحديث حين ذكر مال المريض فقال: وجعلت لك فيه نصيباً أو قال فريضة؛ يعني بذلك الثلث الجائز الذي يخرجه الإنسان في مرضه بعد موته. وأول من فعل ذلك البراء بن معرور رضي الله عنه، وهو أحد النقباء السبعين الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على العقبة، وهو من بني سلمة. قال له النبي صلى الله عليه وسلم بعد البيعة: إني لو مقتك فأحب أن تعود إليّ حتى تهاجر معي فيكون لك مع النصرة هجرة. فلما رجع مرض بالمدينة، فكان يصلي إلى الكعبة لموعده النبي صلى الله عليه وسلم، فلما حضرته الوفاة قال: إذا مت فحوّلوا وجهي نحو محمد صلى الله عليه وسلم لموعدي معه، واجعلوا مالي ثلاثة أثلاث: ثلثاً لله، وثلثاً لرسوله، وثلثاً لولدي. فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بوفاته وبالوصية فقال: أما ثلثي فرد على ولده، وأما ثلث الله فأنفقه في سبيل الله. فكان أول من صلى إلى الكعبة، وأول من دفن إليها، وأول

من أوصل بثلثه. وكان ابنه بشر بن البراء من خير النقباء، وهو الذي أكل مع النبي صلى الله عليه وسلم من الشاة المسمومة يوم خيبر فمات، رضي الله عنهما.

وخرج البزار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبع يجري للعبد أجرهن بعد موته وهو في قبره: من علم علماً، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته.

وجاء في ثلث الموصي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم عند وفاتكم زيادة في حياتكم ليجعلها لكم زيادة في أموالكم.

وقال أبو طالب في كتاب القوت: أصل النعم كلها الإسلام، لأن من ورائه مقامات كثيرة أخطؤوا فيها. فمن مقاماته: التوحيد والسنة، لأن من ورائها بدعاً كثيرة، والعلم بالله تعالى لأن من ورائه جهلاً عظيماً يعطيه الله تعالى بقدرته، فهذه الثلاثة من أجلّ النعم، وتمامها بالزهد في الدنيا فمن أعطيه مع الثلاثة تمت عليه النعم، وكان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، لأن من ورائه حرصاً كثيراً على الشبهات، ورغبة عظيمة في الشهوات، وهو من نعم الله عز وجل الذي وضعه في قلوب المؤمنين.

سمعت الفقيه المحدث أبا محمد عبد الحق رحمه الله يقول: أرجى آية في كتاب الله تعالى عندي هذه الآية: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤]. وقال غيره من العلماء: قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى: ٥] أرجى آية لأن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يرضى أن يبقى أحد من أمته في النار. ووقع في كتاب مسلم رضي الله عنه عند قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢] قال ابن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى. ورأيت في بعض الكتب قال عليّ رضي الله عنه: ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب الله؟ قالوا: بلى. فقرأ عليهم: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] في الدنيا بكسب الأرزاق، فإذا عاقبه الله تعالى في الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعذبه في يوم القيامة.

ورأيت في كتاب القوت أن بعض العارفين كان إذا تلا آية الدين التي في سورة البقرة يعني قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] يسرّ بذلك ويستبشر بها ويعظم رجاؤه عندها، فقيل له في ذلك فقال: إن الدنيا كلها قليل، ورزق الإنسان فيها قليل من قليل، وهذا الدين - من

رزقه ـ فقليل من قليل من قليل، ثم إن الله تعالى احتاط لي في ذلك، ودقق النظر بأن وكد ديني بالشهود والكتاب، وأنزل فيه أطول آية في كتابه، ولو فاتني ذلك لم أبل به، فكيف يكون فعله في الآخرة، التي لا عوض من نفسي فيها.

وكذلك كان بعض الراحلين يفهم من قوله تعالى إذا تلا: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧] يرجو من ذلك ثواب الجود والكرم والإحسان، مما لم يحتسبه في الدنيا قط.

وكان الجنيد رضي الله عنه يقول: إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين. وعلى ذلك جاء في الخبر: ليغفرن الله عز وجل يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد حتى إن إبليس ليتطاول رجاء أن تصيبه. انتهى كلامه.

ومع هذا فكما قالوا: عش ولا تغتر. هذا مثل يقال لمن يقال له: المرعى أمامك فلا تعلف إبلك فسترد المرعى، فتستغني عن المرعى. فيقال له: عش إبلك ولا تغتر.

قلت: تدري ما يكون وأنت أخي فاعمل واتكل على فضل الله تعالى أن يقبل عملك، ولا تترك العمل وتتكل على فضل الله وأنت قد عصيته بترك ما أمرك به، ليس هذا رجاء، هذا تسميه العلماء الاغترار، ألم تسمع قوله عليه الصلاة والسلام: قيدها وتوكل. ولم يقل لصاحب الناقة: أرسلها وتوكل.

ومن الرجاء سمع أعرابي قارئاً يقرأ: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] فقال: والله ما أنقذهم منها. ويريد: رجوعهم إليها، وابن عباس رضي الله عنهما حاضر، فقال: خذوها من غير حكيم.

ومن الرجاء قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: يؤتى بالعبد يوم القيامة بين الناس فيرى خيراً فيقول: قد قبلت. ويرى شراً فيقول: قد غفرت. فيجد الخير عند الخير والشر، فيقول الخلائق: طوبى لهذا العبد لم يعمل سوءاً قط.

ومن الرجاء أيضاً ما أرويه بالإسناد العالي عن الحافظ رحمه الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يؤتى برجل يوم القيامة إلى الميزان، فيؤتى له بتسعة وتسعين سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فيها خطاياه وذنوبه، فتوضع في كفة الميزان، ويخرج له قرطاساً مثل هذا ـ أو قال هذه ـ فوق الأنملة، فيها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فتوضع في الكفة الأخرى، فترجح على خطاياه وذنوبه.

فصل:

وازيدك فأفيدك: لعلك لا تعرف من نعمة الله تعالى عليك في الأكل إلا أنك

تجوع فتأكل، والحمار أيضاً يعرف أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجامع، ويستريح إذا تعب. فإذا لم تعرف من نفسك إلا كما يعرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعم الله عليك. وقد تقدم من الكلام في الطعام من أوله إلى أن يصير خبزاً يؤكل مافيه كفاية، وذلك كله ظاهر. أرأيت إذا وقعت عينيك على الطعام أليس ينبعث إلى فمك من الريق واللعاب ما تبل به المطعوم حتى تبل به رطل دقيق، وقبل ذلك ربما لا تجد في فمك ريقاً، ثم إذا حصل الطعام بين يديك على أتم وجوهه حتى صار لقمة وجعلت في فيك من غير أن تمد لها يدك؛ ألست تعلم أنك لا تنتفع بها ما لم تحصل في جوفك، وحينئذ يصح أن تتغذى بها ويحصل لك العيش. فانظر أولاً في الفم الذي يهبط منه الطعام إلى المعدة كيف خلقه الله تعالى كالحفرة، وجعل لك شدقين لتمسك الطعام في الفم إذا أطبقت عليهما الشفتين حتى ينطحن الطعام فيه، وقد عدد الله تعالى نعمة الشفتين واللسان في القرآن فقال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد: ٨-٩] وسيأتي الكلام على العينين إن شاء الله تعالى.

فانظر كيف تجعل الطعام في الفم يابساً فلا يبتلع حتى يكسر، فخلق له اللحيين من عظمين وركب فيهما الأسنان صفين وطبق الأعلى على الأسفل، ثم خلق الأضراس أنواعاً على قدر الحاجة، لأن الطعام يحتاج مرة إلى الكسر ومرة إلى القطع وإلى الطحن، فتجد في الفم من ذلك ما تحتاج إلى عمله، وجعل اللحى الأسفل متحركاً والأعلى ثابتاً، ولو كانا جميعاً متحركين لم ينتفع بهما للطحن، وكانا كاليدين مثلاً تضرب بإحداهما على الأخرى ولا يتم الطحن بذلك. وكل الأرحاء يدور الأعلى على الأسفل إلا هذا الذي في الفم فإن الأسفل يتحرك والأعلى ثابت، ثم جعل اللسان في الفم يحمل الطعام من موضع إلى آخر ومن شدق إلى شدق ويرفعه إلى الطاحون ويردده ويقلبه، ويأخذ في المثل زريعة التين على دقتها ويجعلها على الطاحون ليكسرها مع ما فيه من فائدة الذوق الذي ليس لغيره، وإلا فذق بإصبعك إن قدرت. وعجائب قوة النطق الذي ليس لسواه، ثم هبك طحنت كما تقدم لو كان يابساً أكنت تستطيع أن تسيغه.

فانظر كيف خلق الله تحت اللسان عيناً يفيض اللعاب منها فيصب بقدر الحاجة حتى ينعجن الطعام به، وأعجب من هذا أن ذلك اللعاب ينصب عند رؤية الطعام من قبل أن يدخل في الفم كما تقدم. ثم انظر من يوصل الطعام إلى المعدة ولا كف لها تجيزه بها، فهيأ الله تعالى المرئ والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى ينفلت الطعام بضغطه فيهوي إلى المعدة وهو خبز أو

فاكهة مقطعة فلا يصلح أن يصير لحماً ولا عظماً ولا دماً حتى يطبخ طبخاً تاماً متشابهاً أجزاؤه، فجعل الله المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوي عليه فتنغلق، فلا يزال لابثاً فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة. إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال، ومن قدام الترائب ومن خلف الصلب، فتسري الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب الأربع حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته، وهو بعد لا يصلح للتغذية، فخلق الله تعالى بينه وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها فوهات كثيرة شعرية فتنتشر في أجزاء الكبد فينصب الطعام إلى الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولي عليه قوة الكبد، فتصبغه بلون الدم، فيستقر فيها ريثما يحصل له طباخ آخر، وتحصل له هيئة الطعام الصافي الحاصل لغذاء الأعضاء، إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد منه فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ، إحداهما تشبه الدردي والعكر وهو الخلط السوداوي، والأخرى تشبه الرغوة وهي الصفراء ولو لم تنفصل عنه الفضلتان فسد مزاج الأعضاء، فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقاً ممدوداً إلى الكبد داخلاً في تجويفها، فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية، ويجذب الطحال العكر السوداوي فيبقى الدم صافياً ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية، ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية ولا خرج منها متصاعداً إلى الأعضاء، فخلق الله الكليتين وأخرج من كل واحدة عنقاً طويلاً إلى الكبد. ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقها ليس داخلاً في تجويف الكبد إذا لو جذبت قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق. فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافياً من الفضلات الثلاثة، نقياً من كل ما يفسد الغذاء.

ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقاً، ثم قسمها بعد الطلوع أقساماً، وشعب كل قسم بشعب، وانتشر ذلك كله في البدن من الفرق إلى القدم ظاهراً وباطناً، فيجري الدم الصافي ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار حيث لا تدرك بالأبصار، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأجزاء. فإذا أخذ كل عضو ما احتاج؛ من شعرة الرأس إلى ظفر القدم وبقي الثفل أرسل الله عليه الرياح فأخرجته من الجسد إذ لا نفع فيه، بل لو بقي فيه لأضر به. فلذلك ينبغي أن يقول عند حاجة الإنسان: الحمد لله الذي أخرج عني ما يؤذيني وأبقى في جسدي ما ينفعني.

فصل في التفكر: اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب. فلا تتحرك ذرة في السماوات والأرض جماد ونبات وفلك وكوكب إلا ومحركها الله تعالى. وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر، أو ألف حكمة كلها شاهدة لله تعالى ودالة على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه.

وقد ورد في القرآن الحث على التفكر في هذه الآية كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وفي القرآن من هذا كثير كقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ كذا ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ كذا ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾. وقال: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١] و: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥]، ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٧]، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان: ٢]، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ﴾ يعني آدم عليه الصلاة والسلام، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] وتكرر ذكر النطفة في القرآن العزيز، أليس تسمع اللفظ وتترك التفكر في المعنى.

فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء أخرجها رب الأرباب من بين الصلب والترائب. ولو تركت ساعة وضربها الهواء لفسدت وأنتنت، ولم يخلق منها شيء، فانظر كيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع، وكيف استخرج النطفة من أجل حركة الوقاع، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعها في الأرحام، ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه من دم الحيض، وغذاه حتى نمى وتربى وكبر، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء، ثم كيف جعلها مضغة، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم والشحم والجلد والشعر. ثم كيف ركبه من اللحم والأعصاب والأعضاء الظاهرة. قدّر الرأس، وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مد اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع، وقسم الأصابع بالأنامل، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء. كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص. ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر. فركب العين من عشر طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة، لو

فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار.

فلو ذهبنا نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضت فيه الأعمار. فانظر الآن إلي العظام وهي أجسام قوية صلبة، كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له. ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة، فمن صغير وكبير، وطويل وقصير، ومجوّف ومصمت، وعريض ودقيق.

ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه للتردد في حاجاته لم يجعل عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى يتيسر بها الحركة، وقدّر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من آخر طرفي العظم، وألصق بالطرف الآخر كالرباط له، ثم خلق في آخر طرفي العظم زوائد خارجة منها وفي الأخرى نقراً غائصة فيها موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها. فصار العبد إن أراد أن يحرك جزءاً من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه. ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور وألّف بعضها إلى بعض بحيث استوت به كرة الرأس فيما تراه، فمنها ستة تخص الفوق، وأربعة عشر اللحى الأعلى، واثنا عشر اللحى الأسفل، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن، وبعضها حادة تصلح للقطع. ثم جعل الرقبة مركبة من سبع خرزات محترفات مستديرات، فيها تجويفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض. ثم ركب الرقبة على الظهر، وجعله من أربعة وعشرين خرزة بالرقبة إلى منتهى عظم الفخذ، وركب عظام الفخذ من ثلاثة أجزاء مختلفة، ويتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء ووصل عظام الظهر بعظام الصدر، وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام الرجلين والأصابع. فلا نطيل بذكر عدده، فمجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون سوى العظام الصغار التي حشي بها خلل المفاصل. كل ذلك من تلك النطفة السخيفة. وليس المقصود أن تعرف عددها فإن ذلك علمه قريب يعرفه الأطباء والمشرحون، وإنما لغرض أن تنظر في مدبرها وخالقها كيف قدّرها ودبّرها وخالف بين أشكالها وأقدارها وخصها بهذا العدد الذي لو زاد فيها أونقص لكان فساداً.

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات، فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وبضعاً وعشرين عضلة، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية، وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وحاجاتها.

فأربعة وعشرون عضلة منها لتحريك حدقة العين وأجفانها، لو نقصت واحدة منها اختل أمر العين،وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوصة، وشرح هذا يطول.

ثم انظر لما أودع الله هذه الأعضاء من المنافع، كيف فتح العينين ورتب طبقاتهما وأحسن شكلهما وهيآتهما، ثم حماهما بالأجفان لتسترهما وتحفظهما وتصقلهما وترفع الأقذاء عنهما، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السماوات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها. وكيف شق الأذنين وأودعهما ماء مرّاً يحفظ سمعهما ويدفع الهوام عنهما، وحوّطهما بصدفة الأذن لتجمع الأصوات فتؤديها إلى صماخيهما، ولتحس بدبيب الهوام إليهما، وجعل فيهما تجويفات واعوجاجات ليحس بحركة ما يدب فيهما، ويطول طريقه فينتبه من النوم صاحبها إذا قصدتها الدابة في نومه. ثم رفع الأنف عن وسط الوجه، وأحسن شكله، وفتح منخريه وأودع فيهما حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته، وليستنشق بمنفذ المنخرين رياح الهواء عند الغلبة وترويحاً لحرارة باطنه، وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً مترجماً عما في القلب، وزيّن الفم بالأسنان ولتكون آلة للطحن والكسر والقطع، فأحكم أصولها وحدد رؤوسها وبيّض لونها ورتّب صفوفها متساوية الرؤوس متناسبة الترتيب، كأنها الدر المنظوم. وخلق الشفتين وحسّن لونهما وشكلهما لتنطبق على الفم فتسد منفذه، وليتم بها حروف الكلام. ثم خلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت. وخلق اللسان وقدّره للحركات والتقطيعات ليقطع الصوت في مخارج مختلفة الأشكال، تختلف بها الحروف ليتسع طريق النطق بكثرتها. ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر، حتى اختلفت بسببها الأصوات. فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرق حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة. ثم زيّن الرأس بالشعر والأصداغ، وزيّن الوجه باللحية والعارضين، وزيّن الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل، وزيّن العينين بالأهداب. ثم خلق الأعضاء الباطنة، وسخّر كل واحد لعمل مخصوص فسخّر المعدة لكذا وكذا، على ما تقدّم ذكره ويأتي بعد. ثم انظر إلى اليدين كيف جعل في كل كف خمسة أصابع، وقسم كل أصبع ثلاثة أنامل، ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب، ليدير الإبهام على الجميع فيصلح بها القبض والإعطاء. ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها حتى لا تتقطع وليلتقط بها الأشياء الرقيقة التي لا تتناولها الأنامل، وليحك بها بدنه عند الحاجة. فلو عدمها الإنسان لكان أضعف الخلق وأعجزهم عن الحك الذي هو أقل الآلام. ثم هدى الله إلى موضع الحك حتى يمدها

إليه ولو في النوم والغفلة، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل. حتى الطفل يحك موضعه من جسده، حتى هدي الشاعر لهذه الحكمة فقال:

ما حك جسمك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

يقال إنه للشافعي رضي الله عنه.

ترى لو اجتمع الخلائق من أهل السماوات والأرض على أن يخلقوا من تلك النطفة بعض ما ذكر هنا على أن ما لم يذكر أكثر وأكثر، أكانوا يقدرون على ذلك؟ بل لو اجتمعوا على أن يكيفوا بصر المخلوق أو سمعه أو عقله أو روحه أو علمه أو يردوا شعرة واحدة إلى موضعها بعد زوالها، أو يحركوا ذرة في الأرض فضلاً عن السماء أكانوا يقدرون على ذلك؟ ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١] صدق الله وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم حيث يقول فيما يحكيه عن ربه: ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي فليخلقوا ذرة، وليخلقوا شعرة، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وويلاً وقبحاً للمصوّرين المضاهين لخلق الله في صور لا روح فيها، وإنما وضعوها على أمثلة، قد سبقوا إليها على أن ذلك لم يتم لهم إلا بآلات وألوان ليست من عملهم ولا من خلقهم. ثم لا يكون ذلك إلا بيد وقدرة وعلم وإرادة، وكل ذلك خلق من خلق الله، عارية عنده مستودعة لديه، لينظر كيف تعملون، و﴿ لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]. ما أجرأ ابن آدم على العظائم! ثم يظن هذا العاصي كفر نعمة واحدة أو مائة أو ألفاً، بل والله أكثر من ذلك. أقل النعم تنفسه ليخرج الدخان المحترق من القلب ويدخل نفساً آخر بارداً يحيى به. ولو منع الداخل أو الخارج لهلك. دع نعمة البصر والشم والأفلاك. ولولا الشمس والضياء ما كان يرى ببصره شيئاً. قال بعض العلماء: في كل نفس قريب من عشر لحظات فعليك في كل لحظة ألف ألف نعمة. فإن أردت تفصيل ذلك فانظر ما قيل في العين. انظره في باب العين إن شاء الله تعالى كما قلت لك.

فصل:

تقدّم أن الرغيف لا يستدير حتى تعمل فيه الملائكة، ووجدت في بعض الكتب القديمة؛ وليس في روايتي؛ عن عطاء الخراساني عن أبيه رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الزراع إذا خرجوا ببذرهم فألقوه في الأرض بعث الله الملائكة فقدمت عليه وكانت معه فإذا طلع لم تفارقه. يقول الله: أنا الذي سخرت لكم

الأرض، وذللت لكم البقر تحرثون وتزرعون، فإذا فرغتم منه ورفعتم أيديكم عنه توليته دونكم وأنتم قيام تنظرون. فمرة أبلغه بالحر، ومرة بالبرد حتى أبلغه أوان حصاده، وسخرت لكم الحديد لتحصدوه به، والريح تذرونه بها، ولو أمسكته عنكم لتحيرتم وما صنعتم فيه شيئاً، فرضيت عند ذلك كله أن جعلت لكم منه تسعة أجزاء، ولي جزء واحد فبخلتم به عليّ، فلو أديتموه إليّ على حقه وصدقه لكان لكم عليّ به منة.

وذكر أنه قال: لا جعلت لمفسد زرعاً توبة أبداً، حتى يصوم شهرين متتابعين، أو يتصدّق وأن القمح والشعير من نوري وجلالي، وبهما يتقوى على عبادتي وجهاد عدوي، وعلى بعد الأسفار. أكرموا القمح والشعير فإني أنزلت عليهما بركات السماوات، وأخرجت بهما بركات الأرض، وإنما أريد بإكرامهما أن لا يوطأا، ولا يطرحا، ولا يفسدا، ولا يسند بهما القصعة، ومن أكل ما سقط من المائدة وسع له في رزقه، ووقي الحمق في ولده وولد ولده، ووقي وجع الخاصرة، وأن اللبابة إذا وطئ عليها صرخت صرخة سمعها أهل السماوات السبع.

وجاء في بعض الآثار عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى كسرة ملقاة، فمشى إليها فأخذها ثم مسحها وأكلها ثم قال: يا عائشة أحسني مجاورة نعم الله تعالى، فإنها قلما نفدت من أهل بيت فكادت ترجع إليهم.

وفي خبر عن ابن المبارك رضي الله عنه رفعه عن امرأة من بني إسرائيل أنجت صبياً لها بكسرة، ثم جعلتها في جحر، فسلط الله عليها الجوع حتى أكلتها. وجاء: من رفع كسرة من الطريق إجلالاً لله وإكراماً لم يفرح كبده جوع أبداً.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه رأى كسرة خبز فقال لغلامه: أمط عنها الأذى، فلما أمسى وأراد الفطر قال لغلامه: ما فعلت بالكسرة؟ قال: أكلتها. قال: اذهب فأنت حر. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من وجد كسرة خبز فرفعها من الأرض ثم أكلها لم تصل إلى جوفه حتى يغفر الله له. فأنا أكره أن أستعبد من غفر الله له.

ولي قطعة شعر لزومية بقافيتين. وجدت كسرة خبز فرفعتها، وأحد الأصحاب يرائي فقلت؛ وقد خفت أن يكون ازدرائي:

يـــا صـــاحبي مهـــلاً لا تـــأكلنّ عرضـــي
رزق مـــن المولـــى ملقـــى علـــى الأرض
هـــل أخـــذه إلا مـــن أوكـــد الفـــرض

وأذكر هنا فصلاً يحتوي على أخبار حسان في الأخبار التي بها حياة الإنسان. يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أكرموا الخبز؛ فإن الله سخر له من في الأرض والسماء. وفي لفظ آخر: فإن الله أنزله من بركات السماء. وفي رواية قال عليه الصلاة والسلام: اللهم أمتعنا بديننا الإسلام، وبالخبز، فإن الخبز مبارك، به أنبت الله الأرض وبه أرسل السماء مدراراً، وبه أنبت المرعى، وبقوته صمنا وصلينا وحججنا بيت ربنا، ولولا الخبز ما عبدوا الله ولا جاهدوا عدوه. قال بعض العلماء: من إكرامه أن لا ينتظر به الإدام، ولا يوضع عليه شيء من آلة الطعام فإن وضع عليه مأكول فلا بأس.

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: لا تدعموا بالخبز قصعة ولا تكفئوه على إناء. وقال بعضهم: ما زاد على الخبز فهو شهوة حتى الملح. وقال آخر: الخبز من أكبر الشهوات ما زاد عليه فهو فاكهة. يروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: ما تأتينا من العراق فاكهة أحب إلينا من الخبز.

وإذا فكرت في الخبز فهو الدين، فإنا به نتقوى على العبادة. فإن كان حلالاً وأكل على وجهه أثر في القلب وفي البدن تأثيراً، وفي القلب تنويراً، وإن كان من غير حله وتعدى في أكله انمحى ذلك التنوير وتكدر أيما تكدير. كما يقال: من أكل لقمة من حرام قسا قلبه أربعين يوماً.

وقال بعض العلماء: إذا فسد خبز الناس فسدت عبادتهم، لأن قوامها بالخبز، وقولهم وفعلهم صادر عن قوته، وأعني بالخبز القوت من أي نوع كان. كما يذكر أن علامة صدق الجوع أن لا يتخير نوعاً من الطعام، فإذا تخير فليس بصادق الجوع. ويروى أن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه ـ أو غيره ـ قال: انتهيت في سياحتي إلى موضع فيه ماء وحوله بقل فأكلت من ذلك البقل وشربت عليه من الماء، ثم استلقيت وقلت: الحمد لله هذه شبعة ليس فيها إن شاء الله تعالى حساب، فسمعت هاتفاً يقول: فالقوة التي ساقتك إلى هنا من أي شيء كانت؟. فقول العبد: لا إله إلا الله، وقراءته وجميع عباداته، إنما هي من الخبز، وعن القوت فإن طاب طابت وإن فسد فأنت تدري ما أريد أن أقول، والله يخلص من الفضول.

وأما خبز الحنطة فقد جاء فيه عن عيسى عليه الصلاة والسلام: كلوا خبز الشعير وإياكم وخبز البر فلن تقوموا بشكره. وقد تقدم كيف كان عيش رسول الله صلى الله عليه وسلم وعيش أصحابه وأكلهم. وقد خرج ثابت عن أبي بردة قال: كنا نتحدث في الجاهلية أنه من أكل الخبز سمن. قال فغزونا غزاة فلقينا المشركون فأجهضناهم عن

ملة فجلسنا نأكل منها، ثم نظر أحدنا في عطفيه أسمن بعد. ومعنى أجهضناهم: أعجلناهم. والملة عند العامة: الخبزة. وإنما الملة: الرماد المحمى، فإن سميت الملة خبزاً فجاز على تقدير خبز ملة.

وقال أبرويز ـ وهو كسرى ـ لهوذة بن علي وقد أعجبه كلامه: ما غذاؤك في بلادك؟. قال: الخبز. قال كسرى: هذا عقل الخبز لا عقل اللبن والتمر. وكان الذي أعجبه منه سأله عن أحب أولاده إليه فقال: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يبرأ. وسمي عبد الله بن خبيب العنبري آكل الخبز لاقتصاره عليه ورغبته فيه بدلاً عن غيره، وكذلك كان سالم بن عبد الله قال له هشام مرة: ما غذاؤك؟. قال: الخبز بالزيت. قال: أما تأجمهما؟. قال: إذا أجمتهما تركتهما حتى أشتهيهما. قوله: أجمتهما معناه كرهتهما. ومنه قول كعب بن زهير في صفة السيوف: قد أجمن الجفونا؛ أي: كرهن المقام فيها، والجفون: هي الأغمدة. فانظر قدره عند من تقدّم كيف كان. فسبحان الله ما أقل شكرنا وأكثر كفرنا. صدق الله حيث يقول: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

فصل:

تقدّم أن الملائكة يبعثها الله تعالى إلى الحبوب المستودعة في بطون الأرض. قال بعض العلماء: كل جزء من أجزاء الإنسان؛ بل من أجزاء النبات، لا يغتذي إلا أن يوكل الله به سبعة من الملائكة، هذا أقلهم إلى عشرة، إلى مائة، إلى ما وراء ذلك. لأن الملائكة صلوات الله عليهم ليسوا كبني آدم، يعملون أعمالاً كثيرة، إنما لكل واحد منهم عمل واحد على انفراده، تصديق ذلك: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات: ١٦٤]، وكذلك في التسبيح والركوع والسجود والقيام، لا يعدو أحد ما جعل له.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: كل ميسر لما خلق له: وقال الله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، ألم يك نطفة من ماء مهين، أراك اليوم ذا لحم وعصب وعظام وشعر وبشر وألوان شتى. تقول وحدها تخلقت إلى هذه الخلق! لا ورب الفلك، كأنك لم تسمع في حديث النطفة: يأخذها الملك بيده فيقول: يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة، يا رب كذا، يا رب كذا، فما الرزق؟ فما العمل؟ فما الأجل؟ فيأمر إليه، ويكتب الملك. الحديث بكماله. أوليس مصداقه في كلام الله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] وما خلق إلا وله رزق. وكم من ملك سخر في ذلك الغذاء إلى أن وصل إلى فمك، وكم من عضو حرك منك حتى حصل في جوفك، ثم انقطعت حيلتك إن زعمت أن لك حيلة قبلها، وذلك باطل. أين حيلتك؟ صرفها فيما حصل في جوفك، أو في ذلك الغذاء قدره، أو اعلم بما يتصرف داخل الجوف إلى أن صرف. تقول قبل ذلك: فعلت وصنعت وعجنت وطبخت ورفعت يدي إلى فمي ومضغت بأضراسي ولكت بلساني وبلعت بحلقي، همك ذلك وليس كذلك، ولا كرامة بل ملائكة ربي وعونه وتسهيله وإرادته. فإن كنت صادقاً فصرف ما حصل في الجوف وردّه دماً وصفه، وأرسل لكل عضو منك ما يصلح له وما يتغذى به ومقدار ما يحتاج إليه. هيهات ماذا بعشك فادرجي.

إن لله ملائكة في باطنك، بعضهم يسوق الغذاء بعد التصفية والتنخيل إلى الأعضاء بقدر ما يصلح بها، فيرسل إلى الظفر من رجلك ما به يشتد ويصير على شكله، وإلى شعر رأسك ما به يسودّ ويمتدّ، وإلى فخذك ما تغلظ به، وإلى أنفك ما يصير على ما هو به، وإلى القلب، وإلى السمع، وإلى البصر، وإلى كل شكل ما يشكل له. ولو كان ذلك بغير مقدار لكبر الأنف مثلاً، ورق الفخذ، وانفلق العظم ولم يكن مجوفاً. ولو لم يراع الملك القسمة والتقسيط في الأعضاء الباطنة لفسد الجسم، وصار على غير ما هو عليه. وقس على هذا ما لم نذكر لك، فإنه بعض من كل. ولا فرق بين جسمك في التغذية وبين تغذية الثمرة وإرسال الغذاء إلى الورقة والسفلى منها كالعليا وإلى العظم والعجم. وكذلك في جميع الحيوانات والنباتات. هذا في الأشياء الصغار. فما ظنك في الكبار. وإذا كانت القطرة من السماء لا تنزل إلا ومعها ملك فكيف بحال ابن آدم؟. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [الرعد: ١١] قيل في التفسير: ملائكة يحفظونه بأمر الله.

وكما يروى أن رجلاً سمع واعظاً يقول في هذا المعنى: إن لله ملائكة يحسنون عون العبد في كل شيء حتى في أكل التمر بالزبد، فاستبعد هذا لجهله. ولما دخل منزله قدم له تمر وزبد فضحك وقال لامرأته: ما سمع الواعظ، يقول على جهة الهزء، وقال: أي شيء أحتاج أنا في هذا إلى الملك، وأخذ لقمة ووضعها في فيه فشرق بها فمات.

وقال آخر وقد ركب بعيراً: اللهم إنك قلت: ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ١٣] وإني لبعيري هذا مقرن. فنفر به وطرحه، وبقيت رجله في الغرز، فجعل يضرب برأسه كل حجر حتى مات. خرجه الخطابي. وقال في هذا الخبر من حديث سليمان بن يسار رضي الله عنه: إن قوماً كانوا في سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ١٣] فكان رجل منهم على ناقة له رازم فقال: أما أنا فإني لهذه مقرن. قال: فقمصت فصرعته فدقت عنقه. وفسر الرازم: التي لا تتحرك هزالاً، وقد رزم البعير يرزم رزماً فهو رازم، وإبل رزمى. قال أبو زيد: والرازم مثل الرازح، والسنة المرزمة: المقحطة، يهزل فيها المال وتعجف الدواب.

انظر أيها العاقل؛ بل الغافل إلى القطر الذي ينزل من السماء على كثرته ودقته، هل تختلط قطرة بأخرى، أو تسبقها، أو تتعدى الطريق الذي رسم لها؟ بل تنزل بأمر الله تعالى وتسخير الملائكة معها، فلا يتقدّم المتأخر ولا يتأخر المتقدّم، ثم في كل قطرة منها عيشة لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش ودود، ومكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر: إنه رزق الدود الفلاني الذي هو في الناحية الفلانية يصل إليه عند عطشه في الوقت الفلاني.

وجاء في الصحيح أن رجلاً سمع في السحابة: اسق حديقة فلان، فجاء الرجل حتى وجد رجلاً يحوّل الماء في حائطه بمسحاته، فسأله عن اسمه، فإذا هو هو، فسأله وقال: ما تصنع بغلته؟ فقال: آكل ثلثاً، وأرد فيها ثلثاً، وأتصدّق بثلث. هذا معناه:

وذا فصل الفوائد قد تقضى ... وشرح لغات عربان الصميم
وها أنا ذا أشمر عن ذراعي ... وآخذ بعد في ألف وميم
فأذكر فيه ما أدري فخذه ... فإني ناصح لك يا حميمي

باب الألف مع الميم

وام وام وام وام وام وام وام وام ومل ومل

أم كل شيء: أصله، ومنه: أم الإنسان أي: والدته. وأم القرى: مكة. كما يقال: أم خراسان: مرو، وأم الكتاب: أصله، وأم القرآن: أوله وفاتحته، وأم النجوم: المجرة لأنها مجتمع النجوم، قال الشاعر:

بركب يشجون الفلا في رؤوسه ... إذا اغوزّت أم النجوم الشوابك

وأم الطعام: المعدة. قال الأصمعي في كتابه في خلق الإنسان وأنشد:

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه ... أم الطعامَ ترى في ريشه زغبا

ويقال: أم الدماغ؛ وهي أم الرأس وهي مجتمعة؛ وهي الجلدة التي فيها الدماغ. قال الأخفش: كل شيء أفضت إليه أشياء فهو أم لها. وبذلك سمي رئيس القوم أماً لهم. وأم مثوى الرجل: صاحبة منزله الذي ينزله. ومنه في القرآن العزيز: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة: ٩] أي التي تضمه وتؤويه. قال الراجز:

وأم مـــــثواي تـــــدرّي لمتـــــى

ومعنى تدرّي: تسرح بالمدرى، وهو القرن. قال النابغة:

شـــك الفريـــصة بالمـــدرى فأنفـــذها

ويقال لها: المدراة أيضاً. وربما تصلح الماشطة قرون النساء بها، وهي شيء كالمسلة يكون معها. وجمعها: مداري. قال امرؤ القيس:

تـــضل المـــداري فـــي مثنـــى ومرســـل

وفي الحديث: ومع النبي صلى الله عليه وسلم مدرى يحك بها رأسه. وفي الترمذي: مدراة.

والأمي: منسوب إلى الأم لأن الغالب على الأم أنها لا تحسن تقرأ ولا تكتب. وأم زنبق: الخمر. وأم عبيد: المفازة. وأنشد:

بـــئس قـــرين الـــسيفن الهالـــك أم عبـــيد وأبـــو مالـــك

أم عبيد: المفازة كما تقدّم، وأبو مالك: الكبر، وأبو مزاحم: الكبش العظيم القرون، وأبو الحسين: الغزال.

وقد ذكر أبو عبد الله حمزة بن الحسن الأصفهاني في كتابه المسمى بكتاب الأمثال ما جاء في ما أوله أم؛ فذكر بعض ما تقدّم وزاد قال: وأم حلس: للأتان، وأم عامر وأم عمرو: الضبع، وأم فروة: النعجة، وأم الهيثم: كنية للعقاب، وأم تسعين: كنية الاست، وأم حنين: الخمر، وكذلك أم ليلى. قال الشاعر:

ســـقتني أم ليلـــى أم ليلـــى فحلـت عقارهـــا مـــن ريـــق فـــيها

وأم عوف: الجرادة، وأم كفات: الأرض، وأم غياث: السماء، وأم النجوم: المجرة، وقد تقدّم. وزاد ويقال لها أيضاً: أم السماء، وأم ذفر: الدنيا، وهي أم درزة، وأم ملدم، بالدال غير المنقوطة من اللدم؛ وهو ضرب الوجه حتى يحمرّ الموضع. ومن قال بالذال المنقوطة فهو من قولهم: لذم به: إذا لزمه. وذكر من هذا النوع نحو الستين.

وذكر من أبو كذا نحو الخمسة عشر، منها: أبو الحارث: كنية الأسد، وأبو جعفر: كنية الذئب، وأبو قلمون: كنية أثواب ابريسيم تنسج بمصر والروم تتلوّن للعيون ألواناً. وأبو براقش: كنية الرجل الكثير التلوّن، وأبو قبيس: جبل بمكة، وأبو دراس وأبو ليلى:

كنية لمن يحمق، كأنهم يعنون: أبو امرأة. وأبو مالك وأبو عمرة: كنية الجوع، قال الشاعر:

حل أبو عمرة وسط حجزتي … فصار نسج العنكبوت برمتي

وقال غيره: أبو مالك: اسم الكبر، وقد تقدّم. وأنشد:

أبا مالك إن الغواني هجرنني … أبا مالك إني أظنك دائما

الكنى المصدّرة بابن

وذكر الأصبهاني أيضاً من ابن كذا؛ نحواً من الأربعين منها: ابن ماء، وابن تمرة: طائر، وابن برح: اسم للعذاب والمشقة، وابن الطريق وابن عجل: ولد الزنا، وابن قترة: ذكر الأفاعي، وابن عذرها: الذي يخترع الشيء لم يسبق إليه، وابنا عيان وابنا شمام: هضبتان في أسفل جبل يقال له: شمام، وابنا سمير: الليل والنهار، وابن ذكاء وابن طامر: البرغوث، وابن بيّ: من لا يعرف وكذلك ابن استها: للرجل المجهول الوغد. كتب بعض الأمراء إلى مثل هؤلاء وكانوا قد حبسوا عنه الماء أن يأتي من جهتهم: إلى ابن استها، إما أن يمسينا الماء وإلا صبحتكم الخيل. وذكر فيها ابن لبون وابن مخاض وابن جلا. قال غيره ويقال: ابن أجلى وابن أبيض، وهما بمعنى: التجلي للأمر المنكشف، وهو أول النهار. وبذلك تمثل الحجاج فقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا … متى أضع العمامة تعرفوني

ويقال: إن ابن جلا رجل كان فاتكاً، يطلع في الغارات من ثنايا الجبال، وقوله فيما تقدّم: ابن الطريق: وهو أيضاً ابن السبيل يعني الضيف، وقيل المسافر، سمي بذلك لأنه يمر من بلد إلى بلد فهو أبداً ملازم للسبيل وهي الطريق. كما قيل لطير الماء: ابن الماء لملازمته الماء. ويقال للرجل الذي قد أتت عليه الدهور: هو ابن الأيام والليالي. وعلى هذا يتأوّل حديث النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: لا يدخل الجنة ولد زنا. معناه الملازم للزنا، جعل ابن الزنا لملازمته له. كما قيل: ابن ماء وابن الأيام. وجاء منه في حديث آخر: ولد الزنا شر الثلاثة. وفي بعض ألفاظه: إذا عمل عمل أبويه، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وذكر أبو عبد الله المذكور من بنت كذا نحو السبعة والعشرين منها: بنت الأرض: بقلة، وبنت الصدا: وهو الصوت الذي يرجع إليك من الجبل. ويقال في مثل: كبنت الجبل مهما أقل تقل. وبنت الشفة: الكلمة، وبنت الموت: الحمى، وبنات بحنة: السياط، والبحنة: النخلة. وبنات بحر: السحاب، ويقال: البرد. وأنشد:

كــــأن ثـــــناياها بــــــنات ســــــحابة

وبنات الأحلام، وغير ذلك. وقد تقدّم: بنات نعش، ويقال فيها أيضاً: بنو نعش، قال الشاعر:

كـــــان بنــــي نعـــش ونعـــش مطافـــــل

وتقدّم ذكر البنات؛ وهي اللعب والتماثيل التي يلعب بها البنات؛ في حديث عائشة رضي الله عنها. وبنات الماء: طائر يكون حول الماء. قال أبو الهندي:

ستغنى أبا الهندي عن وطب سالم أباريـق لـم يعلـق بهـا وضـر الـزبد
مقدمـــــة قـــــزا كــــأن رقابهـــــا رقـاب بـنات الـمـاء تفـزع للـرعد

ويقال للحصى الذي في المسجد: بنات المسجد. ذكر لرؤبة رجل فقال: كان إحدى بنات المسجد.

بيان كنى الحيوانات وغيْرها

ومن غير الكتاب ذكر بعضهم قال: تقول العرب في أسماء الحيوانات وكناها: الفيل: أبو الحجاج، الأسد: أبو الحارث. الذئب: أبو جعدة. الدب: أبو رياح. الخنزير: أبو قادم، ويقال أبو عقبة. والثعلب: أبو الحصين. والكلب: أبو خالد، وأبو ناصح عند بعضهم. والسنور: أبو خراش، ويقال: أبو غزوان. والغزال: أبو الحسين. والجمل: أبو صفوان، ويقال: أبو أيوب. وأبو مزاحم: الثور. وأبو حاتم: الكبش. وأبو المطرف: التيس. والنمر: أبو وثاب. والفهد: أبو قرة. والفرس: أبو طالب. والبرذون: أبو مضاء. والبغل: أبو المختار. والحمار: أبو زياد. والقرد: أبو قيس. والنسر: أبو يحيى. والغراب: أبو زاجر، ويقال له: ابن داية. والديك: أبو اليقظان، وأبو حسان، وأبو نبهان عند بعضهم. الزمارة: النعامة. أبو براقش: طائر يتلوّن ألواناً، ويقال: هي الحرباء التي سمتها العامة: أم حبيش. وأم حبين: الجرادة. وأم عوف: الحمامة. وأم مهدي: الدجاجة. وأم حفص: الهدهد. وأبو الميت: الجعالة. وأبو الصراة: القملة. وأم عقبة: الحية. وأم يقظان: العقرب. وأم سام: العضرفوط التي تسميها العوام حنيشة الحية، وبنات وردان التي تقول لها العامة: ابلانة. وأبو حسيل: الضب. والخنفساء: أم سالم. والجعل وأبو جعران: الدلاب والضفدع كل واحد منهما. أبو المسيح وأبو نعيم: خبز الحواري. وأبو حبيب: الجدي. وأبو ثقيف: الخل. وأبو عون: الملح. وأبو جميل: البقل. وأم القرى: السكباج. وأم جابر: الهريسة. وأم الفرج: الجوزابة. وأبو رزين: الخبيص. وأبو العلا: الفالوزق. وأبو إياس: الغسول. وأبو يحيى: كنية الموت. وأبو عمرة وأبو مالك: كنية

الجوع. وأبو جامع: الخوان. أبو السرو: البخور. المرحفان: الطست والإبريق.

أعمار البهائم

عن كعب الأحبار: الحمار أربعون سنة، الضبع خمسون، البغل خمسون، الورشان مائة العقاب ألف، النسر ألفان، العنقاء ألف، الحية ستمائة، الوزغ مائة، الأسد مائة، الذئب مائة، ابن آوى أربعون، الزرافة مائة، النمر ثلاثمائة، الفهد مائة، النحلة ستة أشهر، العقرب ستة أشهر، الجرادة ستة أشهر، الذباب أربعون يوماً، البعوض ثلاثة أيام. وقد طال الكلام في هذا الفصل.

ونرجع إلى الأم التي هي الأصل. من العرب من يكسر الألف من أم فيقول: إم، وقرئ: (فرددناه إلى إمه) بالكسر، وقد يحذفون الألف من أم استخفافاً فيقولون: ويل مه، وربما كتبوه: ويلمه؛ متصلاً كما ترى. وجاء منه في الحديث: ويلمه محش حرب، لو كان معه رجال. وقد قالوا في أم: أمة، تقول: هذه أمة زيد كما تقول: أم زيد.

وإذ وقعنا في أمة فلنذكر ما جاء فيها. قال ابن عزيز رحمه الله: تأتي أمة على ثمانية أوجه أمة: جماعة، كما قال تعالى: ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص: ٢٣]. وأمة: أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما تقول: نحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وأمة: رجل جامع للخير يقتدى به، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٠]. وأمة: دين وملة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٢٢]. وأمة: حين وزمان، كقوله تعالى: ﴿ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ [هود: ٨] وقوله: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: بعد حين ويقرأ: (أمة) و(أمه) بالهاء وتسكين الميم وفتحها مخففة، ومعناه: بعد نسيان. وأمة: قامة. يقال فلان حسن الأمة: أي القامة. وأمة: رجل منفرد بدين لا يشركه فيه أحد. قال صلى الله عليه وسلم: يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده. وأمة: أم، كما تقدّم. هذا بضم الألف وأما بكسرها فالإمة: النعمة. وتقول: بقي فلان في إمة؛ أي: في نعمة. قال زهير:

ألا لا أرى ذا إمة أصبحت به ... فتتركه الأيام وهي كما هيا

والأمة أيضاً: الائتمام. والأمة بالفتح والتخفيف: الوليدة، والأمة بالتشديد: الشجة، وسيأتي الكلام فيها. والآمة بالتشديد والمد: مؤنث الآم؛ وهو القاصد، وسيأتي. والآمة أيضاً: ما تعلق بسرة الصبي حين يولد. وتقدم: أمة وليدة، وسيأتي الكلام عليها.

والآمة بالمد والتخفيف العيب في الإنسان. قال النابغة:

فأخــــذت أبكــــاراً وهــــن آمــــة أعجــــانهن مظــــنة الأعــــذار

يريد: أنهن سبين قبل أن يختن، فجعل ذلك عيباً، وكيف النسب إليها، وكيف تثنى وتجمع وهي توصف بالغفلة والنوم كما يوصف العبد بالإباق والهرب. ولذلك قال ابن هبيرة لخالد القسري وكان في سجنه فهرب فقال له خالد: أبقت إباق العبد. فقال له ابن هبيرة حين نمت نومة الأمة. وسيأتي خبره إن شاء الله تعالى.

بقي من الشكل: أمة ـ بضم الألف وتخفيف الميم ـ: حي من غطفان يقال لهم بنو أمة. وأمة: هو ابن بجالة. ومن شكل أمة لكنه فعل، وبناء صحيحة، قولهم: أمت السنور تأمو أماء. وقد قالوا في هذا: ماءت تَموء موءاً. ومن هذا الشكل: آمت المرأة ـ بالمد ـ وتأيمت: إذا كانت خلواً من الزوج، وسيأتي.

وأنت يا هذا خذ الفائدة التي بها تزان، ودع الأوزان، وإن أردت شعراً قوافيه كلها مثل: شنائي، ومائي، وهائي، فانظره في كراسة البديع من التكميل.

وأما أم: فهو فعل. تقول: أمّ يؤمّ أمّاً: إذا قصد إلى الشيء، واسم الفاعل من هذا: آم، وهو الذي في البيت، ويجمع: آمين من قوله تعالى: ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [المائدة: ٢] قال ابن عزيز: يعني عامدين البيت الحرام. وأما قولهم في الدعاء: آمين رب العالمين فتخفف منه الميم ويمد ويقصر، وتفسيره: اللهم استجب لنا. لأن آمين اسم من أسماء الله تعالى. والأصل أمين بالقصر؛ أدخلت عليه ألف النداء فمددت. قال الشاعر في القصر:

أمــــين فــــزاد الله مــــا بينــــنا بعــــدا

وقال الآخر في المد:

ويــــرحم الله عــــبداً قــــال آمــــينا

ويقال: أمّ فلان رأس فلان بالعصا يؤمه: إذا أصاب أم رأسه؛ فهو أميم ومأموم. والشجة: آمة. وتقول: أممت الرجل: شججته. وأمّمته بالتشديد: قصدته. وكذلك تيممته بمعنى: تعمدته. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] ومنه التيمم للصلاة؛ ومعناه: القصد. قال تعالى: ﴿ فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [المائدة: ٦]، وقال امرؤ القيس:

تــــيممت العــــين التــــي عــــند ضــــارج

ولهذا البيت حكاية وخبر يأتي من اللباب إن شاء الله تعالى بعد في هذا الباب.

تقدّم أممت بالتشديد: إذا قصدت، وبالتخفيف أممت الرجل: شججته. وكذلك تقول: أممت القوم: تقدمتهم فكنت أمامهم. وكذلك تقول إذا صليت بهم: فكنت إمامهم، لأن المعنى واحد.

وإذ وقع ذكر الإمام فاسمع ما قيل فيه من الكلام، الإمام: ما ائتممت به واهتديت، حتى سموا الخيط الذي يهتدى به البناء في بنائه إماماً. وقالوا في أبي جاد: إمام الكتاب. قال الله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي يأتم بك الناس فيتبعونك ويأخذون عنك. ولهذا سمي الإمام في الصلاة، والخليفة أيضاً لأنهم كانوا يصلون بالناس. وكذلك العالم، لأن الناس بهؤلاء يأتمون وإياهم يتبعون وبهم يقتدون. ويقال للطريق: إمام لأنه يؤم أي يقصد، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ٧٩] أي: بطريق واضح مثل: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر: ٧٦]. والإمام: الكتاب أيضاً ومنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٧١] أي: بكتابهم، ويقال بدينهم، وكذلك: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢] يعني الكتاب أو اللوح المحفوظ، والله أعلم.

ومن هذا الشكل: أمام - بالفتح - ضد وراء، وقد تقدم القول فيه في باب الراء.

وأما أم: ساكنة الميم فحرف عطف، ومعناه الاستفهام، وتكون بمعنى: أو كقوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم ﴾ [الملك: ١٦-١٧] وكقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۝ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ٦٨-٦٩]. وتكون أم بمعنى الاستفهام كقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء: ٥٤] أراد أيحسدون وكقوله تعالى: ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ۝ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ بوصل الألف ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ [ص: ٦٢-٦٣]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ۝ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ [الطور: ٣٩-٤٠] أراد: أتسألهم أجراً؟، وكذلك: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الطور: ٤١] أراد: أعندهم؟ وكذلك قوله تعالى: ﴿ الم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [السجدة: ١-٣] ولم يتقدّم في الكلام: أيقولون كذا؛ فيرد عليهم أم يقولون،

وإنما أراد: أيقولون. كذا قال ابن قتيبة بعد ما ذكر هذا كله قال: والله أعلم بكتابه. وأنا أقول: صدق.

وأما أم: فمصدر أم المتقدّم كررته فرفعته. والأم أيضاً: الشيء المقصود. قال الشاعر وهو الشنفرى واسمه عمرو بن عامر:

كأن لها في الأرض نسياً تقصه ... على أمها وإن تخاطبك تبلت

يصف امرأة بالخير وكثرة الحياء وقلة الالتفات. يقول: إذا مشت في طريقها؛ وهو أمها؛ لا يجاوز بصرها موضع قدميها كأنها تطلب في الأرض نسياً؛ وهو الشيء الحقير الذي لا يعبأ به؛ أو الشيء المتروك حتى ينسى. كذا فسر قوله تعالى: ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣] وقرئ: (نَسياً) بفتح النون لغة فيه، وتقديره ذات نسي؛ أي: منسية لا أذكر. والنسي أيضاً: اللبن المخلوط بالماء، فكأنها قالت: يا ليتني مثل هذا اللبن المخلوط في قلته وصغر قدره. والله أعلم. وقوله في البيت: تقصه، أي: تتبع أثره، وكذلك فسر قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ [القصص: ١١] أي: اتبعي أثره. وقوله: وإن تخاطبك تبلت. يقول: من شدة الحياء لا تستطيع تتم الحديث بل تقطعه، ويروى: تبلت ـ بفتح اللام ـ تنقطع هي حياء، ومعنى تبلت: ـ بالكسر ـ تبتل فهو من المقلوب، كما قالوا: جذب وجبذ، وهذا كله مثل: بلت وتبل، فوزن تبلت على هذا تفلع، وأصل البتل: القطع. ومنه: صدقة بتلة، ومنه: العذراء البتول، أي: التي لا حاجة لها في الرجال، وكذلك البتول وهي: الفسيلة التي استغنت عن النخلة، والنخلة حينئذ مبتل، وربما قالوا لتلك الفسيلة: بتيلة، والبتيلة أيضاً: كل عضو بلحم. والجمع: بتائل. ويقال: امرأة مبتلة؛ بتشديد التاء مفتوحة؛ أي: تامة الخلق لم يركب لحمها بعضه بعضاً، ولا يوصف به الرجل. وقد تقدّم:

مبتلة الأعضاء زانت عقودها ... بأحسن مما زينتها عقودها

ومن البتل قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عمرة بتيل وحجة بتيل، أي: مفردة. فكان من مذهبه إفراد الحج من العمرة. وأصل البتل: إبانة الشيء وتمييزه عنه، فإن قدمت التاء قلت: تبل، والتبل: العداوة. يقال: تبلهم الدهر، وتبلهم: رماهم بصروفه، والمرأة تبتل فؤاد الرجل، قال الشاعر:

تبلت فؤادك في المنام خريدة ... تشفي الضجيع ببارد بسام

وتوبلت القدر: جعلت فيها التابل.

وأما أم: فأمر من هذا الفعل. وكذلك إذا بنيته لما لم يسم فاعله.

بقي: آم الرجل، وليس من كلمات البيت، ومعناه: صار أيماً. تقول: آمت المرأة

من زوجها تئيم: فهي أيم، والجمع: أيامى، وفي التنزيل: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ [النور: ٣٢] قال ابن عزيز: هم الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء، واحدهم: أيم. ويقال: تأيمت المرأة. وفي حديث عمر بن الخطاب: لما تأيمت حفصة... الحديث. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الأيمة والعيمة والغيمة. فالأيمة: طول العزبة، والعيمة: شدة الشوق إلى اللبن. يقال: ما له آم وعام؛ أي: فارق امرأته وذهب لبنه. والغيمة: شدة العطش. وكان أيضاً عليه الصلاة والسلام يتعوّذ من بوار الأيم. ويقال: الغزو مأيمة؛ أي: يقتل الرجال فتصير نساؤهم أيامى. وقد تقدّم: آم النحل، إذا دخنها ليشتارها؛ فهو يؤومها بالإيام وهو الدخان.

ومن شكله الأيم: ضرب من الحيات أيضاً أبيض لطيف ويقال فيه الأين. وللخطيب أبي محمد رضي الله عنه في كلام له: ينساب في توصله إلى المآرب انسياب الأيم، ويلج بلطيف توسله على الكواكب أبواب الخيم. انظر هذا الالتزام الذي التزمه هذا الإمام، وهذا أكثر كلامه في هذه الرسالة وغيرها انظرها في التكميل.

ومن شكل أيم: أيم الله في القسم، وأيم الله أيضاً، وفيها لغات غير هذا، وقريب من شكل الأيامى الأيام احذف الألف وشدد الياء والسلام هي معلومة، وأيام الله المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم: ٥] أي بنعمه قبلهم، وذكرهم البلاء كيف أهلك عدوّهم.

ومن شكل الأيام: الإيام ـ بكسر الهمزة وتخفيف الياء ـ وهو الدخان وقد تقدّم. وجمع الدخان: دواخن، وكذلك العثان: وهو الغبار وجمعه: عواثن. قال ابن قتيبة: ولا نظير لهما.

وبقي من شكل آم: آم: جمع أمة، وأنشد:

إذا تبارين معاً كالآم ... في سبسب مطرد القتام

تقول: لفلان ثلاث آم، وتجمع أيضاً: إماء؛ وهي لغة القرآن والحديث. ويقال أيضاً: أموان. وأنشد فجمع بين اللغتين في بيت:

أما الإماء فلا يدعونني ولداً ... إذا ترامى بنو الأموان بالعار

وتقول: تأيمت أمة: اتخذتها، كما تقول: تعبدت الرجل: اتخذته عبداً. وفي التنزيل: ﴿ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٢٢] وربما قالوا: استأيمت الأمة؛ بمعنى: استخدمتها. وأصل أمة: أموة؛ والنسبة إليها: أموي ـ بالفتح ـ وتصغيرها: أمية. وأمية أيضاً: قبيلة من قريش، والنسبة إليها: أموي ـ بالضم ـ وربما فتحوا، وربما يقال: أميّي؛ فيجمع بين أربع ياآت، وهو في الأصل: اسم رجل، وهما أميتان أصغر وأكبر؛ فالأكبر

ابنا عبد شمس بن عبد مناف أولاد عبلة فمن آسية الكبرى أبو سفيان بن حرب، والعنابس، والأعياص، وأمية الصغرى هم ثلاثة أخوة لأم اسمها عبلة يقال لهم: العبلات.

ومن شكل أم: وأم؛ إذا جعلت الواو أصلية. وأم: فعل ماض، تقول: واءمه مواءمة ووآماً: إذا فعل كما يفعل وهي الموافقة. وفي المثل: لولا الوآم لهلك الأنام. يريد: لولا الموافقة بين الناس والمساعدة. ويقال أيضاً: لولا الوآم لهلك اللئام. والوآم هنا المباهاة. يريد: أن اللئام أكثر أفعالهم إنما هي للفخر والمباهاة يتشبهون بالكرام، ولولا ذلك لهلكوا.

ومعكوس أم: ما؛ لا أدري ما أقول في: ما؛ أنواعها كثيرة مشهورة مسطورة مأثورة، لم تتزن فسقتها منثورة، وأرسم ذلك فيها رسماً. اعلم أنها تكون حرفاً، وتكون اسماً، فهي أيضاً تتلوّن كأنها حرباء. نعم، وتهمز ألفها فتقول ماء. ولما رأيت أنواعها كثيرة تركتها إلا في مواضع يسيرة، غير ذكر الماء فإنه لا غنى عنه فأكثرت منه، فإن أردته فانظره بعد هذا في فصل الفوائد، ومتى شربته فادع لي يعد عليّ وعليك عائد. وأذكر لك هنا جمعه لتنال نفعه. أصل ماء: موه اعتلت الواو في الواحد وظهرت في الجمع فقالوا: أمواه ومياه، وربما أعلوها أيضاً في الجمع فقالوا: أمواء. قال الراجز:

وبلدة قالصة أمواؤها يستن في رأد الضحى أفياؤها

وأما ما غير الماء فإن أردت معرفتها وما يعمل منها وما لا يعمل فها أنا أدلك بكلام مجمل عليك أيها الولد بالجمل، فإن مؤلفه أحسن فيه وأجمل، وذكرها في موضعين أعلى وأسفل. فانظرهما هناك فهي أكفل، وعليّ أسهل، وإنه جعل مواضعها تسعة فاحفظها وشد عليها بتسعة ولكن لا أخليك هنا من فائدة على ما هناك زائدة.

اعلم أن (من) و(ما) أختان في الاستفهام. نعم، وفي الكناية والاستبهام. إلا أن (من) لمن يعقل من الأنام، و(ما) لمن لا يعقل من الموات والأنعام. وتكون (ما) في موضع (من) في أماكن تستحسن. فلنذكر ما جاء منها في القرآن فهو أنفع للإنسان وأسرع للبيان. قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [الليل: ٣] قال: معناه ومن خلق. وكذلك قال في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٥-٧] هي في هذه المواضع بمعنى: من. وقال أبو عمرو هي بمعنى: الذي. قال: وأهل مكة يقولون إذا سمعوا صوت الرعد: سبحان ما سبحت له. وسيأتي الكلام على هذه اللفظة في باب الهاء عند ذكر الرعد إن شاء الله تعالى. وقال الفراء: هو وخلقه الذكر والأنثى، وذكر أنها في قراءة عبد الله بن

مسعود: (والذكر والأنثى) ذكر هذا عنهم ابن قتيبة رحمهم الله. وقال المهدوي رحمه الله: يجوز أن تكون (ما) والفعل مصدراً. ويجوز أن تكون (ما) بمعنى: الذي، وأجاز الفراء خفض الذكر والأنثى على البدل من (ما) وجعلها بمعنى الذي.

ومن مضاعف هذا الحرف: المأمأة؛ وهو صوت الظبية والشاة إذا واصلا أصواتهما فقالوا ماء ماء؛ كما تقدم في قطا قطا.

وبقي من شكل (ما) إذا همزت الألف ومددتها: مآى؛ تقول: مآى بين القوم مأياً؛ أي: أفسد، وقد تمأى: أي فسد، وقد تقدم: ماءت السنور.

فإن جعلت الميم بين ألفين فقلت: (أما) وخففت كان معناها حقاً. يقال: أما إنه منطلق بفتح أن وكسرها، فإن جعلت الألف للاستفهام فتكون للتقرير في الكلام، وتحذف الألف فتقول: أم والله لأفعلن كذا. وأما إذا شددت الميم في مثل قولهم: أمّا بعد، فإن فيها معنى الشرط بدليل دخول الفاء في الجواب. ومن العرب من يبدل من إحدى الميمين ياء فيقول في: أما أيما. قال الأحوص:

يـا ليـتما أمـنا شـالت نعامـتها ... أيمـا إلـى الجـنة أيمـا إلـى الـنار

وأما (إما) المكسورة في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ [البقرة: ٣٨] فهي (إن) التي للشرط دخلت عليها (ما) للتأكيد ليصح دخول النون في الفعل. ولو سقطت لم تدخل النون لأنها لا تدخل في الواجب إلا في القسم أو ما يشبهه كالاستفهام والأمر والنهي، فـ(ما) تؤكد أول الكلام، والنون تؤكد آخره، وتجيء (إما) في باب العطف مكسورة مكررة، ولها مواضع سوى هذه ذكرها النحويون، وكذلك تصرف منها ألفاظاً. تقول: أما وإما وأماء: جمع أمة، ولكل هذه الألفاظ معنى، وحصرها قد عنى، حتى قلت لها إليك عنا.

وأما مقلوبها ألف بين حرفين مثل: مام، فلا أعرف فيه شيئاً.

بقيت القافية: مل وملل. أما مل ـ بالفتح ـ ففعل، تقول منه: مللت الشيء أمله إملالاً وملالة وملاً: إذا سئمته، ورجل مل وملول وملولة. وملل: موضع، وكذلك ملال. ومن أمثالهم: أدل فأمل. وقد تقدم. وتقول: مللت الخبزة أملها ملاً: إذا رميتها في الجمر. والجمر بعينه: الملة، وقيل: الرماد الحار. وفلان ذو ملة، قال الشاعر:

إنـــك والله لـــذو ملـــة ... لطـــرفك الأدنـى عـــن الأبعـــد

ويقال: طريق مُمل ومليل قد سلك فيه فصار معلماً. والملة ـ بالكسر ـ: النحلة التي ينتحلها الإنسان من الدين. وامتل الرجل: أخذ في ملة الإسلام. ووجد فلان ملة وملالاً ومليلة: وهو عرق الحمى عافانا الله منها. والململة والتململ: وهو كثرة

الاضطراب والتحرك وقلة النوم كأنه يتقلب على الملة وهو: الرماد الحار أو الجمر، كما تقدم. والاملال: إملاء الكتاب.

وأما مل: فأمر من هذا الفعل، أو مبني لما لم يسم فاعله. ومن المحدثين عبد الرحمن ابن مل؛ ويقال فيه: مل ـ بالكسر ـ وهو من جديلة طريف بن مل؛ هذا بالضم، فإن كسرتها جاء منه مل: أمر من مال يميل. تقول منه: مل إلى كذا؛ أي اعطف عليه.

ومعكوس هاتين اللفظتين (لم) حرف استفهام و(لم) من حروف الجزم ومعناه: النفي، تدخل عليها (ما) فتصير (لما) وتعمل عمل (لم). قال الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ [الجمعة: ٣] وتكون لما بمعنى: حين؛ تقول: جئته لما قدم فلان. وتخفف الميم من هذا فتكون زائدة للتأكيد مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٣٢] و: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: ٤].

ومن شكل هذه اللفظة (لما) إذا كتبتها بالألف لهذه السمرة التي تكون في الشفتين. تقول من ذلك: رجل ألمى وامرأة لمياء، كما قال: (لمياء في شفتيها حوة لعس) وقد تقدم مع قوله: (بالظبي الذي كله لمى)، وتشديد الميم فتصير لما مصدر لم، وفي القرآن: ﴿ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ [الفجر: ١٩] أي: شديداً. يقال: لممت الشيء أجمع، أي: أتيت على آخره.

ومن شكل (لم): لُم، أمر من اللوم، و(لمّ) مثقل فعل ماض، تقول منه: لمّ يلمّ لَمّاً؛ بمعنى جمع، وتأمر منه فتقول: لم، وكذلك إذا بنيته لما لم يسم فاعله. وفي الحديث من هذا الفعل من دعائه عليه الصلاة والسلام: اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري وتلم بها شعثي. معناه، والله تعالى أعلم: تجمع بها ما تشتت من أمري. قال الشاعر:

لـم الإلـه بـه شـعثاً ورمّ بـه أمـوراً مـنه والأمـر منتـشر

وقالوا في هلم أصله: لم؛ وها: للتنبيه، أسقط ألفها لكثرة الاستعمال. فمعنى هلم: لم نفسك إلينا وقرب. ويقال: رجل ملم معم، أي: يعم القوم ويجمعهم. ويقال: لم به وألم بمعنى. ودفع ذلك الأصمعي ولم يجز إلا: ألم به إلماماً، وهذا من الرباعي ومعناه المقاربة. وفي الحديث من هذا في الأمة الحامل التي رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خباء سيدها فقال: لعله يريد أن يلم بها، لقد هممت أن ألعنه لعناً يدخل معه في قبره. وفي الحديث أيضاً من قوله عليه الصلاة والسلام حين ذكر الدنيا وزينتها:

وإن من الربيع ما يقتل حبطاً، أو يلم. معناه: أو يقارب. والحبط: مصدر حبط؛ بكسر الباء؛ يحبط حبطاً؛ بفتحها أيضاً؛ فهو حبط؛ بالكسر. وقالوا: الحباطة، وهو داء يصيب الماشية من كثرة الأكل حتى تنتفخ بطونها فتمرض عنه.

وجاء في الحديث من ألم قول الشاعر:

وأي عـــبد لـــك لا ألمـــا

استشهد به النبي صلى الله عليه وسلم. وفي القرآن العزيز: ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ ﴾ [النجم: ٣٢] وهو الصغير من الذنوب. واللمم أيضاً: مس الجنون. يقال: رجل ملموم وبه لَمم ولَمة. واللملمة: استدارة الحجر. يقال حجر ململم، وكتيبة ململمة، وملمومة: مجتمعة. وقال الشاعر:

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر تنبو الحوادث عنه وهو ملموم

ويقال: لَملم الرجل كذا بمعنى: جمع وأدار. ولَملم: اسم واد في جهنم؛ أعاذنا الله منه. ويلملم: موضع. ويقال فيه أيضاً: أَلَملم، بالألف. وفي الحديث: ومهل أهل اليمن يلملم. ويرمرم؛ بالراء: اسم جبل، وربما قالوا فيه: يلملم، كذا وقع في التاج.

ومعكوس لملم: ململ. يقال: تململ الرجل على فراشه إذا تقلب عليه ولم يأته نوم. وقريب من هذه اللفظة: لَمة، بالفتح بمعنى: خطرة، كما يقال: إن قلب العبد بين لَمتين لَمة من الملك ولَمة من الشيطان. واللمة ـ بالكسر ـ: الشعر إذا جاوز شحمة الأذن. والجمع لِمم. وفي الحديث في صفة موسى عليه الصلاة والسلام: له لِمة كأحسن ما أنت راءٍ من اللمم. فإذا بلغ الشعر المنكبين فهي: جمة، والجمة: أكبر من الوفرة، والجمع: جمم؛ بالضم، وجمام: بالكسر، وقد تقدم. ويقال للرجل الطويل الجمة: جماني بالنون على غير قياس، ولو سميت به رجلاً ثم نسبت إليه لقلت: جمي. ورتب قوم من أهل اللغة هذا فقالوا: الوفرة ثم الجمة ثم اللمة ألمت بالمنكبين. واللمة ـ بالضم مع تخفيف الميم ـ: الجماعة من الناس، وجمعها: لُمات. وقال ابن الأعرابي: اللمات من الرجل المترافقون في الحديث. ليتوّخ الرجل لمته، أي: شكله ومثله، واللمة أيضاً: الأسوة، واللامة ـ بالتشديد ـ: ما تخافه من مس أو فزع. والعين اللامة: التي تصيب الإنسان. وكان النبي عليه الصلاة والسلام يعوّذ الحسن والحسين فيقول: أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة. قال أبو عبيد في تفسير هذا الحديث: قوله لامّة ولم يقل ملمة، وأصلها من: ألممت إلماماً فأنا ملم. يقال ذلك للشيء: تأتيه وتلم به، وقد يكون هذا من غير وجه منها، أن لا يكون يريد من طريق الفعل ولكن يريد أنها ذات لمم. فتقول على هذه لامة، كما قال الشاعر:

كليني لهم يا أميمة ناصب

وإنما هو منصب فأراد أنه ذو نصب، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] واحدتها: لاقح على معنى أنها ذات لقح، ولو كان على معنى الفعل لكان: ملقح؛ لأنها تلقح السحاب والشجر. وقد روي عن عمر رضي الله عنه: لا أوتى بحالّ ولا محلّل له إلا رجمتهما إن كان محفوظاً. وهو من: أحللت المرأة لزوجها. وإنما الكلام أن يقال محل. وقد تقدم هذا في باب الحاء.

واللامة ـ بالتخفيف ـ: الدرع والسلاح، وجمعها: لوم على غير قياس، ويسمى السلاح أيضاً: الحلقة. وفي الحديث: نرهنك الحلقة؛ يعني السلاح، في قصة كعب بن الأشرف. وفي حديث آخر: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لأمته. وفي آخر الحديث: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل. وخرج ثابت أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وقد وضع اللأمة فقال: عذيرك من محارب. قال ثابت: نصبوا عذيرك على هلم معذرتك. ويقال: إياي من فلان، أي: من يعذرني من فلان. ويقال من اللأمة: استلأم الرجل، إذا لبس السلاح؛ فهو مستلئم، ومنه قول الشاعر:

إذا ركبوا الخيل واستلأموا البيت

بقي لام بين ميمين مثل: ملم اسم فاعل من: ألم، كما تقول: مكب من: أكب. وأما ميم بين لامين مثل: لَمل فمما لا أعرفه إلا أن أدخلت لام التأكيد على مل، أو لام الجر فتقول: لَمل اسم رجل، وقد تقدم الكلام في اللام في أول الكتاب.

وبقي الكلام في الميم: هي من الحروف المزلقة، مخرجها من بين الشفتين، وقد تقدم اجتماعها مع الباء أختها، وكيف تبدل إحداهما من الأخرى في مثل: مكة وبكة، على أحد القولين، وقولهم: با اسمك، يريدون: ما اسمك؟ والميم من حروف الزوائد تزاد في أول الكلمة مثل: مغفور، وليس في الكلام مثله إلا: مغرود؛ وهو الكمأة الصغار، ويقال فيه أيضاً: الغردة والغردة، والجمع: غراد. وأما المغفور: فهو صمغ العرفط، وهو شجر، والجمع: مغافير. ويقال: خرج القوم يتمغفرون؛ إذا خرجوا يجتنونه، وقد اغتفر العرفط: إذا كان ذلك به. ويقال أيضاً: المغفار والمغفير. ويقال: المغفار صمغ الإجاص. والميم في هذا كله زائدة. قال الزبيدي: كل ميم في أول كلمة على أربعة أحرف يقضى عليها بالزيادة حتى يأتي ثبت من اشتقاق أو بناء. ثم ذكر المحاسن والمذاكير وقال: لا واحد لهما على قياس الجمع. وقال ثابت في الدلائل: قالوا مفاقر: جمع فقر، كما قالوا: محاسن ومذاكير. وأنشد لإسماعيل الأسدي:

أفدت الغنى من بعد ستين حجة ... وقد أثرت في صفحتيك المفاقر
وكنت كأم البوّ تلحس متنه ... مضت حقب من دهرها وهي عاقر

وقالوا: أطايب الجزور؛ ومطايب. وقال ج: جمعوا الذكر ـ الذي هو العضو ـ: مذاكير على غير قياس، للفرق بينه وبين الذكر ـ الذي هو الفحل ـ جمعوا هذا على: ذكور، وذكران، وذكارة. وقال الأخفش: هو من الجمع الذي لا واحد له مثل: عباديد، وأبابيل. وذكر الحديد: خلاف الأنيث. وذكور البقل: ما غلظ منه، والى المرارة هو. هذه زيادة الميم في الأول كما تقدم.

وتزاد أيضاً في الآخر مثل قولهم: اللهم. ويجيء من لفظة ميم فعل مبني لما لم يسم فاعله. فتقول: ميم الرجل فهو موم: إذا أصابه الموم؛ وهو البرسام. قال ذو الرمة:

أو كان صاحب أرض أو به الموم

والأرض هنا الرعدة. ومنه قول ابن عباس رضي الله عنهما: أزلزلت الأرض أم بي أرض. والموم أيضاً: الشمع معرب. ومامة: اسم؛ ومنه كعب بن مامة. وقد تقدم أن العرب لم تكن تعرف شكل الحروف. وقال الأصمعي: سمعت غلاماً أعرابياً يقول لغلمة: قد أزقتم هذه الأوقة حتى جعلتموها كالميم، ثم أدخل منجمه؛ يعني: عقبه فيها، فنجنجه؛ يعني حركه؛ حتى أفهقها؛ يعني: وسعها. ومعنى أزقتم: ضيقتم. والأوقة: الحفرة. والمأزق: المضيق من مضايق الحرب.

رأيت في هذه الحكاية أنه سئل ذلك الغلام من أين تعرف الميم؟. فقال: لا أميزه لكن أعرف أنه شيء ضيق. أو كما قال هذا معناه.

خرجت من أم إلى ابن إلى ... بنت وإن لم يسك في ذين ميم
لكن هما فرعان عنها ومن ... ذا أتيا في بابها يا حميم
ثم انتهى القول إلى من به الـ ... ـموم فقل عنه إذا شئت ميم
وكله علم ويحتاجه ... من كان محتاجاً لعلم عميم
وبعد ذا آخذ في فائد الـ ... ـباب فيغدو بعد وهو التميم

فصل:

من فوائد الباب تقدّم: (أم) وذلك معلوم: والدة. قال الله تعالى: ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ ﴾ [القصص: ١٣] وتجمع على أمهات، قال الله تعالى: ﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢] وتجمع أيضاً: أمات. ويقال أيضاً في الأم: أمهة، قال الشاعر:

أمهتي خندف إلياس أبي

وهذا البيت لقصي وقبله:

أنـــي لـــدى الحـــرب رخـــيّ اللـــبب

وأم كل شيء: أصله. ومنه أم القرى يعني: مكة، شرفها الله تعالى لأن الأرض دحيت من تحتها. وقال البخاري: لأنها توسطت الأرض، ويجمع بين القولين. دحيت من تحتها وهي في وسطها. ويقال لها أيضاً: أم رحم؛ لأن الرحمة تنزل فيها. وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الزخرف: ٤] أصل الكتاب، يعني اللوح المحفوظ. وأم القرآن: فاتحة الكتاب، يعني سورة الحمد؛ لأنها يبتدأ بها في كل صلاة؛ قاله أبو عبيدة. وقال البخاري: سميت أم الكتاب لأنه يبتدأ بكتابتها في المصاحف وبقراءتها في الصلاة. وخرج الترمذي عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله: أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني. وتقدم أم الدماغ. وفي الحديث من هذا: وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن عمه أبي طالب وكان يحوطه ويحميه فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار تغلي منه أم دماغه. وتقدّم: أم مثواي.

وجاء منه في الحديث أن رجلاً قيل له: متى عهدك بالنساء؟. فقال: البارحة. قيل: بمن؟. فقال: بأم مثواي. فقيل له: أما علمت أن الله عز وجل قد حرم الزنا؟. فقال: والله ما علمت. فجيء به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: استحلفوه بين القبر والمنبر أنه ما علم؛ فإن حلف فخلوا سبيله.

قلت: كان هذا في أول الإسلام ومع جهل الأعراب، فأما اليوم فلا يعذر أحد في ذلك وإن ادعى الجهل.

وتقدّم: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة: ٩]. الهاوية: اسم من أسماء النار وهو الباب الأسفل من أبوابها السبعة، أعلاها: جهنم، ثم سقر، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم الجحيم، ثم الهاوية، نعوذ بالله من جميعها. ويجمعها كلها اسمان: جهنم والنار. ومعنى أمه: مسكنه؛ لأن الأصل في السكون إلى الأمهات.

وجاء في الحديث عن الحسن رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أرواحكم تعرض على عشائركم وقرابتكم من موتاكم، فإذا مات الميت استقبلوه كما يستقبل البشير، فيقولون: دعوه حتى يسكن ما به، فإنه قد كان في كرب وغم، فيسألوه عن الرجل؛ فإذا ذكر خيراً حمدوا الله واستبشروا وقالوا: اللهم سدد، وإذا ذكر شراً استغفروا الله، فإذا سألوه عن إنسان قد مات قبله. قال: إنه قد مات قبلي أما مر بكم؟!. فيقولون: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية، بئست الأم وبئست

المربية. فما يزالون يسألونه حتى يقولوا: هل تزوج فلان؟ هل تزوجت فلانة؟.

وتقدَّم: أمة؛ وذكر فيها زيد بن عمرو بن نفيل، وتقدَّم ذكره في باب الدال انظره أيها الولد عند ذكر من وأد. وقع في البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه: يبعث أمة وحده. وكان قد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه، وكانت له أخبار في خروجه من مكة يطلب الدين. وقال البخاري بسنده إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري. وقد تقدم كيف كان يحيي الموؤدة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها، وكان ينكر على قومه عبادة الأوثان، وحرم على نفسه كل شيء حرمه الله من الدم والذبيحة على النصب. ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله؟! إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه. وكان يقول: أنا على دين إبراهيم، وأنا ساجد نحو الكعبة التي بنى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فيسجد نحو الكعبة، وهو الذي يقول:

أسلمت نفسي لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذباً زلالا

في أبيات له. وكان ابنه سعيد بن زيد رضي الله عنه من كبار الصحابة، وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. وكانت أخته عاتكة بنت زيد تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد تقدم خبرها معه في خروجها إلى المسجد. وسأل سعيد بن زيد وعمر بن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيد بن عمرو: أنستغفر له يا رسول الله؟ فقال: نعم. فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

وممن قيل فيه أمة وحده: معاذ بن جبل. قال ابن مسعود رضي الله عنهما: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقال له بعض أصحابه: إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً. فقال: ما نسيت هل تدري ما الأمة وما القانت؟. فقلت له: الله أعلم. فقال: الأمة: الذي يعلم الخير، والقانت: المطيع لله عز وجل. وكان معاذ بن جبل يعلم الناس الخير، وكان مطيعاً لله ولرسوله. وقع هذا الخبر في الحلية.

وممن آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل المبعث ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنها. وهو الذي يقول:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... أنا النذير فلا يغرركم أحد

لا تعبدن إلهاً غير خالقكم فإن دعوكم فقولوا بيننا جدد
سبحان ذي العرش سبحاناً يدوم له وقبلها سبح الجوديّ والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له لا ينبغي أن يناوي ملكه أحد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويؤدى المال والولد

في أبيات له. وسئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لقد رأيته في المنام عليه ثياب بيض فقد أظن أنه لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض. ذكره الترمذي. وهو الذي قال لخديجة رضي الله عنها وقد سألته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّل ما جاءه جبريل عليه السلام وتفزع منه فقال: قدّوس قدّوس، والذي نفس ورقة بيده إن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة. واجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: إن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. قال المازري ـ رحمه الله ـ في كتاب المعلم: الناموس أي: رسول الخير. وقال أبو عبيد في مصنفه: الناموس: جبريل عليه السلام.

قال المطرز: قال ابن الأعرابي: لم يأت في الكلام فاعول لام الفعل منه سين إلا الناموس والجاسوس: وهو صاحب سر الشر، والجاروس: الكثير الأكل، والفاعوس ـ بالفاء ـ: الحية، والبابوس: الصغير الرضيع، والراموس: القبر، والقاموس: وسط البحر، والقابوس: الجميل الوجه، والفاطوس: دابة يتشاءم بها، والغاموس: الثمام، والجاموس: ضرب من البقر. وزاد غيره: الحاسوس ـ بالحاء غير معجمة ـ وهو بمعنى: الجاسوس.

قال المازري: ووقع في كتاب مسلم في حديث: إن هؤلاء الكلمات بلغن فاعوس البحر. انتهى كلامه.

وخرج ابن قتيبة في غريب الحديث في حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ وسئل عن المد

والجزر فقال: هو ملك موكل بقاموس البحر. فإذا وضع قدمه فاض، وإذا رفعها غاص. وقال ابن قتيبة: القاموس من البحر: وسطه ومعظمه؛ وهو فاعول؛ من القمس، والقمس: الغوص، والقلمس: البحر نفسه، وهو الرجاف أيضاً. انتهى كلامه. وفي الشعر:

حتى تغيب الشمس في الرجاف

سمي بذلك لرجفانه؛ وهو اضطرابه؛ والله أعلم.

وذكر البكري: أن جبل أبي قبيس الذي بمكة يقال له أيضاً: أبو قابوس. وفي رجال أبي داود: وهب بن جابوس بالباء والنون. وتقدّم في هذا الفصل البابوس:

الصغير الرضيع. ومنه قول جريج الراهب للطفل الذي ادعت أمه أنه زنى بها ـ وكانت بغياً من بغايا بني إسرائيل، وقد شاعت فيهم عبادة جريج وصلاته ـ فقالت لقومها: إن شئتم لأفتننه لكم، فجاءت إليه لتفتنه فتعرضت له، فأعرض عنها، فأمكنت نفسها من راعي غنم. كان يأوي إلى صومعة جريج فأحبلها، فلما وضعت قالت: هو من جريج، فجاء الناس إليه وأنزلوه من صومعته وهدموها وجعلوا يضربونه ويقولون له: زنيت بهذه المرأة وقد ولدت منك، فقال: دعوني أصلي، فصلى ثم دعا، ثم أتى الغلام فقال، يا غلام؛ أو يا بابوس؛ من أبوك؟. فقال: الراعي. فعلموا أن المرأة قد كذبت عليه، فأقبلوا يقبلونه ويعتذرون إليه وسألوه أن يبنوا صومعته من ذهب. فقال: ابنوها من طين كما كانت، ففعلوا، رضي الله عنه.

وتقدّم: ويلمه محش حرب. وفي باب لام ألف يأتي معنى: ويلمه إن شاء الله تعالى. وقال هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بصير؛ وكان أسلم بمكة؛ فحبسه أهله لئلا يهرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فانفلت منهم وفر إلى المدينة، فأرسل أهله في رده إليهم رجلين، فخرج معهما ليرداه إلى مكة، فقتل أحدهما في الطريق ورجع إلى المدينة، فحينئذ قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويلمه محش حرب لو كان معه رجال. والمحش: الذي يوقد النار، فلما سمع أبو بصير ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم وخشي أن يرسل أهله في شأنه فيرده أيضاً، خرج إلى العيص ـ وهو موضع بين مكة والمدينة ـ وسمع به كل من كان محبوساً بمكة ليفتن عن دينه، فجعلوا يأتون إليه بالعيص حتى اجتمع إليه ثلاثمائة، فكانوا يضيقون على قريش، ولا تمر بهم رفقة لأهل مكة إلا اقتطعوها، حتى كتبت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله أن يؤويهم، فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم باللحوق به إلى المدينة، فورد الكتاب وأبو بصير رضي الله عنه في الموت يجود بنفسه، فجعل يقرؤه ويسر به، حتى قبض والكتاب على صدره، رضي الله عنه. فبني عليه هناك مسجد، وكان كثيراً ما يقول هناك رضي الله عنه:

الله ربـــي العلـــيّ الأكبــــر   مـــن ينـــصر الله فـــسوف ينـــصر
ويقـــع الأمـــر علـــى مـــا يقـــدّر

وكان أبو بصير يصلي بأصحابه، فلما انفلت أبو جندل من أيدي المشركين ولحق بأبي بصير كان هو الإمام لأنه كان قرشياً، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: الأئمة من قريش.

واسم أبي جندل العاص بن سهيل، قتل هو وأبوه بالشأم في خلافة عمر بن

الخطاب رضي الله عنه، وتوفي أيضاً الحارث بن هشام مجاهداً رضي الله عنه. وتقدّم في هذا الخبر: الأئمة من قريش، فأذكرني ذلك أبياتاً أنشدنيها الحافظ السلفي بالإسكندرية لنفسه، وكان شافعي المذهب رضي الله عنه فقال:

إمامي الشافعي وحين أفتى ... بمذهبه المهذب طاب عيشي
وأني لا أبالي بانفرادي ... لقوة حجتي في ألف جيش
وقد قال النبي وصح عنه ... ألا أن الأئمة من قريش

قلت: ما أبرك العلم وأنفعه وأيسره وأوسعه، كنت أقرأ على هذا العالم رحمه الله، وكان يقرأ في مسكنه بأعلى المدرسة ولم تمكني صلاة خلفه قط. فكنت أجد في نفسي من ذلك، فلما كان ذات يوم قال لنا: إن فلاناً من أصحابنا بلغني أنه توفي بمصر فهلم فلنصل عليه هاهنا، فقام وصلينا وراءه فسررت بصلاتي خلفه لفضله ودينه. وهذا مذهب الشافعي رضي الله عنه في الصلاة على الغائب، وحجته صلاة النبي صلى الله عليه وسلم على النجاشي، وهو في بلاد الحبشة والنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة.

وتقدّم ذكر آمين، وأنه من أسماء الله تعالى وجاء في فضله قوله عليه الصلاة والسلام: إذا قال أحدكم في الصلاة آمين وقالت الملائكة في السماء آمين، فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر. وقيل في قول أبي هريرة رضي الله عنه: من فاته قراءة أم القرآن فقد فاته خير كثير. يعني بذلك قول آمين لما فيها من الفضل. وفي فضلها قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما حسدكم اليهود على شيء ما حسدوكم على آمين والسلام. وسمع أحد العلماء من الفضلاء قبل أن يكبر يقول:

يا رب لا تسلبني حبها أبداً ... ويرحم الله عبداً قال آمينا

فلما فرغ من الصلاة قيل له: ببيت غزل تفتتح صلاتك؟ فقال: والله ما عنيت إلا حب الصلاة. رضي الله عنه.

وتقدّم قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، خرج الترمذي عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: نزلت فينا معشر الأنصار وكنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، وكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط من البسر والتمر فيأكل. وكان أناس ممن لا يرغب في الخير يأتي لرجل منهم بالقنو فيه الشيص والحشف وبالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة:

٢٦٧]، قال: ولو أن أحدكم أهدى إليه مثل ما أعطاه لم يأخذه إلا على إغماض وحياء. قال: فكنا بعد ذلك يأتي الرجل بصالح ما عنده.

قلت: هؤلاء كانوا يتلون القرآن حق تلاوته، فسره ابن سلام. قال قتادة: هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، آمنوا بكتاب الله، فأحلوا حلاله، واجتنبوا حرامه، وعملوا بما فيه، كما فعل هؤلاء الذين كانوا يأتون بصالح ما عندهم بعد نزول الآية.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الحشر: ٩] وقد تقدم من فعل ذلك، ومثله: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] وقد تقدم أيضاً من ذلك فعل مثل أبي طلحة الذي تصدّق بحائط بيرحاء، ومثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعتق زينب جاريته لما كان يحبها، وكان بعضهم يتصدّق بالسكر ويقول إني أحبه ويتلو الآية.

قلت: ذهب الصالحون إنا لله وإنا إليه راجعون، وانظروا ما في ضمن هذه الآية ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ١٢١]، إن قلت: إن تلاه يتلوه؛ معناه: قرأه، نقل لك: وتلاه يتلوه أيضاً معناه: اتبعه ومشى على أثره. وقد تقدم هذا المعنى في قافية باب الباء. وقولهم: ناقة متلية، أي: يتبعها أولادها. كذلك كان القوم الذين مضوا، تلوا فتلوا، كما تقول: قرؤوا فقروا كذلك: اتبعوا فانتفعوا.

وأما نحن اليوم فإن أفضل القوم من اتخذ قراءته عملاً، ولم يكن أولئك كذلك، إنّما كانوا يعلمون ويعملون. وقال الجنيد رضي الله عنه: لا تطلب الفضائل من باب الجود، اطلبها من طريق بذل المجهود. وأعلى من هذا المقام من كان يعمل لا لحظ خلق، وأول الخلق النفس فلا يعمل لأجل ما يعود عليها من حظها لا لطلب جنة ولا لنجاة من نار، بل يعمل لأجل التعظيم والإجلال، كما قالت رابعة رضي الله عنها: أرأيت لو لم يخلق جنة ولا ناراً أما كان أهلاً أن يطاع.

هذا مقام ليس عندنا منه رائحة، ولا لاحت علينا منه لائحة، فحسبنا الله. وما التوفيق إلا من عند الله. نسأل الله التوفيق وسلوك ذلك الطريق واتباع أولئك الفريق.

ومن لفظ تيمم البيت الذي تقدّم الذي هو:

تـــيممت العـــين التـــي عـــند ضـــارج

وهو جبل معروف. يفيء عليه الظل. عرمضها طامي. العرمض: نبات أخضر يعلو الماء. ألا تراه يقول: طامي، أي: مرتفع. ويقال له أيضاً: ثور الماء، ولهذا البيت خبر عجيب:

ذكر البكري أن ركباً من اليمن خرجوا يريدون رسول الله صلى الله عليه وسلم،

فأصابهم ظمأ شديد كاد يقطع أعناقهم، فلما أتوا ضارجاً ذكر أحدهم قول امرئ القيس:

ولمـــا رأت أن الـــشريعة همهـــا وأن البـياض مــن فرائـصها دامــي

تـيممت العـيـن التـي عـند ضــارج

البيت. فقال أحدهم: والله ما وصف امرؤ القيس شيئاً إلا على حقيقة وعلم فالتمسوا الماء فهذا ضارج، وكان ذلك وقت الظهيرة، فمشوا على فيء الجبل حتى عثروا على العين، فسقوا واستقوا. فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله لولا بيتان لامرئ القيس لهلكنا، وأنشدوه إياهما. فقال: ذاك نبيه الذكر في الدنيا خامله في الآخرة، كأني أنظر إليه يوم القيامة بيده لواء الشعراء إلى النار. نعوذ بالله من النار.

وتقدّم: آمت المرأة وتأيمت؛ جاء منه في الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي؛ وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شهد بدراً؛ فتوفي بالمدينة، قال عمر: فلقيت عثمان فعرضت عليه حفصة فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر فقال: سأنظر في أمري. فلبثت أياماً ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا. قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق فقلت له: إن شئت أنكحتك حفصة. فصمت أبو بكر ولم يرجع إلي شيئاً. فكنت عليه أوجد مني على عثمان، فلبثنا ليالي ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة فلم أرجع إليك. قلت: نعم. قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أني قد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو تركها لقبلتها.

وتقدّم في البيت: (وإن تخاطبك تبلت) وذلك لفرط الحياء، والحياء ممدود من الاستحياء وكذلك حياء الناقة: فرجها، والحيا، مقصور: المطر والخصب، ومن الحياء المحمود الممدوح في النساء ما ذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وذكر قول الله تعالى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [القصص: ٢٥] قال: قابلة بكمها على وجهها، ليست بسلفع من النساء خراجة ولاجة. خرجه ثابت. وقال يقال: رجل سلفع وهو الجريء الجسور. وامرأة سلفع، الذكر والأنثى فيه سواء، وهي من النساء السليطة. وقالت عائشة رضي الله عنها: نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين. ولذلك قالوا: لا يتعلم العلم مستحي ولا متكبر.

وأذكر عثمان رضي الله عنه وشدة حيائه، وقد تقدم أنه كان يكون في البيت

والباب عليه مغلق فما يضع عنه الثوب ليفيض عليه الماء يمنعه الحياء أن يقيم صلبه. ومثله قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: إني لأغتسل في البيت المظلم فما أقيم صلبي حتى آخذ ثيابي حياء من ربي. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته: يا معشر المسلمين استحيوا من الله فوالذي نفسي بيده إني لأظل فما أذهب إلى الغائط في الفضاء إلا وأنا مقنع بثوبي استحياء من ربي. انظر قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكثرة استحيائه، واذكر قول بعض الأعراب وقلة حيائه

وكان يسرق الإبل من أربابها، ويأتي البيوت من غير أبوابها، فلكثرة لصوصيته وقلة خصوصيته كان يطوف والحبل في يده وينشد في تردده:

وإنـي لأستحيي مـن الله أن أرى أطـوف بحـبل لـيس فـيه بعيـر
وأن أسـأل المـرء اللئيم بعيـره وبعـران ربـي فـي الـبلاد كثيـر

أتراك يا ابن الماء لو أقسمت بأعظم الأسماء أن بينهما ما بين الأرض والسماء؛ أكنت حانثاً عند العلماء أو الحكماء. رضي الله عن أبي بكر الكثير الحياء والستر، وتاب على ذي المكر أخي الخيانة والختر.

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه. وفي حديث آخر: الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء والجفاء في النار. وفي حديث آخر: لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء، فمن لا حياء له لا دين له. وفي رقائق ابن المبارك رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلكم يحب أن يدخل الجنة. قالوا: نعم جعلنا الله فداك. قال: فاقصروا من الأمل، وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء. قالوا: يا رسول الله كلنا نستحيي من الله. قال: ليس كذلك الحياء من الله، ولكن هو أن لا تنسوا المقابر والبلا، ولا تنسوا الجوف وما وعى، ولا تنسوا الرأس وما احتوى، ومن يشته كرامة الآخرة يدع زينة الدنيا، هنالك استحيا العبد من ربه، هنالك أصاب ولاية الله.

كما جاء في الحديث: الحياء شعبة من الإيمان. وقال ابن قتيبة: إنما جعله من الإيمان وهو غريزة لأن المستحي ينقطع بالحياء عن المعاصي وإن لم تكن له تقية، فصار كالإيمان الذي يقطع عنها. وسأل رجل الحسن فقال: يأتيني الرجل وأنا أمقته ما أعطيه إلا حياء فهل لي في ذلك من أجر؟. قال: إن ذلك من المعروف، وإن في المعروف لأجراً. وفي الشهاب: إذا لم تستح فاصنع ما شئت. بمعنى: أتيت ما يقبح ولم تستح.

والوجه الآخر يكون على وجه الوعيد، كقول الله عز وجل: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت: ٤٠]، وكما قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ ﴾ [الإسراء: ٦٤]، وكقول النبي صلى الله عليه وسلم: من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار.

وفيه وجه ثالث أن يكون بمعنى الأمر كأنه قال: اصنع ما شئت من الأمر الذي لا تستحي منه، وما تستحي منه فلا تفعله.

وفيه وجه رابع؛ الرجل يريد فعل الخير فيردعه الحياء من الناس كأنه يخاف مذهب الرياء فقال: لا يمنعك الحياء أن تمضي لما أردت. كما جاء في الحديث: إذا جاءك الشيطان وأنت تصلي فقال: إنك مراء. فزدها طولاً.

وفيه وجه خامس؛ إنه على وجه الذم، بمعنى: من لا يستحي صنع ما شاء، على معنى الخبر. كما قال الشاعر:

إذا لـــم تخـــش عاقـــبة الليالـــي ولـــم تـــستحي فاصـــنع مـــا تـــشاء

وكما قال آخر:

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالقاً وتستحي مخلوقاً فما شئت فاصنع

ويقال: استحى واستحيى، وقال الشاعر:

أمـــا تـــستحي أن تـــرعوي أو تفكـــر

قال بعضهم: الحياء على وجوه: حياء الجناية؛ كآدم عليه السلام لما قيل له: أفراراً منا يا آدم؟. قال: بل حياء منك. وحياء التقصير؛ كالملائكة يقولون: ما عبدناك حق عبادتك. وحياء الإجلال؛ كحياء إسرافيل عليه السلام تسربل بجناحه حياء من الله تعالى. وحياء الكرم؛ كالنبي عليه الصلاة والسلام كان يستحي من أمته من أن يقول اخرجوا، فقال تعالى: ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وحياء خشية؛ كعليّ رضي الله عنه حين سأل المقداد حتى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حكم المذي لمكان فاطمة رضي الله عنها منه. وحياء استحقار، كموسى عليه السلام قال: إنه لتعرض إليّ الحاجة من الدنيا فأستحي أن أسألكها يا رب. فقال الله تعالى: اسألني عن ملح عجينك وعلف شاتك. وحياء الإنعام؛ وهو حياء الرب سبحانه، يدفع إلى عبده كتاباً مختوماً بعد ما عبر الصراط، فإذا فيه: فعلت ما فعلت واستحييت أن أظهره عليك، فاذهب فإني قد غفرت لك.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول في هذا الخبر أن يحيى بن معاذ قال: سبحان من يذنب العبد فيستحي هو. وفي بعض الكتب: ما أنصفني عبدي! يدعوني فأستحي أن أرده، ويعصيني ولا يستحي مني. وقال يحيى بن معاذ: من استحى من الله مطيعاً استحى الله منه وهو مذنب.

وقال الأستاذ: واعلم أن الحياء يوجب التذويب، فيقال: الحياء ذوبان الحشى لاطلاع المولى. ويقال: الحياء انقباض القلب لاطلاع الرب. وقيل: إذا جلس الرجل ليعظ الناس ناداه ملكاه: عظ نفسك بما تعظ به أخاك، وإلا فاستحي من سيدك فإنه يراك. وسئل الجنيد عن الحياء فقال: رؤية الآلاء ورؤية التقصير، فيتولد من بينهما حالة تسمى الحياء.

وتقدّم: استأميت الأمة: استخدمتها. ومنه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من بني مدلج كانت له أمة جارية فأصاب منها ابناً، فلما شب قال لأبيه: حتى متى تستأمي أمي، فحذفه بالسيف فمات. فقال له عمر رضي الله عنه: لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يقاد الأب بابنه لقتلتك، لكن هلم ديته، فقسمها على ورثته وترك أباه. خرجه ثابت رحمه الله.

وتقدّم قول ابن هريرة: نمت نومة الأمة. كان خالد بن عبد الله قد سجن إبراهيم بن هبيرة فأمر ابن هبيرة غلمانه فحفروا له تحت الأرض، حتى خرج الحفر تحت سرير من السجن، ثم خرج ليلاً وقد أعدّت له أفراس تداولها، حتى أتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به فأجاره، فلما لقيه خالد قال له: أبقت إباق العبد. فقال له ابن هبيرة: حين نمت نومة الأمة. وفي ابن هبيرة وصنيعه ذلك يقول الفرزدق:

ولما رأيت الأرض قد سد ظهرها ... ولم يبق إلا بطنها لك مخرجا
خرجت ولم تمنن عليك شفاعة ... سوى ربة التقريب من نسل أعوجا
أغر من الحوّ اللهماهيم إذ جرى ... جرى جري محبوك القرى غير ألحجا
فأصبحت تَحت الأرض قد سرت سيرة ... وما سار سارٍ مثلها حين أدلجا

ويروى قد سرت ليلة.

وله يقول ابن هبيرة: ما رأيت أشرف من الفرزدق، هجاني أميراً ومدحني أسيراً.

قلت: لقد بر ابن هبيرة وصدق فيما ذكر من شرف الفرزدق. وإذ وقع ذكره فدونك حكاية يتبين فيها شرفه وفخره:

حج هشام بن عبد الملك في خلافة أبيه عبد الملك بن مروان، فلما طاف بالبيت وأتى الحجر زاحمه الناس، فجعله رجال أهل الشأم على سرير فحملوه على أعناقهم،

فبينما هم يطوفون به إذ دخل على باب المسجد شاب وعليه مئزر وإزار، وفي جبهته كأنها ركبة عنز، كأنها الشمس تطلع من بين حاجبيه، فبدأ بالطواف، فلما أتى الحجر فرج له الناس عنه هيبة له وإجلالاً، فأغاظ ذلك هشام بن عبد الملك غيظاً شديداً، فقالوا له: من هذا يا ابن أمير المؤمنين؟. فقال لهم: لا أعرفه، لئلا يفتن به رجال أهل الشأم، وكان الفرزدق بالحضرة فقال: أنا أعرفه يا ابن أمير المؤمنين، قال له: فقل: فأنشأ الفرزدق يقول:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
ينمى إلى ذروة المجد التي قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يُمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
بكفه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع في عرنينه شمم
يغضي حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم
ينجاب ثوب الدجى عن نور غرته ... كالشمس ينجاب عن أقطارها القتم
مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت عناصره والخيم والشيم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا
هذا سليل حسين وابن فاطمة ... بنت الرسول الذي انجابت به الظلم
وليس قولك لا أدري بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
الله فضله قدماً وشرفه ... جرى بذاك له في لوحه القلم
من جده أن أفضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت له الأمم
عم البرية في الإحسان فانقشعت ... عنها الغيابة والإملاق والظلم
كلتا يديه جميعاً عم نفعهما ... يستوكفان فلا يعروهما العدم
لا يخلف الوعد ميمون نقيبته ... رحب الفناء أريب حين يعتزم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره ... يزينه خلتان الحلم والكرم
حمال أثقال أقوام إذا ترحوا ... حلو الشمائل تحلو عنده نعم
من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم
يستدفع الضر والبلوى بحبهم ... ويستدام به الإحسان والنعم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم ... في كل أمر ومختوم به الكلم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

لا يستطيع جواد بعد غايتهم ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت والأسد أسد الشرى والبأس محتدم
لا ينقص العسر بسطاً من أكفهم سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا
يأبى لهم أن يحل الضيم ساحتهم خير كريم وأيد بالندى خضم
أي الخلائق ليست في رقابهم لأوّلية هذا منهم نعم
من يعرف الله يعرف أوّلية ذا والدين من بيت هذا ناله الأمم

قال: فأغاظ ذلك هشام بن عبد الملك غيظاً شديداً، فأمر به إلى السجن فسجن بعسفان. فبلغ ذلك عليّ بن الحسين، فبعث إليه بأربعة آلاف درهم، فردّها الفرزدق، وكتب إليه: إنما مدحتك بما أنت أهله. فردّها ابن الحسين وكتب إليه: أن خذها وتعاون بها على دهرك، فإني من أهل بيت لا يحل لي أن أرجع فيما وهبت.

هذا الشعر أرويه عن الحافظ السلفي رحمه الله فيما أذن لي فيه بسنده إلى أبي عبيد الله ابن محمد بن عائشة. وفي بعض ألفاظ خبره زيادة ونقصان، وفيه: فبعث إليه عليّ بن الحسين رضي الله عنهما باثني عشر ألف درهم وقال: اعذرنا يا أبا فراس فلو كان عندنا أكثر من هذا لوصلناك بها، فقبلها، وجعل يهجو هشاماً وهو في الحبس، فبعث فأخرجه.

وتقدّم ذكر الماء الذي به حياة الأشياء، وها أنا أسوق لك فيه فصلاً جزلاً، فدونك فاكرع في حياضه، وارتع في رياضه. قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وسيأتي تفسير هذه الآية.

وعدّد الله تعالى نعمة الماء علينا في القرآن في غير موضع نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ [المؤمنون: ١٨]، ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ﴾ [النبأ: ١٤]، ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ [النحل: ٦٥]، وقال: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٨]، ولعلك أيها الولد لا تعرف للماء قدراً إلا أنك متى عطشت شربت، كما أنك إذا جعت أكلت، كذلك في الدنيا تعيش البهائم.

اللهم صل على سيدنا محمد خاتم النبيين، الذي علمنا كل شيء حتى شرب الماء. نهى أن يعب عباً، وأمر أن يمص مصاً، وأن يشرب الماء في ثلاثة أنفاس، وقال: هو أهنأ وأمرأ وأبرأ، ونهى عن الشرب قائماً، وعن الشرب بالشمال، وعن الشرب من ثلمة القدح، ومن عروته، ولا ينفخ في الشراب، ولا يشرب في آنية الذهب والفضة، وأمر أن يسمي الله في أوله، ويحمده في آخره، ونهى عن الكرع. قال ابن عمر رضي الله

عنهما: مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بركة، فجعلنا نكرع فيها، فقال: لا تكرعوا ولكن، اغسلوا أيديكم واشربوا فيها، فإنه ليس من إناء أطيب من اليد. وتقدّم هذا الحديث، وأخبرتك أنه معلول من قبل السند، وقلت لك: وإن كان معلولاً فترك ذلك أجود. وتقدّم معنى الكرع، وأنه مشتق من الأكارع التي للدواب، كأنه يدخل في الماء برجليه ويشرب بفيه، كما تفعل الدابة ذات الأكارع، والله أعلم.

وقد ذكر أبو طالب في كتاب قوت القلوب ما يحتاج إليه الشارب للماء من أدب وسنّة واستحباب، فبلغها خمس عشرة خصلة. وأما في الأكل وما يحتاج إليه من الآداب والفرائض والسنن والاستحباب والظرف والمروءة والكراهية، وطرائق السلف وأخلاق ذوي الألباب، فجمع فيها مائة وسبعين خصلة. فأول ما عدّ من الفرائض: أن يكون المأكول حلالاً، وينوي بالأكل التقوّي على الطاعة. قلت: وكذلك يسمي الله في أوله ويحمده في آخره، كما تقدم في الشرب. وينوي التقوّي به على العبادة، ويتحرى فيه الحلال كالطعام ولا فرق.

ومن أعم ما روي في الحمد على ذلك ما خرج مالك في الموطأ عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: لا يؤتى أحد بطعام أو شراب حتى الدواء فيطعمه أو يشربه حتى يقول الحمد لله الذي هدانا وأطعمنا وسقانا، اللهم ألفينا نعمتك بكل خير، فأصبحنا منها وأمسينا بكل خير، نسألك تمامها وشكرها، لا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك إله الصالحين ورب العالمين، الحمد لله ولا إله إلا الله، ما شاء الله، ولا قوة إلا بالله، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا، وقنا عذاب النار.

وأذكر لك هنا من بعض فوائده. حكي أنه لما وفد الحارث بن كلدة ـ طبيب العرب ـ على كسرى سأله عن شرب الماء، فقال: هو حياة البدن، وبه قوة تنفع، فاشرب منه بقدر، وشربه بعد النوم ضرر، وأفضل المياه مياه الأنهار الجارية العظام، وأبرده وأصفاه. قال: فما طعمه؟. قال: شيء لا يوصف، مشتق من الحياة. قال: فما لونه؟. قال: اشتبه على الأبصار، لأنه يحكي لون كل شيء يكون فيه.

وقال بعضهم: لا لون له وإنما يتلون بلون الآنية التي يجعل فيها، كما تقدم وقال المعري:

ولا لـــون للمـــاء فـــيما يقـــال ... ولكـــن تلـــونه بالأوانـــي

وقال غيره: لونه البياض. واحتج بأنه إذا جمد ابيض. وقال ابن السيد: وهذه مسألة فيها نظر.

قلت: وفي الماء بركة كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ [ق: ٩]

وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: إذا كان يوم صوم أحدكم فليفطر على ماء فإنه بركة ولا يتمضمض ثم يمجه، ولكن ليشربه فإن أوّله خير. وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفطر من صيام دعا بماء فشرب ثم قال: الحمد لله، ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله. ويقال: كثرة النوم من كثرة شرب الماء. ولذلك كان بعض الصوفية إذا اجتمعوا يقول قائلهم: لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتخسروا كثيراً.

ويحكى أن أحد المنانين كان إذا أضاف قوماً سألهم إذا أصبحوا فقال لهم: كيف كان شربكم للماء البارحة؟ فقالوا له: شربنا كثيراً. فقال لهم: إن التراب الكثير لا يبله إلا الماء الكثير. فلما كان يوم آخر سألهم كذلك، فقالوا: ما شربنا شيئاً. فقال: ما تركتم للماء مساغاً. وقالت الحكماء: الماء كله واحد، وإنما تغيره الأرض، فمنه الخفيف والثقيل والعذب والملح والزعاف والسخن والبارد، حكمة من اللطيف الخبير. وقال الشاعر:

وأول خـــبث المـــاء خـــبث تـــرابه

وقد تقدم.

وقالوا في الماء: هو أعز مفقود، وأهون موجود. دخل الشعبي على مسلم بن قتيبة فقال له: ما تشتهي؟. فقال: يا شعبي أعز مفقود وأهون موجود. فقال: يا غلام اسقه الماء.

تقدّم أن الماء حياة كل شيء على ما في الآية. وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في القارورة التي أرسل بها قيصر إلى معاوية رضي الله عنه، وأمره أن يملأها من بذر كل شيء. فقال ابن عباس: املأها ماء. قيل لابن عباس من أين أخذت ذلك؟. قال: من قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] الآية. وقد كان كتب قيصر إلى معاوية كتاباً يسأله فيه عن أشياء. قال له: أخبرني عن ما لا قبلة له، وعن من لا أب له، وعن من لا عشيرة له وعن من سار به قبره، وعن ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم، وعن شيء، ونصف شيء، ولاشيء، وابعث إليّ في هذه القارورة ببذر كل شيء. فبعث معاوية بالقارورة والكتاب إلى ابن عباس، فقال: أما ما لا قبلة له فالكعبة. وأما من لا أب له فعيسى. وأما ما لا عشيرة له فآدم. وأما من سار به قبره فيونس عليه السلام. وأما ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم: فكبش إسماعيل، وناقة ثمود، وحية موسى. وأما شيء فالرجل له عقل يعمل بعقله. وأما نصف الشيء فالرجل ليس له عقل ويعمل برأي ذوي العقول. وأما لا شيء فالذي ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل

غيره. وملأ القارورة ماء فقال: هذا بذر كل شيء. فبعث ذلك معاوية إلى قيصر. فلما وصل إليه الكتاب والقارورة قال: ما خرج هذا إلا من بيت النبوة. وفي رواية أنه قال لما وصل إليه ذلك: لله أبوه ما أدهاه. كذا رأيت هذا الخبر في كتاب وعلقته منه.

وقع في كتاب آخر ولي فيه رواية عن شيخي أبي الطاهر السلفي رحمه الله فيما أذن لي فيه قال: قرئ على أبي حفص عمر بن الحسين بن محمد بن سليم المعلم بأصبهان، في شعبان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة قال: أخبرنا عليّ بن محمد بن مهروية، حدثنا محمد بن مازن، أخبرنا محمد بن ادريس، حدثنا أبو محمد المنقري، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، حدثنا علي ابن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: كتب قيصر إلى معاوية: سلام عليك أما بعد، فأنبئني بأحب كلمة إلى الله، والثانية والثالثة والرابعة والخامسة، وبأكرم عباده عليه، وبأكرم إمائه عليه، وبمكان لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة، وبقبر يسير بصاحبه، وبأربعة أشياء فيها الروح لم يركبوا في رحم، وقوس قزح ما أمره، والمجرة ما موضعها من السماء. فلما قرأ معاوية كتابه قال: ما له لعنه الله! وما يدريني ما هذا. قال: فكتب إليّ يسألني فقلت له: إن أحب كلمة إلى الله عز وجل: لا إله إلا الله لا يقبل عملاً إلا بها، والثانية: المنجية؛ سبحان الله، والثالثة: الحمد لله؛ كلمة الشكر، والرابعة: الله أكبر؛ فواتح الصلاة والركوع والسجود، والخامسة: لا حول ولا قوة إلا بالله. فأما: لا إله إلا الله؛ إذا قالها العبد يقول الله تعالى: أخلص عبدي، وإذا قال: سبحان الله، يقول: عبدي عبدني، وإذا قال الحمد لله، قال: شكرني عبدي، وإذا قال: الله أكبر، قال: صدق عبدي فأنا أكبر، وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: ألقى إليّ عبدي بالسلام. وأما أكرم عباده عليه فآدم عليه السلام، خلقه بيده، وعلمه الأسماء كلها. وأما أكرم إمائه عليه فمريم عليها السلام، التي أحصنت فرجها. وأما الأربعة التي فيها الروح ولم يركبوا في رحم: فآدم، وحواء، وعصا موسى حين ألقاها فكانت ثعباناً مبيناً، وكبش إسحاق الذي ذبح عنه. وأما المجرة فباب من أبواب السماء. وأما قوس قزح فإنه أمان من الغرق من بعد قوم نوح. وأما مكان لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة فالبحر حين انفلق على بني إسرائيل. وأما القبر الذي يسير بصاحبه فبطن الحوت كان فيه يونس عليه السلام. فكتب بذلك. فلما قرأ قيصر كتابه قال: والله ما كنت تعلمها ولا علمتها إلا من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم.

قلت: ومن معنى الآية المتقدمة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] صدق الله كل شيء من الماء حتى النار. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم

﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠] فالنار من الشجر، والشجر من الماء. تقول العرب: في كل الشجر نار، واستمجد المرخ والعفار، أي: كثر في هذين النوعين من الشجر، لأنهما رخوان كالكلخ عندنا يحك بعضه ببعض، فتخرج بينهما النار بقدرة الله تعالى. وفيهما الرطوبة التي هي ضرب من الماء. كذا فسره المهدوي رحمه الله.

وفي هذه المسألة أخطأ إبليس لعنه الله بقياسه الفاسد. قال الله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢] يعني آدم عليه السلام، ولم يعلم اللعين أن آدم إن كان نقل من الطين مرة؛ فقد نقل اللعين مرتين، لأن النار من الشجر والشجر من الطين. وهذا الخبر وقع في خبر طويل، يروى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه قال: حججت في السنة التي حج فيها أبو حنيفة رضي الله عنه إلى مكة، فكنا في الطريق حتى أتينا المدينة، فلما صرت إلى المدينة قال لي أبو حنيفة: أحب أن أدخل إلى هذا الرجل فأسلم عليه؛ يريد جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وأسأله وأخاف أن لا يأذن لي. قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: فقلت له: أخلق به إن علم بمكانك أن لا يأذن لك، ولكن كن معي فإن أذن لي دخلت معي. قال: فمضينا إلى بابه، فقلت لغلامه: اقرئه السلام وقل له: عبد الرحمن بن أبي ليلى ورجل من أهل الكوفة، قال: فرجع إلينا بالإذن، فدخلنا عليه فرحب بنا وقرب حتى إذا اطمأننا أقبل عليّ فقال: من هذا الرجل؟. فقلت: بأبي أنت وأمي هذا أبو حنيفة فقيه أهل الكوفة. قال: فأقبل عليه فقال: أنت النعمان بن ثابت؟. قال: نعم بأبي أنت وأمي. قال: أنت الذي تقيس الدين برأيك؟. قال: بأبي أنت وأمي إنما أقول ذلك في النازلة أو الحادثة تحدث ليس لها في كتاب الله تعالى خبر، ولا في سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في إجماع المسلمين، ولا في الخبر المتصل حجة، فإذا كان ذلك نظرنا إلى أشبه الأشياء بها فقسناها عليه. قال فتبسم ثم قال: ويحك يا نعمان ما لم يكن له في كتاب الله ولا في سنّة رسول الله ولا في إجماع المسلمين ولا في الخبر المتصل حجة فقد زال عنك حكمه، ووضع عنك فرضه، فلم تتكلف ما لم تؤمر؟ ويحك يا نعمان إياك والقياس، فإن أهل القياس لا يزالون في القياس حتى يهلكوا. إن أول من قاس إبليس، أمره الله بالسجود لآدم فتكبر وتجبر و﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢] والنار لا تسجد للطين، فقاس فأخطأ، فلعنه الله وأبلسه، وآدم من طين غير منقول، من صلصال كالفخار، من حمأ مسنون، وإبليس اللعين من نار الأشجار، من نار السموم، فالأشجار من طين، فهو من طين منقول، فقاس فأخطأ. ويحك يا نعمان أيّما أوكد عند الله عز

وجل الصلاة أم الصيام؟. قال: الصلاة بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله. قال: فلمَ أمر الله الحائض أن تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة، وهذا أوكد من هذا؟. قال: لا علم لي. قال: صدقت، قال: فأيّما أعظم عند الله القتل أم الزنا؟. قال: القتل بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله. قال: فلمَ أمر الله في القتل بشاهدين وفي الزنا بأربعة، وهو أوكد من هذا؟. قال: لا علم لي. قال: صدقت! ويحك يا نعمان أيّما أنجس البول أم المني؟. قال: البول جعلني الله فداك. قال: فلمَ أمر الله في البول بالاستنجاء وفي المني بالغسل وهذا أنجس من هذا؟ قال: لا علم لي. قال: صدقت. أفتدري يا نعمان لمَ جعل الله المرارة في الأذنين والملوحة في العينين والرطوبة في المنخرين والحلاوة في اللسان والشفتين، وجعل بطن الراحة لا شعر فيها؟. قال: فقلت لا علم لي بأبي أنت وأمي. قال فقال: أنت لا تعلم ما فرض الله عليك فيما سألتك ولا لمَ جعل ما جعل فيما سألتك فلمَ تتخطى إلى ما لا تعلم حتى تصيّر لله حكماً ليس في كتابه ولا سنّة نبيه صلى الله عليه وسلم؟.

قال أبو حنيفة: فأقبلت على ابن أبي ليلى من حيث أظن أنه لا يسمع، فقلت له: فسله عما سألني عنه. فأقبل عليه أبي ليلى فقال: يا ابن رسول الله فأخبرنا بجواب ما سألت عنه. فقال أبو عبد الله: نعم إن الله عز وجل فرض على الحائض أن تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة لأن الصوم لها شهر في سنتها فأحب أن يتم لها شهرها بقضائه، وهي تصلي في كل يوم سبع عشرة ركعة مع نوافلها فهي تأتي على النوافل ما يتم به الفرض. وحكم في القتل بشاهدين وفي الزنا بأربعة لأن القتل فعل واحد فحكم به بشاهدين والزنى فعلان من فاعلين فحكم لكل واحد بشاهدين. والبول يخرج من المثانة لا غير فأمر فيه بالاستنجاء والمني يخرج من بين الصلب والترائب فأمر الله فيه بالغسل ليطهر له بدنه. قال ابن أبي ليلى: قال لي أبو حنيفة: من حيث يظن أنه لا يسمع، أتراه قال هذا قياساً؟ فقلت له: فقال لي: لا، ولكن أخبرني به أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فسألته عن تفسير ما وصف في الرأس؟ فقال: إن الله عز وجل جعل المرارة في الأذنين لأنهما ثقبتان متصلتان بالدماغ والرأس فتؤدّيان ما وصل إليهما إلى القلب فجعل فيهما المرارة تمنع منهما الهوام أن تصل إليهما، وجعل الملوحة في العينين لأنهما شحمتان فشدّهما بالملوحة أن تذوبا، وجعل الرطوبة في المنخرين ليميز بهما الروائح الطيبة وغير الطيبة، ولو كان المنخران يابسين لكان حكمهما حكم البدن لا يجد لرائحة شماً، وجعل الحلاوة في اللسان والشفتين ليجد طعم الحلو من المرّ وما يستعذبه وما يكرهه، وجعل باطن الكف لا ينبت فيه شعر لأنه

باب من أبواب المصالح من ملامسته للخشن واللين ومصافحته للناس، فلو كان فيهما شعر ما وجد مس ما يلامس.

وجاء عن عليّ رضي الله عنه في بطلان القياس أنه قال: لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح على ظاهر خفيه.

وذكر ثابت في الدلائل حكاية في بطلان القياس أيضاً، وإن كانت لغوية فهي بيضاء. قال: من حديث الزهري أنه حدث بحديث في سنة، قال: وأقبل على الراوي وقال: ذهب القواس وانكسر آخر الدهر. وفسره قال: القواس يعني القياس، وأخرجه بالواو لأن القياس تنقلب ياؤه في بعض التصريف واواً. يقال للحبل الذي يمد على صدور الخيل عند الرهان لتدفع عن سواء: مقوس وأنشد:

إن البلاء لدى المقاوس مخرج ... ما كان من عيب ورجم ظنون

يقول: فما كان عند الفرس فسيظهر حينئذ، وإنّما هذا مثل ما تقول: التجربة تخرج ما عند الإنسان من خير وشر. قال يعقوب: قسته وقسته قيساً وقوساً. وقال غيره: ولا تقول أقسته، ويقال: قايست فلاناً إذا جاريته في القياس، وهو يقيس الشيء بغيره، أي: يقيسه به، ويقتاس بأبيه اقتياساً، أي: يسلك سبيله. والقوس بالكسر: وعاء القوس، والقوس التي يرمى عنها تذكر وتؤنث، فمن أنث قال في التصغير: قويسة، ومن ذكر قال: قويس. وفي المثل: هو من خير قويس سهماً. والجمع: قسي وأقواس وقياس، قال الشاعر:

ودنـــــروا الأوتـــــار والقياســـــا

وأصل قسي: قووس؛ فعول، إلا أنهم قدّموا اللام فصيروه: قسوا، على وزن: فلوع، ثم قلبوا الواو ياء وكسروا الفاء، كما كسروا عين عصي، فصارت: قسي على فليع، كانت من ذوات الثلاثة فصارت من ذوات الأربعة، فإذا نسبت إليها قلت: قسوي، ردّوها إلى الأصل، وربما سموا الذراع قوساً، والقوس بضم القاف: صومعة الراهب، قال جرير؛ وذكر امرأة:

لا وصل إذ رحلت هند ولو وقفت ... لاستفتنتني وذا المسحين في القوس

وتقول: قوس الشيخ واستقوس: إذا انحنى من الكبر. والأقوس: المنحني الظهر.

وذا فصل الفوائد قد تقضى ... وآخذ في القول في اللام والميم

وأذكر فيه ما لم أدري وما لم ... أسقه عند غيري فيه تتميم

فصل:

ومن فوائد قافية البيت تقدّم: مل؛ اسم والد رجل من المحدثين، وهو: عبد الرحمن بن مل، ويقال فيه: مِل بالكسر. روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه كان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وإن كان ليصلي بنا صلاة الصبح فنودّ لو قرأ بالبقرة من حسن صوته، ولقد أدركت الجاهلية فما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار أحسن من صوت أبي موسى بالقرآن. وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود. وكان عبد الرحمن هذا يقول: بلغت نحواً من ثلاثين ومائة سنة فما من شيء إلا وقد عرفت فيه النقص إلا أملي، فإنه كما كان. وثم مل آخر من جديلة وهو والد طريف بن مل، الذي يقول فيه امرؤ القيس:

لـنعم الفتـى يعـشو إلـى ضـوء نـاره طـريف بـن مـال لـيلة القـر والْحـصر

وتقدّم في مقلوب: مل (لم)، وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: وتلم بها شعثي. وقد فسر. وأعجبني هذا الدعاء لصحته، فكتبته هاهنا بجملته، لعل الله ينفع به الداعي والكاتب والواعي. أخرج الترمذي رحمه الله بسنده إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من بيته لصلاة الصبح وهو يقول: اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتردّ بها ألفتي، وتلهمني بها رشدي، وتزكي بها عملي، وتعصمني بها من كل سوء، اللهم أعطني إيماناً ويقيناً ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك الفوز في العطاء، ومنزل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء، اللهم ما قصر عنه رأيي، ولم تبلغه نيتي، ولم تنته إليه مسألتي، من خير وعدته أحداً من خلقك، أو خير أنت معطيه أحداً من عبادك، فإني أرغب إليك فيه، وأسألك رحمتك يا رب العالمين، اللهم إني أنزل بك حاجتي، وإن قصر رأيي، وضعف عملي، افتقرت إلى رحمتك، فأسألك يا قاضي الأمور، ويا شافي الصدور، كما تجير بين البحور، أن تجيرني من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور، اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، الركع السجود، الموفين بالعهود، فإنك رحيم ودود، وأنت تفعل ما تريد، اللهم اجعلنا سلماً لأوليائك، وعدوّاً لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك، اللهم هذا الدعاء، وعليك الإجابة، وهذا الجهد، وعليك التكلان، اللهم اجعل لي نوراً في قبري، ونوراً في قلبي، ونوراً في لساني، ونوراً في سمعي، ونوراً في بصري، ونوراً في شعري، ونوراً في

بشري، ونوراً في لحمي، ونوراً في دمي، ونوراً في عظامي، ونوراً من فوقي، ونوراً من تحتي، ونوراً من خلفي، ونوراً من أمامي، ونوراً عن يميني، ونوراً عن شمالي، اللهم أعظم لي نوراً، وأعطني نوراً، واجعل لي نوراً، سبحان الذي تعطف بالعز وقال به، سبحان الذي لبس المجد وتكرم به، سبحان من لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي الفضل والنعم، سبحان ذي المجد والكرم، سبحان ذي الجلال والإكرام. وقد تقدم معنى تعطف بالعز وقال به في أول الكتاب.

وتقدم في هذا الباب: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ [الفجر: ١٩] قال ابن عزيز: يعني أكلاً شديداً. يقال: لممت الشي أجمع، أي: أتيت على آخره. ومما قلت في هذه اللفظة:

قسا فؤادي واسودّ لما أكثرت أكل الحرام لما
يا رب إني ألممت تغفر وأي عبد ما إن ألما

ينظر هذا إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما

كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] هو الرجل يلم ويذنب ثم يتوب. ألم تسمع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: إن تغفر اللهم. فذكره بكماله. وقد تقدم الشعر في باب الجيم، وأنه من قول أمية بن أبي الصلت، وقاله النبي صلى الله عليه وسلم متمثلاً. وقال الحسن ومجاهد: هو الذي يأتي الذنب ثم لا يعود. وقال أبو هريرة: هو ما كان في الجاهلية فقد عفا الله عنه. قال: هو النظرة والغمزة والقبلة والمباشرة، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل وهو الزنا. فقد روي معناه عن ابن مسعود، وقيل: هو ما دون الشرك. وقيل غير هذا. لذلك قلت لربي داعياً وعلى نفسي ناعياً:

يا رب عاف من الذنوب صغيرها وكبيرها
وقليلها وكثيرها وجليلها وحقيرها

وفي الوصايا: لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر من عصيت. وجاء في وصية بعض العلماء لهرم بن حيان رضي الله عنه هذا الكلام المتقدم بعينه نظمه الفقيه الخطيب فقال رحمه الله:

يا هرم بن حيان لا تحقرنّ إنسان
صغير ذنب ما كان وإن أتى بعصيان
مولى عظيم السلطان

وكان هرم هذا أحد الفقراء الفضلاء المجتهدين رضي الله عنهم، ولما نزل به الموت قيل له: أوصنا، قال: ما لي شيء أوصي به، ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النحل، وقرأ عليهم: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] قال الحسن: ولما مات جاءت سحابة فظللت سريره، فلما دفن رشت القبر، فما أصابت حول القبر شيئاً. وفي رواية: إنه كان يوماً شديد الحر فلما نفضوا أيديهم من قبره جاءت سحابة حتى قامت على قبره فلم تكن أطول منه ولا أقصر، فرشته حتى روته ثم انصرفت.

وقال ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢]: ألستم عرباً، أما سمعتم قوله: (ومن زيارته لمام) قال سفيان يريد قول الشاعر:

بنفسي من تغضبه عزيز ... علي ومن زيارته لمام
ومن أمسى وأصبح لا أراه ... ويطرقني إذا هجع النيام
أتنسى إذ تودّعني سليمى ... بفرع بشامة سقى البشام

ويروى أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما دفع من جمع وهو يقول:

إن تغفر اللهم تغفر جما ... وأي عبد لك لا ألما

وقوله:

إليك تغدو قلقاً وضينها ... مخالفاً دين النصارى دينها

أخرجه ابن قتيبة رضي الله عنه. قلت: والشيء يذكر بالشيء، كنت قد صنعت أبياتاً في طريق الغزو، وعلمتها بعض الأصحاب، فكنا إذا ركبنا متوجهين قلتها وهي:

إليك ربي لا إلى سواك ... خرجت أسعى أبتغي رضاك
فلا تخيب سعي من رجاك ... ولا ترد سائلاً دعاك

في أبيات سواها. والشيء يذكر بالشيء، وكذلك اجتمع حولي أهلي يطلبون مني بعض ما يحتاجون إليه وألحوا عليّ، فقلت:

يا إلهي يا إلهي ... ليس يخفى الحال عنكا
كلهم يطلب مني ... وأنا أطلب منكا

كذلك، في أبيات انظر جميع ذلك في التكميل في فصل الزهد.

وجاء في معنى قوله: (مخالفاً دين النصارى دينها): إن كتب الأنبياء وصورها،

كانت عند النصارى بنجران، وكانت الأساقفة إذا مات منهم ميت ختم قبل موته عليها، فكانت الكتب عليها خواتيم عدّة. فخرج الأسقف الأكبر يمشي ومعه ابنه فعثر فقال: تعس شاني محمد. فقال أبوه: مه يا بني إنه نبي واسمه وصورته في الوضائع. قال الأصمعي: الوضائع كتب تكتب فيها الحكمة. فلما مات الشيخ دق الابن الخواتيم وخاتم أبيه، فأخرج صورة النبي صلى الله عليه وسلم، فآمن وحج وأقبل وهو يقول:

إلــيك تغــدو قلقــاً وضــينها .... البــيت

قال أبو عبيد: الوضين بطان منسوج، وهو فعيل بمعنى: موضون، يريد أن الناقة قد ضمرت وخف بطنها فاتسع وضينها واضطربت. وقوله: (مخالفاً دين النصارى دينها) يريد نفسه، لأن الناقة ليس لها دين. قاله ابن قتيبة.

قلت: ونوع من هذه القصة خبر إسلام كعب الحبر رضي الله عنه، وكان أبوه من مؤمني أهل التوراة برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من عظمائهم وأحبارهم. قال: وكان إسلام كعب عند قدوم عمر رضي الله عنه الشام. قال كعب: كان أبي من أعلم الناس بما أنزل الله على موسى بن عمران عليه السلام من التوراة وبكتب الأنبياء، ولكن يدخر عني شيئاً مما كان يعلم، وذلك من قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، فلما حضرته الوفاة دعاني، فقال: يا بني قد علمت أني لم أكن أدخر عنك شيئاً مما كنت أعلم، إلا أني حبست عنك ورقتين فيهما ذكر نبي يبعث، وقد أظل زمانه فكرهت أن أخبرك بذلك، فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكذابين فتتبعه وتقطعهما من كتابك، وقد جعلتهما في هذه الكوّة التي ترى، وطينت عليهما، فلا تتعرض لهما، ولا تنظر فيهما زمانك هذا، وأقرهما في موضعهما حتى يخرج ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا خرج فاتبعه، وانظر فيهما فإن الله يزيدك بهذا خيراً. قال كعب: فلما مات والدي لم يكن شيء أحب إليّ من أن ينقضي المأتم حتى أنظر ما في الورقتين، فلما انقضى المأتم فتحت الكوّة ثم استخرجت الورقتين، فإذا بهما محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيين لا نبي بعده، مولده بمكة، ومهاجره طيبة، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل شرف وعلى كل حال، وتذل ألسنتهم بالتكبير، وينصرهم الله بنبيهم على كل من ناوأهم، يغسلون فروجهم بالماء، ويأتزرون على أوساطهم، وأناجيلهم في صدورهم، ويأكلون قربانهم ويؤجرون عليها، وتراحمهم بينهم تراحم بني الأم والأب، وهم أوّل من يدخل الجنة من الأمم، وهم السابقون المقربون والشافعون والمشفع لهم. قال: فلما قرأت هذا قلت في نفسي والله

ما علمني أبي شيئاً هو خير لي من هذا. فمكثت بذلك ما شاء الله، وبقيت بعد والدي حتى بعث صلى الله عليه وسلم، وبيني وبينه بلاد بعيدة منقطعة لا أقدر على إتيانه، وبلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج بمكة فهو يظهر مرة ويستخفي أخرى، فقلت: هو هذا، وتخوّفت ما كان والدي حذرني من الكذابين، وجعلت أحب أن أتبين وأتثبت. قال: فلم أزل كذلك حتى بلغني أنه قد أتى المدينة، فقلت في نفسي: إني لأرجو أن يكون إياه، فكانت تبلغني وقائعه مرة له ومرة عليه، وجعلت ألتمس السبيل إليه، فلم يقدر لي حتى بلغني أنه قد توفي صلوات الله عليه وسلامه ورحمته وبركاته، فقلت في نفسي: لعله لم يكن بالذي كنت أظن، ثم بلغني أن خليفته قد قام مقامه، ثم لم ألبث إلا قليلاً حتى جاءتنا جنوده، فقلت في نفسي: لا أدخل في هذا الدين حتى أعلم أهم الذين كنت أرجو وأنتظر، وأنظر كيف سيرتهم وأعمالهم، وإلامَ تكون عاقبتهم قال: فلم أزل أدفع ذلك وأوخره لأتبين وأتثبت حتى قدم علينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فلما رأيت صلاة المسلمين وصيامهم وهديهم ووفاءهم بالعهد، وما صنع الله لهم على الأعداء علمت أنهم هم الذين كنت أنتظر. فحدثت نفسي بالدخول في الإسلام. قال: فوالله إني لذات ليلة على سطح لي، وإذا رجل من المسلمين يصلي، يتلو كتاب الله، حتى تلا هذه الآية وهو رافع صوته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء: ٤٧] قال: فلما سمعت هذه الآية خشيت والله أني لا أصبح حتى يحوّل الله وجهي إلى قفاي، فما كان شيء أحب إليّ من الصباح، فغدوت على عمر بن الخطاب فأسلمت حين أصبحت. رضي الله عنه.

وتقدّم اللمم: مس الجنون. يقال: رجل به لمم ولمة. وفي الترمذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان: فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك: فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوّذ بالله من الشيطان. قال الحسن رضي الله عنه: إنما هما: هَمان يجولان في القلب، هم من الله تعالى، وهم من العدو. فرحم الله عبداً وقف عند همه، فما كان لله أمضاه، وما كان من عدوّه جاهده. وقال أبو حامد رضي الله عنه: ولتجاذب القلب بين هذين المتسلطين؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن. والله تعالى يتعالى عن أن يكون له أصبع مركب من لحم ودم وعظم منقسم بالأنامل، ولكن روح الإصبع

سرعة التقليب، والقدرة على التحريك والتغيير، فإنك لا تريد أصبعك لشخصه بل لفعله في التقليب والترديد، وكما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك؛ فالله تعالى إنما يفعل ما يفعل باستحضار الملك والشيطان، وهما مسخران لقدرته في تقليب القلوب، كما أن أصابعك مسخرة لك في تقليب الأجسام مثلاً. والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملائكة ولقبول آثار الشياطين صلاحاً متساوياً ليس يترجح أحدهما على الآخر، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى في الإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها. فإن اتبع الإنسان مقتضى الشهوة والغضب ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى، وصار القلب عش الشيطان ومعدنه لأن الهوى مرعى الشيطان ومرتعه. وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة صار قلبه مستقر للملائكة ومهبطهم.

ولما كان القلب لا يخلو عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل، إلى غير ذلك من صفات البشر، لم يخل أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما منكم من أحد إلا وله شيطان، قالوا: وأنت يا رسول الله؟. قال: وأنا، إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ [الناس: ٤]: وهو منبسط على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض، وإذا غفل انبسط على قلبه.

وتقدّم كتيبة ململمة وملمومة: مجتمعة، وقال الشاعر:

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر ... تنبو الحوادث عنه وهو ملموم

انظره في التكميل مذيلاً:

قل للذي ظن أن الصخر يسلم من ... ريب الزمان فيلفى وهو ملموم
هذي المعاول تأتيه فتكسره ... فيصنع الجص منه وهو مهشوم
فالفأس تفلقه والنار تُحرقه ... أذاك من حدثان الدهر معصوم

الأبيات إلى آخرها.

ولملم كذلك بمعنى: جمع وأدار، ولملم أيضاً: اسم واد في جهنم أعاذنا الله منه. خرج ابن المبارك رضي الله عنه في الرقائق عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن في جهنم وادياً يقال له: لملم، إن أودية جهنم تستعيذ بالله من حره. نعوذ بالله من جميع سخطه.

ومعكوس لملم: ململ، تقدّم في الحديث: هامة. قال أبو عبيدة: الهامة يعني الواحدة من هوام الأرض، وهي دوابها المؤذية. قال ثابت: الهامة: الحية، وجمعها:

هوام. وذكر حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه ليسمع للهوام جلبة بين أطباق جلد الكافر، كما تسمع جلبة الوحش. وقد تقدم أن غلظ جلد الكافر مسيرة ثلاث، ونابه مثل أحد. أخرجه مسلم.

وقال الخطابي في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: إذا غرستم فاجتنبوا هوم الأرض، فإنها مأوى الهوام. وقال: لست أدري ما هوم الأرض. وقال: قال بعضهم: هذا تصحيف إنما هو: هوى الأرض، جمعه: هوة؛ وهي الحفرة تشرف عليها أسناد غلاظ. وقال آخر: بل هو هزم الأرض؛ وهو ما تهزم منها؛ أي: تكسر منها وتشقق. وفي الحديث: إن زمزم من هزمة جبريل؛ أي: من ضربه الأرض وشقه إياها. وسيأتي في باب الهاء: إذا غرستم فاجتنبوا هوى الأرض، كما تقدم في قول بعضهم. وفسرت هناك الهوة بقريب من هذا التفسير.

وتصغير الهامة: هويمة وفي مثل: أدركي القويمة(*) لا تأكلها الهويمة. يعني: الصبي الذي يأكل البعر والقضب وهو لا يعرفه، يقال لأمه: أدركيه لا تأكله الهويمة، وهي الحية. قاله ثابت أيضاً. وقال غيره: وقد تقع الهوام على ما يدب من الحيوان.

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لكعب بن عجرة حين رآه والقمل يتناثر من رأسه: أتؤذيك هوام رأسك؟ يريد: القمل. وقيل: الهوام كل ما يقتل مثل الحيات، والسوام: ما لا يقتل مثل العقرب والزنبور، والقوام: مثل الخنافس والفأر واليرابيع. وجاء في الحديث: إن المدينة كثيرة الهوام والسوام.

وهامة ـ بالتخفيف ـ موضع قبل هجر كثير النخل. والهامة أيضاً: الرأس. وفي صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم: عظيم الهامة. وجمعها: هام، كما قال الشاعر:

بضرب يزيل الهام عن سكناته

وقد تجمع على هامات، قال الشاعر:

لو خرّ سيف من العيوق منصلتاً ... ما كان إلا على هاماتهم يقع

وقد جاء في الحديث: تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد فيها كذا وكذا، تغلي منها الهوام كما تغلي القدور على الأثافي. وفي الحديث: لا عدوى ولا هامة ـ بالتخفيف ـ ولا صفر ولا غول.

قال أبو عبيد: أما الهامة فإن العرب كانت تقول: إنّ عظام الموتى تصير هامة فتطير. ويسمون ذلك الصدا، وجمعه: أصداء. وقد جاء في أشعارهم، قال أبو دؤاد:

(*) القويمة: تصغير قامة، يعني: الصبي لأنه يقتم كل ما أدرك يجعله في فيه.

سلط الموت والمنون عليهم		فلهم في صدا المقابر هام

وقال غيره كانت العرب تقول: إن القتيل إذا لم يطلب بثأره خرج من رأسه هامة؛ وهو الصدا، وهو البوم، فلا يزال يصيح: اسقوني، حتى يطلب بثأره، فإذا أخذ بثأره سكت. ومنه قول الراجز:

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي		أضربك حيث تقول الهامة اسقوني

يريد رأسه. فأكذبهم النبي صلى الله عليه وسلم وأبطل ذلك كله من قولهم. ومنه قولهم: فلان هامة اليوم أو غد، يريدون: أنه يموت فيصير هامة.

وتقدّم قول يزيد في حياته:

وكل خليل زارني فهو قائل		من أجلك هذا هامة اليوم أو غد

في باب الراء. ويأتي:

أعاذل إن يصبح صداي بقفرة

في باب النون بعد هذا إن شاء الله تعالى.

ومن أغرب ما روي في الصدا، ما رواه أبو علي من أن ليلى الأخيلية - وهي ليلى بنت عبد الله بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يلقب الأخيل - مرت مع زوجها في بعض نجعهم بالموضع الذي فيه قبر توبة بن الحمير، وكانت متزوجة في بني الأدلع بن عبادة بن عقيل، فقال لها زوجها: لا بد أن أعرّج بك إلى قبر توبة كي تسلمي عليه حتى أرى هل يجيب صداه كما زعم حيث يقول:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت		علي ودوني تربة وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقى		إليها صدا من جانب القبر صائح

فقالت له: وما تريد من رمة وأحجار؟. فقال: لا بدّ من ذلك، فعدل بها عن الطريق إلى القبر، وذلك في يوم قائظ، فلما دنت راحلتها من القبر ورفعت صوتها بالسلام عليه، إذا بطائر قد استظل بحجارة القبر من فيح الهاجرة، فطار فنفرت راحلتها فوقصتها فماتت، وكان ذلك من الصدا الذي يزقو إليها من جانب القبر، انتهى كلامه.

قلت: وحديث توبة وليلى مشهور في كتب الأدب مذكور، وفي هذا الخبر ما يحقق ويصدّق أنّ البلاء موكل بالمنطق، كما يروى أنّ أحد المولعين بالخمر قال:

إذا ما فادفنني إلى جنب كرمة		تروّي عظامي في الممات عروقها

ولا تدفنوني في الفلاة فإنني		أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

وهذا القائل أيضاً مشهور. قال الذي روى عنه: مررت بقبره بعد أن مات فإذا قد نبت عليه عريش عنب، فتعجبت من ذلك.

ومما جاء في الهام حديث حاتم طيء أشهر الكرام الذي قرى أضيافه في المنام، وذلك أن ركباً من العرب نزلوا بموضع قبره، وقد نفد زادهم، وفيهم رجل يكنى أبا خبيري فجعل يقول: أبا سفانة ـ وهي كنية حاتم ـ ألا تقري أضيافك؟ أبا سفانة إن أضيافك جياع؟ يعيدها ليلته، فلما نام ثار من نومه وهو يقول: وا راحلتاه عقرت والله ناقتي، فقال له أصحابه: وكيف؟ قال: رأيت أبا سفانة قد انشق عنه قبره فاستوى قائماً ينشدني:

أبـا خبيـري وأنـت امـرؤ ... ظلـوم العـشيرة لـوّامها

ومـاذا تـريد إلـى رمـة ... بداويـة صـبحت هامهـا

تبغـي أذاهـا وإعـسارها ... وحـولك عـوف وأنعامهـا

ثم عمد إلى سيفي فانتضاه من غمده فعقر به ناقتي، وقال: دونكم، فما أيقظني إلا رغاؤها وإذا بالناقة ترغو ما تنبعث ولا بها حراك، فقالوا: قد والله قراكم حاتم، فنحروها وأكلوا وتزوّدوا واقتسم القوم متاع أبي خبيري على إبلهم، واستمروا لوجههم. فلما صاروا في الظهيرة وضح لهم راكب يخبب بعيراً يؤم سمتهم حتى التقوا فقال لهم: أفيكم أبو خبيري؟ قالوا: نعم. قال: فإن عدي بن حاتم رأى أباه البارحة وهو يقول: إن أبا خبيري وأصحابه استقروني فقريتهم ناقته فعوّضه منها وزده بكراً يحمل عليه متاعه، وهذه الناقة وهذا البكر، فارتحل أبو خبيري الناقة وتخفف هو وأصحابه من أزوادهم على البكر ومضوا بأتم قرى. فيقال: لا يعرف ميت قرى أضيافه سواه.

وإذ وقعنا في ذكر المنامات فلنذكر بذلك حكايات بروايات. أخبرني أبو الحسن علي بن مؤمن قال: سمعت الفقيه القاضي الشريف أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن العثماني الديباجي رحمه الله يقول: أخبرني أبو بكر بن شبل عن أبي الفتح المقدسي قال: حدثني أبو الحسن العريشي قال: كان عندنا معلم اسمه إبراهيم، وكان صالحاً. قال: كنت جالساً إذ دخل عليّ أبو ذر شيخ بشاى، فحدثني أنه جاء إلى منزله فقالت له امرأته: قد جاء رجل طلبك. فقلت: هذا ضيف، فذبحت له دجاجة، وهيأت له عشاء، فجاء الرجل وتعشينا ونمنا، فرأيت في النوم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقالا لي: أما تستحي تجيء إلى رجل يسبنا فتضيفه؟ فقلت: والله ما علمت بذلك، فقال أحدهما للآخر: اذبحه، فقلت: لا تفعل فإني أخاف السلطان، فوثب إليه فذبحه، فانتبهت فإذا به مذبوح، وانتبهت امرأتي فعرّفتها بذلك، وجلست أنا في ناحية من البيت أفكر في هذا الأمر؛ والمرأة في ناحية أخرى، والرجل مطروح، فقلت: كيف أصنع وقد علم أهل القرية أنه ضيفي، ثم إني تحاملت وقمت إليه ولففته في الحصيرة التي هو عليها

وحملته وخرجت إلى نخرور من نخارير القرية وطرحته فيها، وقلت: يقضي الله بما يشاء، ورجعت إلى بيتي وأغلقت عليّ بيتي وجلست أنتظر ما يكون حتى ارتفع النهار، فإذا الناس يقولون: فعل الله بأهل الصوارف وصنع، ذبحوا خنزيراً وحملوه فطرحوه عندنا، فلما سمعت بذلك خرجت ونظرت إليه فإذا هو والله خنزير مذبوح ملفوف في الحصير. هذا معنى الحكاية.

وحدثني أيضاً عن أبي بكر بن شبل المذكور بسند آخر إلى سويد بن سعيد قال: كان لي جار يقع في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فكنت أعرض عليه التوبة فلا يتوب، حتى جاء في صلاة غداة فقال لي: يا أبا محمد قد تبت. قلت: كيف كان هذا؟. قال: رأيت البارحة أبا بكر في المنام فقلت: يا أبا بكر كنت أشتمك وأقع فيك فاجعلني في حل. قال: والله ما كان يضرّني ذلك اذهب فأنت في حل. قال ثم استقبلني عمر فقلت له: كنت أقع فيك وأشتمك فاجعلني في حل. قال: اصبر حتى أخرج لك، فدخل ثم جاء بالدرة فأمر ببطحي، فلم يزل يضربني حتى سلحت في ثيابي فانتبهت وقد سلحت في ثيابي. قال سويد: وأراني ذلك في ثيابه.

وحدثني أيضاً رضي الله عنه قال: حدثني أبي قال: كان جدي لأبي الشيخ الفقيه القاضي أبو حفص عمر بن أحمد بن محمد المعروف بابن سنبس، وهو من علماء البصريين وصلحائهم وعدولهم، وكان يرحل إليه في اثني عشر علماً، قال: كان يقرأ عليّ رجل من أهل مصر، ضرير البصر فقال لي يوماً: يا مولاي أردت أن تتناول عندي طعاماً. فقلت: لم تجر عادتي بهذا. فلم يزل يسألني ويقول: ترفع قدري بين جيراني وتنوّه بي وتدخل المسرة على قلبي، ولم يزل يتلطف بي إلى أن سرت معه ولم أعلم بمذهبه، وكان الفقيه يرغب في الأجر. قال: فدخلت منزله وجلست فأغلق الباب وأحضر مائدة وخبزاً وصحناً فيه سمكتان مملوحتان بصناب خردل وزبيب، وكانت أيام عيد الفطر، ثم قال لي: يا مولاي هذا أبو بكر وهذا عمر، وأشار إلى السمكتين كل أيتهما شئت. وكان الشيخ رحمه الله فيه رفق وسياسة، قال: فقلت أبو بكر رضي الله عنه فيه لين، وعمر كانت فيه شراسة، فقال: دعه لي. فبقيت أنظر إليه ولم أتناول له طعاماً، فأخذ لقمة وأخذ عليها شيئاً من السمكة ورفعه إلى فيه، فاعترضت له شوكة فنشبت في حلقه فمات، فهتكت زوجته الستر وقالت: لله بك عناية ما كان معوّلاً إلا على قتلك، فقمت وتركته.

وأبدع من هذا وأعجب وأصح مما تقدّم وأغرب، ما حدثني الحافظ بالإسكندرية رحمه الله وحماها، سنة إحدى وستين وخمسمائة قال: حدثني الرئيس أبو عبد الله

القاسم بن الفضل الثقفي بأصبهان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، قال: حدثنا أبو الحسين محمد بن الحسين القطاني ببغداد، حدثنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه، حدثنا أبو يوسف يعقوب عن سفيان، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد، حدثني عطاء الخراساني، حدثتني بنت ثابت بن شماس، قالت: لما أنزل الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ [الحجرات: ٢] الآية، دخل أبي بيته وأغلق عليه بابه وطفق يبكي، ففقده النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه فسأله فأخبره، وقال: أنا رجل شديد الصوت أخاف أن يكون قد حبط عملي. فقال: لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير. قال: ثم أنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] فأغلق عليه بابه وطفق يبكي، ففقده النبي صلى الله عليه وسلم، فأرسل إليه فسأله، فأخبره بما أنزل عليه وقال: إني أحب الجمال وأحب أن أسود قومي. فقال: لست منهم، بل تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة. فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة، فلما لقوا العدوّ وانكشفوا فقال: ثابت وسالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع النبي صلى الله عليه وسلم، فحفر كل واحد منهما حفرة وثبتا فيها حتى قتلا، وعلى ثابت يومئذ درع له نفيس، فمر به رجل من المسلمين فأخذه. فبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت في منامه فقال له: إني موصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه إني لما قتلت أمس مرّ رجل من المسلمين فأخذ درعي، ومنزله في أقصى الناس وعند خبائه فرس يستن بطوله، وقد كفأ على الدرع برمة، وفوق البرمة رحل، فائت خالد بن الوليد فمره أن يبعث إلى درعي فيأخذه، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل له: إن عليّ من الدين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق، وفلان. فأتى الرجل خالد فأخبره، فبعث إلى الدرع فأتى به، وحدّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته فلا نعلم أحداً أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت، واستشهد باليمامة رضي الله عنه.

ومن فصل الملح ما قلته في غرض عرض، فذكرت فيه هامة، إذ خرجت عليّ من الخربة كلاب سود كأنها الأسود، فأدخلت هامتي في سلهامتي، وطفقت أستغيث لأحمي من أنيابهم لحمي، وأتناصر كي لا يراق دمي، وأتقاصر لتستر أثوابي قدمي، بكلام طويل انظره في التكميل. وأذكرني حديث السلهامة ما قال بعض الأدباء للجزار السرقسطي، وقد رأى ـ أظنّ في سفره ـ امرأة جميلة، قد ألبست سلهامة تقيها المطر أو شبه هذا. فقال الجزار المذكور لها: أجيزي هذا النصف:

وبــــدر لاح مــــن تحــــت الســـــلاهم

فقالت:

محاســــــنه تقـــــول لمـــــن ســـــلاهم

وهذا النصف الآخر من الكلام الفصيح، والمعنى الصحيح.

وينظر إلى قول الهيثم إذ قال له صالح بن حسان: ما بيت شطره أعرابي في شملة والشطر الآخر مخنث يتفكك؟ قلت: لا أدري. قال: قد أجلتك حولاً. قلت: لو أجلتني حولين لم أعرف. قال: أف لك، قد كنت أحسبك أجود ذهناً مما أرى. قلت: وما هو؟. قال: هو قول جميل:

ألا أيهـــــا الـــــنوّام ويحكـــــم هـــــبوا

أعرابي في شملة ثم أدركه اللين وضرع الحب فقال:

أســــائلكم هـــل يقـــتل الـــرجل الحـــب

وكان هذا الرجل الجزار أديباً شاعراً ظريفاً أريباً، وكان يبيع اللحم ولا يعيبه على نفسه. فوقف عليه يوماً أحد الأدباء فأنشده:

لحــــم إنـــــاث الكـــبش مهــــزول

فقال له:

يقــــول للمــــشترين مـــــه زولــــوا

وهذا اتفاق غريب. ومثله له:

رب ظبـــــــــي لقيـــــــته	يتتمــــــــي للهــــــــوازنة
قلــــت مــــا أثقـــل الهـــوا	قـــــال مــــا للهـــــوازنة

ولي أنا من هذا النوع ما هو عندي أجمل وأطول حروفاً وأكمل، وهو قولي:

وسـائل عـن حـديث الـسر قلـت لـه	لمـا تبرمنـي مـه مـا تـرى خـبري
لكـن جـدّ فإنـي مـنك إن تتـشا	غـل بالـبطالة ومهمـا تـراخ بـري

وثم أحسن من هذا لغيري مما جمعته في غير هذا الموضع، وهذان البيتان في قطعة لزومية مطولة تزيد على المائة، انظرها في التكميل.

وذا فـصل الفـوائد قـد تقـضى	ونأخـذ بعـده فـي ألـف ونـون
فأذكـر فـيه مـا أدري وربـي	سـينفعني بـه بعـد المـنون

باب الألف مع النون

وان وان وان وان وان وان ونل ونل

(إن) حرف توكيد وهي مكسورة إذا كانت مستأنفة. و(أن) مفتوحة الألف تقع

موقع الأسماء، وقد تخفف (إن) المكسورة ويرفع ما بعدها. تقول: إن زيد لمنطلق، واللام لازمة، ومن العرب من ينصب بها مخففة، وقد دللتك على كتاب الجمل لتنظر كيف العمل. فعليك به أيها المبتدى، فإنه مرقاة لغيره، ولن تخلو من خيره، فانظر تجد فيه أيها الحازم، (أن) الحرف الناصب، و(إن) الحرف الجازم، و(أن) و(إن) الحرفين الزائدين للتأكيد.

وقد تقدم لي في بعض الأناشيد، ذكر ذلك في معنى (ما) أو (كان) بعد (ما) و(إن) بعد (لما) وإن شئت أن تجعل عوض (إن) المذكورة في البيت (إن) المكسورة التي للشرط والزائدة فافعل، وإن شئت أن تجعل عوضهما (أن) المضمومة الألف فافعل، ومعناه الرفق. تقول: أُن على نفسك؛ أي: ارفق في السير واتدع، وهو مستق من الأون؛ وهو الدعة والسكينة والرفق. تقول منه: أُنت أؤون أوناً، والأون أيضاً: المشي الرويد، قال الراجز:

غيــر يــا بــنت الحلـيس لونــي ... مــر الليالــي واخــتلاف الجــون

وســـفر كـــان قلـــيل الأون

وأذكر لك هنا فائدة؛ على ما ذكره أبو القاسم زائدة؛ تكون (إن) بمعنى (ما) في قوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾ [الملك: ٢٠]، و: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ [يس: ٢٩] و: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: ٤]، وتكون بمعنى (لقد) في قوله تعالى: ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ١٠٨] و: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ٩٧]، وتكون بمعنى (إذ) في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ذكر هذا ابن قتيبة رحمه الله، وقال: هكذا قال المفسرون.

وبعض أهل اللغة يقولون: هي (إن) بعينها وليست بمعنى (إذ)، ويقولون: أراد من كان مؤمناً لم يهن، ومن كان مؤمناً ترك الربا، والله أعلم. فهذه (أن وأن وإن وإن) بالفتح والكسر وهي حروف كلها، و(إنّ) مثقلة بمعنى: نعم، وذلك مشهور، قال الشاعر:

ويقلـــن شـــيب قـــد عـــلاك ... وقـــد كبـــرت فقلـــت إنـــه

والهاء للسكت. وقال آخر:

يــا عمــر الخيــر رزقــت الجنــة ... اكـــس بنياتـــي وأمهـــنّه

وقـــل لهـــن إنّ إنّ إنـــه

أي: نعم نعم نعم. وتكون (أن) بالفتح فعلاً. تقول: أن الماء يؤنه أناً: إذا صبه. وفي كلام لقمان ابن عاد: أن ماء واغلة، أي: صب ماء واغلة.

وكان ابن الكلبي يقول في هذا: إنما هو (أز) بالزاي، وبالنون تصحيف. ووقع في كتاب الزبيدي: أنى الماء يأنى: إذا سخن. وسيأتي في الباب بعد هذا إن شاء الله تعالى.

و(أن) أيضاً: فعل ماض من الأنين، وسيأتي. ولي من هذه اللفظة كلام جمعته في حروف الزوائد العشرة، كما قال من جمعها: اليوم تنساه، فقلت أنا: أن سهيل ومات، فهذه تلك، والحمد لله.

وأما (أن) ففعل أمر من (أن) المتقدّم. تقول: أن يئن أناً وأنة وأنيناً، ورجل أننة: وهو كثير البث والشكوى، والجمع: الأنن والأنان بالضم. مثل: الأنين، وكذلك: التأنان. قال الشاعر:

أراك جمعــت مــسألة وحرصــاً ... وعــند الفقــر زجــاراً أنانــا

ومن العرب من يقول في هذا: هنّ يهنّ هنيناً. وأنشد:

لمــا رأى الــدار خــلاء هــنا ... وكــاد أن يظهــر مــا أجــنا

وذكر الخطابي رحمه الله في قول عبد الله: إن طول الصلاة وقصر الخطبة مئنة من فقه الرجل، ثم فسر مئنة فقال: ووزنها مفعلة من الأن، بمعنى: أن من أنية الشيء، بمعنى الإثبات له. قال: وتحريره أن يقال: إنه كذا.

وأما (آن) فاسم فاعل من التأني والتحلم. تقول: رجل آن، وامرأة أناة، أي: حليمة. و(آن) أيضاً اسم فاعل من: أنى الماء يأني، وهو الذي قد انتهى حرّه ومنه: ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ [الغاشية: ٥] ووزن آنية هنا: فاعلة، ووزنها في قوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: ١٥] أفعلة، لأنها جمع إناء، مثل: كساء وأكسية.

وأما (آن) فمعناه: حان. يقال: آن يئين، فعل من الأوان، ويقلب هذا فيقال فيه: أنى يأني كما قال سعد بن معاذ رضي الله عنه حين نزل بنو قريظة على حكمه: لقد أنى لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. يريد والله أعلم آن بمعنى حان فقلب على مذهب العرب.

وقد تقدم: ناء ونأى، وسيأتي مثله في باب السين: ساء وسأى، وتقول أيضاً: أنى يأني أنياً: إذا انتهى وبلغ. يقال: آن أينك؛ وآن آنك، أي: حان وآن لك أن تفعل كذا يئين أيناً.

فصل من الفوائد: تقدّم الأننة: الكثير البث والشكوى. قلت: وما أقبح هذه الصفة عند أهل المعرفة، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: من كنوز البر كتمان

المصائب والأوجاع والصدقة وقال: من بث لم يصبر. والله تعالى يقول: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] وفي هذا قال عمر رضي الله عنه: نعم العدلان ونعمت العلاوة. وقد تقدم تفسير ذلك.

وليت شعري، هذا الذي يشكو مصيبته ماذا يريد وما عسى أن يستفيد، وهل يشكوها إلا لضعيف مثله فيزيد في حمله، يزيده الشكوى في البلوى، لأنه لا بد من تزيد وتكذب في غالب الأمور، وربنا يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ثم الصبر يرجع أجراً، وربما قد أحبط أجر المصيبة بشكيته، فتصير المصيبة اثنتين. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنما الصبر عند الصدمة الأولى.

رأيت في بعض الكتب أن مجوسياً قال بحضرة أحد العلماء: ينبغي للعاقل أن يعمل في أول المصيبة ما يعمله الجاهل بعد ثلاث. فاستحسن العالم ذلك وأمره بكتبه عنه. هذا معنى كلامه. ولما مات أخي عبد الله؛ رحمه الله؛ بمراكش كتب الفقيه الخطيب أبو محمد؛ رحمه الله؛ إلى أبي؛ رحمه الله؛ يعزيه، فيه بعد البسملة: في علم الفقيه الحاج أبي عبد الله؛ أكرمه الله؛ إن الصبر عند أول صدمة، وبه يأخذ كل ذي أدب وهمة، وما أجمله وأحسنه، وقد أمرنا أن نسلك سننه، والجزع قبيح، ولو أباحه مبيح، فكيف وقد ورد فيه ما ينفيه. وقد وقفت على ما وصّى به عليّ عليه السلام الأشعث بن قيس. وقال في ذلك المعنى حبيب بن أوس:

وقال عليّ في التعازي لأشعث ... وخاف عليه بعض تلك المـلائم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة ... فتؤجر أم تسلو سلو البهائم

إلى آخر الكتاب. وقد خرجت عن الغرض، لكن في هذا شفاء من المرض، وفقنا الله للعمل بما نعلم، وصلى الله على النبي محمد وآله وسلم.

وإذا وقعنا في ذكر الأشعث قريباً فلنذكر له خبراً غريباً، هو الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، وكان شريفاً في قومه مطاعاً، وكان قد ارتدّ في جملة أهل الردّة، فأتي به أبو بكر رضي الله عنه أسيراً، فأطلقه وزوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة استئلافاً له، وليثبت في الإسلام. فكان ذلك كذلك والحمد لله. ولما زوّجه خرج من عنده فدخل السوق قد اخترط سيفه، ثم لم تلقه ذات أربع إلا عرقبها من بعير وفرس وثور، ومضى فدخل داراً من دور الأنصار. فسار الناس حشداً إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقالوا: هذا الأشعث قد ارتدّ ثانية، فبعث إليه أبو بكر فأشرف من السطح وقال: يا معشر أهل المدينة إني غريب ببلدكم، وقد أولمت بما عقرت فليأكل كل

إنسان منكم ما وجد وليغد عليّ من كان له حق. فلم تبق دار من دور المدينة إلا دخلها من ذلك اللحم ولا رؤي يوم أشبه بيوم الأضحى من ذلك اليوم. وضرب أهل المدينة به المثل فقالوا: أولم من أشعث بن قيس. وقال الشاعر فيه:

لقد أولم الكندي يوم ملاكه ... وليمة حمال الثقال العظائم
لقد سل سيفاً قد كان مغمداً ... لدى الحرب منه في الطلى والجماجم
فأغمده في كل بكر وسابح ... وثور وعير في الحشا والقوائم
فقل للفتى الكندي يوم لقائه ... ذهبت بأسنى ذكر أولاد آدم

ومن الأنين ما يروى أن رجلاً شاور رجلاً في النكاح فقال: لا تتزوج أنانة ولا حنانة ولا منانة. ثم فسر الأنانة: التي تعصب رأسها أكثر الدهر وتكثر الأنين، والحنانة: التي كان لها زوج قبل فهي تحن إليه، ويحتمل أن تكون ذات ولد من غيره فهي تحن إليه لذلك، والمنانة: التي لا تعطي شيئاً إلا منت. ويقال للمرأة التي لها ولد من غيره: اللفوت؛ لأنها تلتفت إلى ولدها. واللفوت أيضاً: الرجل العسر الخلق، واللفات: الأحمق، واللفت: السلجم، واللفتية: مرقة كالحيس تصنعها العرب.

زاد غيره بعد قوله: ولا منانة: ولا عشبة الدار، ولا كية القفا. ذكره أبو عبيد البكري، وفسر عشبة الدار أنها مثل قوله عليه الصلاة والسلام: إياكم وخضراء الدمن. قيل: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء. شبهها صلى الله عليه وسلم بالبقلة الخضراء النابتة في المزبلة؛ وهي الدمنة، وجمعها: دمن، وهي عشبة الدار. وفسر كية القفا: هي المرأة السوء، التي إذا مر زوجها بالقوم وولى قفاه قال أحدهم: فعلت بامرأة هذا، وكان من شأن امرأة هذا.

قلت: وما أقبح هذا الفنّ؛ أعني: المنّ، وإن صاحبه ليكفيه ما قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه: لا يدخل الجنة منان. وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: ثلاثة لا يكلمهم الله. وذكر أولهم المنان الذي لا يعطي عطاء إلا منّ به. كما يروى أن رجلاً أهدى لآخر دجاجة، فجعل يضرب بها مثلاً لكل شيء، وتاريخاً لكل أمر، فإذا رأى لحماً سميناً قال: لا ولا مثل تلك الدجاجة، وإذا فعل شيئاً قال: ذلك قبل أن أهدي لك الدجاجة بكذا، وبعد أن أهديت لك الدجاجة بكذا. على أن الخطابي رضي الله عنه قال في قوله عليه الصلاة والسلام: إلا منّة، يريد هذا المعنى، قال: وفيه معنى آخر وهو: النقص من الحق والبخس، كما قال تعالى: ﴿ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [فصلت: ٨] أي: غير منقوص ومقطوع. ولذلك سميت المنية؛ لأنها تنقص العدد وتقطع المدد. قال الفراء: المنون مؤنثة وأنشد:

أمـــن المـــنون وريـــبها تـــتوجع

وفي التنزيل: ﴿ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ [الطور: ٣٠] أي ما يريب منها، ويكون واحداً وجمعاً. قال عدي بن زيد: من رأيت المنون خلدن أم من. وقالوا: المن يفسد المعروف كما يفسد الصبر العسل، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: كل معروف صدقة. وقال الله تعالى: ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] تفسير الحسن: كان بعض المؤمنين يقول: فعلت كذا وأنفقت كذا، فقال الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ فيصير مثلكم فيما يحبط الله من أعمالكم ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ وهو المنافق ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] ويسمى العطاء مناً، ومنه قولهم: المنّ يفسد المنّ، والمنّ الأوّل: الكلام، والثاني: العطاء. كما قالوا: البرد يمنع البرد. فالبرد الأوّل: البرد المعلوم، والآخر: النوم، وقد تقدّم.

وقد نهى الله تعالى نبيه عن المنّ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر: ٦] قيل معناه: لا تعط عطاء لتأخذ أكثر منه. وقرأ الحسن: (يستكثر) موقوفة، وقال: فيها تقديم وتأخير. يقول: لا تستكثر عملك فتمنّ به علينا. ويحتمل على القول الأوّل أن يخاطب الله بهذا نبيه ليؤدبه بأشرف الآداب وأسنى الأخلاق. ويحتمل ـ والله أعلم ـ أن يريد غيره، كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [يونس: ٩٤] الخطاب له والمراد غيره. والله أعلم.

والمنّ أيضاً: الذي أنزل على بني إسرائيل في التيه، شيء حلو، أشدّ بياضاً من الثلج، وأحلى من العسل، كان ينزل على شجرهم، فيجتنونه ويأكلونه، ينزل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ويأخذ كل أحد ما يكفيه، فإن تعدّى فسد. والسلوى: السماني؛ طائر إلى الحمرة، تحشرها عليهم الجنوب، فيذبح الإنسان ما يكفيه ليومه، فإن تعدّى فسد، إلا يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون منها، ومن المنّ ليوم السبت، لأنهم كانوا يعبدون الله فيه، ولا يشتغلون بغير العبادة.

وتقدّم: آن؛ وهو الذي قد انتهى حرّه، وكذا فسر قوله تعالى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن: ٤٤]، ومثله: (سرابيلهم من قطر آن) وهي قراءة ابن عباس وأبي هريرة وغيرهما رضي الله عنهم. والقطر: النحاس. والآني: الذي قد أنى وأدرك؛ أي: انتهى حرّه. وقراءة الجماعة: (من قطران) يعني: قطران الإبل وهذا هو

المعلوم، أي: قمصهم التي يلبسون في النار من هذا النوع. فانظر ماذا تصنع النار في القطران. نعوذ بالله من جميع سخطه.

وكذا قوله تعالى: ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ [الغاشية: ٥] يعني: قد بلغت نهاية الحرّ. قال مجاهد: يعني نضجها منذ خلق الله الدنيا. وقد تقدّم: أنى يأني، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦] جاء في التفسير: أن المزاح والضحك كثر في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية.

وفي الرقائق: حدثنا نعيم قال: حدثنا ابن المبارك، قال: حدثنا صالح المري، قال: حدثنا قتادة أنّ ابن عباس قال: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

وتقدّم: يا عمر الخير رزقت الجنة. حكى أبو بكرة أن أعرابياً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأنشده:

يا عمر الخير رزقت الجنة   اكس بنياتي وأمّهنه
وكن لهم من الزمان جنه   أقسم بالله لتفعلنه

قال له: فإن لم أفعل يكون ماذا؟ قال:

تكون عن حالي لتسألنه   يوم تكون الإعطياء منه
وموقف المسؤول عند هنه   إما إلى نار وإما إلى جنه

قال: فبكى عمر حتى بلت دموعه لحيته، ثم قال لغلامه: يا غلام أعطه قميصي هذا لموقف هذا اليوم، لا لشعره، أما والله فإني لا أملك غيره.

فصل:

من ملح هذا الفصل؛ جمع بعض الشعراء لفظ: (انّ) وكلمات في أوّل شعر شبيه باللغز فقال:

إن آن أن نلتقي علمنا   مَن منَّ مِن أهلنا علينا
صرصر صرف الرياح بلغ   ودّ ودود دنا إلينا
لو لؤلؤ لوّمت رضاها   لولولوا بالبكا علينا

في أبيات مثل هذه، وهذا لعمري مما يستملح ويستحلى، ويتأدّب به الأديب

ويتحلّى.

ولي أغرب من هذا، وهو من جملة ما كتبت به إلى ابن الرضي ـ رحمه الله ـ وطلب مني شعراً بلا خلط فكتبت إليه بالشعر الذي أوّله: (ادر دوار أراد دردا) ثم أردفت ذلك بقطعة فيها بيت ينعكس بلا خلط، إلا أن أحد حرفيه منقوط، والآخر عاطل، واعتذرت عن ذلك بما تراه، وهي قطعة لزومية:

قـل لِمـن فـي المعالـي والسـناء اعـتلانا
مـن بتكلـيف مـا لا يـستطاع ابـتلانا
لـم أجـد غيـر بـيت فاسـتمع أنـت لانـا
وقـع الـنقط فـيه فـأرى البـيت لانـا
غيـر أنـا التـزمنا فـي القوافـي تلانـا
مـن أتانـا بـبدع بعـدنا أو تلانـا
أحرفـي قـائلات حـبذا مـن تلانـا
إنّ أنْ أنّ آن إنّ إنْ أنّ آنـا

وهذا من اللزوم الصعب بعد التزام تلانا في كل بيت قبله.

وتفسير البيت الآخر، الذي لا يتخلط وينعكس في قراءته وليس فيه من الحروف سوى ألف ونون؛ تفسيره أن الأول: أمر من قولك: أنّ يئن. والثاني: مفعول من أجله. والثالث: فعل ماض. والرابع: اسم فاعل. والخامس: للتأكيد. والسادس: للشرط. والسابع: فعل ماض. والثامن وهو آخرها: بمعنى حان. والألف في آخرها: للوقف؛ مثل: الظنونا والسبيلا.

ومثل: (آن) حان؛ قول أبي بكر رضي الله عنه في مخرجه: آن الرحيل يا رسول الله، أي حان. وتقدّم في الشعر، فاستمع أنت لانا. وهذا لا إشكال فيه. وفي الرواية الأخرى إشكال وهي: فاستمعه تلانا، أردت: الآن، والتاء زائدة. قال أبو زيد: سمعت من يقول: جئتك تلان؛ يريد: الآن فيزيد التاء، كما قال الشاعر:

وصـلته كمـا زعمـت تلانـا

قاله الجوهري، قال: وقد زادوها في: تحين. وأنشد لأبي وجزة:

العاطفـون تحـين لا مـن عاطـف والمطعمـون زمـان أيـن المطـعم

إلا أنه يروى في هذا: العاطفونة حين؛ على حدّ قولهم في الوقف: هؤلاء مسلمونه وصابرونه، فيلحقون الهاء لبيان الحركة في الوقف. كما أنشدوا:

أهكـذا يـا طـيب تفعلـونه أعلـلاً ونحـن مـنهلونه

فكأنه قال: العاطفونه، ثم إنه شبه الوقف بهاء التأنيث، فلما احتاج لإقامة الوزن إلى حركة الهاء قلبها تاء؛ كما تقول في الوقف: جحفة، فإذا وصلت صارت الهاء تاء، فقلت: جحفت، فعلى هذا روي: العاطفونة. وقال قوم: إنما هو العاطفون، مثل: القائمون، ثم إنه زاد التاء في: تحين، كما زادها الآخر في: تحين، وذكر الشطر المتقدّم:

وصـــلته كمـــا زعمـــت تلانـــا

وبقيت مسألة من هذا الباب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ [طه: ٦٣] تكلّم العلماء فيها، فمنهم من جعل الكلام في إن فقال: إنما هي مخففة النون بمعنى (ما) واحتجّ بقراءة أبي بن كعب رضي الله عنه: (إن ذان إلا ساحران) ومنهم من قال: الهاء هاهنا مضمرة تقديره: (إنه هذان لساحران)، ومنهم من قال: إن هاهنا بمعنى نعم؛ كما تقدّم. واحتجّ بقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا أحصي كم سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: إن الحمد لله نحمده ونستعينه. على تقدير (أنه) أو (نعم). ومنهم من قال تقديره: إنّ هاذان لهما ساحران. ومنهم من قال: إنما هي (أن) بفتح الألف، واحتجوا بقراءة ابن مسعود: (أن هذان لساحران) أن منصوبة الألف ساكنة النون، بجعل (أن) تبياناً لما قالوا في نجواهم. ومنهم من جعل الكلام في: (هذان) وقال: هي لغة بلحارث بن كعب، يقولون: مررت برجلان، وقبضت منه درهمان، وجلست بين يداه، وأنشد:

تـــزوّد مـــنا بـــين أذنـــاه طعـــنة

البيت. ومنهم من كان يكتبها كما في المصحف ويقرؤها: (إن هذين) ويحتج بقول عثمان وعائشة رضي الله عنهما: أرى في القرآن لحناً وستقيمه العرب بألسنتها. وقال الفراء: وجدت الألف في هذا دعامة وليست بلام الفعل، فزدت عليها نوناً في التثنية، فقلت: جاءني هذان، ورأيت هذان، فلم أغيرها. كما قلت: الذي، ثم زدت عليها نوناً، فقلت: جاءني الذين عندك، ورأيت الذين عندك. وقال ابن كيسان نحواً من هذا: لما كانت التثنية يجب أن لا يغير لها الواحد أجريت مجرى الواحد. وروي عن ابن كثير أنه قرأ: (هذانّ) بتشديد النون. وهذه أقوال كلها شافية والحمد لله.

خـــرجت مـــن فـــنّ إلـــى فـــنّ ولـــم يكـــن ذلـــك فـــي الظـــنّ
فكلـــه علـــم فحـــصله فـــي صـــدرك واســـمع يـــا فتـــى منّـــي

معكوس البيت

ونا وناي وناء وناء

لم يجتمع لي بيت من هذا الشكل، وأكملتها أربعة بـ الونا الذي هو: الفتور،

وواوه أصلية من نفس الكلمة. تقول منه: ونا يني ونياً، وتقول: رجل آنٍ وامرأة أناة: حليمة، وقد تقدّم، ويقال: هي البطيئة القيام، قال:

رمــــته أنـــاة مـــن ربـــيعة عامـــر

البيت. والهمزة بدل من واو، وأصله: وناة، ولم تبدل الواو المفتوحة من الهمزة إلا في هذا، وفي أحد من قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] بمعنى واحد، وأصله: وحد، وتقدّم هذا في أوّل الكتاب.

و: ناة غير مهموزة، مثل: فتاة، تقول: تأنيتك حتى لا أناة لي، وأفعل ذلك بلا ونية، أي: بلا توان، وأما قول الأعشى:

ولا يـــبع الحمـــد بـــل يـــشتري بوشـــك الظـــنون ولا بالـــتون

فإنه أراد بالتواني، فحذف الألف لالتقاء الساكنين، لأن القافية موقوفة. والميناء كلاء السفن ومرفؤها، وهو مفعال من: الونا؛ وهو: الفتور. ويقال: رجل نأنأ في الأمر: إذا أفتر. ومنه نهنهه في أحد القولين، على أن تكون الهاء مبدلة من همزة، ويجيء: نهنهت بمعنى كففت، وتكون الهاء أصلية، وينشد على نأنأ بيت امرئ القيس:

لعمـــرك مـــا ســـعد بخلـــة آثـــم ولا نأنـــأ يـــوم الحفـــاظ ولا حـــصر

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للأشج؛ أشج عبد القيس: إنّ فيك لخصلتين يحبهما الله الحلم والأناة. يعني التثبت في الأمور وترك العجلة. يشهد لهذا التفسير قوله عليه السلام: من تأنى أصاب أو كاد، ومن عجل أخطأ أو كاد. وفي القرآن العزيز من هذا التفسير: ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ [طه: ٤٢] أي: لا تفترا، وقيل: لا تبطئا، وقيل: لا تغفلا. وذلك كله متقارب. يقال: ونى يني ونياً: إذا فتر، ومنه التواني. قال هذا كله المهدوي.

وأما نأى؛ فمعناه: بعد، واسم الفاعل منه: ناء، وهو آخر الكلمات في الترجمة. يقال: نأى ينأى نأياً، وأنأيته: أبعدته إنآء؛ مثل: أقصيته إقصاء، والنأي: البعد. ويقال: النأي الفراق، وإن لم يكن ببعيد، والبعد ضد القرب، قاله ابن عزيز رحمه الله. وفي كتاب الله: ﴿ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٣] أي: تباعد عن القيام بحقوق الله عز وجل وعن ذكره. وقراءة ابن ذكوان (ناء) مثل: باع، وهو مقلوب منه، ومعناهما سواء.

يقال: ناء ونأى عنك، وأنشد:

أعـــاذل إن يـــصبح صـــداي بقفـــرة وحـــيداً تـــناآى ناصـــري وقريبـــي
تـــرى أن مـــا أبقـــيت لـــم أك ربـــه وأن الـــذي أنفقـــت كـــان نـــصيبي

ويقال: ناء بحمله: إذا نهض به متثاقلاً، من قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ ﴾ [القصص: ٧٦] أي: تنهض بها، وهو من المقلوب، والمعنى: ما إن العصبة لتنوء بمفاتحه، أي: ينهضون بها متثاقلين، والله أعلم.

ومن كلامهم: له عندي ما ساءه وناءه، وما يسوؤه، وما ينوؤه أي: يثقله. ويقال: ناء النجم: إذا مال للسقوط. والمصدر من هذا: نوء. قال ابن قتيبة: سمي نوءاً لأنه إذا سقط الغارب ناء الطالع، وبعضهم يجعل النوء السقوط كأنه من الأضداد. وسقوط كل نجم من المنازل في ثلاثة عشر يوماً. وكانت العرب تزعم أنه لا بدّ عند سقوط نجم وطلوع آخر من حادث إما مطر وإما ريح أو برد أو حرّ ينسبون ذلك إلى النجم، ويقولون: كان كذا بنوء كذا، فإن لم يكن ذلك عند شيء قالوا: خوى نجم كذا وأخوى.

ولهذه الكلمة ـ التي هي نوء ـ كلمات أخرى على شكلها: بوء، وتوء، وثوء. وأما بوء: فمصدر باء، وقد تقدّم، تقول: باء بكذا يبوء بوءاً: إذا حمله، فإن قدّمت الهمزة من بوء فقلت: بأو، انقلب إلى معنى آخر وهو التعظيم والرفعة، ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما: فبأوت بنفسي، أي: رفعتها وعظمتها. ومثله قول عمر بن الخطاب في طلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما: لولا بأو فيه. تقول منه: بأوت على القوم أبأى بأواً. قال حاتم طيء:

فما زادنا بأواً على ذي قرابة ... غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

وأما: بو؛ غير مهموز؛ فإن العرب إذا مات لأحدهم ولد ناقته أو بقرته وخشي أن يجف لبن أمه عمد إلى جلد ذلك الميت فحشاه تبناً أو شبهه، ثم قرّبه وقت الحلب إلى أمه، فتشم رائحته فتظنّ أنه جاء للرضاع، فتدرّ لبنها عليه ويبقى ولا يجف. ويسمى ذلك الجلد المحشو: البو، وقد ذكرته في أشعارها كثيراً، كما قال:

فما أم بوّ هالك بتنوفة

البيت. ومثله: وكنت كأم البو...... وقد تقدّم.

وقالوا للمفازة: موماة وبوباة. قال ابن السراج: أصلها موموة؛ على فعللة وهو مضاعف قلبت واوه ألفاً لتحرّكها وانفتاح ما قبلها، والتنوفة: القفر، وتجمع: تنائف، ويجمع البوّ على أبواء. والبوّ أيضاً: رماد الأثافي. قاله صاحب العين، وقاله ثابت. ويجمع الرماد على أرمداء. يقال: هذه أرمداء كثيرة، وأنشد:

لم يبق هذا الدهر من إبائه ... غير أثافيه وأرمدائه

وسيأتي. وجاء منه في الحديث: خذها رماداً رمدداً. وفسره: الهلاك. ومنه قيل: عام الرمادة، ورمدت القوم رمداً: أي أهلكتهم، وأنشد:

صببت عليكم حاصبي فتركتكم كأصرام عاد حين جللها الرمد

ويقال: رماد رمدد ورمديد، كما قالوا: جارية رعديد.

وأما التو: فهو الفرد ضد الشفع. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: الاستجمار تو، ورمي الجمار تو، والسعي بين الصفا والمروة تو، والطواف تو. يعني وتراً لا شفعاً. ونقيضه زو، يقال جاء فلان زوّاً، إذا جاء هو وصاحبه، ومنه قول المعري: (واجعل زوّاً من بناني في سمعي) والزوّ: القرينان.

فإن نصبت هذه الألفاظ وكتبتها بالألف: نواً، وبواً، وتواً، وأدخلت معها ما هو من شكلها مثل: نوا، إذا كتبته بالألف إذ قد يجوز ذلك. فيأتي من شكله: نوى ينوي بمعنى: اعتقد، ونوى التمر وغيره، وجمعه: أنواء، قاله ابن كيسان. ونوى: بعد، وقيل: فراق. ويقال: انتويت المنزل ونويته. والنوى: التحوّل من مكان إلى غيره. ونواه الله، والنوى: الرفيق. ومن شكل النوى: النؤى؛ وهو الحفير حول الخباء، كما قال:

والنؤي فالحوض

البيت. ويقال فيه أيضاً: نئي، والجمع: أنآء، على وزن أفعال، ونؤي ونئي، وأنأيت للخباء نؤياً وانتأيت. قاله الزبيدي رحمه الله.

ويأتي منه: توى بتاء بنقطتين يتوي توى بمعنى: هلك. حكاه يعقوب. والتوى: الهلاك. وفي البخاري في شأن الدين يكون بين الرجلين على رجل فيريدان قسمته قال فيه: فإن توى لأحدهما يعني هلك. وقد يقال في هذا: توي يتوى تواً؛ فهو: تو، على وزن: عمي يعمى عمى فهو: عم. هذا أشهر من الذي حكى يعقوب. قاله ابن السيد.

وذكر ابن جني في المقصور والممدود أن التوى: الهلاك مقصوراً، وليس في كلامهم اسم ثلاثي مقصور مفتوح الأوّل ثانيه واو يكتب بالألف إجماعاً إلا التوا. نقلته من غير الكتاب المذكور. ويأتي من هذا الشكل أيضاً: ثوى يثوي إذا أقام. ويقال للمقبور أيضاً: قد ثوى يثوي ثوياً فهو ثاو؛ على وزن مضى يمضي مضياً فهو ماض. قال الشاعر:

وضجيع طفلهم الحسام وإن ثوى منهم فتى فمع المهند يقبر

هو للمعري وبعده يقول:

فكأنهم يرجون لقيا ربهم بالبيض تشفع عنده وتكفر

إلا أن مصادر هذه الأفعال تختلف. فمصدر نوى: نية، وتوى: تواً، وثوى: ثوياً، كما قال:

لقـــد كـــان فـــي حـــول ثـــويّ ثويـــته

البيت.

ويأتي على شكل ثوى: بوى وتوى ونوى. أما ثوى: فتقول منه: ثوى فلان بالمكان: أقام به، يثوي ثواء وثوياً، مثل: مضى يمضي مضياً ومضاء. وتقول: ثويت البصرة؛ وثويت بالبصرة وأثويت بالمكان؛ لغة في ثويت. قال الأعشى:

أثـــوى وقـــصر لـــيلة ليـــزوّدا فمضت وأخلف من قتيلة موعدا

وأثويت غيري؛ يتعدى ولا يتعدى؛ وتقول: أثوني فلان ثواء حسناً، ورب البيت: أبو مثواه. وفي القرآن: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ ﴾ [يوسف: ٢١] و﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ [يوسف: ٢٣] والثوى: بيت في جوف بيت، والثوى أيضاً: البيت المهيأ للضيف. والثوى: الضيف نفسه. والثوى: خرق كهيئة الكبة على الوتد يمخض عليها السقاء لئلا ينخرق.

وأما بواء؛ بالباء؛ فهو: السواء. وجاء في الحديث مفسراً: قسمها على بواء. يقال: على السواء. ويقال: فلان بواء بفلان؛ أي: إن قتل به كان كفواً. وأجابونا من بواء واحد؛ أي: عن جواب واحد. وبوأ فلان فلاناً منزله: أنزله فيه فتبوّأه. وبوّأ نحوه الرمح: قابله به. وبواء: موضع قال الشاعر:

كأنـــا أســـد بيـــشة أو لـــيوث بعثـــرا ومنازلـــنا بـــواء

وأبواء: على وزن حمراء؛ نعت للعنز التي أصابها الأباء؛ وهو المرض. يقال: عنزة أبية وأبواء. وقد تقدّم. وتقول: تبوّأ الرجل منزلاً تبوّأً. والبيئة: الاسم. قال الرياشي: يقال: بات فلان بحيبة سوء، وبكفيئة سوء، وبيئة سوء: إذا كان بحالة سيئة. انتهى كلامه.

وأما نواء؛ بالنون؛ فمن المناوأة وهي: المعاداة. تقول: ناوأت الرجل: ناهضته بالعداوة، وأصله: نأى إليك، ونأوت إليه. ومنه يقال: إذا ناوأت الرجل فاصبر. وفي الحديث من هذا في شأن الخيل: ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء لأهل الإسلام فهي على ذلك وزر. والنواء أيضاً: النوق السمان، ومنه حديث حمزة رضي الله عنه إذ غنته القينة:

ألا يـــا حمـــز للـــشرف الـــنواء

فسره المازري رحمه الله قال: الشرف جمع شارف، والنواء: السمان. يقال: نوت الناقة تنوي نياً: سمنت وكثر نيها؛ وهو الشحم. ويقال: الني الاسم، والنيء: الفعل. وقال غيره: الني القصب. ومنه قيل: نيسابور، للمدينة لأنها كانت مقصبة سابور؛ وهو

اسم الملك؛ فلما بنيت قيل: مقصبة الملك. وقد يقال: لحم نيء بيّن النيوء: إذا لم ينضج. وأنأت اللحم وقد ناه ينيء نيئاً. ويقال: نوت البسرة وأنوت: انعقد نواها.

ومن مضاعف هذا الباب: نأنأ الرجل: ضعف وعجز فهو: نأناء ونأنأ. وأنشد:

لعمـرك مـا سـعد بخلـة آثـم ولا نأنـأ عـند الحفـاظ ولا حـصر

وتنأنأت: عجزت. ونأنأت الرجل إذا: نهنهته وكففته عما يريد. ورجل نأنأ أيضاً: إذا كان يكثر تقليب حدقتيه. ومن النأنأة حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إذ قال لسليمان بن صرد؛ وكان قد تخلف عن يوم الجمل ثم أتاه بعد؛ فقال له عليّ: تنأنأت وتربصت وتراخيت، فكيف رأيت الله صنع. يقول: ضعفت واسترخيت. وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: طوبى لمن مات في النأنأة. يريد أول الإسلام إذ كان ضعيفاً، قبل أن يكثر الاختلاف والفتن ولم تتشتت كلمتهم، والله أعلم. قال أبو عبيد: أما المحدّثون فلا يهمزونه. وقال الأصمعي: النأنأة مهموزة.

بقيت القافية أخرتها حتى أجمعها مع قافية البيت الذي يأتي بعده إن شاء الله تعالى، لأنهما متقاربتان، وكذلك أخرت الفوائد إلى فوائد البيت الآخر إن شاء الله تعالى. وأقول:

وذا آن ونـاه قـد تقـضى وآخـذ بعـد فـي أنـا وإنـا
وأذكـر فـيه مـا أدري ومـا لا أحـيط بـه علـيه أثـن أنـا
عـسى الـرحمن يرحمنـي بـذاكم وأنـى لـي بـرحمته وأنـى

مقلوب البيت حرف بين ألفين

وانا وانا وانا وانا وانا وانا ونل ونل

أما أنا وإنا: فإنهما الحرفان المتقدمان، وإنما زدت عليهما اسميهما، وهما في القرآن في غير موضع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يس: ١٢]، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠]، وجاء بلفظ الجمع على ما تستعمله العرب في مخاطبة الملوك وأخبار الملوك عن أنفسها، يقولون لهم: فعلتم كذا، وإن رأيتم كذا، وتقول الملوك: نحن فعلنا، ونحن نفعل. والقرآن عربي نزل على ما يعرفونه.

وأما أني؛ فمعناه أخر. قال الشاعر:

فآنـيت العـشاء إلـى سـهيل أو الـشعرى فطـال بـي الأنـاء

وفي الحديث في شأن الرجل الذي جاء يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما منعك أن تصلي معنا الجمعة؟. قال: أولم ترني؟.

قال: رأيتك تأنيت وآذيت، أي: تأخرت عن البكور، وآذيت الحضور. وفي رواية أخرى: رأيتك آذيت وآنيت. وقد تقدّم: أنى والأناة؛ وما أشبهه قبل هذا. وأما: أناً؛ فمصدر: أنَ يئن أناً، وقد تقدّم.

وأما: آناً؛ فأصله الهمز، وتركت همزته للضرورة، وهو: آناء جمع: أني، وهو ساعة من الليل. قال الله عز وجل: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ [الزمر: ٩]، قال ابن عزيز: واحدها: أني وإني وأناء. وقال غيره ذلك وزاد: ويقال: أنو بالواو. ويقال: مضى أنيان من الليل وأنوان.

وأما أنّى في قوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ﴾ [آل عمران: ٣٧] فمعناه: من أين لك هذا. وأما في قوله عز وجل: ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] فقد فسره أبو طالب بقوله: بمعنى كيف شئتم ومتى شئتم، قال: وتكون أنّى بمعنى: حيث، ولا يصلح هذا الوجه هاهنا. وقال الزبيدي: أنّى كلمة معناها كيف ومن أين. وقال ابن عزيز: معناه كيف شئتم ومتى شئتم وحيث شئتم، فتكون أنّى على ثلاثة معان.

بقي من شكل البيت ألفاظ لم تتزن مثل: أنى الماء يأنى إذا: سخن، وقد تقدّم. وأنى الشيء يأنى: تأخر عن وقته. وأنى الشيء يأنى: حان. قال الشاعر:

تمخضت المنون له بيوم   أنى ولكل حاملة تمام

فمعنى أنى: حان.

وقال كعب بن مالك:

ولقد أنى لك أن تناهى طائعاً   أو تستفيق إذا نهاك المرشد

والإنى مكسوراً مقصوراً: إدراك الشيء. وكذلك فسر قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٥٣] والإناء؛ ممدود؛ واحد الآنية، وقد تقدّم القول فيها وفي وزنها، وتُجمع أيضاً أواني. وفي الحديث في صفة حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم: آنيته عدد النجوم. وفي بعض الروايات: قلت: فالأواني، قال: عددها النجوم. جعلنا الله ممن يشرب منه ولا يذاد عنه بمنه ويمنه.

ومن هذا الشكل: أنا؛ وهو ضمير المخبر عن نفسه إذا وقف أثبت فيه الألف، وإذا وصل قال: أن. ومن العرب من يقف بهاء السكت فيقول: أنه. وقد قرئ: (أنا أحيي) و: (أنا آتيك) بإثبات الألف في الوقف والوصل، وقد قرئ أيضاً بحذفها في الوصل هذا إذا لقيتها همزة مفتوحة أو مضمومة، فإذا لقيتها همزة مكسورة حذفت باللفظ في مثل: ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء: ١١٥]. فإن لم تلقها همزة البتة

سقطت من اللفظ مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠]، وقد أثبتت في الشعر دون أن تلقاها همزة قال الشاعر:

أنـــا ســيف العــشيرة فاعرفونـــي

وهو أحد المعارف الخمسة، وقد جعلوه أعرفها، وقدموه على الأسماء والأعلام، وقيل غير هذا، ولكل وجه فإياك والنجه.

وبقي من شكل هذه اللفظة: أنى اسم بئر من آبار بني قريظة، نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حاصرهم. قاله ابن إسحاق. وقال ابن هشام: ويقال بئر أنى. وقد تقدّم في الباب قبل هذا: أنى يأنى بمعنى: حان، مقلوب آن والحمد لله.

بقي مقلوب البيت ألف بين نونين، مثاله: نان؛ لا أعرفه. أعرف نون، وهذا بابه فليفض عنه جلبابه، حتى تتبين أسبابه.

أما نون: فحرف هجاء، ومعناه في قوله تعالى: ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ [القلم: ١] يعني سائر الحروف المقطعة في أوائل السور كما تقدّم. وروى ثابت البناني: إن نون: الدواة. قال مجاهد: والقلم: الذي يكتب به الذكر. والنون أيضاً: لوح من نور، رواه معاوية بن قرة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقد تقدّم صفة اللوح، والحمد لله.

والنون أيضاً: الحوت، وفي التنزيل: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وهو يونس عليه السلام، وسيأتي خبره. وجمع النون: أنوان ونينان. وقع في البخاري: قال أبو الدرداء في المري(*) ذبح الخمر النينان والشمس. والنون أيضاً شفرة السيف قاله صاحب التاج وأنشد للحارث بن زهير العبسي:

بـــذي نونـــين فـــصال مقـــط

قال: والنون اسم سيف لبعض العرب، وكان قد أخذ منه، فأخذ آخر على كره من صاحبه وقال:

ســأجعله مكـــان الـــنون منـــي ومـــا أعطيـــته عـــرق الخـــلال

أي أخذته عنوة وما أعطاه عن مودّة من صاحبه وإنما أخذته طاقة. ومعنى: عرق

(*) المري، بضم الميم، ما يؤتدم به، مما يسمى بالسردين، وهو سمك وملح يوضع في الخمر ويترك في الشمس. قال في النهاية: استعار الذبح للإحلال، كأنه يقول: كما أن الذبح يحل المذبوح فكذلك هذه الأشياء إذا وضعت في الخمرة قامت مقام الذبح فأحلتها. كتبه نصر.

الخلال ما يرشح به لك الرجل، يقول: لم يرشح لي به صاحبه وإنما أخذته غصباً. والنون أيضاً: من حروف الزيادات، وقد تكون للتأكيد في: والله لأضربن، وفي: اضربن زيداً، و: هل تضربن، وفي: إما تضربن اضربنه، وفي غير ذلك مما ذكره النحويون.

وبقي أن يذكر مخرج النون، هو من الحروف المذلقة، ومخرجه من تحت حافة اللسان اليمنى، واللام قريب منه، وهما ممتزجان بصوت الغنة، وقد يتعاقبان على لفظة واحدة، كما يقال: جبريل، وجبرين. وقد قالوا في قوله تعالى: ﴿ سِجِّيلٍ ﴾ [هود: ٨٢] و﴿ سِجِّينٍ ﴾ [المطففين: ٧] هما بمعنى واحد. اللام والنون أختان وهو الشديد. قاله البخاري. وأنشد لتميم بن مقبل:

وجلـة يـضربون البـيض ضـاحية ... ضـرباً تواصـى بـه الأبطـال سـجينا

وقيل في: ﴿ سِجِّيلٍ ﴾ إنه مركب من: سنك وإيل. وقالوا: إسماعيل وإسماعين، وأنشد:

قـال جـواري الحـي لمـا جيـنا ... هـــذا ورب البـــيت إســـماعينا

أراد إسماعيلنا، فحذف النون المبدلة واللام. وأنشده القالي:

هـــذا ورب البـــيت إســـرائينا

وأنشد قبله:

قـــد جـــرت الطيـــر ميامنيـــنا ... قالـــت وكـــنت رجـــلاً فطيـــنا

هـــذا ورب البـــيت إســـرائينا

قال هذه الأبيات رجل من العرب أدخل قرداً إلى سوق البصرة ليبيعه، فنظرت إليه امرأة وقالت: مسخ! أي: مما مسخ من بني إسرائيل. هو يروي في هذه الحكاية أن هذا الشاعر صاد ضباً، فجاء به إلى أهله، فقالت ـ كما تقدّم ـ مسخ. فقال:

يقـــول أهـــل البـــيت لمـــا جيـــنا ... هـــذا ورب البـــيت إســـرائينا

أنشده الحربي وقال: أي مما مسخ من بني إسرائيل كما تقدّم.

وكذلك قالوا: فرس رفنّ ـ بتشديد النون ـ أي: طويل الذنب، والأصل: رفل. وقال النابغة:

إلـــى أوصـــال ذيـــال رفـــنّ

أراد: رفلّ. وقالوا: شثن الأصابع، وشثل بالنون واللام.

وقد يدخلون على النون في قافيتها الميم، كما قال الراجز:

والله مـــا فـــضلي علـــى الجيـــران ... إلا علـــى الأخـــوال والأعمـــام

وقال آخر:

يا رب جعد فيهم لو تدرين … يضرب ضرب السبط المقاديم

وقالوا في المنثور: أين وأيم الحية. وقالوا: حلان وحلام: للجدي الذي يؤخذ من بطن أمه. وأنشد لابن أحمر:

نهدي إليه ذراع الجدي تكرمة … إما ذكياً وإما كان حلانا

إن جعلت حلانا من الحلال فهو: فعلان، والميم مبدل منه. وقال الأصمعي: الحلام والحلان ـ بالميم والنون ـ: صغار الغنم. قال أبو عبيد في تفسير الحلان: إن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا ولد له جدي حز في أذنه حزاً، وقال: إن عاش فقنى، وإن مات فذكى، فإن عاش فهو الذي أراد وإن مات قال: قد ذكيته بالحز، فاستجاز بذلك أكله.

وقالوا: الطواسيم والطواسين سور في القرآن جمعت على غير قياس، وأنشد أبو عبيدة:

وبالطواسيم التي قد ثلثت … وبالحواميم التي قد سبعت

والصواب أن تجمع بذوات وتضاف إلى واحد. فيقال ذوات طسم وذوات حم.

تفسير قافية البيتين: لم أجد نوناً مع لام إلا: نل ونل، ولما لم يتزن أحدهما مع الآخر في بيت واحد، فرقتهما في بيتين، وأضفت إليهما: ثل وثل، لئلا أكرر القافيتين، وخصصت الثاء من بين الحروف لأني تركتها إذ ذكرت أختيها الباء والتاء، وكنت أيضاً استعرت النون في بيتهما في باب، وقد تقدّم ذكر ذلك والاعتذار عنه.

أما نل: فأمر من: نال ينال، وأصله: نيل ينيل، مثل: تعب يتعب. تقول منه في الأمر: نل؛ بفتح النون؛ حسب ما هي في؛ ينال. كما تكسرها في الأمر من: كل؛ لأنك تقول: يكيل. وتضمها في: قل؛ لأنك تقول: يقول. ومعنى نل: أصب، وفي التنزيل: ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾ [التوبة: ١٢٠] معناه يصيبون ويلحقون. وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]. وتأتي لفظة: نال بمعنى: سبق. وفي الحديث من قول الله عز وجل: إن رحمتي نالت غضبي. فسره بعض العلماء سبقت. وأنشد قول زهير:

نال الملوك وبدأ بعده السوقا

والمصدر: نال نيلاً ومنالاً ونولاً ونالاً. وفي الحديث في قصة موسى عليه السلام والخضر: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها. يعني ـ والله أعلم ـ: بغير ثمن أعطيناهم. فسره الخطابي: بغير جعل. والنول والنوال: العطاء. والنائل مثله.

وما أحسن قول عبيد بن الأبرص يمدح قومه:

قومي بنو دودان أهل الندى ... والبأس إذ ألقحت الحائل

كم فيهم من سيد أيد ... ذا نفحات قائل فاعل

من قوله قول ومن فعله ... فعل ومن نائله نائل

وقد تسمى المرأة نائلة، منهن: نائلة بنت الفرافصة الكلبية رضي الله عنها.

وأما: نل؛ فمن قولك: أنلته المعروف ونلته، ونولته: أعطيته نوالاً. ويقال: النولة اسم للقبلة، وتكون أيضاً بمعنى: الفعلة من العطية، كما قال:

إن تنوّله فقد تمنعه ... وتريه النجم يجري بالظهر

ويقال: ما كان نولك أن تفعل كذا؛ أي: ما ينبغي لك، وقد أنالك أن تفعل. والنول والمنوال: من أداة الحائك، وجمعه: أنوال. قال ابن السكيت: يقال رجل نال: كثير النوال، ورجلان نالان، وقوم نوال.

فصل:

وأما مقلوب هذه اللفظة (نل) فهو: لن؛ حرف نفي من حروف النصب، ولن: أمر من: لان. ويقال: إذا عز أخوك فهن. وإذا اشتد المن. وفي التنزيل: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأما: ثل وثل فمن فعل واحد. يقال: ثل البيت يثله ثلاً: إذا هدمه. وثل عرش الرجل: هدم وزال قوام أمره، وأثله الله: إذا تضعضعت حاله. والمصدر: الثل، وأنشد:

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها ... وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

وربّما قيل: ثل عرش فلان وعرشه: إذا قتل. قاله الأصمعي. وأنشد:

وعبد يغوث تحجل الطير حوله ... وقد ثل عرشيه الحسام الذكر

والعرشان في هذا الموضع مغرز العنق في الكاهل، وكذلك: عرشا الفرس: آخر منبت قذاله من عنقه. والثلل: الهلاك. وأنشد:

إن يثقفوكم يلحقوكم بالثلل

ويقال: ثل عرشه؛ بمعنى: ذهب عزه، وثل ثلله، وأثل الله ثلله؛ أي: أذهب عزه، والثلة: الصوف. قال الراجز:

قد قرنوني بامرئ عثول ... رخو كحيل الثلة المبتل

العثول: الثقيل؛ فيما أخذ فيه. وقال أبو زيد: الثلة: القطيع من الضأن خاصة. وقال غيره: والجمع ثلال، والثلة: طمي، يومين بين شبربتين، والثلة؛ بالضم: الجماعة

من الناس. وفي التنزيل: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٣-١٤] جاء في التفسير الثلة: الجماعة؛ مأخوذة من: الثل وهو القطيع. قال مجاهد: الجميع من هذه الأمة. والمعنى: فرقة ممن تقدّم، وفرقة ممن تأخر. وقال الحسن وغيره المعنى: فرقة ممن مضى قبل هذه الأمة. ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٤] ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، وسموا قليلاً بالإضافة إلى من كان قبلهم. وقيل المراد بذلك الأنبياء؛ لأنهم في الأولين أكثر منهم في الآخرين. وأما قوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ٣٩-٤٠] فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الثلتان جميعاً من أمتي. ذكر ذلك كله المهدوي رحمه الله. فإن جعلت الواو من نفس الكلمة فله معنى الوثل ـ بالتحريك ـ: الحبل من الليف، والوثيل: الليف، ومنه: سحيم بن وثيل، وواثلة: اسم رجل.

وأما مقلوب هذه اللفظة فـ: لث، يقال: شجر ملثوث: إذا أصابه الندى، واللثة: واحدة اللثات؛ وهي: اللحم بين الأسنان، واللث: شيء أبيض يسيل من ماء الشجر. وقد لثيت الشجرة وألث ما حولها وقد تقدّم. وألث السحاب: دام. وكذلك ألث المطر إذا دام أياماً لا يقلع. ولثلث وتلثلث: تردّد، واللثلاثة والمثلث: البطيء، والإلثاث: الإقامة بالمكان، وهو من: ألث. وفي الحديث: لا تلثوا بدار معجزة.

خرجت من شيء إلى غيره ... وهكذا في شرطنا أن يكون
لكنني لم أعد نوناً إلى ... ميم ولا ميماً إلى حرف نون
بل كان معنى جاء في بابه ... فاجتمعت في ذاك شتى فنون

فصل:

من فوائد هذا الباب تقدّم: ناء، وتنوء بالعصبة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: العصبة ثلاثة رجال. وعنه: من الثلاثة إلى العشرة. وقال ابن عنبسة: أربعون رجلاً. وقال مجاهد: من عشرة إلى خمسة عشر. وأصلها في اللغة: الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض، وكانت مفاتحه من جلود الإبل. قال الضحاك: كان يحمل مفاتيح خزائنه أربعون رجلاً. وقال أبو صالح: يحملها أربعون بغلاً. وجاء من ناء في الحديث في شأن الرجل الذي خرج تائباً إلى القرية الصالح أهلها من القرية التي كان يعمل أهلها السوء، بعد أن كان قتل مائة نفس فأدركه الموت في الطريق: فناء بصدره نحو القرية الصالح أهلها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فبعث الله إليهم ملكاً فقال: قيسوا ما بين القريتين، فوجد إلى القرية الصالح أهلها أقرب بشبر، فقبضته ملائكة

الرحمة. قال بعض أهل العلم: يحتمل أن يكون ذلك الشبر هو الذي زاده إذ ناء بصدره، والله أعلم. وإذا الله سنى عقد أمراً تيسرا. وإذا أعطى فلا مانع.

وإذا كانت العناية منه　　　جاءك السعد أينما كنت تحضر

وهذا البيت أنشدنيه الفقيه أبو محمد عبد الحق رحمه الله لنفسه في قطعة منها:

شكر الله سعي قوم ففازوا　　　وأنا لم يكن لي سعي فيشكر
وثنى من ثنى عنان التصابي　　　وأنا مثل ما عهدت وأكثر
وإذا العبد لم يمدّ برشد　　　أنجد الدهر في الضلال وغوّر

ولما رآها الفقيه الخطيب أبو محمد عبد الوهاب رضي الله عنه بدل قوافيها، فقال:

حمداً لله سعى قوم ففازوا　　　وأنا لم يكن لي سعي فيحمد
وثنى من ثنى عنان التصابي　　　وأنا مثل ما عهدت وأزيد
وإذا العبد لم يمدّ برشد　　　غوّر الدهر في الضلال وأنجد

وقال في البيت الأول:

وإذا كانت العناية منه　　　جاءك السعد أينما كنت تشهد

وهذه الأبيات، وإن لم تكن من الباب، فهي عندي من اللباب.

والحديث أيضاً يجرّ بعضه بعضاً. وتقدّم: خوى نجم كذا وأخوى، كان هذا في الجاهلية. فلما جاء الإسلام أبطل هذا كله وهو الحق. لأنه لا فاعل إلا الله. وقد ذمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول إذا أصبح وقد مطر الناس: مطرنا بنوء الفتح. ويتلو هذه الآية: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر: ٢] الآية. وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه تبارك وتعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. ومن قال: مطرنا بنوء كذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب.

وتقدّم: التنائف جمع تنوفة، وأنشدني بعض أصحابنا للرصافي وكان محسناً رحمه الله:

ولو أني على بعدي وضعفي　　　جعلت الشوق راحلتي وطرفي
لمزقت التنائف دون جهد　　　وجئتك قبل أن يرتدّ طرفي

وتقدّم: التوى الهلاك. وأنشدني الخطيب لنفسه من قطعة طويلة رحمه الله:

قد زدت في نون النوا فنقطتها　　　أخرى لأني بالفراق خبير

يقول: إن النوى يؤول إلى التوى، كما قال الحريري رحمه الله:

بني استقم فالعود تنمى عروقه ... قويماً ويغشاه إذا ما التوى التوى

وتقدّم: البيئة والحيبة. ذكر ثابت رحمه الله في شرح حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه دخل على يزيد بن معاوية وعنده عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم؛ ومن كان معه من نساء الحسين وصغار ولده. فقال له يزيد: يا نعمان ما ترى أن أصنع بهؤلاء؟. فأمر بهم يزيد فأدخلوا الحمام؛ وكانوا قد قشبوا؛ وكساهم وسرحهم إلى المدينة. قوله: قشبوا، يعني: يبسوا وتغيروا. وفي الحديث في صفة الرجل الذي يخرج من النار فيقول: يا رب قشبني ريحها. وذكر الحديث.

وتقدّم قول ابن عزيز رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وهذا التفسير منه ـ رحمه الله ـ إنما هو على عرف الشرع وما يجوز فيه. ألا تراه يقول: متى شئتم. وقد علم أن الحائض لا تؤتى حتى تطهر كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ يعني من حيضهن ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] يعني بالماء، وكذلك علم أن الحائض لا تؤتى وهي صائمة ولا في ليل الاعتكاف ولا في حال الإحرام، وتدخل هذه كلها تحت متى ولكن منع الشرع منها فكذلك يخرج قوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ أي: حيث شئتم مما أبيح لكم في الشرع من مواضع الجسد ك: بين الفخذين في غير أوان الحيض، أو بين العكن في أوانه، إذ قد رخص له ما فوق الإزار، لقوله عليه الصلاة والسلام: لتشد عليها إزارها ثم شأنك بأعلاها. وأما الدبر فأعوذ بالله أن يعتقد بما لم يجب إجلاله إباحته وإحلاله بعد ما جاء فيه من التشديد والوعيد الشديد، لو لم يكن غير قول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: من أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد. وخرج الترمذي من طريق أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من أتى حائضاً، أو امرأة في دبرها، أو كاهناً، فقد كفر بما أنزل على محمد. صلى الله عليه وسلم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: محاش النساء عليكم حرام. ذكره الخطابي. وقال: والمحشة: الدبر، وهي المحسة أيضاً، ومن أسمائها: السته، والفقاعة، والعفاقة. ومنه قولهم: كذبت عفاقته. وخرج النسائي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة أو رجلاً في الدبر. وخرج أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ملعون من أتى امرأة في دبرها. هذا هو الصحيح.

وقد اشتبه على بعض من لا يعرف اللغة في قول عائشة رضي الله عنها: إذا حاضت المرأة حرم الجحران احتج به من رواه الجحران ـ بكسر النون ـ وقال لولا

أنهما كانا حلالاً قبل ذلك لم يقل حرَما بعد الحيض، كما قال ابن قتيبة، وقد ذكر هذا الخبر، إنما الرواية الصحيحة الجحران ـ بضم النون ـ وهو الفرج. وهذا مذهب في اللغة صحيح، لأن هذه الألف والنون تزادان آخراً. قال أبو زيد: يقال جئت في عقب الشهر وفي عقبانه، وقالوا في الجمع: سود وسودان، وحمر وحمران، وقالوا: فرس عري لا جلّ عليه، ورجل عريان، ولم يقولوا: فرس عريان، ولا رجل عري، وكذا قالوا: جحر الضب: وجحر الأرقم: وقالوا للفرج خاصة: جحران، فزادوا الألف والنون ليكون اسماً له، وقد يفعلون مثل هذا كثيراً. قالوا: فحال النخل، وفي سائر الأشياء فحل. وقالوا: أخوه بلبان أمه، وقالوا: في سائر الأشياء لبن، إلى غير ذلك. انتهى كلامه.

وقال غيره: ومن الآية نفسها يخرج المنع من ذلك. ألا تسمعه تعالى يقول: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] أي: إنكم تحرثون منهن للولد؛ كما تحرث الأرض طلباً للزراعة. روي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال في هذا: الحرث لا يكون إلا من حيث النبات. وقد نجه بعضهم وتهم من بذلك اتهم فقال له: ويلك أتبذر في السباخ، وتستفرخ حيث لا إفراخ.

قلت: فحيث يحل الازدراع فثم يحل الانتفاع، مع قوله عليه الصلاة والسلام: تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة. وفي رواية: حتى بالسقط والرضيع.

قلت: انظر فضيلة الولد وإن كان سقطاً. وقد جاء: أم الولد حرة وإن كان سقطاً. وقد نهى عن العزل في الموضع الحلال فكيف عن ذلك. وقال: سوداء ولود خير من حسناء عقيم. هل ذلك إلا لطلب الولد؟ هذا لا خفاء فيه على أحد، ولا يكون النسل في الموضع الفسل، وصاحب هذه الخصلة الشنيعة بمنسلخ من الشريعة، لم يتأدب بآدابها، ولا تعلق بأهدابها، ولا اكتسى بأثوابها، ولا أتى البيوت من أبوابها.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩] ائتوا النساء في فروجهن. و: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩] فسر في النهي عن إتيان النساء في أدبارهن. رواه ابن الأنباري في التحصيل. وقد كذب على مالك رضي الله عنه من روى عنه ذلك. روى عنه علي بن زياد أنه سئل عن ذلك فأباه وأكذب من نسبه إليه هذا الذي يليق بإمامنا مالك رضي الله عنه.

وخرج ثابت رحمه الله قال: سئل ابن عمر عن التحميض، قال وما التحميض؟. قال: يأتي الرجل المرأة في دبرها. قال: ويصنع هذا أحد من المسلمين؟ خرج هذا الحديث يردّ به ـ والله أعلم ـ ما روي عن بعضهم أنه قال: كنا نشتري الجواري

ونحمض فيهن. وهذا باطل. شاهده أنه لما سئل عن ذلك ابن عمر رضي الله عنه أنكره، وقال ما تقدّم.

قلت: وهذه اللفظة مأخوذة من الحمض، وهو من النبت ما فيه حموضة، ضد الخلة من النبات، وهو ما ليست فيه حموضة، وإذا أكلته الإبل اشتهت الحمض. تقول العرب: الخلة خبز الإبل، والحمض لحمها، ويقال: فاكهتها. وقد تقدّم في أوّل الكتاب قول ابن الزبعري: هاتوا من أشعاركم، فإن للآذان مجة، وللنفس حمضة. والحمضة: الشهوة إلى الشيء، مأخوذ من فعل الإبل التي إذا ملت الخلة طلبت الحمض. وقد فسر أبو عبيد البكري قول المرأة التي ذكر أبو علي في النوادر: وإن أصل الحمض على وجهين: أحدهما على المذهب السوء، واستشهد على هذا بقولها بعده: وإن أخل أحمض. قال: وهذا يقوي ذلك المعنى. والوجه الآخر؛ وهو الأولى: أن يكون قولها: وإن أخل أحمض. أي: ينقلها من نعمة إلى نعمة أخرى، كما تفعل الإبل إذا ملت مرعى انتقلت إلى غيره. ويقال: حمضته وأحمضته. قال الطرماح:

لا تني بحمل العدوّ وذو الخلة يشفي صداه بالأحماض

وقال العجاج:

جاؤوا مخلين فلاقوا حمضاً طاغين لا يزجر بعض بعضا

أي: جاؤوا يشتهون القتال فلاقوا من يقاتلهم، وقد تقدّم هذا في باب الخاء، مع قولهم في المثل: إذا جاء الرجل متهدداً أنت مخل فتحمض. قال الشاعر:

وخلة داريت بالأحماض

قلت: وأرى قول العامة للمرأة: حامضة، مأخوذ من المعنى الأوّل، كأنهم أرادوا: محمضة؛ أي: حمضة؛ أي: ذات شهوة، والله أعلم.

بيان ثان ببرهان دان

انظر هل يفرق بين الأنثى والذكر إلا بالفرج وهما فيما سوى ذلك سواء، فيقتضي العقل والنظر أن فيهما وبهما قضاء الوطر، إذ بهما وقع الفرقان بين الإناث والذكران، ولا يحتج علي باللحية والثديين اللذين يكونان بعد أعوام طارئين، وقبل هاتين الحالتين لا تكاد تفرق بين الشخصين إلا بذينك العضوين، أعني الفرج والذكر المذكورين، وطرّو الثديين لحكمة متقنة، وقدرة ممن خلق كل شيء فأتقنه، فيهما غذاء المولود ساعة يوضع، يجد في الحين ما يرضع، وحلمة الثدي على معيار فيه، ولبن الدر بمقدار ما يكفيه، يهتدي الطفل لمصه، وهو لا يقدر على مسه، ثم يلهم لجذبه إليه

ليدر عليه، ويمسك عن اجتذابه فيتوقف اللبن عن انسكابه. ذلك تقدير الحكيم العليم، وتصوير الرحمن الرحيم. وأما طرّو اللحى في الرجال فلمعنى المهابة والإجلال والزينة والكمال. وفي بعض الأخبار: إن لله ملائكة يقسمون: والذي زين بني آدم باللحى. ويقال: إن اللحية من تمام خلق الرجل، وبها يميز الرجال من النساء في ظاهر الخلق. وقيل في قوله تعالى: ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ١] قيل: اللحى، وفيها موعظة لمن نظر وتدبر فأبصر، وذلك أنها على الخدود والشوارب بمنزلة الخطام المعد للبهائم السوائب. ألا تراهم يقولون للغلام: قد عذر؛ إذا نبتت لحيته، مأخوذ من: عذار الفرس الذي يجعل على خده ليراض به ويكبح. ويقولون: فلان خلي العذار؛ من هذا، كأنه قد أزيل زمامه أو خطامه، فسيب كما يفعل بالدابة إذا أرسلت. وإلى هذا المذهب ذهب النمر بن تولب إذ يقول:

ألست بشيخ قد خطمت بلحية ... فتقصر عن فعل الغرانقة المرد

الغرنوق والغرانق: الشاب الجميل. ثم في شيب اللحية قبل الرأس؛ وشعر الرأس أقدم من شعر اللحية؛ موعظة أيضاً، وذلك أن الشيب من علامة الكبر، والكبر قريب من الموت. وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٧] إنه الشيب. وقيل محمد صلى الله عليه وسلم. ولما كان الإنسان لا يرى شعر رأسه بعينيه ويرى شعر لحيته؛ سبق الشيب الذي هو علامة الموت؛ للذي يراه بعينه كل وقت فكانت الموعظة به أشد. وقيل: إنما سبق الشيب إلى اللحية لقرب شعرها من الصدر، والصدر مقر الهموم ومحل الأحزان، والله أعلم. والأول عندي أحسن وأبين، لأن الإنسان تشيب لحيته وشعر صدره لم يشب، وهو أقرب إلى القلب من اللحية. وفي اللحية أيضاً زيادة في العبادة، لأن الإنسان يخللها في الوضوء، ويغسلها في الجنابة وله بكل شعرة حسنة. ويروى أن الرجل إذا اغتسل لم يمر الماء بشعرة من شعره إلا كتبت له عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات، وتسجد معه إذا سجد، فتكثر حسناته، ويمشطها ويدهنها ينوي بذلك السنّة فيزيد في أجره، ويحل بها الشيب ويلزمه الوقار. كما قال إبراهيم عليه السلام إذ رآه؛ وهو أول من رأى الشيب؛ فقال: ما هذا يا رب؟. قال له: وقار يا إبراهيم. قال: يا رب زدني وقاراً. ومع هذا فهو مشنوء عند الناس بغيض لهم، لا سيما عند النساء ذوات الحجال اللاتي لا يحببن من الرجال إلا الشاب الفتي الجلد القوي، وما سوى ذلك فهو الهلاك، لقبه عندهنّ معمعان، لا طعام ولا طعان، وقد يستغني بعض النساء عن الطعم بالطعن، فإذا عدمنه فليس غير الطرد واللعن، ولا ودّ ولا وصل إلى يوم الفصل. أما سمعت قول الشاعر:

يـا صـاح بلـغ ذوي الـزوجات كلهـم أن ليس وصل إذا استرخت عرى الذنب

ولا تستنكر على الغواني ذوات الزين تسميتهنّ الشيب بالشين. فقد ذكر قريباً من ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه فيما أخبر به؛ وقد سئل عن شيب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما شانه الله ببيضاء. خرجه مسلم. ولي في هذا المعنى:

كـذاك الـشيب عـند الغـيد شـين فـدع عـنك الـصبابة والغـراما
وأقـبح مـا يكـون الـشيخ يـوماً إذا مـا رؤي صـبّاً مـستهاما

وإني قد رأيت الشعراء أكثرت في ذلك قديماً وحديثاً، أو قالت فيه أمام ووراء، وجديداً ورثيثاً. وقد تقدّم من ذلك في هذا الكتاب ما فيه موعظة لو أني من أولي الألباب. ولي منه في التكميل الكثير لا القليل، وأحسن ما عندي منه قولي:

نظـرت فـي المـرآة وجهـي فلـم أعـرفه لمـا أن بـدا عيـبه
كـان نـضيراً فغـدا ذاويـاً ولاح فـي تـشنيجه شـيبه

ومن القديم المستحق للتقديم، قول امرئ القيس:

أراهـنّ لا يحببن مـن قـلّ مالـه ولا مـن رأيـن الـشيب فـيه وقوسـا

وأيضاً:

إذا شـاب رأس المـرء أو قـلّ مالـه فلـيس لـه مـن ودّهـنّ نـصيب
يـردن ثـراء المـال حيث علمـنه وشـرخ الـشباب عـندهنّ عجيب

وقال آخر:

فـصدّت وقالـت أخـو شـيبة عـديم ألا بئـست الخلـتان

ولي من قطعة لزومية مطولة في شيخ فقير خطب جارية غنية:

أتخطـب مـن قـدّها غـصن بـان ومـن كالـسجنجل مـنها اللـبان
تـضاف إلـى الـشمس فـي حـسنها وتنـسب فـي العـز للمـرزبان
وأنـت عـديم أخـو عـيلة مـشيبك فـي عارضـيك استبان
وغيـر جـسمك مـر الـسنين علـيك ومـنك مـضى الأطيـبان
لعمـرك مـا حـق مـن حالـه كـذا أن يـضم ولكـن يـبان
تظـن تخـف علـيها لأنـت أثقـل فـي قلـبها مـن أبـان
فـدع ذكـر هـذي ولا تجتـري علـيها فإنـك أنـت الجـبان

نعم. وشيم النساء الغدر وسجيتهنّ الختر. ألم تسمع قول الشاعر:

كـل أنثـى وإن بـدا لـك مـنها آيـة الحـب حـبها خيـتعور

الخيتعور: كل ما لا يدوم على حالة واحدة ويضمحل كالسراب وكالذي ينزل

من الهواء في شدة الحرّ كنسج العنكبوت. وأصل هذه الكلمة من الختر الذي تقدّم وهو الغدر. وفي الحديث: ما ختر قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدق.

قلت: وإذا عيرت المرأة الرجل بالشيب، وعدّته عليه من أكبر العيب. فليعكس عليها القصة وليحمل شيبه وشيبها على المنصة، فإن ذلك منها أقبح ومنه أملح، فإن أبت إلا الترامي بالحجاج والتمادي في اللجاج، فلينشدها ما قاله أحد المجانين وكان من الشعراء المجانين، وهو ما حدّث الأصمعي رحمه الله قال: رأيت بعض عقلاء المجانين وقد اجتمع عليه نسوة، وهنّ يقلن له: ضحك الشيب في رأسك يا أبا فلان، فوقفت عليه وهنّ يرددن القول عليه. فلما نظر إليّ صرف وجهه تلقاء حائط كان بإزائه وجعل ينشد:

إنّ المشيب رواء العلم والأدب ... كما الشباب رواء اللهو واللعب
تعجبت أن رأت شيبي فقلت لها ... لا تعجبي من يطل عمر له يشب
شيب الرجال لهم زين ومكرمة ... وشيبكنّ لكنّ العار فاتئبي
فينا لكنّ وإن شيب بدا أرب ... وليس فيكنّ بعد الشيب من أرب

ورأيت هذه الحكاية في موضع آخر. قال: دخل أبو دلف على أمير المؤمنين وعنده جارية ماجنة، فمازحته فقالت له: شبت يا أبا دلف. فقال له أمير المؤمنين: أجبها. فقال: إن المشيب الأبيات. وأذكرني قول المرأة: ضحك الشيب في رأسك يا أبا فلان شعراً أنشدنيه الفقيه المحدّث أبو محمد عبد الحق لنفسه رحمه الله:

ضحك الشيب فوق رأسي وأغرب ... إذ رآني ذهبت في غير مذهب
هو ينعي إليّ في الحال نفسي ... وأنا جانباً أخوض وألعب

من قطعة مطولة. ولما رآها الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بدل قوافيها فقال:

ضحك الشيب فوق رأسي وقهقه ... إذ رآني ذهبت في غير مهمه

وامتد عليها كذلك إلى آخرها من كلام غريب عجيب، فإن أردت ذلك فانظره في كراسة القافية المبدلة من التكميل، موفقاً إن شاء الله. والحمد لله.

ولا بدّ أن أثبت لك هاهنا أيها السكن مما أرويه بعض ما أمكن. أنشدني الحافظ رحمه الله قال: أنشدنا نصر بن محمد بن نبهان القاضي بالدينور، قال: أنشدنا أبو إسحاق الشيرازي ببغداد للصاحب ابن عباد:

أناخ الشيب ضيفاً لم أرده ... ولكن لا أطيق له مردّا
رداء للردى فيه دليل ... تردّى من به يوماً تردّى

وأنشدني أيضاً رحمه الله لبعضهم:

حلّ المشيب بعارضي ومفارقي ... بئس القرين أراه غير مفارقي
رحل الشباب فقلت قف لي ساعة ... حتى أودّع قال إنك لاحقي

وأنشدني الحافظ في مدح اللحاء لبعضهم:

قال العذول أتت حبيبك لحية ... حكمت بأن البدر منه يكسف
فأجبته والحكم مني صادع ... هي حلية لا لحية لو تنصف

وأنشدني:

لحية ميمون إذا حصلت ... لم تبلغ المعشار من ذره
تطلعت فاستقبحت وجهه ... فأقسمت لا نبتت شعره

وكان الأحنف بن قيس رضي الله عنه ثطاً؛ يعني: كوسجاً، وكان رهطه يقولون: وددنا أننا اشترينا للأحنف لحية بعشرين ألفاً. وعن شريح القاضي رضي الله عنه وددت أن لي لحية بعشرة آلاف.

وقال بعض الأدباء: في اللحية خصال نافعة منها: تعظيم صاحبها، والنظر إليه بعين الحلم والعقل، ومنها: رفعه في المجالس والإقبال عليه، ومنها: تقديمه على الجماعة، وفيها: وقاية لعرضه. وقال يزيد بن مزيد لبعض جلسائه ـ وكان يكثر تسريح لحيته ودهنها ـ: إنك من لحيتك لفي شأن، فقال: نعم:

لها درهم للدهن في كل جمعة ... وآخر للحناء يبتدران
ولولا نوال من يزيد بن مزيد ... لصوّت في حاقاتها الجلمان

قلت: واللحية حسنة ما لم تطل على الخدّ فتتجاوز الحدّ. كما قال بعض الشعراء في رجل طويل اللحية:

ولحية طولها ذراع

من شعر مطوّل آخره:

يا شيخ هذا الكسا يباع

لم أذكر صدر البيت، فقلت أنا يصلح أن يكون الصدر:

قال السماسير إذ رأوها ... يا شيخ هذا الكسا يباع

وقال ابن الرومي:

ولحية يحملها مائق ... مثل الشراعين إذا أشرعا
يقوده الريح بها صاغراً ... قوداً حثيثاً يتعب الأخدعا
لو غاص في البحر بها غوصة ... صاد بها حيتانه أجمعا

وقال الناجم:

لابن شاهين لحية طوله مثل طولها
فهو الدهر كله عاثر في فضولها

وأنشدني الخطيب أبو محمد عبد الوهاب لنفسه:

زارني بعض الأحبه لابساً أسمال جبه
ولقد زانته أيضاً لحية تبلغ قلبه
إن تجزأ كان فيها فوق عشرين مذبه

انظره في التكميل. والكلام أيضاً في هذا يطول وأمره مهول، وكله خلق الله، وإن الله ذو الجلال لا ينظر إلى الصور، ولكن ينظر إلى الأعمال. وكما في اللحية من الخصال المحمودة ما تقدّم. كذا فيها من الخصال المذمومة ما عليك يقدّم، وقد عدّ فيها أبو طالب من خفايا الهوى، ودقائق آفات النفس اثنتي عشرة خطيئة منها: إزالتها بحلقها عند أول خلقها، كما يفعله بعض الجهال المتسمين بالرجال، وليسوا من الصلحا لأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإعفاء اللحا، ولو لم يكن فيها من الجفا إلا التشبه بالنساء لكفى. ومنها: نتف الشيب. ومنها العجب بها. ومنها: تركها شعثة ليري الناس أنه في شغل عنها بالعبادة. ومنها: تسريحها لأجل الناس، كما قال سري السقطي رضي الله عنه في اللحية شر كان تسريحها لأجل الناس، وتركها متفتلة لأجل الزهد، وقال: لو دخل عليّ أحد فحسنت لحيتي لأجله لظننت أني مشرك. ومنها: صباغها بالسواد لأجل الهوى، وتبييضها بالكبريت ليرى أنه قد لقي أشياخاً وعلماء لكي يؤخذ عنه العلم. وأنشدني الحافظ في الذي يخضب لحيته بالسواد قال: أنشدنا أبو محمد جعفر بن أحمد ابن الحسين بن السراج اللغوي ببغداد لنفسه؛ ولم يقصد أحداً:

ومدّع شرخ شباب وقد عممه الشيب على وفرته
يخضب بالوشمة عثنونه كفاه أن يكذب في لحيته

والكلام أيضاً في هذا المعنى كثير.

ومن أحسن ما اعتذر به صاحب الخضاب ما أنشدني الشيخ الفقيه الزاهد أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد السرقسطي رضي الله عنه بالإسكندرية لنفسه، وقال لي: عجبت من اتفاق اتفق لي قلت أبياتاً وهي:

وقالوا لي خضبت الشيب كيما تراك الغانيات من الشباب
فقلت لهم مرادي غير هذا ولم يك ما حسبتم في حسابي
خشيت يراد مني عقل شيخ ولا يلفى فملت إلى الخضاب

قال الشيخ: فلما أصبحت غدوت إلى مجلس كنت أحضره فسمعت رجلاً ينشد

لنفسه ويقول:

ولست أرى شباباً بان عني ... يرد علي بهجته الخضاب
ولكني خشيت يراد مني ... عقول ذوي المشيب فلا يصاب

فعجبت لذلك. أو كما قال. والكلام في هذا لو تتبع لآل إلى الملال، لكن خذ في كل صحيفة طريفة، وفي كل باب مسألة من اللباب.

رجع الكلام وعاد إلى فساد ماء الأولاد. قال الله تعالى للعباد: إن الله لا يحب الفساد، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال، ومني الرجال يكون منه الولد على المآل. فإذا زنا الرجل أو لاط، أو أتى امرأة في دبرها، فقد أفسد الماء سوى ما يتعلق به من العقوبة في الدنيا والآخرة، وإنما أرخص له الاستمتاع من الحائض بما فوق الإزار، وإن كان فيه إفساد الماء للضرورة ومس الحاجة. ولهذا استحب بعض العلماء أن يكون للرجل زوجتان، وقال: إذا حاضت امرأتي أحيض أنا أيضاً.

فإذا وضع الرجل ماءه في غير موضعه فقد أثم. وهذه صفة من ظلم ألا ترى أن المستمني بيده ملوم ظلوم. سئل مالك رضي الله عنه عن فاعل ذلك فتلا قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥-٧]. وأما العزل فقد كرهته طائفة من السلف. كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: هو الوأدة الصغرى. وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الرجل ليجامع أهله فيكتب له من جماعه أجر ولد ذكر قاتل في سبيل الله فقتل. قيل له: وكيف ذلك يا رسول الله؟. قال: أنت خلقته؟ أنت رزقته؟ أنت هديته؟ عليك محياه إليك مماته؟. قالوا: بل الله خلقه، ورزقه، وهداه، وأحياه، وأماته. قال: فأقرّه قراره. المعنى في هذا إذا جامعت فأقره في الفرج. قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٨-٥٩] فإذا لم يخلق الله من منيك خلقاً حسب لك كأنه قد خلق منك ذكراً على أتم أحواله وأجمل أوصافه، بأن يقاتل في سبيل الله فيقتل، لأنك جئت بالسبب الذي عليك، وليس عليك خلقه ولا هدايته. وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام في بعض الأخبار أنه سئل عن العزل فقال: ذلك الوأد الخفي. وقال: هو كالفرار من القدر. وجاء في الحديث فيمن أراد الخصاء فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: جف القلم بما أنت لاق، فاختصر على ذلك أو فذر. وجاء: ما من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله كون شيء لم يمنعه شيء، وكان هذا فيه أيضاً بعض الرخصة. وسئل

النبي صلى الله عليه وسلم عن العزل فقال: لا عليكم أن تفعلوا ما كتب الله خلق نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون. وفي رواية أخرى فقال لنا: وإنكم لتفعلون؟! ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هي كائنة. قال بعض العلماء: هذا الحديث أقرب إلى الزجر عن هذا الفعل منه إلى الإباحة. وجاء في البخاري: وإنها ليست نسمة كتب الله أن تخرج إلا وهي خارجة. وفي البزار: لو أن الماء الذي يكون منه الولد ألقي على صخرة لأخرج الله منه ولداً. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد الله شيئاً كان.

حدثني بعض أصحابي رحمه الله قال: كانت امرأتي تحمل كل عام، فسئمت من ذلك، فعزلت عاماً فلم تحمل، فلما كان عام آخر جاءت بتوأم، فقلت: إن الله على كل شيء قدير. هذا معنى كلامه. وحدثني آخر: عزلت خمس سنين ثم تركت العزل، فجاءتني امرأتي في خمس سنين غيرها بتوأم في كل بطن. وحدثني آخر كان يعزل مدة قال: أريت في النوم في وسط بيتي في الحائط نحو عشرة رؤوس صبيان صغار مصطفة كأنهم خرجوا من الحائط فأوّلتهم الأولاد الذين كنت أعزل بسببهم. قال: فاتعظت بذلك وتبت من العزل.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧] قيل: الجماع، وقيل: الولد. قاله أنس بن مالك، فكان المعنى في ذلك ـ والله أعلم ـ تكثير الأولاد. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: أحبكم إلى الله أكثركم نساء. وفي البخاري من قوله عليه الصلاة والسلام: إن خير هذه الأمة أكثرها نساء. وقد تقدّم: تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم. قال هذه عليه الصلاة والسلام لرجل قال له: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد أفأتزوجها؟. قال: لا. ثم أتاه الثانية فنهاه. ثم أتاه الثالثة فقال: تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم؛ الحديث. وجاء في الحديث أيضاً: حصير في البيت خير من امرأة لا تلد. ذكره أبو طالب في القوت.

وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة امرأة عربيات كلهن إلا صفية، وتوفي عن تسع منهن، وتوفيت منهنّ اثنتان في حياته، وكانت له سريتان. وكان لداود عليه السلام مائة امرأة. ولابنه سليمان عليه السلام ألف امرأة. ذكره أبو طالب في القوت. وأباح الله للرجل أن يجمع بين أربع نسوة. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكثر النكاح ويقول: ما أتزوج إلا للأولاد. وممن تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من فاطمة رضي الله عنهم وقال له ابنه عبد الله: يا أبت ما لك في نكاح أم كلثوم وهي صغيرة؟. فقال: يا بني والله ما لي في النكاح من حاجة غير أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي.

فأحببت أن أكون من نسبه.

ولدت أم كلثوم هذه من عمر رضي الله عنهما زيداً، ومات هو وأمه في يوم واحد، وفي وقت واحد، ولم يعلم من مات قبل صاحبه، فلم يورث أحدهما من الآخر، وصلى عليهما عبد الله بن عمر، وذلك في خلافة عثمان رضي الله عنهم. ولما خطب عمر بن الخطاب أم كلثوم إلى أبيها عليّ بن أبي طالب استشار عليّ ابنه الحسين وعمها عقيلاً رضي الله عن جميعهم، فأشارا عليه بأن لا يزوّجها منه لخشونة عيشه، وكثرة غيرته على النساء، فزوّجها منه عليّ بن أبي طالب برأيه، وكان الذي خاف عليها الحسين. لم تغر الدنيا عمر رضي الله عنه، ولا استمتع منها بلذة عيش حتى مات. لم يأكل خبيصاً، ولا لبس قميصاً، بل كانت جبته مرقعة بالجلود كما تقدّم، وعلى تلك الحال صحبته امرأته أم كلثوم بنت عليّ رضي الله عنهم. دخل عليه رجل من أشجع فدعا عمر بطعامه، وقال لأم كلثوم: ألا تخرجين؟ فقالت: لو أردت أن أخرج لكسوتني درعاً كما كسا عبد الرحمن بن عوف امرأته. فقال لها: وما عليك يا أم كلثوم وأنت بنت عليّ بن أبي طالب وزوج أمير المؤمنين.

رجع الكلام ويروى أن الرجل إذا قبل امرأته كتب له عشرون حسنة، فإذا جامعها كتب له عشرون ومائة حسنة. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: إن من أماثل أعمالكم إتيان الحلال. قال هذا عليه الصلاة والسلام في حديث أبي كبشة، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ مرت به امرأة، فقام إلى أهله، فخرج إلينا ورأسه يقطر ماء، فقلت: يا رسول الله كأنه قد كان شيء؟ قال: نعم؛ مرت بي فلانة فوقعت في نفسي شهوة النساء، فقمت إلى بعض أهلي فكذلك فافعلوا، فإن من أماثل أعمالكم إتيان الحلال.

وتزوّج عليّ بن أبي طالب بعشر نسوة، إحداهنّ أمامة بنت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وهو حاملها وهو في الفريضة. تزوجها بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها بسبع ليال، كانت وصته بذلك، وتوفي عن أربع منهنّ، وسبع عشرة سرية. وقال عليّ رضي الله عنه حين توفت فاطمة رضي الله عنها وصلى الله وسلم على أبيها محمد:

أرى علل الدنيا عليّ كثيرة ... وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وإن الذي دون الممات قليل
وإن افتقادي واحداً بعد واحد ... دليل على أن لا يدوم خليل

وتوفيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بستة أشهر، وقد تقدّم. وكان في

موتها آية.

خرج ابن شاهين عن عبد الله بن علي بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمه سلمى أنها قالت: اشتكت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمرضتها فأصبحت يوماً كأمثل ما رأيتها في شكواها تلك. وخرج عليّ رضي الله عنه لبعض حاجته، فقالت: يا أمه اسكبي لي غسلاً، فاغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل. فقالت: يا أمه أعطني ثيابي الجدد، فأعطيتها فلبست، ثم أقبلت إلى البيت فقالت: يا أمه قربي فراشي إلى وسط البيت. ففعلت، ثم اضطجعت واستقبلت القبلة، ووضعت يديها تحت خدها وقالت: يا أمه إني مقبوضة الآن، وقد طهرت فلا يكشفني أحد، فقبضت مكانها. فجاء عليّ رضي الله عنه فأخبرته. فقال: والله لا يكشفها أحد، فدفنها بغسلها ذلك. وخرج في حديث آخر متصلاً به عن أسماء بنت عميس أن فاطمة رضي الله عنها وصتها: أن لا يلي غسلها إلا هي وعليّ بن أبي طالب، قالت أسماء فغسلتها أنا وعليّ رضي الله عنهما. ورأيت في موضع آخر أنها لما حضرتها الوفاة أمرت علياً فوضع لها غسلاً، فاغتسلت وتطهرت، ودعت بثياب أكفانها، فأتيت بثياب خشن غلاظ فلبستها، ومست من الحنوط، ثم أمرت علياً أن لا تكشف إذا قبضت، وأن تدرج كما هي في ثيابها. وقد فعل هذا كثير بن العباس، وكتب في أطراف أكفانه: يشهد كثير بن العباس أن لا إله إلا الله.

وتزوج الحسن بن عليّ رضي الله عنهما مائتين وخمسين امرأة، وقيل ثلاثمائة، وكان أبوه عليّ يضجر من ذلك ويكرهه حياء من أهليهنّ إذا طلقهنّ، وكان يخطب ويقول في خطبته: إن حسناً مطلاق فلا تنكحوه. فقال رجل من همدان: والله لننكحنه ما شاء، فمتى شاء أمسك، ومتى شاء فارق. فسرّ بذلك وقال:

فلو كنت بوّاباً على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وتزوج امرأة فأرسل إليها بمائة جارية، مع كل جارية ألف درهم، وطلق الحسن هذا امرأتين في يوم واحد، فمتع كل واحدة بعشرة آلاف درهم وزقاق من عسل فقالت إحداهما: (متاع قليل من حبيب مفارق) فلما بلغه قولها قال: لو كنت راجعت امرأة لراجعت هذه. وأوّل هذا الشطر الذي تمثلت به هذه المرأة ذكره ابن يزيد رحمه الله في الكامل:

وقفت على قبر مقيم بقفرة ... متاع قليل من حبيب مفارق

وقال إن سليمان بن عبد الملك تمثل به يوم دفن ابنه أيوب، وقد بكى عليه وحثا على قبره التراب فلما أراد الانصراف قال: يا غلام دابتي، ثم التفت إلى القبر

وقال البيت.

وخرج أبو عمر في كتاب الصحابة من طريق ابن وضاح عن سحنون عن ابن نافع أن المغيرة بن شعبة أحصن ثلاثمائة امرأة في الإسلام. قال ابن وضاح: غير ابن نافع يقول ألف امرأة.

وقد طال الكلام وتسلسل، وتمهل قائله وترسل، وأطلق لسانه واسترسل. ولكنه كما قلت: لباب اللباب، ومحمود عند ذوي الألباب، وها أنا أعود إلى الباب، بعد أن أختم لك هذا الفصل بحكاية عن رجل فسل، فإن شئت أن تثبتها في باب كراهية العزل، وإلا فدونكها بالعزل اللهم وإن كانت سخيفة فهي تحيفة. أتي رجل إلى أحد الولاة برجل قد أحبل جارية من جيرانه فقال: يا عدو الله إذا ابتليت بالفاحشة فهلا عزلت؟. قال: جعلت فداك بلغني أن العزل مكروه. قال: فما بلغك أن الزنا حرام؟. انظر الحكاية في الذيل.

وتقدّم: أنا، وقد جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فدعوت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من هذا؟. فقلت: أنا، فخرج وهو يقول: أنا أنا!. وفي آخر الحديث: كأنه كره ذلك. خرجه مسلم، وترجمته في الكتاب باب كراهية أن تقول أنا. وإنما كرهه ـ والله أعلم ـ لأن لفظ أنا يحتاج إلى استفهام آخر فيقول: ومن أنت؟. فإذا قال: فلان، ربما أجزأ، وربما لم يجزئ حتى يعرف صوته أو يرى شخصه أو يعرف من أسمائه مما لا يشترك فيه معه غيره. ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قيل له: هي زينب، قال: أي الزيانب؟. فلما قيل له: امرأة عبد الله بن مسعود؛ عرف صلى الله عليه وسلم. وقيل: إنما كره عليه الصلاة والسلام قوله أنا لأنه لم يسلّم عند الاستئذان، والسنّة أن يسلّم قبل الاستئذان. وقد قال عليه الصلاة والسلام: السلام قبل الكلام. وخرج الترمذي رحمه الله عن كلدة بن حنبل أن صفوان بن أمية بعثه بلبن ولبأ وضغابيس إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأعلى الوادي، قال: فدخلت ولم أسلّم ولم أستأذن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ارجع فقل: السلام عليكم أدخل؟ وذلك بعد ما أسلم صفوان. قال: وضغابيس: حشيش يؤكل. وقال صاحب العين: الضغابيس شبه العراجين تنبت في أصول الثمام. والضغبوس: الرذل المهين، والضغبوس أيضاً: ولد الثرملة، والضغموس ـ بالميم ـ المارد من الشياطين. يستشهد على الضغبوس أنه الرذل المهين بما أخرج الخطابي رحمه الله في أوّل كتابه بسنده إلى ابن خزيمة قال: سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول: سئل ابن عيينة عن قوله عليه الصلاة والسلام: من استجمر فليوتر. فسكت. فقيل له:

أترضى بما قال مالك؟، قال: وما قال مالك؟. قيل: قال مالك: الاستجمار الاستطابة بالأحجار. فقال ابن عيينة: مثل مالك كما قال الأوّل:

وابن اللبون إذا ما لز في قرن ... لم يستطع صولة البزل القناعيس

كذا في أوّل الكتاب، وفي السطر بعده:

قد ضجرت صولتي في كل معترك ... غلب الرجال فما بال الضغابيس

ويستشهد على أنه حشيش بما فسره الترمذي في الحديث. وقد كرهت طائفة من الصوفية لفظ أنا وقالوا: فيه معنى التفخيم والتعظيم للنفس بأن يقول أنا وأنا ولولا أنا، وقالوا: كذا قال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] تعالى الله عن قوله.

قلت: ولكل مقام مقال. وقد قال أسيد بن حضير رضي الله عنه؛ وكان من فضلاء الأنصار وأكابرهم: أنا، بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم. حدث نصر بن علي، قال: أنا الأصمعي، قال: أنا عطارد، قال: جاء عامر بن الطفيل وأربد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه أن يجعل لهما نصيباً من تمر المدينة، فأخذ أسيد بن حضير رضي الله عنه الرمح فجعل يقرع رؤوسهما ويقول: اخرجا أيها الهجرسان. فقال عامر بن الطفيل: من أنت؟. قال: أنا أسيد بن حضير. فقال: حضير الكتائب؟. قال: نعم. فقال: كان أبوك خيراً منك. فقال: بل أنا خير منك ومن أبي، مات أبي وهو كافر. فقلت للأصمعي: وما الهجرس؟. قال: الثعلب. وقد تقدّم ذكر عامر وأربد، وكيف هلكا كافرين. وأسيد هذا هو الذي حمل عمر بن الخطاب نعشه بنفسه حتى وضعه بالبقيع وصلى عليه.

ومثل قول ابن حضير؛ ما حدث عبيد الله بن المغيرة عن حكيم بن حزام عن أسامة بن زيد. قال حكيم: كان محمد النبي صلى الله عليه وسلم أحبّ الناس إليّ في الجاهلية، فلما نبئ وخرج إلى المدينة، شهد حكيم بن حزام الموسم، فوجد حلة لذي يزن تباع فاشتراها بخمسين درهماً ليهديها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدم بها عليه فأراده على قبضها فأبى عليه. قال عبد الله: حسبت أنه قال: إنا لا نقبل من المشركين شيئاً، ولكن إن شئت أخذناها بالثمن. فأعطيته إياها حين أبى علي الهدية، فلبسها فرأيتها عليه في المنبر، فلم أر شيئاً قط أحسن منه فيها يومئذ، ثم أعطاها أسامة بن زيد، فرآها حكيم على أسامة فقال: يا أسامة أتلبس حلة ذي يزن؟. قال: نعم. لأنا خير من ذي يزن ولأمي خير من أمه. قال حكيم: فانطلقت إلى مكة أعجبهم بقول أسامة.

رجع، وقد قال علي بن أبي طالب: أنا أبو حسن. في حديث ذكره مالك في

الموطأ. وقد كانوا في الحرب يقولون عند الضرب: خذها وأنا أبو فلان. وقد قال يوسف عليه السلام: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥] وهذا يخرج على معنيين: أما إذا قال: أنا، على معنى الفخر والكبر؛ فمكروه. وإذا قالها على جهة التعريف بنفسه لمعنى فيه صلاح مثل يوسف عليه السلام، أو على جهة الشكر كقول عليّ، أو الفخر على العدوّ والإرهاب له والغلظة عليه كما فعل أسيد؛ فحسن. وكذلك إذا قالها على معنى التحقير لنفسه، كما كان أرفع الخلق صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم أنا عبدك وابن عبدك. أو يقول ذلك عند الاعتراف بذنبه: أنا المذنب، أنا العاصي. أو عند الشهادة والاعتراف بما عليه من الحق، أو عند سماع المؤذن، كما روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع المؤذن تشهد قال: وأنا. خرجه أبو داود. وقد فعل مثل هذا معاوية على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحدث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك. وهذا اللفظ كذا أيضاً رحمة. قد يسمع الإنسان المؤذن وهو على قضاء الحاجة ولا بد له من أن يجيبه، لقوله عليه الصلاة والسلام: إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول. وذكر اللفظ بالشهادة في ذلك الموطن فيه ما فيه، فيقول وأنا، فيجمع بين الحالتين ويحصل إن شاء الله تعالى فضل الشهادتين.

وفي الأذان أيضاً فائدة أخرى خرجها النسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قال المؤذن حي على الصلاة: لا حول ولا قوة إلا بالله. وكذلك إذا قال حي على الفلاح قال مثل ذلك. ومما يعتري في الخلاء العطاس، ومن عطس فلا بد أن يحمد الله. يروى عن المختار قال: سألت عامراً فقلت أعطس وأنا في الخلاء فهل أحمد الله؟ قال: لا حتى تخرج. قال: فسألت عن ذلك إبراهيم النخعي فقال: نعم احمد الله. فأخبرته بقول عامر، فقال إبراهيم: إن الحمد يصعد ولا يهبط. وعن مرزوق بن عوسجة أن أمه حدثته أنها كانت تسمع عبد الله بن عمرو بن العاص وهو في المرحاض.

ومن ملح هذا الباب ممن قال: أنا بلا ونا، وأوهم أنه من أهل الرفعة والمكانة، فإذا به من ذوي المهانة، غير أنه إن لم يكن شريفاً، فلقد كان ظريفاً، غطى بأدبه ضعة نسبه. يروى في بعض الأخبار أن الحرس أخذوا بالليل رجلاً متأدباً، وكان ابن حجام فسئل ابن من هو فقال:

أنا ابن من عاش وهو مؤتمن ... يرحمه الله أيما رجل
له رقاب الملوك خاضعة ... وكل حاف وكل منتعل

فــي كفــه مــرهف يقلبــه فكـم كمـيّ أدمـى وكـم بطـل
يأخــذ مــن مالــه ومــن دمــه لـم يـمس مـن ثـاره علـى وجـل

فأطلق. وأخذ آخر مثله، وكان ابن حائك، فسئل ابن من هو فقال:

أنـا ابـن الـذي شـق الصفوف برمحه وقـوّمها بالـسيف حتـى اسـتقامت
ركابـاه لا تـنفك رجـلاه مـنهما إذا الخيل في يوم الكريهة حامت

فأطلق. وأخذ آخر، وكان ابن فوّال، فسئل فقال:

أنـا ابـن الـذي لا تنـزل الأرض قـدره وإن نـزلت يـوماً فـسوف تعـود
تـرى الـناس أفـواجاً إلـى ضـوء نـاره فمـنهم قـيام حـولها وقعــود

قلت: هؤلاء احتالوا فاختالوا، وأما الذين صدقوا فيما به نطقوا فالقائل:

بفعلــك تقــبح أو تحــسن ومــا مــن يـسيء كمـن يحـسن
ومــا الــناس إلا بأفعــالهم ودع مــا تزخــرفه الألــسن

وقال آخر:

تمـسك بحـبل الله فـي كـل حالـة ولا تترك التقوى اتكالاً على النسب
فقـد رفـع الإسـلام سـلمان فـارس وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وتقدّم: أن نون اسم الحوت، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أوّل ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: وما أكتب؟. قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. فكتب. ثم خلق نون، فرفع الأرض. وقال مجاهد: هذا الحوت الذي تحت الأرض السابعة، ومشهور أن النون: اسم من أسماء الحوت. حتى ألغز الشاعر به في قوله:

عيــنان عيــنان لا عيــنان ناظــرة فـي كـل عـين مـن العيـنين نـونان
نـونان نـونان لـم يخططهمـا قلـم فـي كـل نـون مـن النونـين عيـنان

يريد بالعينين: عينين من ماء، فيهما نونان، يعني حوتين، وفي كل حوت عينان في رأسه، وهذا مستحسن وشاهد حسن.

وخرج البخاري رحمه الله في قصة موسى عليه السلام، إذ سأل ربه أن يجعل له علماً يعرف به الخضر. قال: خذ نوناً ميتاً. قال: فأخذ حوتاً فجعله في مكتل. وقال الله عز وجل: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ [الأنبياء: ٨٧] قيل: مغاضباً لقومه، وقيل: لبعض الملوك، وقيل: من أجل ربه، وقيل: لربه. قال الحسن: أمره الله بالمسير إلى قومه، فسأل أن ينظر ليتأهب، فأعجله الله تعالى، حتى سأل أن يأخذ نعلاً يلبسها فلم ينظر، وكان في خلقه ضيق، فخرج مغاضباً لربه. وقال في موضع آخر: ﴿ وَلَا تَكُن

﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] وهو يونس عليه السلام في الموضعين.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الأرض على نون، والنون على البحر، والبحر على صخرة خضراء، وهي التي قال الله فيها: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ١٦] والصخرة على قرن الثور، والثور على الثرى، ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله تعالى.

وعن وهب بن منبه: على وجه الأرض سبعة أبحر، والأرضون سبع، فبين كل أرضين بحر، فالبحر الأسفل مطبق على شفير جهنم، ولولا عظمه وكثرة مائه لأحرقت جهنم كل ما عليها، وجهنم على متن الريح، ومتن الريح على حجاب من الظلمة لا يعلم غلظه إلا الله تعالى وكذلك الحجاب على الثرى وإلى الثرى انتهى علم الخلائق. يشهد لهذا الخبر قوله عليه الصلاة والسلام لبعض أصحابه: لا تركب البحر إلا حاجاً أو معتمراً أو غازياً في سبيل الله، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً. أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وإذ وقع ذكر البحر وهوله، فلنذكر عن مكحول بعض قوله، روي عنه أنه قال: لما بلغ ذو القرنين مطلع الشمس ومغربها، وسد ما بين يأجوج ومأجوج، قال: قد فرغت من البر فلأنظرن إلى البحر المحيط ما حاله. قال: فلجج فيه أعواماً، ثم نزل فيه في تابوت من قوارير كان قد حمله معه في المركب الذي لجج فيه، ثم كان من أمره بعد كلام طويل اختصرته أن ملك البحار اجتمع معه، فقال له ذو القرنين: من أنت؟. قال: أنا ملك البحار، وكلت بكل قطرة منه، وكل دابة، وإن الله تعالى أرسلني إليك لأنجيك من هذا البحر، وكان قد أهوى فيه تسعين ليلة. ثم قال له: أما ترى تابوتك هذا قد انسحق من ملوحة البحر، حتى صار رقيقاً مثل قشر البيض. أما إني لو تأخرت عنك لانخرق بك تابوتك، ولن تصل إلى قعره دون خمسمائة عام. ثم قال له: أيسرك أن ترى من عجائب البحر. قال: نعم. قال، فدعا بدابة، فقال: مري على ذي القرنين مر الريح، فلم ينظر إلى ذنبها حتى توارت بالحجاب، فلما كان من الغد دعا دابة أخرى، فقال لها: مري على ذي القرنين مر السحاب، فلم ينظر إلى ذنبها دون يومين وليلتين. ثم دعا بدابة أخرى فقال لها: مري على ذي القرنين مر البرق. قال: فلم ينظر إلى ذنبها على سرعة مسيرها دون ثلاثة أيام ولياليها. قال أما ترى هذه المؤخرة، فوالذي خلقني وخلقك إني لأطعم الحوت الذي عليه قرار الأرضين في كل يوم لأكله سبعين ألف دابة مثل هذه. ثم ذكر تمام الخبر، وكيف أخرجه إلى الساحل قبل الطرف، وفي ذلك اليوم قبض روحه رحمه الله.

واختلف في ذي القرنين، فقيل: إنه رجل من ولد يونان بن يافث بن نوح عليه السلام، اسمه هرمس ويقال له هرديس. وقال ابن إسحاق في السيرة: هو الصعب بن ذي مراثد الحميري. وقال ابن هشام: هو مرزبان بن مرزبة. وقيل: هو الإسكندر الذي بنى الإسكندرية، ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلاً ينادي: يا ذا القرنين. فقال: اللهم غفراً، أما رضيتم أن تسموا بالأنبياء حتى تسميتم بالملائكة. وقيل: كان عبداً صالحاً بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه فمات، فأحياه الله ثم بعثه مرة أخرى إليهم، فضربوه على قرنه فمات، فسمي ذا القرنين.

تقدّم في الحديث الأوّل ذكر المكتل، والمكتل: القفة العظيمة، من تكتل الشيء: إذا لصق بعضه ببعض، ومثله: الكتلة من التمر وغيره، لغة فصيحة، وإن كانت العامة ابتذلتها. قال الأستاذ رحمه الله وقد ذكر هذا: وفي الحديث في قصة خيبر: خرجت يهود بمساحيهم ومكاتلهم، وحين رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الله أكبر خرجت خيبر. تفاءل عليه الصلاة والسلام بما رأى، لأن المساحي والمكاتل من آلة الهدم، والمسحاة أيضاً من: سحوت الشيء: إذا قشرته فتطابق الحال.

وتقدّم أنه تسمى المرأة نائلة، ومنهن: نائلة بنت الفرافصة الكلبية رضي الله عنها، تزوجها عثمان رضي الله عنه وهي نصرانية على دينها، نكحها على نسائه، وأقامت عنده، ثم أسلمت وحسن إسلامها، والتحقت بصالح الحرائر وفضلائهنّ. ولا تستعظم هذا فإن عثمان رضي الله عنه كان أعلم بالله وبما يرضيه من سواه. وكانت نيته في ذلك أن يحسن إسلامها، ويدخل في الدين من قومها بشر كثير، والله أعلم.

وقد فعل مثل هذا غيره من الصحابة رضي الله عنهم، وقد أحلّ الله ذلك في كتابه في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [المائدة: ٥] والمحصنات هنا: الحرائر، دون الإماء منهنّ. فنال عثمان أمله في نائلة، وكانت معه في الدار يوم قتل، ودفعت عنه ما استطاعت حتى قطعت أصابعها بالسيف في الذب عنه رضي الله عنها، وحملت أصابعها مقطوعة معلقة في خيط إلى الشأم مع قميص عثمان مخضوباً بدمه، وصعد بذلك على المنبر فطلب بدمه، فكان ذلك سبباً للفتنة التي وقعت هناك.

وكانت نائلة مجابة الدعوة. روى الليث بن سعد أن عثمان رضي الله عنه إذ قتل بقي ثلاثة أيام ولم يدفن، فأتى رجل من كلب معه ناقة فاستأذن نائلة في الدخول على عثمان فأذنت له، فربط ناقته في حلقة باب الدار ودخل فقال لها: اكشفي عن وجه عثمان، فكشفت له فأخرج من كمه آجرة شدخ بها وجهه فدعت عليه فقالت: اللهم

اقطع يده، واهلك أهله وماله، وأدخله نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا ما دامت السماوات والأرض. فخرج الكلبي، فلما جاء ليحل الناقة عدت عليه فقطعت يده، ثم انطلق إلى أهله وكان ساكناً ببعض بطون مكة فوجد السيل قد ذهب بأهله وماله، فكان الكلبي بعد ذلك يطوف بالبيت وهو يقول: اللهم اغفر لي ولا أراك تفعل فإن نائلة زوج عثمان بن عفان دعت عليّ بثلاث استجيب لها منها في اثنتين وبقيت الثالثة.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد بشر عثمان رضي الله عنه بالشهادة وقال له: يا عثمان إن كساك الله قميصاً وأرادوك على خلعه فلا تخلعه، واصبر حتى تلقاني على الحوض، فإنك إن خلعته لن تلقاني، ففعل رضي الله عنه ما أمره به عليه الصلاة والسلام، ونهى أهل الدار أن يقاتلوا دونه، ورضي بالقتل والشهادة، ففاز بالسعادة ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١].

وذكر أبو عبيد البكري نائلة هذه وقال: هي بنت الفرافصة ـ بفتح الفاء ـ وكل اسم في العرب غيره فهو الفرافصة ـ بضم الفاء ـ. وذكر تزويج عثمان إياها رضي الله عنهما، وقال: لما أدخلت عليه وخلا بها قال لها: أتقومين إليّ أم أقوم إليك؟. قالت: ما قطعت إليك عرض السماوة وأنا أحبّ أن تقطع عليّ عرض البساط، فقامت إليه فجلست إلى جنبه. فقال لها: لا يسؤنك ما ترينه من شيبي. قالت: إني لمن نسوة أحب رجالهن إليهن السيد الكهل. ولما قتل رضي الله عنه ـ وذكر قصة قتله نحو ما تقدّم ـ قالت ترثيه رضي الله عنهما:

ألا أن خيـر النـاس بعـد ثلاثـة ... قتيل النجيبي الـذي جاء من مصر
ومـا لـي لا أبكـي وتبكـي قرابتـي ... وقـد حجبت عنا فضول أبي عمرو

فلما انقضت عدتها خطبها معاوية رضي الله عنه فامتنعت فألح في ذلك فقالت لنسوتها: ما يحب الرجال مني؟. قلن: ثناياك. فعمدت إلى فهر ودقت به ثنيتها وبعثت بهما إلى معاوية فكف، ولم تزل محدة بعد قتل عثمان حتى لحقت بالله. رضي الله عنها وعنه.

وتقدّم النيل: العطية. والنيل: نهر مصر، وأصله من الجنة، كما ورد في الحديث حين عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء السابعة إلى سدرة المنتهى قال: وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟. قال: أما الباطنان: فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات. وفي حديث آخر: فإذا هو في سماء الدنيا بنهرين يطردان فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟. قال: هذا النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ

وزبرجد، فضرب بيده فإذا أمسك أذفر قال: ما هذا يا جبريل؟، قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك. خرجه البخاري.

ووقع في المعاني للنحاس في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [المؤمنون: ١٨] جعلناه فيها ثابتاً. وساق حديثاً عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنزل الله عز وجل من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار: سيحون وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر. أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة، في أسفل درجة من درجاتها، على جناحي جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله عز وجل جبريل عليه السلام فرفع من الأرض القرآن والعلم ويخرج الأنهار الخمسة فيرفع ذلك إلى السماء، فذلك قوله: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨] فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا.

وروى ابن سنجر من طريق أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: في السماء السابعة بيت يقال له المعمور بحيال الكعبة. وفي السماء نهر يقال له الحيوان يدخله جبريل عليه السلام كل يوم، وينغمس فيه انغماسة ثم يخرج فينتفض انتفاضة، تخر عنه سبعون ألف قطرة. يخلق الله من كل قطرة ملكاً، يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور ويصلوا فيه، فيفعلون ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبداً، يولي عليهم أحدهم ويؤمرون أن يقف لهم من السماء موقفاً يسبحون الله إلى أن تقوم الساعة.

وقع في الهداية لمكي رحمه الله، وذكر البيت المعمور: إنه معمور بكثرة الدعاء والغشيان، وقال: هو بحذاء الكعبة. وذكر أن البيوت خمسة عشر بيتاً، سبعة في السماء إلى العرش، وسبعة منها إلى تخوم الأرض السفلى، وأعلاها الذي يلي العرش، البيت المعمور. لكل بيت منها حرم كحرم هذا البيت. لو سقط منها بيت لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السفلى. ولكل بيت من أهل السماء وأهل الأرض من يعمره كما يعمر هذا البيت.

وأذكر لك هنا حديثاً غريباً في النيل، روي أن المسلمين لما افتتحوا مصر في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأتى وقت مدود النيل، أمسك فلم يمدد. فسألوا

القبط عن ذلك فقالوا: إنا كنا إذا أتى وقت مدوده عمدنا إلى جارية من بنات ملوكنا فألقيناها حية في عرضه فيمدّ، وما لم نفعل فلا يمدّ. فأشفق المسلمون من ذلك، وكتبوا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب عمر كتاباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر، سلام عليك، فإنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإن كنت تجري بحولك وقوتك فلا حاجة لنا بك، وإن كنت تجري بحول الله وقوته فاجر على بركة الله، والسلام. وكتب إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ أمير مصر يأمره أن يلقي كتابه في عرض النيل ففعل، فمد النيل.

وذكر أبو عبيد البكري رحمه الله أن مبدأ النيل ومنبعه من تحت جبل القمر، وراء خط الاستواء، وإنما سمي جبل القمر لأن القمر لا يطلع عليه، وهو في الجنوب من الأرض المحترقة التي لا يكون فيها نبات ولا حيوان. يخرج هناك اثنتا عشرة عيناً فتجتمع في بحيرتين، ثم ينبعث منهما ثلاثة أنهار، أحدها النيل. وذكر أن مسافة جريانه من لدن منبعه إلى مصبه خمسة آلاف ميل وتسعمائة ميل وثلاثون ميلاً، يجري في الخراب غير العمران أربعة أشهر، وفي بلاد السودان مسيرة شهرين، وفي بلاد الإسلام مسيرة شهرين.

قلت: وهذه الأخبار لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى، والذي صح أن منبعه من السماء كما تقدّم في الحديث. ويحتمل أن ينزل ماؤه من السماء إلى الموضع المذكور. وكذلك الفرات والله أعلم. ومن المسعودي: ليس في الدنيا نهر أطول مداً من النيل، وليس في الدنيا نهر يمد ويزيد في أشد ما يكون من الحر حين تنقص أنهار الدنيا وعيونها غيره، ولا نهر يزيد بترتيب غيره، ولا نهر يزرع عليه كما يزرع على النيل، ولا يجبى من خراج نهر ما يجبى منه.

فائدة في قوله تعالى

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝ ﴾

قال بعض العلماء: لما ذكر الله تعالى السابقين المقربين قال: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الواقعة: ١٣] يعني جماعة كبيرة من الأولين، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٤] يعني أن المقربين في الآخرين قليل لفضل الصحابة السابقين على من بعدهم. ولَمّا ذكر أصحاب اليمين قال: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ٣٩-٤٠] أي: إن أصحاب اليمين كثير في الصحابة وغيرهم ليسوا كالمقربين السابقين. ألا تراه يقول: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين: ١٨] ثم قال:

﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢١]. والمقربون أعلى من الأبرار، والأبرار هم أصحاب اليمين. وقال في صفة شراب أصحاب اليمين، وهم الأبرار: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٥-٢٨] والتسنيم: أعلى شراب أهل الجنة وهو صرف للمقربين، ويُمزج منه في الرحيق المختوم الذي هو شراب أصحاب اليمين. ويكفيهم اسمهم المقربون في الجنان. جعلنا الله منهم ونفعنا بحبهم.

والأزفلة أيضاً الجماعة من الناس. يقال: جاؤوا بأزفلتهم؛ أي: بجماعتهم، وأنشد:

إنـي لأعلـم مـا قومـي بأزفلـة ... جـاؤوا لأخبـر مـن ليلـى بأكـياس
جاؤوا لأخبر من ليلى فقلت لهم ... ليلى من الجن أم ليلى من الناس

قال سيبويه: أخذته أزفلة ـ بكسر الفاء وتشديد اللام ـ أي: خفة.

وذا فـصل الفـوائد قـد تقـضى ... وآخـذ بعـد فـي ألـف وصـاد
فـدونك حوضـه مـلآن فاشـرب ... بنـي إن تكـن ظمـآن صـادي

حرف الألف مع الصاد وأختها

واص واص وآض واض ... وآض واض وصل وضل

الأص والأص: واحد، وهو الأصل، والجمع: آصاص. قال الراجز:

قـلال مجـد فـرعت آصاصـا ... وعـزة قعسـاء لـن تناصـى

معنى تناصى: تنال من ناصيته، أي: حاذيت ناصيته، وتناصى الرجلان: إذا أخذ كل واحد منهما بناصية صاحبه. والصأصأة: تحريك الجرو عينيه قبل التفتيح.

ومعكوس آص: صاء، يقال: صاءت الفأرة تصيء صأياً وصئياً: صاحت. وكذلك السنور والكلب والطير، وفي مثل: جاء بما صاء وصمت. يعني: بما نطق وصمت. والصاء: الماء الذي يكون في السلى. قال ج: يقال: ألقت الشاة صاءتها؛ وهو ما يخرج بعد الولادة من القذى وجمعها: صاء. قال مدرك الفقعسي:

مقطعـة الـصديد يجـيء مـنها ... علـى الـرجلين صـاء كالخـراج

وأصاءة اللسان: حصانته ورزانته. والآصية: حساء يصنع بالتمر. وقد تقدّم: صأصأ الكلب. ويقال: صاء فلان رأسه: إذا غسله فلم ينقه.

مقلوبه ألف بين حرفين: صاص: مهمل. وكذلك حرف بين ألفين: اصا، إلا إن دخلت همزة الاستفهام على صاء. وأما: أض فهو فعل تقول: أضني إلى كذا وكذا أي: اضطرني إليه يؤضني أضاً ويئضني، قال الراجز:

وهـــي تـــرى ذا حاجـــة مؤتـــضا

ويقال: آضه الأمر يؤضه، بلغ منه المشقة، وآضه إليه الفقر: ألجأه. وائتض الرجل. وأما أض: فمصدر هذا الفعل كما تقدّم. والأيض أيضاً مثل الحيض وهو الكسر. وأما آض فهو في معنى: رجع، يقال: آض فلان إلى أهله يئيض أيضاً، رجع إليهم. ومنه قولهم: فعلت كذا وكذا أيضاً معناه: رجعت إليه. وكذلك قال أيضاً بمعناه. قال يعقوب: هو مصدر آض يئيض أيضاً: إذا رجع. وإذا قال فعلت ذلك أيضاً.

قلت: قد أكثرت من أيض، ودعني من أيض. والضئضئ: كثرة النسل وبركته. وفي الحديث في قصة الرجل الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما عدلت. فهمّ به أصحابه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يخرج من ضئضئ هذا قوم يمرقون من الدين. الحديث. والضوّة: الصوت والجلبة، والضوضاء مثله، وقد ضوضى الناس. وخرج النسائي في حديث الرؤيا عن النبي صلى الله عليه وسلم: وإذا رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا، قلت لهما: ما هؤلاء؟ قالا: هم الزناة والزواني. خرجه البخاري. أيضاً قال الأصمعي يقال: سمعت للقوم ضوضاة، ولا يكون في الواحد. ويكون ذلك في الأصوات المختلطة. يقال: ضوضوا يضوضون ضوضاء وضيضاء. قال الحارث بن حلزة:

أجمعـــوا أمـــرهم بلـــيل فلمـــا أصـبحوا أصبحت لهـم ضوضـاء

ومن الضوضاة حديث الحسن إذ سمع ضوضاة في المسجد فقال: ما هذه المعلوجاء التي تتناهق تناهق الحمير. قوله: المعلوجاء؛ جمع الأعلاج: وهو على مثال المشيوخاء والمكبوراء والمقصوراء والمعيوراء. خرجه ثابت. وقال: سقط أبو عمرو بن العلاء من سطح له فتعطل عن المشي، فلقيه عيسى بن عمر على حمار له، فقال: كيف تجدك؟. قال: تجدني صالحاً ما أردت إلا مسألة. قال له عيسى بن عمر: فما هذه المعيوراء التي تركض؟.

ومعكوس آض: ضاء، وضاء لغة في أضاء، كما يقال: حب وأحب، ومصدر ضاء: ضوأ، ومصدر أضاء: إضاءة، وتقول: ضاءت النار تضوء ضوأ، ويقال: إيضاء وضياء. فإن جعلت الواو أصلية في وضاء جاء من شكله: وضاء؛ جمع: وضيء، ووضاء ـ بتشديد الضاد ـ وضم الواو. ويقال: رجل وضاء؛ إذا كان جميلاً. قال الشاعر:

والمـــرء يلحقـــه بفتـــيان الـــندى خلـــق الكـــريم ولـــيس بالوضـــاء

وأصل الوضاءة: الحسن والنظافة. ومن النظافة اشتق الوضوء للصلاة، وبين علماء اللغة في هذه اللفظة خلاف، منهم يقول: الوضوء بالفتح المصدر، ومنهم من يجعله الماء، ومنهم من يقول: الوضوء بالضم هو المصدر، ومثله الوُقود والوَقود قيل: الوقود بالفتح الحطب، والوقود تلهب النار وقيل: هما سواء؛ الحطب. والذي جاء في الحديث؛ وذكره مالك رحمه الله في الموطأ: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء في إناء. وهو هنا الماء لا غيره بالفتح، قرأناه على الأشياخ لا غير.

ومقلوبه ألف بين حرفين ضاض: مهمل. وحرف بين ألفين اضا: مستعمل. وقد تقدّم. وفي السير: أتى النبي صلى الله عليه وسلم نعمان بن أضاء رجل من اليهود. وفي الباب أضا ـ بغير همز ـ جمع: أضاة؛ وهو الغدير، ويجمع أيضاً: أضوات وأضين، والميضأة: المطهرة.

بقية القافية: أما صل ـ بكسر الصاد ـ فمن أسماء الداهية، وكذلك الصالة وقد صلتهم. والصلة أيضاً: الحية التي لا تنفع منها الرقية. ويقال: رجل صل؛ إذا كان داهية، وإنه لصل أصلال، أي: داهية دواه. وأصله في الحيات، يقال: إنها لصل صفا؛ إذا كانت منكرة مثل الأفعى. قال النابغة:

مـــاذا رزيـــنا بـــه مـــن حـــية ذكـــر نـضناضة بالـرزايا صـــل أصـــلال

وقال ابن أخت تأبط شراً:

مطـــرق يرشـــح شـــراً كمـــا أطـرق أفعـى يـنفث الـسم صـل

والصل أيضاً: نبت. قال الراجز:

الـــصل والصفـــصل واليعـــضيد

والصليان: بقلة، وهو فعليان، والواحدة: صليانة. ويقال للرجل إذا أسرع الحلف فلم يتعتع: جذها جذ البعير الصليانة. وذلك أن البعير ربما اقتلع الصليانة من أصلها إذا ارتعاها.

وأما صل؛ بالفتح؛ ففعل، وهو على وجوه: يقال: صل السقاء صليلاً: يبس، وصل اللحم وأصل: إذا أنتن، وصل الخزف والفخار: صوّت، وعلى المعنيين فسروا قوله تعالى: ﴿ مِن صَلْصَـٰلٍ ﴾ [الحجر: ٢٦] قالوا طين يابس لم يطبخ، إذا نقرته صل أي: صوّت من يبسه كما يصوّت الفخار. والفخار ما قد طبخ من الطين، ويقال: الصلصال: المنتن مأخوذ من: صل اللحم وأصل إذا أنتن كما تقدّم، يصل صلولاً؛ ويصل إصلالاً، لغتان فصيحتان. قال الحطيئة في صل:

هو الفتى كل الفتى فاعلمي لا يفسد اللحم لديه الصلول

ويروى:

ذاك فتى يبذل ذا قدره

وقال الآخر في أصل:

ملجلج مضغة فيها أنيض أصلت فهي تحت الكشح داء

الأنيض: اللحم النيء الذي لم تمسه النار، أو مسته ولم ينضج. ولا يستعمل: صل إلا في اللحم النيء، فأما القدر والشواء فيقال: خم وأخم.

ومن أصل أيضاً قول الحسن رضي الله عنه: يطيب أحدكم ثوبه وقد أصل ريحه. يعني في قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤]. وقال البخاري رحمه الله: صلصال طين خلط برمل فصلصل كما يصلصل الفخار. ويقولون: منتن، ويريدون به: صل. كما تقول: صر الباب وصرصر عند الإغلاق. مثل كبكبته بمعنى: كببته. انتهى كلامه.

فأصل: صلصال في الآية على هذا: إصلال، فأبدل من إحدى اللامين صاد. والصلصال أيضاً: الحمار الوحشي الحاد الصوت؛ من هذا. والله أعلم. ويقال: صل المسمار يصل صلاً وصليلاً: إذا ضرب وأكره أن يدخل في الشيء فسمعت صوته. ويقال: أرض صلة؛ أي: يابسة. والصلة: الجلد الذي قد يبس قبل دباغه. وقد قرئ: (أئذا صللنا في الأرض) بالصاد المهملة وقرئ بكسر اللام وفتحها، فيحتمل؛ والله أعلم؛ أن يكون من هذا، ويحتمل أن يكون من: صل اللحم إذا أنتن. يقولون: تغيرنا وأنتنا. والله أعلم بما أراد من ذلك. والصلة أيضاً: أرض ممطورة بين أرضين لم تمطر. والخطيطة ضدها: أرض لم يصبها مطر بين أرضين ممطورتين، والجمع: صلال قال الشاعر:

صلال لا يزال الغرور فيها

ويقال: صل الشراب وغيره يصله صلاً: إذا صفاه. وصل الشراب وغيره يصل: إذا صفا. والمصلة أيضاً: إناء يصفى بها الخمر وغيره. ويقال: خف جيد الصلة أي: جيد النعل صلها. ويقال: صل اللجام صليلاً: إذا اشتد صوته، فإن توهمت ترجيعاً قلت: صلصل. وأنشد:

لصلصلة اللجام برأس طرف أحب إلي من أن تنكحيني

والصلصلة: الصوت. وفي الحديث من هذا: وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي؟. فقال: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشد علي.

فالصلصلة هنا: الصوت لا غير. والصلصلة في غير هذا بقية الماء. والصلصل: طائر، يقال هي الفاختة. والصلصل: ناصية الفرس، وصلاصل: ماء لبعض بني عمرو بن حنظلة، قاله البكري.

بقي من شكله: صل؛ أمر من الصلاة، وفي القرآن العزيز: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢]، ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وفي الحديث: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد. وفيه: اللهم صل على آل أبي أو في. وسيأتي الفرق بين الصلاتين في باب السين إن شاء الله تعالى.

ومن شكله: صل؛ أمر من: وصل يصل وصولاً. وصل: أيضاً من الصلة، صل رحمك يرحمك الله. وصل ـ بضم الصاد ـ أمر من: صال يصول، ومنه: صولة السلطان. وفي الحديث من دعائه عليه الصلاة والسلام: اللهم بك أحاول، وبك أقاتل، وبك أصول. فإن جعلت الواو أصلية قلت: وصل، كما تقدّم. تقول: وصلت الشيء وصلاً وصلة، ووصل الشيء وصولاً: أي بلغ، وأوصله غيره ووصله أيضاً. قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ [القصص: ٥١] ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ ﴾ [النساء: ٩٠] الآية، أي: يتصلون أي ينتسبون والله أعلم. ويكون وصل أيضاً بمعنى: اتصل؛ أي: دعا بدعوى الجاهلية، وهو: يا آل فلان. والوصل ضد الهجران. والوصل: وصل الثوب والخف. ويقال: هذا وصل هذا أي: مثله، وبينهما وصلة أي: اتصال وذريعة، وكل شيء اتصل بشيء فما بينهما وصلة، والجمع: وصل بفتح الصاد والأوصال: المفاصل. والوصيلة المذكورة في القرآن هي الشاة تلد سبعة أبطن عناقين عناقين، فإذا ولدت في الثامنة جدياً ذبحوه لآلهتهم، وإن ولدت جدياً وعناقاً قالوا: وصلت أخاها فلا يذبحون أخاها من أجلها. وهذا كان في الجاهلية، وكانوا يزعمون أن الله جعل لهم ذلك، فأكذبهم الله بقوله الحق: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ [المائدة: ١٠٣] الآية. والوصيلة: العمارة والخصب. والوصيلة: الأرض الواسعة. والموصل بلد. وواصل اسم رجل.

معكوسه: لص، معلوم، ويقال فيه: لص ـ بالفتح ـ بين اللصوصية، والجمع: لصوص، وفي بعض اللغات: لصت، ويقال: لصت، والجمع: لصوت. وأنشد:

فتركن نهداً عيلا أبناءها ... وبني كنانة كاللصوت المرّد

والمرد جمع: مارد، ويقال للص أيضاً: الشص. واللصص: التزاق الأسنان. والألص: المجتمع المنكبين يكادان يمسان أذنيه. ولصص بنيانه مثل: رصص، ومنه

سمي اللص لصاً لأنه يجمع نفسه ويلاصص شخصه ليستتر بذلك. وقريب من هذا الباب: لاص: اسم فاعل من: لصاه يلصوه ويلصيه: إذا أعابه وقذفه بالبهتان. قال العجاج:

خــــب فـــــلا لاص ولا ملـــــــصي

فرغ هذا، بقي: ضل، وهو أيضاً على وجوه: ضل يضل ضلالاً: ضدّ الهدى، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ﴾ [سبأ: ٥٠]، ويقال: ضلّ: إذا ضاع وهلك، والاسم: الضل ـ بالضم ـ ومنه قولهم: ضل ابن ضل؛ إذا كان لا يعرف أبوه، وكذلك هو الضلال ابن التلال؛ وهو ضال تال، وهي الضلالة، والتلالة والضالة: ما ضل من البهيمة ذكراً كان أم أنثى، وأرض مضلة ـ بالفتح ـ تضل فيها الطريق، وكذلك مضلة ـ بالكسر ـ. ويقال: ضل في الأمر ضلالاً: إذا لم يهتد السبيل. ويقال: فلان ضل أضلال؛ ومعناه: أنه يضل خصمه وقرنه فلا يهتدي من حيث يأتيه ولا يتجه معه لوجه يخلصه منه. ويقال: ضللت مكاني: لم أهتد له، وعلى هذا فسر قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧] أي: وجدك لا تعرف طريق الحق فهداك إليه. وقيل: وجدك في قوم ضلال فهداهم بك، وقيل: وجدك ضالاً: منسوباً إلى الضلالة؛ فهدى. ويقال: ضل يضل ضلالاً: ضاع، وضل يضل ضلالة: جار، وقوم ضالون: حيارى. وفلان يلومني ضلة: إذا لم يوفق للرشاد في عدله، وفعل ذلك في ضلة أي: في ضلال، وذهب فلان ضلة: إذا لم يدر أين ذهب، وكذلك ذهب دمه ضلة: إذا لم يثأر به. قال الراجز:

لـــــيت شـــــعري ضـــــلة أي شـــــــيء قــــــــتلك

قال ابن الكلبي: قتل ابنا الحارث بن أبي شمر يوم عين أباغ، وقتل المنذر يومئذ، فحملا على بعير، وعولي بالمنذر فقال الناس: لم نر كاليوم عدلي بعير. فقال الحارث: وما العلاوة بأضل أي: ليس بدونهما. وقال النابغة يرثي النعمان بن الحارث:

فـــآب مـــضلوه بعـــين جلـــية وغـــودر بالجـــولان حـــزم ونائـــل

قال ابن الأعرابي: مضلوه دافنوه. من قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ﴾ [السجدة: ١٠]، وقال أبو عمرو: مضلوه هم الذين ينقلون الموتى، ويروى: مصلوه بصاد غير معجمة مفتوحة. قال أبو عبيدة: يعني أصحاب الصلاة، يريد الرهبان بعين جلية أنه في الجنة، وقيل: مصلوه؛ يعني: جاء قوم بخبره، وجاء بعدهم قوم آخرون بخبره أيضاً، فجلي الشك، فجعلهم بمنزلة المصلى من الخيل؛ وهو الذي

يتلو السابق.

ويقال: ضل الشيء: خفي وغاب. وكذلك فسر قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [السجدة: ١٠] أي: خفينا وغبنا، وقيل: هلكنا، ويقرأ هذا أيضاً بفتح اللام وكسرها، ويقال: ضل فلان: إذا مات، وأضللته: دفنته، وأضللت البعير: إذا أفلت فذهب. وفي الحديث: لعلي أضل إليه. يريد: أضل عنه؛ أي: أخفى عليه وأغيب، مثل: ضللنا في الأرض: خفينا. ويقال: ضللت الشيء: أنسيته، وكذلك فسر قوله تعالى: ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠] أي: من الناسين؛ وقيل: من الجاهلين بأن الوكزة تبلغ القتل. وكذلك فسر قوله تعالى: ﴿ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩] أي: بنعمتي. وقال الضحاك: ﴿ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ بقتلك النفس، فنفى عن نفسه عليه الصلاة والسلام الكفر وأخبر أنه فعل ذلك نسياناً على ما تقدّم تفسيره.

ويقال: رجل ضليل؛ كثير الضلالة، ولذلك كان يقال لامرئ القيس: الملك الضليل، ويقال: ضل ابن ضل: إذا كان منهمكاً في الضلال. ومن أمثالهم: ما ضل من تجري به العصا أي: جرت العصا بما ذهبت به ضلالاً، والعصا: فرس لجذيمة الأبرش كانت لا تدرك، وكان قصير بن سعد القضاعي قد عرضها على جذيمة ليركبها في موطن قد أحيط فيه بجذيمة، فتشاغل عنها، فركبها قصير فنجا عليها، وأخذ جذيمة أسيراً، ثم نظر إلى قصير على العصا قد حال دونه السراب فقال حينئذ جذيمة الكلام المتقدم: ما ضل من تجري به العصا. فذهبت مثلاً. وقد تقدّم طرف منه.

والأضلولة: واحدة الأضاليل. ويقال: وقع في وادي تضلل، مثل تخيب، معناه الباطل. ويقال للباطل: ضل بتضلال، والضلضلة: من الضلال، والضلضلة: كل حجر يقله الرجل، وليس في الكلام المضاعف غيره. والماء الضلل: الذي تحت الصخرة لا تصيبه الشمس. وقال البكري: الضلضلة: موضع في أرض بني عدي، وأنشد:

وقـــيل إذ نحـــن علـــى الضلـــضلة

قال: ويقال له أيضاً: الضلضل ـ بلا هاء ـ وأنشد:

فليت قلوصي لم تذق ماء ضلضل ... وكانت إلى البيت المحرم حلت

معكوس ضل: لض. يقال رجل لض: مطرد، واللضلاض: الدليل، ولضلضته: التفاته وتحفظه.

بقي الكلام في الصاد والضاد ليس بينهما تناسب إلا في الشكل والصورة، وإنهما معاً من الحروف الرخوة، ومن حروف الإطباق. أما في المخرج فلأن مخرج

الصاد مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا، ويشركها في هذا المخرج: السين والزاي، وقد تقدّم ذكر ذلك، وكيف اشتركوا في البدل في كلمة واحدة مثل: سراط وصراط وزراط. والصاد بالسين أقرب شبهاً منها بالزاي لأن الزاي من الحروف المجهورة، والسين والصاد من الحروف المهموسة، ومن مخرج واحد. فلذلك أبدلت إحداهما بالأخرى مثل: سراط وصراط، وسقر وصقر، وصيحة وسيحة، وسويق وصويق، وأصبغ الله علينا النعمة وأسبغ، في كلمات مضبوطة. ذكر هذا ابن دريد وقال: ليس هذا في كل الكلام ألا تراهم لا يقولون: سبغت الثوب في معنى: صبغت، ولا صوق في معنى سوق. إلا أن يونس بن حبيب ذكر أنه سمع من العرب: الصوق بالصاد، وجاء في الصقر من قول الأصمعي: اختلف رجل من مضر ورجل من ربيعة، فقال المضري: السقر، وقال الربيعي: الصقر، فأقبل رجل من قضاعة فأخبراه، فقال: لا أقول كما قلتما؛ إنما هو: الزقر. ذكره الخطابي رحمه الله. وقد تقدّم في باب الراء: صراط وسراط وزراط، ومن قرأ بهما في القرآن من القراء.

قال النضر بن شميل رحمه الله: إنما تبدل السين صاداً إذا اجتمعت في الكلمة الواحدة مع أحد أربعة أحرف: الطاء والخاء والقاف والغين إذا تقدمت على السين، من هـ ج. وإن أردت أن تعرف ما يكتب بالسين والصاد فانظر ذلك في مقامات الحريري، فقد جمعها في أبيات ليسهل حفظها، فاطلب تصب إن شاء الله تعالى.

وقد جاء لفظ صاد على صورة حروف التهجي في قوله تعالى: ﴿ صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾ [ص: ١] وقد مر ذكره مع أخواته المقطعة في أوائل السور. وقراءة أبي بن كعب والحسن وغيرهما صادِ والقرآن ـ بكسر الدال ـ إما لالتقاء الساكنين أو على معنى: صاد عملك بالقرآن أي: عارضه به. تقول العرب: صاديتك؛ بمعنى: عارضت لك، وصديت لك أي: تعرضت. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ [عبس: ٦] بتخفيف الصاد، وتصدى ـ بضم التاء ـ وكذلك: ﴿ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس: ١٠] أي: يلهيك عنه الإقبال على غيره. والله أعلم.

وقال الحسن هو مأخوذ من: الصدا؛ وهو: ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية، وقد تقدّم أنه يقال له: بنت الصدا، والواو في: ﴿ وَٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ على هذا بمعنى الباء. وقرأه عيسى الثقفي: صاد ـ بالفتح ـ على أن يكون ذلك إما لالتقاء الساكنين أيضاً، أو على القسم، كقولك: لأفعلن، أو على تقدير: اقرأ صاد، وقرأه الجماعة: صاد ـ بالإسكان ـ على معنى تسمية حروف الهجاء مثل: قاف وغيره، ويكتب على هذا (ص)

و(ق) حرفاً واحداً.

ويأتي من صاد: صاد: فعل ماض من الصيد، يقال فيه: صاد واصطاد وأصاد. وفي مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه في شأن الحمار الوحشي؛ فقال: يا رسول الله إني أصدت. وفي رواية أخرى من قبل النبي صلى الله عليه وسلم قال: أشرتم أو أعنتم أو أصدتم.

بقي مقلوب صاد: صدي ـ مخفف ـ وهو يكتب بالياء وكتابته بالألف للضرورة جائز كما تقدّم، والصداء: الصوت كما ذكر، ومثله: صداً مصدر صد وأصد؛ لغة في اصطد كما تقدّم. وصدى ـ مخفف ـ موضع ذكره البكري، قال: ويقال فيه صدى ـ بضم الصاد ـ قال ويقال فيه أيضاً: ضدى ـ بضاد معجمة مفتوحة ـ ثم قال: ولعله إذا فتح فهو بصاد معجمة، وإذا ضم فصاد مهملة، وهما موضعان. وأما صداء ـ بفتح الصاد المهملة وتشديداً له ممدوداً ـ فهي ركية ليس عند العرب أعذب من مائها. وقال صاحب الكامل هي: صدآة على مثال: صدعاء، وقال الخليل: منهم من يقول: أول صداء؛ فيقول: صداء. وحكى ابن دريد فيها: صيداء أبناء بين الصاد والدال، ولعله الذي عنى الذبياني بقوله:

لـئن كـان للقبـرين قبـر بجلـق ... وقبـر بـصيداء الـذي عـند حـارب

وحارب هذا قال الأثرم: وهو اسم رجل، وقال غيره: هو اسم موضع. قال البكري: والصيداء أرض غليظة ذات حجارة. ومنه اشتق اسم الرجل الذي منه بنو الصيداء. قاله ابن دريد.

وأما صدأ ـ بالهمزة ـ فهو: وسخ الحديد، يقال: صدأ يصدأ صدأ، ويدى من الحديد صدية أي: سهكة قال:

سـهكين مـن صـداء الحديـد

البيت جـ هـ. وهذا الماء هو الذي يضرب به المثل فيقال: ماء ولا كصداء ـ بالضم والفتح ـ وصدآء كما تقدّم من قول صاحب الكامل، وفيه أنشد:

مـاء ولا كـصدآء ... مرعـى ولا كالـسعدان

وأنشد البكري فقال:

كـصاحب صـداء الـذي لـيس راثـياً ... كـصداء مـاء دافـه الدهـر شـارب

ويروى في هذا البيت: كصيداء، على مذهب ابن دريد، والله أعلم.

والصدى الذي يجيبك بمثل صوتك في الجبال وغيرها، يقال: صم صداه؛ وأصم الله صداه أي: أهلكه. لأن الرجل إذا مات لم يسمع الصدا منه شيئاً فيجيبه، ومنه قوله:

صـــــم صـــــداها وعفـــــا رســـــمها

وكذلك يقولون: صمه بالعصا أي: ضربه وصمه بحجر، كما قالوا: صم صداه. ويقال للداهية: صمي صمام؛ مثل قطام أي: زيدي، ويقولون: صمي ابنة الجبل، نحو مما تقدّم، ويقولون: صمت حصاة بدم؛ أي: إن الدماء كثرت حتى لو ألقيت حصاة لم يسمع لها وقع لأنها لا تقع على الأرض إنما تقع على الدم. ويقال: هذا المعنى أراد امرؤ القيس بقوله:

صـــــمي ابـــــنة الجـــــبل

وهي الحصاة. فرغ الكلام في الصاد.

خـرجت مـن شـيء إلـى غيـره ... لكـــنه فـــن لقـــوم خـــصوص
لـم أعـد فـيه العلـم لكـن مـن الـ ... ـعلم الـذي لـم أعـد فـيه النصوص
فـإن يكـن للعلـم فـص فـذا ... مـنه هـداك الله فـص الفـصوص

تقدّم في الشعر ذكر النصوص، ودونك من ملح هذا الباب ما يسحر الألباب، وهي الأبيات أنشدنيها الشريف العثماني ـ رحمه الله ـ بالإسكندرية ـ حماها الله ـ يقولها بعض شعرائهم من رعاتهم لأحد أمرائهم في قضاتهم:

قـضاة زمانـنا أضـحوا لـصوصا ... عمـوماً فـي الخلـيقة لا خـصوصا
يـرون بأكـل أمـوال اليتامـى ... كـأنهم رووا فـيها نـصوصا
وحـسبك أنهـم لـو صـافحونا ... لـسلوا مـن خواتمـنا الفـصوصا

ولي أنا من قطعة مطولة سببها أني كنا واقفاً ذات يوم مع أحد الفقهاء، فمر رجل من أبناء الدنيا فسلم عليه وتركني، فقلت:

كـــان الـــسلام عمـــوما ... فـــالآن صـــار خـــصوصا
إن كـــنت تجهـــل هـــذا ... أتلـــو علـــيك نـــصوصا
أف لدهـــــر أرانـــــي ... بعارضـــيك وبيـــصا
أبـــدى علـــيك رواء ... ورونقـــاً وبصيـــصا
لا نرتـــضي الطعـــم إلا ... درامكـــاً وخبيـــصا
فـــصرت بعـــد بطيـــنا ... وكـــنت قـــبل خميـــصا
إذ نلـــت ذلـــك بعـــت ... الأصـــحاب بـــيعاً رخيـــصا
جنبتـــنا فحـــسبنا ... أنـــا رجعـــنا لـــصوصا
يـــا مـــن تعـــزز أقـــصر ... ولا تكـــونن حريـــصا
ظنـــنت وحـــدك تكـــسى ... مـــن العـــلاء قميـــصا

إن كــــنت تحــسب عيــــناً نعـــــد نحــــن فـــصوصا

وتقدّم أن الرجل سلم على الفقيه وتركني وهذا مكروه. جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بين يدي الساعة تسليم الخاصة. وذكر أشياء غير هذا.

فصل:

الضاد هي أخت الظاء في الإطباق، وأما في المخارج فيختلفان. مخرج الضاد من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس. ومخرج الظاء قد تقدّم في بابها فأغنى عن إعادته، ولا أعلم فيها كلاماً أكثر من أنه يجيء من شكلها كذا معربة: ضاذ فلان فلاناً، كما تقول: شاقّه وحادّه، وهو معلوم.

ومقلوب ضاد: ضدّاً، وفي القرآن: ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢]، وبقي أنه ينبغي أن يفرق بينها وبين الظاء بالنطق لئلا تنقلب المعاني في مثل: ظل وضل. نعم؛ وربّما أشبه ذل، ومثله: محظوراً ومحضوراً ومحذوراً، فبالمخارج يتبين المعنى فكن بها تعنى.

خــرجت مــن شــيء إلــى غيـره نفــل ولكــن هــو كالفــرض
إن لــم يكــن فرضــاً فعلــم وهــل شــيء كمــثل العلــم فــي الأرض

فصل:

من فوائد هذا الباب تقدّم: صاصاً، ومنه حديث عبيد الله بن جحش لعنه الله، كان قد أسلم وهاجر مع المسلمين إلى أرض الحبشة، فتنصر بها ومات هناك نصرانياً. فكان إذا مرّ بالمسلمين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: فتحنا وصاصاتم؛ أي: قد أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر. يضرب مثلاً بولد الكلب الذي إذا أراد أن يفتح عينيه للنظر صاصاً. وكانت أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها تحت عبد الله هذا، فلما هلك خلف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان لها من عبيد الله بنت تسمى حبيبة وبها كانت تكنى، واسمها رملة، فلما انقضت عدتها خطبها النجاشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزوّجها منه خالد بن سعيد بن العاصي وهما بأرض الحبشة، وأصدقها النجاشي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار.

وذكر أبو عمر بن عبد البر بسنده أن أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها قالت: ما شعرت وأنا بأرض الحبشة إلا برسول النجاشي جارية يقال لها: أبرهة. كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فاستأذنت عليّ فأذنت لها، فقالت: إن الملك يقول لك إن

رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إليّ أن أزوّجكه. فقلت لها: بشرك الله بالخير، وقالت: يقول لك الملك وكّلي من يزوّجك، فأرسلت إلى خالد بن سعيد فوكلته، وأعطيت أبرهة سوارى فضة كانتا عليّ، وخواتيم فضة كانت في أصابعي سروراً بما بشرتني. فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ومن هناك من المسلمين يحضرون، وخطب النجاشي فقال: الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، أما بعد: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إليّ أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبت لما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أصدقتها أربعمائة دينار، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم، فتكلم خالد بن سعيد وقال: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوّجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسوله، ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا فقال: اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوّجوا أن يوكل طعام على التزويج، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا.

قلت: وقع في هذا الحديث أن النجاشي زوّج أم حبيبة من النبي صلى الله عليه وسلم. وجاء في مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان سأل ذاك من النبي صلى الله عليه وسلم، قال: كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا نبي الله ثلاثة أعطيتهن، قال: نعم. قال: عندي أحسن العرب وأجملها أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها. قال نعم.

وذكر أبو عمر أن النجاشي هو الذي زوّجها من النبي صلى الله عليه وسلم بأرض الحبشة كما تقدّم، وأن عثمان بن عفان هو الذي عقد نكاحها هناك، وأن أبا سفيان إذ ذاك كان محارباً لرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك لم يرد إنكاحها له، ولما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوجها وهي بأرض الحبشة، وقيل له: إن محمداً قد نكح ابنتك، قال: ذاك الفحل لا يقدع أنفه.

قال أبو عمر: اختلف فيمن زوجها وعقد عليها، فقيل: خالد كما تقدّم، وقيل: عثمان، وقيل: النجاشي.

تقدّم في أول هذا الحديث حبيبة بنت أم حبيبة، ذكر أبو عمر فيها فائدة عجيبة، وذلك أنه ذكر عن الزهري، عن عروة، عن زينب بنت أم سلمة، عن حبيبة بنت أم

حبيبة، عن أمها أم حبيبة، عن زينب بنت جحش، قالت: استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه محمراً وجهه وهو يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب. قد اجتمع في هذا السند أربع نسوة، كلهنّ قد رأين النبي صلى الله عليه وسلم، اثنتين من أزواجه: أم حبيبة وزينب بنت جحش، واثنتين ربيبتين: زينب بنت أم سلمة، وحبيبة بنت أم حبيبة، ويجمع بين الخبرين أن يكون خالد وعثمان بن عفان زوّجها من النبي صلى الله عليه وسلم، لأنها كانت ابنة عمته صفية بنت أبي العاص، وكان النجاشي خاطباً، والله أعلم.

وكان لعبيد الله بن جحش ـ المتقدّم الذكر ـ أخ اسمه عبد الله بن جحش، وكان ابن أخت حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنهما ـ وأخاه من الرضاعة، وقتلا جميعاً يوم أحد، ودفنا في قبر واحد ـ رضي الله عنهما ـ وهو الذي يقال له: المجدّع في الله، وسبب هذه التسمية ما حدث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لقيت عبد الله بن جحش رضي الله عنه يوم أحد أول النهار، فقال: يا سعد هلم فلندع الله، وليذكر كل واحد منا حاجته في دعائه، وليؤمن الآخر. قال سعد: فدعوت الله أن ألقى فارساً فأقتله وآخذ سلبه، فقال عبد الله: آمين. ثم استقبل القبلة ورفع يديه إلى السماء وقال: اللهم لقني اليوم فارساً يقتلني، ويجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً تقول لي: يا عبدي فيم جدع أنفك وأذناك؟ فأقول: فيك يا ربّ وفي رسولك، فتقول لي: صدقت. قل يا سعد آمين، فقلت: آمين. ثم مررت به آخر النهار قتيلاً مجدع الأنف والأذنين وإن أنفه وأذنيه معلقتين في خيط واحد. ولقيت أنا فلاناً من المشركين فقتلته، وأخذت سلبه.

وأخته هي: زينب بنت جحش، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت تحت زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي التي قال الله تعالى فيها لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وبذلك كانت تفخر على سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وتقول: أنتن زوّجكنّ أهلوكنّ من نبي الله عليه الصلاة والسلام، وأنا زوّجني الله منه. أو كما قالت. وكانت أسدية. خرج ثابت من حديث الشعبي أنه أبصر رجلاً من سليم وهو يلزم رجلاً من بني أسد بن خزيمة، والسلمي يقول للأسدي: هلم فلأنافرك المجد، والأسدي يتفلت منه والسلمي يأبى أن يرسله. فقال الشعبي: يا أخا سليم إليّ، فأقبل، فقال: أفيكم امرأة زوّجها الله من السماء؛ والسفير بينهما جبريل؟. قال: لا. قال: تلك منهم؛ زينب بنت جحش. أفيكم رجل أقسم على الله فأبره؟ قال: لا، قال: ذلك منهم، عبد الله بن جحش! أفيكم رجل كان يمشي في الناس وهو يعلم أنه من أهل الجنة؟ قال: لا. قال: ذلك

منهم، عكاشة بن محصن الأسدي! أفيكم أول من بايع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية بيعة الرضوان؟. قال: لا. قال: ذلك منهم؛ أبو سنان الأسدي. رضي الله عنهم أجمعين. المنافرة: المحاكمة إلى من يقضي بين القوم في خصومة أو مفاخرة. تقول: نافرت فلاناً إلى فلان فنفرني عليه؛ أي: غلبني عليه وقضى لي. قال الأعشى:

قد قلت شعري فمضى فيكما　　　واعترف المنفور للنافر

وكانت المنافرة أول ما استعملت أنهم كانوا يسألون الحاكم أينا أعز نفراً؟ وفي القرآن من هذا: ﴿ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾ [الكهف: ٣٤]، ﴿ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴾ [الإسراء: ٦] والجماعة: الأنفار والنفر والنفير. ومنه قولهم: لا في العير ولا في النفير. يريدون: نفير قريش الذين نفروا إلى بدر ليمنعوا عير أبي سفيان. وقوله في الحديث: السفير جبريل. فالسفير: الرسول. تقول: سفرت بين القوم: إذا كنت بينهم رسولاً. أسفر سفارة وهم السفراء والسفرة أيضاً. وفي التنزيل: ﴿ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴾ [عبس: ١٥-١٦].

وكان عبد الله بن جحش المذكور قد أرضعته ثويبة جارية أبي لهب، وهي أرضعت أيضاً حمزة وأرضعت أيضاً النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لم يكن ذلك في وقت واحد، لأن حمزة كان أكبر من أخيه العباس، وكان العباس إذ ولد النبي صلى الله عليه وسلم ابن ثلاثة أعوام، وكان عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر من حمزة.

وممن جدع أنفه في الحرب هدبة بن الخشرم ثم إنه قدم للقتل فحضرت امرأته فقال:

فإن يك أنفي قد أصيب جماله　　　فما نسبي في الصالحين بأجدعا
فلا تنكحي إن فرق الدهر بيننا　　　أغم القفا والوجه ليس بأنزعا

فقالت لقاتليه: كفوا عنه ساعة ثم مضت ورجعت وقد جدعت أنفها، فقالت: أهذا فعل من له في الرجال حاجة. فقال: الآن طاب الموت. وتقدّم أيضاً.

وجاء منه في الحديث من قول النبي صلى الله عليه وسلم إذ قالت له هند: لقد أمسيت وما من أهل خباء أحب إليّ من أن يذلهم الله من أهل خبائك، فقد أصبحت وما من أهل خباء أحب إليّ من أن يعزهم الله من أهل خبائك. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أيضاً: والذي نفسي بيده... خرجه ثابت. وقال معناه والله أعلم: سيلبسك الله من الإيمان ما تصيرين به إلى أعلى من هذه الدرجة، وترجعين في هذه

المقالة وأكثر منها.

وتقدّم: ضاء، وجاء منه في الشعر قول العباس بن عبد المطلب يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم:

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسراً وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النور وسبل الرشاد نخترق

قال ابن قتيبة: لم أسمع بهذه اللغة، يعني: من صالب، إلا في هذا الشعر، وفيه لغة أخرى: صلب، ومثله في التقدير: سقم، وسقم وبخل وبخل.

وتقدّم إضاءة، وفي الحديث منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أوّل زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب في السماء إضاءة. الحديث. والضوء والضياء هو: المنتشر عن النور، والنور هو: الأصل للضوء ومنه مبدأه وعنه يصدر. وفي التنزيل: ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٧] وفيه: ﴿ جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: ٥] لأن نور القمر لا ينشأ عنه من الضياء ما ينشأ عن الشمس، لا سيما في طرفي الشهر، والدليل على أن النور يكون منه الضياء قول ورقة بن نوفل:

ويظهر في البلاد ضياء نور يقيم به البرية أن تموجا

يقوله في النبي صلى الله عليه وسلم. وفي الحديث الصحيح: الصلاة نور، والصبر ضياء. وذلك أن الصلاة عمود الإسلام، وهي ذكر وقرآن، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

فالصبر عن المنكرات والصبر على الطاعات هو الضياء الصادر من هذا النور الذي هو القرآن والذكر.

وفي أسماء الله تعالى: النور، من قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥] ولا يجوز أن يكون الضياء من أسمائه تعالى.

نقلت هذا من كلام السهيلي رحمه الله. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: منوّرهما، وقيل: يعني بنوره يهتدي من فيهما، وقيل: مثل نوره الذي أعطى المؤمن في قلبه كمشكاة، وهي الكوّة التي في البيت غير نافذة، فيها مصباح يعني: السراج. تفسير ابن عباس رضي الله عنهما.

وتقدّم: ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ [البقرة: ١٧]. وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا أيدينا من التراب، وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

ومن أضاء أيضاً قول الله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠] يعني: البرق وهذا مثلاً ضربه الله تعالى للمنافقين. المعنى: إذا أنزل القرآن بما يحبون مالوا إليه، وإذا أنزل بما يكرهون نافقوا. قاله ابن عباس.

وقال قتادة: إذا رأى المنافق رخاء قال أنا معكم، وإذا رأى شدة لم يصبر، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي: على شك ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ أي: رخاء وعافية ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١] ارتدّ كافراً. وقيل: نزلت هذه الآية في قوم من الأعراب كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون، فإن أصابوا رخاء أقاموا، وإن نالوا شدّة ارتدّوا. نعوذ بالله من النفاق وسيئ الأخلاق.

ومن ملح هذا الباب ولا بدّ أن أنشدك في الإضاء أيضاً شعراً تخاله سحراً، وإن لم يكن لقائله قدم في القدم، فهو محدث حدث، أنشر البلاغة من الجدث، فحييت بعد الموت، وأدركت بعد الفوت، ذلكم الأديب ذو الإبانة أبو بكر بن اللبانة، وسترى تحقيق ما أشدت إذا أنشدت:

حنيت جوانحه على جمر الغضى	لما رأى جمراً أضاء بذي الأضا
وأشتم من ريح الصبا روح الصبا	فقضى حقوق الشوق فيه بأن قضى
والتف في عبراته فحسبتها	من فوق عطفيه رداء فضفضا
قالوا الخيال حياته لو زاره	قلت الحقيقة قلتمو لو غمضا

وهذا البيت في ذكر الخيال من السحر الحلال، وله أيضاً وسمى الخيال بغير هذا الاسم ذكر فيه الطيف ونحول الجسم، فقال:

لم يدر طيفك موضعي من مضجعي	فعذرته في أنه لا يطرق

من قطعة مطوّلة مدح فيها ناصر الدولة. ومن أغرب بيت فيها:

ضدّان فيه لمعتد ولمعتف السيف يجمع والعطاء يفرّق

وأوّلها:

هلا ثناك علي قلب مشفق فترى فراشاً في فراش يحرق

وتقدّم ضالون: حيارى، وفي القرآن العزيز قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] قيل: المغضوب عليهم: اليهود، والضالون: النصارى. فإن قيل: أليس النصارى من المغضوب عليهم واليهود من الضالين؟ فكيف صرف لفظ الغضب إلى اليهود والضلال إلى النصارى؟. قيل له: نطق بذلك القرآن العزيز، وورد به الحديث. قال الله تعالى في قصة اليهود: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال في النصارى: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وجاء في الحديث أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم ـ وهو بوادي القرى ـ من المغضوب عليهم؟. قال: اليهود. قال: ومن الضالون؟. قال: النصارى.

وخرج الترمذي عن عدي بن حاتم ـ رحمه الله ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال. فإذا صح هذا فمن سواه هاذى.

وتقدّم: ﴿صٓ﴾. اختلف أهل العلم هل في ﴿صٓ﴾ سجدة أم لا؟. فمنهم من قال: إنها توبة نبي، ولم ير فيها سجوداً، ومنهم من رآه؛ وهو الأشهر. وخرج الترمذي بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة، فسجدت فسجدَت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم سجدة ثم سجد. فقال ابن عباس: فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة.

وفيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في سجود القرآن بالليل: سجد وجهي للذي خلقه، وشقَّ سمعه وبصره بحوله وقوته.

وخرج النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في ﴿صٓ﴾ وقال: سجدها داود توبة، ونسجدها شكراً. وخرج أبو داود أنه عليه الصلاة والسلام قرأ على المنبر ﴿صٓ﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه.

وكان ابن المسيب رحمه الله لا يدع قراءة ﴿صٓ﴾ كل ليلة، فسئل عن ذلك فقال: ما من عبد قرأها كل ليلة إلا اهتز لها العرش. وقد تقدّم في فضائل القرآن في أوّل الكتاب.

وتقدّم ذكر اللصوص، وأفيدك في المعنى بحديث منصوص، أسنده الثقات من أهل الآداب إلى القاضي عبد الله بن المنتاب، قال: أخبرنا سليمان بن إسحاق، قال: أخبرنا الفروي قال: كنت جالساً عند عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون، فجاء بعض جلسائه فقال له: يا أبا مروان أعجوبة. قال: وما هي؟. قال: خرجت إلى حائطي بالغابة، فلما أصحرت، وبعدت عن بيوت المدينة، عرض لي رجل فقال لي: اخلع ثيابك. فقلت: وما يدعوني إلى خلع ثيابي؟ قال: أنا أولى بها منك. قلت: ومن أين؟. قال: أنا أخوكم، وأنا عريان، وأنت مكتس. قال قلت: فالمساواة. قال: كلا، قد لبستها أنت برهة، فأريد أن ألبسها كما لبستها. فقلت: فتعريني وتبدي عورتي؟. قال: ولا بأس بذلك، قد روينا عن أنس بن مالك أنه قال للرجل أن يغتسل عرياناً بالعراء. قلت: فيلقاني الناس فيرون عورتي؟. قال: لو كان الناس يلقونك في هذا الطريق ما عرضت لك. قال فقلت له: فأراك ظريفاً، فدعني حتى أمضي إلى حائطي، فأنزع الثياب وأوجه بها إليك. قال: كلا، أردت أن توجه إليّ بأربعة أعبد من عبيدك، فيقبضوا عليّ، ويمضوا بي إلى السلطان فيحبسني، أو يمزق جلدي، ويطرح رجلي في الفلقة. قال فقلت: كلا أثلجك بالأيمان أني أفي لك بما وعدتك ولا أسوءك. قال: كلا، قد روينا عن مالك أنه قال: لا تلزم الأيمان التي يحلف بها للّصوص. قال فقلت: فأحلف أني لا أحتال في أيماني هذه. قال: هذه أيمان مركبة على أيمان اللصوص، الباب فيها واحد. قال فقلت له: دع المناظرة بيننا، فوالله لأوجهن بهذه الثياب طيبة بها نفسي. قال: فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال: أتدري فيم فكرت؟ قال فقلت: لا. قال: تصفحت اللصوص من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا هل أجد لصاً بنسيئة فلم أجده، وأكره أن أبتدع في الإسلام، اخلع الثياب. فخلعتها ودفعتها إليه.

وذا فصل الفوائد قد تقضى ... وآخذ بعد في ألف وعين
وأخت العين غين سقت أيضاً ... لتحضر أختها يا نور عيني
وعندي أن علمهما جميعاً ... ألذ لديّ من ورق وعين

باب الألف مع العيْن وأختها

واع   اع   واغ   اغ   ووراع   وعا   ووعى   وغل   وغل

لم يستقم لي في هذا الباب بيت على تأسيسه إلا بمعكوسه، وما قام حتى دعمته، ولا استقام حتى أعنته، وأنشدت:

وبعد ما وجدت غير هذا فاسمعه إنني لست ممن هاذى
واقنع واحذر من وابل رذاذا وارض به مرقعاً جذاذا

ومع هذا؛ فإن كان قد جاء وهو ملفق مرقوع، فهو في معناه موفق مرفوع، يحتوي على عيون من العلوم، وفنون من الفهوم. وقد كنت أوّل ما فرضته وعلى نفسي عرضته، قلت: هذا بيت من الكلام قفر، ليس فيه ما يقال وقد عراه بتر، فما عندي ما يؤكل ولا يكال، لكن قلت: الكبير يحتال، وإن لم يجد ما يكتال يغتال، والقرآن وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام يصلحه، حتى تصير بعد أن كنت تذمه تمدحه. وها أنا ذا إن شاء الله أشرحه، وأبسط ما انقبض منه وأفتحه.

أما أع اع: فصوت يخرج من الجوف مع تنفس. وخرج البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فوجدته يستن بسواك بيده يقول: أع أع، والسواك في فيه كأنه يتهوّع. وذكر النسائي هذا الحديث وقال: وهو يقول: عا عا. وللعرب ألفاظ مثل هذه ورد منها في الحديث كثير، سأذكر منها في آخر هذا الباب ما أمكن إن شاء الله تعالى.

وأما أغ أغ: فصوت الصبي الصغير حين يريد الكلام به يبدأ، وربما يقال له ذلك. وفي ذلك يقول الشاعر، وكان له طفل يقوله:

فلذة قلبي أمسها بيدي إذا أراد الكلام قال أغ
لو وصف الواصفون كلهم مقدار حبي له لما بلغوا

وأما واع: فاسم فاعل من: وعا يعي وعياً، والواو أصلية. وكذلك في: وعا وعا المذكور في البيت. يقال: وعيت العلم وأوعيت المتاع. قال الشاعر:

الخير يبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

ووقع في البخاري في حديث كسوف الشمس قال هشام: فلقد قالت لي فاطمة: فأوعيت. وذكر الحديث.

فعلى هذا يقال: أوعيت العلم، وكذلك قال ابن قتيبة: أوعيت العلم ووعيته. والمشهور: أوعيت المتاع في الوعاء، ووعيت العلم. وقال الله عز وجل: ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ [المعارج: ١٨]، ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٢] وتفسير أوعى أي: جمع المال وجعله في وعائه، ومنع منه حق الله تعالى، وهذه صفة الكافر، دليله قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج: ٢٢]. والكفار لا يصلون، والصلاة هنا: المكتوبة. قال ابن

مسعود: هو صلاتها لوقتها، فأما تركها فكفر.

قلت: وإن كانت الآية في الكفار ـ كما قالوا ـ ففي ضمنها تخويف للمسلمين. لأنّ من تشبّه بقوم فهو منهم. وقال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٣] قال مجاهد وغيره: معناه يوعون في أنفسهم، قاله المهدوي. وقال ابن عزيز: يوعون: يجمعون في صدورهم من التكذيب بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم؛ كما يوعى المتاع في الوعاء. والوعي: حفظ القلب. ووعى عظمه: إذا انجبر. ويقال: لا وعي لك عن ذلك؛ أي: لا تماسك. ووعت المدّة في الجرح: إذا اجتمعت، والوعاء: الصوت، والوعاء: الظرف الذي يجمع فيه الأشياء، وقد يكنى به عن الصدر، كما قال أبو هريرة رضي الله عنه: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين، فأما أحدهما: فبثثته في الناس، وأما الآخر: فلو بثثته قطع هذا البلعوم. خرجه البخاري، وقال متصلاً به: البلعوم: مجرى الطعام. وكذا قال أبو عبيدة: البلعوم: مجرى الطعام في الحلق. وقد تحذف الواو فيقال: بلعم، مثل العسلوج والعسلج. وقال غيره: العسلوج أيضاً: البياض الذي في جحفلة الحمار، وأنشد في ذلك:

بــيض البلاعــيم أمــثال الخواتــيم

والبلعمة: الابتلاع. والبلعم: الرجل الكثير الأكل الشديد البلع للطعام، والميم زائدة.

رجع إلى قوله تعالى: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٢] معناه: أي لتذكرها وتكون خبراً مسموعاً. ويقال: واعية: حافظة، ويقال: رجل واعية؛ دخلت التاء فيه للمبالغة كما دخلت في علاّمة ونسّابة. والواعية أيضاً: الصارخة. والذي جاء في الحديث من هذا: إنما هو الناعية؛ بالنون. منه قول عبد الله بن عتيك رضي الله عنه: لا أبرح حتى أسمع الناعية. قالها في مقتل أبي الحقيق. وقال أبو عمرو: الهاعية والواعية: الصوت الشديد والصياح، وكذلك وقع في الدلائل من قول الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، لهرثمة من حديث طويل: فولى هارباً حتى لا تسمع لها واعية، ولا ترى لها مقتلاً. الحديث. قال ثابت: الواعية: الصراخ على الميت، قال بعضهم: ولم نسمعهم يشتقون منه فعلاً، وهو من الوعي وهو: الجلبة والصوت، فإذا ضاعفوا اشتقوا له فعلاً فقالوا: وعوع الكلب، والمصدر: الوعوعة والوعواع، ويقولون: خطيب وعوع، كما قالت الخنساء: هو القرم والكهين الوعوع. وإذا نعتوا رجلاً مهدراً قالوا: وعواع، وأنشد:

تــسمع للمــرء بهــا وعــواعا

بقي معكوس اع واغ التي في البيت، فشكلها: عا وغا. أما عا: فقد تقدّم في حديث النسائي من قول النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان يتسوّك: عا عا. وقالوا: عاعيت عاعاة، وهو زجر الضأن إذا قلت لها: عا. وقال المازني: ألف عاعيت مقلوبة عن واو، وكذلك حاحيت.

وأما مقلوب هذه اللفظة حرف بين ألفين فشكله: اعا، لا أعلم فيه شيئاً إلا بزيادة. قالوا: أعاه الزرع، وأعاه القوم، وأعيه المال، فهو: معوه، إذا أصاب ذلك كله العاهة وهي الآفة، عافانا الله منها.

وأما مقلوبه ألف بين حرفين: عاع، فمهمل فيما أظن. وأما: غاغ ـ بالغين المنقوطة ـ فلم أر فيه شيئاً، إلا أنهم قالوا: الغاغة ضرب من النبات يشبه الهرنوة. والغاغة من الناس: وهم الكثيرون المختلطون.

وأما واع المتقدّم فمعكوسه: عاو، اسم فاعل من: عوى الكلب يعوي عواء، وكذلك الذئب. ويقال أيضاً: وعوع وعوعة، وضغا يضغو ضغاء. وتقول: عويت الحبل عياً: لويته. ومن شكل هذا الحرف: غوى الرجل يغوي غياً وغواية: إذا انهمك في الشر، فهو غاو. وأغواه غيره فهو غوي؛ أصله: فعيل. قال الأصمعي: لا يقال غيره، وأنشد:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ... ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

والمغواة: حفرة الصائد، والتغاوي: التجمع والتعاون على الشر؛ من الغواية أو الغي. وفي الحديث: تغاووا على عثمان فقتلوه؛ أي: اجتمعوا عليه. ويقال أيضاً: تغايوا ـ بالياء ـ قاله الزبيدي. والغوغاء: الجراد بعد الدبا، وقيل الغوغاء: شبه البعوض، إلا أنه لا يعض ولا يؤذي، والأغوية: الداهية. يقال وقع الناس في أغوية؛ أي: داهية. والمغوّيات ـ بفتح الواو مشدّدة ـ جمع: المغوّاة؛ وهي: حفرة كأنها بئر، ومنه: من حفر مغواة وقع فيها. وفي الحديث من قول عمر رضي الله عنه أن قريشاً تريد أن تكون مغويات لمال الله. خرجه الخطابي رحمه الله وقال: هي الحفيرة والوهدة تكون في الأرض. قال: عوام الرواة يقولون: مغويات ساكنة الغين مكسورة الواو؛ وهو خطأ.

وبقي من الباب مقلوب غاو: وغي، الوغى: أصوات الأبطال في الحرب التي يسمع صوتها ولا يفهم ما تقول أصحابها، شبهت بوغي الذباب والبعوض ونحوها. ومثله: الغمغمة، ويقال: سمعت وغى القوم ووحاهم، قاله الأصمعي. وقال أبو عمرو: ومثله الوعى؛ بعين غير معجمة.

بقية القافية: عل وغل، والعل والعلل: الشربة الثانية، وتسمى الأولى: النهل، قال

الشاعر:

يــــورد الـــــصعدة حتــــى إذا   نهلـــت كـــان لهـــا مـــنه عـــل

الصعدة: صدر القناة، يقول: يطعن مرة ثم يعاود فيطعن أخرى. ويقال: القوم يعلون لإبلهم علاً وعللاً، والإبل نفسها تعل عللاً، كل ذلك شرب بعد شرب، وكذلك سقى إبله عللاً ونهلاً أي: سقية بعد سقية. والعل: أن يعرض الماء على الإبل بعد سقيه الأوّل؛ فإن شربت فهي عالة وإن أبت فهي قاصية. ومن أمثالهم: سمتني سوم العالة، أي: لم تبالغ في العرض عليَّ. والمرأة تعل ولدها بشيء من المرق أو نحوه يجزيه عن اللبن. والعل: الذي يزور النساء، والعل: القراد الضخم، ورجل عل، أي: مسن نحيف شبيه بالقراد. قاله صاحب العين. وقال ابن دريد في الجمهرة: والعل: الصغير الضئيل الجسم، وإن كان كبير السن، وبذلك سمي القراد: علاً وأنشد:

ولـــو ظـــل فـــي أوصـــالها العـــل يرتعـــي

وعل لغة في: لعل؛ التي هي حرف يقرب من قضاء الحاجة. ويقال أيضاً: حرف ترج وتوقع، وإذا جاءت في الكلام عن الله عز وجل فهي إن شاء الله تعالى واجب؛ بمعنى أن الله تعالى يعطي ما وعد، في مثل قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٥٣]، و: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩] ولا يجب على الله سبحانه وتعالى شيء إلا من طريقة الثقة بقوله ووعده الكريم، ومن جهة اللطف والجود سبحانه.

وفي لعل لغات: يقال: عل، ولعل، ولعلنا، ولعن، ولعنا، ولغن ـ بالغين المعجمة ـ في هذا واحدة. وبنو تميم تقول: لعنك عوض لعلك. قال الفرزدق:

قفـــا يـــا صـــاحبي بـــنا لعـــنا   نـــرى العرصـــات أو أثـــر الخـــيام

قال الزبيدي لعل أصلها: عل، واللام فيها زائدة كاللام في: لأفعلن. قال غيره: وذلك لضرب من المبالغة، يريد التأكيد والله أعلم. قال الأستاذ رحمه الله: يجوز حذف نون الوقاية من لعلني؛ فتقول: لعلي، كما قال الله تعالى: ﴿ لَعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [يوسف: ٤٦] بحذف النون وحسن ذلك كثرة حروف هذه الكلمة. قال: وقد حكى يعقوب أن من العرب من يخفض بلعل، وهذا يؤكد حذف النون من لعلي، وأحسن ما يكون حذف هذه النون في: أن ولكن، وكأن، لاجتماع النونات. وقد جاء حذف النون في ليتني، كما قال ورقة:

فـــيا ليتـــي إذا مـــا كـــان ذا كـــم   شـــهدت وكـــنت أوّلهـــم ولـــوجا

ولكنه غير مستحسن، وهو في لعل أحسن، لقرب مخرج اللام من النون، قال

الشاعر:

يقـول أنـاس عـل مجـنون عامـر ... يـروم سـلوا قلـت إنـي لمـا بـيا

وذكر ابن جنى في سر الصناعة: قال أبو زيد: لغة عقيل: لعل زيد منطلق؛ بكسر اللام الثانية وجر زيد. وقال كعب بن سعد الغنوي:

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة ... لعـل أبـي المغـوار مـنك قـريب

وقال قوم: إنما هو: لعا لأبي المغوار، ولعا: كلمة تقال للعاثر، يراد بها: الارتفاع والإقالة. قال ابن أبي سلمى:

ولا قائـل إمـا عثـرت لعـا لكـا

وقال أبو الحسن: ذكر أبو عبيدة: أنه سمع لام لعل مفتوحة في لغة من يجر بها في قول الشاعر:

لعـل الله يمكنـنـي علـيها ... جهـاراً مـن زهيـر أو أسـيد

والعلة: المرض، وصاحبها معتل وعليل. والعلة: الحدث الشاغل عن الشيء كأنه حدث شغله ثانياً عن شغله الأوّل، والعلة: من الاعتلال؛ جاء بقلة، وجمعها: علل، وتعللت بكذا من هذا، وتعللت أيضاً: لهوت، والتعليل: سقي بعد سقي، وبنو العلات: بنو الضراير قال الشاعر:

وهـم لمقـل المـال أولاد علـة ... وإن كان محضاً في العشيرة مخولا

قال ابن دريد: ويمكن أن تكون سميت علة لأنه عل بها على التي عنده، وفي الحديث: الأنبياء أولاد علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد. والعلالة: بقية اللبن وغيره. وفي الحديث عن عمرة بنت حزم أنها ذبحت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة، فأكل منها، ثم توضأ للظهر وصلى، ثم انصرف، ثم أتى بعلالة من علالة الشاة فأكل ثم صلى العصر، صلى الله عليه وسلم. والعلعل: الذكر من القنابر، والعلعل: اسم الذكر، والعلعل: رأس الرهابة. والرهابة: عظم مشرف على البطن كطرف لسان الكلب. واليعلول: الغدير، واليعاليل: حبات المطر، واليعاليل أيضاً: من السحاب قطع بيض، والواحد من هذا كله: يعلول. هذا عل.

وأما عل ـ بالضم ـ فمن هذا بنيته لما لم يسم فاعله أو تأمر به. تقول: عل فيهما جميعاً، فإن جعلت الواو من: وعل أصلية جاء من شكله: وعل؛ وهي: الأروى؛ والجمع: وعول والأوعال. وفي الحديث: تظهر التخوت على الوعول، أي: يغلب الضعفاء من الناس أقوياءهم، ويقال: هم علية وعل واحد أي: ضلع واحد. قال الأصمعي: الوعل: المنجي. يقال: ما لي عن ذلك وعل ووعي؛ أي: ما لي منه بد. وقال

الفراء: ما لي عنه وغل؛ بالغين المعجمة، أي: لجاء. وتقول: توعلت الجبل: علوته؛ مثل: وقلته، وسيأتي في باب القاف إن شاء الله تعالى.

ومعكوس عل: لع؛ يقال: امرأة لعة: خفيفة الحركة مليحة عفيفة، ورجل لعاعة: يتكلف الألحان بلا صواب، واللعلع: السراب، واللعاعة: بصيصه. والتلعلع: التكسر، وقد لعلعت عظمه: إذا كسرته، وتلعلع من الجوع أي: تضوّر، والتلعلع: التلألؤ، وتلعلع الكلب: إذا دلع لسانه عطشاً، ولعلع: موضع. ومنه قول مالك بن نمط: (عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع، وما جرى اليعفور بصيلع) فلعلع: اسم بقعة أو جبل كما تقدّم، وصيلع: الأرض الملساء. قال رؤبة:

أقفـــر مـــن أم الـــيمام لعلـــع ... فـــبطن ذي قـــار فقـــار بلقـــع

واللعاعة: بقلة، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للأنصار يوم حنين حين قسم الغنائم ولم يعط الأنصار منها شيئاً؛ فكأنهم وجدوا من ذلك شيئاً في نفوسهم، فقال: أوجدتم يا معشر الأنصار في نفوسكم شيئاً في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم. وفي آخر الحديث: فبكى القوم وقالوا: رضينا بك يا رسول الله حظاً وقسماً.

وأما: غلّ؛ ففعل يقال منه: غلّ الرجل وأغلّ: إذا غدر. ويقال للخائن في الفيء: غلّ يغلّ غلاً؛ فهو: غالّ. والغلول: الشيء المأخوذ من الغنيمة قبل القسمة. يقال من الخيانة: أغلّ يغلّ، ومن الحقد: غلّ يغلّ، ومن الغلول: غلّ يغلّ. وفي الحديث: ثلاث لا يغلّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والطاعة لذوي الأمر، ولزوم الجماعة. قال أبو عبيد: روي: يغلّ؛ بالفتح؛ من الضغن، ويروى: يغلّ؛ بالضم؛ من الإغلال وهي: الخيانة. قال الخطابي: وكان حماد بن سلمة يرويه: يغل؛ بالتخفيف؛ من: وغل، وأصل الغلول من: الغلل؛ وهو: دخول الماء في خلل الشجر.

والخيانة تكون في خفاء من غير وجه لواجب كالغلل. ومن هذا تقول: غلّ الرجل يغلّ. وانغلّ: دخل بين الشجر. ويقال: غلّ البعير يغلّ غلّة: إذا لم يرو، وغلّ فلان إبله: إذا أساء سقيها. والغلّ والغلّة والغليل: حرارة العطش في الجوف، وربما سميت حرارة الحب، أو الحزن غليلاً. تقول من العطش: غلّ الرجل يغلّ؛ على ما لم يسم فاعله؛ فهو مغلول. وقد تقدّم: ما له إلّ ولا غلّ. والغلّة؛ بفتح الغين؛ من: غلّة الدار، وأغلّت الضيعة: أفادت غلّتها، قال الراجز:

أقـــبل ســـيل جـــاء مـــن أمـــر الله ... يحـــرد حـــرد الحـــية المغلّـــه

كذا وقع في النوادر. وقوله: يحرد حرد الحية المغلّة؛ إن صح؛ فله وجه، وتكون المغلّة من الغلّ معناه: ذات غلّ، وينشد في المعنى الأول قول زهير:

فتغلّل لكم ما لم تغلّ لأهلها ... قرى بالعراق من قفيز ودرهم

والغالة: ما ينقطع من ماء البحر فيجتمع في موضع. وأغللت في الإهاب: إذا سلخته وتركت فيه لحماً أو شحمة. والغلّ: جامعة تشد في العنق من قدّ أو حديد. ومنه قولهم: غلّ قمل: للمرأة السيئة، ومعناه أنهم كانوا يغلّون الأسير فيجتمع القمل في غلّه فيشتد أذاه له. وجمع الغلّ: أغلال. قال الله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ ﴾ [غافر: ٧١] ويجمع أيضاً على: غلال، وأنشد للفرزدق:

وقد أطلقت كفاك من قيد يابس ... ومن عقدة ما كان يرجى انحلالها

كثيراً من الأيدي التي قد تكتفت ... فككت وأعناقاً عليها غلالها

وروي أنه لما نزل بعمرو بن العاص رضي الله عنه الموت، وضع يده موضع الغلال من ذقنه ثم قال: اللهم أمرتنا فتركنا، ونهيتنا فركبنا، ولا يسعنا إلا مغفرتك. فكانت تلك هجيراه حتى مات رحمه الله. والغل؛ بالكسر: الحقد، ورجل مغلّ: ذو غلّ. من هذا قول الراجز:

لو قتل الغلّ امرأ لقتله

والغلالة: شعار يلبس تحت الثوب، والغلالة: من الدروع. ويقال: نعم غلول الشيخ هذا أي: الطعام الذي يدخله جوفه، لأنه يقال: غلّ فلان المفاوز: إذا دخلها. والغلغلة: سرعة السير ورسالة مغلغلة: محمولة من بلد إلى بلد. ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

أيا راكباً أما عرضت فبلغن ... مغلغلة مني لؤي بن غالب

وغلغلت: من الغالية، بمعنى غلفت. قال أبو نصر: سألت الأصمعي: هل يجوز تغللت من الغالية؟ فقال: إن أردت أنك أدخلته في لحيته وشاربه فجائز.

وأما: غل؛ بالضم؛ فقد دخل في هذا الباب، وهو الأمر من هذا الفعل، ولا يحل الأمر به ويجوز أن يخبر به على ما لم يسم فاعله، وتريد به من الغل الذي في العنق، تقدّم في البيت: وغل: والواو للعطف، فإن جعلتها أصلية قلت: وغل يغل وغلاً: إذا دخل على القوم في شرابهم فشرب معهم من غير أن يدعى إليه. ووغل يغل وغولاً: إذا دخل في الشجر وتوارى فيه. والواغل في الشراب مثل الوارش في الطعام. قال:

فاليوم أشرب غير مستحقب ... إثماً من الله ولا واغل

والوغل أيضاً: النذل من الرجال، والوغل؛ بكسر الغين؛ السيئ الغذاء، والإيغال:

السير السريع والإمعان فيه، وتوغل في الأرض: إذا سار فيها فأبعد.

ويأتي من معكوسه: لغو؛ وقد تقدّم الكلام فيه. ومن مقلوبه: ولغ؛ بمعنى: شرب. وكذا جاء في الحديث: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم. ورواه مالك: إذا شرب الكلب. ولم يره أحد ذلك غيره. ويأتي منه: غلو، وسيأتي، وغول، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات: ٤٧] جاء في التفسير: لا تغتال عقولهم فتذهب بها. ويأتي منها: غول؛ بالضم؛ وقد تقدّم.

بقي معكوس هذه اللفظة: لغ؛ أمر من: ولغ الكلب يلغ ولوغاً. بقي معكوس أغل: لغا، في الحديث من هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم: إذا تكلمت يوم الجمعة فقد لغيت. ويروى: لغوت. وألغيت. اللغي واللغو: ما لا ينبغي من الكلام، قال الله تعالى: ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴾ [الغاشية: ١١] يقال؛ والله أعلم: كلمة قبيحة فاحشة، وكذلك: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ [الواقعة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص: ٥٥] يقال: لغي يلغي، ولغا يلغو لغواً، قال الشاعر:

يا رب أسراب حجيج كظم ... عن اللغي ورفث التكلم

وقوله في الحديث: ألغيت. فمعناه: أتيت بلغو. كما يقال: أفحش الرجل: إذا أتى فاحشة أو أتى بها، أو تكلم بفحش، وأرفث: إذا أتى بالرفث. يقال: فحش يفحش ويفحش، وفي وزن: رعف يرعف ويرعف، واللغو أيضاً: نباح الكلب، قال الشاعر:

فقلنا للدليل أقم إليهم ... فلا تلغي لغيرهم كلاب

واللغو أيضاً: ما لا يتثبت فيه من الكلام. ومنه: لغو اليمين، ويقال أيضاً: ألغيت هذه الكلمة بمعنى: رأيتها باطلاً، وكذلك ما يلغى من الحساب. قال المازري: قوله عليه الصلاة والسلام: إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب فقد لغوت. إنما ذكر هذه اللفظة وهي لا تعد من الكلام الكثير،

وهي أمر بالمعروف. فإذا لم يبحها فأحرى وأولى أن لا يباح ما سواها مما يكثر وليس بمعروف.

ومقلوب أغل أيضاً: غلا، تقول: غلا النبت يغلو: إذا ارتفع، وقد تقدّم. وغلا الشيء يغلو ضدّ رخص. وأذكر هنا من الأبيات ما أستحفظه لئلا أنساه، قال الشاعر:

وإذا غلا شيء علي تركته ... فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

قال آخر:

يقولون لي لمَ بعت بالرخص منزلي وقد علموا جاراً هناك ينغص
فقلت لهم كفوا الملامة إنما بجيرانها تغلو الديار وترخص

ويقال: إن المعري كتب إلى ابن حزم بهذا البيت:

كف بخمسمئ في الشرع قد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

فقال:

صيانة النفس أغلاها وأرخصها خيانة المال فانظر حكمة الباري

بلغ البيت غيره فقال:

بذاك سنة خير الناس قد وردت فلا سبيل إلى تعليل الآثار

وقد تقدّم: غلا النبت يغلو: إذا ارتفع وتجاوز الحدّ. ومنه الغلو في الدين: قال الله تعالى: ﴿ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ ﴾ [النساء: ١٧١] أي: لا تتعدّوا فيه الحدّ، ولي في المكفرة:

وقد علمت بأن فيها الغالي فيها الرخيص غدا لا الغالي

فرغ هنا، بقي الكلام على العين والغين، قد تقدّم أنهما من حروف الحلق ومن الحروف المجهورة، والعين تتصرف على وجوه منها: العين الباصرة؛ وهي: حاسة، وهي مؤنثة، وتصغيرها: عيينة، ومنه قيل للجاسوس: ذو العينتين، والعين من الماء، والعين من السحاب: ما أقبل من ناحية القبلة، والعين: مطر أيام لا يقلع، وعين الركبة: نقرة في مقدّمها، ولكل ركبة عينان؛ وهما: نقرتان في مقدّمها عند الساق. والعين: المال الناض، والعين: الجاسوس، ولقيته عين عنة: إذا رأيته عياناً ولم يرك، وفعلت ذلك عمد عين: إذا تعمدته بجد ويقين. وعين الشيء: خياره، وعين الشيء: نفسه، يقال: هو هو بعينه، وهو هو عينه، ولا آخذ إلا درهمي بعينه، وفي المثل: عينه فراره، ولا أطلب أثراً بعد عين؛ أي: بعد معاينة، ويقال: ما بها عين تطرف أي: أحد، وفي الميزان عين: إذا لم يكن مستوياً. ويقال: أنت على عيني: في الإكرام والحفظ. قال الله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه: ٣٩]، وتعين الشيء عليه: لزمه، وعين الشمس: معروفة. وعين شمس وعين صيد: بلدان، وعين: موضع في هذيل، قال الشاعر:

فالسدر منخلج فأصبح طائفاً ما بين عين إلى ثنات الأثأب

وعينان: قرية بالبحرين، قال الشاعر:

ونحن منعنا يوم عينين منفرا

وجبل عينين أيضاً بأحد، وعيون؛ بلفظ الجمع؛ أيضاً: جبل. والعين: المعاينة،

والعين: الدينار، والعين: المال العتيد، وعنت الرجل: أصبته بالعين، ورجل معين: على النقص؛ ومعيون: على التمام. قال عباس بن مرداس على التمام:

قد كان قومك يحسبونك سيداً وإخال أنك سيد معيون

وقد تقدّم القول في إخال بالكسر، ولا تقل معان إلا من الإعانة، فإنك تقول: أعانك الله فأنت معان، والله معين. وأما معان: فموضع. ومنه قول المعري: (معان من أحبتنا معان) أي: معمور بالناس، واشتقاقه من المعاينة أي: إن الناس يكثرون فيه فيعاين بعضهم بعضاً، وكذلك قال فيه بعض المفسرين: هو المكان الذي يكثر فيه الحدق، ولعل معاناً هذا هو الموضع الذي بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفراً وأصحابه فأصيبوا به بمؤتة؛ والله أعلم. وقد تقدّم حديثهم في باب الراء.

وابنا عيان: خطان يخطان في الأرض يزجر بهما الطير، وإذا علم أن المقامر يفوز قدحه قيل: جرى ابنا عيان. ويقال: تعين السقاء إذا بلي، والسقاء عين، ويقال: السقاء العيّن [بتشديد الياء كما في القاموس] هو الجديد، وعين قربتك: سرب فيها الماء. ويقال: اذهب واعتن لي منزلاً أي: ارتده، والعينة: السلف، وعينت الرجل وتعينت منه عينة.

والعينة عند الفقهاء خلاف هذا وهو: أن يطلب الرجل من الرجل سلعة ليست عنده فيقوله له: اشترها من مالك بعشرة نقداً وهي لي باثني عشر إلى أجل، فهذا لا يجوز.

ويقال: بقرة عيناء: واسعة العين، وكذلك المرأة. وعين للجميع، وأصله: فعل بضم العين. وفي التنزيل: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ [الواقعة: ٢٢] معناه: بيض عظام العيون، الواحدة: عيناء كما تقدّم. قال قتادة: قرأ عبد الله: (بحور عين) أي: بيض. يقال: بعير أعين: إذا كان أبيض يضرب إلى الشقرة، ورجل أعين. وقد عين عيناً، والعين: عظم سواد العين، وأعيان الناس: أشرافهم والأعيان: إخوة يكونون لأب وأم ولهم إخوة لعلات، وأولاد الرجل من الحرائر: بنو أعيان، وعان الدمع والماء عيناً؛ بالتحريك؛ أي: سال، وشرب من عائن أي: من ماء سائل، والماء المعين الظاهر، وفي القرآن: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠] أي: ظاهر. عن ابن عباس: أي تراه العيون، فهو مفعول، وقيل: هو من: معن الماء: إذا كثر، ويقال: ممعون، ويجمع: معين على معن، مثل: رغيف ورغف. ويقال: معن الماء يمعن معوناً: جرى وسال، وأمعن أيضاً وأمعنته أنا. ومياه معنان، والمعن في غير هذا: اليسير. ومنه قول المعري: (لا يقدرون منه على معن) وفسره ابن السيد فقال: أي على شيء يسير.

ويقال: ما له سعن ولا معن أي: ما له لا قليل ولا كثير، فمعين على هذا فعيل، والميم أصلية. ويقال: معيون ومعين، وعن ابن عباس أيضاً: المعين ﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ عذب. وقال قتادة والضحاك المعين: الماء الجاري. والغور: الذاهب. وقيل إن غوراً بمعنى: غائر وذا غور، وقد تقدّم.

وكان بعض الشاكرين متى استقى ماء من البئر يقول: الحمد لله رب العالمين، فقيل له في ذلك فقال: أذكر قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠] فأشكر الله تعالى إذ لم يصبح ماؤنا غوراً. أو كلاماً هذا معناه. وكان بعضهم شهدته يقول بعد قراءة هذه السورة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إلى آخرها، وقيل في معين من قوله تعالى: ﴿ وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠] مثل ما تقدّم. وقالوا: الربوة دمشق، وقيل: بيت المقدس، وقال كعب الأحبار: بيت المقدس أقرب إلى السماء بثمانية عشر ميلاً. ويقال: ربوة وربوة ورباوة ورِباوة: وهو ما ارتفع من الأرض، من قولهم: ربا إذا ارتفع وزاد. ومنه: الربا في البيع، وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: ٧] إنه الماء، وقيل: الزكاة، وقيل الماعون: المعلوم عندنا من متاع الدار مما يستعان به. والعين: أهل الدار، وجمع العين: أعين وأعيان. قال الشاعر:

ولكنني أغدو عليّ مفاضة دلاص كأعيان الجراد المنظم

ويقال أعين الحافر: إذا بلغ الماء، وكذلك أنهر وأمهى وأنبط. والنبط: الماء الذي يخرج من البئر أوّل ما يحفر، وبه سمي النبط لأنهم أنبطوا المياه أي: استخرجوها. قاله الخطابي. وجمع أعين: أعيان.

ومقلوب عين: نعي؛ مصدر: نعى ينعى نعياً ونعياناً، والنعي: نداء الناعي، ويكون أيضاً: للرجل الميت. قال الهروي: النعي: الفعل، والنعي: الرجل الميت، والجمع: نعايا، مثل: صفي وصفايا، وبري وبرايا، والنعي: إشاعة ذكر الميت. قاله المازري، وقال الأصمعي: كانت العرب إذا مات منهم ميت له قدر؛ ركب راكب فرساً، وجعل يسير في الناس ويقول: نعاء فلاناً؛ أي: أنعه وأظهر خبر موته، وهي مبنية على الكسر مثل: نزال ودراك، والمنعي والمنعاة أيضاً: خبر الموت. يقال: ما كان منعى فلان منعاة واحدة ولكن مناعي. وفي الحديث من هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى النجاشي للناس في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصلى وصف بهم وكبّر أربع تكبيرات. وجاء في الحديث في قتل أبي رافع قال: فما برحت حتى سمعت نعايا أبي رافع. قال

الخطابي رحمه الله: كذا يروى، وإنما هو في حق الكلام أن يقال: نعاء أبي رافع؛ أي: انعوا أبا رافع، كما قال شداد بن أوس: يا نعاء العرب؛ أي: انعوا، كما يقال: دراك؛ أي: أدركوا، كما تقدّم. ويقال استنعت الناقة: إذا نفرت، واستنعى القوم نافرين: تفرّقوا، قال الشاعر في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه:

نعاء لفضل العلم والحلم والندى ... ومأوى اليتامى الغبر أسنوا وأجدبوا
وملجأ مهروثين يلفي به الحيا ... إذا جلفت كحل هو الأم والأب

يقال: هرأه البرد يهرؤه: إذا اشتد عليه حتى كاد يقتله. ويقال: أهرأه؛ لغة، ويقال: هرأ كلامه: إذا أخطأ فيه، والهراء؛ بالضم: المنطق الخطأ. وأنشد:

لهـا بشر مثل الحرير ومنطق ... رخيم الحواشي لا هراء ولا نزر

ومن مقلوبها: ينعت الثمرة وأينعت؛ وهي تينع إيناعاً وينعاً، وفي التنزيل: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ ﴾ [الأنعام: ٩٩] في التحصيل ينعه: نضجه وبلوغه؛ فهو مصدر. وقيل: هو جمع: يانع؛ كتاجر وتجر. وفي الحديث: ينعة. ذكره الخطابي في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعاصم بن عدي في قصة الملاعنة: إن ولدته أحيمر مثل الينعة فهو لأبيه الذي انتفى منه. وفسر الينعة قال: خرزة حمراء. والينع: ضرب من العقيق معروف. قال: وفي رواية: إن جاءت به أحيمر كأنه وحرة. وفسر الوحرة: الوزعة.

فإن حذفت النون من العين فيبقى: عي؛ يقال: رجل عي، وعيي: بيّن العي، وقد عيي عياً وأعياه الأمر: إذا لم يعرف وجهه. وفي مثل: أعيا من باقل. وقال ابن دريد: عيي بالشيء عياً: إذا لم يطقه، والعي ضدّ البلاغة، وقد تقدّم في أوّل الكتاب.

ويقال: عي بالأمر وعيي، وعيوا بأمرهم؛ بالتخفيف؛ مثل: حيوا، من الاستحياء. ويقال أيضاً: عيوا؛ بالتشديد؛ قال الشاعر:

عيوا بأمرهم كما ... عيت ببيضتها الحمامة

ويقال: قوم أعياء وأعيياء، وأعييت: كللت، وأعيا الرجل في المشي فهو: معي، والداء العيا: الذي لا دواء له. والعيايا: الفحل الذي لا يهتدي للضراب، وكذلك الرجل. وفي حديث أم زرع من هذا قول إحدى النسوة تصف زوجها: عياياً طباقاً كل داء له داء. وأعيا: حي من حرم. وفي أسد بن خزيمة أعيا بن طريف، وفي باهلة أعيا بن سعد.

ومقلوب عي: يع، قال صاحب العين: اليعيعة واليعياع: من أفعال الصبيان؛ إذا رمى أحدهم الشيء إلى الآخر قال: يع، ولا يجوز كسر الياء في: اليعياع استثقالاً

للكسرة فيها، فإن حذفت الياء من: عي؛ بقي: ع؛ أمر من: وعا يعي، وقد تقدّم هذا وغيره. والمعاياة: أن تأتي بكلام لا يهتدى له. وتعايا الرجل: إذا تعمد العي، وإن كان بليغاً، وهو محمود في بعض المواضع مثل: تجاهل، وإن كان فطيناً، قال الشاعر:

ليس العي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتعايي

ويروى في هذا: الغبي، والغني. وآخر البيت: المتغابي، والمتغاني، وكذلك المتعامي، والمتصامم. ولي من قطعة في الشيب:

رماك الشيب ويحك من قريب فأثبت في مقاتلك السهاما
وصاح بك الرحيل فلا تصامم وبصرك النذير فلا تعامى

فرغ الكلام في النوعين، من المقلوب والمستقيم في العين.

خرجت من شيء إلى غيره والعلم مهما صرفوه نفع
وها أنا من بعد ذا راجع للغين أبديه فمثلي رجع

وأما الغين: فحرف تهج، كما تقدّم، والغين: العطش، تقول: غنت أغين، وغانت الإبل مثل: غامت، والغين: لغة في الغيم، وغين على قلبه: غطي عليه. وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله كذا وكذا مرة. قد سماه في الحديث كذا. ذكره أبو عبيد في كتابه الغريب، قال: إنه يتغشى القلب ما يلبسه. وقال عن بعض أهل العلم: كأنه يعني من السهو، وكذلك كل شيء يغشاه حتى يلبسه، وقد غين عليه. وقد قال الأصمعي: غينت السماء غيناً؛ ويقال: غامت، وهو: إطباق الغيم السماء، وأنشد:

كأني بين خافقتي عقاب أصاب حمامة في يوم غين

انتهى كلامه. وقال غيره: الغين شجر ملتف؛ واحدها: غناء؛ أي: خضراء كثيرة الورق ملتفة الأغصان، والغينة: الشجراء؛ مثل الغيضة. قال أبو العميثل: الغينة: الأشجار الملتفة بلا ماء، فإذا كان بماء فهي غيضة، والغينة؛ بالكسر: ما سال من الجيفة، وغانت نفسه: غثت.

ومن مقلوبه: نغيت إليه نغية: ألقيت إليه كلمة. والمناغاة: المغازلة، والمرأة تناغي الصبي أي: تكلمه بما يهوى، والموج يناغي السماء: إذا ارتفع، وكذلك الجبل. ويقال: كلمت فلاناً فما نغى بحرف أي: ما نبس، قال الفراء: النغية مثل النغمة، وقال الأصمعي مثله، وسمعت منه: نغية؛ وهو: الكلام الحسن، قال الشاعر:

لما سمعت نغية كالشهد كالعسل الممزوج بعد الرقد

ومن مقلوبه أيضاً: غني الرجل يغنى فهو: غني، وتغنى، والاسم: الغنية، ومن هذا

قوله عليه الصلاة والسلام: ليس منا من لم يتغن بالقرآن. بمعنى: يستغني به، وقد تقدّم. والغانية: الشابة المتزوجة التي غنيت بزوجها، وقد تكون التي غنيت بحسنها وجمالها. قال جميل:

أحب الأيامى إذ بثينة أيم وأحببت لما أن غنيت الغوانيا

والغناء: الكفاية والإجزاء. وغنى الرجل يغني من: الغناء وهي الأغنية: واحدة الأغاني. وقال ثابت في الدلائل: ويقال للغنى: الغنيا. قال أبو زيد: يقال: ما لك عنه غيان ولا غنى ولا مغنى ولا غنية: وأنشد:

أجد بعمرة غنيانها

وعمرة هذه أم النعمان بن بشير. وغنّى رجل بالمدينة في مجلس فيه النعمان:

أجد بعمرة غنيانها

فقيل له: اسكت، فقال: لا بأس به دعوه، فما قال إلا خيراً، قال:

وعمرة من سروات النساء تنفح بالمسك أردانها

وصدر البيت الأول:

أجد بعمرة غنيانها لتصرم أم شانها شانها

يقول: أي هي على ما تحب. والشعر لقيس بن الخطيم.

رجع الكلام ومغني الدار: موضع الحلول، وقد غنى بها: أقام، وفي القرآن: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] أي: كأن لم تكن عامرة بالأمس. والمغاني: المنازل؛ كما قال الحريري فأحسن؛ رحمه الله:

لعمرك ما تغني المغاني ولا الغنا إذا سكن المثرى الثرى وثوى به

ويقال للقوم قد تغانوا: إذا استغنى بعضهم عن بعض. قال المغيرة بن حسان:

كلانا غنيّ عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

فإن حذفت النون من: غين؛ بقي: غي؛ ضد الرشاد؛ وهو: الضلال، وفي القرآن: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] أي: سبيل الكفر، وقال ابن مسعود رضي الله عنه في قول الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] إنه واد في جهنم. والغياية: كل ما أظل الإنسان فوق رأسه مثل: السحابة والغبرة والظلة. وفي الحديث من هذا: تجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما يوم القيامة. وقد تقدّم أن معنى يجيء؛ في هذا وشبهه؛ أي: يجيء ثوابهما، والله أعلم. ويقال: غايى فلان فوق رأس فلان

بالسيف: كأنه أظله به، والغاية: مدى الشيء؛ والجمع: غايا، مثل: ساعة وساع، وآية وآي. والغاية: الراية. يقال: غييت غاية وأغييت: إذا نصبتها، عن أبي عبيد. ويقال: فلان لغيه: ضد لرشده.

فرغ الكلام من المعكوس والمقلوب في الغين في فصلين بالغين غير فارغين.

خرجت من شيء إلى غيره ... وغاية العلم فما تبلغ
يطلب بعض بعضه دائماً ... فيفرغ المرء ولا يفرغ

فصل:

من فوائد هذا الباب تقدّم: غوى، وأذكر لك هنا فائدة في قوله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١] فسره بعضهم قال: غوى: خاف، وقال بعضهم: بشم من أكل الشجرة، وذهبوا إلى أنه من قول العرب: غوى الفصيل يغوي غوى: إذا لم يصب رياً من اللبن، وهذا صحيح على هذا المعنى في هذا المبنى.

وأما في غوى الذي في الآية فليس كما ذكر، وليس منه في ورد ولا صدر. وقد ذكر هذه الآية ابن قتيبة رحمه الله، فشفى منها وأزال اللبس عنها. قال في قصة يونس عليه السلام في حكاية الله تعالى عنه: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ [الأنبياء: ٨٧] الآية: يستوحش كثير من الناس من أن يلحقوا بالأنبياء ذنوباً، ويحملهم التنزيه لهم عليهم الصلاة والسلام على مخالفة كتاب الله، واستكراه التأويل، على أن يلتمسوا لألفاظه المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة، التي لا تحيل عليهم، أو على من علم منهم أنها ليست لتلك الألفاظ بشكل، ولا لتلك المعاني بلفق. كتأويلهم في قول الله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١] أنه بشم من أكل الشجرة وذهبوا إلى قول العرب: غوى الفصيل إذا أكثر من اللبن حتى بشم، وذلك غوي ـ بكسر الواو ـ يغوى غوى، قال الشاعر يذكر قوساً:

معطفة الأوصال ليس فصيلها ... بزائرها دراً ولا ميت غوى

وأراد بالفصيل: السهم، يقول: ليس يرزؤها دراً ولا يموت بشماً، ولو وجد أيضاً مثل هذا السنن في: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١] لركبوه، وليس في غوى شيء إلا ما في: عصى من معنى الذنب، لأن العاصي لله التارك لأمره غاو في حالته تلك، والغاوي: عاص، والغي: ضدّ الرشد، كما أن المعصية ضدّ الطاعة. وقد أكل آدم من الشجرة التي نهي عنها باستزلال إبليس وخديعته إياه والقسم به أنه لمن الناصحين، حتى دلاه بغرور، ولم يكن ذنبه عن إرصاد وعداوة وإرهاص كذنوب أعداء الله. فنحن

نقول: عصى وغوى، كما قال الله تعالى. ولا نقول آدم عاص ولا غاو، لأنه لم يكن عن اعتقاد متقدّم ولا نية صحيحة. كما تقول لرجل قطع ثوباً وخاطه: قد قطعه، ولا تقول قاطع ولا خياط حتى يكون معاوداً لذلك الفعل معروفاً به. اهـ كلامه. وذكر الفصل بكماله، وهذا أمر قد عفا الله عنه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

على أن آدم عليه السلام لم يتعمد المخالفة، وإنما كان متأولاً مع وسوسة الشيطان وقسمه له ولحواء: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. وجاء في البخاري في قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢١] حلف لهما ولم يحلفا له. وجاء في بعض الأخبار قال آدم: يا رب ما ظننت أن أحداً يحلف باسمك حانثاً. وتأوّلا أن النهي وقع على شجرة بعينها لا على جميع الجنس، فأكلا من غير الشجرة التي أمرا بها متأوّلين. وقيل: تأوّلا النهي على الندب وأنكر كثير من المتكلمين بأن يأتي نبي بمعصية وهو يعلم أنها معصية. والشجرة التي أكلا منها شجرة التين. قاله ابن جريج. وبذلك يتأوّل لمن رأى في منامه تيناً أنه يفعل شيئاً يكون فيه ندامة، وقيل: الكرمة، قاله ابن مسعود. وقيل: السنبلة، قاله ابن عباس.

والكلمات التي تلقى آدم من ربه فتاب عليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، قاله مجاهد وغيره، وقال ابن عباس: إن آدم قال: أي رب ألم تخلقني بيدك؟. قال: بلى. قال: يا رب ألم تنفخ فيّ من روحك؟. قال: بلى. قال: أي رب ألم تسكني جنتك؟. قال: بلى. قال: أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟. قال: بلى. وقال وهب بن منبه: إن الكلمات قول قاله آدم وهو: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين، سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، عملت سوءاً وظلمت نفسي، فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم.

قلت: هذا كله بقدر الله وقضائه، وفيه تأنيس وتخويف. أما التخويف: بأن يقول العبد: هذا آدم صفوة الله من خلقه وصفيه ـ كما تقدّم ـ أخرج من الجنة بذنب واحد، وكان فيها، وكان ذنبه ما قد ذكره، وأنا لم أدخلها، ولي ذنوب كثيرة، وأنا أطمع فيها، لولا أن القنوط كبيرة لقلت: لا أدخلها، ولكن أرجوها برحمة مولاي الكريم. هذا وما أشبهه يخوّف العبد به نفسه. وفي مثل هذا المعنى أنشدوا:

يا ناظراً يرنو بعيني راقد ... ومباعد للأمر غير مساعد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي ... دور الجنان بها وفوز العابد

ونسيت أن الله أخرج آدما منها إلى الدنيا بذنب واحد

وأما التأنيس: بأن يقول: هل كانت توبة آدم عليه السلام إلا عطية من ربه، وهو ربي كما هو ربه، وأرجو أن يغفر لي كما غفر له. ويكثر من قول تلك الكلمات المتقدّمة، فما وصلت لنا إلا لنقولها إن شاء الله، ألا وقد أراد أن يرحمنا برحمته، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]. ولله در شيخي أبو محمد عبد الحق إذ يقول:

فلا تيأس له فلعل رحمى ستدركه من الملك الرحيم
فتلحقه كما لحقت أباه وقد قذفت به رجلا سموم

وستأتي القطعة بكمالها في باب الواو إن شاء الله تعالى.

وقد خرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تحاج آدم وموسى، فحج آدم موسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة. فقال آدم: أنت الذي أعطاه الله علم كل شيء، واصطفاه على الناس برسالته. قال: نعم. قال: أفتلومني على أمر قدّر عليّ قبل أن أخلق.

ومع هذا كله فإن آدم عليه السلام لا يزال من ذنبه ذلك مشفقاً، ألا تراه يقول حين يسأل يوم القيامة أن يشفع للخلائق فيذكر خطيئته تلك فيقول: نفسي نفسي. وهو من هو؟. فكيف بأمثالنا؟. تاب الله علينا من الرذائل، ونقلنا منها إلى الفضائل، إنه غفور رحيم.

وتقدّم الغلول وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة. وترك صلى الله عليه وسلم الصلاة على رجل من أجل خرزات ما يساوين درهمين وجدت في رحله، وقال فيه: صلوا على صاحبكم. ومن أشد ما جاء فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا وجدتم الرجل غلّ فاحرقوا متاعه واضربوه. وإن كان الحديث قد ضعف من أجل راويه ففيه تخويف. وقد جاء أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما حرقوا متاع الغال وضربوه.

وفي هذا الحديث أيضاً لين، والسلامة في الترك أكثر منها في الأخذ في أغلب الأمور. ولي من قطعة مطوّلة:

وقد يلام الفتى في الشيء يأخذه وليس يلحقه لوم إذا تركه

وخرج أبو داود في المراسيل: أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بنطع من الغنيمة فقالوا: يا رسول الله هذا لك تستظل به من الشمس. قال: أتحبون أن يستظل نبيكم بظل من نار. وفي القرآن العزيز: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ [آل عمران: ١٦١]

الآية. قال ابن عباس وغيره: كانت في الغنائم قطيفة حمراء ففقدت، قال بعض الناس: لعل النبي أخذها، فنزل: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ ﴾ [آل عمران: ١٦١] الآية. ومن قرأ: (يغل) بضم الياء، فمعناه: يوجد غالاً، أو: ينسب إلى الغلو، ويجوز أن يكون من: أغللته، إذا أخذت شيئاً من المغنم بغير إذنه. وخرج أبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعياً، ثم قال: انطلق أبا مسعود لا ألفينك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد أغللته. قال: إذاً لا أنطلق. قال: إذاً لا أكرهك. وفي الحديث: لا إغلال ولا إسلال. فالإغلال هذا، والإسلال: السرقة الخفية. وقال الحسن معناه: يخان، وفيه التعظيم لخيانته وأن يعامل النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المعاملة. وإن كانت الخيانة لا تجوز، ولا يحل أن يخان نبي ولا غيره، لكنها في حق النبي أعظم لانتهاك حرمة النبوة. ثم قال تعالى: ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٦١] يعني: يأتي به يحمله على رقبته، وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله: لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. وقال مثل ذلك في الفرس والشاة، وفي النفس لها صياح، وفي الرقاع تخفق، وفي الصامت. كل ذلك يقول فيه: على رقبته، ويقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. خرجه مسلم وغيره. وقد فسره قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٢]. قال الحسن والضحاك: أفمن لم يغل كمن غل. وقيل: هو عام في الطاعات والمعاصي. وقيل: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٢] في الجهاد في سبيله، ﴿ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٢] بالفرار منه.

وتقدّم النعي، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى النجاشي للناس في اليوم الذي مات فيه. مات رحمه الله مسلماً، وكان كهفاً للمسلمين في حياته، هاجروا إليه بأرضه فأكرمهم وأحسن جوارهم. وقد تقدّم في باب الصاد كيف أصدق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم حبيبة أربعمائة دينار. ولما قدم أصحاب النجاشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو يخدمهم بنفسه، جزاء لفعل النجاشي بالمسلمين ومكافأة له.

وخرج الترمذي قال: حدثنا محمد بن حميد الرازي، حدثنا حكام بن مسلم وهارون بن المغيرة بن عنبسة، عن أبي حمزة، عن إبراهيم بن علقمة، عن عبد الله، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إياكم والنعي؛ فإن النعي من عمل الجاهلية. قال

عبد الله: والنعي: أذان بالميت، وفي الباب عن حذيفة: حدثنا سعد بن عبد الرحمن المخزومي، حدثنا عبيد الله بن الوليد العوني، عن سفيان الثوري، عن أبي حمزة، عن إبراهيم بن علقمة، عن عبد الله نحوه، ولم يرفعه، ولم يذكر فيه: والنعي أذان بالميت. قال أبو عيسى: وهذا أصح من حديث عنبسة عن أبي حمزة، وأبو حمزة هو: ميمون الأعور، وليس بالقوي عند أهل الحديث. قال أبو عيسى: حديث عبد الله حديث غريب. وقد ذكره بعض أهل العلم النعي. والنعي عندهم: أن ينادى في الناس بأن فلاناً مات ليشهدوا جنازته. وقال بعض أهل العلم لا بأس أن يعلم أهل قرابته وأخواله. وروي عن إبراهيم أنه قال: لا بأس أن يعلم الرجل قرابته.

قال أبو عيسى: حدثنا أحمد بن مسيع، حدثنا عبد القدوس بن بكير بن خنيس، حدثنا حبيب بن سليم العبسي، عن بلال بن يحيى العبسي، عن حذيفة بن اليمان قال: إذا مت فلا تؤذنوا بي أحداً إني أخاف أن يكون نعياً، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن النعي. قال: هذا حديث حسن.

وتقدّم العين، وفي الحديث: العين حق، ولو كان شيء يسابق القدر لسبقته العين. وأمر النبي صلى الله عليه وسلم العائن أن يغتسل لمن عانه، فقال: وإذا استغسلتم فاغسلوا. وذكر مالك في الموطأ حديث عامر بن ربيعة حين نظر إلى سهل بن حنيف يغتسل فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة. فتلبط سهل مكانه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له. وقال في آخره: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عامراً فتغيظ عليه فقال: علام يقتل أحدكم أخاه؟ ألا بركت عليه؛ اغتسل له. فغسل عامر وجهه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح، ثم صب عليه. فراح سهل مع الناس ليس به بأس. وقد وصف أبو عبيد رحمه الله صفة الاغتسال من العين، وكيف العمل به، فانظره في كتابه.

وتقدّم العين الجارحة، وقد أكثر الشعراء في وصفها، فكل وصفها بالفتور والمرض، وقد فهم المقصود والغرض. قال جرير:

إن العيون التي في طرفها مرض ... قتلننا ثم لا يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له ... وهنّ أضعف خلق الله أركانا

ورأيت مكتوباً لشيخنا الفقيه أبي محمد عبد الوهاب رضي الله عنه، يرد في مكتوبه على شاعر قال في محبوبه:

تعلم نجاراً فقلت لعله ... تعلمها من نجر مقلته القلبا

هذا الشاعر أحرى بأن يقال له فجر، وأين رأيت من وصف مقلة بنجر، لقد سلبها

جمال الفتور والملاحة، حتى نسبها إلى أعمال أهل الفلاحة، وإن الذين لهم في التشبب أجزل الحظ لن يصفوا المقل الضعيفات لذي اللحظ، مثل هذا الخشن الجافي من اللفظ، ووصف المقلة بغير النجر أحسن. وأدخل في الكلام المستحسن، ثم ذكر تمام الرسالة، ذات الفصاحة والجزالة. وأنشدني بعض الأصحاب لأبي الفضل جعفر بن شرف رحمه الله قصيدة أوّلها:

قمت تجر فضول العصب والحبر ... ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

وفي هذه القصيدة في وصف السيف:

إن قلت ناراً أتبدو النار ملهبة ... أو قلت ماء أيرمي الماء بالشرر

وإذ وقع ذكر العين وهذا بابها، فاسمع حكاية شريفة تيسرت أسبابها. كان قتادة بن النعمان بن زيد؛ وهو أخو أبي سعيد الخدري لأمه رضي الله عنهما؛ قد قاتل يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصيبت عينه حتى وقعت على وجنته، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن لي امرأة أحبها، وأخشى إن رأتني تقذرني. فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وردها إلى موضعها، وقال: اللهم اكسه جمالاً. فكانت أحسن عينيه وأحدّهما نظراً، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى. وقد روي أن عينيه معاً سقطتا، فردهما النبي صلى الله عليه وسلم، وبصق فيهما فعادتا تبرقان. ووفد رجل من ذريته على عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه فسأله من أنت؟ فقال:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه ... فردت بكف المصطفى أيّما ردّ
فعادت كما كانت لأول أمرها ... فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد

فقال عمر بن عبد العزيز:

تلك المكارم لا قعبان من لبن

البيت. أنشدت هذين البيتين الفقيه أبا محمد عبد الوهاب رضي الله عنه، وكان مولعاً بتبديل القافية، فقال:

فزينت بكف المصطفى أيّما زين

وقال:

فيا حسن ما خد ويا حسن ما عين

وقد تقدّم في باب النون: (عينان عينان لا عينان ناظرة) البيتين. وسمعت لفظة قد أعجبتني عن شاعر وصف الدمع، وأنه إذا نزع من لفظ الدمع (العين) صار دماً، فقلت في ذلك المعنى وهو لزومي:

يــــا رب خـــل بينـــي وبـــــين ذا البـــــين
أجــرى مـــن العـــين دمعـــاً بــــلا عـــين
فاســــمي بــــلا مـــين علــــــي بلامــــين

أراد: عليل. ومعنى بلا مين: بلا شك. وهذا الكلام فيه استحسان. وأستغفر الرحمن من طغيان اللسان، وأكفر هذه الخرافات بذكر ما أودع الله في العين من الآيات.

ذكر بعض العلماء أن الله عز وجل؛ بلطيف صنعه؛ ركب العين على عشر طبقات مختلفة، بعضها رطوبات، وبعضها أغشية كأنها نسج العنكبوت، وبعضها كالمشيمة، وبعض تلك الرطوبات كأنها بياض البيض، وبعضها كأنها الجمر أو الجمد؛ الشك مني. ولكل واحدة من الطباق العشرة صفة وصورة وشكل وهيئة وتدوير وتركيب، لو اختلفت طبقة واحدة أو صفة لاختل البصر، وعجز عنه الأطباء والكحالون، وهكذا سائر الحواس على أشكال وصور. ثم إن الله تعالى خلق تحت كل جفن عضلات، ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ، بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل، وعلى كل جفن شعور سود، ونعمة الله في اسودادها أنه يجمع ضوء العين، إذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه. ثم في كل شعرة منها نعمتان، أن لين أصلها، وطمس رأسها، ثم هذا كله جسد العين، وبقي روحه، الذي هو النور الذي في الحدقة، الذي يبصر به المبصرات. فإذا فتح الرجل العين على محرم فقد كفر بفتح العين، نعمة الله في الأجفان، ولا تقوم الأجفان إلا بعين، ولا العين إلا برأس، ولا الرأس إلا بمجتمع البدن، ولا البدن إلا بالغذاء، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر. ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسماوات والأرض، ولا تقوم السماوات والأرض إلا بالملائكة. فالكل كالشيء الواحد، مرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض. فإذا كفر أحد نعمة الله في الوجود من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى، لم يبق ملك ولا فلك ولا حيوان ولا جماد ولا نبات إلا ويلعنه. كما أن العالم بالله وبنعمه، المطيع لله، العامل بما أمر به، يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء. نعم. ولا يتم نظر العين إلا بالنور، ولا يرى بذلك النور إلا بنور آخر، إما من شمس أو قمر أو نجم أو ضياء سراج أو مصباح.

تقدّم ذكر شعر الجفن، وذكر ابن قتيبة أن شعر العين؛ يعني الهدب؛ هو من الإنسان في الجفنين جميعاً، وليس ذلك لغيره، والبهائم كلها والسباع إنما لها شفر واحد في الجفن الأعلى.

ثم ذكر فروقاً في الحيوانات، فقال: ركب ابن آدم في رجليه، وركب البهائم في أيديها، وكل طائر كفه في رجليه، قال: وكل ذي جلد ينسلخ دون لحمه إلا الإنسان فلا ينسلخ إلا واللحم يتبعه. وقال: إن البهائم كلها تسبح بغير تعلم إلا ابن آدم. قال: ومن قطعت يده لم يجِدْ العَدْو، وكذلك الطائر إذا قطعت رجلاه لم يجدْ الطيران. وكل هارب من حرب أو غيرها فإنما يأخذ على يساره. وقالوا: كل حيوان يحرك فكه الأسفل دون الأعلى إذا أكل، غير التمساح فإنه يحرك فكه الأعلى، ومن غرائبه أنه لا مخرج له؛ فإذا احتاج إلى إلقاء ما في جوفه خرج إلى البر ففتح فاه، وقد سخر له طير تأكل ما في بطنه، لأن فاه في نهاية من الكبر، وقد خلق الله سبحانه وتعالى لتلك الطيور في رؤوسها شبه السفود أو الإبرة قائماً صلباً لئلا يطبق عليها التمساح فاه، فهي تأكل مستأنسة ولا تخاف عدواه. ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وانظر إلى الطيور التي تسبح على الماء كيف خلق الله في أرجلها بين أصابعها جلدة رقيقة تستعين بها على العوم ودفع الماء بأرجلها، وإذا مشت على الأرض لا تضرها، وانظر إلى الطائر المعروف بالبلورج كيف خلق له آلة العيش من دواب الماء طويل المنقار والساقين وليس فيهما جلدة لأنها لا تحتاج إلى السباحة في الماء.

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

وقالوا: ليس شيء من الحيوانات لذكوره ثدي في صدره إلا الإنسان والفيل، وليس فحل لذكره حجم ظاهر إلا الإنسان والكلب.

وقالوا: ليس تجتمع الغيرة والزواج في الحيوان إلا في الإنسان والقرد. وقال عمر بن ميمون: زنت قردة في الجاهلية فرجمتها القرود ورجمتها معهم. وقالوا: ليس شيء تظهر أذناه إلا يلد، ولا تغيب أذناه إلا يبيض، ويروى ذلك عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقالوا: كل حيوان ينكح أنثاه بطناً لظهر إلا ابن آدم فإنه ينكح بطناً لبطن، وكذلك القنفذ. وقال ابن قتيبة عن النبي صلى الله عليه وسلم: الديك الأبيض صديقي، وصديق صديقي، وعدوّ عدوِ الله، يحرس دار صاحبه وسبعة دور. وكان عليه الصلاة والسلام يبيته معه في البيت.

وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التيمي الفارسي: ما زلت بالأشواق إلى حديث حدثنيه الطراز، وقال الطراز: ما زلت بالأشواق إلى حديث حدثنيه العثماني رحمه الله، والعثماني هذا أحد أشياخي، قرأت عليه بالإسكندرية رحمه الله أجزاء كثيرة والحمد لله، وقال العثماني: ما زلت بالأشواق إلى

حديث كتب به إليّ أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز؛ يعرف بكاك الحنفي؛ من مكة حرسها الله، وسمعته من لفظ الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن المنفق بن إبراهيم السبتي، أخبرني به عنه، قال: ما زلت بالأشواق إلى حديث حدثنيه الشيخ الأديب أبو الرضا محمد بن يحيى الشعبي ببغداد رحمه الله، قال: ما زلت بالأشواق إلى حديث حدثني به محمد بن الحسن بن إبراهيم الخفاف، قال: ما زلت بالأشواق إلى حديث حدثنا به عبد الله بن إبراهيم الدقاق: قال: ما زلت بالأشواق إلى حديث حدثنا به أبو عبد الله بن محمد إدريس بن عبد الله بن إسحاق ابن أخي عيسى الدلال المصري بمصر في درب الرقاصي، قال: ما زلت بالأشواق إلى حديث حدثنا به أبو طاهر خير بن عرفة بن عبد الله الأنصاري، قال: ما زلت بالأشواق إلى حديث حدثنا به عبد المنعم بن بشير، قال: ما زلت بالأشواق إلى حديث حدثنا به ابن وهب، قال: ما زلت بالأشواق إلى حديث حدثنا به عبد الله بن سعيد، قال: ما زلت بالأشواق إلى حديث حدثني به أبي، قال: ما زلت بالأشواق إلى حديث حدثني به أبو الدرداء رضي الله عنه، قال: ما زلت بالأشواق إلى حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: ما زلت بالأشواق إلى الديك الأبيض منذ رأيت ديكاً لله تحت العرش ليلة أسري بي، ديكاً أبيض زغبه أخضر كالزبرجد، وعرفه ياقوتة حمراء شرفها من جواهر، وعينيه من ياقوتتين حمراوتين، ورجليه من ذهب أحمر، في تخوم الأرض السفلى، مطوياً من تحت الأرض وتحت السماوات وتحت العرش، وعنقه مثني كالإبريق الناشر أحسن شيء رأيته، ومنقاره من ذهب يتلألأ نوراً، فإذا كان في ثلث الليل الأول نشر جناحيه وخفق بهما، وقال: سبحان ذي الملك والملكوت، ويقول ذلك ثلاث مرات من أول الليل. فإذا خفق خفقت الديوك في الأرض وصرخت لصراخه. فإذا كان في ثلث الليل الأوسط فعل مثل ذلك، وقال: سبحان من لا يسأم ولا ينام. يقول ذلك ثلاثاً فتجيبه الديوك في الأرض. فإذا كان في الثلث الأخير فعل ذلك وقال: سبحان من هو دائم قيوم، سبحان من نامت العيون وعين سيدي لا تنام، سبحان الدائم القيوم، سبحان من فلق الإصباح بإذنه، وسرى الليل إلى خزائنه، لا إله إلا هو سبحانه. قال: فاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ديكاً أبيضاً وقال: الديك الأبيض صديقي وصديق صديقي، وعدوّ عدوِّ الله، يحرس دار صاحبه وعشراً عن يمينها وعشراً عن يسارها وعشراً من بين يديها وعشراً من خلفها. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيته معه في البيت.

وروي عن يوسف بن مهران قال: بلغني أن تحت العرش ملكاً في صورة ديك، براثنه من لؤلؤ، وصيصته من زبرجد أخضر، فإذا مضى ثلث الليل الأوّل ضرب بجناحيه

وقال: ألا ليقم القائمون، فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال: ألا ليقم المتهجدون، فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال: ألا ليقم المصلون، فإذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وزقا وقال: ألا ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم.

وتقدّم التصامم، ومثله ما يحكى عن حاتم الأصم رضي الله عنه أنه لم يكن أصم، ولكن جاءته يوماً امرأة تسأله في مسألة، فخرج منها صوت فاستحيت وانقبضت. فقال: ارفعي صوتك، وجعل يستعيدها المسألة ويقول: ارفعي صوتك. ففرج عن المرأة وزال روعها وقالت: هو أصم. فلقب بالأصم.

وإذ وقع ذكر حاتم فأزيدك من فضائله، ذكر أبو حامد رحمه الله: أنه كان أعجمياً ألكن يكنى أبا عبد الرحمن، ولكنه كان مهيباً، وذكر عن أبي عبد الله الخواص؛ وكان من أصحاب حاتم؛ قال: دخلت الري ومعنا ثلاثمائة رجل وعشرون رجلاً نريد الحج، وليس مع أحد منهم جراب ولا طعام. قال: فأضافنا رجل من التجار ليلة، فلما أصبح قال لحاتم: أريد أن أعود فقيهاً لنا مريضاً، فقال حاتم: عيادة مريض فيها فضل، والنظر إلى الفقيه عبادة، فدخل معه عليه، وكان المريض محمد بن مقاتل قاضي الري، فلما انتهى إلى الباب فإذا هو بشرف حسناء. فبقي حاتم متفكراً يقول: يا رب دار عالم على هذه الحالة. ثم أذن لهم فدخلوا فإذا بدار عالية واسعة، وبزة ومنعة وستور، ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه، فإذا هو بفرش وطيئة هو راقد عليها، وعند رأسه غلام وبيده مذبة، فقعد الرازي وبقي حاتم قائماً. فقال له ابن مقاتل: اجلس. فقال: لا أجلس. قال: لعل لك حاجة. قال: نعم. قال: فما هي؟. قال: هي مسألة أسألك عنها. قال: سلني. قال: قم فاستو جالساً حتى أسألك فاستوى. قال حاتم: علمك هذا من أين أخذته؟. قال: من الثقات حدثوني به. قال: عمن؟. قال: عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: عمن؟. قال: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم عمن؟. قال: عن جبريل عليه السلام، عن الله سبحانه. قال: ففيم أداه جبريل عن الله سبحانه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأداه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأداه أصحابه إلى الثقات، وأداه الثقات إليك. هل سمعت في هذا العلم الذي ذكرت أن من كان في داره أثاثاً وأمتعة أكثر كان له عند الله عز وجل المنزلة أكثر؟. قال: لا. قال: فكيف سمعت؟. قال: سمعت من زهد الدنيا ورغب في الآخرة وأحب المساكين وقدّم لآخرته كان له عند الله عز وجل المنزلة. قال له حاتم: فأنت بمن اقتديت؟ أبالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الصالحين رضي الله عنهم؟ أم بفرعون ونمرود؟؛ والنمرود أوّل من بنى بالجص والآجر؛ يا علماء السوء مثلكم يراه

الجاهل المكب على الدنيا الراغب فيها فيقول العالم على هذه الحالة لا أكون أنا شراً منه، وخرج من عنده. فازداد ابن مقاتل مرضاً، وبلغ أهل الري ما جرى بينه وبين ابن مقاتل. فقالوا له: إن الطنافس بقزوين أكثر بناء منه. فسار إليه متعمداً، فدخل عليه فقال: رحمك الله أنا رجل أعجمي أحب أن تعلمني مبدأ ديني ومفتاح صلاتي، كيف أتوضأ للصلاة. قال: نعم حباً وكرامة. يا غلام هات إناء، فأتى به، فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال: هكذا فتوضأ، فقال حاتم: مكانك حتى أتوضأ بين يديك. فتوضأ حاتم وغسل الذراعين أربعاً، فقال له الطنافسي: يا هذا أسرفت. فقال له حاتم: فيماذا؟ قال: غسلت ذراعيك أربعاً. قال: سبحان الله أنا في كف من ماء أسرفت، وأنت في هذا الجمع كله لم تسرف؟. فعلم الطنافسي أنه قصد ذلك دون التعلم. ودخل البيت فلم يخرج إلى الناس أربعين يوماً. فلما انتهى حاتم إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، سأل عنها أهل البلدة، فقالوا: مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: فأين قصور رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصور أصحابه رضي الله عنهم؟. قالوا: ما كانت لهم قصور، إنما كانت لهم بيوت لاطئة بالأرض. قال حاتم: فهذه مدينة فرعون. فحمل إلى السلطان، وذكروا له قوله. فقال الوالي: ولمَ ذلك؟. فقال: لا تعجل عليّ أنا رجل أعجمي غريب قلت: أين قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، وقص القصة. وأنتم بمن تأسيتم أبرسول الله صلى الله عليه وسلم أم بفرعون؟. فعرفوا بعينهم وتركوه رضي الله تعالى عنه.

ومثل التعامي المحمود ما يروى أن الربيع بن خيثم كان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة، لا تحسب جارية لابن مسعود إلا أنه أعمى، لشدّة غض بصره، وطول إطراقه إلى الأرض بنظره. وكان إذا دق عليه الباب تخرج إليه الجارية، فإذا رأته قالت لعبد الله: صديقك ذلك الأعمى قد جاء. فكان ابن مسعود يضحك ويقول: ويحك ذلك الربيع. وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا نظر إليه يقول: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥] أما والله لو رآك محمد صلى الله عليه وسلم لفرح بك. ومشى معه ذات يوم في الحدّادين، فلما نظر إلى الأكوار تنفخ، وإلى النيران تلتهب، صعق وخرّ مغشياً عليه، فقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة، فلم يفق فحمله على ظهره إلى منزله، فلم يزل مغشياً عليه إلى الساعة التي صعق فيها حتى فاتته خمس صلوات. وابن مسعود عند رأسه يقول: هذا والله هو الخوف. وكان الربيع يقول: ما دخلت في صلاة قط فأهمني إلا ما أقول وما يقال لي.

وقد جاء عن ابن عوف قال: رأيت مسلم بن يسار يصلي كأنه ودّ؛ أي: وتد؛ وقد

تقدّم. وكان القيسي إذا قام إلى الصلاة كأنه جذم حائط، وإذا سجد وقعت العصافير على ظهره لطول سجوده لله تعالى. وكان عبد الله بن الحارث إذا سجد تواجب الفتيان فيضعون الشيء على ظهره فيذهب الرجل منهم إلى الكلأ ويجيء وهو ساجد. خرج هذا الحديث ثابت رحمه الله تعالى. وقال: معنى تواجب: أوجب بعضهم على بعض كهيئة السباق. وروى مسلم بن يسار عن زاذان أنه كان إذا صلى كأنه جذع قد حفر له.

مثل هذا الحديث يصلح يروى ... وبه ينبغي لك ابني تعنى
أين هذا من الذي قبل لكن ... ذاك أيضاً له هنالك معنى
خرجت من شيء إلى غيره ... والعلم من ذا كله أوسع
يطلب بعض بعضه وهو مع ... ذا كله قارئه ينفع

باب الألف مع الفاء والقاف

واف واف واف وآفا ... وقاء وقاء وفل وقل

هذا بيت لم يقم على أسه إلا بعكسه، فله حف، وبه خف، ولا تقل له أف، فإن له علماً يرف، وعلى النفوس يخف.

تقول: أف يئف أفاً، وقالوا: يؤف إذا تأفف من كرب أو ضجر، ورجل أفاف: كثير التأفف. وتقول: أففت الرجل؛ قلت له: أف، يقال: أف له، وأفاً، وأف، وأفه، وأف؛ بتسكين الفاء؛ وأفي؛ بياء ساكنة؛ قال ابن السيد رحمه الله: فيها ثمان لغات: أف بضم الفاء، وأف بفتحها، وأف بكسرها، ثم تدخل التنوين فتصير ستاً، والسابعة أفي، مثل: حبلى، والثامنة أف ساكنة الفاء. ويقال: أف وتف، فالأف: وسخ الأذن، والتف: وسخ الأظفار، قال الشاعر:

أفاً وتفاً لمن مودّته ... إن زلت عنه سويعة زالت
إن مالت الريح هكذا وكذا ... مال مع الريح حيث مالت

ويقال: أتانا على أف ذلك وأففه وأفانه؛ أي: إبانه وحينه وأوانه، وجاء على تئفة ذلك، مثل تعفة، وهو تفعلة. وفي القرآن العزيز: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ [الإسراء: ٢٣] قرئ في السبع: (أف) بكسر الفاء والتنوين، و(أف) بالكسر من غير تنوين، و(أف) بالفتح غير منوّن أيضاً. وقرأ أبو السماك: (أف) بالضم من غير تنوين. وقد جاء في الكلام: أف؛ كما تقدّم وهي كلمة تستعمل في الضجر. خرجت مخرج الكلمة المحكية.

قال الأستاذ رحمه الله: في أف وجهان: أن تكون من باب الأصوات مبنية كأنها

تحكى صوت النفخ. والثاني: أن تكون معربة مثل: تف؛ يراد بها الوسخ.

ومعكوس أف: فاء، الفاء من حروف التهجي، ومخرجها من باطن الشفة وأطراف الثنايا العليا، وهي من الحروف المهموسة، ومن المزلقة، ولا عمل للسان فيها، وإنما عملها في التقاء الشفتين، وكذلك الثاء والميم، وتبدل بالثاء في مثل فوم، وغير ذلك مما تقدّم ذكره في باب الثاء، والحمد لله.

ولها مواضع في النحو، تكون زائدة في مثل قولك: أخوك فرجل صالح، وزيداً فاضرب، وبجمل فامرر، وقال الله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر: ٤-٥] حكى هذا ابن جنى رحمه الله. وللفاء عمل في العطف، وتنصب في الأجوبة التي اختصت بها على ما ذكره النحويون مما يطول عليّ ذكره، وقد أحلت على الجمل، وأرحت الجمل، لكن أزيدك فأفيدك. يأتي من شكلها: فاء؛ فعل ماض من قوله تعالى: ﴿ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٦] و: ﴿ حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٩]، و: ﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ ﴾ [النحل: ٤٨]، ومنه قول عمر رضي الله عنه: إذا كان الفيء ذراعاً، ولا يكون إلا بعد الزوال، بخلاف الظل الذي يكون غدوة وعشية من أول النهار إلى آخره، وقد تقدّم.

ومن مضاعفه: فأفأ الرجل فهو فأفاء، إذا كانت الفاء تغلب على لسانه. وفي المحدثين بشر ابن فأفاء، خرج حديثه الدارقطني. ويقال: امرأة فأفاءة. وتقول: فيأت فاء: إذا كتبتها، والفيف: المفازة لا ماء فيها، والجمع: أفياف، والفيفاء: فعلاء منه. وفلان سريع الفيئة، مثل الفيعة، والهاء في فيئة عوض من اللام التي نقصت من وسطه.

مقلوب هذا الحرف حرف بين ألفين: أفا، هو الذي كان مرفوعاً على اختلاف أنواعه، نصبته إن دخلت ألف الاستفهام على فاء قلت: أفاء فلان. وكذلك أفاء هذه أم قاف. ومقلوبه أيضاً: ألف بين حرفين: فاف، يقال: ما فاف بخير، وهو أن يقول بظهر إبهامه على ظفر سبابته، والفوف: البياض في أظفار الصبيان. ويرد أفوف ومفوف وهو: ضرب من عصب اليمن، كذا ذكر صاحب العين.

فرغنا من الفا، والحمد لله ألفاً. وقد أتينا بشرطنا مستوفي، وقد بقي من شكل البيت: وفا تقول: وفا فلان بشرطه؛ وأوفى مثله. وفي الشيء تم وكثر. والوفي: الوافي، وأوفى على الشيء، أشرف عليه. وأوفاه حقه ووفاه: أعطاه وافياً، واستوفى نصيبه، وتوفاه الله: أي قبض روحه. والوفاة: الموت. ووافى فلان: أتى، وتوافى القوم: تتاموا، وأوفى: اسم رجل. فرغ ذكر الفاء، لكن دون استيفاء.

خرجت من حرف إلى حرف ... من أف حتى صرت للألف

وهــا أنــا أمــشي كــذا دائــبا حتــى لآتــي آخــر الــصحف
والكــل محــتاج لــشرح وقــد جــئت بــه طــوعاً بــلا عــنف
والحمـــد لله علـــى ذلكـــم أهــل الثــنا واللطــف والعطــف

وأما: وقى، المذكور في البيت، فإن جعلت الواو أصلية فهو فعل معتل الأوّل والآخر، مثل: وعى ووشى، وقد تقدّم القول فيه. تقول من هذا: وقاك الله كذا، بمعنى: حفظك ودفع عنك وصرف. قال الله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ [غافر: ٤٥]، و: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ [الإنسان: ١١]، قال الشاعر: (وقاهم جدهم ببني أبيهم) وهذا كثير.

وتقول: توق كذا، بمعنى: اتق، وجاء منه في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: توقه وتيقه. وفي رواية قال لأبي بكر رضي الله عنه: توق وتيق. قال: وهذا على وجه الدعاء، وتقديره: وقاك الله وأبقاك. وأخرجه مخرج الأمر. كما قال الآخر: (عش حميداً والبس جديداً ومت شهيداً)، وكما قال بعض الشعراء:

يــــا أمـــين الله عـــش أبـــدا

ويحتمل أن يكون: توق المحارم لتصل إلى بقاء الأبد، والهاء عماد، كقوله تعالى: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وأشباهه: والوِقاية والوَقاية، والوقاء: ما وقيت به شيئاً، والتقاة والتقية: الخوف. قال الله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران: ٢٨] وكذلك التقوى والتقي بمعنى وأصل التقوى: الوقوى، أبدلت التاء من الواو، وكما قالوا في الوكلان: التكلان، وقول الرجل: اتق الله، معناه خف الله تعالى. يقال: اتقى يتقي، فأصله: أوتقى، على افتعل، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها وأبدلت منها التاء وأدغمت، فلما كثر استعماله على لفظ الافتعال توهموا أن التاء من نفس الحرف، فجعلوه: تقى يتقي، بفتح التاء مخففة، ثم لم يجدوا لهم مثالاً في كلامهم يلحقونه به، فقالوا: اتقى يتقي، مثل: قضى يقضي، قال الشاعر:

ولا أتقـــي الغـــيور إذا رآنـــي

ومن رواه: اتقي، بتحريك التاء، فعلى الأصل الأوّل. فتقول على هذا: تق الله يا رجل، وللمرأة تقي. قال خراش بن زهير:

تقـــوه أيهـــا الفتـــيان إنـــي رأيــت الله قــد غلــب الجــدودا

ذكر هذا الجوهري في الصحاح.

ومن مقلوب وقى: واق، اسم فاعل منه. وفي القرآن العزيز: ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن

وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٧]، وفي الحديث: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله مما أصرف يتيمتي؟. قال: مما كنت صارفاً ولدك، غير واق ماله من مالك، ولا متأثل من ماله مالاً.

وإن جعلت الواو زائدة للعطف بقي: قاء؛ فعل من القيء، تقول: قاء يقيء قيئاً، وتقيأ واستقاء. وقد جاء منه في الحديث كثير، قال عليه الصلاة والسلام: إن مثل العائد في صدقته كمثل الكلب يعود في قيئه. وقد يقال: تقيأت المرأة لزوجها: تعرضت له، وألقت نفسها عليه.

معكوس قاء: آق؛ يقال: آق علينا فلان: إذا أشرف، والأيق: الوظيف، والأوق: الثقل، تقول: ألقى علينا أوقه، وفي الكلام: الجمل بأوقه؛ أي: بثقله، والأوقة: هبطة يجتمع الماء فيها، والجمع: الأوق. وقال الخطابي: الآواق؛ بالمد؛ جمع: أوق، وسيأتي. والأوقية: معلومة.

مقلوب الكلمة حرف بين ألفين: أقا، لا أعلم فيه إلا: قاء إذا دخلت عليه ألف الاستفهام. وقالوا: الاقاة: شجرة. مقلوبها أيضاً ألف بين حرفين: قاق، لا أعلم فيه شيئاً، إلا حكاية صوت الدجاج إذا كرر، إلا أن أبا منصور الثعالبي قال: العشنق والعشنط: المذموم الطول. قال غيره: ومثله القاق والقوق، وقال صاحب العين العشنق: الطويل العنق. وفي حديث أم زرع: زوجي العشنق إن أنطق أطلق، وإن سكت أعلق.

بقي الكلام على القاف، وهو من الحروف المجهورة، ومخرجها من مخرج الكاف والجيم والشين، وقد تقدّم اشتراكهما في البدل في قول الشاعر:

ولا أكول لكدر الكوم كد غلبت

البيت. وقد تقدّم: أنه لا يجتمع القاف والكاف في كلمة واحدة إلا بحواجز، وكذلك مع الجيم فلا يقال: جق، ولا قك، إلا أنها قد دخلت على الشين لتفشى الشين فقالوا: قش، والقش: مصدر قششت الشيء أقشه قشاً واقتشاشاً: إذا استوعبته، والاسم: القشش والقشاش. ويقال: قششت الشيء بيدي قشاً: إذا حككته حتى يتحات، وألحقوا هذه الكلمة ببناء جعفر فقالوا: قشقش وقالوا: تقشقشت القرحة: إذا جفت وبرأت. وكانت: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١]، و: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] يسميان في صدر الإسلام: المقشقشتين، لأنهما أبرأتا من النفاق، قال الشاعر:

أعيذك بالمقشقشتين مما ... تحاذره ومن شر العيون

والقشة: الصبية الصغيرة، والقشة أيضاً: القردة، ويقال: دويبة مثل الجعل. وقال

ابن دريد القشة: ولد القردة الأنثى؛ لغة يمانية، والذكر: رباح، والقش: رديء النخل، نحو الدقل وشبهه، والقشدة؛ بالدال؛ الزبدة. وجاء من لفظ قاف في القرآن العظيم: ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ [ق: ١] جاء على هذا الشكل حرفاً واحداً، ولفظه يبنى على ثلاثة أحرف، يستدل على ذلك باختلاف القراء فيه، قراءة عيسى الثقفي: (قافَ والقرآن المجيد) بفتح الفاء، وقراءة الحسن وأبي إسحاق: (قافِ) بكسرها، وذلك لالتقاء الساكنين حرّك أحدهما بالفتح والآخر بالكسر، كما تقدّم في: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ [ص: ١] فيحتمل أن يكون الفتح في: (قاف) نصباً بإضمار فعل الكسر قسماً، والله أعلم. ومعنى قاف معنى سائر الحروف المقطعة في أوائل السور. وقيل: إن جواب القسم هو: ﴿ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ في معنى الكلمة التي منها القاف، تقديره: قضي الأمر والقرآن المجيد؛ على مذهب العرب في نطقهم بالحرف من الكلمة فيفهم منها معناها كما قال: (قلت لها قفي فقالت قاف)، وقد تقدم.

وقيل إن: ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ [ق: ١] قسم بقوّة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث حمل الخطاب والمشاهدة ولم يؤثر ذلك فيه لعلوّ حاله. وقيل: اسم للقرآن، وقيل: إن (ق) جبل محيط بالأرض - ويروى: بالدنيا - من زبرجد أخضر. ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هو جبل أخضر من زمردة، خضرة السماء منه. يقال: الزمرذ؛ بالذال المنقوطة وضم حروفه. والزبرجد؛ بالدال غير المنقوطة وفتح الزاي والباء والجيم. ويكون: قاف اسم فاعل، من: قفا يقفو: إذا اتبع كما يقال: غزا يغزو. وفي القرآن العظيم: ﴿ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم ﴾ [المائدة: ٤٦]، قال ابن عزيز: معناه: اتبعنا، وأصله من: القفا، تقول: قفوت الرجل: إذا صرت متبعاً له في أثره. ويكون أيضاً: قفا يقفو قفواً بمعنى: قذف. ومنه حديث القاسم بن محمد بن أبي بكر: لا حدّ إلا في القفو البين. فسره أبو عبيد قال: القفو القذف. يقال منه: قفوت الرجل أقفوه. ومنه حديث حسان بن عطية: حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن حسان قال: من قفا مؤمناً بما ليس فيه وقفه الله عز وجل في ردعة الخبال حتى يجيء بالمخرج منه. ومنه الحديث المرفوع: نحن بنو النضر لا نتنفي من أبينا ولا نقفو أمنا. ويروى عن امرأة من العرب أنه قيل لها: إن فلاناً هجاك. فقالت: ما قفا ولا لصا. تقول: لم يقذفني. ولصا: مثل قفا. يقال منه: رجل لاص، قال العجاج:

إنـي امـرؤ عـن جارتـي عيـيّ ... عـف فـلا لاص ولا ملـصيّ

يقول: لا قاذف ولا مقذوف. قال البكري: قال أبو زيد مثل لهم: رب سامع

عذري لم يسمع قفوي. يقال: قفوته أقفوه قفوة وقفواً: إذا قذفته بشر. يضرب مثلاً لمن يعتذر من شيء لم يعلم منه، فيكون اعتذاراً من ذلك الشيء تسميعاً بنفيه. وتقول: قاف أثره، مثل: اقتاف واقتفى فهو: مقتفٍ، وقفيت أثره مثل: قفوت، وأخذت بقوف رقبته وبقاف رقبته أي: رقبته، قال الشاعر:

نجسوت بقفسو نفسسك غيسر أنسي أخسال بسأن سستيتم أو تئسيم

والقائف: أحد القافة؛ وهم الذين يميزون الآثار. وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل قائف ورسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد... الحديث.

وإذ قد اجتمعت الفاء مع القاف في هجاء فلنجعلها معاً في ثقاف، فأقول لك: أيها الثقف اللقف، تلقف وقف، نفسر لك: **قف، وقف، وقفاقف، وقفقف، وقلفة، وقلفة، وقفان، وقفة**. الثقف اللقف: الخفيف الحاذق. ويقال منه أيضاً: لقف ثقف، فمعنى لقف: حسن التلقف لما يسمعه، وثقف: إذا كان ذا فطنة وفهم. وفي حديث الغار: يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما وهو غلام شاب لقف ثقف. قاله الخطابي. قال ويقال: رجل ثقف، وامرأة ثقاف. كما قالت أم حكيم بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاورت أم جميل بنت حرب: إني لحصان فما أكلم، وثقاف فما أعلم، وكلتانا من بني العم، ثم قريش بعد ذلك أعلم.

وأما القف؛ بالضم؛ فموضع معروف، جاء مفسراً في الحديث في الأنصاري الذي كان يصلي في حائطه بالقف؛ واد من أودية المدينة. وقف: البئر، وفي الحديث: توسط قفها؛ يعني النبي صلى الله عليه وسلم. قال الخليل القف: ما ارتفع من الأرض وصلبت حجارته. والجمع: القفاف، وفي الحديث أيضاً: أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القف في بيت المدراس. خرجه أبو داود.

وأما القف؛ بالفتح؛ فهو: ما يبس من أحرار البقول وذكورها. قال الأصمعي: قف العشب: إذا اشتد يبسه، وكذلك الشجر. يقال: رعت الإبل فيما شاءت من جفيف وقفيف. وقف أيضاً: فعل، قالت عائشة رضي الله عنها حين سألها بعض الصحابة: هل رأى محمد ربه، قالت: لقد قف شعري مما قلت. تعني: قام. ويقال: قفقف الرجل يقفقف من البرد: إذا ارتعد واقشعر. يقال: سمعت للرجل قفاقف من البرد: إذا اغتسل فقفقف، وكذلك زفازف وزفزف، وقد تقدّم: ما لك تزفزفين؟ في أوّل الكتاب. ويقال: أقفت الدجاجة، إذا كفت عن البيض. وفي كتاب العين: قفقف الظليم جناحاه، وفي الكتاب: القفان الجماعة. وقفان كل شيء: جماعه واستقصاؤه. وقال القاضي أبو الفضل عياض: ومن هذا سميت القفة؛ لجمعها ما جعل فيها وضمه. وقال صاحب

الجمهرة: القفة: وعاء تجعل فيه المرأة غزلها وشبهه منه، والله أعلم. سمي القفاف: الذي يسرق بكفه لأنه يجمع ويضم، قال الشاعر:

فقـــف بكفـــه ســبعين مـــنها

انتهى كلامه. والقفاف في غير هذا: الذي يعمل القفف؛ جمع: قفة. والقفة: الشجرة البالية. ومنه يقال: كبر فلان حتى صار كأنه قفة. ورأيت في بعض النسخ: القف؛ بفتح القاف: الشجر اليابس، واحدته: قفة؛ بالفتح أيضاً. هذا كله بتقديم القاف.

فإن قدمت الفاء قلت: قد جاء رجل من فقفاقة أحمق. ورجل فقفاق: مخلط. قال: والانفقاق: انفراج دبر الكلب. والفقفقة: حكاية تحرّك ذلك.

وأما القافة: بالضم: فهي: الغرلة، قال الشاعر:

قلفـــة طفـــل تحـــت موســـى خـــاتن

وقلفها الخاتن قلفاً: قطعها. وتزعم العرب أن الغلام إذا ولد في القمر انفسخت قلفته فصار كالمختون، قال الشاعر:

إنـــي حلفـــت يميـــناً غيـــر كاذبـــة لأنـــت أقلـــف إلا مـــا جنـــى القمـــر

وفي الحديث من الغرلة: يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً. يعني: غير مختونين. قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، والقلفة؛ بالفتح والتحريك؛ من: الأقلف كالقطعة من المقطوع.

معكوس قاف: فاق، تقول: فاق فلان قومه يفوقهم: إذا علاهم شرفاً وعلماً أو غير ذلك وهو مشتق من فوق. كما يقال: سما يسمو: إذا ارتفع، مشتق من السماء. والفوق: فوق القوس. والفواق: داء يأخذ في الفائق، وهو عظم في العنق. وقد فئق الرجل، وإكاف مفأق: مفرج. والفُواق والفَواق؛ بضم الفاء وفتحها؛ ما بين الحلبتين، وهو أن تحلب الناقة وتترك ساعة حتى ينزل شيء من اللبن، ثم تُحلب ثانية. وفي القرآن العزيز: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥] وقرئ باللغتين معاً، ومعناه: ما لها من تأخير. وقال الكلبي: ما لها من نظرة؛ مأخوذ من: فواق الناقة مستعار. والفيقة مثله. وفي حديث أم زرع: وتشبعه ذراع الجفرة. وفي بعض الروايات: وترويه فيقة البقرة. وهي العناق، وقيل: الجدي. قال: والفيقة: الدرّة التي تجتمع بين الحلبتين، قال امرؤ القيس:

وأضـــحى يســـيح المـــاء مـــن كـــل فـــيقة

البيت.

بقية القافية: الفل: القوم المنهزمون، الواحد: فل، والجمع: فلال وفلول. والفليل: ناب البعير المنكسر، والفليلة: الشعر المجموع، والفيلل: الليف أيضاً. ومن

شكله: فل، فعل؛ تقول منه: فللت السيف فلاً: إذا ثلمت حدّه، وكل شيء ثلمته فهو مفلول. وكذلك إذا رددته، وقد يستعار في غير السيف، وبالسيف فلول: جمع فلة، قال الشاعر:

بهـــنّ فلـــول مـــن قـــراع الكـــتائب

والفِل، بالكسر: القفر، وجمعه: أفلال، قال الراجز:

قطعـــت بالعـــيس علـــيّ كلالهـــا مجهـــولها والقفـــر مـــن أفلالهـــا

والفل أيضاً: الأرض التي لم تمطر. يقال: أفللنا: إذا وطأنا أرضاً فلا، قال الراجز:

حـــرقها حمـــض بـــلاد فـــل

ومن شكله: فل، مخففاً، من: فلان، وليس بترخيم، إذ لو كان مرخماً لقالوا: يا فلا، وربّما قيل: فل، في غير النداء. قال أبو النجم:

فـــي لجـــة أمـــسك فلانـــاً عـــن فـــل

وفلان: كناية عن أسماء الآدميين، والفلانة: كناية عن غير الآدميين، وتصغير فل: فلي وفلان وفليان. وقد جاء منه في الحديث: يقول الله تعالى لعبده: أي فل ألم أكرمك؟. ومن مضاعفه: فلفل، لهذا الحب المعلوم.

ومعكوس فل: لف. تقول: لف الشيء يلفه لفاً: إذا خلطه وأوطأه، ومنه قولهم: لففت الكتيبة بالأخرى: إذا خلطت بينهما في الحرب، قال الشاعر:

ولكـــم لففـــت كتيـــبة بكتيـــبة ولكـــم كمـــيّ قـــد تـــركت معفـــرا

ومنه اللفيف من الناس: وهم المختلطون لتداخل بعضهم في بعض. وفي التنزيل: ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء: ١٠٤]، واللفيف أيضاً: الصاحب. يقال: فلان لفيف فلان، أي: صديقه. وجاء في الحديث من هذا عن إحدى النسوة المذكورات في حديث أم زرع: إن أكل لف. معنى اللف في الأكل: الإكثار منه والتخليط من صنوفه. ويروى: رف، وهو كالأوّل. قاله الهروي. ويروى: اقتف، وهو قريب من هذا، كأنه كله يتبعه ويستقصيه.

ويقال: لفأت الريح السحاب عن السماء: كشفته، ولفأت اللحم عن العظم والتفأته، والقطعة منه: لفئة، بتخفيف الفاء، واللفاء: التراب أو القماش على وجه الأرض. ومن أسماء التراب أيضاً: الأثلب والكثكث. يقال لمن يدعى عليه بالخيبة: بفيه الكثكث والأثلب وبفيه الحجر. واللفاء: الشيء القليل، ومن مضاعفه: رجل لفلف: للثقيل اللسان، وامرأة لفلفة ورجل لفلاف وامرأة لفلافة وامرأة لفاء الفخذين، قال الشاعر:

تـــساهم ثـــوباها ففـــي الـــدرع رادة وفـــي المـــرط لفـــا وإن ردفهمـــا عبل

معنى تساهم: تقارع. وفي التنزيل: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ [الصافات: ١٤١]. وقالوا: رجل ألف: ثقيل اللسان. والألف أيضاً: العيي، وهو أيضاً: الضعيف الواهن البطش، قال الشاعر:

رأيتكما يا ابني عياذ عدوتما على مال ألوى لا سنيد ولا ألف
ولا مال لي إلا عطاف ومدرع لكم طرف منه جديد ولي طرف

السنيد: المسند إلى قوم ليس منهم، والعطاف: الرداء، وقد تقدّم. والعطاف أيضاً: تقوله العرب للسيف، والمدرع: الدرع، يقول: لكم ظبة السيف الذي أضربكم به، ولي قائمه الذي بيدي. ويقال: ألف الطائر رأسه: جعله تحت جناحه. ويقال: حديقة لفة ولف، والجمع: لفاف. وفي التنزيل: ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ: ١٦] أي: بساتين ملتفة. عن ابن عباس وغيره واحدها لف. وقيل: لف ولف جمع: لفاء. قال الكسائي: واحده لفيف. ومما جاء بالكسر: لف القوم: جماعتهم. ويقال: لف؛ بالفتح؛ في هذا أيضاً. وجاؤا بلفهم ولفيفهم. ومن لف لفهم ولفهم؛ أي: من اجتمع منهم، قال الشاعر:

سيكفيكم أوداً ومن لف لفها فوارس من جرم بن زبان كالأسد

ومن مضاعفه: لفلف: موضع. قال الشاعر:

والقوم بين لفلف وعالج

هما موضعان.

ومما يقرب من هذا الباب: ولف؛ تقول: ولف الفرس يلف ولفاً وليفاً: وهو ضرب من عدوه، والواو من نفس الكلمة. وبرق وليف: يبرق برقتين برقتين.

ومعكوس ولف: فلوٌ؛ وهو: الصغير من أولاد الدواب. وفي الحديث منه في فضل الصدقة أنها تقع في يد الرحمن فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله.

ومن مقلوبه: فول؛ وهو: الباقلاء، ومما يقرب من هذا: فولف؛ وهو: غطاء يغطى به الثياب، قال العجاج:

وسار رقراق السحاب فولفا للبيد واعروري النعاف النعفا

النعاف: جمع نعف، وهو: ناحية الجبل.

فرغ فل، وبقي قل، القل: القليل. ومن كلامهم: رماه الله بالقل والذل أي: بالقلة والذلة. ويقال: قلّ الشيء يقل قلة وقلاً؛ فهو: قليل. وجمع قليل: قلل، مثل: سرير وسرر، وقوم قليلون وقليل. قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى

ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: ٢٦]، ويقال: الحمد لله على القل والكثر. وأنشد الأصمعي لخالد بن قل:

وقـد يقـصر القـل الفتـى دون همـه ... وقـد كـان لـولا القـل طـلاع أنجـد

وفي الحديث من هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الربا؛ وإن كثر؛ فإنه يرجع إلى قل. خرجه البزار. والنجد: ما ارتفع من الأرض، والجمع: نجاد ونجود وأنجد. يقال: فلان طلاع الثنايا وطلاع أنجد: إذا كان سامياً لمعالي الأمور. وجمع نجود: أنجدة. قال الشاعر:

يغـدو أمـامهم فـي كـل مـربأة ... طـلاع أنجـدة فـي كـشحه هـضم

وأول ما خطب الحجاج بالعراق قال لهم:

أنـا ابـن جـلا وطـلاع الثـنايا ... متـى أضـع العمامـة تعرفونـي

وقولهم: لم يترك فلان قليلاً ولا كثيراً. قال أبو عبيدة: إنهم يبدؤن بالأدون كقولهم: العمران والقمران، وربيعة ومضر، وتميم وعامر. ويقال للفقير: قل ابن قل، ويقال ذلك أيضاً: للذي لا يعرف هو ولا أبوه، ويقال: استقل فلان كذا، أي: استصغره واستحقره، واستقل به: أطاقه. وفي القرآن العزيز: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ [الأعراف: ٥٧] يعني: الريح حملت سحاباً ثقالاً بالماء. يقال: أقل فلان الشيء واستقل به: إذا أطاقه. وفلان لا يستقل بحمله قال:

خلـف العـبء علـيّ ولـي ... أنـا بالعـبء لـه مـستقل

قال ابن عزيز رحمه الله: وإنّما سميت الكيزان قلالاً لأنها تقل بالأيدي أي: تحمل فيشرب فيها. والقلة: كوز صغير، وهو عند العرب: الحب العظيم. قال صاحب كتاب العين: والحب: الخابية الكبيرة. وقال ابن دريد: والقلة التي جاءت في الحديث مثل: قلال هجر، زعموا أنها جرار عظام تسع القلة خمس قرب وما حولها. والقلة: رأس كل شيء. ومنه قلة الجبل: وهي القطعة تستدير في أعلاه، ويقال لها القنة أيضاً، قال الشاعر:

لمـن الـديار بقـنة الحجـر

وقلة الإنسان: رأسه. وأنشد سيبويه:

عجائـب تـبدي الـشيب فـي قلـة الطفـل

والقل؛ بالكسر: الرعدة، عن أبي علي. ويقال: أخذه القل: إذا أصابته رعدة من فزع أو غيره فانتفض بسبب ذلك. وجاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها: أخذتها

حمى نافض، فلعله من هذا، والله أعلم. والقلال؛ بالضم: القليل، وبالكسر؛ جمع قلة، وقد يقال: قلل. قال حميد:

فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله

ومن مضاعف هذا الباب: قلقل، يقال: رجل قلقل: خفيف وسريع، وفرس قلقل كذلك. والقلقلة: التحرك، وهي أيضاً شدة الصياح. والقلقل: شجر له حب أسود يؤكل، قال الشاعر:

وحازت الريح يبيس القلقل

وفي مثل: (هذا دقك بالمنحاز حب القلقل). والعامة تقول: الفلفل بالفاء، قال الأصمعي: إنّما هو بالقاف وهو أصلب ما يكون من الحبوب، حكاه أبو عبيد. والقلاقل والقلقلان: نبتان. والقلقلاني: طائر. وقلقل الرجل في الأرض بمعنى: تصرف وذهب وجاء. قال الشاعر:

وقلقل يبغي العز كل مقلقل

ومعكوس قلقل: لقلق اسم طائر، وهو أيضاً: اللسان. واللقلقة واللقلاق: شدة الصوت.

وفي البخاري من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في النهي عن البكاء: ما لم يكن نقع أو لقلقة. فاللقلقة: الصوت، والنقع: الغبار. قال الله تعالى: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ [العاديات: ٤]، ويقال: لقلقة وقلقلة بمعنى. وجاء في الحديث: فرفع إليه الصبي ونفسه تقلقل. وفي رواية: تقعقع ومعناه كما تقدّم: شدة الحركة والاضطراب. وقع في البارع: كل شيء له عند تحريكه صوت فهو قعقعة؛ مثل: الأديم اليابس والسلاح. وقال: ما سمي قعيقعان؛ جبل بمكة؛ إلا بقعقعة السلاح فيه.

بقي من شكل هذه اللفظة: قل؛ أمر من: قال يقول. وفي القرآن منه كثير ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾، ومن شكله أيضاً: قل؛ من القائلة، وقد تقدّم في الحديث: قيلوا فإن الشياطين لا تقيل.

معكوس قل: لق، تقول: لق دواتك: إذا أمرته أن يجعل فيها ليقة، وهو من: لاق يليق ليقاً وليوقاً: فهو لائق، والدواة مليقة، وأصله من اللصوق، ومنه قولهم: لا يليق هذا بفلان، أي: لا يلصق به ولا يعلق، حكي هذا عن أبي زيد. وفيه لغة أخرى أحسن من هذه أن تقول: ألق دواتك، وأنت مليق لها، وهي ملاقة. ويكون هذا من: ألاق يليق إلاقة.

حدّث الأصمعي قال: قدمت على الرشيد في بعض قدماتي فاستبطأني، فقلت: ما ألاقتني الأرض حتى رأيت أمير المؤمنين. فلما خرج الناس قال لي: ما معنى ألاقتني؟. فقلت: ما ألاقتني ما ألصقتني بها ولا قبلتني. كذا رأيت في بعض الكتب. ووقع في الدلائل قول الأصمعي هذا ما لاقتني، وفسره قال: هو مثل قولهم: فلان لايليق الدرهم حتى ينفقه، أي: لا يحبسه. ويقولون: ضيق ليق من: لاقت الدواة إذا ألصقت. ولاقت المرأة عند زوجها أي: لصقت بقلبه. وأنكر الأصمعي ضيق ليق، وأجازه أبو علي، وقال: يقال، ما لاقت المرأة عند زوجها ولا عاقت أي: لم تلتصق بقلبه، كما تقدم. ومن شكل ألق: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ﴾ [طه: ٦٩] في القرآن العزيز. ومن الشكل: إلق؛ وهي: الأنثى من الذئاب، وربما قالوا: إلقة وجمعها: إلق، وقالوا للقردة أيضاً: إلقة، ولا يقال للمذكر: إلق ولكن قرد ورباح، قال الشاعر:

والإلقـــــة تـــــرغب رباحهـــــا

وفي الباب: لق؛ وهو: الصدع المستطيل في الأرض. وفي الأخبار أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج بن يوسف: لا تدع خقاً ولا لقاً إلا زرعته. والخق: واحد الأخاقيق، وهو: الحجر. وفي الحديث أن رجلاً وفضت به ناقته في أخاقيق جردان فمات. رواه ابن قتيبة: أخاقيق بالألف، وفسره بالحجر. ورواه أبو عبيد: لخاقيق باللام، واحدها: لخقوق، وفسره: شقوق في الأرض.

ومن هذا الشكل: لق؛ تقول: اللهم لق فلاناً خيراً، ولقنا صلاحاً. وفي القرآن العزيز: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٦] أي: يلقى عليك فتلقاه.

وفي البيت: وقل؛ والواو زائدة، وثم: وقل؛ والواو أصلية، ولو احتجته لأخذته. وهو فعل من الأفعال يقال منه: وقل يقل وقلاً: للوعل إذا كان يتوقل في الجبال؛ أي: يصعد. قال يعقوب: وعل وقل، ووقل مثل حذر وحذر. وقال غيره: يقال للفرس: إنه لحسن التوقل في الجبال أي: حسن الدخول بينها، وقد وقل يقل، وفرس وقلاء، وفرس وقل ووقلة. وفي المثل: أوقل من عفر، وهو ولد الأروية، والوقل؛ بالسكون: شجر المقل. وجاء في الحديث من هذه اللفظة في صلاة الخوف: وطائفة مستوقلو العدو. ذكره ثابت في الدلائل، وفسره قال: وهو قريب المعنى من قوله: مستقبل العدو. إلا أن التوقل أشد تأكيداً في المداناة.

ويجيء من مقلوب هذه اللفظة: ولق؛ وهو: الكذب. وقرأت عائشة: (إذ تولقونه بألسنتكم). ويجيء من مقلوبها: قول، وقد تقدم. ولقو؛ وهو: داء عافانا الله منه، وهو

اللقوة؛ بالضم، واللقوة؛ بالكسر: السريعة، في قول امرئ القيس:

كأنـــــي بفــــتخاء الجناحـــــين لقــــوة

ومن مضاعف لق: لقلق، قال ابن دريد: اللقلق: اللسان، والقبقب: البطن، والذبذب: الفرج، وأنشد شاهداً على الذبذب عن أبي حاتم عن الأصمعي لأعرابي:

لـــو أبـــصرتني والـــنعاس غالبـــي خلـــف الـــركاب نائـــساً ذباذبـــي

إذاً لقالـــــت لـــــيس هـــــذا صـــــاحبي

قال صاحب العين: الذبذب ذكر الرجل.

قلت: ولعله أراد بالذباذب؛ في البيت المذكور؛ الذكر والأنثيين، وإلا فقد قال في كتاب العين: الذباذب أشياء تعلق من الهودج تتذبذب. ومعنى نائساً: محركاً؛ لأن النوس الحركة، ومنه قيل: أبو نواس، لأنه كانت في رأسه ضفائر ينوسها، أي: يحركها.

تقدّم في تفسير القبقب أنه البطن، ويقال له أيضاً: قبقبان، وأنشد:

لا تغلبنـــي علـــى زادي فـــتجعله فـــي قبقـــبانك يـــا حـــتف العـــراقين

والقبقب أيضاً: خشب السرج، والقبقب؛ بالكسر: ضرب من صدف البحر فيه لحم يؤكل. ويقال: فرج قباقب، إذا كان واسعاً. ويقال: العام وقاب قابل وقباقب: للعام الثالث. وقال خالد بن صفوان لابنه: إنك لا تفلح في العام ولا في القابل ولا قاب ولا قباقب ولا مقبقب كل كلمة اسم للسنة بعد السنة. وقالوا: قب، حكاية وقع السيف، وقببت قبة: بنيتها. قد أوقفتك أعزك الله أيما إيقاف على حرف القاف، وها أنا آخذ في غيره، أسأل الله من خيره.

خـــرجت مـــن شـــيء إلـــى غيـــره لكـــنه علـــم وصـــدق وحـــق

فاعمـــل بـــه والحـــق يعلـــو ولا يعلـــى ومـــا لا يرتـــضي يمـــتحق

فصل من الفوائد الزوائد :

قال مجاهد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أي: لا تستقذرهما كما لم يكونا يستقذرانك. وقال عطاء: لا تنفض يديك على والديك، ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ أي: لا تغلظ لهما، ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي: سهلاً ليناً. قال ابن المسيب: قول العبد الذليل للسيد الفظ الغليظ. ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٢٤] أي: كن بمنزلة الذليل المقهور إكراماً لهما، ولن في أيديهما ولا تمتنع من شيء أحباه لهما. ولما كان النفخ يشبه لفظ (أف) وقد سماه الله تعالى قولاً، استدل الفقهاء على أنه من نفخ في صلاته كان كالمتكلم ففسدت

صلاته. والأف والجناح هنا للاستعارة والمعنى: البر بهما بأمكن ما يقدر عليه. وضرب المثل بقول أف ليدل به على ما فوقه. وبر الوالدين من الفروض المؤكدة. كما أن عقوقهما من الكبائر. كيف وقد قال الله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان: ١٤] فعطف شكرهما على شكره، وأي شيء بعد هذا. ثم قال في المشركين: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥] أي: تصاحباً معروفاً. وفي الحديث عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قدمت أمي وهي مشركة، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إن أمي قدمت وهي راغبة. قال: صلي أمك. قال ابن عيينة فأنزل الله فيهما: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [الممتحنة: ٨] قلت: هذا في حق الأبوين الكافرين فكيف بحق المسلمين. ومن يقوم بحقهما إلا من وفقه الله، لا سيما حق الأم التي لها الثلثان من البر، لقوله عليه الصلاة والسلام حين سأله الرجل: من أبر يا رسول الله؟. قال: أمك. قال: ثم من؟. قال: أمك. قال: ثم من؟. قال: ثم أباك، ثم أدناك فأدناك. وفي رواية أخرى: ثم أباك، ثم أختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك. وسأله آخر فقال: يا رسول الله يدعوني أبي وأمي في حال فمن أجيب منهما أولاً؟. قال: أمك. قال: ثم من؟. قال: ثم أمك. قال: ثم من؟. قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أباك. وروى أبو موسى قال: شهدت ثلاثة من أهل اليمن مروا بابن عمر رضي الله عنهما يطوفون بالكعبة حاملي أمهاتهم على ظهورهم، قد جعل كل واحد منهم كفله ككفل البعير، فمرّ أولهم وهو يقول:

إنـــي لهـــا راحلـــة لا أذعـــر   إذا المطـــي نفـــرت لا أنفـــر
وحملـــت وأرضـــعتني أكثـــر   الله أكبـــــر والله أكبـــــر

كذا رأيته في الكتاب الذي نقلت منه مكسوراً، ولم أروه، ولا يتزن إلا إذا قلت: الله أكبر، الإله أكبر. قال يا ابن عمر قد جزيتها؟. قال: لا. ولا جرعة واحدة. ثم مرّ الآخر وهو يقول:

صـــرت لهـــا راحلـــة ذلـــولا   مـــوطأ ألـــتمس الـــسهولا
أدعهـــا بالكـــف أن تمـــيلا   أرجـــو بـــذاك نـــائلاً جـــزيلا

ثم قال: يا أبا عبد الرحمن هل جزيتها؟. قال: لا. ولا بطلقة واحدة. ثم مرّ الآخر وهو يقول:

أحمـــل أمـــي وهـــي الحمالـــه   ترضـــعني الـــدرّة والعلالـــة
هـــل يجـــزين والـــد أفعالـــه

ثم قال: هل جزيتها؟. فقال ابن عمر: هل تجزي الوالدة؟!.

ويروى أن رجلاً بلغ من الكبر إلى أن صار ابنه يحمله ويربيه ويغذوه كالطفل، فقال له ابنه يوماً: يا أبة هل جزيتك؟ ربيتك كما ربيتني فقد استوينا. فقال أبوه: كلا. قال: وكيف ذاك؟ قال الأب: إني إذ كنت أربيك أتمنى حياتك وأنتظر شبابك، وأنت اليوم تتمنى موتي. أو كما قال. وفي الصحيح: لا يجزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه. ومات ابن لبعضهم فوجد عليه، وذكر من بره به، قال: ما أخذ عني الشمس في شتاء قط، ولا الروح في صيف قط، ولا مشى بليل قط إلا أمامي، ولا بنهار إلا خلفي، ولا رقى سطحاً قط وأنا تحته. وسئل آخر عن وجده بابنه فقال: ما رأيته قط فشبعت من رؤيته، ولا غاب عني قط إلا اشتقت لرؤيته. وكان بعضهم لا يأكل مع أمه براً بها، فقيل له في ذلك فقال: أخاف أن أمدّ يدي إلى شيء كانت تريد أن تأكله. والباب في هذا طويل، والمستعمل له اليوم قليل، ومن ذلك القليل ما قرأته بسنده أن الفقيه أبا إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان القرطبي رضي الله عنه كان لا يخرج من منزله إلا إذا أخذ رجل والدته فوضعها على خده وهو يقول: اللهم إنك قلت في كتابك: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ [الإسراء: ٢٤] وإني قد خفضت لهما جناحي فاغفر لي يا أرحم الراحمين. هذا في حياتهما وأما بعد الموت فقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هل بقي عليّ شيء من برّ والديّ أبرهما به بعد موتهما؟. فقال: نعم، الصلاة عليهما؛ يعني الدعاء والاستغفار لهما، وإكرام صديقهما، وإنفاذ عهودهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما. وهذه الفضائل قد استعملها الأفاضل من الأوائل.

خرج مسلم من طريق عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه، إذا ملّ ركوب الراحلة، وعمامة يشدّ بها رأسه، فبينا هو ذات يوم على ذلك الحمار، إذ مرّ به أعرابي فقال: ألست ابن فلان؟. قال: بلى. فأعطاه الحمار، وقال: اركب هذا، والعمامة اشدد بها رأسك. فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك أعطيت هذا الأعرابي حماراً كنت تروح، عليه وعمامة كنت تشدّ بها رأسك؟. فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن من أبرّ البرّ صلة الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يولي. وإن أباه كان صديقاً لعمر. وروى الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم: رضاء الرب في رضاء الوالدين، وسخط الرب في سخط الوالدين. ويروى أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله دلني على عملٍ أعمله؟. قال: هل لك والد ووالدة؟. قال: نعم. قال: فإنما يكفيك مع البرّ بالوالدين العمل اليسير. ومثل

هذا ما قال للرجل الذي سأله الجهاد؟، فقال له: ألك والدة؟. قال: نعم. قال: ففيها فجاهد. أو كما قال عليه الصلاة والسلام. وسئل مالك رضي الله عنه عن الرجل لم يدرك أبويه أو أحدهما فقال: لا بأس أن يقول: ﴿ رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤]. قال وقد يكون الرجل مع أبيه ولا يربيه ويغيب عنه الزمن الطويل. خرجه ثابت رحمه الله. وخرج مالك في الموطأ عن سعيد بن المسيب أن الرجل ليرفع بدعاء ولده من بعده، وقال بيده نحو السماء فرفعها، قيل: رفعها داعياً لهما.

ومما لي في هذا المعنى، وأردت زيارة والديّ؛ رحمهما الله تعالى؛ يوماً فلقيني بعض الأصحاب في طريق البقيع فقال لي: إلى أين يا فلان؟. فقلت؛ وهو لزومي:

بحيث أبي وأمي راقدان ... وما لي بالذي بهما يدان
سوى أني أزورهما وأدعو ... ويرفع بالدعاء الوالدان
وحسن الظن أنهما معاً ... في الجنان منعمان مخلدان
وأني لاحق بهما هناكم ... برحمة من لبرهما هداني
فحقق يا إلهي الظن واقبل ... دعاي فأنت من داعيك دان

وقد قال الناس في هذا المعنى أشعاراً كثيرة منها:

زر والديك وقف على قبريهما ... فكأنني بك قد نقلت إليهما
لو كنت حيث هما وكانا في البقا ... زاراك حبواً لا على قدميهما

من قطعة طويلة. وغير ذلك تركت ذكره.

وقد جاء في زيارة القبور فضل كبير وخير كثير. قال عليه الصلاة والسلام: زوروا القبور فإنها تذكر الموت. وقال: ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فسلم عليه إلا عرفه فردّ عليه السلام. ونوع من هذا ما جاء في الرقائق: حدثنا نعيم قال: أخبرنا ابن المبارك قال: أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلي الثقفي قال: أخبرنا عثمان بن عبد الله بن أوس أن سعيد بن جبير قال له: استأذن لي على ابنة أخي؛ وهي زوجة عثمان وهي ابنة عمرو بن أوس؛ فاستأذنت له عليها، فدخل عليها، ثم قال: كيف يفعل بك زوجك؟. قالت: إنه إليّ لمحسن فيما استطاع. فالتفت إليّ ثم قال: يا عثمان أحسن إليها، فإنك لا تصنع بها شيئاً إلا جاء عمرو ابن أوس. فقلت: وهل يأتي الأموات أخبار الأحياء؟. قال: نعم. ما من أحد له حميم إلا ويأتيه أخبار أقاربه، فإن كان خيراً سرّ به وفرح وهني به، وإن كان شراً ابتأس وحزن به. حتى إنهم يسألون عن الرجل قد مات فيقال: ألم يأتيكم؟. فيقولون: لقد خولف به إلى أمه الهاوية.

فائدة في الضاء: ذكر عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: مرض

الحسن أو الحسين رضي الله عنهما من حمى وانكسار، فاغتم لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس كئيباً، فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال له: يا محمد الجبار يقرئك السلام، ويقول لك: اغتممت بمرض ابنك؟ فهو يأمرك أن تطلب في القرآن سورة لا فاء فيها، فإن الفاء من الآفة فتقرأ على إناء من ماء أربعين مرة، فيغسل بذلك الماء يديه ورجليه، وما بطن وما ظهر من يديه، بعد وجهه ورأسه فإن الله يدفع عنه ما يجد إن شاء الله، وأمر أمتك يا محمد يتداوون بهذا الدواء فإنه أفضل الدواء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وأنا وأهلي لا نشتكي شيئاً إلا تداوينا به. قال الزهري: وأنا أتداوى به وآمر إخواني بذلك، إن كان في الصيف فالماء البارد، وإن كان في الشتاء سخن الماء فتداويت به، وهي: أم القرآن لا فاء فيها.

وتقدم: المفوّف، وهو الذي تراه خيطاً أبيض وخيطاً أسود، يستدل على ذلك بقول الشاعر:

يا من لشيخ قد تجرد لحمه ... أفنى ثلاث عمائم ألوانا
سوداء حالكة وسخف مفوف ... وأجد لوناً بعد ذلك هجانا
والموت يأتي بعد ذلك كله ... وكأنما يعني بذاك سوانا

سوداء يعني: سواد شعره، والهجان: الأبيض، يعني: الشيب، فلم يبق إلا: المفوف وهو: شعرة بيضاء وأخرى سوداء كما تقدّم. والسخف: الثوب الخلق. ومن المفوف حديث كعب الأحبار: يؤتى بالعبد يوم القيامة فترفع له غرفة مفوفة، تفويفها لبنة من ذهب ولبنة من فضة وأخرى من ياقوتة وأخرى من زبرجدة وأخرى من لؤلؤة، لها سبعون باباً، يرى ما في جوفها من خارج. فيقول الله: يا ابن آدم ما أعددت لها؟. فيقول: يا رب ما أعدّ لها؟ ونعمة واحدة استوجبت حسناتي كلها؟. فيقول الله تعالى: ادخلها برحمتي. خرجه ثابت، وقال: المفوفة: ذات التلوين، وذكر نحواً مما تقدّم من التفسير.

وتقدّم: الفيفاء، وأذكر لك هنا خطبة فيها ذكره. كنت مرة بالبادية، فجاءنا بها واعظ ظريف، فجرى ذكر الخطباء والخطب، فحدث أنه اجتاز مرة بقرية حضر فيها الجمعة، فلما حضرت الصلاة وجاء الخطيب فصعد المنبر وإذا به ناقص الخلق، وذكر من صفته كذا وكذا احتقره. فقلت: يقدر هذا أن يتكلم؟ ما أراه!. فلما فرغ المؤذن من الأذان، قام وضرب بعصاه المنبر ضربة ارتج منها المسجد، وقال: الحمد لله المنزه عن الحيف، المتجلي لخليقته بلا كيف، مقدر الزمنين الشتاء والصيف، أحمده في اليقظة والطيف، وأشكره فوق شكر الضيف للضيف، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك

له شهادة أقطع من السيف، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خير القبائل من قريش ونصيف وعفيف وحليف، صلى الله عليه وعلى آله ما قيل في تصغير الشنف شنيف، ثم امتد في الخطبة بأحسن لفظ وأبدع نظم. فحدثت شيخنا الخطيب أبا محمد عبد الوهاب بن علي رضي الله عنه بهذا الحديث؛ وكان إمام الموضع؛ وكان إذ ذاك غائباً حين حدثني الواعظ بهذه الحكاية، فلما جاء يوم الجمعة سمعت أبا محمد عبد الوهاب يخطب بصدر هذه الخطبة، ثم ذيلها بكلام في معناها وفقرها، فقال؛ ورضي الله عن الإمام المعدود في الذين لا حزن عليهم في الآخرة ولا خوف: يا ابن آدم كيف بك، وكيف إذا عافتك الحياة كل عيف، وعصفت عليك من المنون ريح هيف، وغودرت شلواً مقبوراً في عرصات الفيف. ومنها: فبادر أيها المغرور أملك فالعمر قصير كزورة طيف، وأخلص عملك فالناقد بصير لا يقبل الزيف، واعلموا رحمكم الله أن أكثر ما يدني العبد من النار الفرج والجوف، فأشعروا قلوبكم الخشية لله والخوف، وإياكم والتسويف، فإنما أهلك من قبلكم سوف، جعلنا الله وإياكم من المعتصمين به إذا مسهم من الشيطان طيف. ثم لما جاءت الجمعة الأخرى بدلها بعينها على حرف الباء، فقال: الحمد لله المنفرد بعلم الغيب، المتطوّل بستر العيب، أحمده في الشبيبة والشيب، وأشكره فوق شكر الرياض للصيب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة من الريب، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الرؤوف بأمته الناصح للجيب، صلى الله عليه وعلى آله ما عدّ في السباق صهيب. ثم امتد كذلك إلى آخرها. وقد تقدّم منها في باب الباء من هذا الكتاب: أيها الناس ثوبوا إلى صالح الأعمال أسرع ثوب، وألبسوا تقوى الله أسبغ ثوب.

وتقدّم: جبل ق، وأنه محيط بالدنيا، وزاد مكي في الهداية: والسماء مقبية عليه، وأن خضرة السماء والبحر منه. وتقدّم: قاف اسم فاعل من: قفا يقفو، والأمر منه: اقف، وفي القرآن ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]. وأذكرني اقف أبياتاً كتب بها إليّ الفقيه الخطيب أبو محمد عبد الوهاب رضي الله عنه، جواباً عن أبيات كتبت بها إليه، وكنت خارجاً من البلد في موضع لم يكن معي فيه قلم ولا مداد ولا كاغد، فصنعت قلماً من عود، وكتبت بمداد صنعته من فحم، على ظهر شقف أخذتها من السقف، فكتب إليّ:

أتتني قوافٍ على ظهر شقف ... حسان عليها الملاحة وقف

نظام ذكي إذا شئت أن ... تسير بمنهاجه فاتل واقف

فلا طويت بسواه الفلا ... ولا حديث دون ذكراه حرف

تــروقك مـــنه حلـــى يـــا علـــى ... تلـوح وتـبدو علـى كـل حـرف

من قطعة مطوّلة لزومية. وقد تقدّم لي في صفة العاصي ذي القلب القاسي لكل سوء تابع وقاف، ومع ما تنكره وقاف. وقد تقدّم: القش، وهو عند العامة متاع البيت الدون، وبعضهم يسميه: الدبش، ورأيت في كتاب البهجة لشيخي أبي محمد عبد الحق رحمه الله بيتاً في قطعة حسنة شينية له أعجبتني، وصف في ذلك الشعر الصالحين، ثم قال:

أولـئك القـوم إن عـدّ الكـرام فهـم ... وأن تـرد دبـشاها نحـن ذا دبـش

وتقدّم ذكر: الأوقية، وهي زنة أربعين درهماً، وجمعها: أواق؛ بغير مدّ؛ كذا يرويه المحدّثون. قال الخطابي: إنما هو: أواقي؛ مفتوحة مشددة غير مصروفة؛ جمع: أوقية، مثل: أضحية وأضاحي، وبختية وبخاتي. والعامة يقولون: آواق بالمدّ. والآواق، إنما هو جمع: أوق. وقال غيره مثله وزاد: إن شئت خففت الياء في الجمع. والأواقي أيضاً جمع واقية، قال الشاعر:

بـــا عـــد بالقـــد وقـــتك الأواقـــي

وأصله: وواقي؛ فواعل، إلا أنهم كرهوا اجتماع الواوات فقلبوا الأولى ألفاً. والواقي أيضاً: الصرد، وقد تقدّم:

وكـــنت لا أغـــدو علـــى واق وحـــاتم

والنش: عشرون درهماً وذلك نصف أوقية، والنواة زنة خمسة دراهم، والدرهم المكي: سبع وخمسون حبة وستة أعشار حبة، والرطل مائة درهم وثمانية وعشرون بالدرهم المذكور، والدرهم سبعة أعشار مثقال، ودينار الذهب بمكة وزنه اثنان وثمانون حبة وثلاثة أعشار حبة من الشعير المطلق. قال ذلك كله أبو محمد علي بن أحمد؛ هو ابن حزم رحمه الله. وفسره على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: المكيال على مكيال أهل المدينة، والوزن على وزن أهل مكة. وقد جاء أن الدينار أربعة وعشرون قيراطاً. قال ابن أحمد: ووجدنا أهل المدينة لا يختلف منهم اثنان في أن مدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تؤدّى به الصدقات ليس أكثر من رطل ونصف، ولا أقل من رطل وربع. وقال بعضهم: رطل وثلث. قال: وليس هذا اختلافاً، لكنه على قدر رزانة المكيل من البرّ والتمر والشعير. وصاع ابن أبي ذئب خمسة أرطال وثلث، وهو صاع رسول الله صلى الله عليه وسلم. انتهى كلامه.

والوسق: ستون صاعاً من هذا، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة. وفي كتاب الصحاح: الوسق؛ بالكسر؛ ستون صاعاً، والوسق؛ بالفتح؛ مصدر: وسقت الشيء:

جمعته وحملته من قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ [الانشقاق: ١٧]، قال الخليل: الوسق؛ بالكسر؛ حمل البعير، والوقر: حمل البغل والحمار. ويقال: وسقت الناقة وغيرها تسق وسقاً: إذا حملت فلصقت رحمها على الماء فهي: ناقة واسق، ونوق وساق. مثل: نائم ونيام. ووسقت الخطبة توسيقاً، أي: جعلتها وسقاً وسقاً، واستوسقت الإبل: اجتمعت، قال الراجز:

إن لـــنا قلائـــصاً حقائقـــا مـــستوسقات لـــو يجـــدن سـائقا

وأوسقت البعير: حملته حمله، وأوسقت النخلة: كثر حملها. والفرق الذي جاء في الحديث إناء يسع ستة أمداد، والعرق في الحديث أيضاً: زنبيل يسع خمسة عشر صاعاً. والمدّ الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: والبرّ بالبرّ مدّ بمدّ. قال الخطابي: المدّ مكيال لأهل الشام يقال: إنه يسع خمسة عشر مكوكاً، والمكوك: صاع ونصف بصاع الحرمين المتقدّمين. وأما صاع أهل العراق فهو ثمانية أرطال. قال الخطابي: وهو صاع الحجاج صوّعه لما ولي العراق، وكان الولاة يتحملون الزيادة في الصيعان. ولما ولي خالد أضعف الصاع ستة عشر رطلاً، وكانوا يريدون التوسعة على الناس بذلك.

قال بعضهم في ولاية سعيد العراق:

يـــا ويلتـــي قـــد ذهـــب الولـــيد وجاءنـــا مجـــوّعاً ســـعيد

يـــنقص فـــي الـــصاع ولا يـــزيد

ومن كتاب الصحاح: المكوك: واحد المكاكيك، وهو ثلاث كيلجات، والكيلجة: منّ وسبعة أثمان منّ، والمنّ: رطل، والرطل: اثنا عشرة أوقية، والأوقية: أستار وثلث أستار، والأستار: أربعة مثاقيل ونصف مثقال، والمثقال: درهم وثلاثة أسباع درهم، والدرهم: ستة دوانق، والدانق: قيراطان، والقيراط: طسوجان، والطسوج: حبتان، والحبة: سدس ثمن درهم؛ وهو جزء من ثمانية وأربعين جزأً من درهم.

ومدّ هشام المذكور في الموطأ مدّان غير ثلث، وهو الذي قال فيه مالك رحمه الله تعالى: به تكون كفارة الظهار، وهو المدّ الأعظم. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ بالمدّ ويغتسل بالصاع. وسمي المدّ: مدّاً لأنه قدر ما يمدّ الرجل يديه ويملأ كفيه طعاماً، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر أصحابه: لو أن أحدكم أنفق ملء الأرض ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه. يريد: نصفه، ذكره الخطابي رحمه الله. قال: ورواه بعض أهل اللغة: مدى بفتح الميم؛ يريد: الغاية. يقال: فلان لا يبلغ مدى فلان؛ أي: لا يبلغ شأوه ولا يدرك غايته، ومما يقرب من المد:

المداد الذي يكتب به، والمداد أيضاً: القدر والمثل. وبذلك فسر الخطابي قول النبي صلى الله عليه وسلم: مداد كلماته من قوله عليه الصلاة والسلام: سبحان الله عدد خلقه، وزنة عرشه، ومداد كلماته. قال: يريد: قدر كلماته أو مثلها في العدد كثرة. والمداد: مصدر كالمدّ، يقال: مددت الشيء أمدّه مدّاً ومداداً. قال الخطابي: ومن هذا حديثه الآخر في ذكر الحوض أنه قال: ينبعث فيه ميزابان من الجنة، مدادهما الجنة. أي: تمدّهما أنهار الجنة. ويقال: بني القوم بيوتهم على غرار واحد، وعلى مداد واحد. أي: على نسق واحد. وأنشد:

على غرار ومداد واحد

وتقدّم أيضاً: أن مثل العائد في صدقته كالكلب يعود في قيئه. وجاء في حديث آخر: مثل الذي يعطي عطية ثم يرجع فيها، كمثل الكلب قاء ثم عاد في قيئه. سبب هذا الحديث ما خرج مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه حمل على فرس في سبيل الله فوجده عند صاحبه وقد ابتاعه، وكان قليل المال فأراد أن يشتريه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال: لا تشتره وإن أعطيته بدرهم، فإن مثل العائد في صدقته كمثل الكلب يعود في قيئه. وقال مالك في الموطأ: وظننت أنه بايعه بدرهم برخص. ورواه سفيان بن عيينة قال: لا تشتره ولا شيئاً من نتاجه، هكذا في المسند. ورواه المزني عن الشافعي عن سفيان، وقال: دعها حتى توافيك وأولادها جميعاً. وخرج أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قاء فأفطر. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: من ذرعه القيء وهو صائم فليس عليه القضاء، ومن استقاء فليقض.

ومن القيء حديث بكير بن الأشج أنه كان في غزاة، فاستيقظ من نومه فقال: إني رأيت أني أدخلت الجنة فأسقيت فيها لبناً، ولأجربن ذلك، فاستقاء، فقاء اللبن، وكانوا في موضع لا لبن فيه. ثم نادى منادي أمير الجيش: من قتل قتيلاً فله كذا، فامتنع بكير من الخروج معهم وألقى سلاحه، ثم فكر ساعة فأخذ سلاحه وقال: اللهم إنك تعلم ما لهذا خرجت، وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل رضي الله عنه.

ومن القيء حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه شرب لبناً من إبل الصدقة على غلط ولم يعلم به، فلما أخبر أنه من الصدقة أدخل يده في فيه فاستقاء. وفي رواية أنه لم يزل يعالج إخراجه رضي الله عنه من بطنه حتى ألقى من جوفه الدم، وليس ينكر هذا من ورعه رضي الله عنه، فقد كان يقسم الطيب بين يديه على نساء أهل المدينة ـ مما كان يؤتى به من الفيء ـ وهو يغطي أنفه، فقيل له في ذلك فقال: وهل ينتفع منه إلا بريحه.

ومن الورع ما حدثت عن رجل كان يسمر مع أصحابه في بيت رجل مريض وهو في النزع، فلما مات ذلك الرجل أطفأ هذا القنديل، فقيل له في ذلك فقال: من أراد أن يسمر في الضوء فليأت بزيت من عنده، وإنما الزيت الذي في القنديل للأيتام، وما دام صاحب الزيت حياً سمرنا به، فإذ قد مات فإنما هو ميراث. هذا معنى كلامه.

ومما يشبه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المتقدّم في القيء ما يروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ حدث زيد بن أرقم قال: كان لأبي بكر مملوك، فأتاه ليلة بطعام، فتناول منه لقمة، فقال له المملوك: ما لك! كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة؟ قال: حملني على ذلك الجوع. من أين جئت بهذا؟. قال: مررت بقوم في الجاهلية، فرقيت لهم فوعدوني، فلما أن كان اليوم مررت بهم، فإذا عرس لهم فأعطوني. قال: أف لي كدت أن تهلكني، فأدخل يده في حلقه فجعل يتقايا وجعلت لا تخرج، فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بعس من ماء، فجعل يشرب ويتقيا حتى رمى بها. فقيل له: رحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة؟ قال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به، فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة.

وتقدّم ذكر القافة، وأن عائشة قالت: دخل قائف ورسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد وأسامة بن زيد وزيد بن حارثة مضطجعان، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فسر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم. وفي رواية: وعليهما قطيفة وقد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما. وفي رواية: كان اسم القائف مجزز المدلجي، فاحتج بهذا الحديث من حكم بقول القافة. وقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم أثبته علماً. ولم ينكره، ولو كان خطأ لأنكره، لأن في ذلك قذف المحصنات ونفي الأنساب.

وقال أبوداود: وكان أسامة أسود شديد السواد؛ وزيد أبوه أبيض من القطن، وكان أهل الجاهلية يقدحون في نسبه. فلما قضى القائف بما تقدّم سرّ بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، لأن أهل الجاهلية كانوا يصغون إلى قول القائف.

واختلف العلماء في القول بالقافة، فنفاه أبو حنيفة، وأثبته الشافعي، ونفاه مالك في الحرائر، وأثبته في الإماء على المشهور عنه. وقد روي عنه إثباته فيهما جميعاً، ولكل واحد حجة مذكورة في كتبهم. وقد يسمى الذي يتتبع الآثار أيضاً: قائفاً. ووقع في حديث العرنيين: فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في طلبهم قافة فأتي بهم. وأصله: من تتبع الأثر. والاقتفاء إنما أصله أن تمشي وراء من تطلبه فتستقبل بوجهك قفاه، ويكون هذا حقيقة واستعارة. قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا

بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الحديد: ٢٧] صلى الله على جميعهم وسلم.

وكان أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تقدّم ذكره، وكان يكنى: أبا زيد، وقيل: أبا محمد، وكان ممن اعتزل الفتنة ولم يحضرها، وأمه مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضنته، وكانت تكنى: أم أيمن، وهي: بركة بنت ثعلبة، وكانت قبل لأبيه عبد الله بن عبد المطلب، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: أم أيمن أمي بعد أمي. ويقال: كانت لآمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي التي هاجرت من مكة إلى المدينة على قدميها وليس معها أحد، وذلك في حر شديد فعطشت، فسمعت حفيفاً فوق رأسها فالتفتت، فإذا دلو قد أدليت لها من السماء فشربت منها، فلم تظمأ أبداً، وكانت تتعمد الصوم في حرارة القيظ لتعطش فلا تعطش، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها، والخليفتان بعده. ولما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بكت عليه بكاء شديداً، فقيل لها: يا أم أيمن أتبكين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: أما والله ما أبكي على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أكون أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى ما هو خير له من الدنيا، ولكن أبكي على خبر السماء انقطع. وفي كتاب مسلم رحمه الله من خبرها وفضائلها باب كبير رضي الله عنها.

وقد روي مثل ذلك من قصتها عن أم شريك الدولية رضي الله عنها أنها عطشت في سفر فلم تجد ماء إلا عند يهودي، وأبى أن يسقيها إلا أن تدين بدينه، فأبت إلا أن تموت عطشاً، فدلي لها دلواً من السماء فشربت، ثم رفعت الدلو وهي تنظر ذلك. ذكر هذا ابن إسحاق في السيرة من غير رواية ابن هشام.

وشبيه بهذه القصة ما جرى لأم شريك الأسدية؛ إحدى نساء قريش ثم إحدى بني عامر ابن لؤي؛ وكانت تحت أبي العكر الدوسي، ووقع في قلبها الإسلام وهي بمكة، ثم جعلت تدخل على نساء قريش سرّاً فتدعوهنّ وترغبهنّ في الإسلام، حتى ظهر أمرها لأهل مكة، فأخذوها وقالوا: لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا، ولكنّا سنردّك إليهم. قالت: فحملوني على بعير ليس تحتي شيء موطأ، ثم تركوني ثلاثاً لا يطعموني ولا يسقوني، قالت: فنزلوا بي منزلاً؛ وكانوا إذا نزلوا منزلاً أوثقوني في الشمس واستظلوا هم منها؛ وحبسوا عني الطعام والشراب، فلا تزال تلك حالتي حتى يرتحلوا. قالت: فبينما هم قد نزلوا منزلاً وأوثقوني في الشمس، واستظلوا هم منها، إذا أنا بأبرد شيء على صدري فتناولته، فإذا هو دلو من ماء، فشربت منه قليلاً، ثم نزع مني فرفع، ثم عاد فتناولته فشربت منه حتى رويت، ثم أفضت سائره على جسدي وثيابي. فلما

استيقظوا إذا هم بأثر الماء، ورأوني حسنة الهيئة، فقالوا لي: انحللت فأخذت سقاءنا فشربت منه؟ فقلت: لا والله ما فعلت، ولكن كان من الأمر كذا وكذا. قالوا: لئن كنت صادقة فيما قلت لدينك خير من ديننا، فلما نظروا إلى أسقيتهم وجدوها كما تركوها، فأسلموا عند ذلك. وأقبلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوهبت نفسها له بغير شيء، فقبلها ودخل عليها صلى الله عليه وسلم ورضي عنها.

تقدّم في هذا الفصل أن أسامة اعتزل الفتنة، وقد اعتزلها جماعة منهم: أهبان بن صيفي الغفاري. ولما ظهر عليّ بن أبي طالب على البصرة وسمع بأهبان هذا فأتاه وقال له: ما خلفك عنا يا أهبان؟. قال: خلفني عنك عهد عهده إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخوك وابن عمك. قال لي: إذا تفرقت الأمة فرقتين فاتخذ سيفاً من خشب والزم بيتك. فأنا الآن قد اتخذت سيفاً من خشب ولزمت بيتي. فقال له عليّ: فأطع أخي وابن عمي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانصرف عنه.

وكان في موت أهبان هذا آية رواها جماعة ثقات: لما حضرته الوفاة قال لأهله: كفنوني في ثوبين. قالت ابنته: فزدنا ثوباً ثالثاً لنا قميصاً فدفناه فيه، فأصبح ذلك القميص على المشجب موضوعاً. ذكر ذلك أبو عمر بن عبد البر رحمه الله. وتقدّم:

فقـــف بكفـــه ســـبعين مـــنها

لم يذكر عياض رحمه الله غير صدر هذا البيت. وهي أبيات ذكرها الرامهرمزي في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي المتقدّم الذكر. قال بسنده: سئل الأعمش عن حديث فامتنع أن يحدث فلم يزالوا به حتى استخرجوه، فلما حدث به ضرب مثلاً فقال: جاء قفاف إلى صيرفي بدراهم يريه إياها، فوجدها تنقص سبعين درهماً، فأنشأ يقول:

عجبت عجيبة من ذئب سوء ... أصاب فريسة من ليث غاب
فقف بكفه سبعين منها ... تنقاها من السود الصلاب
فإن أخدع فقد يخدع ويؤخذ ... عتيق الطير في جوّ السحاب

وتقدّم ذكر التقوى، وهو اسم جامع لخلال الخير واجتناب الشرّ. وقد فسره طلق بن حبيب إذ قال لأصحابه زمن الفتنة: اتقوها بالتقوى. قالوا: أجمل لنا التقوى. قال: التقوى عمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله، والتقوى: ترك معصية الله على نور من الله مخافة عقاب الله. وقال فضالة بن عبيد: لأن أعلم أن الله تقبل مني مثقال حبة من خردل أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها، لأن الله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

وتقدّم: فل، وبالسيف فلول، خرج البخاري رحمه الله: قال عروة بن الزبير قال لي عبد الملك بن مروان حين قتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: يا عروة هل تعرف سيف الزبير؟. قلت: نعم. قال: فما فيه؟. قلت: فلة فلها يوم بدر. قال: صدقت

بهـــنّ فلـــول مـــن قـــراع الكـــتائب

ثم ردّه على عروة. قال هشام: فأقمناه بيننا بثلاثة آلاف، وأخذه بعضنا، ولوددت أني كنت أخذته. وكان سيف الزبير محلى بفضة، وكان سيف عروة كذلك. وقد تقدّم ذكر سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم. والبيت الذي فيه بهنّ فلول للنابغة، وأوّله:

ولا عـيب فـيهم غيـر أن سـيوفهم بهــنّ فلــول مــن قــراع الكــتائب

من قصيدة مطوّلة.

ومن الفل؛ بالفتح؛ الذي هو من قبل الدهر، ما يروى عن الشافعي رضي الله عنه قال: كنت في مجلس، فجاء أعرابي ومعه ابنه فذهب ابنه يتكلم، فقال له: على رسلك. ثم قال: إنا قوم أبناء سبيل، وأنضاء سفر، وفل سنة، فرحم الله من أعطى من سعة، وواسى من كفاف. قال: فحل له رجل درهماً فأعطاه، فذهب ابنه يتكلم فقال له: على رسلك أجرك من غير أن يبتليك. ذكره ثابت رحمه الله، وقال: الفل هم القوم المفلولون. وفللت الشيء أفله: كسرته. قال الراجز:

عجيـــز عارضـــها مـــنفل طعامهـــا اللهـــنة أو أقـــل

قال ابو زيد: يقال للطعام الذي يتعلل به القوم قبل الغذاء السلفة واللهنة. يقال: لهنوا القوم تلهيناً وسلفوهم تسليفاً. ومن الفل؛ بالكسر؛ وهي الأرض التي لا نبات فيها، قول عبد الله بن رواحة يصف العزى؛ وهي شجرة كانت تعبد:

شـهدت ولـم أكـذب بـأن محمـداً رسول الذي فوق السماوات من عل
وأن التـي بالجـزع مـن بطـن نخلـة ومـن دانهـا فـل مـن الخيـر يعـزل

ويروى: ومن دونها، يعني: الصنم المنصوب حول العزى.

وتقدم: القلة والقلة، وقالوا: من قل ذل ومن أمر فل. فـ فل معلوم، وأمر: معناه كثر، من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ [الإسراء: ١٦] معناه: كثرناهم، فإن الله لا يأمر بالفحشاء. وفي الحديث من هذا: خير المال سكة مأثورة وفرس مأمورة. أي: كثيرة النتاج والنسل. ومنه قول أبي سفيان عند هرقل: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة أنه يخافه ملك بني الأصفر. وبنو الأصفر هم الروم. ويقال: هرقل على وزن دمشق، وهرقل على وزن خندف، قاله صاحب الصحاح.

ومن القل ما حكي أن أبا طالب بن عبد المطلب خطب لرسول الله صلى الله

عليه وسلم في تزويج خديجة بنت خويلد، فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً، وبيتاً محجوجاً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي، لا يوزن به رجل من قريش إلا رجح به برّاً وفضلاً وكرماً وعقلاً وفخراً ونبلاً، وإن كان في المال قل، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعليّ. وتقدّم شطر البيت:

وقلقـــل يبغـــي العـــز كـــل مقلقـــل

هو لجبل بن جوال التغلبي. كذا وقع في السيرة، وصوابه الثعلبي، لأنه من بني ثعلبة بن سعد، قال هذا الشعر يوم قتل حيي بن أخطب في بني قريظة، وكانوا دون الألف، وكان سيدهم أتي به مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل. ثم أقبل على الناس وقال: أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه، فقال جبل بن جوال المذكور:

لعمـرك مـا لام ابـن أخطـب نفسـه ... ولكـنـه مـن يخـذل الله يخـذل
فجاهد حتـى أبلـغ الـنفس عـذرها ... وقلقـل يبغـي العـز كـل مقلقـل

وممن قتل يومئذ: الزبير بن باطا، وكان يكنى أبا عبد الرحمن، وكان قد منّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية يوم بعاث. فلما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل بني قريظة وفيهم الزبير المذكور، وهو شيخ كبير، جاءه ثابت بن قيس فقال: يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟. قال له: إني أردت أن أجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم يجزي الكريم. ثم أتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنه قد كانت للزبير عليّ منّة وقد أردت أن أجزيه بها فهب لي دمه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو لك. فأتاه فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لي دمك فهو لك. فقال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة. فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله امرأته وولده، قال: هم لك. قال، فأتاه فقال قد وهب لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلك وولدك فهم لك. قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك. فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ماله، قال: هو لك. قال له ثابت: فقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك فهو لك. قال: أي ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة وضيئة تترآى فيها عذارى الحي كعب بن أسد، قال: قتل.

قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب. قال: قتل. قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا عزال بن شموال. قال: قتل. قال: فما فعل المجليان يعني: بني كعب ابن قريظة وبني عمرو بن قريظة. قال: ذهبوا قتلوا. قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك ألا ألحقتني بالقوم فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر قلبة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة. فقدمه ثابت فضرب عنقه.

فلما بلغ أبا بكر الصديق رضي الله عنه قوله: ألقى الأحبة قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالداً فيها مخلداً. وكانت قريظة إثر الخندق، وكانوا قد ظاهروا قريشاً ونقضوا العهد بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رجعت قريش عن الخندق أمر النبي صلى الله عليه وسلم منادياً فنادى: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة، فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين ليلة، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم بقتل المقاتلة وسبي الذرية. وكان أوّل فيء وقعت فيه السهمان، وأخرج منه الخمس، وفيه أسهم للخيل للفرس سهمان ولفارسه سهم، وللراجل من ليس له فرس سهم. وكانت الخيل يومئذ ستة وثلاثين فرساً، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم بسبايا منهم إلى نجد فاشترى له بها خيل وسلاح. وفيهم أنزل الله عز وجل: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

وتقدّم اللقلق: اللسان. وفي الحديث: من كفي شر لقلقه وقبقبه وذبذبه دخل الجنة. وقال الحسن رضي الله عنه: إذا أفلت الشاب من ثلاث؛ فذكرها. وفي الحديث: من حفظ ما بين فقميه ورجليه دخل الجنة.

وذا فصل الفوائد قد تقضى | وآخذ بعد في سين وشين
وأذكر فيه ما أدري فما لي | سوى الرحمن ربي من معين

باب الألف مع السيْن والشيْن

واس وآس واس واس واش واش وسل وشل

تقول: أس البناء يؤسه أساً وتأسيساً، وهو: أسه وأساسه. وأصل الرجل: أساسه وأسه أيضاً. ومن أمثالهم: ألحقوا الحس بالأس. والحس في هذا الموضع: الشر.

يقول: ألحقوا الشرّ بأصل من عاديتم. قال الراجز في أس البناء:

وأس مجد ثابت وطيد ... نال السماء فرعه المديد

وقالوا: لم يزل فلان على أس الدهر مجنوناً، أي: لم يزل يعرف بالجنون، وربما قالوا في هذا: على است الدهر، فأبدلوا من إحدى السينين تاء. وأس الدهر فيه ثلاث لغات: الضم، والفتح، والكسر، أي: على قدم الدهر ووجه الدهر. ويقال: أس الشاة يؤسها أساً: إذا زجرها وقال لها: إس إس. وجمع الأس: أسس. والأسس لغة في: الأس، وجمعه: الآساس، قاله صاحب العين. وقال الزبيدي: الأساس جمعه: أس، والأسس: جمع أساس. والتأسيس في الشعر: ألف تلزم القافية مثل قوله:

كليني لهم يا أميمة ناصب

لا بد من هذه الألف في جميع القصيدة، وإن جاء شيء من غير التأسيس كان عيباً. وهو المؤسس، والأس: بقية الرماد بين الأثافي وما تفرّق من علامات الدار الخربة. وفي القرآن العزيز: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وأما الآس: فالريحان من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من عرض عليه ريحان فلا يردّه. وقد تقدّم أنه الرند، وقال ابن دريد: فأما الآس المشموم فأحسبه دخيلاً على العرب، وقد تكلمت به العرب الفصحاء فقال الهذلي:

تالله يبقى على الأيام ذو حيد ... بمشمخر به الظيان والآس

وقد تقدّم البيت. والظيان: شجر، وقيل: ياسمين البر، وقيل: الآس بقية العسل في موضع النحل، كما سمي باقي التمر في الجلة: قرساً، وباقي السمن في النحي: كعباً. وقال قوم: بل هو ذرق النحل على الصفا وآثار ما يقطر من العسل، ذكر ذلك يونس. قال صاحب العين: والآس: شيء من العسل، تقول: ما أست منه شيئاً، أي: ما استخرجت ولا أثرت فيه. وبقي خارج البيت آس: واحد الأساة؛ وهم الأطباء. وسيأتي: أس من: زجر الضأن، وأس وهس.

وقال الزبيدي: اس: كلمة يقولها راقي الحية فتخضع. واس بمعنى: اعط، وعوض والأوس: العوض. ويقال من العطية: أست الرجل أوساً: إذا أعطيته. ومنه قول الحريري: (اس أرملاً إذا عرا). وقد تقدّم أيضاً: وأوس: من أسماء الذئب، وتصغيره: أويس، وبه سمي الرجل أو بالعطية كما تقدّم. والأوس والخزرج: قبيلتان من سكان المدينة؛ شرفها الله تعالى ورضي عنهم. وأوس أيضاً: زجر العنز والبقرة. وجاء أس بمعنى: اخلف عليّ وعزني. ويقال: أسيته بمعنى: عزيته فتأسى، والآسية: السارية، والجمع: الأواسي؛ مخففاً؛ قال النابغة:

فإن كنت قد ودّعت غير مذمم ... أواسي ملك أثبتتها الأوائل

وربما ثقلوها: أواسيّ، والواحدة: آسيّ؛ وهي: الأساطين؛ فوزنه فاعول، إذ ليس في الكلام فاعيل إلا: آمين، قال الشاعر:

فشيد آسيا فيا حسن ما عمر

وأما أش: ففعل، تقول: أش القوم يؤشون أشاً: إذا قام بعضهم إلى بعض وتحرّكوا. وهذا القيام للشرّ لا للخير، قاله ابن دريد. وقال: أحسب إن شاء الله أنهم قالوا: أش على غنمه يؤش، مثل: هش، ولم أقف على حقيقة ذلك. وتفسير: ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ [طه: ١٨] يعني: العصا أضرب بها الأغصان على غنمي لتأكل ورقها؛ والله أعلم.

وذكر أبو عبيد في تفسير حديث علقمة بن قيس رحمه الله أنه كان إذا رأى من أصحابه بعض الأشاش مما يعظهم وعظهم. وقال يزيد: الهشاش؛ فجعل الهاء همزة مثل: هرقت الماء وأرقت، وهو أن يهش الإنسان للشيء يشتهيه. وقال صاحب العين: الأش والأشاش: الإقبال على الشيء بنشاط، وهو يؤشه. والهشاش: الأشاش.

معكوس البيت:

وساء وشاء وساء وسأ وشاء وشاء وسل وشل

أما ساء: ففعل تقول منه: ساء يسوء؛ ضد: سرّ يسرّ: إذا قبح. وفي القرآن العظيم: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٧] و: ﴿ سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [الملك: ٢٧] و: ﴿ سِيٓءَ بِهِمْ ﴾ [هود: ٧٧] ويقال: استاء فلان: اهتم. وفي الحديث من هذا أن رجلاً قص على رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فاستاء لها. قال أبو عبيد: معناه: افتعل؛ من المساءة، كما تقول: اغتم من الغم.

وأما شاء: فمعناه: أراد، وهو أيضاً فعل، تقول: شاء يشاء. وعقيدة المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [التكوير: ٢٩].

وأما ساء: فاسم فاعل من الفعل المتقدّم. تقول: ساءني الشيء يسوؤني فهو: ساء، قال البطليوسي في معشراته:

اصغ نحو وعظ الواعظين ولا تبل ... بمحسن خطب مبهج وبساء

وأما سأ: مهموز مسكن فهو: دعاء الحمار إلى الماء. قاله صاحب العين، وقال في موضع آخر في مضاعفه: سأسأت بالحمار: إذا قلت له: سأسأ، ليحتبس، وسيساء الحمار: ظهره، وساسان: اسم كسرى، وسوسان: معروف، ويقال: سوسن؛ وهو

أعجمي.

وأما شاء: فاسم فاعل من: شاء يشاء شيئاً، وجمع شيء: أشياء؛ غير مصروف؛ وأصله عند الأخفش: أشياء؛ أفعلاء حذفت الهمزة التي هي لام وفتحت الياء من أجل الألف، وأصله عند الخليل: شيآء؛ جمع على غير واحده؛ مثل: شعراء. استثقلوا الهمزتين في آخره فقلبوا الأولى إلى أوّله فقالوا: أشياء، كما قالوا: أعقب، لعقبان، وأنيق: لنيقات، فصار تقديره: لفعاء، يدل على صحة ذلك أنه لا يصرف ولا يصغر على: أشيآء، ويجمع على: أشاوي، وأصله: أشاءي، فقلبت الهمزة ياء، فاجتمعت ثلاث ياآت، فحذفت الوسطى وقلبت الآخرة ألفاً وأبدلت من الأولى واواً، كما قالوا: أتيته أتوة. ويجمع أيضاً على: أشايا وأشياوات. وقال الكسائي: أشياء مثل: فرخ وأفراخ. تركوا صرفها لكثرة الاستعمال، وقالوا: كل شيء بشيئة الله، مثل: شيعة، وتصغير شيء: شييء، لا يقال: شوي، وإنما سمي شيئاً لأن الله تعالى شاء أن يكون؛ فكان. هو في معنى: مشيء، كما قالوا: درهم ضرب الأمير؛ أي: مضروب الأمير، ووزن شيء: فعل. قاله الزبيدي.

وأما شاء: فاسم لجماعة الغنم كما يقال الجامل والباقر: لجماعة الإبل والبقر قال أبو طالب:

ليظعننا في أهل شاء وجامل

وتجمع الشاء أيضاً على: شوي، ولا واحد له من لفظه، ولا تنظر إلى لفظ الشاة لأن لام الفعل فيها هاء، بدليل قولك: شويهة في التصغير، وفي الجمع: شياه.

ومن مضاعفه: شأشأت بالحمار: زجرته للمضي، فقلت: شؤشؤ، ويقال: شأشأ، ومما يتزن ولو احتجته أدخلته في البيت: وشا، على أن الواو أصلية. تقول: وشا الحائك الثوب يشيه وشياً، ووشا النمام الكذب يشي وشاية. ومما لا يشبه الشكل مما لا يتزن: شأى؛ بتقديم الهمزة ومعناه: أعجب. تقول: شآني الشيء: أعجبني، قال الشاعر:

حتى شآها كليل موهناً عمل

والبيت. وقال آخر:

قلن الحمول فما شأونك نقرة ... ولقد أراك تشاء للأظعان

أي: تطرب. ومعنى شأونك: أطربنك. ويقال: شأى العير وشاءه، بمعنى إذا شاءه. وسآه بالسين المهملة وتقديم الهمزة مقلوب ساء، قال حسان رضي الله عنه:

لقد لقيت قريظة ما سآها ... وما لقيت لذل من نصير

ويكون شأى أيضاً بمعنى: سبق، ومنه الشأو: الغاية البعيدة.

بقي مقلوب البيت حرف بين ألفين مثل: أساء زيد إساءة، ضد: أحسن، والسوأى: ضد الحسنى، ووزنهما معاً فعلى. والسوء: اسم جامع لجميع الآفات، والسيئة، ضد الحسنة، أي الحالة الحسنة والسيئة.

وأصل السيئة: سويئة؛ قلبت الواو ياء وأدغمت. وفي القرآن العزيز: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [يونس: ٢٦] أي: الحالة الحسنى، وكذلك السوأى، أي: المنزلة السوأى. وفي المثل: أساء سمعاً فأساء جابة. قال أبو عبيد: كذا حكي في المثل جابة بغير ألف وأصله: إجابة. ومن شكل مقلوبه أيضاً: آسى، فعل من قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣] معناه: أحزن، والأسى: الحزن، قال الشاعر:

فقلت لها إن الأسى يبعث الأسى

إذا فتحت الألف قصرت تقول منه: أسي: إذا حزن فهو أسيان، وامرأة أسيا؛ من نسوة أسايا، وإذا كسرت الألف مددت فقلت: إساء، وهو: الدواء، قال الشاعر:

أسيت لما ولى ولا ينفع الأسى ... ولا يتقى كلم الردى بإساء

أي: بدواء، والإساء أيضاً: الأطباء جمع الآسي، مثل: الرعاء جمع الراعي، قال الشاعر:

هم الأسون أم الرأس لما ... تواكلها الأطبة والإساء

والأساة: الأطباء أيضاً، واحده: آس؛ مثل: رامٍ ورماة، والأسى؛ بالضم مقصور: جمع إسوة، بالكسر. ويقال: أسوة؛ بالضم؛ أي: قدوة يؤتسى بها، وجمعها: أسي وأسى، وتقول: أسا فلان فلاناً في المصيبة فتأسى، بمعنى: عزي فتعزى، وآساه؛ بالمد؛ من المواساة: فتأسى.

وأما أشاء؛ منقوطاً؛ فمعنى: شاء، أدخلت عليه ألف الاستفهام، وأشاء؛ مهموز: منون النخل الصغار؛ واحدها: أشاءة، والهمزة فيها منقلبة عن ياء، لأن تصغيرها: أشي.

مقلوب البيت: ألف بين حرفين. ساس الطعام يساس سوساً، ،اساس واستاس أيضاً، وساس الدابة يسوسها سياسة؛ وهم الساسة، وساس فلان قومه مثله، والساس: عثة تقع في الطعام والثياب. ويقال لها أيضاً: السوس، والسوس: اسم بلدة.

وأما شاس: فاسم رجل؛ شاس بن قيس مشهور؛ وتقول: شاس يشوس شوساً: إذا عرف في نظره الغضب. ومنه قيل: رجل أشوس، وفرس كذلك، قال الشاعر:

علـــى أن العـــتاق مـــن المطايـــا حـــسين بـــه فهـــن إلـــيه شـــوس

ومعنى حسين: حسسن؛ لغة في: أحسسن؛ وهي شاذة. بقي الكلام على قافية البيتين.

أما سل: فمن قولك: سل فلان السيف من غمده يسله سلاً: إذا انتضاه. وسل: أمر منه، ويقال في هذا أيضاً: استله من غمده. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استل من قبل رأسه، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وسل: مبني لما لم يسم فاعله، وسل نفسك عن كذا، قال امرؤ القيس:

فـــدع ذا وســـل الهـــم عـــنك بحـــسرة

وسل: أمر من: سال يسال؛ بغير همزة، كما تقول: نام ينام، ونَم: في الأمر.

وقد تقدّم قول حسان رضي الله عنه:

ســـالت هـــذيل رســـول الله فاحـــشة

قال الأستاذ رحمه الله: ليس على تسهيل الهمزة في سألت، ولكنها لغة، بدليل قولهم: سايل القوم. وإذا كانت لغة في: سأل؛ فيلزم أن يكون المضارع: يسيل، ولكن حكى يونس: سلت تسال؛ مثل: خفت تخاف، وهو عندهم من ذوات الواو. وقال الزجاج: الرجلان يتسايلان. وقال النحاس والمبرد: يتساولان، وهو مثل ما ذكر يونس. قال صاحب العين: العرب قاطبة تحذف الهمزة من: سل، في الأمر؛ فإذا وصلت بالفاء والواو قالوا: فاسأل واسأل. وقال ابن قتيبة: أنت مخيّر في ذلك، إن شئت قلت بلا همز ولا ألف بعد الفاء، وكذلك: وسل؛ وإن شئت قلت: سأل، بالألف والهمز. وتقول: رجل سؤول: إذا كان كثير السؤال.

وتقدّم: سال سايل، تقول: سال الماء وغيره يسيل سيلاً وسيلاناً، وأساله غيره، ومسيل الماء معروف، وجمعه: مسايل ومسل ومسلان وأمسلة. مثل: رغيف ورغفان وأرغفة. وأما السل؛ بالكسر: فهو الداء المعروف، وكذلك السلال، وقد سل وأسله الله فهو مسلول وهو شاذ. وهذا الداء الذي يعرف بداء البطن وهو من شر الأدواء عافانا الله من كل ذلك، قال الشاعر:

ومولـى كـداء الـبطن لـيس بظاهـر فيشفى وداء البطن من شر صاحب

ويقال: السحاف: السل، ورجل مسحوف، أي: مسلول. يقال: رماه الله بالسحاف؛ قال أبو علي: هو وجع يأخذ بين الكتفين وينفث صاحبه مثل العقب. والإسلال: السرقة الخفية. وقد تقدّم: لا إسلال ولا إغلال، وفسر. ويحتمل: لا إسلال: السرقة والرشوة، وكذلك: السلة، وفي بني فلان سلة أي سرقة. وقد تقدّم الخلة تدعو

إلى السلة. وسلة السيف: دفعته، قال الشاعر:

إن تلقني اليوم فما بي علّه ... هذا سلاح كامل وألّه
وذو غرارين سريع السلّه

وكذلك يقال: فرس سريع السلة؛ وهو دفعته في سباقه. يقال: خرجت سلته على الخيل. والسلة أيضاً: كالجونة، قاله (ع). وقال ابن دريد: وأما السلة التي يعرفها الناس فلا أحسبها عربية. والسلالة: هو الولد، وهو السليل، والأنثى: سليلة. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢] قال قتادة: فنسل آدم من طين. وقال غيره: إنما قيل لآدم سلالة لأنه سلّ من كل تربة، ويقال للولد: سلالة أبيه، وهو فعالة من السل، وفعالة تأتي للقليل من الشيء نحو: القلامة والنخالة. وقيل: إن السلالة إنّما هي نطفة آدم صلى الله عليه وسلم، وآدم طين لأنه خلق منه. والسليل أيضاً: دماغ الفرس، والسليل: السنام. والسلسلة معروفة، وجمعها: سلاسل. وفي القرآن: ﴿ سَلَٰسِلَاْ ﴾ [الإنسان: ٤]؛ وقرئ: (سلاسل) بغير صرف وهو الأظهر. ومن صرف فلأن هذه الجموع لما أشبهت الآحاد جمعت جمعها، فجعلت في حكم الآحاد فصرفت. والسلسل والسلسال والسلاسل: الماء العذب المتسلسل في الحلق لعذوبته وصفائه. ويقال: معنى تسلسل الماء: إذا جرى؛ أو ضربته الريح صار كالسلسلة. وشيء سلسل: متصل بعضه ببعض، ومنه سلسلة الحديث. قال أبو عبيد: السلاسل رمل منعقد بعضه على بعض. وقال البكري: السلسل اسم جبل من الدهناء. والسلسل أيضاً: ماء بلد من جذام، وبه سميت غزوة ذات السلاسل. والسلسبيل: اسم عين في الجنة، وصرف لأنه رأس آية سميت بذلك، لأن السلسبيل: الشراب السهل اللذيذ، وهو فعلليل من: السلاسة، قاله المهدوي رحمه الله. والسلاة: شوك النخل، والجمع: سلاء. وفي حديث أبي الجوزاء في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية: ٦-٧] قال: السلاء. قال: وكيف يسمن من يأكل الشوك؟ ذكره ثابت، وفسره كذلك بشوك النخل. وقال عكرمة؛ وسئل عن هذه الآية: هو الشبرق، وشجرته ذات شوك لاطئة إلى الأرض، إذا كان الربيع سمتها قريش الشبرق، فإذا هاج العود سموها الضريع. والسلا في البطن معلوم مقصور مفتوح وهي: المشيمة حيث يكون الولد. ومن أمثالهم: انقطع السلا في البطن: إذا ذهبت الحيلة. يقال: بلغ السكين العظم، ويقال أيضاً: وقعوا في سلا جمل؛ أي: في أمر صعب. والجمل لا

يكون له سلا، وإنما هو كما يقولون: أعز من الأبلق العقوق؛ والأبلق: الذكر ولا يكون عقوقاً، إنما هو طلب ما لا يمكن، وكذلك بيض الأنوق وهي: الرخمة، وذلك أنها تضع بيضها في شواهق الجبال وحيث لا يصل إليه أحد، وقيل: الإناث من النسور، وسيأتي في أمثال العامة: طلب مني لبن الطير: كلفه الصعب الذي لا يتأتى. والسلاء؛ بالمد والكسر؛ ما أذيب من الزبد. تقول: سلأت السمن: أذبت زبده. قال الشاعر:

إن السلاء الذي ترجين طثرته ... قد بعته بأمون ذات تبغيل

طثرته: ما صار على رأسه من دسمه وخثورته. أنشده ثابت، وقال: السلاء اسم السمن ما دام طرياً، والسلاء؛ بالفتح المصدر؛ والسلاء؛ بالضم والمدّ وتخفيف اللام؛ طائر، تقدّم. ومن شكله: أسل، يقال: الأسل شجر، ويقال: كل شجر له شوك طويل؛ فشوكه أسل. وتسمى الرماح: أسلاً، وأسلة اللسان: مستدقه، وكذلك الذراع. ورجل أسيل الخدّ: إذا كان ليّن الخدّ طويله، وكل مسترسل أسيل. وقد أسل؛ بالضم؛ أسالة، وقولهم: فلان على أسال من أبيه أي: على شبه وأخلاق وعلامات. هذا سل. وسل بالسين.

وأما بالشين المنقوطة فتقول: شل فلان القوم يشلهم شلاً وشللاً وشلولاً: إذا طردهم طرداً. قال ابن دريد: الطرد بالفتح(*) وهو مصدر، وهي أربعة: طرد طرداً، ورقص رقصاً، وجلب جلباً، وحلب حلباً. والمثل السائر: إنك لتحلب حلباً لك شطره. وشل الحمار أتنه والراعي إبله: إذا طردها. وحمار مشل: كثير الطرد، وكذلك الرجل. والشلل: الطرد وهو أيضاً: لطخ يصيب الثوب فيبقى أثره. ويقال للرجل إذا عمل فأحسن: لا شلل، ويقال لمن أجاد الرمي أو الطعن: لا شللاً ولا عمى ولا شل عرشك، وتقول: شلت يده تشل شللاً، ويد شلاء. قال:

ورجل رمى فيها الزمان فشلت

ويقال: لا شلال؛ بالكسر؛ لأنه شبه الأمر. ويقال: أشل الله يده إشلالاً، ويقال في الدعاء: لا تشلل يدك ولا تكلل، وقد شللت يدك يا رجل؛ بالكسر. والرجل أشل.

ومن هذا الشكل: أشل هذا الشيء بمعنى: أرفعه، وفي الحديث عن عون الله بن جعفر قال: فأخذ بيدي فأشالها. يعني النبي صلى الله عليه وسلم. ولبعض العلماء من المتأخرين وقد كبر:

(*) قوله: بالفتح؛ يريد: فتح الثاني، والمصادر التي جاءت محركة الثاني، ذكر منها المؤلف ما ذكره، وجعلها في المزهر ستة. واستدرك الفقير عليها نحو عشرة. قاله نصر.

خانت عهودي يدي ورجلي ... فليس خطو وليس خط
كل على كل من يليني ... أشال كالمثقل أو أحط

والشلل: موضع، والشلة: النية والأمر البعيد، حيث انتوى القوم. قال الشاعر:

مواضع شلة وهي الطروح

والشليل: مسح أو حلس يطرح على عجز البعير تحت الرحل. والشليل أيضاً: ثوب يلبس تحت الدرع. ويقال الشليل: الدروع القصيرة، والجمع: أشلة. والشليل أيضاً: من الوادي حيث يسيل معظم الماء.

ومن مضاعفه: رجل شلشل؛ بالضم: خفيف العمل، وشول أيضاً. قال الشاعر:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني ... شاو مشل شلول شلشل شول

والشلشلة: قطران الماء، وماء ذو شلشل وشلشال.

معكوس هاتين اللفظتين اللتين بغير نقط: لس النبت إذا أمكن أن تلسه الماشية؛ أي: ترعاه، واللس: تناول الدابة الحشيش، واسم ذلك النبات: اللساس؛ بالضم؛ قال الشاعر:

في باقل الرمث وفي اللساس

ويقال: ألست الأرض: إذا طلع أول نباتها، وأما بالشين فلم يأت منه إلا: اللشلشة؛ وهو: كثرة التردد عند الفزع، يقال: جبان لشلاش.

بقي مخرج هذين الحرفين: أما السين: فمن حروف المعجم، ومن حروف الزوائد، ومخرجها من وسط اللسان، مما هو منخفض إلى الطرف، وكذلك الزاي والصاد. وقد تقدّم الاشتراك بينها ثلاثتها في البدل في صراط وسراط وزراط، وهي من الحروف الرخوة، ومن المهموسة، وكذلك السين، ومن عمل السين أنها تخلص الفعل للاستقبال، تقول: سنفعل. وزعم الخليل أنها جواب: إن. قال أبو زيد: من العرب من يجعل السين تاء، وأنشد:

يا قبح الله بني السعلات ... عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا أعفاء ولا أكيات

يريد: الناس وأكياس. قال ومن العرب من يرد كاف المؤنث سيناً فيقول: أبوس؛ يريد: أبوك، وأمس: عوض: أمك. ومنهم من يزيد على الكاف سيناً فيقول: مررت بكس، ونزلت عليكس فإذا وصلوا حذفوه لبيان الحركة، وهؤلاء يقال لهم: الكسكسية، وهم من هوازن. وأما ما يحكى عن سحيم من قوله:

فلو كنت ورداً لونه لعشقتني ... ولكن ربي شانني بسواد

فإنما قلب الشين سيناً في عسقتني وسانني لضعف عبارته عن الشين، وليست تلك بلغته، إنّما هي كاللثغ.

قال أبو سعيد: قولهم فلان لا يحسن سينة؛ يريدون: شعبة من شعبه وهي ثلاث شعب. وفي القرآن: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ومعنى سيناء: الحسن، وكذلك قيل في سينين: الحسن، وقيل سينا: جبل بالشأم، وهو طور أضيف إلى سيناء، وهو شجر وكذلك: ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]. قال الأخفش السينين: شجر، واحدتها: سينينة، وقرئ: سيناء وسيناء؛ بالفتح والكسر، والفتح أجود في النحو لأنه بني على فعلاء. قال: والكسر رديء في النحو لأنه ليس في أبنية العرب فعلاء ممدوداً مكسور الأوّل غير مصروف، إلا أن تجعله أعجمياً. وقال أبو علي: إنما لم يصرف لأنه جعل اسماً للبقعة، فإذا نزعت الياء من سين؛ بقي سن: من السنن، الذي هو الطريق، ومنه اشتقاق السنة. ويقال: سن عليه التراب؛ أي: صبه. ومنه قول عمرو بن العاص رضي الله عنه: فإذا مت فسنوا علي التراب سناً؛ أي: صبوا. وقال البخاري في قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] أي: مصبوب، وقيل: متغير منتن. ولاسن: اسم فاعل من لسنه يلسنه: إذا أخذه بلسانه، ووقع فيه وعنفه، مشتق من اللسان.

ومخرج الشين من اللهات، وتشترك مع السين فيما تقدّم. ومن العرب من يبدل كاف المؤنث شيناً في الوقف، وهم ربيعة، وهم الكشكشية يفعلون ذلك حرصاً على البيان، لأن الكسرة الدالة على التانيث فيها تخفى عند الوقف، فقالوا: عليش ومنش. ذكر هذه اللفظة الخطابي وقال: هم بكر، وبها قرأ من قرأ: (إن الله اصطفاش وطهرش).

يروى أن معاوية قال يوماً: أيّ الناس أفصح؟. فقام رجل من السماط فقال: يا أمير المؤمنين قوم ارتفعوا عن فراتية العراق، وتياسروا عن كشكشة بكر، وتيامنوا عن عنعنة تميم، وليس فيهم غمغمة قضاعة، ولا طمطمانية حمير. قال: من هم؟. قال: قومك قريش.

ومنهم من يجري الوصل مجرى الوقف فيبدل أيضاً، قال شاعرهم؛ وهو المجنون:

فعيناش عيناها وجيدش جيدها سوى عنّ عظم الساق منش دقيق

أراد: عيناك وجيدك، وأراد بعنّ: أنّ، وهي معروفة في قيس، وهي التي يقال لها: عنعنة قيس على وجه الذم لها. وقرأ قارئهم: (فعسى الله عن يأتي بالفتح) يريد: أن يأتي بالفتح، وينشد فيقول:

فعيناك عيناها وثغرك ثغرها وجيدك إلا عنها غير عاطل

وربما أدخلوا كاف الخطاب معها، كما قال:

إذا دنوت جعلت تنتيش وإن نأيت جعلت تدنيش

وإن تكلمت حشت في فيش حتى تزقى كزقيق الديش

أراد: الديك، فشبهه بكاف خطاب المؤنث فساقه مساقه. ومن كلامهم: إذا أعياش جاراتش فأقبلي على ذي بيتش.

ومن العرب من يلفظ بهذه الكاف بين الجيم والشين، وذلك من اللغات المرغوب عنها لما لم يتهيأ له أن يفرد الجيم ولا الشين. وقد تقدّم القول في الجمع بين القاف والشين في كلمة واحدة مثل: قش. وقد أبدلوا الشين من الجيم في قول الراجز:

أراك إذ حبل الوصال مندمش

أي: مندمج.

ومن شكل شين: شَين خلاف: الزين، والمشاني: المقابح، وإذا زالت الياء بقي: شن: القربة البالية. وقد تقدّم: وشن عليهم الغارة وأشن: إذا فرقها عليهم من كل وجه، وشن الماء أيضاً: صبه. وفي الحديث: إذا حم أحدكم فليشن عليه الماء البارد، ومن السحر ثلاثاً.

فرق بعض أهل اللغة بين شن وسن، فقال في شن المنقوطة: هو فيما افترقت أجزاؤه، والسين المهملة فيما لم تفترق. تقول: شننت الدرع على نفسي، وشننت عليهم الغارة. والشنين قطران الماء مثل: الشلشلة، وقد تقدّم. قال الراجز:

يا من لدمع دائم الشنين

وماء شنان؛ بالضم: متفرق، والشنانة: ما يقطر من قربة أو شجر، والشنان: لغة في الشنآن.

قال الشاعر:

وما العيش إلا ما تلذ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

والتشنش: التشنج واليبس في جلد الإنسان. والشنان: البغض والعداوة، والشاني: المبغض وفي القرآن: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ٣]، فإن أزلت النون الأولى بقي: شان وهو الأمر والحال. وقد تقدّم في فصل فوائد الراء قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وتقدّم أيضاً: الشأن؛ واحد الشؤون؛ وهي: مجاري الدمع. قال ابن السكيت: الشأنان عرقان ينحدران من الرأس إلى الحاجبين ثم إلى العينين. ويقال: لأشأنن شأنهم أي: لأفسدنّ أمورهم. ويقال: اشأن شأنك أي: اعمل ما تحسنه، وشأنت شأنه أي: قصدت قصده، وما شأنت شأنه أي: ما اكترثت به.

ولي مقطوعة مطوّلة حصرت فيها لفظ شأن، وقطعة أخرى التزمت فيها ما شأني وجواب الخطيب عليها مثل ذلك. انظر جميع ذلك في كراسة اللزوم في التكميل إن شاء الله تعالى. والشنشنة: التخلق والطبيعة، قال الشاعر:

شنــــــشنة أعـــــرفها مــــــن أخــــــزم

وأما قولهم: تنشمت منه علماً وتنسمت؛ فليس واحد من الحرفين بدلاً من صاحبه، بل لكل واحد معنى. أما تنشمت فهو من قولهم: نشمت في الأمر أي: ابتدأته ولم أوغل فيه، وكذلك: تنشمت منه علماً أي: ابتدأت بطرف من العلم من عنده ولم أتمكن منه. ومعنى: تنسمت فكأنه من النسيم أي: استروحت منه خيراً؛ فمعناه: أنه تلطف في التماس العلم منه شيئاً فشيئاً كهبوب النسيم.

ومقلوب شن: نش، وهو عشرون درهماً، وقد تقدّم. وذكر أبو عبيد حديث عمر رضي الله عنه أنه كان ينس الناس بعد العشاء بالدرة، ويقول: انصرفوا إلى بيوتكم. وأنكر ينش؛ بالشين؛ وقال عن بعض أهل العلم: إنما هو ينس؛ بالسين؛ يقول: يسوق الناس. والنس: هو السوق قال: فإن كان هذا الحرف محفوظاً فهو تصحيف بيّن على هذا الحديث، ولكني أحسبه: ينوش، وهذا قد يقرب في اللفظ من ينش. ومعنى النوش: صحيح هاهنا؛ إنما هو التناول، يقول: يتناولهم بالدرة. قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ: ٥٢]، إذا لم يهمز فهو من التناول، ومنه قيل: يتناوش القوم في القتال، وكل من أنلته خيراً أو شراً فقد نشته. ومنه حديث عليّ حين سئل عن الوصية فقال: نوش بالمعروف. يعني: أن يتناول الميت الموصى له بالشيء ولا يجحد ماله. وقد يكون نش بمعنى: غلا من الغليان. خرج أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصوم، فتحينت فطره بنبيذ صنعته في دبا، ثم أتيته به، فإذا هو ينش فقال: اضرب بهذا الحائط فإن هذا شراب من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر.

ومما يمكن التطرق إلى شرحه إذ هو من الشكل: وشل ووسل؛ على أن الواو فيهما أصلية. أما وشل فهو: الماء القليل المتحلب. تقول: وشل الماء يشل وشلاً، وجبل واشل: يقطر منه الماء، وجمع الوشل: أوشال، ومن أمثالهم: وهل بالرمل أوشال. ووقع في

السيرة: وكان الحمى حمي حموه وبه وشل يهبط من جبل، قال الشاعر:

إن الـــذين عـــزوا بقلـــبك غـــادروا وشـــلاً بعيـــنك لا يـــزال معيـــنا

وقوله:

اقـــرأ علـــى الوشـــل الـــسلام وقـــل لـــه

البيت. فهو اسم جبل عظيم بناحية تهامة.

ومقلوب وشل: شول، وهي: النوق التي جف لبنها وارتفع ضرعها، الواحدة: شائلة على غير قياس. وأما الشائل: فهي الناقة التي تشول بذنبها؛ أي: ترفعه للقاح ولا لبن لها أصلاً والجمع: شول.

ومن مقلوبه أيضاً: شلو وهو العضو من أعضاء اللحم. وفي الحديث: أتى بشلوها الأيمن. وأشلاء الإنسان: أعضاؤه بعد البلى والتفرق. وبنو فلان أشلاء في بني فلان أي: بقايا فيهم. وشلية: بقية؛ وجمعها: شلايا. قال أبو زيد: يقال ذهبت ماشية بني فلان وبقيت لهم شلية، ولا يقال إلا في المال.

وأما: وسل؛ بالمهملة؛ ففعل تقول منه: وسل إلى ربه وسيلة إذا: تقرب بعمله إليه. والوسيلة: المنزلة عند الملك، وقيل: هي المحبة، ويقال أيضاً: توسل إلى ربه بوسيلة. فالتوسل والتوسيل واحد، والتوسل في غير هذا: السرقة. يقال: أخذ فلان إبلي توسلاً؛ أي: سرقة. والواسل: الراغب إلى الله تعالى. قال لبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بلـــى كـــل ذيـــن إلـــى الله واســـل

فرغ الكلام من السين والشين. وللحريري رحمه الله مسنسنة رسالة فيها نظم ونثر في كل كلمة منها سين، وأخرى كذلك سماها المشنشنة، وهي في آخر المقامات.

خـــرجت مـــن شـــيء إلـــى غيـــره كـــذلك الحبـــر الـــرئيس النفـــيس

ينـــتخب العلـــم علـــى أنـــسه فـــي ذاك تـــرويح لهـــدى الـــنفوس

فصل من الفوائد الزوائد، تقدّم قوله تعالى: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [التوبة: ١٠٨]، اختلف العلماء فيه. فقالت طائفة: هو مسجد المدينة، وشاهد هذا القول ما روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال: هو مسجدي هذا. وقال قوم: هو مسجد قباء، وشاهد هذا القول ما في ضمن الآية من قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ وأوّل مسجد أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو مسجد قباء، وكان عليه الصلاة والسلام أوّل من وضع حجراً في قبلته ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء

عمر بحجر فوضعه إلى حجر أبي بكر، ثم أخذ الناس في البنيان. وفي الخطابي عن الشموس بنت النعمان قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بنى مسجد قباء يأتي بالحجر قد صهره إلى بطنه فيضعه، فيأتي الرجل يريد أن يقله فلا يستطيع حتى يأمره أن يدعه ويأخذ غيره. ومعنى صهره: ألصقه، ويقال أيضاً: أصهره. ومنه اشتقاق الصهر في القرابة. وأتم عمار رحمه الله هذا المسجد، وهو الذي جمع الحجارة، وهو أوّل مسجد بني في الإسلام وفي أهله نزلت: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ [التوبة: ١٠٨]، فهو على هذا القول المسجد الذي أسس على التقوى في بني عمرو بن عوف، ولهم قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم؟. فذكروا الاستنجاء بالماء بعد الاستجمار بالحجارة. فقال: هو ذاكم فعليكموه.

وقال الأستاذ رحمه الله بعد أن ذكر هذا الكلام: وليس بين الحديثين تعارض؛ كلاهما أسس على التقوى، غير أن قوله سبحانه: ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ يقتضي أنه مسجد قباء لأن تأسيسه كان في أول يوم من حلول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار هجرته، والبلد الذي هو مهاجره وهو أوّل التاريخ الذي اتفق عليه عمر والصحابة رضي الله عنهم، لأنه الوقت الذي أعزّ الله فيه الإسلام، والحين الذي أمن فيه النبي صلى الله عليه وسلم، وأسس المساجد وعبد الله آمناً كما يحب، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل، وكانوا أعلم الناس بالتأويل، رضي الله عنهم أجمعين. وعلى هذا فليس يحتاج في قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ إلى إضمار كما قدّره بعض النحويين من تأسيس أوّل يوم، فراراً من دخول (من) على الزمان، و(من) تدخل على الزمان. قال الله تعالى: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ [الروم: ٤]، انتهى كلامه.

وتقدّم: آس، جاء منه في الحديث في حديث قيلة الطويل الذي خرجه أبو بكر بن أبي شيبة وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أيغلب أحيدكم على أن يصاحب صويحبه في الدنيا معروفاً، فإذا حال بينه وبين من هو أولى به منه استرجع. ثم قال: رب آسني ما أمضيت وأعني على ما أبقيت. ورواه الخطابي: رب أسني، وقال معناه: عوّضني، وأنشد:

أســـــني فقــــد قلــــت رفــــاد الأوس

ويقال أنا أستئيس الله منك أخاً أي: أستبدله منك أخاً، والله مستآس أي: معتاض، وأنشد:

وكــــان الإلــــه هــــو المــــستآسا

وقوله في الحديث: أحيدكم تصغير: أحدكم، وكذلك: صويحبه تصغير: صاحب، وقوله: استرجع هو قول الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، وكذلك قولهم: هيلل: حكاية عن لا إله إلا الله، وسبحل: حكاية عن سبحان الله، وحمدل: عبارة عن الحمد لله، وحوقل: عبارة عن لا حول ولا قوة إلا بالله، وجعفل: إذا قال جعلني الله فداك، ودمعز: إذا قال أدام الله عزك، وطبقل: إذا قال أطال الله بقاك، وربما قالوا في هذه: طلبق.

وقد تقدّم بأبأ إذا قال بأبي أنت. ويقال فداك، بالمد والهمز وبكسر الفاء، فإذا فتحت الفاء قصرت؛ فقلت: فداك وفدى لك. ويقال: حوقل الشيخ حوقلة وحيقالاً: إذا كبر وفتر عن الجماع. قال الراجز:

يا قوم قد حوقلت أو دنوت ... وبعض حيقال الرجال الموت

ويروى حيقال.

وتقدّم أويس: تصغير أوس، وبه سمي أويس القرني سيد التابعين رضي الله عنهم. جاء في الخبر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حلقة من أصحابه قال: ليصلين غداً معكم رجل من أهل الجنة. قال أبو هريرة: فطمعت أن أكون أنا ذلك الرجل، فغدوت فصليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم، وأقمت في المسجد حتى انصرف الناس. وبقيت أنا وهو، فبينما نحن كذلك إذ أقبل رجل أسود متزر بخرقة، فجاء حتى وضع يده في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا نبي الله ادع الله لي. فدعا النبي صلى الله عليه وسلم له بالشهادة وإنا لنجد منه ريح المسك الأذفر. فقلت: يا رسول الله أهو هو؟ قال: نعم إنه لمملوك لبني فلان. قلت: أفلا نشتريه فتعتقه يا نبيّ الله؟. قال: وأنى ذلك إن كان الله يريد أن يجعله من ملوك الجنة وساداتهم، يا أبا هريرة إن الله يحب من عباده الأصفياء الأخفياء الأبرياء، الشعثة رؤوسهم المغبرة وجوههم الخمصة بطونهم من كسب الحلال، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإن خطبوا المنعمات لم ينكحوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يدعوا، وإن طلعوا لم يفرح بطلعتهم، وإن مرضوا لم يعادوا، وإن ماتوا لم يشهدوا. قالوا: يا رسول الله كيف لنا برجل منهم؟. قال: ذاك أويس القرني. قالوا: وما أويس القرني. قال: أشهل ذو صهوبة، بعيد ما بين المنكبين، معتدل القامة، آدم شديد الأدمة، ضارب بذقنه إلى صدره، رام ببصره إلى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله، يتلو القرآن يبكي على نفسه، ذو طمرين لا يؤبه له، متزر إزار صوف ورداء صوف، مجهول في أهل الأرض معروف في السماء، لو أقسم على الله

لأبرّ قسمه. ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء، ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد: ادخلوا الجنة، ويقال لأويس: قف فاشفع، فيشفعه الله في مثل عدد ربيعة ومضر.

وجاء في خبر آخر أبين من هذا وأطول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يكون في أمتي رجل يقال له: أويس القرني، يدخل في شفاعته عدد ربيعة ومضر، لو أقسم على الله لأبرّه، فمن لقيه بعدي فليقرئه مني السلام. فقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: يا رسول الله أفينا من يلقاه؟. قال: نعم، أنت وعمر بن الخطاب، فإذا رأيتماه فأقرئاه مني السلام واسألاه أن يستغفر لكما. فقال عليّ: يا رسول الله وما علامته؟. قال: هو رجل أصهب أشهل، ذو طمرين أبيضين، له أدم، وقد كان به بياض فدعا الله عز وجل فأذهبه عنه إلا مقدار الدينار أو الدرهم، لا يؤبه به، مجهول في الأرض معروف في السماء. قال ابن عباس رضي الله عنهما فلما كان في زمن عمر رضي الله عنه قدم عليه أهل الكوفة، فقال لهم: هل تعرفون رجلاً من أهل اليمن يقال له أويس القرني؟. فقال رجل: نعم يا أمير المؤمنين، غير أنه رجل يسخر منه، وأهل الكوفة يهزؤون به. فتنفس عمر الصعداء وقال: ويحك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا بخبره. وقص عليهم ما قاله عليه الصلاة والسلام، ثم قال عمر: واشوقاه إلى النظر إليه. قال فسكت الكوفيون وأخفوا ذلك في نفوسهم. فلما رجعوا إلى الكوفة نظروا إلى أويس بغير العين التي كانوا ينظرون بها إليه، وجعلوا يسألونه أن يستغفر الله لهم فقال لهم: يا قوم قد كنتم قبل اليوم تسخرون مني وتهزؤون بي فما الذي بدا لكم؟. فأخبروه بما أخبرهم به عمر رضي الله عنه. فقال لهم: أستغفر لكم، وأنشدكم الله أن لا تسخروا بي، ولا تذكروا ما قال لكم عمر رضي الله عنه لأحد. قالوا: لك ذلك. ثم غاب ولم ير بالكوفة. وجعل عمر رضي الله عنه يسأل عنه الرفاق عشر سنين فلم يسمع له خبراً، حتى كان آخر حجة حجها عمر فسأل عنه كما كان يسأل، فوثب إليه رجل وقال: يا أمير المؤمنين إنك قد أكثرت السؤال عن أويس وما فينا من اسمه أويس إلا ابن أخ لي وأنا عمه غير أنه أخمل ذكراً. قال فسكت عمر وظنّ أنه ليس الذي يريده ثم قال له: يا شيخ فأين ابن أخيك هذا أهو معنا بالحرم؟. قال: نعم غير أنه في أراك مكة يرعى إبلاً لنا. قال فاستوى عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما على حمارين لهما وسارا إلى أراك مكة، وجعلا يتخللان الشجر، فإذا هما بأويس في طمرين من صوف أبيض قد صف بين قدميه قائماً يصلي، وقد رمى ببصره إلى موضع سجوده وألقى يديه على صدره. فقال عمر لعليّ رضي الله عنهما: إن كان فهذا هو وهذه صفته. ثم نزلا وشدا حماريهما إلى أراكة، فلما سمع أويس حسهما أوجز في صلاته، فتقدّما

إليه وسلما عليه، فقال: وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته. فقال له عمر: من أنت يرحمك الله؟. قال: راعي إبل وأجير قوم. قالا: لا نسألك عن الرعاية ولا عن الإجارة؛ فما اسمك؟. قال: عبد الله. قالا: قد علمنا أن أهل السماوات والأرض كلهم عبيد لله عز وجل، فما الذي سمتك به أمك؟. قال: يا هذان ماذا تريدان؟. قالا: وصفك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرفناك بصفتك. فبكى أويس بكاء شديداً وقال لهما: عسى أن يكون ذلك غيري. فقالا له: وأخبرنا عليه الصلاة والسلام أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء فأوضحها لنا. فأوضح منكبه فإذا اللمعة تحته، فابتدرا إليه وجعلا يقبلانه ويسألانه أن يستغفر لهما. فقال: ما أخص باستغفاري نفسي ولا واحداً من بني آدم، ولكنه في البر والبحر للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، يا هذان من أنتما؟. قال علي: هذا عمر أمير المؤمنين وأنا عليّ بن أبي طالب. فقال: جزاكما الله عن هذه الأمة خيراً، وبدا منه الفرح والاستبشار. فقالا له: وأنت جزاك الله عن نفسك خيراً، ثم قال له عمر: مكانك رحمك الله حتى أدخل مكة فآتيك بنفقة وفضل كسوة من ثيابي. فقال: يا أمير المؤمنين لا ميعاد بيني وبينك، ولا أعرفك ولا تعرفني بعد اليوم، وما أصنع بالنفقة والكسوة؟ أما ترى عليّ إزاراً من صوف ورداء من صوف، متى ترى أني أخرقهما؟ أما ترى نعلي مخصوفتين متى ترى أبليهما؟ وقد أخذت من رعايتي أربعة دراهم فمتى تراني أنفقها؟. يا أمير المؤمنين إن بين يدي عقبة لا يقطعها إلا كل مخف، فأخف يرحمك الله. فلما سمع عمر كلامه ضرب بيديه إلى الأرض ونادى بأعلى صوته: ألا ليت عمر لم تلده أمه، ليتها عقرت لم تعالج حمله. وولى عمر وعليّ رضي الله عنهما نحو مكة، وساق أويس الإبل لأصحابها، وخلى عن الرعاية وأقبل على العبادة، حتى لحق بالله عز وجل، وكان في موته عبرة.

قال عبد الله بن سلمة: غزونا أذربيجان زمن عمر بن الخطاب ومعنا أويس القرني، فلما رجعنا مرض فمات، فنزلنا فإذا قبر محفور وماء مسكوب وكفن وحنوط، فغسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه. فقال بعضنا لبعض: لو رجعنا فعلمنا قبره، فرجعنا فإذا لا قبر ولا أثر. وله فضائل كثيرة اختصرتها، رضي الله عنه.

وتقدم قول الله تعالى: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٧] إعرابه: ساء مثلاً: مثل القوم، والذي نزلت فيه وضرب مثله بالكلب هو: بلعم بن باعورا، وكان مجاب الدعوة، يعلم اسم الله الأعظم، وكان من مدينة الجبارين، وقيل من اليمن. فلما أقبل موسى في بني إسرائيل يريد قتالهم سأل الجبارون بلعم بن باعورا أن يدعو على موسى، فقام ليدعو، فتحول لسانه بالدعاء على أصحابه، فقيل له في ذلك

فقال: لا أقدر على أكثر مما تسمعون، ولكني أرى أن تخرجوا إليهم بناتكم، فإن الله يبغض الزنا، فإن وقعوا فيه هلكوا. ففعلوا، فوقع بنو إسرائيل في الزنا، فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً، ودعا عليه موسى عليه السلام أن ينسيه الله اسمه الأعظم؛ فنسيه، وكان هو قد دعا قبل ذلك أن لا يدخل موسى مدينة الجبارين، فاستجيب له.

وقال عبد الله بن عمر: نزلت في أمية بن أبي الصلت، كان قد قرأ الكتب، وكان يخبر الناس بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث، فلما بعث كفر به. ومعنى: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٥] نزع منه العلم الذي كان يعلمه.

والشيء يذكر بالشيء، نال قوم بالزنا الملك، ونال آخرون بتركه الملك. خرج الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك أأكرهتك؟. قالت: لا ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة. قال: أتفعلين أنت هذا وما فعلتِه؟!، اذهبي فهي لك، وقال: والله لا أعصي الله بعدها أبداً فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه أن الله قد غفر للكفل.

ومثل الذي تحوّل لسانه بالدعاء على قومه ما يحكى أن أحد الملوك أمر بقتل رجل، فقال له المأمور بقتله؛ وهو وزيره: حتى تكتب لي بذلك بخط يدك، وكان ذلك الرجل محبوساً، فلما أراد أن يكتب يقتل فلان، فحوّل الله خطه فكتب يطلق فلان. فقال الوزير: ذلك الظن بك، فقال: وما هو؟ قال: أمرتني بإطلاقه. قال: أرني فأراه خطه بذلك فاغتاظ وقال: والله ليقتلن ثم قطع ذلك الكتاب، وأراد أن يكتب والله ليقتلن، فكتب والله ليطلقن، فأخذ الوزير البطاقة وجعل يشكره. فقال: وما ذاك ويحك. قال: أقسمت ليطلقن. قال: أرني، فأراه المكتوب بذلك فمزق الكتاب وقال: والله ليطلقن والله ليطلقن على رغم أنفي. قلت: وهذا موضع:

مـــن يـــنجه الله فـــذاك الـــذي ... يـــنجو وإلا فهـــو الهالـــك

وتقدّم قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [التكوير: ٢٩]، ولله مشيئة قديمة، وللعبد أيضاً مشيئة يخلقها الله له، لكنها تابعة لمشيئة الله تعالى. وقد تقدّم. وإن شئت سميتها: إرادة، وعليها يقع الثواب والعقاب مع القدر السائق، والإرادة المتقدمة من الله تعالى، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يقل أحدكم: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله، ثم ما شاء فلان، فانظر قوله عليه الصلاة والسلام، ثم

كيف تعطي التعقيب على مذهب العرب ومعرفتهم بتنزيل الكلام.

قلت: فإذا كانت مشيئة الله تعالى سابقة وإرادته متقدّمة، فلم يبق إلا التسليم والتفويض لله والرضى بقضائه، وأقل من ذلك الصبر الذي إليه ترجع شئت أو أبيت، ولله القائل:

وإنـي إن لـم ألـزم الـصبر طائعاً ... فـلا بـدّ مـنه مكـرهاً غيـر طائـع

وقد تقدّم. وأذكرني هذا المعنى أبياتاً قلتها إذ مات أبي رحمه الله تعالى:

مـن كـان ذا إلـف وفارقـه ... فلقـد أصـيب بأسـهم الحـزن
لا سـيما إن كـان صـاحبه ... قـد قابـل الإحـسان بالحـسن
لكـن إلـى الـصبر الـرجوع فهـو ... حـصن منـيع أيمـا حـصن
والـصبر عـند الحـرب فـي الـصدمة ... الأولـى وإلا قـلّ مـا يغنـي
أمـا الرضـا مـن لـم ينله فقـد ... أشـفى علـى الحـرمان والغـبن
فـارض بمـا يأتـيك مـن قـدر ... أو فاصـبر تفـض إلـى الأمـن
مـا بعـد مـا سـميت منـزلة ... إلا لأهـل الـضعف والجـبن

ولله در الذي يقول:

شـربوا بأكـواس الرضـى ... فغـذتهم تحـف النـسيم
صـبروا علـى مـرّ القـضا ... ورضـوا بأحكـام الحكـيم
فهـم الـذين همـو همـو ... أهـل المـودة فـي القـديم
عـذب العـذاب بحـبهم ... فعذابـه فـيهم نعـيم

قلت: درجة الرضى رفيعة، وهي الأعلى من أهل لها منيعة، كذلك من رضي رضي الله عنه ومن سخط سخط الله عليه.

ولي في هذا المعنى من شعر مطوّل أوّله:

قـد قـسم الله الـسخطط ... بـين الـورى بـلا غلـط
فـواحد فـيها عـلا ... وآخـر فـيها هـبط
وفـيهم مـن قـد دنـا ... وفـيهم مـن قـد شـحط
وكـل ذا قـدّره الله ... وذا فـي اللـوح خـط
فـارض بمـا أراده ... وشـاء مـن رفـع وحـط
ولا تكلـف غيـر ذا ... فـتقعن فـي الـشطط
فـإن رضـيت فالرضـى ... وإن سـخطت فالـسخط
فمـا أراد كـائن ... هـذا هـو الحـق فقـط

لا باسط لما ذوى   لا قابض لما بسط
لا دافع لما قضى   من قال غير ذا سقط

انظرها في التكميل. أهل الرضا: هم الذين يتلذذون بالبلاء، ويقولون: ضرب الحبيب لا يوجع، وهذا لا يكون إلا لأهل المحبة.

وقال الجنيد رضي الله عنه قلت: لسري السقطي رضي الله عنه: هل يجد المحب ألم البلاء؟. قال: لا. قلت: وإن ضرب بالسيف؟. قال: وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة؛ ضربة على ضربة.

وقال بعضهم: أحببت كل شيء يحبه حتى لو أحب النار أحببت الدخول في النار. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما بقي لي فرح إلا في موقع قدّره الله تعالى.

وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام، فقيل له في ذلك: لو سألت الله تعالى أن يردّه عليك. فقال: اعتراضي عليه فيما قضى أشد من ذهاب ولدي. ولي في هذا المعنى:

قضاء الله ينفذ لا محاله   فلا تكثر على القدر المقاله
وسلم وارض أو فاصبر وإلا   سقطت فسل من الله الإقاله
فإن لم تقو تعمل ذا ولا ذا   جهلت وأي داء كالجهاله

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: ما أبالي إذا رجعت إلى أهلي على أي حال أراهم أبسرّاء أم بضرّاء، وما أصبحت على حال فتمنيت أني على سواها. وكان يقول: لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت؛ أحبّ إليّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن ليته كان. ولي في هذا المعنى:

تشبث بالقضاء ولا تبالي   سقطت على حشايا أو نبال
فربك عالم بمصالح الخلق   فاسكن لا تكن رث الخيال
وسلِّم للذي يدري مكاييل   ماء البحر مع وزن الجبال

وأيضاً:

إذا كنت يا مولاي عني راضياً   فما أن أبالي أي شيء أصابني
ولكن عسى إن كان ضرّاً فأعطني   على حمله صبراً وإلا فعافني

وبدّلت هذه القافية فقلت:

إذا كنت يا مولاي عني راضياً   فما أن أبالي بعد ذا كيف أسقط
ولكن إذا عافيتني ورزقتني   على ذاك كانت النفس تنشط

وبقيت هناك نكتة في مثل قول عبد الله بن مسعود: ليته لم يكن، إنما كرهه لمن يقوله على جهة الاعتراض على القضاء والسخط له والتبرم به، يلحظ من باطنه أنّ الخير فيما يصنع الله تعالى، ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقد جعل الله تعالى في المكروه خيراً كثيراً فقال: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩]، ويروى عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه كان يقول: إذا استخرت الله في أوّل يومي ما أبالي ما أصابني في آخره. ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في الحجة التي انصرف منها ولم يحج بعدها: الحمد لله الذي لا إله إلا هو، معطي من شاء، لقد كنت في هذا الوادي؛ يعني: ضجنان؛ أرعى إبلاً للخطاب، وكان فظاً غليظاً يتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت، وقد أصبحت وليس بيني وبين الله عز وجل أحد أخشاه. ثم تمثل بهذه الأبيات فقال:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويؤدى الأهل والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له ... والإنس والجن فيما بينها ترد
أين الملوك التي كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لا بد من ورده يوماً كما وردوا

وقال الخطابي رحمه الله: جاء في الحديث: لا يضر الغبط، كما لا يضر الشجر الخبط. وفسره: الغبط مصدر: غبطت الرجل أغبطه غبطاً: إذا كان له يسار ونعمة، فتمنيت أن يكون لي مثل ذلك، وهذا غير مكروه، ما لم تتمن فقده منه وزوال النعمة عنه إليك، وإنّما المكروه من ذلك والمذموم منه الحسد؛ وهو: أن تتمنى زوال نعمته وانتقالها إليك. والخبط: أن تشدّ أغصان الشجرة ثم تضرب بعصا ليتحات ورقها، يقول: كما لا يضرّ هذا بأصول الشجر، لأن ورقها مستخلف. فكذلك الغبط لا يضرّ صاحبه لأنه إنّما يسأل الله من فضله. انتهى كلامه.

قلت: فإذا كان التمني من العبد أن لا يكون ولا يخلق على جهة الحذر والإشفاق مما يتوقع في الآخرة من الأهوال؛ مع احتقاره لقلة عمله وفرط الخوف على نفسه، فقد تمنى ذلك فضلاء صالحون أعلاهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، قال وقد أبصر طائراً على شجرة: طوبى لك يا طائر تأكل الثمر وتقع على الشجر، لوددت أني ثمرة تنقرها الطير. وأبو حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول؛ وأخذ تبنة من

الأرض: ليتني هذه التبنة، ليتني لم أكن شيئاً، ليت أمي لم تلدني، ليتني كنت نسياً منسياً. وسمع رجل يقرأ: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١]، فقال عمر: يا ليتها تمت. وغير هؤلاء كثير تمنوا أن لم يكونوا.

قال بعضهم: ليتنا لم نخلق، وليتنا إذ خلقنا لم نمت، وليتنا إذ متنا لم نبعث، وليتنا إذ بعثنا لم نحاسب، وليتنا إذ حوسبنا لم نعذب، وليتنا إذ عذبنا لم نخلد. وذكر الحسن بن أبي الحسن البصري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يخرج رجل من النار بعد ألف سنة. قال الحسن ليتني كنت ذلك الرجل. هذه حالة القوم وهم من هم، كيف بأمثالنا. ونحن نحن، لا قوّة إلا بالله، لكن صدق الذي يقول؛ وقد سئل: ما بال العمال أكثر الناس خوفاً والبطالين أكثر الناس أمناً؟ فقال: من أي شيء تعجب؟ ذلك لكثرة علم أولئك وجهل هؤلاء. لقد قال رحمه الله حقاً: من خاف شيئاً عمل على التخلص منه.

وقال بعض الحكماء حكمة هداه الله لها: خف الله خوفاً يشغلك عن الرجاء، فإن الرجاء يشغلك عن الخوف. وما أشبه حالنا يا أخي بما قاله بعض العلماء؛ وعلم من حيث أتينا وبما ذهبنا؛ قال رضي الله عنه: ثلاثة استهوت العامة وأعظمت الشبهة على أكثر الخاصة:

أوّلها الإسلام: لم يزل الشيطان والضعف يلهجانه: الحمد لله على الإسلام. ومات فلان على الإسلام والجنة للمسلمين، حتى ربما خرج كثير إلى الاتكال على لفظ الشهادتين وأضربوا عن العمل رأساً.

والثاني: باب الرحمة، وباب الكرم والمغفرة، لم تزل الخدع والوساوس تكرّرها حتى أنسينا العقاب جملة، وصار أحدنا يقتحم الذنوب ويتقاحم على المعاصي، ولا يشك أنه من المتوكلين على رحمة الله، ويقول: الله غفور رحيم، ورحمة الله أكثر من ذنوبنا.

والثالث: الرجاء، فإنه استدرجنا الهوى، وغرور اللعين به حتى ذهب عنا الخوف مرّة، وتصوّر للمذنب والمخلط أنه لا شك من أهل الرجاء الممدوح أهله، والمغفرة وبابها إنّما هي لأهلها ولطالبها، فطالبها هو الخائف من عقوبة ذنبه، المستقيل من زلته، المتنصل من جنايته، وأما من طلب المغفرة وسأل الرحمة والتجاوز وهو مقيم على اقترافه واتباع شهواته فهذا متمن على الله متحكم عليه.

ولا خلاف بين المؤمنين أن أسباب رضوان الله تعالى هي طاعاته، وأسباب

سخطه هي معاصيه، فمن زعم أن الرجاء مع الإصرار صحيح فليزعم أن طلب الربح في الفقر وقدح النار في البحر صحيح. وإنما تكلم العلماء في أن الجائز الممكن أن يغفر الله الذنب إذا شاء وإن كان قد توعد عليه، فإن لصاحب الحق تركه، ومن صفات الكريم الوفاء بالوعد والتجاوز عن الوعيد، فإما أن يقول أحد ابتداء: إن الله تعالى وعد المغفرة للمصرّين، فأعوذ بالله، ولو كان ذلك كذلك لكان إذناً لهم وإباحة لركوب المعاصي، وهذا هدم للنبوّات كلها، ونقض للشرائع بأسرها، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله. وفي القرآن العزيز: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان فقال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وقال الحسن رضي الله عنه: إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة، يقول: أحسن الظنّ بربي، كذب! لو أحسن الظنّ بربه لأحسن العمل. وتلا قوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣]. وكتب أبو عمير المنصوري إلى بعض إخوانه: أما بعد فإنك قد أصبحت تأمل بطول عمرك، وتتمنى على الله الأماني بسوء فعلك، وإنما تضرب حديداً بارداً. وقال الشاعر يتغنى ويسلي نفسه بما يتمنى:

متى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى ... وإلا قد عشنا بها زمناً رغدا

ومن التمني الكاذب قول الراجز:

أماني كالكركم إذ قال اسقني ... غيثاً أرجيه ظنون الأظنن

ذكره ابن قتيبة وقال: وهذا إنّما يقول الناس: منى الكمون، ذكره في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: بينا هو وجبريل يتحدثان؛ تغير وجه جبريل عليه السلام حتى عاد كأنه كركمة. وقال الكركمة: واحدة الكركم، وهو الزعفران. انتهى كلامه. ومن أسماء الزعفران أيضاً: الأيدع. قال الراجز:

كما اتقى المحرم حجا أيدعا

والكلام أيضاً في هذا الفن طويل، والحق ثقيل إلا على القليل، وبعد: فبمثل هذا الباب يفرح أولو الألباب، ويسرّ به الأحباب، لأنه لباب اللباب.

وتقدّم ذكر: السوسان، ولا أعرفه بالألف. وأنشدني الفقيه أبو عبد الله بن الفخار رحمه الله لأحد قضاة الأندلس؛ وقد أتي بامرأة بيضاء وقع عليها رجل أسود؛ فقال:

رأيت غراباً على سوسنه وذاك دليل لسوء السنه
فيا مرود الآبنوس افتخر ويا مكحل العاج زد مهونه

وتقدّم: أساء سمعاً فأساء جابة. قال أبو عبيد: قائله سهيل بن عمرو، وقال ذلك لابن له يحكى أنه قال له إنسان يوماً: أين أمك، بفتح الألف، يريد: أين تؤم؟ فظن أنه يقول أين أمك؟ فقال: ذهبت تشتري دقيقاً. فقال سهيل: أساء سمعاً فأساء جابة. فلما انصرف إلى زوجته أخبرها بما قال ابنها، فقالت: أنت تبغضه. فقال: أشبه امرؤ بعض بزه. فأرسلها مثلاً. لم يذكر أبو عبيد اسم الابن ولا اسم أمه، وذكره غيره قال: اسمه أنس، وأمه الحنقاء بنت أبي جهل. يقال: إنه نظر يوماً إلى رجل على ناقة يتبعها خروف فقال لأبيه: يا أبت أذاك الخروف من تلك الناقة؟. فقال: صدقت هند بنت عتبة. وكانت قالت حين خطبها فلم تنكحه: إن جاءت منه حليلته بولد أحمقت، وإن أنجبت فعن خطأ.

وسهيل هذا والد أبي جندل الذي تقدّم ذكره، وهند هذه امرأة أبي سفيان بن حرب، أسلمت هي وزوجها عام الفتح، وجاءت مع نسوة من قومها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف على الصفا، وعمر بن الخطاب يكلمهن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أخذ عليهن أن لا يشركن بالله شيئاً. قالت هند: قد علمت أن لو كان مع الله غيره لأغنى عنا، فلما قال: ولا يسرقن. قالت: وهل تسرق الحرة؟. فلما قال: ولا يزنين. قالت: هل تزني الحرة يا رسول الله؟. فلما قال: ولا يعصينك في معروف. قالت: بأبي أنت وأمي ما أكرمك وما أحسن ما دعوت إليه. فلما سمعت: ولا يقتلن أولادهن. قالت: ربيناهم صغاراً حتى قتلتهم أنت وأصحابك كباراً يوم بدر. قال فضحك عمر من قولها حتى مال رضي الله عنهم جميعهم.

وتقدّم ذكر: آسى، وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدمت على أبي عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه، فأنزلني في ناحية بيته وامرأته في ناحية وبيننا ستر. قال فكان يحلب الناقة فيجيء بالإناء فيضعه في يدي فقال له رجل: أتنزل هذا في ناحية بيتك مع امرأتك؟. فقال:

أراقب فيه قبر من لو لقيته سليماً لآساني على كل مركب

قوله: آساني، أي: جعلني أسوته، ومعنى قوله: أراقب فيه، يعني أنه يراقب فيه النبي صلى الله عليه وسلم، لمكان الأنصار منه ووصيته بهم، ومكان أنس بن مالك من خدمته صلى الله عليه وسلم.

وأوّل هذا المثل ما يروى عن هشام بن عروة عن أبيه قال: لما قدم بابن

محمد بن أبي بكر وابنته، ضمتهما عائشة رضي الله عنها إليها، فلما شبا وقويا على أنفسهما قالت عائشة لأخيها عبد الرحمن بن أبي بكر؛ وكان شقيقها: إني أظنك قد وجدت في نفسك من توليتي عليك أمر ولدي أخيك ولم يكن ذلك لشيء تكرهه، إنّما كرهت أن يلي نساؤك منهما قبيح أمر الصبيان، وقد قويا على أنفسهما فضمهما إليك، وكن لهما كما كان حجبة بن الغرب، فإنه غزا غزوة وخلف ابني أخيه عند أهله، فرجع وقد هزلا وقشبا، فسألهما عن حالهما، فأرياه قعباً مشعباً وقالا: كانت تقوتنا في هذا. فأرسل إلى عشيرته فقال: أشهدكم أن غنمي وإبلي ورقيقي لابني أخي. فغضبت امرأته وضربت بينها وبينه حجاباً، وجعلت تكتحل مرة وتنتحب أخرى، فأنشأ يقول:

لَجِجنا ولَجِت هذه في التغضب ... ولط حجاب بيننا بالتجنب
وخطت بعودي إثمد جفن عينها ... لتفتنني أو شد ما حب زينب
وكأن اليتامى لا تشدّ شعورهم ... هداً بالهم في كل قعب مشعب
فقلت لعبدينا أريحا عليهما ... سأجعل بيتي بيت آخر مغرب
رحمت بني معدان إذ قل مالهم ... وحق لهم مني ورب المحصب
أحابي من لو أتيت لما له ... حريبا لآساني على كل مركب
أخي والذي إن أدعه لعظيمة ... يجبني وإن أغضب إلى السيف يغضب
فقلت خذوها دونكم إن عمكم ... هو اليوم أولى منكم بالتكسب

وتقدّم ذكر العثة، وجاء منه في الحديث أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كتب إلى خالد ابن الوليد رضي الله عنه بعد أن فتح اليمامة: أما بعد، فقد صغر عندي هذا الفتح مصيبتي بالمهاجرين والأنصار، وعث عليّ بكاء الحي على القتيل، ولو كنت قتلت الرجال وسبيت العيال كففت الباكي وشفيت المحزون. قوله: عث، يعني: أفسد، كما تصنع العثة بالصوف والجلد، وجمعها: عثث.

وتقدّم ذكر السلسلة، وفي القرآن العظيم منها: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة: ٣٢]، قيل هو من المقلوب؛ ومعناه: اسلكوها فيه. جاء في الخبر أنها تدخل من دبره وتخرج من منخريه، وفي آخر: تدخل من فيه وتخرج من دبره، بها يسحبون في الحميم أي: يجرّون، ثم في النار يسجرون أي: توقد بهم، فهم وقودها، كما قال تعالى: ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤]، قيل: حجارة الكبريت.

ولما نزلت هذه الآية: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ﴾ قال أبو الدرداء: قد نجاك الله من نصف

السلسلة بالإيمان، فاجتهد أن ينجيك الله من النصف الآخر بالحض على طعام المسكين، ومعنى طعام المسكين في الآية محمول على تقدير حذف المضاف وتقديره: ولا يحض على إطعام طعام المسكين. كانت أم الدرداء هذه امرأة أبي الدرداء، وقد تقدّم أن اسمها خيرة، وكانت خيرة عند اسمها رضي الله عنها.

وقع في الجاهلية أن أم الدرداء قالت: اللهم إن أبا الدرداء خطبني فتزوّجني في الدنيا، اللهم فأنا أخطبه إليك وأسألك أن تزوّجنيه في الجنة. فقال لها أبو الدرداء: فإن أردت ذلك وكنت الأولى فلا تتزوّجي بعدي. قال: فمات أبو الدرداء، وكان لها جمال وحسن، وخطبها معاوية، فقالت: والله لا أتزوّج زوجاً في الدنيا حتى أتزوّج أبو الدرداء إن شاء الله في الجنة.

قلت: وإذ وقعنا في هذا الباب، فلنذكر من هذا النوع في هذا الكتاب، والشيء يذكر بضده، كما يذكر بندّه. يروى أن امرأة من بني يشكر كانت عند ابن عم لها يقال له غسان، مات عنها بعد ما سألها عما تصنع بعده، فقال؛ وكان اسمها أم عقبة:

أخبري بالذي تريدين بعدي والذي تضمرين يا أم عقبه
تحفظين من بعد موتي لما قد كان مني من حسن خلق وصحبه
أم تريدين ذا جمال ومال وأنا في التراب في سجن غربه

فقالت: والله لا أجيبك بكذب، ولأجعلنه آخر حظي منك، وأنشدته:

قد سمعت الذي تقول وما قد يا ابن عمي تخاف من أم عقبه
أنا من أحفظ النساء وأرعاه لما قد أوليت من حسن صحبه
سوف أبكيك ما حييت بنوح ومراث أقولها وبندبه

فلما سمعها أنشأ يقول:

أنا والله واثق بك لكن احتياطاً أخاف غدر النساء
بعد موت الأزواج يا خير من عوشر فارعي حقي لحسن الوفاء
إنني قد رجوت أن تحفظي العهد فكوني إذ مت عند الرجاء

ثم اعتقل لسانه فلم ينطق حتى مات، فلم تمكث بعده إلا قليلاً حتى خطبت من كل جانب، ورغب فيها الأزواج لاجتماع الخصال الفاضلة فيها، فقالت مجيبة لهم:

سأحفظ غساناً على بعد داره ونرعاه حتى نلتقي يوم نحشر
وإني لفي شغل عن الناس كلهم فكفوا فما مثلي بمن مات يغدر
سأبكي عليه ما حييت بدمعة تجول على الخدين تهمي فتهمر

فلما تطاولت الأيام تناست عهده وقالت: من مات فقد فات، فأجابت بعض

خطابها فتزوجها، فلما كانت الليلة التي أراد الدخول بها، أتاها آت في منامها فقال:

غدرت ولم ترعي لبعلك حرمة ... ولم تعرفي حقاً ولم تَحفظي العهدا
ولم تصبري حولاً حفاظاً لصاحب ... حلفت له بتاً ولم تنجزي الوعدا
غدرت به لما ثوى في ضريحه ... كذلك ينسى كل من سكن اللحدا

فلما سمعت هذه الأبيات انتبهت مرتاعة كأن غسان معها في جانب البيت، وأنكر ذلك من حضرها من نسائها، فأنشدتهن الأبيات، فأخذن معها في حديث لينسينها ما هي فيه، فتغفلتهن وأخذت مدية، فلم يدركنها حتى ذبحت نفسها، فقالت امرأة منهن:

لله درك ماذا ... لقيت من غسان
قتلت نفسك حزناً ... يا خيرة النسوان
وفيت من بعد ما قد ... هممت بالعصيان
وذو المعالي غفور ... لسقطة الإنسان
إن الوفاء من الله ... لم يزل بمكان

من هذا الباب ما يروى أن البعث ضرب على سويد بن مقرّن؛ وكان قد نظر إلى امرأته فبكى؛ ونظرت إليه فبكت، فقال لها: ما يبكيك؟. فقالت له: وما يبكيك أنت؟. قال: ذكرت موتي وتزوّجك بعدي فأبكاني ذلك. قالت: وذلك والله أبكاني، فتعاهدا، فلما خرج لوجهته مات فلم تزل زوجته باكية، وكثر خطابها، وعزمت عليها أمها فأسعفتها وتزوجت، فلما كانت ليلة إهدائها أغفت، فرأت زوجها الأول أخذ بعضادتي الباب وهو يقول:

حييت سكان هذا البيت كلهم ... إلا الرباب فإنـي لا أحييها
قد كنت أحسبها للعهد حافظة ... حتى تموت وما جفت مآقيها
استبدلت بدلاً غيري وقد علمت ... أن القبور تواري من ثوا فيها

فانتبهت، وقصت ذلك على أمها فصبرتها، ثم أغفت ثانية فرأته وهو يقول:

كانت لنا خلة نرضى مودتها ... في النائبات ولا نخشى تعدّيها
أمست عروساً وأمسى منزلي جدثاً ... تحت التراب وأني لا ألاقيها
الله يعلم أني لم أقل سفهاً ... فيما زعمت وأني لا ألافيها

فانتبهت وقالت: والله لا أجمعن رأسي ورأس هذا أبداً. فاختلعت منه ولم تزل باكية حتى ماتت، رحمهما الله.

وفي ضد هذا ما يروى أن رجلاً كانت له جارية يحبها وتبغضه، فسامته البيع

فباعها، ثم ندم وأنشد:

نـــأت الغـــداة بوصـــلها غـــدار | فدمـــوع عينك مـــا تجـــف غـــزار
استبدلت بـــك صـــاحباً ومؤانـــساً | وكـــذا الغوانـــي وصـــلهن جـــبار

وفي مثل ما تقدّم ينشد:

وإن هـــي أعطـــتك الليـــان فإنهـــا | لآخـــر مـــن خلانهـــا ســـتلين
وإن حلفـت لا ينقض النـأي عهدها | فلـيس لمخـضوب البـنان يمـين

ويروى:

وإن حلفـــت لا تقـــبلن يميـــنها

ورأيت هذا البيت منفصلاً عن هذين البيتين، ويحتمل أن يكون قائلها واحد، والله أعلم، وهو:

تمـتع بهـا مـا ساعفتك ولا تكـن | علـيك شـجاً يـؤذيك حـين تبـين

وذكر عن الحسن المدائني أنه قال: احتضر رجل من العرب، فنظر إلى ابنه يدب بين يديه واسمه معمر، وأم الصبي عند رأسه جالسة فقال:

وإنـي لأخـشى أن أمـوت وتنكحـي | ويقـذف فـي أيـدي المراضـع معمـر
وترخـــى ســـتور دونـــه وقلائـــد | ويـشغلكم عـــنه خلـــوق ومجمـــر

قال: فما لبث أن مات وتزوجت، وصار معمر إلى ما ذكر.

ويروى عن عبد الله بن عكرمة قال: دخلت على عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أعوده، فقلت له: كيف تجدك؟. قال: أجدني والله للموت، وما موتي عليّ بأشدّ من أم هاشم، أخاف أن تتزوّج بعدي، فحلفت له أنها لا تتزوّج بعده، فغشى وجهه نور، ثم قال: الآن فلينزل الموت متى شاء. ثم مات. فلما انقضت عدتها تزوّجت عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. فقلت:

فـإن لقـيت خيـراً فـلا يهنيـنها | وإن تعـــست فللـــيدين وللفـــم

قال: فبلغها ذلك فكتبت إليّ: بلغني ما تمثلت به، وما مثلي ومثل أخيك إلا كما قال الشاعر:

وهـل كـنت إلا والهـاً ذات تـرحة | قـضت نحبها بعـد الحنين المـرجع
فدع ذكر ما قد وارت الأرض شخصه | وفي غير من قد وارت الأرض فاطمع

قال: فبلغ مني ذلك كل غيظ، فحسبت حسابها فإذا هي قد عجلت وبقي عليها من عدتها أربعة أيام. فدخلت على عمر فأعلمته فانتقض النكاح.

ومن هذا النوع ما يروى أن امرأة من العرب تزوّجت رجلاً، فكانت تَجد به

ويجد بها وجداً شديداً، وتعاقدا أن لا يتزوّج الباقي منهما. فلما مات الرجل تزوّجت، فلامها أهلها على نقض عهدها، فقالت:

فقد كان حبي ذاك حباً مبرحاً ... وحبي لذا إذ مات ذاك شديد
وكانت حياتي عند ذاك حياته ... وحبي لذا طول الحياة يزيد
فلما مضى عادت لهذا مودتي ... كذاك الهوى بعد الذهاب يعود

ومثل هذا: ما حكي عن امرأة تزوّجت بعد زوجها، وبعد عهود كانت بينهما ومواثيق، وكان اسمه سعداً، فلما ليمت بعد زواجها كان من قولها: والله ما جئت شيئاً فرياً، ولا كان سعد نبياً، ولقد تزوّجت بعده كفواً رضياً. وذكرت من هذه الأوصاف كثيراً اختصرتها.

وتقدّم: السلسلة، وجاء في الحديث من ذكرها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو أن رصاصة مثل هذه؛ وأشار إلى مثل الجمجمة؛ أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت إلى الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها. نعوذ بالله من جميع سخطه. قال كعب: إن حلقة من السلسلة مثل حديد جميع الدنيا.

وجاء من لفظ السلسلة أيضاً: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من آدمي إلا وفي رأسه سلسلتان: سلسلة إلى السماء، وسلسلة إلى الأرض، فإذا تواضع رفعه الله بالسلسلة التي في السماء، وإذا تجبر وضعه الله بالسلسلة التي في الأرض.

وتقدّم ذكر: السل وأنه من شر الأدواء؛ أعاذنا الله منه. جاء منه في الحديث: خرج الترمذي عن زيد بن أرقم: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتداوى من ذات الجنب بالقسط البحري والزيت. وذات الجنب يعني: السل. ويقال: أوّل من مات من السل إلياس بن مضر بن نزار، قال الشاعر:

ولو كان داء الياس بي وأغاثني ... طبيب بأرواح العقيق شفانيا

وفي هذا البيت شاهد لمن قال: إن الياس كان به ذلك الداء، وفيه أيضاً شاهد لمن يقول: هو إلياس بألف مهموزة من أوّله، مثل النبي عليه السلام، إنما هو: اليأس؛ ضد: الرجاء وقد اختلف في ذلك.

وربما قالوا: إذا الياس، بألف مقطوعة؛ يضرب به المثل في الأمر المعضل، ويحتمل أن يكون الشاعر اضطر فقال: الياس، وهو يريد إلياس؛ بالهمز من أوّله؛ ثم حذف الهمز من أوّله ومن وسطه. وقد تقدّم في أوّل الكتاب لهذا نظائر. والحمد لله.
وقال عروة بن حزام:

بـي الـيـاس أو داء الهـيام شـربته فإيـاك عنـي لا يكـن بـك مـا بـيا

وعروة هذا من عذرة، وهو أحد من قتله العشق. قال من رآه: لقد أضنى حتى لم يبق منه إلا جلد على عظم، وبه يضرب المثل في الضنى والضعف. قال بعض المحدثين يصف فروا له قد تمزق من طول القدم، وآل أمره من النفقة في ترقيع إلى العدم:

أودت بـذات يـدي فـروة أرنـسب كفـؤاد عـروة فـي الـضنى والـرقة

تقدّم: بيض الأنوق وتفسيره، وأنشدني الحافظ رحمه الله بالإسكندرية فيما قرأت عليه من فوائد أبي القاسم الإدريسي رضي الله عنه قال: أنشدنا شعبة بن الحسن الروداني، أنشدنا أبو الحسن علي بن الحسن الأديب لبعض أهل الأدب فقال:

تغـربت أسـأل مـن عـنّ لـي من الناس هل من صديق صدوق
فقالـوا عزيـزان لا يـوجدان صـديق صـدوق وبـيض الأنـوق

قال الإدريسي: سألت بعض أهل الأدب ما معنى الأنوق، قال: الإناث من النسور.

وتقدّم ذكر عمرو بن العاص رضي الله عنه وقوله لابنه عبد الله: سنّ عليّ التراب سناً. كان رضي الله عنه لما حضرته الوفاة بكى، فقال له ابنه عبد الله: لمَ تبكي؟ أجزعاً من الموت؟. قال: لا والله ولكن لما بعده. فقال: لقد كنت على خير، فجعل يذكر صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتوحه بالشام، فقال عمرو: تركت أفضل من ذلك: شهادة أن لا إله إلا الله، إني كنت على ثلاثة أطباق ليس منها طبق إلا عرفت نفسي فيه، كنت أوّل شيء كافراً، فكنت أشدّ الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو مت حينئذ وجبت لي النار، فلما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أشدّ الناس حياء منه، فما ملأت عيني من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو مت حينئذ قال الناس هنيئاً لعمرو أسلم. وكان على خير ومات فرجي له الجنة، ثم تلبثت بالسلطان وأشياء فلا أدري أعليّ أم لي، فإذا مت فلا تبكين عليّ، ولا تتبعني نائحة ولا نار، وشدوا عليّ إزاري فإني مخاصم، وسنوا عليّ التراب سناً، فإن جنبي الأيمن ليس بأحق بالتراب من جنبي الأيسر، ولا تجعلن في قبري خشبة ولا حجر وإذا واريتموني فاقعدوا عند قبري قدر نحر جزور وتقطيعها أستأنس بكم.

وقد وصى القاسم بن محمد رضي الله عنه ابنه بمثل هذا إذ أصابه الموت بين مكة والمدينة حاجاً أو معتمراً قال لابنه: سن عليّ التراب سناً، وسوّ عليّ قبري والحق بأهلك، وإياك أن تقول كان وكان. وقريب من حديث عمرو بن العاص في التجلد عند

الموت، قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند موته لما طعن، بعث إليه لبن فشربه فخرج من طعنته فقال: الله أكبر فجعل جلساؤه يثنون عليه فقال: إن من عزرتموه لمغرور، وددت أني أخرج منها كما دخلت فيها لو كان لي اليوم ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع. قال ابن عمر رضي الله عنه: ثم غشي عليه، فأخذت برأسه فوضعته في حجري، فأفاق ورأسه في حجري فقال: ضع رأسي بالأرض كما أمرتك. فقلت: وهل الأرض وحجري إلا سواء يا أبتاه. قال: ضع رأسي بالأرض لا أم لك، فإذا قبضت فأسرعوا بي، فإنما هو خير تقدمونني إليه، أو شر تضعونه عن رقابكم.

وتقدم ذكر الوسيلة، وجاء في القرآن العزيز منها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، و: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقع في البخاري: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم. وفي التفسير: يعني أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم، كأنه يقول كيف يعبد من هو محتاج إلى غيره حتى يتوسل إليه بعمل صالح، فالمعبود على الحقيقة هو الله الذي لا يحتاج إلى غيره.

وأما الوسيلة فقد فسرها النبي عليه الصلاة والسلام في حديث مسلم عن عبد الله بن عمرو أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله؛ وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة. وخرج العقيلي في كتابه المسمى بـ علل الحديث؛ من طريق أبي هريرة هذا الحديث وفيه: وقيل: ما الوسيلة يا رسول الله؟. قال: أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو.

سمعت بعض أشياخي يقول: هذه الصلاة الموعود عليها هذا الثواب العظيم هي التي علم أصحابه كيف هي، إذ سألوه فقالوا: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟. قال: فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله، وكان السائل بشير بن سعد. ثم قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد. والسلام كما قد علمتم.

وهنا نكتة لطيفة يصلح الوقوف عليها في قوله عليه الصلاة والسلام: إنك حميد

مجيد. لمَ خصّ هذين الاسمين من بين أسمائه تعالى دون غيرهما. فأول ما ينبغي أن تعلم أنّ الصلاة من الله هي الرحمة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فصلاته على عباده: رحمته إياهم، وصلاة ملائكته عليهم: الدعاء لهم، وسكوت النبي عليه الصلاة والسلام كان على ما يقال: استحياء، إذ كان فيه معنى المدح له والثناء عليه، ثم لم يجد بداً من طاعة الله وامتثال أمره فقال ما تقدّم. وقيل: إنما سكت ليتخير ما يقول. فقال قولوا، فذكر الصلاة كما تقدّم. وتشبيه الصلاة بصلاة إبراهيم من بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقوله فيها: إنك حميد مجيد. انتزعه من قوله تعالى: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣] فسأل النبي عليه الصلاة والسلام من ربه صلاة مثل الصلاة التي صلاها على خليله إبراهيم، إذ أمره ربه عز وجل أن يستن به فقال: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ ﴾ [الحج: ٧٨] وقال سبحانه وتعالى يثني على إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة والأخلاق الحميدة: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣]. ففعل صلى الله عليه وسلم ما أمر به، واقتدى به في كل شيء حتى في الختان والخفاض. جاء في الحديث أن إبراهيم عليه السلام أوّل من اختتن، وأوّل الناس رأى الشيب، واختتن بالقدوم؛ مثقلة؛ ويروى؛ مخففة؛ وهو بالتثقيل: موضع، وبالتخفيف: الآلة التي للنجار. واختتن عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة. وأما الخفاض: فهو في النساء، وأوّل من فعل ذلك سارة امرأة إبراهيم عليه السلام، غضبت على هاجر أم ولده، وهي أم إسماعيل عليه السلام، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أعضاء، فأمرها عليه السلام أن تثقب أذنيها وتخفضها، ففعلت فبر قسمها وصارت سنة في النساء بعدها، وامتثلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك امتثل صلى الله عليه وسلم أمر الله في الصلاة عليه وذكر الآل، كما ذكر أهل البيت في الآية، وقال: إنك حميد مجيد، كما في الآية، مع ما في هاتين اللفظتين من خفي الألطاف في السؤال، وسؤال الأدب مع أبيه إبراهيم لم يطلب زيادة عليه تصريحاً، لكن أومى إليه بذكر هاتين اللفظتين، لأن المجد في اللغة: الزيادة والكثرة.

تقول العرب: (في كل الشجر نار واستمجد المرخ والعفار) يعني أن النار من الحطب وفيه، إذا حك بعضه ببعض خرجت منه النار. وأما في هاتين الشجرتين: المرخ والعفار، فكثير جداً أكثر من غيرهما، لأنهما رخوان بمنزلة الطلح، عندما يحكا يسرع خروج النار منهما، وغيرهما أصلب فربما أبطأ ذلك. وقيل: العفار: الزند الأعلى، والمرخ: الزند الأسفل، فعرّض عليه الصلاة والسلام بذكر المجد كأنه قال: وأنت ربي تزيد من شئت وتكثر له، وأنت مع ذلك المحمود لهذه النعمة وغيرها، إذ لفظ حميد يقتضي ذلك. وقد يكون أيضاً حميد بمعنى: حامد لأفعال من أطاعه، فقد قيل ذلك.
وأما المجيد: فقد قيل فيه: الكريم، وقيل: الكثير الخير، وهو راجع إلى هذا، يقال: أمجدت للدابة العلف؛ أي: أكثرته، مع ما في ضمن المجد من الجلال والعظمة، ولذلك قالوا: الماجد: الكثير الشرف. فتأدب نبينا عليه الصلاة والسلام مع أبيه إبراهيم عليه السلام وتواضع، فرفعه الله وبلغه غاية الكرامة والشرف في الدنيا والآخرة وأوّل ذلك أن سماه محمداً؛ مشتقاً من اسمه تعالى الذي هو: الحميد، كما هدي له الشاعر، المجيد إذ يقول:

وشـق لـه مـن اسـمه لـيجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وسماه أيضاً أسماء كثيرة منها: أحمد وهو مذكور في القرآن مصرح بلفظه، وكذلك محمد، فأحمد: أفعل؛ مبالغة من صفة الحمد، ومحمد: مفعل؛ مبالغة من كثرة الحمد، فهو أجلّ من حمد، وأفضل من حمد، ومعه لواء الحمد، وسيبعثه الله المقام المحمود، ويفتح عليه محامد هناك لم يفتحها على أحد من خلقه، وسمى أمته: الحمادين، وأنزل عليه سورة الحمد، وسنّ لنا أن نقول عند انقضاء الأمور: الحمد لله رب العالمين، كما يقوله أهل الجنة: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠]، وكذلك نقول نحن عند الفراغ من الأكل والشرب، حتى عند الرجوع من السفر: آيبون تائبون لربنا حامدون، إلى غير ذلك مما هو مذكور في الأخبار.
قلت: وقد نالت بركة هذا الاسم من تسمى به، حتى خرج البزار: إذا سميتم محمداً فلا تضربوه ولا تحرموه. وفي رواية غيره: إذا سميتم محمداً فعظموه ووقروه وبجلوه ولا تذلوه ولا تحقروه. وقال: ما من مائدة وضعت وحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قدس الله ذلك المنزل في كل يوم مرتين. وفي حديث: من رزق بثلاثة من الولد فلم يسم أحدهم محمداً فهو من الجاهلين. وفي رواية: فقد جفاني. وأغرب من هذا ما روي عن الله عز وجل: إني أستحي أن أعذب بالنار من اسمه محمد على اسم حبيبي محمد.

قلت: وأنت يا من لم تسم بهذا الاسم ولا باسم نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تيأس فإن اسمك المؤمن. وقد جاء في الخبر: ينادي غداً مناد: إن كل من هو سمي نبي من الأنبياء من المؤمنين فليدخل الجنة، فيبقى أقوام من المؤمنين، فيقال لهم من أنتم؟. فيقولون نحن لم يوافق اسمنا اسم نبي. فيقول الله تعالى: أنا المؤمن، وأنا سميتكم المؤمنين، فيدخلهم الجنة. وقد جرأني هذا الخبر على أن قلت أبياتاً في هذا المعنى، فلتكن ممن بها تعنى، وهي:

يا أيها المؤمن لا تيأسن ... إن كنت لم تسم بذي التسميه
فإن مولاك اسمه مؤمن ... فاشكر ولو رائحة التسويه
مؤمن مؤمن مؤمن ... أنت ومولاك وذا تهنيه
فافرح ولا تحزن فذا كله ... أنس ومما يتقى تسليه
الحمد لله على كل ذا ... فاعدده بالآلاف لا بالميه

وقد تقدّم في ذكر البنات، قول الرجل الصالح الذي ولدت له بنت فاغتم لذلك: ما سميتها؟. قال: فاطمة. قال: آه آه إذ سميتها فاطمة فلا تشتمها ولا تضربها. وتقدّم أيضاً قول ابن عمر: سميت فلاناً على اسم فلان، وفلاناً على اسم فلان، وذكر قوماً صالحين، والله لا يضيع أجر المحسنين المجتهدين، ولكل امرئ ما نوى.

رجع: إلى بقية فخر محمد صلى الله عليه وسلم، وروي عن عثمان بن أبي العاص عن أمه أم العاص؛ واسمها فاطمة بنت عبد الله الثقفية؛ قالت: حضرت ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيت البيت حين ولد قد امتلأ نوراً، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أن ستقع عليّ. ذكره أبو عمرو في كتاب النساء. وذكره الطبري أيضاً في كتاب التاريخ، وفي تفسير بقيّ ابن مخلد أن إبليس رنّ أربع رنات: حين لعن، وحين أهبط، وحين ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحين أنزلت أم القرآن؛ وهي فاتحة الكتاب. وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسروراً معذوراً، يعني: مختوناً مقطوع السرة. يقال: عذر الصبي واعتذر: إذا ختن، وكانت أمه تحدث أنها لم تجد حين حملت به ما تجده الحوامل من ثقل ولا وحم ولا غير ذلك. ولما وضعته وقع إلى الأرض مقبوضة أصابع يديه مشيراً بالسبابة كالمسبح بها. وذكر ابن دريد أنه ألقيت عليه جفنة لئلا يراه أحد قبل جدّه، فجاء جدّه والجفنة قد انفلقت عنه. ولما قيل له: ما سميت ابنك؟. قال: محمداً. فقيل له: كيف سميته باسم ليس لأحد من آبائك ولا قومك؟. فقال: إني أرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم. وذلك لرؤيا رآها عبد المطلب ذكرها عليّ القيرواني العابر في كتاب البستان قال: كان عبد المطلب قد رأى في منامه

كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الأرض، وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور، وإذا أهل الشرق والغرب يتعلقون بها، فقصها، فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض، فلذلك سماه محمداً، مع ما بشرت به أمه حين قال لها الملك: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وضعتيه فسميه محمداً، الحديث. وولدته ليلة الاثنين في ربيع الأول لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، وقيل: للعاشر، وقيل: لثمان قبل قدوم الفيل بخمسين يوماً، وقيل: بأربعين، وقيل: بشهر، ونبئ يوم الاثنين في ربيع الأول لثمان مضين منه سنة إحدى وأربعين من عام الفيل، ودخل المدينة في ربيع الأول يوم الاثنين الثاني منه، وتوفي يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأوّل، ووافق مولده من السنين الشمسية نيسان الذي سمته العجم إبريل، وولد بالغفر من المنازل وهو مولد النبيين، ولذلك قيل: خير منزلتين في الأبد بين الزبانا والأسد، ومات أبوه وهو حمل في بطن أمه، وهو الصحيح، وقيل: مات أبوه وهو في المهد ابن سبعة أشهر، وقيل: ابن شهرين، وقيل غير ذلك، وأنشدوا رجزاً لعبد المطلب يقول لابنه أبي طالب:

أوصيك يا عبد مناف بعدي ... بموتم بعد أبيه فرد

فارقه وهو ضجيع المهد

وكان بينه وبين أبيه عبد الله في السن ثمانية عشر عاماً، وكانت عاتكة بنت عبد المطلب توأمة عبد الله أبيه، وماتت آمنة بالأبواء؛ موضع بين مكة والمدينة. وقد تقدّم ذكر ذلك، ولم يستكمل له سبع سنين، وكان عند جدّه عبد المطلب إلى أن مات، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ثمان سنين، ثم كفله عمه أبو طالب كما وصاه أبوه، ولما ولد دخل به عبد المطلب الكعبة يعوذه ويقول:

الحمد لله الذي أعطاني ... هذا الغلام الطيب الأردان

قد ساد في المهد على الغلمان ... أعيذه بالبيت ذي الأركان

من حاسد مضطرب العنان ... حتى أراه بالغ البيان

أنت الذي سميت في القرآن ... في كتب ثابتة المثاني

أحمد مكتوب على اللسان

نقلت أكثر هذا من كتاب الأستاذ رحمه الله.

قلت: وما عسى أن أذكر، وقد ألّف القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله في أخباره وفضائله ديواناً في مجلدين، وذاك قليل في حقه عليه الصلاة والسلام.

ومن عجائب ذلك الكتاب أنه ذكر فيه أنه شاع عند العرب قبل وجوده عليه الصلاة والسلام ببلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد، علم ذلك من قبل أحبار يهود، وما يجدونه في كتبهم من صفته ووقته، فسمى قوم من العرب أبناءهم محمداً رجاء أن يكون كل واحد منهم ذلك النبي؛ و﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وهم ستة: محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي، ومحمد بن سلمة الأنصاري، ومحمد بن براء البكري، ومحمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن حمران الجعفي، ومحمد بن خزاعة السلمي. لا سابع لهم ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدّعي النبوة؛ أو يدعيها أحد له؛ أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمر نبينا صلى الله عليه وسلم حتى جاء. ولم ينازعه أحد في نبوته من هؤلاء ولا غيرهم إلا من جهة التكذيب به حسداً وبغياً، كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز، أو ما كان من السخيف أبي ثمامة باليمامة، الذي عواره باد لكل حاضر وباد، في كل محفل وناد، إلى يوم التناد. وما وفرت في ذكر هذا اللعين من كاغد ومداد، فلننقه بالأصوع والأمداد، في ذكر هذا النبي محمد الهاد، ولنجتهد في ذلك غاية الاجتهاد، كما يدعو إلى الرشاد، صلى الله عليه وعلى آله ما شدا في السير شاد، وسلم. تريدون أن تسمعوا ذكره؟ أجيبوا يا من حضر، فصلوا عليه بأجمعكم وحينئذ تسمعون الخبر.

أنشدني الفقيه أبو محمد عبد الحق رحمه الله ببجاية لنفسه يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

بشر من بني آدم مولود ... في مضر الحمراء معدود
جاء به الله على غرة ... والناس في الكفر عباديد
أرسله من خيرهم محتداً ... من حيث للعلياء تشييد
من حيث ماء الجود مستعذب ... غمر وظل العز ممدود
من هاشم الخير ومن زهرة الـ ... ـمنتخب الغر الصناديد
أشرقت الأرض لإتيانه ... فاخضرّ من مبعثه العود
صلى عليه الله من مرسل ... ما دام تَسبيح وتَمجيد
وعلّ يوم الحشر أكبادنا ... حوض له في الحشر مورود

قوله في الشعر: عباديد؛ أي: فرق ذاهبون في كل وجه، وكذلك العباديد: العبابيد، والنسبة إليه: عباديدي. قال سيبويه: لأنه لا واحد له، وواحده على فعلول أو

فعليل أو فعلال في القياس. وقوله: في مضر الحمراء؛ قيل له الحمراء لأنه لما مات أبوه نزار أخذ مضر من تركته الذهب، وهي تؤنث، ولونها أحمر، وأخذ أخوه ربيعة بن نزار الخيل. فقيل له: ربيعة الفرس. ولما وقف الخطيب أبو محمد رحمه الله على هذه القطعة، قال في عروضها القطعة التي تقدّم بعضها في أول الكتاب، وهي:

للعرب الفضل على الناس ... وخيرها أولاد الياس
والنضر منظور إلى فضله ... ثم قريش عزها راسي
والسادة الغر بنو هاشم ... خيارها في الجود والباس
والمصطفى خير بني هاشم ... وخير مبعوث إلى الناس
أحمد ذو النور الذي ضاق عن ... وصف علاه كل قرطاس
أرسله الله إلى خلقه ... والشرك فيهم رافع الراس
فلم يزل يدعو إلى ربه ... في لطفه لان به القاسي
حتى غدا الشيطان ذا رنة ... من دولة الشرك على ياس
صلى عليه الله أعداد ما ... أوجد من نفس وأنفاس
وأصبح الدين رفيع الذرى ... ثابت أركان وتأساس

ولما رأيت أنا هذا الخير المزداد تحرك ما في قلبي من الوداد وأجريت أبا زياد مع الغر الجياد فقلت:

قد قلت قولاً أبتغي أجره ... من ملك رحمته تطلب
في القرشي الهاشمي الذي ... يقصر في مدحته المطنب
محمد المنتخب المصطفى ... من مثله أو منه من يقرب
خير الورى أحمد من نوره ... ضاء به المشرق والمغرب
فاتضحت سبل الهدى مذ بدا ... ولاح صبح وانجلى غيهب
وكل نور كان من قبله ... مذ جاء ذا حق له يغرب
كذلك الشمس إذا ما بدت ... هل قمر يبصر أو كوكب
طابت به طيبة ميتاً وقب ... ل ابتهجت حباً به يثرب
أرسله الله لنا رحمة ... والكفر في ظلمته يحطب
يخبط عشواء أيادي سبا ... كل إلى ما شاءه يذهب
لا يتقي شراً ولا يرتجي ... خيراً وكل رأسه يركب
فجمع الله به شملنا ... بعد شتات أمره معطب

وأصبح الناس به إخوة أبوهم الإسلام نعم الأب
ذاك أبو القاسم ماذا عسى يحصي لساني أو يدي تكتب
والبحر لو كان مداداً وما في الأرض أقلام بها يكتب
لم نبلغ إلا العشر ولا عشره من وصفه هيهات لا تعجبوا
فهو حبيب الله وهو الذي في جاهه تطمع يا مذنب
وصاحب الحوض الرواء الذي أمته منه غداً تشرب
إذ ليس ماء لهم غيره والشمس من أوجههم تقرب
والنار قد جيء بها بعضها يحطم بعضاً جمرها ملهب
ووضع الميزان والخطب إذ ذلك هول مفزع مرعب
يومئذ ليس لنا ملجأ إلا إلى الله ولا مهرب
ولا شفيع غير إرساله وهو على أعدائه يغضب
كل رسول منهم قائل نفسي نفسي عتقها يطلب
وهو ينادي أمتي أمتي ربي ما لي غيرهم مطلب
هذا إلى أشياء لم أحصها يعجز عنها اللقن المسهب
فمن يقل ما شاء فيه يقل حقاً وما أحسبه يكذب
كل لساني وانتهت طاقتي ولم أصل بعض الذي أرغب
فملت عن مدحته للدعا عسى دعائي عنه لا يحجب
فليس مثلي مادحاً مثله لا لا ولا العير الذي يركب
صلى عليه الله من سيد ما تطلع الشمس وما تغرب
وآله طراً وأزواجه وصحبه الأقرب فالأقرب
عليهم من ربهم كلهم مني السلام الأكثر الأطيب
ما نجم الطلع من أكمامه واطلع النجم وضا كوكب
ويغفر الله لنا إنه رحمته سطوته تغلب

قلت: كيف لا أفرح بهذا النبي ويكثر عند مدحه والصلاة عليه طربي، وقد جاءتنا منه البشرى أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشراً. ومن كرامته على مولاه وسيده ما خرج البزار في مسنده بسنده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى وكّل بقبري ملكاً أعطاه أسماع الخلائق، فلا يصلي عليّ أحد إلى يوم القيامة إلا بلّغني باسمه واسم أبيه؛ هذا فلان ابن فلان قد صلى عليك. صلى الله عليه

وعلى آله وعلى ذلك الملك وسلم، والحمد لله على هذه النعمة الكبرى، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: أنا أوّل الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا أبلسوا، لواء الكرم يومئذ بيدي، ومفاتيح الجنة بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر، يطوف عليَّ ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون. ذكر هذا ثابت رحمه الله. وقال: إذا أبلسوا، أي: إذا أيسوا من كل خير. ومن بركة الصلاة عليه ما خرج الترمذي بسنده إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الدعاء موقوف بين السماء والأرض، لا يصعد منه شيء حتى يصلى على نبيك صلى الله عليه وسلم.

تقدّم في الشعر: المسهب، وهي من نوادر الكلام. يقال مسهب؛ بالفتح، ولا يقال مسهب بالكسر، ولم يأت منهم إلا قولهم: رجل ملقح: وهو الذي قد افتقر من كثرة الديون، ورجل محصر، كذا نقلته من بعض كتب أهل اللغة: ملقح. والذي جاء في الحديث: مفرج، وفسر بنحو هذا التفسير. وأما ابن السيد فقال: الإسهاب: كثرة الكلام صواباً كان أو خطأً، وتختلف الصفة منهما، فإن كان إكثاراً مع إصابة قيل: رجل مسهِب؛ بكسر الهاء، وإن كان إكثاراً مع خطأ من خرف وذهاب عقل قيل: رجل مسهَب؛ بفتح الهاء. والفعل منهما جميعاً: أسهب، على صيغة فعل الفاعل، وهو نادر على غير قياس.

وتقدّم ذكر يثرب، قال الأستاذ رحمه الله: أما يثرب فهو اسم رجل نزل بها أوّلاً من العماليق فعرفت باسمه، وهو يثرب بن فاين بن عبيد بن مهلاييل بن عوض بن عملاق بن لاوذ ابن أرم. وفي بعض هذه الأسماء اختلاف. وبنو عقيل هم الذين سكنوا الجحفة، فأجحفت بهم السيول وبذلك سميت الجحفة. فلما حلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كره لها هذا الاسم أعني: يثرب، لما فيه من لفظ التثريب، وقال: من قال يثرب فليقل المدينة. وقال: يسمونها يثرب وهي طيبة. وفي حديث عنه عليه الصلاة والسلام: إن الله تعالى سمى المدينة طابة.

قال بعض أهل اللغة: طابة مأخوذ من الطيب. قال يعقوب: يقال هو الطيب والطاب. فإن قلت: وكيف كره أسماء ذكرها الله تعالى في القرآن وهو المهتدي بكتاب الله وأهل أن لا يعدل عن تسمية الله؟. قلنا: إن الله سبحانه وتعالى إنّما ذكرها بهذا الاسم حاكياً عن المنافقين إذ قالت طائفة منهم: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ [الأحزاب: ١٣]، فنبه بما حكى عنهم أنهم قد رغبوا عن اسم سماها الله به ورسوله،

وأبوا إلا ما كانوا عليه في جاهليتهم، والله سبحانه قد سماها المدينة فقال غير حاك عن أحد: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ [التوبة: ١٢٠] الآية.

وفي الخبر عن كعب الأحبار قال: إنا نجد في التوراة يقول الله للمدينة: يا طابة، ويا طيبة، ويا مسكية، لا تقبلي الكنوز أرفع أحاجيرك عن أحاجير القرى. وقد روي هذا الحديث عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يرفعه.

وروي أيضاً أن لها في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة، وطابة، وطيبة، والمسكية، والجابرة، والمحببة، والمحبوبة، والقاصمة، والمجبورة، والعذراء، والمرحومة.

وروي في معنى قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ أنها المدينة ﴿ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ أنها مكة ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠] الأنصار.

وذكر أبو عبيد البكري في المعجم بعض هذه الأسماء وقال: القاصمة قصمت الجبابرة، وقال فيها: وهي جابرة، والإيمن، ويندر، وهي الدار، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [الحشر: ٩]، ونسب ذلك كله إلى أبي عمر بن عبد البر. وذكر أيضاً في أسماء البلدان يترب؛ بتاء بنقطتين من فوق؛ وقال: قطرب؛ وهي قرية بين اليمامة والوسم، وقال: قال القاسم ابن سلام يقال: يترب وأترب؛ بالهمز؛ ويقال: يترب أرض بني سعد. وكان أبو عبيدة ينشد قول الأصمعي:

وعدت وكان الخلف منك سجية ... مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

ويقول: بيثرب؛ بالثاء المثلثة؛ قال: وهو خطأ.

وقال ابن دريد: اختلفوا في عرقوب، فقيل: هو من الأوس فيصح أن يكون على هذا يثرب، وقيل: هو من العماليق. فعلى هذا يكون يترب، لأن العمالقة كانت من اليمامة إلى وبار؛ ويترب هناك. قال: وكانت العماليق أيضاً بالمدينة. قال: ويقال: يثرب أيضاً لبني سعد، كذا في المعجم.

ورأيت في كتاب تاج اللغة وصحاح العربية من تأليف أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي رحمه الله: ويترب بفتح التاء موضع قريب من اليمامة، وأنشد البيت وضبطه يترب، لأن العمالقة كانت من اليمامة، وكان عرقوب هذا من العمالقة، أتاه أخ له يسأله شيئاً فقال له: إذا أطلع نخلي، فلما أطلع قال: إذا أبلح. فلما أبلح قال:

إذا أزهى. فلما أزهى قال: إذا أرطب. فلما أرطب قال: إذا صار تمراً، فلما صار تمراً جذّه من الليل ولم يعطه شيئاً. فضرب به المثل في خلف الوعد. وأوّل التمر: طلع، ثم خلال، ثم بلح، ثم بسر، ثم رطب، ثم تمر. وكذلك يقال للنبت أوّل ما يطلع: نجم، ثم فرخ وقصب، ثم أعصب، ثم سبل، ثم سنبل، ثم أحب وألف، ثم أسفى، ثم أفرك، ثم أحصد.

رأيت من الجفا ذكر المدينه ... وتركي مكة وبها السكينه
وكنت نزيلها فرحلت عنها ... فأشواقي لذلكم ركينه
فها أنا ذا سأذكرها ونفسي ... لذكراها بشوق مستكينه
ألا لله أيام غنينا ... بها ومكانة فيها مكينه

تقدّم القول في مكة وبكة شرّفها الله تعالى، ولي فيها وفي ذكر البيت أبيات في قصيدة مطوّلة قلتها في طريق الحج فوق المائة، منها:

عذلت وأنت معذور لعمري ... لأنك لم تر البيت الحراما
ولم تر مكة الغرّاء يوماً ... ولم تشهد مشاهدها العظاما

قال البكري: من أسمائها صلاح، وأنشد:

وإتياني صلاحاً لي صلاح

قال: وقال حرب بن أمية لأبي مطر الحضرمي يدعوه إلى نزول مكة:

أبا مطر هلمّ إلى صلاح ... فتكفنك الندامى من قريش
وتسكن بلدة عزت قديماً ... وتأمن أن يزورك رب جيش

قال: وقال كراع: من أسماء مكة: الرأس، وأنشد:

وفي الرأس آيات لِمن كان ذا حجا ... وفي مدين العليا وفي موضع الحجر

وقال أيضاً: العرش اسم لمكة، والقادس: اسم للبيت الحرام، سمي بذلك من التقديس والتطهير. وقال المطرز عن الفضل: من أسماء مكة: المقدسة، والنساسة؛ بسينين مهملتين؛ وأم رحم. قال: وقال الخطابي من أسمائها: الباسة؛ لأنها تبس من ألحد فيها، ويقال لها أيضاً: الناسة؛ بالنون؛ لأنها تنس من ألحد فيها؛ أي: تطرده؛ والنس: الطرد. وقال أيضاً تسمى: كوثى؛ ببقعة فيها تسمى كوثى؛ وهي محلة بني عبد الدار.

ولما أن ذكرت مكة والمدينة بما تقدّم، أردت أن ألحق بهما أيضاً أسماء زمزم، فقلت:

لعمرك إن تركي زمزماً لا ... أسميها لمن باب العقوق

وكيف وماؤها بردت منه أواراتي أحرّ من الحريق
وأرجو من سقايته هنا أن سيسقيني كذاك من الرحيق
أزمزم ها أنا أسميك أيضاً لما قدّمت عندي من حقوق
وما المحمود إلا الله ربي ورب الكل والبيت العتيق

قال البكري: زمزم بئر بمكة معروفة. وفيها لغات: زمزم، وزمزِمٌ؛ بتشديد الميم وكسر الزاي الثانية؛ وهي: الشباعة؛ بتشديد الشين المعجمة وتشديد الباء أخت التاء والعين المهملة؛ وهي ركضة جبريل عليه السلام، وحفير عبد المطلب، وسميت زمزم لأن عبد المطلب أري في منامه: احفر زمزم. وقال بعضهم: إنما هي مشتقة من قولهم: ماء زمزوم وزمزام أي: كثير. وقال أبو إسحاق الحربي: سميت زمزم: لتزمزم الماء فيها؛ وهي حركته، والزمزمة: الصوت تسمع له دوياً. وفي الحديث: إنها هزمة جبريل، أي: ضرب برجله فنبع الماء، والهزمة: تطامن في الأرض، والهزائم: الآبار الكثيرة الماء. قال الطرماح:

أنا الطرماح وعمي حاتم والبحر حين تنكسر الهزائم

ويروى في الحديث: إنها همزة جبريل؛ بتقديم الميم على الزاي؛ كما أتى في مبتدأ حديث الوضوء: إن جبريل همز للنبي صلى الله عليه وسلم بعقبه في الوادي فنبع الماء. وروى الجرمي من طريق حميد بن هلال عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: زمزم طعام طعم، وشفاء سقم. نقلت هذا من معجم ما استعجم.

ومن غيره من قوله عليه الصلاة والسلام: ماء زمزم لما شرب له. وإن شربته تستشفي به، شفاك الله عز وجل، وإن شربته لشبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمائك قطعه، وهي هزمة جبريل، وسقاه الله تعالى إسماعيل.

قلت: وأما أنا فقد جربت هذا فوجدته صحيحاً، على أني لم أشربه إلا على يقين من هذا وتصديق بالحديث والحمد لله. وأما عمق البئر؛ فذرعت الحبل الذي كنت أستسقي به فوجدته عشر قامات. وأما طعم الماء ساعة يخرج من البئر فيخيل إليك أنه ماء شيب بلبن حار رطب لين فيه مرارة، فإذا برد وجدت فيه قليل مرارة، ولكن مع ذلك فعليه كنت أفطر وبه كنت أتبرك، ولقد رأيت بركته. والحمد لله على جميع نعمه.

فصل:

وتقدّم أيضاً في الشعر الذي ذكر: العير؛ وهو الحمار؛ فلنذكر بعض ما فيه من الأخبار. كان المصطفى المختار صلى الله عليه وسلم على شرفه يركب الحمار. خرج

الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان صلى الله عليه وسلم يعود المرضى، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد. وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف، عليه إكاف من ليف. وخرج أبو داود عن بريدة قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي جاء رجل ومعه حمار؛ فقال: يا رسول الله اركب، وتأخر الرجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأنت أحق بصدر دابتك مني إلا أن تجعله لي. قال: فإني قد جعلته لك. فركبه. وفي الحديث: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما افتتح خيبر أصاب بها حماراً، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم، فكلمه الحمار بقدرة الله عز وجل، وقال: اسمي زياد بن شهاب. فسماه النبي صلى الله عليه وسلم: يعفوراً؛ وقيل: عفيراً، وكان يوجهه إلى دور أصحابه فيضرب عليهم الباب برأسه ويستدعيهم. ولما مات النبي صلى الله عليه وسلم تردى في بئر جزعاً وحزناً فمات. وهذا قليل من معجزاته وآياته التي دوّن الناس فيها الدواوين وملئت منها الصحف.

ويكفيه كرامة وفضيلة المنزلة المعروفة بالوسيلة التي جلبت هذه الكلمات بسببها نفعنا الله بها. قال الخطابي رحمه الله: سمى حماره اليعفور لعفرة لونه، والعفرة: حمرة يخالطها بياض. يقال: أعفر ويعفور، وأخضر ويخضور، وأصفر ويصفور، وأحمر ويحمور. قال الشاعر:

غيـــر أن شـــطي دجلـــة اليخـــضور

ويروى أن الحمار قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أنا زياد بن شهاب، وقد كان آبائي ستون حماراً كلهم ركبه نبي فاركبني أنت.

قلت: ليس في ركوب الحمار من عار إذا ركبه المصطفى المختار وأصحابه الأخيار. وقد تقدّم حديث حمار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. خرج الأصبهاني في كتاب الأمثال أنه قال: كان خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشي يختاران ركوب الحمير على ركوب البراذين، ويجعلان أبا سيارة لهما قدوة. أما خالد فإن بعض أشراف البصرة تلقاه فرآه على حمار فقال: ما هذا المركب؟. فقال: عير يحمل الرحلة، ويبلغ العقبة، ويقل داؤه، ويخف دواؤه، ويمنعني أن أكون جباراً في الأرض أو أكون من المفسدين. ولولا ما في الحمار من المنفعة ما امتطى أبو سيارة ظهر عير أربعين سنة.

وأما الفضل بن عيسى فإنه سئل أيضاً عن ركوبه الحمار؟. فقال: لأنه أقل الدواب مؤونة وأكثرها معونة، وأسهلها جماحاً وأسلمها صريعاً، وأخفضها مهوى وأقربها مرتقى، ترى راكبه وقد تواضع بركوبه، ويسمى مقتصداً، وقد أسرف في ثمنه، ولو شاء عميلة بن خالد أبو سيارة أن يركب في الموسم جملاً مهرياً أو فرساً عربياً لفعل، ولكنه

امتطى عيراً أربعين سنة. فسمع كلامه أعرابي فعارضه فقال: إن الحمار إن وقفته أدلى وإن تركته ولى، كثير الروث قليل الغوث، سريع إلى الفرارة بطيء في المفازة، لا تودى به الدماء ولا تمهر به النساء ولا يحلب في الإناء.

وأبو سيارة المتقدّم الذكر: رجل من عدوان اسمه كما تقدّم: عميلة بن خالد، كان له حمار أسود أجاز عليه الناس من المزدلفة إلى منى أربعين سنة، وكان يقف فيقول: أشرق ثبير كيما نغير ويقول:

خلوا الطريق عن أبي سياره وعن مواليه بني فزاره

حتى يجيز سالماً حماره

ويقول:

لا هم إني تابع تباعه إن كان إثم فعلى قضاعه

ويقول:

لا هم ما لي في الحمار الأسود أصبحت بين العالمين أحسد

أفق أبا سيارة المحسد من شر قال حاسد إذ يحسد

ومن أذاة النافثين في العقد

وقال الخطابي: كان حمار أبي سيارة أتاناً عوراء، رسنها ليف، وهي التي يضرب بها المثل فيقال: أصح من عير أبي سيارة. وكان يقول: اللهم حبب بين نسائنا، وبغض بين رعائنا، واجعل المال في سمحائنا. يريد بقوله: بغض بين رعائنا؛ لأنهم إذا تحابوا اجتمعوا في المرعى فأضر ذلك بالماشية، وإذا تباغضوا تفرقوا فرعت أنعامهم واتسعوا في المرعى.

وخرج ثابت من حديث الشعبي قال: كان رجل يشهد المواسم فلا يزيد على هذا الدعاء: اللهم أصلح بين نسائنا، وأفسد بين رعائنا، واجعل المال عند خيارنا. قال: فقيل له: إنك لو دعوت بغير هذا فإن الناس لا يدعون بهذا. فقال: الناس لا يدرون أنه إذا أصلح بين نسائنا يصلح الذي بيننا، وإذا أفسد بين رعائنا دل بعضهم على بعض، وإذا كان المال في خيارنا فأصابتنا عسرة عادوا علينا. ومما قيل في ركوب الحمار:

وما عن رضا كان الحمار مطيتي ولكن من يمشي سيرضى بما ركب

وفي ركوب الحمار التواضع لركوب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه. وخرج الترمذي رحمه الله عن النبي صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان. ثم خرج بعد ذلك حديثاً عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: يقولون فيّ التيه، وقد

ركبت الحمار، ولبست الشملة، وقد حلبت الشاة. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من فعل هذا فليس فيه من الكبر شيء.

وقد جاء ذكر الحمار في القرآن مفرداً ومجموعاً، قال الله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [النحل: ٨]، وقال: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ [المدثر: ٥٠]، ويجمع أيضاً على: حمر؛ بسكون الميم؛ وحمران وأحمرة. والأنثى: أتان، وربما قلوا: حمارة، وفي الحديث من ذكره كثير.

وجاء في صفة حمار الدجال؛ لعنه الله: وله حمار يركبه، عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً. وقال عليه الصلاة والسلام؛ وذكر الدجال: ولا يسخر له من المطايا إلا حمار.

وأذكر لك بعض فصل جزل كتب به إليّ الفقيه الخطيب أبو محمد رضي الله عنه، وقد كلفني أن أشتري له حماراً، وقال: من صفته أن يكون مليح النبات، صحيح الشبات، فسيح الوثبات، يشعر بالمشير وذى الإيماء، ويصبر على قلة الشعير والماء. في كلام طويل جميل اختصرته.

فكتبت إليه أنا أيضاً، والحديث يجر بعضه بعضاً: أدام الله سعادتك، كما جعل الخير عادتك، طلبتني بحمار لا يوجد في هذه الديار، قليل العثار إذا الغبار نار، ينجي من الوقعات في زمان النقعات، سليم الشفة وسيم الصفة، من نعمته كذا وكذا، يصبر على الكد والأذى، ويرضى باليسير من الشعير، ويقنع بالهواء من الماء، ويفهم المراد بالغمز لا بالهمز، ثم حصرت في التقاضي فقلت: هذه مسألة مسخ القاضي. في كلام كذلك طويل ثقيل، آخره:

يفتح الله في طريق الحمار	طرق الجد غير طرق الخمار
سوف أسعى وأجهد النفس فيه	وأخوض الغمار بعد الغمار
وأسوم التجار من بدوي	أو جناوي أسود أو غماري
فإذا ساقه الإله فقولوا	رحم الله مشتري ذا الحمار

والرسالتان بكمالهما في التكميل. أستغفر الله مما لا يرضاه وأسأله الخير فيما قضاه وأمضاه.

خرجت من شيء إلى غيره	والصمت عندي لو قضى أسلم
لكن سآتيك بكفارة	عنه حديث ساقه مسلم
فيه حمار دائر بالرحى	يا رب سلّم إنك الأكرم

خرج مسلم بسنده إلى أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان ما لك؟! ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟. فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه.

اللهم اجعل ما أثبت في هذا الكتاب من قولك الحق الفصل، وكلام رسولك الصادق الجزل، كفارة لما فيه من قولي الهزل، إن ذلك عليك سهل، وأنت لذلك أهل، وأنت على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

خرجت من شيء إلى غيره ... أفرش طوراً ثم قد أعرش
كذلك الكيس في علمه ... يشرق أحياناً وقد يعطش
يستنزل العلم ولو للسمار ... طار ومن تحت الثرى ينبش
حتى إذا جمع أشتاته ... واستنبط الري لمن يعطش
ظل ينادي الماء لله يا ... قوم اكرعوا ثم اشربوا وانتشوا

***

وذا فصل الفوائد قد تقضى ... وآخذ بعد في ألف وهاء
فدونك فاستمعه فهو علم ... وإن العلم نور ذو بهاء

باب الألف مع الهاء

وآه وآه وها ... وهاء وهاء وهل وهل

وهذا البيت أيضاً لم أقدر على تتميمه إلا بمعكوسه ومستقيمه، فعوّل على الكلام والسلام. أما الثلاثة الأول: فصوت المتأوّه، وذكر منها ابن عزيز: آه، وذكر معها: أوه، وأوه، وأو، وأوّاه، وقال: هي خمس لغات في التأوّه حين فسر قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، قال أوّاه: دعاء، ويقال: كثير التأوه؛ أي: التوجع شفقاً وفرقاً، والتأوّه: أن يقول: أوه، وذكر باقي الكلمات. وذكر صاحب العين: آه؛ كلمة توجّع؛ يقال: تأوّه وتهوّه: إذا تفجع، وآه يؤوه: إذا قال: أوه، قال الشاعر:

فأوه لذكراها إذا ما ذكرتها ... ومن بعد أرض دونها وسماء

وجاء في الحديث من أوّاه قوله عليه الصلاة والسلام للرجل الذي دفنه بالليل وأسرجه بسراج: رحمك الله إنك كنت لأوّاهاً تلاءً للقرآن. وقد تقدّم. وجاء من هذا في

العلم: إذا تثاءب أحدكم فليضع يده على فيه، ولا يقل: آه آه، فإن آه من الشيطان، كذا رأيته في بعض الكتب آه. وأما الذي ذكره البخاري فإنه: هاء، وسيأتي ذكره في هذا الباب إن شاء الله تعالى. والأهة: التحزن. يقال: تأوه الرجل أهة وآهة، وقال الشاعر:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوّه أهة الرجل الحزين

كما قال أبو مرة المكي:

آه من الحب آه من كبدي إن لم أمت في غد فبعد غد

ويقال: أوهة لك، في موضع مشقة وهم وحزن. ويقال: أوّه من كذا، على معنى التذكر والحزن. وللخطيب أبي محمد رحمه الله من قطعة:

أحسن الله لي عزاي بنفسي ثم أوه وإن كان يحسن أوه

وقد تعرب هذه اللفظة وتجري بوجوه الإعراب قال الشاعر فأحسن:

أواه أواه وكم ذا أرى أكثر من تكرار أوّاه

ما لي حول لا ولا قوة الحول والقوة لله

وجاء في الحديث من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذي ابتاع التمر بالتمر متفاضلاً: أوه عين الربا.

ومن شكل: واه؛ واه؛ والواو من نفس الكلمة. والواهي: الضعيف وفي التنزيل: ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٦] أي: ضعيفة. وفي الحديث: المؤمن واه راقع. يعني: الذي يذنب فيصير بمنزلة السقاء الواهي الذي لا يمسك الماء. شبه الزّالّ الخاطي به، والراقع: الذي يتوب فيرقع ما وهى بالتوبة. يقال للسقاء إذا تفتق خرزه: قد وهى يهي.

ومعكوس واه: هاو؛ أي: ساقط، يقال: هوى يهوي: إذا سقط، وفي القرآن العزيز: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١] أي: سقط، على مذهب من جعل النجم واحد النجوم، وقيل في النجم: إنه الثريا، والعرب تسجع بها تقول: إذا طلع النجم غديه ابتغى الراعي شكيه، وذلك في زمن الصيف، والشكية: زقيق صغير يحمل فيه الماء، وقد تقدّم. وتقول في ضده في الشتاء: إذا طلع النجم عشيه ابتغى الراعي كسيه.

ومن قال النجم هنا: القرآن، فمعنى ﴿ هَوَىٰ ﴾: نزل، أو: هوى به جبريل عليه السلام وقوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ٦] النجم: ما كان من النبات على غير ساق، والشجر ما كان على ساق. وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه: ٨١] أي: هوى في النار، والهاوية اسم من أسماء جهنم،

وهو الباب الأسفل منها، تهوي بأهلها من أعلاها إلى أسفلها. نعوذ بالله من عذابه.

والهوي في السير: المضي والسرعة. هوت الوحشية: إذا عدت. وقال الخطابي: هوى يهوي هوياً؛ بالفتح؛ إذا هبط، وهوياً؛ بالضم؛ إذا صعد. وقوله: ﴿ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ [الحج: ٣١] أي: تمر به في سرعة، والهواء؛ مهموز؛ ممدود: الفضاء ما بين السماء والأرض، وقوله تعالى: ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي: لا تعي شيئاً ولا تعقل.

وقال ابن عرفة: ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ مفسر في قوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ﴾ [غافر: ١٨]، فهذا إعلام أن القلوب قد فارقت الأفئدة، فالأفئدة: هواء لا شيء فيها، والهواء المنخرق قال غيره: هواء بين الصدر والحلق، فلا تخرج من الحلق ولا ترجع إلى الصدر. وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هواء: خالية من كل خير. وقال أبو عبيدة: وكذلك كل شيء أجوف وخاو فهو عند العرب هواء، وأنشد:

كأن الرحل منها فوق صعل ... من الظلماء جؤجؤه هواء

أي: ليس لعظمه مخ. والهوى؛ مقصور: هوى الحب، تقول: هوى يهوى هوى. قال أبو جعفر النحاس في المعاني: الهوى في القرآن مذموم، والعرب لا تستعمله إلا في الشر، فأما في الخير فيستعملون الشهوة والنية والمحبة. انتهى كلامه.

وجاء من الهوى في الحديث قول عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عليه: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [الأحزاب: ٥١] الآية: والله ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك. وإذا أضفت الهوى إليك قلت: هواي، مثل قفاي. ومن العرب من يقول: هويّ. وقد تقدّم: قفيّ. قال الشاعر:

سبقوا هويّ وأعتقوا لهواهم ... فتخرّموا ولكل جنب مصرع

وهذه لغة هذيل تقول: مضى هويّ من الليل، وعلى وزن فعيل أي: هزيع، والهواهي: الأباطيل والهوهاء؛ بالمد: الرجل الأحمق، فإذا زدت ألفاً على: هوى؛ جاء منه: أهوى، مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ [النجم: ٥٣]، معناه: أسقط. يقال: هوى زيد وأهواه الله؛ أي: أسقطه، كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط عليهما السلام، رفعها بجناحه حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصراخ الديكة، ثم قلبها. وقال البخاري: أهوى: ألقاه في هوة، وقال غيره: المؤتفكة: المنقلبة. والهوة: الحفرة

القصيرة، ويقال لها مهواة. وفي الحديث: إذا غرستم فاجتنبوا هوي الأرض فإنها مأوى الهوام. وجمع هوة هوى، وجمع مهواة: مهاوي. ولي من هذه اللفظة أبيات لزومية، وقد تقدّمت.

فاحذر طريق المعاصي ... فإن فيها مهاوي
وكل من سار فيها ... فإنه ثم هاوي
وللهوى هوة من ... هوى فيها فهو تاوي
اتركه رأساً أخي لا ... تركن إليه وتاوي

معكوس آه: هاء. هي حرف هجاء، ومن حروف الحلق، ومن الحروف الرخوة، ومن الحروف الزوائد. وقد أفرغت لها القول في كم من موضع تزاد في آخر الباب والحمد لله، وهي للتنبيه في قوله: هاء زيد: إذا ناديته، وأختها الهمزة، لأنك تقول في النداء: أزيد. وكثيراً ما تفعل العرب هذا. يقولون: أرقت الماء وهرقت، وأم والله وهم والله، حوّلوا الهمزة هاء لقرب المخرج. والمراد بالهاء التي للتنبيه إيقاظ الغافل وتنبيهه لسماع الكلام الوكيد، كما جعلوا في كلامهم: ألا، استفتاحاً، وأما بعد، توطئة للكلام الذي بعده نعم. والنداء نفسه يقولون: يا فلان اسمع كذا وكذا، وليس بعيداً منه فيحتاج إلى استدعائه، وكذلك قولهم: أعزك الله كان كذا وكذا مع ما في ذلك من حسن الأدب ولين القول. وسأ وهأ: من زجر الإبل، وهاء بمعنى: دعا بها ويكون للإجابة. وقال ابن قتيبة: هأهأت بها للعلف، وقد تقدّم في باب الجيم عند ذكر: جأجأت بها: إذا دعوتها للشرب، وهي مثل ذلك.

ومما جاء في القرآن من: ها التي للتنبيه: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ ﴾ [آل عمران: ٦٦] على اختلاف القراء فيه. منهم من قرأها: (آنتم) بالمد والهمز كما تقدّم. ومنهم من قرأ: (هأنتم) بالهمز غير ممدود على مثل: هعنتم. ومنهم من قرأها: (انتم) بغير همز وإشباع الهاء. فمن قرأها: (أنتم) جاء به على الأصل. دخلت ها التي للتنبيه على أنتم، ويجوز أن تكون الهاء مبدلة من همزة ودخلت الألف بين الألف والهمزة كما دخلت في أنتم. ووجه من حذف الهمزة إذا قدّرها للتنبيه أنها قد اتصلت بالكلمة حتى صارت كأنها كلمة واحدة. ومن قرأها: (أنتم) على مثال: هعنتم؛ حذف الألف لكثرة الاستعمال. وذكر أكثر ذلك المهدوي رحمه الله. وكذلك الهاء في هذا وهذه وغير ذلك جعلوها للتنبيه، ولذلك قال النابغة:

ها إن تا عذرة إلا تكن نفعت ... فإن صاحبها قد تاه في البلد

العذرة: المعذرة. ومنه المثل: يأبى الحقين العذرة. الحقين: الوطب المملوء قد

حقن رأسه. والوطب: زق اللبن؛ والهاء ضمير المؤنث. وإذا وقفت على تاء التأنيث في مثل: قائمة وقاعدة وقفت بالهاء، وتجيء في آخر الكلمة للندبة، وسيجيء الكلام عليها في آخر هذا الباب إن شاء الله تعالى. وتكون للسكت في مثل قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، و: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقد ذكر عياض رحمه الله في هذا المعنى فصلاً جزلاً أعجبني فكتبته هنا.

قال في كتاب حديث أم زرع المتقدّم الذكر: وقع في بعض الروايات: أذنيه وعضديه وفرعيه وإليه، وهذه هاء السكت الملحقة في الوقف وانقطاع الصوت، وبعضهم يسميها: هاء الاستراحة، وهي تلحق الأسماء والأفعال والحروف لثلاث علل: لصحة الحركة التي في آخر الكلمة قبلها وتبينها كقوله: غلاميه وماليه ولم يغزه ولم يتسنه، عند بعضهم. وأنه بمعنى: نعم، ولعله وابنه، وأشباه هذا. ولتمام الكلام المنقوص واستقلاله بها كقوله: عمه ولمه وقه ولا تسنه. والوجه الثالث للمحاجة عند مدّ الصوت قبلها في آخر الكلمة وذلك في النداء والندبة، وقد ألحقوها في الأسماء غير المتمكنة إذا كان قبلها ألف لضعف الألف نحو: هناه وها ولاه، ولم يفعلوا ذلك في المتمكنة وبعد الكنايات، فقالوا: ضربتكه، وضربته، وأبيه، وغلاميه، وغلامایاه، قال: وقال المهدوي في قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ معناه: لم يتغير. وقال مجاهد: لم ينتن. قال: ويجوز أن يكون أصله من سانيته مساناة؛ أي: عاملته سنة بعد سنة، أو من سانهت، فإن كان من: سانيت فأصله: يتسنى، فسقطت الألف للجزم، وأصله من الواو بدليل قولهم: سنوات، والهاء فيه للسكت. وإن كان من سانهت؛ فالهاء لام الفعل، وأصل سنة على هذا: سنهة، وعلى القول الأوّل سنوة، وقيل: هو من: أسن الماء إذا تغير، وكان يجب على هذا أن يكون يتأسن. وقال أبو عمرو الشيباني هو من قوله تعالى: ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٦] والمعنى: لم يتغير. قال الزجاج: وليس كذلك، لأن قوله: (مسنون) ليس معناه مغيراً، وإنّما معناه مصبوب على سنة الأرض، وأصله على قول الشيباني: يتسنن، فأبدلت إحدى النونين ألفاً كراهية التضعيف، فصار يتسنى، ثم سقطت الألف للجزم ودخلت الهاء للسكت. وقرأ حمزة بحذف الهاء من (يتسنه) في الوصل، وكذلك (اقتده) في الأنعام، و(ماليه) و(سلطانيه) في الحاقة، و(ما أدراك ما هيه) في القارعة، وحذفها فيهن ابن محيصن وسلام ويعقوب، وزادوا (كتابيه وحسابيه) وحذف الكسائي من ذلك في (يتسنه) و(اقتده) وأثبتها الباقون فيهنّ في الحالين. غير أن ابن ذكوان يصل الهاء بياء في (اقتدهي) وهشام يكسر الهاء من غير صلة، فمن حذف الهاء

من القراء في الوصل فهو الأصل، لأنها للوقف تتبين بها الحركة، ومن أثبتها حمل الوصل على الوقف وقدّر الوقف عليها، وحذف الكسائي الهاء في (يتسنه) و(اقتده) خاصة على الجمع بين اللغتين، وكسر الكسائي الهاء من (اقتده) على أن ضمير المصدر كأنه قال: اقتد الاقتداء، وحذف الصلة على تقدير الياء التي كانت قبل الهاء لأن سقوطها عارض، ولو كانت موجودة لحذفت الصلة معها، وإثبات الصلة مراعاة للفظ، لأن الهاء قبلها كسرة والياء معدومة في اللفظ. انتهى كلامه.

قلت: وقد ذكرت لك في باب النون كيف تزاد الهاء ثم تبدل تاء للضرورة. وجاء في الحديث من ذكر الهاء: لا هاء الله ذا، يروى بالهمز وتركه. وقال أبو عثمان المازني: من قال: لا هاء الله؛ فقد أخطأ، إنما هو: لا هاء الله ذا؛ أي: ذا يميني وذا قسمي. وقال بعضهم: ذا صلة. وقال أبو حاتم: يقال في القسم: لا هاء الله ذا، والعرب تقول: لا هاء الله ذا؛ بالهمز؛ والقياس ترك الهمز، والمعنى: لا والله هذا ما أقسم به، فأدخل اسم الله بين ها وذا. والله أعلم.

وأما: هاء وهاء، فقد ورد بها الحديث في قوله عليه الصلاة والسلام: التمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء. وكذلك قال في الشعير والبرّ وغير ذلك. معناه والله أعلم: إلا حاضراً بحاضر، بحيث تأخذ وتعطي، لأن هاء كلمة تستعمل عند المناولة، تقول: هاء وهاء يا رجل، فيقول: ما أدري ما هاء، معناه: خذ وتناول، وتأمر بها ولا تنهي، وتقول: ما أهائيك بمعنى: ما أعاطيك، وكذلك تبنيه على ما لم يسم فاعله، فتقول: ما أهاء؛ أي: ما أعطي، وفي الحديث عن مجاهد قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسيماكم وحلاكم ومجالسكم ونجواكم، فإذا كان يوم القيامة قيل: يا فلان ابن فلان ها نورك، ويا فلان ابن فلان لا نور لك. وفي الحديث: سأل سائل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا بتمرة عابرة، فقال: خذها، لو لم تأتها لأتتك. وجاء في الحديث من قول الحارث البكري إذ قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عجوز، فقال في كلام كثير: وها هي ذه بالباب. قال ثابت: وفيها لغة أخرى عن أبي زيد قال: تقول العرب: ها هو ذه للمرأة، احتساباً بالهاء، وقال: سمعت رجلاً من غني يقول حين قال أين فلان: ها هوّ ذا؛ بفتح الهاء مع الواو وتشديد الواو؛ وسمعت رجلاً من بني تميم يقول: ها هو ذا؛ بفتحها من غير تشديد. ويقال: هاء بالمد؛ بمعنى التلبية، وتكون أيضاً بمعنى النداء، وقد تقدّم. ومنه قوله تعالى: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩]، قال أبو زيد المعنى: تعالوا، وقال بعض أهل اللغة: أصل هاؤم: هاكم، أبدلت الكاف همزة. وقال يعقوب تقول: هاء يا رجل، وهاؤما يا رجلان، وهاؤم يا رجال، وهاء يا امرأة؛ مكسورة الألف؛

وهاؤما يا امرأتان، وهاؤن يا نساء. وفيه لغة أخرى: هأ يا رجل؛ مثل خف؛ وللاثنين: هاآ؛ مثل خافا؛ وللجمع: هاؤا، وللمرأة: هائي؛ بياء؛ وللمرأتين: هاآ، وللجميع: هئن مثل خفن. وفيه لغة ثالثة: هاء يا رجل؛ بهمزة مكسورة؛ وللاثنين: هائيا، وللجميع: هائين. وتقول: هات يا رجل، وللاثنين: هاتيا، وللجميع: هاتوا، وللمرأة الواحدة: هاتي، وللمرأتين: هاتيا، وللجميع: هاتين، ويقال: هات لأهاتيك، وهات إن كانت بك مهاتاة. وقال الخليل: أصل هات من: آت؛ فقلبت الألف هاء، ويقال: هاء الرجل بنفسه إلى المعالي: إذا نهض نحوها، ويقال: هيهيت بالإبل هيهاة وهيهاء: إذا زجرتها فقلت ها وهيا، كما تقدّم. وقيل: كان من نسل آدم عليه السلام: هيّ فانقرض نسله، ويقال: هي ابن بيّ، وهيان ابن بيان؛ اسم من لا يعرف، ويقال له أيضاً: بهل ابن بهلان، وأنشد:

لكـــنّ قائلـــه بهـــل ابـــن بهلانـــا

ويقال له أيضاً: صلعمة ابن قلعمة، وتقول: رجل هوهاة: جبان أحمق، وهياه: من أسماء الشياطين، وقولهم: يا هيّ ما لي: كلمة أسف وتلهف، وأنشد فقال:

يـا هـيّ مـا لـي مـن يعمـر يفنـه ... مـرّ الـزمان علـيه والتقلـيب

والهيئة: الشارة، تقول: فلان حسن الهيئة والهيئة، وتقول: هئت للأمر أهيء هيئة وتهيأت تهيؤاً بمعنى، وهيهات: كلمة معناها البعد، وفيها لغات: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ﴾ [المؤمنون: ٣٦] بفتح التاء؛ وهي قراءة السبعة، وقرأ ابن القعقاع (هيهات هيهات) بالكسر، وقرأ عيسى الثقفي (هيهات هيهات) بالتنوين، وقرأ عيسى الهمداني (هيهات هيهات) بالإسكان، قاله المهدوي. وفسر هذه اللفظة بأنها البعد، يقال: هيهات ما قلت، وهيهات لما قلت؛ أي: البعيد ما قلت، والبعد لما قلت.

فمن فتح التاء فتحها إتباعاً للألف والفتحة التي قبلها، وهو عنده اسم واحد ينوب عن البعد، والمراد فيها التعريف، كأنه قال: البعد البعد، ومن سكن حمل الوصل على الوقف، وإذا لم يكن بعد هيهات رفع ما بعدها بالابتداء، كما قال الشاعر:

هـــيهات هـــيهات العقـــيق وأهلـــه ... وهـــيهات خـــل بالعقـــيق أو أصلـــه

ويقال: هيهات هيهات، وأيهات أيهات، وأيهان أيهان، وآيهات آيهات، وآيهان آيهان، حكاه المهدوي أيضاً بالهاء عن اللحياني. ويوقف على آخرها بالتاء، كما يوقف على بيضات، ويوقف أيضاً بالهاء على مثال: علقاه.

بقي مقلوب هي المتقدّم، وذلك يه: حكاية الراعي للإبل المهيه [اسم فاعل؛ كمحدث] بها تقول يهيهت بالإبل: إذا دعوتها فقلت ياه ياه، وإذا وصلت قلت: ياهياه، ومنهم من ينصب الهاء.

رجع الكلام إلى الهاء، قد تأتي هاه حكاية صوت المتثائب، جاء منه في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، فإذا عطس فحمد الله فحقّ على كل مسلم سمعه أن يسمته. يقال: سمته؛ بالسين المهملة؛ مأخوذة من السمت وهو: المقصد والمحجة، وهو أحسن، قاله ثعلب. وقال أبو عبيد: بالشين أعلى في كلامهم وأكثر. وأما التثاؤب فإنّما هو من الشيطان فليردّه ما استطاع، فإذا قال: ها، ضحك منه الشيطان. خرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

مقلوب إحدى كلمات البيت: حرف بين ألفين: اها؛ كلمة توجع وهي: آه المتقدّمة، أعربتها كما تقول: آه، فتقول من هذا: آهاً لزيد، ويحتمل أن يكون من واهاً، أبدلت الواو همزة مثل ما تقدّم في: هازيد وأزيد، وهرقت وأرقت، قال الشاعر:

واهـــاً لـــريا ثـــم واهـــاً واهـــا   يـــا لـــيت عيـــناها لـــنا وفاهـــا

بـــــثمن نرضـــــي بـــــه أباهـــــا

كذا وقع في الدلائل عيناها، وهي لغة لبعض العرب، وقد تقدّم الكلام على ذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ ﴾ [طه: ٦٣]، وأهاء: فعل من قولك: هئت أهاء: إذا تهيأت، والهيئ على وزن فعيل: الحسن الهيئة، وأها اها: حكاية صوت الضاحك، قال الشاعر:

اهـــا اهـــا عـــند زاد القـــوم ضـــحكتهم

وتدخل الألف الاستفهام على هاه فتقول أهاه كتبت أم تاه.

مقلوبها أيضاً ألف بين حرفين: هاه؛ كلمة وعيد، وهاه أيضاً: حكاية للنوح، وهاه أيضاً: حكاية للضحك، وتقول: هي للمرأة، وهو للرجل، وهو حكاية المهوهي، وتقول: وهوه الكلب في صوته؛ وكذلك الرجل. وحمار وهواه: يوهوه حول عانته مثقفاً لها؛ العانة: جماعة حمير الوحش؛ كما يقال لجماعة الظباء والبقر: إجل، ولجماعة النعام: خيط، ولجماعة الجراد: رجل، ولجماعة القطا والنساء: سرب. وقد تقدّم: دبر وثول وخشرم ولوب ونوب: لجماعة النحل. وقد استقصى أبو محمد بن قتيبة رحمه الله هذا الباب فانظره في أدب الكاتب. وقال صاحب كتاب العين: الشول لا واحد له من لفظه.

تقدّم أها بقي إيه: كلمة استزادة واستنطاق، وقد تنوّن فيقال: إيه حدثنا، وكان الأصمعي رحمه الله يقول: لحن ذو الرمة في قوله:

وقفـــنا فقلـــنا إيـــه عـــن أم ســـالم   ومـــا بـــال تكلـــيم الـــديار الـــبلاقع

كان ينبغي أن يقول: إيه. قال يعقوب: تقول للرجل إذا استزدته من عمل أو

حديث: إيه، بغير تنوين؛ فإن وصلت قلت: إيه حدثنا، بالتنوين؛ وقول ذي الرمة (إيه عن أم سالم) ولم ينوّن وصل لأنه نوى الوقف، وإذا سكت الرجل وكففته قلت: أيهاً عنا، وقد لا تنوّن وتقول: إيه؛ بمعنى: حسبك، وتقول أيهت بالرجل: صوّت به. ومنه حديث ابن قيس قال: سئل ملك الموت عن قبض الأرواح فقال: أؤيه بها كما يؤيه بالخيل فتجيبني. خرجه ابن قتيبة، وقال: التأييه الدعاء. يقال: أيهت للفرس فأنا أؤيه بها تأييهاً، وأيه بفلان: ادعه، وهيه: أخت إيه في الوزن والمعنى، غير أن هيه أكثر ما تستعمل ساكنة.

بقيت القافية: هل وهل، وقد تقدّم: هلّ المطر وانهلّ، وتقول: هلّ الهلال وأهلّ هلاً وإهلالاً، ودفع الأصمعي هل وقال: لا يقال إلا أهلّ وأهللنا نحن: إذ رأينا الهلال. وأجاز أبو زيد: هلّ الهلال وأهلّ، وثوب هل: إذا كان رقيقاً، وامرأة هل: إذا تفضلت في ثوب واحد في بيتها. قال الشاعر:

فتاة تزين البيت إما تفضلت ... وإن قعدت هلاً فأحسن بها هلاً

وتقول: أهلّ المحرم بالحج أو بالعمرة، وتهلّل الرجل فرحاً، والتهليل: قول لا إله إلا الله وهلّل الرجل: إذا قالها، وقد بنوا منها: هيلل، كما قالوا: حيعل وحوقل. وقد تقدّم التهليل أيضاً والهلل: الفزع والجبن. وهلل البعير: إذا استقوس هزالاً، واستهل الصبي: إذا صرخ عند سقوطه. والهلال: معلوم؛ يسمى بذلك أوّل ليلة والثانية والثالثة، ثم يقال قمر بعد ذلك إلى آخر الشهر، وتسمي العرب الهلال شهراً، قال الشاعر:

أبدأن من نجد على ثقة ... والشهر مثل قلامة الظفر

يريد الهلال.

ويقال: بدأت وأبدأت؛ بمعني واحد، وقال ابن دريد: أبدأت من أرض إلى أخرى أبدئ بدءاً: إذا خرجت منها إلى غيرها. وكان أبو زياد الأعرابي إذا رأى الهلال أخذ عوداً فحدد طرفه وأشار إليه وقال: عود عدّ عنا شرّك أيها الشهر. ذكر هذا الخطابي رحمه الله في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام: صوموا الشهر وسرّه. أي: مستهل الشهر. وقال: العرب تسمي الهلال شهراً. كما تقدّم.

والرجل يهل: إذا نظر إلى الهلال، والهليلة: الأرض يستهلها المطر، والهلهل: السم القاتل، وثوب مهلهل وهلهال: سخيف النسج، ويقال إنّما سمي الشاعر مهلهلاً لأنه أوّل من رقّق الشعر. وقد تقدّم ثوب هلّ: إذا كان رقيقاً. ويقال ماء هلاهل: صاف كثير، وهلهلت أدركه أي: كدت أدركه. وما جاء بهلة ولا بلة؛ أي: بما يفرح به.

تقدّم أهل، ومن شكله: أهلّ؛ من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾

[المائدة: ٣]، ومعناه ذكر غير اسم الله تعالى على ذبحه. وأهل زيد لكذا أي: جعل أهلاً له، ومنه: أهل الرجل، وهم زوجته وقريبه وقبيله، وجمعه: أهلون وآهال وأهلات، ومكان آهل ومأهول: ذو أهل، والتأهل: التزوّج.

بقي: (هل) كلمة استفهام، فإذا جعلته اسماً أعربته وشددته. قال الخليل: قلت لأبي الدقيش: هل لك ثريدة كأن ودكها عيون الضياون. فقال: أشد الهل وأوحاه.

وتأتي (هل) بمعنى: (قد) في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ [الإنسان: ١]، قال سيبويه رحمه الله وقيل: (هل) هنا بمنزلة همزة الاستفهام تقديره: أأتى على الإنسان، والإنسان هنا آدم عليه السلام، وفي قوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان: ٢] بنو آدم. وقال البخاري: (هل) تكون جحداً، وتكون خبراً، وهي في: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ خبر. وقال غيره: تكون (هل) شرطاً وتوبيخاً وأمراً مثل قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١]، وتدخل (لا) على (هل) فتكون تحضيضاً؛ تقول: هلا فعلت كذا وكذا، كما تقول: لولا، ولكن يشترط أن لا يكون لـ لولا جواب، فحينئذ تكون بمعنى: هلا، كما قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [هود: ١١٦]، ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ [الأنعام: ٤٣]، ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٦]، ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ [الواقعة: ٨٣]، ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ ﴾ [يونس: ٩٨]، فهذا كله بمعنى: هلاّ، وكذلك قول الشاعر في هذا المعنى:

تعدّون عقر النيب أفضل مجدكم ... بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا

أي: فهلا تعدّون الكمي الشجاع المقنع بالحديد.

ومثل (لولا): لوما في قوله تعالى: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الحجر: ٧]، يريد: هلا تأتينا، فإذا رأيت لـ (لولا) جواباً فليست بهذا المعنى نحو قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤] فهذه لولا التي تكون لأمر يمنع لوقوع غيره. وبعض المفسرين يجعل (لولا) في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ ﴾ بمعنى: لم؛ أي: فلم تكن قرية نفعها إيمانها عند نزول العذاب، ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس: ٩٨]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ [هود: ١١٦] أي: فلم

يكن. قال هذا كله ابن قتيبة رحمه الله.

فإن خففت هلا ونوّنته جاء منه هلاً: ومعناه التسكين، ومنه قول عبد الله: إذا ذكر الصالحون فحيهلاً بعمر؛ يعني: أسرع بذكره. ومعنى هلاً: أسكن عند ذكره حتى تنقضي فضائله. وقالت ليلى:

أعيرتنـــي داء بأمـــك مـــثله وأي حـــصان لا يقـــال لهـــا هـــلا

أي: اسكني للزوج. وتكون أيضاً هلا: للحث والاستعجال وهو قريب مما تقدّم هنا.

وقد تقدّم في أوّل الكتاب أيضاً طرف منه يقال: حي هل للثريد؛ ومعناه: هم إلى الثريد فتحت ياؤه لاجتماع الساكنين وبنيت حي مع هل اسماً واحداً مثل خمسة عشر، وسمي بها الفعل فيستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع، فإذا وقفت عليه وقفت حيهلا، والألف لبيان الحركة كالهاء في قوله تعالى: (كتابيه) و(حسابيه) لأن الألف من مخرج الهاء، وهلا أيضاً من زجر الخيل قال الشاعر:

نعلمهـــا حـــي وهـــلا وأرحـــب

ومعكوس هل: له؛ ضمير الغائب، وله بعملك: أمر من ولي. وجاء من هذه اللفظة في المضاعفة: اللهلهة؛ مثل: النهنهة، وأصل نهنهة: نههه بثلاث هاآت، فأبدلوا الوسطى نوناً من أجل النون الأولى وللفرق بين فعلل وفعل، واللهله: السراب، واللهله أيضاً: القبيح الوجه، واللهله أيضاً: المكان المستوي الذي ليس به علم، قال رؤبة:

ومخفـــق فـــي لهلـــه ولهلـــه فـــي مهمـــه أطـــرافه مـــن مهمـــه
أعمـــى الهـــدى بالجاهلـــين العمـــه بـــه تمطـــت غـــول كـــل مـــيله
نـــبا حـــراجيج المهـــاوي الـــنعمه يجذبـــنه بالهـــوع والـــتأوه

والميله: البلاد التي توله الإنسان؛ أي: تحيره. يقال: ماء موله ومولَه: للذي أرسل في الصحراء فذهب. والموله: العنكبوت.

تقدّم في القافية: وهل؛ والواو للعطف، فإن جعلتها أصلية جاء منه: وهل وهلاً: إذا فزع، وفي الحديث: لقيته أوّل وهلة. يقال: وهلت أوهل وهلاً؛ كما تقدّم: إذا فزع. وكل إنسان إذا رأى شيئاً لم يكن رآه قبل ذلك فإنه يرتاع له أدنى ارتياع، كأنه يقول: لقيته أوّل فزعة فزعتها للقاء الإنسان، وفي الحديث أيضاً: فقمنا وهلين من صلاتنا. أي: فزعين، والمستوهل والوهل: الضعيف القلب الجبان. ويقال: وهل؛ بمعنى: قلق، وتقول: كلمت فلاناً فما ذهب وهلى إلا إلى فلان، وكذلك ما وهلت إلى فلان. وفي الحديث من قول النبي صلى الله عليه وسلم: رأيت في المنام أني أهاجر إلى أرض بها

نخل فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو الهجر، فإذا هي المدينة يثرب. قال الأصمعي: وهل يهل وهولاً: إذا ذهب وهمه إليه. قال أبو زيد: الوهل، بإسكان الهاء، النسيان والخطأ والغلط.

ومعكوس وهل: لهو، وهو معروف. تقول: لها يلهو لهواً: إذا اشتغل بطرب أو نحوه. وفي الحديث: بئس العبد عبد سها ولها ونسي المقابر والبلى. ولهيت عن الشيء: انصرفت عنه. تقول من هذا: لهى يلهي، ومن هذا الحديث: من أشفق من النار لهى من الشهوات. ومصدره: لهياً ولهياناً، وألهاني كذا: شغلني، من قوله تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر: ١-٢]، ومنه قول عمر رضي الله عنه: ألهاني الصفق بالأسواق. واللهو مكروه شاغل عما هو أنفع منه، ولا يقع اسمه في القرآن إلا في موضع الذم، والعرب لا تستعمله إلا في الشر. فأما في الخير فيستعملون فيه الشهوة والنية والمحبة. وجاء في القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة: ١١]، قيل في التفسير اللهو هنا: إنه الطبل، والطبل أيضاً في غير هذا: الخلق، يقال: ما أدري أي الطبل هو؟ أي: أيُّ الناس، والطبل: الأصل، قال لبيد:

يستعملون من خيار الطبل

وقد يسمى الولد لهواً أيضاً، كما قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ [الأنبياء: ١٧] قيل: هو الولد، وقيل: المرأة، والتقدير: ذا لهو في القولين، وقد يكنى عن النكاح باللهو، قال امرؤ القيس:

كبرت وإن لا يحسن اللهو أمثالي

وقد جاء اللهو في القرآن مقروناً باللعب مقدّماً عليه: ﴿ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ومؤخراً عنه: ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقد أنظمت في ذلك بيتين يعرف بهما المقدّم من المؤخر، وتقدّم في أوّل الكتاب.

بقي من الكلام في: لهو لفظة فعله التي هي: لها، إذا لم تنونها فهي ضمير المؤنث أدخلت عليها اللام، كما قال الله عز وجل: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فإذا نونتها جاء منها: لهى، جمع: لهاة، اللهاة: أقصى الفم، والجمع: اللهي، كما قال الشاعر:

فقلت لها إن اللها تفتح اللهي

واللهاء أيضاً: العطاء، واحدته: لهوة ولهية. ومن لهى الذي هو اللهو قال الشاعر يلغز:

وجارية من آل حمس رأيتها لها ولد من زوجها وهي عاقر

يريد: لعب ولد من زوجها.

ومقلوب وهل: هول؛ وهو المخافة. يقال: هالني الأمر يهولني هولاً، وجمعه: أهاويل، ووقع في الحديث من هذا اللفظ: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا إليه أهاويل يراها في المنام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أويت إلى فراشك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون. والتهاويل: جمع التهويل وهو ما هالك، والتهاويل أيضاً: زينة الوشي والتصوير، وأصله في نور البقل من الألوان من الحمرة والصفرة. يقال: هولت المرأة: إذا تزينت بلباس أو حلي، قال الشاعر:

وعازب قد علا التهويل جنبته لا ينفع النعل في رقراقه الحافي

يصف يبساً، والجنبة: ما يكبر في أصول العشب من قبل المطر. يقول: لا ينتفع الحافي بنعله لأنه إنما يمشي على الربيع فلا يضره الحفاء. وتقول: أمر هائل؛ ولا تقول: مهول. وكان بعض العلماء يقولون: فلان هول من الهول، وينكر قول الناس: هول من الأهوال، وينشد:

إن المكارم يغشى دونها الهول

وقال أبو زيد: يجمع الهول على أهوال وهؤول، وأنشد:

رحلنا من بلاد بني تَميم إليك ولم تولدنا الهؤول

وقد قيل: هيل الرجل فهو: مهال.

فرغ القول في الهول، والهالة: دائرة القمر، وهالة: اسم امرأة وكذلك كان اسم هالة بنت خويلد بن أسد أخت خديجة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنها.

ومن مقلوب وهل أيضاً: وله، يقال: ولهت المرأة ولهاً وولهت تله: إذا ذهب عقلها لفقد حبيبها؛ فهي واله ووالهة وموله، والولهان: اسم شيطان يولع الإنسان بكثرة صب الماء عند الوضوء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن للوضوء شيطاناً يقال له: الولهان، فاتقوا وسواس الماء. وقد تقدّم ذكر التهويل، نسأل الله التهوين.

بقي الكلام في الهون والهون والهين والمهين. أما الهون: فالهوان من قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، تقول: أهنت الرجل واستهنت

به، وكذلك قالوا في قوله تعالى: ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ [النحل: ٥٩] أي: على هوان، وكذلك قرأها عيسى بن عمر: (أيمسكه على هوان) وقال: هوان وهون واحد، وقرأها الأعمش: (أيمسكه على سوء). وقال أبو جعفر النحاس؛ وقد ذكر هذا التفسير: والقراءة لغة قريش الهون والهوان بمعنى واحد. وكان بعض بني تميم يجعل الهون مصدر الشيء الهين. والهون بالفتح السكينة من قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، قال مجاهد: يمشون بالسكينة والوقار. قال الحسن: علماء حلماء. ويقال: تكلم فلان على هينته. وقال صاحب العين: رجل هون: حقير، وقال بعضهم: الهوينا: تصغير الهوني، والهوين: تصغير: الأهون، كقولك: الأكبر والكبرى والأدون والدنيا.

وأما الهين فمخفف من هيّن، كميت من ميّت ولين من ليّن. قال ابن الأعرابي: العرب تمدح بالهين اللين؛ مخففاً؛ وتذم بهما مثقلاً، وقال غيره: هما سواء؛ والأصل التثقيل، ثم خفف وتكادان لا تفارق هذه اللفظة أختها؛ أعني قولهم: فلان هين لين. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: المؤمنون هينون لينون. قال الذي شرح هذا الخبر: هينون لينون؛ بجزم الياء؛ لأن كسر الياء صفة مذمومة، ثم ذكر حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أوحى الله عز وجل إلى نبيه: ألا أخبرك بمن يحرم على النار؛ أو قال بمن تحرم عليه النار؛ كل هين لين سهل قريب. وفي الحديث الأوّل بعد قوله: هينون لينون كالجمل الأنوق، إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ. وأنشد شاهد على هينون لينون بالتسكين لبعضهم:

هيـنون ليـنون أيـسار ذوو يـسر ســواس مكـرمة أبـناء أيـسار

قوله في هذا البيت: أبناء أيسار؛ قال بعضهم: هو مثل قول الآخر: متمم أيسار؛ في قوله:

إنـي أتمـم أيـساري وأمـنحهم شتى الأيادي وأكسو الجفنة الأدما

الأيسار: سهام الجزور، وكان من ميسر أهل الجاهلية ينحرون الجزور ويضربون عليها بالقداح، وهي عشرة، لسبعة منها أنصباء، وثلاثة لا شيء لها، بل يكون على من خرجت له غرم ثمن الجزور كله، ولا يدخل في هذا الفعل منهم إلا الكرماء وأهل الثروة والجدة، وكانوا يتمدحون بذلك، فإن نقص واحد من عدد القوم وقام به قائم من البقية سمي متمماً وشرف بهذا الاسم في قومه لأنه يتحمل سهمه وسهم الغائب أو الناقص منهم، ولا يعطل ذلك الفعل، ويقولون للقداح إذا لم تتم على عدد الرجال قد توحدت، حتى يتمها الشريف منهم، وفي ذلك يقول سيدهم:

ولقد شهدت إذا القداح توحدت وشهدت عند الليل موقد نار

وأحد أسماء القداح التي لا سهم لها: المنيح، وأحد القداح التي لها سهام: المعلى، ولذلك قال الشاعر:

فسهمي من قطيعته المعلى وسهمي من مودته المنيح

وقد تقدّم البيت مع قولهم عن المقمور: بقي سهمه في الشمال، وهذا أمر قد نسخه الإسلام وأبطله فلا يحتاج إليه أكثر من أنك إذا سمعت البيت علمت معناه.

وقد جاء منه في الحديث ألفاظ ومعاني منها قول عليّ رضي الله عنه وذكر حديثاً طويلاً: إن المسلم ما لم يغش دناءة يخشع لها إذا ذكرت، ويغرى به لئام الناس؛ كالياسر الفالج ينتظر فوزه من قداحه. فالياسر الفالج هو الذي له السهم الفائز؛ وهو الظافر؛ وهو الياسر؛ وهو القامر وجمعه: أيسار ويسر ويسارون، ومعناها كلها: الآخذ الغالب، وضده: المقمور، والمحروم، والمغبون.

فرغ الكلام وانتهى في الهاء، بقي في كم من موضع تزاد. قال أهل اللغة: تزاد في كلام العرب على سبعة أضرب: أحدها: للفرق بين الفاعل والفاعلة نحو: ضارب وضاربة. والثاني: للفرق بين المذكر والمؤنث نحو: امرؤ وامرأة. والثالث: للفرق بين الواحد والجمع نحو: تمر وتمرة وبقر وبقرة. والرابع: لتأنيث اللفظة وإن لم يكن تأنيثها حقيقة نحو: غرفة وقربة. والخامس: للمبالغة نحو: علاّمة ونسابة وهذا مدح، ونحو: هلباجة وفقفاقة وهذا ذم، فما كان مدحاً يذهبون به إلى تأنيث الغاية والنهاية والداهية، وما كان ذماً يذهبون به إلى تأنيث البهيمة، ومنه ما يستوي فيه المذكر والمؤنث نحو: رجل ملولة وامرأة ملولة. والسادس: ما كان واحداً من جنس يقع على الذكر والأنثى نحو: دجاجة وبطة وحية. والسابع: تدخل في الجمع لثلاثة أوجه أحدها: أن تدل على النسبة، نحو: المهالبة. والثاني: على العجمة نحو: الموازجة والجواربة وربما لم تدخل فيها الهاء كقولهم: كيالج. والثالث: أن تكون عوضاً من محذوف نحو: المرازبة والزنادقة، والعبادلة، وهم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهم.

وتكون الهاء عوضاً عن الواو الذاهبة من فاء الفعل نحو: عدة وصفة، وعوضاً من الواو والياء الذاهبة من عين الفعل نحو: ثبة، ومن لام الفعل نحو: مائة وبرة.

خرجت من شيء إلى غيره أسألك اللهم من خيره
لكن من فن لفن ومن علم لعلم سرت في سيره

وإن أردت التزام الهاء الأصلية فقل:

خرجت من شيء إلى غيره لكن من علم لما يشبهه
من كان يقظاناً يزد يقظه وإن يكن نومان فما ينبهه

فصل من الفوائد الزوائد: تقدّم قول أبي محمد رحمه الله تعالى:

أحسن الله لي عزاي بنفسي

البيت. وسبب قوله ذلك أن الفقيه أبا محمد عبد الحق أنشدني لنفسه:

ضحك الشيب فوق رأسي فأغرب إذ رآني ذهبت في غير مذهب
هو ينعي إليّ في الحين نفسي وأنا جانياً أخوض وألعب
وإذا لم تساند إلا جماداً فمن العيّ ما تروم وتطلب

من قطعة آخرها:

أحسن الله لي عزاي بنفسي إن يكن يحسن العزاء لمذنب

فلما رآها أبو محمد عبد الوهاب رضي الله عنه بدل قوافيها فقال:

ضحك الشيب فوق رأسي وقهقه إذ رآني ذهبت في كل مهمه

وآخر البيت الآخر:

.... وأنا جانباً أقول له مه

وآخر البيت الثالث:

.... فمن العي ما به تتفوّه

والبيت الآخر:

أحسن الله لي عزاي بنفسي ثم أوّه إن كان يحسن أوّه

ومن أغرب ما رأيت في أوّه قول أبي الجهم بن حذيفة: ذهبت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي بين القتلى ومعي ماء، فوجدته وبه رمق، فقلت له: أسقيك من الماء؟، فأشار إليّ نعم. فإذا رجل من القتلى يقول: آه آه، فأشار إليّ أن انطلق بالماء إليه، فأتيته فإذا هو هشام بن العاص فقلت له: أسقيك؟ فسمع آخر يقول: آه فأشار إليّ هشام أن انطلق إليه، فأتيته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، ثم توجهت إلى ابن عمي فوجدته قد مات. وهذا غاية الإيثار والجود. كما قال الشاعر؛ وهو أجود بيت قالته العرب:

يجود بالنفس إن ضنّ الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقد تقدّم البيت. ومن الإيثار ما يروى أن أحد الفقراء الصادقين أهدي إليه رأس فقال: أخي فلان أحق به فأهداه إليه، فقال هذا الفقير المهدى إليه: أخي فلان أحق به، ثم بعث به إليه، وقال الآخر كذلك، فما زال الرأس يدور من دار

إلى دار سبعة من الدور، ثم رجع آخر ذلك إلى الذي أهداه أوّل مرة.

ومثل هذا اعترى لبضعة وثلاثين رجلاً قسموا أرغفة معدودة وأطفؤوا السراج وأظهروا الأكل ثم رفعت الكسر فإذا هي كما كانت ما أكل منها أحد شيئاً إيثاراً لصاحبه.

ولا تستغربن هذا فقد حدثت عن شيخي الفقيه أبو محمد عبد الحق رحمه الله؛ وكان دون أهل؛ أنه اشترى أضحية لنفسه، فجاء بعض الفقراء وكان ذا عيال فشكا حاله إليه، فدفع إليه الأضحية فحملها إلى منزله وذلك قبل العيد بأيام، ثم جاءه ذلك الفقير وكان يدل عليه فقال له: يا فقيه إني أبيع أضحيتك، قال له: ولمَ؟ قال: المرأة أدخلت عليّ هذا الرأي فقالت: يا رجل أطفالنا عراة وأرى أن تبيع تلك الأضحية وتكسو بثمنها هؤلاء الأطفال فلا بدّ في العيد أن نعطى لحماً أو نستغني عنه فكسوة الأولاد أوكد وأبقى. فقال أبو محمد رحمه الله: فأنا أحق بأضحيتي من غيري اشتريتها بكذا وكذا فخذ ثمنها، فدفعه إليه، ثم قال له: منزلي ضيق فامسكها عندك إلى يوم العيد آخذها منك إن شاء الله، فلما كان يوم العيد قال لذلك الفقير: اذبحها وارسل إليّ منها اليد يكفي، وأطعم سائرها عيالك، ففعل رحمه الله. فهذا معنى الحكاية والحمد لله.

وله فضائل كثيرة؛ حدثني عنه بعض الطلبة أنه احتاج يوماً إلى دراهم يشتري بها كتاباً فقيل له: قد توفر من الدراهم التي تعطى للمسجد باسم الزيت كذا وكذا فخذها. فقال: هذا بقي علينا! ليس بيننا وبين ربنا غير هذه الركعات التي نصلي فنأخذ عليها أجراً. وكان هو الإمام في المسجد رحمه الله، وقد لقيته أنا واستحييت أن أسأله عن مثل هذا فأخذته عمن حدثني بذلك عنه ممن أثق به.

ومن الإيثار ما قاله إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه حين قدم عليه شقيق من خراسان: كيف تركت الفقراء من أصحابك؟. قال: تركتهم إن أعطوا شكروا، وإن منعوا صبروا. فقال إبراهيم: هكذا كلاب بلخ عندنا. فقال له شقيق: فكيف الفقراء عندكم يا أبا إسحاق؟. فقال: الفقراء عندنا إن منعوا صبروا، وإن أعطوا آثروا. فقبل رأسه وقال: صدقت يا أستاذ.

ومن الإيثار ما فعل كعب بن مامة، وذلك أن سافر في ركب فنفد ماؤهم إلا يسيراً فكانوا يقسمونه بالحصاة يجعلونها في الإناء ويصبون عليها الماء حتى يغمرها ويتداولونه، وكان إلى جانب كعب رجل من النمر بن قاسط، فجعل كلما جاءت نوبة كعب نظر إليه النمري، فكان كعب يقول للساقي: اسق أخاك النمري، ففعل ذلك مراراً حتى نفد الماء وسقط كعب ميتاً، وكعب ضرب به المثل في الجود، كما قال الشاعر:

فما كعب بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمر الجوادا

ذكر الخطابي أن تلك الحصاة اسمها المقلة، ذكر ذلك حين فسر بيت الفرزدق:

فلما تصافنا الإداوة أجهشت إليّ غضون العنبري الجراضم

وقال: التصافن أن يطرح في الإناء حجر، ثم يصب فيه من الماء ما يغمره لئلا يتغابنوا.

وقد مدح الله أقواماً بالإيثار فقال: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]، قيل: إن سبب هذه الآية أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يضم أو يضيف هذا؟. فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياننا. فقال: هيئي طعامك، وأطفئي سراجك، ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فهيأت طعامها وأصلحت سراجها ونوّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يأكلان فباتا طاويين. فلما أصبح الرجل غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: ضحك الله الليلة؛ أو عجب؛ من فعالكما. فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾، أخرجه البخاري من طريق أبو هريرة. ووقع في التحصيل أن الرجل الفاعل لذلك هو أبو طلحة الأنصاري، وقال أبو هريرة: نزل هذا في ثابت بن قيس، نزل برجل من الأنصار يقال له: أبو المتوكل، فلم يكن عند أبي المتوكل إلا قوته وقوت صبيته... الحديث. وقد تقدّم ذكر: ضحك الله، والحمد لله.

ونوع من هذا ما يروى عن أبي الدحداح الأنصاري رضي الله عنه، وكان من أفاضل الأنصار، لما حض الله تعالى المؤمنين على الصدقة في قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قال: يا رسول الله ربنا يستقرض منا؟. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليعظم بذلك ثوابكم. فقال: يا رسول الله والله ما أملك غير حائطي، وقد جعلته لله عز وجل وأرضى بثوابه، ثم مضى إلى الحائط وفيه امرأته وصبيانه فصاح من خارجه بامرأته: خذي بأيدي الصبية فاخرجي، فإني سمعت الله يستقرض خلقه ليعظم بذلك ثوابهم فأقرضته حائطي، فقالت له امرأته: لا تقيل ولا تقال ربح بيعك، وأخذت بيد الصبية وخرجت، والنخل موقرة رطباً وزهواً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كم من عذق مذلل في الجنة

لأبي الدحداح. وفي رواية أنه عليه الصلاة والسلام قال: أبشر يا أبا الدحداح فإن الله قد أضعف لك ذلك في الجنة بألف ألف. قال: فمضى أبو الدحداح وأخرج أولاده من الحائط وجعل يخرج التمرة من يد هذا ومن فم هذا ومن حجر هذا ومن كم هذا ويضعها في الحائط، وأنشأ يقول:

يا أم دحداح هداك الهادي ... إلى سبيل الخير والرشاد
بيني من الحائط وسط الوادي ... فقد مضى قرضاً إلى التناد
أقرضته الله على اعتمادي ... طوعاً بلا منٍّ ولا ارتداد
إلا رجاء الضعف في المعاد ... إن التقى والبر خير زاد

وتقدّم قولهم في ابتداء الكلام: أعزك الله. ولقد ظهر لي معنى حسن في قول العامة: عنك وعمن دونك، حتى لهج به بعض الناس، حتى دخل في تضاعيف كلامه مراراً، يكاد لا تتكلم العامة بشيء إلا وله أصل ومعنى، علمه من علمه وجهله من جهله، فأعملت فكري في هذه اللفظة؛ أي: عنك وعمن دونك؛ فرأيت أنها كلمة قالها؛ والله أعلم؛ من خاطب رجلاً كبيراً أو عالماً، فكان يقول في كلامه: هذا الذي أحدثك به ليس باطلاً، ولكنه حق أحدثك به عن العلماء عنك وعن غيرك، واستحيى أن يواجهه بهذا فقال: عنك وعمن دونك، يعني أنك أعلم من غيرك، فحسن أدبه معه، ولم يقل عنك وعمن فوقك. فيقوله الناس ولا يلقون له بالاً، كما يقولون للغائب إذا قدم: على السلامة، وأصله: الحمد لله على السلامة، وكذلك كيف أصبحت وكيف أمسيت، وكأن الأصل فيه؛ على ما يروى؛ إنّما قيل ذلك في طاعون عمواس، إذ كان يظهر الطاعون من جسم من قضى أن يموت فكانوا يتساءلون إذا التقوا عنه، وقيل: إنّما ذلك سؤال عن أعمالهم الباطنة من طريق الآخرة، أو يكون سؤال نية، فنسخ ذلك وصار إلى قول مجرد لا نية فيه ولا عقد، شبيه باللغو، وإلى غير ذلك أشياء مثل هذه كثيرة، نسأل الله السلامة مما لا يرضاه منا.

فينبغي للرجل إذا سأل أخاه أن يكون له نية في ذلك، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ سأل الرجل فقال له: كيف أنت؟ فقال: أحمد إليك الله. فقال عمر: ذلك أردت منك. وخرج أبو عمر بن عبد البر عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لها: كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟. فقالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟. قال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان.

وكان عيسى عليه السلام إذا قيل له: كيف أصبحت؟. قال: أصبحت لا أملك ما أرجو، ولا أستطيع دفع ما أحاذر، وأصبحت مرتهناً بعملي، والخير كله في يدي غيري، فلا فقير أفقر مني. وقال الشاعر:

كيف أصبحت كيف أمسيت مِما ينبت الود في فؤاد الكريم

وقيل لبعضهم: كيف أصبحت؟. فأنشد:

أقول بخير ولكنه كلام يدور على الألسن

وقيل لشريح القاضي: كيف أصبحت؟. فقال: أصبحت ونصف الناس عليّ غضبان. يريد أن الناس صنفان محكوم له ومحكوم عليه، فأحدهما راض والآخر ساخط. وكان الربيع ابن خيثم إذا قيل له: كيف أصبحت؟. قال: أصبحنا ضعفاء مذنبين نستوفي أرزاقنا وننتظر آجالنا. وكان أبو الدرداء رضي الله عنه إذا قيل له: كيف أصبحت؟. يقول: أصبحت بخير إن نجوت من النار. وكان أبو سفيان يقول: أصبحت أشكو من ذا إلى ذا، وأذم ذا، وأفرّ من ذا إلى ذا. وقيل لأويس القرني: كيف أصبحت؟. قال: كيف يصبح الرجل إذا أصبح أنه لا يدري أنه يمسي، وإذا أمسى لا يدري أنه يصبح. وقيل لمالك بن دينار: كيف أصبحت؟. قال: أصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد. وقال غيره: أصبحت لا أرضى حياتي لمماتي ولا نفسي لربي. وقال آخر: أصبحت آكل رزق ربي وأطيع عدوّه إبليس. وقيل لآخر: كيف أصبحت؟. فقال: ما ظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة. وقال آخر: أصبحت أشتهي عافية يوم إلى الليل. قيل له: ألست الأيام كلها في عافية؟. قال: عافية يوم لا أعصي الله فيه. وقال حاتم الأصم لحامد اللفاف: كيف أنت في نفسك؟. قال: سالماً معافى. قال: يا حامد السلامة من وراء الصراط والعافية في الجنة. وقيل لآخر: ما حالك؟. قال: وما حال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب. وقال ابن سيرين لرجل: كيف حالك؟. قال: وما حال من عليه خمسمائة درهم وهو معيل. فدخل ابن سيرين منزله فأخرج ألف درهم فدفعها إليه فقال: خمسمائة درهم اقض بها دينك وخمسمائة درهم عد بها على عيالك، ولم يكن عنده غيرها. ثم قال: والله لا أسأل أحداً عن حاله بعد هذا أبداً.

ومن أحسن ما روي في هذا، ما خرج أبو نعيم في كتاب الحلية، ما روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: كيف أصبحت يا معاذ؟. فقلت: أصبحت بالله مؤمناً. فقال: إن لكل قول مصداقاً، ولكل حق حقيقة فما مصداق ما تقول؟. قلت: يا نبي الله ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت أني لا أمسي، ولا أمسيت مساء قط إلا ظننت أني لا أصبح، ولا خطوت خطوة إلا ظننت

أني لا أتبعها أخرى، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة. قال صلى الله عليه وسلم: عرفت فالزم.

وقريب من هذا المعنى وشبيه به ما خرج ابن المبارك في الرقائق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للحارث بن مالك: كيف أنت، أو ما أنت يا حارث؟ فقال: مؤمن يا رسول الله. فقال: مؤمن حقاً؟!. قال: مؤمن حقاً. قال: فإن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولك؟ قال: عرفت نفسي من الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أسمع عواء أهل النار. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مؤمن نوّر الله قلبه.

رجع القول إلى قولهم اعزك الله. من هذا في القرآن قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣]، قال أبو محمد مكي: هذا افتتاح كلام بمنزلة أصلحك الله وأعزك الله. قال عون بن عبد الله: أخبره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب. وحكى السمرقندي عن بعضهم أن معناه عافاك الله يا سليم القلب لم أذنت لهم. قال: ولو بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: لمَ أذنت لهم لخيف عليه أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام، لكن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه ثم قال له: لمَ أذنت لهم بالتخلف حتى يتبين الصادق في عذره من الكاذب. قال وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب، ومن إكرامه إياه وبره به ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب. وقال نفطويه: ذهب ناس إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم معاتب بهذه الآية؛ وحاشاه من ذلك؛ بل كان مخبراً، فلما أذن لهم أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه في الإذن لهم، وهذا باب كبير في كراماته وفضائله.

اختصرت وأخطأت	إذ سارعوا وأبطأت
وكثروا وقصرت	وطوّلوا واختصرت

◆◆◆

لكن أضفه إلى الفصل قبله يتزيد	
والكل نقطة ماء	من بحر فضل محمد

وتقدّم المثل: أبى الحقين العذرة، وأصله أن أعرابياً أتى قوماً فاستسقاهم لبناً فاعتلوا عليه فنظر إلى الوطب مملوءاً فقال: هيهات يأبى الحقين العذرة. وقد تمثل به معاوية رضي الله عنه. خرج ثابت أنه قال: يا معشر الأنصار بم تطلبون ما قبلي، والله لقد كنتم قليلاً معي كثيراً عليّ، ولعلكم حذاي يوم صفين حين رأيت المنايا تلظى في

أسنتكم حتى إذا قام ما حاولتم ميله قلتم ارع فينا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، هيهات يأبى الحقين العذرة.

وتقدّم ها وها، ولي من لفظها أبيات كتبت بها إلى الفقيه الخطيب أكرمه الله، وكان لامرأتي قبل قريب له ثلاثون درهماً بقية من مبيع، وكنت أنا وهو واسطة بينهما. فمطل في القضاء وألحث في الاقتضاء، فكتبت إليه بهذا الشعر، وهو لزومي بقافيتين:

لـك الفـضل شـيع مـن الفـضة ثلاثـين دالا وراء وهـا
ومـيماً فقـد كـدت بالقـضة أغطـي فعجـل كهـاء وهـا
وإن تـسألني عـن قـصتي فجاهـي لـدى امرأتـي قـد وهـا
شـكته فمـذ حـيدت قـصتي حـذوت وقـد خففـت حـذوها

وقبل هذه الأبيات وبعدها كلام، وله على ذلك جواب مذكور في غير هذا الكتاب، وهو مما يستظرف ويستملح.

وتقدّم التثاؤب، ويقال: ما تثاءب نبي قط ولا احتلم، لأن ذلك أيضاً من الشيطان. ويذكر أن رجلاً من الصالحين ما جامع قط في يقظة ولا منام، وأوّل بلوغه رأى في المنام كأنه أعطي مفتاحاً وعرض عليه قفل، فقيل له: افتحه، ففعل فأنزل، وكان ذلك الأوّل والآخر إلى أن مات رحمه الله. وأما الجشاء فإنه مكروه أيضاً، لأنه يتولد عن كثرة الأكل، وقد تجشأ رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: كف عنا جشاءك فإن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً في الآخرة. أو كما قال صلى الله عليه وسلم. وقد تقدّم. وتجشأ رجل أمام أحد العلماء فقال له: هذا الطعام الذي تجشأت منه دعوت عليه أحداً؛ يعني يأكل معك؟ قال: لا. قال: فجعله الله حبناً وقداداً، القداد: وجع في البطن، والحبن: انتفاخ البطن. وفي الحديث: حبين؛ وهو تصغير حبن؛ والأحبن: الذي به السقي. يقال سقى بطنه يسقي سقياً. وقال أبو زيد: الاسم السقي، وقد استسقى بطنه استسقاء. ومن كتاب التاج قال: كان ابن أحمر قد سقى بطنه فقال:

أليـك إلـه الخلـق أرفـع رغبتـي عـياذاً وخـوفاً أن تطـيل ضـمانيا

قال: والضمان والضمانة: الزمانة والمرض. يقال: ضمن الرجل؛ بالكسر؛ ضمناً فهو ضمن أي: زمن، وفي الحديث: من اكتتب ضمناً بعثه الله ضمناً. أي: من كتب نفسه في ديوان الضمنى والزمنى. وقال الشاعر في الزمانة:

إن تكتـبوا الزمنـى فإنـي لـزمن مـن داخـل القلـب رداء مـنكمن

ويقال: حبن بطنه يحبن حبناً، فأما الحبن؛ بالكسر؛ فنحو: الدمل والخراج، وجمع الحبن: حبون وهي الدماميل، وفي الحديث: رخص رسول الله صلى الله عليه

وسلم في دم الحبون. يعني: الدماميل، وكان عطاء يصلي وهو في ثوبه. خرجه الدارقطني وعلل الحديث. وجاء في الحديث من ذكر الدمل: لا تكرهوا أربعة فإنها لأربعة، لا تكرهوا الرمد فإنه يقطع عرق العمى، ولا تكرهوا الزكام فإنه يقطع عرق الجذام، ولا تكرهوا السعال فإنه يقطع عرق الفالج، ولا تكرهوا الدماميل فإنها تقطع عرق البرص. خرجه أحمد بن عدي. وخرج ثابت في الدلائل من طريق عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من آدمي إلا وفي رأسه عرق من الجذام ينعر، فإذا هاج بعث الله عليه الزكام، فلا يداوى منه. وفسره عن ابن الأعرابي قال: يقال عرق عاص وتاعر لا ينقطع. خرجه في حديث عبد الملك بن مروان أنه قال للزهري: إن كان لك لاب نعار في الفتنة. قال: قلت يا أمير المؤمنين قل كما قال العبد الصالح. قال: أجل لا تثريب عليكم. وقال عن الأصمعي: ما كانت فتنة إلا نعر فيها. يقال: فلان نعر الصوت: إذا صوّت ينعر، ونعر الجرح: إذا فاض منه الدم ينعر، وينشد:

ضـــــرب دراك وطعـــــان ينعـــــر

وخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم من الحمى والأوجاع كلها أن يقول: باسم الله الكبير، أعوذ بالله العظيم من كل عرق نعار، ومن شر حر النار. ويروى: عرق يعار؛ بالياء. ومن لفظها ما خرج ثابت رحمه الله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب رجلاً بالدرة فنادى: يا آل قصي، فقال أبوسفيان: يا ابن أخي لو غيرك اليوم نادى يا قصياً لأتتك منهم الغطاريف. فقال له عمر: اسكت لا أم لك. فقال: ها. ووضع السبابة على فيه. قال: الغطاريف: السادة، واحدهم: غطريف. قال رؤبة:

وجهـــك وجـــه الملـــك الغطـــريف

ومن لفظ ها: ما خرج ابن أبي الدنيا؛ وهو في روايتي عن ابن مؤمن رضي الله عنه؛ قراءة عليه بسنده عن مجاهد قال: أردت حاجة، فبينا أنا في الطريق إذ فاجأني حمار قد أخرج عنقه من الأرض فنهق في وجهي ثلاثاً ثم دخل، فأتيت القوم الذين أردتهم فقالوا: ما لنا نرى لونك قد حال؟. فأخبرتهم الخبر، فقالوا: ما تعلم من ذلك؟. قلت: لا. قالوا: ذلك غلام منا من الحي وتلك أمه في ذلك الخباء، وكان إذا أمرته بشيء شتمها وقال: ما أنت إلا حمارة، ثم نهق في وجهها وقال: ها ها، فمات يوم مات فدفناه في ذلك القبر، فما من يوم إلا هو يخرج رأسه في الوقت الذي دفناه فيه فينهق إلى ناحيته ثلاث مرات ثم يدخل.

ومن باب الهاء ما خرج الدارقطني أن الأعمش مرّ برجل مؤذن يدغم الهاء

فيقول: لا إله إلا اللا، وأشهد أن محمد رسول اللا، قال: لا يؤذن لكم من يدغم الهاء. ورواه مسنداً عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ولا يصح. والموقوف هو الصحيح.

وتقدّم: ايه وهيه، ومنه ما قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص رضي الله عنهما وقد أنشده:

إن القـــــضاة إن أرادوا عـــــدلا

قال عمر: إيه لله أبوك. قال:

وأحكمـــوا بالقـــول مـــنهم فعـــلا

فقال عمر: إيه لله أبوك. فقال:

كانـــوا كغـــيث قـــد أصـــابوا محـــلا

قال: فأعجب ذلك عمر رضي الله عنه.

قلت: حق لعمر أن يعجبه قول عمرو في هذا الشعر. ومن لا يعجبه المطر وبه قضاء الوطر ألم تسمع أيها الواعي قول الراعي:

وحديـــثها كالقطـــر يـــسمعه ... راعـــي ســـنين تـــتابعت جـــدبا
فأصـــاخ يـــرجو أن يكـــون حـــياً ... ويقـــول مـــن فـــرح أيـــا ربـــا

وقال آخر، وكان الجدب قد مسه، يذكر قلبه ونفسه:

فقلـــت لعـــل الله يرســـل ودقـــه ... فيـــضحى كلانـــا قاعـــداً يتذمـــر
كأنـــي أميـــر المؤمنـــين مـــن الغنـــى ... وأنـــت مريـــري كأنـــك جعفـــر

ومن لفظ: هيه، ما خرج ثابت رضي الله عنه: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفد عليه وفد، فصفهم بين يديه صفوفاً، وجعل يتصفحهم بعينيه، فأومأ بيده لرجل منهم أن تعال، فأتاه، فقال له عمر: هيه؛ وكان إذا أراد أن يشار عليه بالأمر قال: هيه؛ فقال الرجل: هيه. فقال عمر: هيه. فقال الرجل: هيه. فقال عمر: قم. فأخذ مقامه من الصف، ثم جعل يتصفحهم بعينيه فدعا آخر فأتاه، فقال له عمر: هيه. فقال: هيه يا أمير المؤمنين سل فلنخبرك. قال: هيه. قال: هيه. قال: قم. فقام فأخذ مقامه من الصف، ثم جعل يتصفحهم بعينيه، فإذا شاب طوال معروف حسن الوجه، فتفرس فيه الخير، قال: فأومأ إليه بيده أن تعال. قال فأتاه فجسا وحسر عن ذراعيه، فقال له عمر: هيه. فقال: هيه والله يا أمير المؤمنين، ما وليت أمر هذه الأمة لسبق كان منك في الإسلام، ولكنها بلية ابتليت بها، ولو أن شاة ضلت بشط الفرات لسئلت عنها يوم القيامة. قال فانكب عمر على وجهه فما زال يبكي حتى انبل ما حوله، ثم رفع رأسه فقال: ويحك أعد عليّ فما صدقني أحد منذ وليت هذا الأمر غيرك. فأعاد عليه، قال: وبكى عمر أشد من بكائه

حتى إذا سري عنه رفع رأسه فقال: ويحك أنت تأكل لحمها وأنا أسأل عنها يوم القيامة. قال: نعم يا أمير المؤمنين لأنك راع، وكل راع مسؤول عن رعيته، والشاة في رعيتك. قال: فكانت عليه أشد من الأولى والثانية. فانكب يبكي حتى ظننا أن نفسه تخرج، حتى قال بعضنا لبعض: ليت هذا الشاب لم يدخل اليوم. وذكر باقي الحديث.

وجاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم من هذه اللفظة عن عمرو بن الشديد عن أبيه قال: ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، قال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟. قلت: نعم. قال: هيه. فأنشدته بيتاً، فقال: هيه. ثم أنشدته بيتاً، فقال: هيه، حتى أنشدته مائة بيت. وفي رواية أخرى قال: استنشدني رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وفيه قال: فلقد كاد أن يسلم في شعره. خرجه مسلم.

وقد تقدّم القول في الشعر وما يحرم منه وما يحل. وأزيدك هنا فصلاً تهتدي به على ذلك وتستدل. خرج الترمذي في الشمائل عن عائشة رضي الله عنها، قال: قيل لها: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر؟. قالت: كان يتمثل بشعر ابن رواحة، ويقول:

ويأتيك بالأخبار ما لم تزوده

كذا ورد في الشمائل. وجاء في غيرها أنه كان يقول:

ويأتيك من لم تزود بالأخبار

وبعد هذا البيت:

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتاً ولم تضرب له موعد

البتات متاع البيت. قاله أبو عبيد. وفي الحديث: لا يحظر عليكم البتات، ولا يؤخذ منكم عشر البتات. ويقال البتات: الزاد والجهاز، وجمعه: أبتة؛ وقع في الدلائل. قال الخليل بن أحمد في قول النبي صلى الله عليه وسلم:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

الرجز المشطور والمنهوك ليسا من الشعر، قيل: فما هما؟. قال: أنصاف مسجعة. قال: فلما ردوا عليه قال: لأحتجنّ عليهم بحجة إن لم يقروا بها كفروا، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يجري على لسانه الشعر. قال: وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار

فقد علمت أن النصف الأوّل الذي جرى على لسانه لا يكون شعراً إلا بتمام نصفه الثاني على لفظه وعروضه، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

هـل أنـت إلا إصـبع دمـيت وفـي سـبيل الله مـا لقـيت

فهذا على المشطور، ولو كان شعراً ما جرى على لسانه، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩]، انتهى كلامه.

قلت: ومما يشبه قول الخليل من أنه كان ربما نطق بأنصاف مسجعة؛ كما تقدّم؛ ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم أحد؛ إذ قال أبو سفيان: أعل هبل؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تجيبوه؟. فقالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال قولوا: الله أعلى وأجلّ. وقال لهم لما قال أبوسفيان أيضاً: إن لنا العزى ولا عزى لكم. فقال لهم صلى الله عليه وسلم قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم. ومما يشبه قوله عليه الصلاة والسلام:

ويأتـيك مـن لـم تـزوّد بالأخـبار

في أنه كان عليه الصلاة والسلام لا يقيم وزن الشعر إنشاده؛ قول الأعشى:

وهـن لمـن غلـب شـر غالـب

وقاله الأعشى:

وهـن شـر غالـب لمـن غلـب

وكذا يتزن. وقد تقدّم هذا مع قول السامع له: أشهد أنك رسول الله، لقول الله تعالى فيه: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾، وخرج موسى بن عقبة في المغازي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه قول عباس بن مرداس:

فأصـبح نهبـي ونهـب الـ ـعبيد بـين عيينـة والأقـرع

دعاه فقال: يا عباس أنت القائل:

فأصـبح نهبـي ونهـب العبـيد بـين الأقـرع وعيينـة

فقال أبو بكر رضي الله عنه: بين عينيه والأقرع. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يضرك بأيهما بدأت بالأقرع أو بعيينة؟. فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي، لا والله ما أنت بشاعر ولا راوية، ولا ينبغي لك.

وكان عباس هذا قد قال هذا الشعر لَمّا لم يعطه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غنائم حنين كما أعطى غيره، ثقة منه بإيمانه ورضاه بما أعطي، فلما لم يرض قال شعره المتقدّم فيه البيت. فلما قال ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقطعوا عني لسانه. فأتي به إلى الغنائم فقيل له: خذ منها ما شئت. فقال عباس: وإنّما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع لساني بالعطاء بعد أن تكلمت!. فتكرم أن يأخذ منها شيئاً. فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلة فقبلها ولبسها. وقد

تقدّم طرف من ذكر عباس وشجاعته وكرم أخلاقه. وقوله في البيت: ونهب العبيد؛ النهب: اسم ما يؤخذ من القسم في الغنيمة، والعبيد: اسم فرسه رضي الله عنه.

وأما ما روي عن مسروق؛ وقد سئل عن بيت شعر فسكت عن آخره وقال: ما أحب أن يكتب في صحيفتي بيت شعر. وقد تقدّم هذا. فيحتمل أن يكون البيت مما لم يرضه والله أعلم. وإلا فقد خرج ثابت في الدلائل بسنده قال: سمعت عسعس بن سلامة يقول لأصحابه: سأحدثكم ببيت من الشعر، فجعلوا ينظرون ويقولون ما نصنع بالشعر؟ فقال:

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة　　　وإلا فإنـي لا أخالـك ناجـيا

قال: فما رأيتهم بكوا من موعظة قط بكاءهم منه.

وأيضاً فقد كان صلى الله عليه وسلم يستنشد الشعر ويسأل عنه كما تقدّم. وقال مرة لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه: قل شعراً تقضبه اقتضاباً وأنا أنظر إليك. فقال من غير روية:

إنـي تفرسـت فـيك الخيـر أجمعـه

الأبيات المذكورة في السير، حتى انتهى إلى قوله:

فثبت الله مـا آتـاك مـن حسن　　　تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

فقال له عليه الصلاة والسلام: وأنت فثبتك الله يا ابن رواحة.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أصدق كلمة قالها الشاعر: كلمة لبيد:

ألا كـل شـيء مـا خـلا الله باطـل

وقد تقدّم أيضاً.

وخرج البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة ويقول:

اللهـم لـولا أنـت مـا اهتديـنا　　　ولا تـصدّقنا ولا صـلينا
فأنـزلن سـكينة علينـا　　　وثـبت الأقـدام إن لاقيـنا

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول:

خلـوا بنـي الكفـار عـن سـبيله　　　خلـوا فكـل الخيـر فـي رسـوله

الأبيات. فقال له عمر: بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله

تقول شعراً؟!. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل.

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: جالست رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة، وكان أصحابه رضي الله عنهم يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت، وربما تبسم معهم، ولما أنشده كعب:

إن الرسول لنور يستضاء به　　　مهند من سيوف الله مسلول

نظر إلى أصحابه كالمعجب لهم من حسن القول وجودة الشعر، وأنشد صلى الله عليه وسلم قول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله　　　حتى أنال به كريم المأكل

فقال صلى الله عليه وسلم: ما وصف لي أعرابي فأحببت أن أراه إلا عنترة.

وتقدّم عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت لا ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً. وقدمت الخنساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومها بني سليم فأسلمت، وكان عليه الصلاة والسلام يستنشدها ويعجب بشعرها، فكانت تنشده، وهو يقول: هيه يا خناس. وهو يومي بيده صلى الله عليه وسلم. وكانت الخنساء تقول في أوّل أمرها البيتين والثلاثة، حتى قتل أخوها لأبيها صخر، فأكثرت من الشعر وأجادت. فمن قولها فيه:

أعيني جودا ولا تجمدا　　　ألا تبكيان لصخر الندا

ألا تبكيان الجرى الجميل　　　ساد عشيرته أمردا

وفيه تقول من أبيات لها:

أشم أبلج تأتم الهداة به　　　كأنه علم في رأسه نار

وبلغ من وجدها بأخيها صخر أنها عميت من البكاء عليه، ولما أسلمت قيل لها في البكاء فقالت: كنت أبكيه من القتل، فأنا أبكي له اليوم من النار. وكانت تلبس عليه من الحزن صداراً من شعر ودخلت على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وعليها ذلك الصدار من الشعر، فقالت لها عائشة: إن هذا لقبيح! قبض النبي صلى الله عليه وسلم فما لبست هذا!. قالت: إن له قصة. قالت: فأخبريني. قالت: زوّجني أبي رجلاً، وكان سيداً معطاء، فذهب ماله، فقال لي: إلى من يا خنساء؟. قلت: إلى أخي صخر، فأتيناه فقسم ماله شطرين فأعطانا خيرهما، فجعل زوجي يعطي ويحمل حتى نفد ماله. فقال: إلى من؟. قلت: إلى أخي صخر، فقسم ماله شطرين فأعطانا خيرهما، فقالت امرأته: أما ترضى أن تعطيهما النصف حتى تعطيهما أفضل النصفين؟. فأنشأ يقول:

والله لا أمـــنحها شـــرارها ولــو هلكــت قــدّدت خمارهــا
واتخــذت مـــن شـــعر صــدارها

فذلك الذي دعاني إلى أن لبست هذا.

ذكر أهل اللغة أن الصدار، بكسر الصاد، ثوب صغير يلي الجسد، وفي المثل: كل ذات صدار خالة، أي: من حق الرجل أن يغار على كل امرأة كما يغار على محرمه. وذكر الخطابي رحمه الله: قال ثعلب: يقال الصدار: الشوذر والأتب والعلقة. وقال الأصمعي الأتب: البقيرة، وهو أن يؤخذ برد فيشق ثم تلقيه المرأة في عنقها من غير كمين ولا جيب. وأنشد:

مـــنعمة بيـــضاء لـــو دب محـــول مـن الـذر فـوق الأتـب مـنها لأثـرا

ومن شعرها الغريب البعيد القريب:

جـــززنا نواصـــي فرســـاننا وكانـــوا يظـــنون أن لا تجـــزا
ومـن ظـن مـمن يلاقـي الحـروب بـأن لا يـصاب فقـد ظـن عجـزا
نـــضيف ونعـــرف حـــق القـــرى ونـــتخذ الحمـــد ذكـــراً وكنـــزا
ونلبس فـي الحـروب سـرد الحديـد وفـي الـسلم خـزاً وعـصباً وقـزا

الخز: الذي يشوبه وبر الخزز، وهو ذكر الأرانب، وإلا فليس خزاً، وجمع الخز: خزان، مثل: صرد وصردان، والقز: ثوب حرير قائمه صلب وطعمه بقطن، والعصب: ثياب تصنع في اليمن كأنها غرقئ البيض يكتب فيها لصلابتها وملاستها.

وخرج البكري أن الخنساء بينا هي ليلة تنشد الشعر، الذي لمسلمة بن يزيد؛ الذي أوّله:

أقـول لنفـسي فـي الخـلاء ألـومها لـك الـويل مـا هـذا التجلد والـصبر

وفي هذا الشعر:

وهـوّن وجـدي أنـني سـوف أغـتدي علـى إثـره حقـاً وأن نفـس العمـر

فهي تردده وتبكي أخاها صخراً، فهتف بها هاتف من مؤمني الجن: يا خنساء قبضه خالقه، واستأثر به رازقه، وأنت فيما تفعلين ظالمة، وفي البكاء عليه آثمة.

وأجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها، حتى إن بعض العلماء؛ وذكر عند شعره النساء؛ قال: ما قالت امرأة شعراً قط إلا ظهر الفتور في قولها. قيل له: فالخنساء؟ قال: تلك امرأة كان لها أربع خصي. وصدق؛ كانت الخنساء مع ذلك من الشجعان. وقد تقدّم خبرها مع بنيها يوم القادسية في باب الطاء.

ومن أحسن ما رأيت لفضل جارية المتوكل؛ وكانت شاعرة أديبة تجالس الرجال

وتناشد الشعراء؛ فقال المتوكل لعلي بن جهم: قل بيتاً وطالب فضلاً بإجازته. فقال ابن الجهم:

لاذ بها يشتكي هواها فلم يجد عندها ملاذا

فقالت:

ولم يزل ضارعاً إليها تهطل أجفانه رذاذا
فعاتبوه فزاد نضواً ومات وجداً فكان ماذا

فطرب المتوكل.

ولا ينكر الشعر في هذا الزمان من النساء، فعندي جزء من شعر تقية بنت الخطيب المحدث أبي الفرج غيث بن علي بن عبد السلام الأرمناوي، وعليه خط يدها أجازتني فيه، وولدي بثغر الإسكندرية أرخته بجمادى الآخرة سنة اثنتين وستين وخمسمائة، والجزء بخط ابنها الفقيه أبي الحسن علي بن حمدون رضي الله عنهما، كان يقرأ معنا على الحافظ السلفي رحمه الله، فسألته أن يكتب لي من شعر أمه؛ تقية المذكورة؛ ففعل وكتب لي الإجازة المذكورة عليه بخطها وكانت شاعرة محسنة. فمن ذلك الشعر قصيد مطول تمدح فيه الحافظ المذكور أوّله:

أعوامنا قد أشرقت أيامها وعلا ظهر السماك خيامها
والروض مبتسم بنور أقاحه لما بكى فرحاً عليه غمامها
والنرجس الغض الذي أحداقه ترنو فيفهم ما تقول خزامها
والورد يحكي وجنة محمرة انحل من فرط الحياء لثامها
وشقائق النعمان في وجناته خالات مسك خالها أرقامها

وكذا وكذا، ولم تزل تصف النبات وأزهاره في كلام مطوّل مستملح إلى أن دخلت إلى مدح الحافظ، فقالت:

يا صاح قم لسعادة قد أقبلت وتنبهت بعد الكرى نوامها
واجمع خواطرنا لنجلي فكرنا لما تجرد للقريض حسامها
مدح الإمام على الأنام فريضة فخر الأئمة شيخها وهمامها
الحافظ الحبر الذي شهدت له أرض العراق بفضله وشآمها

واندفعت كذلك بقول رائق ينسيك ما تقدّم إلى آخر القصيد، إلى غير ذلك من أشعار كقطع أزهار. ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٤]. وأنا أيضاً أقول:

خرجت من شيء إلى غيره أمشي بلا خوف ولا تقيه

أحكي أحاديث رجال سادة ... أعراضهم طاهرة نقيه
حتى انتهى الأمر إلى الخنساء ... ثم بعدها آل إلى تقيه
ابنة غيث شيختي أكرم بها ... فإنها مثل اسمها تقيه
ثم بقيت بعد ذاكم أعزلا ... لم يبق في كنانتي بقيه
لكن بقي نابغة الجعدي ... فلنذكره أيضاً إنه بقيه

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشده شعراً، فقال له: أجدت لا يفضض الله فاك. قال فنيف على المائة، وكأنَّ فاه البرد المنهل ترف غروبه. وفي رواية أخرى: فما سقطت له سن إلا فغرت مكانها سن. قال: وكان في الشعر الذي أنشدته:

علونا السماء عفة وتكرما ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟. قلت: إلى الجنة يا رسول الله. قال: أجل إن شاء الله. ثم أنشدته:

فلا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تَحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال: أجدت لا يفضض الله فاك. فسره الخطابي عن ابن الأعرابي قال: معناه لا يكسر الله أسنانك التي في فيك، ثم حذف العلم المخاطب، كما يقال: يا خيل الله اركبي؛ أي: يا ركاب

خيل الله اركبي. ومثله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] أي: حب العجل، قال: وفيه لغتان: لا يفضض الله فاك، ولا يفض الله. أراد: لا يجعل الله فاك فضاً لا سن فيه. والبرد المنهل هو الذي سقط لوقته وفيه بياضه ورونقه. وترف غروبه معناه: تبرق وتتلألأ. ويقال: رف الثغر يرف. قال عمر بن أبي ربيعة:

يرف إذا تفتر عنه كأنه ... حصى برد أو أقحوان منور

ومثله: ورف يرف وريفاً، قاله ابن السيد. وغروبه: ماؤه وأشره. ومعنى فغرت يريد: طلعت. يقال: فغر الورد: إذا تفتق، ومنه: فغر الفم؛ وهو: فتحه، قال: ويجوز أن يكون: ثغرت؛ أي: طلع ثغره، والفاء تبدل من الثاء، مثل: جدث وجدف. وقد تقدّم من هذا كثير. ومعنى المنهل: المنصب. يقال: هلّ السماء بالمطر هلاً وانهلّ انهلالاً: وهو شدة انصبابه، وسيأتي في قافية هذا البيت إن شاء الله تعالى أكثر من هذا. ورواه ابن قتيبة وقال: لم تنقص له سن، ومعناه: لم تسقط. ويعبر عن السن بالفم. يقال: سقط فم فلان فلم تبق له حاكة: إذا سقطت أسنانه. واسم النابغة هذا: عبد الله بن قيس بن كعب بن ربيعة، ويكنى أبا ليلى كما تقدّم، وهو القائل لامرأته حين خرج غازياً:

باتــت تذكرنـــي بـــالله قاعـــدة والدمـع ينهل مـن شـأنيهما سبلا
يـا بـنت عـم كـتاب الله أخرجنـي عـنكم وهـل أمـنعن الله مـا فعـلا
مـا كـنت أعـرج أو أعمـى فيعذرنـي أو ضارعاً من ضنى لم يستطع حولا
فـإن رجعـت فـرب الناس يرجعنـي وإن لحقـت بربـي فاتخـذ بـدلا

أخرج هذا الخبر بعض أهل العربية شاهداً على أن الكتاب الفرض والحكم والقدر وأنشد البيت:

يـا بـنت عـم كـتاب الله أخرجنـي عـنكم وهـل أمـنعن الله مـا فعـلا

وقال: يقال في غير هذا: كتبت كتباً وكتاباً وكتابةً، والواحد: كتاب، والجمع: كتبة وكتب والكتّاب: الكتبة؛ جمع: الكاتب، قال: والمكتب والكتاب واحد، والجمع: الكتاتيب والمكاتب، والكتب: الخرز، كتبت القربة: خرزتها، وأصله الجمع، ومنه: كتبت البغلة: إذا جمعت بين شفريها، ومنه قول الشاعر: (واكتبها بأسيار)وذلك عنى الحريري بقوله:

وكاتبـين ومـا خطـت أنـاملهم حرفاً ولا قرؤوا ما خط في الكتب

وعاش النابغة أبو ليلى إلى أيام ابن الزبير بمكة ومدحه بشعر، فقال له عبد الله بن الزبير: يا أبا ليلى الشعر أهون وسائلك عندنا، ولك في مال الله حقان: حق لرؤيتك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحق لشركتك أهل الإسلام في فيئهم. وكان رضي الله عنه يسكن البادية. خرج هذا الخبر عنه شيخنا أبو الطاهر السلفي في السداسيات له، وذكر إنشاده للنبي صلى الله عليه وسلم الشعر المتقدّم، وقال في آخره: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجدت لا يفضض الله فاك. مرتين.

تقدّم من شعر الخنساء في أخيها صخر:

أشـم أبلـج تـأتم الهـداة بـه كأنـه علـم فـي رأسـه نـار

ووقع في العقد:

وإن صـخراً لـتأتم الهـداة بـه

البيت. تمثلت به سودة بنت عمارة الهمدانية حين وفدت على معاوية. وقد رأيت أن أثبت كلامها في هذا الكتاب، إذا وقع ذكرها لفصاحتها ووفائها، ولمدحها عليّ بن أبي طالب، ولمدح عليّ همدان بقوله رضي الله عنه:

ولـو كـنت بـواباً علـى بـاب جـنة لقلـت لهمـدان ادخلـوا بـسلام

وقد تقدّم هذا البيت.

وعدت أن أذكر حديث همدان فليس له إلا هذا المكان. حدث عامر الشعبي

رحمه الله قال: وفدت سودة بنت عمارة بن أسد الهمدانية على معاوية، فاستأذنت عليه فأذن لها، فلما دخلت عليه سلمت. فقال لها: كيف أنت يا ابنة الأسد؟. قالت بخير يا أمير المؤمنين. قال لها: أنت القائلة لأخيك:

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر علياً والحسين ورهطه ... واقصد لهند وابنها بهوان
إن الإمام أخا النبي محمد ... علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه ... قدماً بأبيض صارم وسنان

قالت: يا أمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب فدع عنك تذكار ما قد نسي. قال: هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى. قالت: صدقت والله يا أمير المؤمنين ما كان خفي المكان ولا ذليل المقام ولكن كما قالت الخنساء:

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيته منه. قال: قد فعلت. ثم قال: ما حاجتك؟. قالت: يا أمير المؤمنين إنك أصبحت للناس سنداً، ولأمورهم متقلداً، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا تزال تقدم علينا من هو بعزك، ويبطش سلطانك يحصدنا حصاد السنبل ويدرسنا دراس البقر، ويسومنا الخسيسة ويشغلنا الجلبة. هذا ابن أرطاة قدم بلادي، فقتل رجالي وأخذ أموالي، ولولا الطاعة لكان فينا عزّ ومنعة، فإما عزلته فشكرناك، وإما لا فعرفناك. فقال: إياي تهددين بقومك، والله لقد هممت أن أردك إليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك. فسكتت، ثم قالت:

صلى الإله على روح تضمنه ... قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً ... فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال: ومن ذاك؟. قالت: علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال: ما أرى عليك منه أثراً. قالت: بل أتيته يوماً في رجل ولاه صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين، فوجدته قائماً يصلي، فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف: ألك حاجة؟. فأخبرته خبر الرجل. فبكى ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا بترك حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم: قد جاءتكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين، وما أنا عليكم بحفيظ، إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك. والسلام. فعزله والله يا أمير المؤمنين ما خزمه بخزام ولا ختمه بطين. فقال معاوية:

اكتبوا بالإنصاف لها والعدل عليها. قالت: ألي خاصة أم لقومي عامة؟. قال: ما أنت وغيرك؟. قالت: هي والله إذاً الفحشاء واللؤم، إن كان عدلاً شاملاً، وإلا يسعني ما يسع قومي. قال: هيهات، علمكم ابن أبي طالب الجراءة على السلطان، وغركم قوله:

فلو كنت بواباً على باب الجنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقوله:

ناديت همدان والأبواب مغلقة ... ومثل همدان مني فتحة الباب

كالهندواني لم تفلل مضاربه ... وجه جميل وقلب غير وجاب

اكتبوا لها بحاجتها.

وكان من حديث همدان ما حدث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام. فكنت فيمن سار معه، فأقام عليهم ستة أشهر لا يجيبوه إلى شيء. فبعث النبي صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب، وأمره أن يقفل خالداً ومن اتبعه إلا من أراد البقاء مع عليّ فيتركه. قال البراء: فكنت فيمن تعقب مع عليّ، فلما انتهينا إلى أوائل اليمن بلغ القوم الخبر فجمعوا له، فصلى بنا عليّ الفجر، فلما فرغ صفنا ثم تقدّم بين أيدينا فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، وكتب بذلك عليّ رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قرأ كتابه خرّ ساجداً ثم جلس فقال: السلام على همدان، السلام على همدان، وبايع أهل اليمن على الإسلام، ولما أسلموا قدم وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم مالك بن نمط فلقوه مقبلاً من غزوة تبوك، فقال مالك بن نمط: يا رسول الله نصبة من همدان من كل حاضر وباد أتوك على قلص نواج متصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم في الله لومة لائم من مخلاف خارف ويام، عهدهم لا ينقض عن سنة ماحل، ولا سوداء عنقفير ما أقام لعلع وما جرى اليعفور بصلع. فكتب لهم النبي صلى الله عليه وسلم: هذا كتاب من محمد رسول الله لمخلاف خارف وأهل جانب الهضب وحقاف الرمل، مع وافدها ذي المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه، إن لهم فراعها ووهاطها وعزازها، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عفاءها، لنا من دفئهم وصرامهم ما تعلقوا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلب والناب والفصيل والفارض والكبش الحوري وعليهم فيه الصالغ والقارح. قوله في هذا الحديث النصية: وهم المختارون. والمخلاف: الإقليم وخارف ويام: قبيلتان، ولعلع: جبل، واليعفور: ولد البقرة، وصلع: الصخرة البارزة المستوية، والفراع: أعالي الجبال، والوهاط:

المطمئنة، والعزاز: ما صلب من الأرض، وعلافها: جمع علف، والثلب من الإبل: الذكر الذي قد تكسرت أسنانه، والصالع من البقر والغنم: الذي كبر وتناهت سنه، والعفاء من الأرض: ما ليس لأحد فيه شيء؛ ودفئهم، يعني: إبلهم وشياههم، والصرام: النخل لأنه يصرم أي: يجنى، وأصل الصرم: القطع، والكبش الحوري: قال ابن قتيبة أراه منسوباً إلى الحور؛ وهي جلدة تتخذ من جلود المعز ومن جلود بعض الضأن.

وإذ وقع ذكر همدان فأذكر لك حكاية رجل من أفاضل تلك البلدان. حكي أن المهدي بينا هو يمشي ببغداد إذ وقع في حجره سهم فيه أربع رياشات مكتوب في الرياش الأول:

أتطمع في الحياة إلى التناد ... وتحسب أنك ما لك من معاد
ستسأل عن ذنوبك والخطايا ... وتسأل بعد ذاك عن العباد

وفي الرياش الثاني مكتوب:

هي المقادير تجري في أعنتها ... فاصبر فليس لها صبر على حال
يوماً تريش خسيس الناس ترفعه ... دون السماء وطوراً تخفض العالي

وفي الرياش الثالث:

يا راقد الليل مسروراً بلذته ... ألهتك في نومك الآمال والبطر
وساعدتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وفي الرياش الرابع مكتوب: همذان. فارتاع لذلك وجمع العلماء والفقهاء والوزراء وأعلمهم بذلك. فقالوا ينبغي أن يكون في حبسك رجل من أهل همذان قد حبس ظلماً، فدعا غلاماً له يدعى بدراً. فقال له: طف في الحبس. فطاف فيه، فإذا شيخ قائم يصلي في غل وكبل وهو يتلو: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١-٧٢]، فقال له: يا شيخ أوجز في صلاتك. فأوجز، فقال له: أين بلدك. قال: همذان. فحمله حتى أدخله على المهدي فرحب به وقربه وقال له: يا شيخ ما قصتك؟. فقال: استعملت علينا فلاناً فبلغه عن ضيعة لي نفيسة، فسألني فيها فأبيت عليه، فعمد إليّ فكبلني وغلني وكتب بي وأرسلني فصرت في السجن. فقال له المهدي: قد عزلنا صاحبك عنك، وقد استعملناك على همذان، وقد أمرنا لك بعشرة آلاف دينار، وقد حكمناك في صاحبك، وقد رددنا إليك ضيعتك. فقال: أما الولاية فلست أصلح لها، وأما العشرة آلاف فأنا غني عنها، وأما ضيعتي فقد قبلتها، وأما صاحبي فقد عفوت عنه. فقيل له: لمَ عفوت عنه وقد نزل بك ما نزل. قال: لأني سمعت الله عز وجل يقول: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤] فأحببت أن أكظم غيظي وأعفو عمن ظلمني وأحسن إلى من أساء إليّ، حتى أستكمل هذه الخصال التي وعد الله بها. قال: فما حضر أحد مجلسه إلا شكر ما كان من فعله.

وقريب من هذه الحكاية ما يروى: أن جارية لجعفر بن محمد كانت تصب على يديه الماء فأصاب الإبريق جبهته، فآلمه ألماً شديداً وتبينت الجارية ذلك فيه فقالت: يا مولاي ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ قال قد كظمت غيظي، قالت: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ قال: قد عفوت عنك. قالت: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] قال: أنت حرة لوجه الله تعالى ولك ألف درهم.

ومثل هذه الحكاية ما يروى أن أحد الملوك جاءه خادم بطعام فسقطت نقطة من القصعة على يد الملك فآذته. فنظر إلى الخادم نظر الغضبان، فعلم أنه يقتله، فرمى القصعة من يده وكسرها، فقال له: هبك تعذر على النقطة التي سقطت من يدك عليّ خطأ فأعذرك في كسر القصعة؟. قال: علمت أنك تقتلني فيقال: قتله في نقطة، فأردت أن أعظم ذنبي حتى لا تلام في قتلي. فعفا عنه لأدبه ولم يقتله.

وتقدّم الهلال، وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ [الإسراء: ١٢]، هو المحو الذي في القمر، وفضلت عليه الشمس بضيائها، وكانت الشمس والقمر عند نزول آدم عليه السلام سواء، فلم يعلم وقت البيع والشراء ولا أوقات الصوم والحج وغير ذلك. فأمر الله جبريل؛ أو ملكاً؛ يغطي القمر بجناحه آخر الشهر ويكشفه قليلاً قليلا من أوّله. وفي كتاب ابن سلام: محى من ضوء القمر من مائة جزء تسعة وتسعون جزءاً، وبقي جزء واحد. ويروى أن جبريل أمرّ جناحه على القمر فصارت تلك اللطخة فيه، ونقص من جرمه وبقي جرم الشمس على حاله.

وتقدّم الرجل يهل إذا رأى الهلال، ومعناه: يرفع صوته بالذكر والدعاء. فمن الأدب في ذلك والسنّة أن يقول الرجل؛ إذا رأى الهلال؛ ما روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الهلال لم يشر إليه بيده، وكان يقول: هلال يمن وهلال بركة اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام والهدى والمغفرة والتوفيق لما تحب وترضى والنجاة مما تسخط. وروى طلحة رضي الله عنه:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال قال: اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام، هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين، ربنا وربك الله. وروى أنس رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال قال: رشداً، آمنت بالذي خلقك فعدلك، تبارك الله أحسن الخالقين.

انظر هذا الكلام الذي كان يقوله عليه الصلاة والسلام ما أقربه من الرشاد وألصقه بالفؤاد أين هو من قول الأعرابي أبي زياد: عود عد عنا شرك أيها الشهر. ما أقبحه وأقساه، وأبعده من الخير وأقصاه. قال الخطابي وذكر قول أبي زياد المتقدّم. وقال أيضاً رحمه الله: وكان من دعاء العرب إذا رأوا الهلال قالوا: لا مرحبا بمحجين يحل الدين ويقرب الحين. وهذا نوع منه أيضاً. والشر يشبه بعضه بعضاً.

فالحمد لله الذي أنقذنا بمحمد عليه الصلاة والسلام من الضلالة وعصمنا من الجهالة. صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما طلع هلال وسمع إهلال.

ومن ملح الهلال قول الشاعر:

للناس في الشهر هلال ولي ... من وجهها في كل يوم هلال

وقد تقدّم، وهما بيتان في باب الجيم، وقال الشاعر:

لقد زاد الهلال إليّ حبّاً ... عيون تلتقي عند الهلال
إذا ما لاح وهو شفى صغير ... نظرن إليه من خلل الحجال

هذا في القناعة من المحبوب حسن جميل. ومنه قول جميل:

أقلب طرفي في السماء لعلها ... يوافق طرفي طرفها حين تنظر

وأقنع منه قول قيس بن ذريح:

أليست لبينى تحت سقف يكها ... وإياي هذا إذ نأت لي نافع
ويلبسنا الليل البهيم إذا دجا ... ونبصر ضوء الفجر والفجر ساطع

وقال المغلوط في هذا المعنى فأجاد لولا أنه أخنى:

وما نلت منها محرماً غير أنها ... إذا هي بالت بلت حيث تبول

وأحسن من هذا كله وأندر قول جحدر:

أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك بنا تداني
نعم وترى الهلال كما أراه ... ويعلوها النهار كما علاني

وكان جحدر هذا لصاً فوقع عليه الحجاج فسجنه، وقال وهو في السجن قصيدته التي فيها هذان البيتان، وهي من غرر القصائد أنشدنيها بعض الأصحاب أوّلها:

تؤوبني فبت لها كنسيعاً ... هموم ما تفارقني حوان

هـي العوّاد لا عوّاد قوم أطلن عيادتي في ذا المكان
إذا ما قلت قد أجلين عني ثنى ريعانهن عليّ ثاني
ألـيس الله يعلم أن قلبي يحبك أيها البرق اليماني

ومنها:

ومما هاجني فازددت شوقاً بكاء حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بلحن أعجمي على غصنين من غرب وبان
فكان البان أن بانت سليمى وفي الغرب اغتراب غير داني
أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك بنا تداني
نعم وترى الهلال كما أراه ويعلوها النهار كما علاني
فما بين التفرق غير سبع بقين من المحرم أو ثمان
فيا أخواي من كعب بن عمرو أقلا اللوم إن لم تنفعاني
إذا جاوزتما شعفات حجر وأودية السيمامة فانعياني
وقولا جحدر أمسى رهيناً يحاذر وقع مصقول يمان
يحاذر صولة الحجاج ظلماً وما الحجاج ظلام لجان

إلى آخرها. وكان آخر أمره أن أرسل عليه الحجاج أسداً قد جوّعه ثلاثاً، فبطش جحدر بالأسد فقتله، فعفا عنه الحجاج ووصله، وجعله في صحابته لما رأى من جرأته وشدته.

وروى أنس أيضاً قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى الكوكب منقضاً قال: اللهم صوّبه وأصب به، وأعوذ بك من شر ما يتبعه الشيطان. وكان عليه الصلاة والسلام إذا رأى السحاب قال: اللهم صيب رحمة لا صيب عذاب. وكان إذا رأى سحاباً مقبلاً من أفق من الآفاق ترك ما هو فيه وإن كان في الصلاة حتى يستقبله فيقول: اللهم إنا نعوذ بك من شر ما أرسلت به. فإن أمطر قال: اللهم صيباً نافعاً. وإن كشفه الله ولم يمطر حمد الله على ذلك. وكان يقول إذا سمع صوت الرعد والصواعق: اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك.

وحديث الموطأ الذي يرويه مالك عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته. ثم يقول: إن هذا الوعيد لأهل الأرض شديد. وجاء في غير الموطأ: سبحان ما يسبح الرعد له. ومن مراسيل أبي داود عن عبيد الله بن أبي سعد أن قوماً سمعوا الرعد فكبروا فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا سمعتم

الرعد فسبحوا ولا تكبروا.

ومنها عن سليمان بن عبد الله بن عويمر قال: كنت مع عروة بن الزبير فأشرت بيدي إلى السحاب. فقال: لا تفعل، فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يشار إلى المطر. وخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث طويل أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء ذكرها في الحديث، منها أنهم قالوا فأخبرنا عن الرعد ما هو؟. قال: ملك من الملائكة، مؤكل بالسحاب، بيده مخاريق من نار يسوق بهم السحاب حيث شاء الله. قالوا: صدقت. فما هذا الصوت الذي يسمع؟. قال: زجره بالسحاب إذا زجر، حتى ينتهي إلى حيث أمر. قالوا: صدقت. وذكر باقي الحديث.

فائدة:

قال الأستاذ رحمه الله: ربّما قالت العرب: سبحان ما يسبح الرعد له، فقولهم: ما يسبح؛ قال أهل اللغة: (ما) تقع على ما لا يعقل، فالجواب: إن (ما) قد تقع على من يعقل بقرينة وهو الإبهام والمبالغة في التعظيم والتفخيم. قال الله تعالى: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون: ٣] عبر بـ (ما) هاهنا عن الباري سبحانه، لأن من جلت عظمته حتى خرجت عن الحصر وعجزت الأفهام عن كنه ذاته، وجب أن يقال فيه هو ما هو، كما قالوا: سبحان ما يسبح الرعد له. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٥]، فكان المعنى أن شيئاً بناها لعظيم، أو ما أعظم بناءها، أو ما أعظمه من شيء، فلفظ (ما) في هذه المواضع يؤذن بالتعجب من عظمته أي: كائناً ما كان هذا الفاعل لهذا فما أعظمه. ومن هذا القبيل في قصة آدم عليه السلام: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]. انتهى كلامه.

وكان عليه الصلاة والسلام يقول عند الريح: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشرّ ما فيها وشرّ ما أرسلت به. وقال: لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح. وذكر الحديث إلى آخره. ولعن رجل الريح عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه.

وجاء في الريح عن أبي ذر رضي الله عنه: إن الله تعالى خلق في الجنة ريحاً بعد الريح بسبع ستين، وإن من دونها باباً مغلقاً، فإنّما يأتيكم الروح من خلل ذلك الباب،

ولولا ذلك الباب لأذرت الريح ما بين السماء والأرض، وهي فيكم الجنوب، وهي عند الله الأزيب، والخروج أيضاً من أسماء الجنوب. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما راحت جنوب قط إلا سال في واد ماء رأيتموه أم لم تروه.

والرياح أربعة: الجنوب وهي عندنا القبلية. والشمال: وهي الحوفية. والقبول: وهي الشرقية، وهي الصبا، وتأتي من مطلع الشمس. والدبور: وهي الغربية. وهي التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور. وهي العقيم، ولا تلقح شيئاً وهي تحت الأرض الرابعة، وإنما أرسل عليهم منها قدر منخر ثور. وسنذكر كيف خلق الله من الريح الجنوب فرساً انظره في باب الهاء والألف إن شاء الله.

ومن أسماء الشمال: محوة سميت بذلك لأنها تمحو السحاب نحو السماء، هذا قول الأصمعي. وقال أبو زيد: هي الدبور. وأنشدا جميعاً:

قد بكرت محوة بالعجاج   فدمرت بقية الرجاج

ومن أسماء الجنوب: النعامى. قال الهذلي:

تريه النعامي فلم يعترف   خلاف النعامي من الشام ريحا

وكل ريح جاءت بين مهبي ريحين فهي نكباء سميت بذلك لأنها تنكب عن مهاب هذه الأربعة.

والريح جند من جنود الله تعالى ينفع الله بها ويضرّ كما تقدّم. تكون على قوم عذاباً، ولقوم رحمة، وقد جعل الله فيها من المنافع ما لا يحصى كثرة، وجعل فيها أيضاً من المضار كثيراً وهي في نفسها خلق من خلقه، لا تضرّ ولا تنفع حتى تؤمر، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥]، وقد يضرّ الله بغير الريح. قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وهي من آيات الله، كما قال الله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم: ٤٦]، وآيات الله يخوّف الله بها عباده. والإنسان خلق ضعيف ومع ضعفه كثير الذنوب، فكيف لا يفزع؟ لكن في العلم وفي العلماء أنس. خرج مسلم رحمه الله في كتابه: هاجت ريح حمراء بالكوفة فجاء رجل ليس له هجيرى فقال: ألا يا عبد الله بن مسعود جاءت الساعة، قال: فقعد وكان متكئاً فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة. وقد تقدّم أن قبل الساعة أشراطاً وعلامات ودلالات فما دامت لا تظهر ففي الأمر تأخر.

ولقد آتانا بمالقة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة كتاب من أهل مصر، زعموا أن

أهل الهند بعثوا إليهم به، ارتاعت له نفوس الضعفاء من العوام والنساء، حتى خرج بعض العوام إلى البادية وترك داره بالمدينة وناديه، واحتفروا تحت الأرض سرباً وأنفاقاً، وأعدوا فيها أقواتاً وأرزاقاً، ليتحصن الداخل فيها، ويستريح من مضرة تلك الريح التي خوّفهم بها صاحب ذلك الكتاب الأفاك الكذاب، وكان نصه:

كونوا على حذر بنيّ وانتظروا ... كواكب الخمس في الميزان تقترن
بعد الثمانين عاماً فالقران بدا ... فلا تغرنكم الأشغال والمهن
وبعدها ستهب الريح عاصفة ... تبيد بعض بني الدنيا وما سكنوا
تَحصنوا في كهوف من جبالكم ... شهراً إذا ما أتاكم ذلك الزمن
فليس ينجي الورى منها إذا ظهرت ... من المنون حصون الأرض والمدن
فإن أعش وشهدت الحال كنت لهم ... نوحاً إذ انتشيت في عصره السفن
وإن أمت فافعلوا ما قد أمرتكم ... جهراً فإن جميع الخلق ما فطنوا
كونوا على حذر عامين وانتظروا ... فإنها بأفوق الأرض تُمتحن

وبعد هذا الشعر البارد، ما نصه عليك وارد، وهو أنه صح عندنا خبر هذا الطوفان واجتماع الكواكب في الميزان، فدل على خراب جميع البلدان بالجملة، ولا يبقى على وجه الأرض جدار ولا شجرة قائمة إلا تذهب من شدة الريح، وتكون هذه الريح من نصف ليلة الاثنين إلى نصف يوم الأربعاء من اليوم التاسع والعشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثمانين، ولا تبقي مدينة إلا ويعمها الرمل، وقد استعد أهل الهند بحفر الغيران في الأرض الصلبة، ويكون مع هذه الريح الخسف والزلازل، وهي ريح سوداء لها هبوب عظيم. ولما أتتنا هذه الرسالة تخير لها كما تقدّم قلوب كثير من العوام التي تأتي بالطوام، ولم يشكوا أنه حق، وأنه هلاك هذا الخلق، إلا من عصمه الله من أهل العلم والدين ممن لا يعبأ بكلام المنجمين الملحدين،ولما أرسلت إليّ وفتحتها، وأمعنت النظر فيها وتصفحتها، رأيتها في الظاهر آفة، وفي الباطن سخافة وخرافة، وأن ذلك الشعر الفاتر، ينبي عن قائله أنه كافر، لادعائه علم الغيب الصحيح، وهذا هو الكفر الصريح، وذكر في شعره القبيح، إهلاك الخلق بالريح، وشبه نفسه في ذلك الكلام بنوح على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام. فقلت أردّ عليه ذلك القول، وأسكن قلوب الناس من ذلك الهول، ولله المنة والطول، وبيده القوة والحول:

سبحان من يعلم الأشياء قاطبة ... فعنده يستوي الإسرار والعلن
هو العليم الخبير الحي جل فلا ... يعروه سهو ولا نوم ولا وسن
ويعلم الغيب لم يطلع بريته ... عليه فهو لديه الدهر مختزن

حتى النبيون لا يدرون ما بغد إلا بوحي فهم إن يعلموا فمن
وهذه حكمة لو لم تكن فسدت أمورنا واعترانا الضعف والوهن
فأنت يا أيها الهندي فهت بما يردّه العقل والقرآن والسنن
أخبرت أن ستهب الريح عاصفة تبيد بعض بني الدنيا وما سكنوا
يكون يوم كذا من شهر عام كذا كذبت أنت لعمر الله مفتتَن
سميت نفسك نوحاً يا جهول فح وليكثر الهم مما قلت والحزن
قلت القران وخليت القران ولم تَحفل به ويك هذا الخسر والغبن
جعلت للنجم تأثيراً فأنت به مصدق ولقول الله مُمتهن
تركت آخر لقمان وقلت إذا كواكب الخمس في الميزان تقترن
كان الزلازل والريح الشديدة والـ خسف العظيم وكان الهلك والمحن
من أين يا مدع للغيب تعلم ذا شعر ركيك بجهد النفس يتزن
نطقت بالكفر فاسكت فض فوك فما تصغي لما قلته من باطل أذن
ترى الرسول مضى لم يدر ذلك أم دري ولم يخبر الصحب الذين فنوا
أم الصحابة لم تخبر بذلكم للتابعين وكان القوم مؤتَمن
حاشاهم أن يكونوا كاتمين لما فيه صلاح لنا قبيح أم حسن
أو لم يكن ناصح للناس بعدهم من ذلك الوقت حتى جاء ذا الزمن
وجئت أنت من أرض الهند تنصحنا لا كنت من ناصح في نصحه فتَن
لا يعلم الغيب إلا الله منفرداً أما النبيون لولا الوحي ما فطنوا
هذا اعتقادي وأهل الحق كلهم وهو السبيل القويم الرحب والسنن
آمنت بالله ربي والنبي وكذّبت الـ ـنجوم ومن بشأنهنّ عنوا
من كان بالشام منهم والعراق ومن بالسند والهند أو من ضمه وطن
يقول ذلكم ابن الشيخ يوسف والـ ـله الموفق والهادي له المنن

ولما رأى الناس هذا الذي قلته، وفي هذا الكتاب نقلته، استبشروا بذلك فرحاً، وأزال الله؛ وله الحمد؛ عنهم به ترحاً، ثم لما أتى ذلك الوقت الذي سمى لهم ذلك الكذاب، وقى الله عبيده ذلك العذاب. قلت أيضاً شكراً لله الملك الوهاب:

يا أيها الناس اشكروا ربكم لم يك خسف ولا ريح
وكذبة الهندي لم تتفق وكان ما قد قاله الريح
تعساً له من كاذب مفتر لسانه حركه الريح
وحافر القرية أفاكه إذ هزه ذلكم الريح

صدق كذاباً فلا حجة أدلى بها بل قوله الريح
فظل يبغي نفقاً في الثرى ليحتمي إن هبت الريح
هيهات ريح الموت آتية لا بدّ وإن لم تأته الريح
الحمد لله الذي عنده الـ ـخير ومن رحمته الريح
يرسلها بين يدي غيثه بشرى لنا يا حبذا الريح
ليست كما قال هلاكاً كما أهلك عاداً قبلنا الريح
آمنت بالله الذي يفعل الـ ـأشياء لا الكوكب والريح
ما تملك الأنجم دفعاً ولا نفعاً ولا ضرّاً ولا الريح
ما هي إلا في السماء زينة تحملها الأفلاك لا الريح
ويهتدى من ظلمات بها في البر والبحر ولا ريح
وللشياطين رجوم ومن قال سوى ذا قوله الريح

فائدة في الريح :

قال ابن السيد، وذكر بيتاً فيه الريح، قال: أراد الشاعر بالريح: الرياح، فوضع الاسم المفرد موضع الجمع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، ويجوز أن يكون الريح: جمع ريحة، وهو لغة في: الريح، وهو من الجمع الذي بينه وبين واحده هاء التأنيث نحو: سدر وسدرة. وقد قالوا: ريح، كما قالوا: سدر. قال الراجز:

أجدل ضار يوم كل وريح

وقرأ بعض القراء: (وأرسلنا الريح لواقح)، وإذ وقع ذكر القران فيما تقدم فانظر كيف كان مذهب الصالحين في ذلك. قيل لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو يريد أن يخرج إلى سفر: ما أحسن القمر الليلة. قال فرفع رأسه فنظر فقال: تقول مقارناً إنا لسنا ننظر في ذلك. خرجه ثابت رحمه الله، وقال: القران هو الذي تسميه العرب: المكالحة، يقال: قد كالح القمر: إذا نزل مقارناً للمنزلة ولم يعدل عنها، وكان العرب يكرهون ذلك، والقمر يقارن بالثريا مرتين في السنة عند انصرام البرد، قال الشاعر:

إذا ما قارن القمر الثريا لخامسة فقد ذهب الشتاء

وذلك يكون إذا انحدرت عن وسط السماء إلى ناحية المغرب فقارنت القمر في الليلة الخامسة من الشهر، فحينئذ يذهب البرد ويطيب الزمان، وكذلك أيضاً يقارنها لخامسة من الشهر عند انصرام الحر، قال الشاعر:

إذا مـــا قـــارن القمـــر الثـــريا ... لِخامـــسة فقـــد ذهـــب المَـــصيف

◆◆◆

خـــرجت مـــن شـــيء إلـــى غيـــره ... وطـــاب لـــي الغيـــر فطـــال الكـــلام
لكننـــي أكمـــل مـــن بعـــد ذا ... بـــاب الهـــلال المبـــتدا والـــسلام

قال ابن السيد: إن الهلال ينصرف في كلام العرب على عشرين معنى، والقمر على ستة معان، والكوكب على خمسة، والنجم على ستة. قال صاحب العين: إن الهلال بقية الماء في الحوض، والهلال قطعة من الرحا، والهلال الحية الذكر. وذكر صاحب كتاب التاج: الهلال كذا وكذا؛ لما تقدّم، وزاد: الهلال: السنان الذي له شعبتان يصاد به الوحش.

وإذ جرى ذكر الحيات فاسمع فيها أيضاً حكايات، لأن هذا الكتاب فيه موائد منصوبة للفوائد، فأنعم بها أيها الوارد، وادع للولد والوالد. ذكر في فضائل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بينما هو يمشي في أرض فلاة فإذا حية ميتة، فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها، فإذا قائل يقول: يا سرق أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك: ستموت بأرض فلاة فيكفنك ويدفنك رجل صالح، فقال: من أنت يرحمك الله؟. فقال: رجل من الجن الذين سمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يبق منهم إلا أنا وسرق، وهذا سرق قد مات.

وذكر ابن سلام من طريق أبي إسحاق السبيعي عن أشياخه عن ابن مسعود أنه كان في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم يمشون، فرفع لهم إعصار، ثم جاء إعصار آخر أعظم منه، ثم انقشع فإذا حية قتيل، فعمد رجل منا إلى ردائه فشقه وكفن الحية ببعضه ودفنها. فلما جنّ الليل إذ امرأتان تسألان: أيكم دفن عمرو بن جابر؟. فقلنا: ما ندري من عمرو بن جابر. فقالتا: إن كنتم ابتغيتم الأجر فقد وجدتموه. إن فئة من الجن اقتتلوا مع المؤمنين منهم، فقتل عمرو بن جابر، وهو الحية التي رأيتم، وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد صلى الله عليه وسلم، ثم ولوا إلى قومهم منذرين.

ونوع من هذا اعترى أمية بن أبي الصلت؛ واسم أبي الصلت ربيعة بن علاج الثقفي؛ وكان مصحوباً تبدو له الجنّ، خرج في عير لقريش مسافرين فمرت بهم حية فقتلوها، فاعترضت لهم حية تطلب بثأرها وقالت: قتلتم فلاناً، ثم ضربت الأرض بقضيب فنفرت الإبل، فلم يقدروا عليها إلا بعد عناء شديد. فلما جمعوها جاءت وضربت الأرض فنفرتها، فلم يقدروا عليها إلى نصف الليل، حتى جاءت فنفرتها، حتى

كادوا يهلكوا عطشاً وعناء وهم في مفازة لا ماء فيها. فقالوا لأمية: هل عندك غناء أو حيلة؟. قال: لعلها، ثم ذهب حتى جاوز كثيباً فرأى ضوء نار على بعد فاتبعه حتى أتى على شيخ في خباء، فشكا إليه ما نزل به وبصحبه. وكان الشيخ جنياً؛ فقال: اذهب فإذا جاءتكم فقل باسمك اللهم سبعاً. فرجع إليهم وقد أشرفوا على الهلاك، فلما جاءتهم الحية قالوا ذلك، فقالت: تباً لكم من علمكم؟ فذهبت. وجمعوا إبلهم، وكان فيهم حرب بن أمية جدّ معاوية، فقتلته بعد ذلك الجنّ بثأر تلك الحية، وقالوا فيه:

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

وقد أسلمت عاتكة أخت أمية هذا وخبرت عنه بخبر. ذكر عبد الرزاق أنها جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته أنها رأت؛ وهي في اليقظة؛ نسرين نزلا على سقف بيتها، وفيه أمية أخوها نائماً، فشقا السقف ونزل أحدهما على أمية فشق صدره وحشاه بشيء ثم أصلحه وعرج، فقال له النسر الآخر: هل وعى؟. قال: نعم. قال: وهل زكا؟. قال: لا. فلذلك كان ينطق بالحكمة في أشعاره ويذكر التوحيد ويعظم الرب ويذكر الجنة والنار. فلما قتل من قتل من أشراف قريش بكاهم ورثاهم، وحقد على الإسلام وحرم التوفيق، وفيه أنزل الله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، وكان قد قرأ التوراة والإنجيل في الجاهلية، وكان يعلم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، فطمع أن يكون هو، فلما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم وصرفت النبوة عن أمية حسد وكفر، وهو أوّل من كتب باسمك اللهم، ومنه تعلمت قريش. وقدمت الفارعة بنت أبي الصلت؛ أخت أمية؛ على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وكانت ذات عفاف وجمال؛ فقال لها: أتحفظين من شعر أخيك شيئاً؟. فأخبرته خبره وما رأت منه وقصت عليه قصته في شق جوفه وإخراج قلبه ثم صرفه بمكانه وهو نائم، ثم أنشدته من قوله قصيدة أوّلها:

باتت همومي تسري طوارقها ... أكف عيني والدمع سابقها

ومنها:

ما أرغب النفس في الحياة وإن ... تحيى قليلاً فالموت لاحقها
يوشك من فرّ من منيته ... في بعض غراته يوافقها
من لم يمت غبطة يَمت هرماً ... للموت كأس والمرء ذائقها

وقال عند موته:

إن تغفر اللهم تغفر جماً ... وأي عبد لك لا ألما

ثم قال:

كـــل عـــيش وإن تطـــاول دهـــراً صـــائر مـــرة إلـــى أن يـــزولا
ليتني كـنت قـبل مـا قـد بـدا لـي فـي قـلال الجبال أرعـى الوعـولا

ثم مات. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا فارعة كان مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ذكر هذا أبو عمر بن عبد البر رحمه الله. وذكر غيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كاد أمية بن أبي الصلت يسلم.

وذكر ابن أبي الدنيا عن رجل من التابعين أن حية دخلت عليه في خبائه تلهث عطشاً فسقاها، ثم إنها ماتت فدفنها، فأتي من الليل فسلم عليه وشكر، وأخبر أن تلك الحية كانت رجل من جنّ نصيبين اسمه زوبعة.

وقد قتلت عائشة رضي الله عنها حية رأتها في حجرتها دخلت عليها وهي تقرأ القرآن، فأتيت في المنام فقيل لها: إنك قتلت رجلاً مؤمناً من الجنّ الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت: لو كان مؤمناً ما دخل على حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم. قيل: ما دخل عليك إلا وأنت متقنعة، وما جاء إلا ليسمع الذكر، فأصبحت عائشة فزعة فاشترت رقاباً فأعتقتهم. وفي رواية: أمرت باثني عشر ألفاً فجعلتها في سبيل الله رضي الله عنها.

وقد جاء في الحيات من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رأى في بيته من هذه الحيات شيئاً فليحرّج عليه ثلاثاً، فإن رآه بعد ذلك فليقتله، فإنّما هو كافر. ذكره الترمذي. وقال أبو ليلى: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا ظهرت الحية في المسكن فقولوا لها: إنا نسألك بعهد نوح وبعهد سليمان بن داود لا تؤذينا، فإن عادت فاقتلوها.

وخرج أيضاً عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقتلوا الحيات، واقتلوا ذا الطفيتين والأبتر فإنهما يلتمسان البصر ويسقطان الحبل.

وقد جاء أنه نهى بعد ذلك عن قتل حيات البيوت؛ وهي العوامر؛ وهي تتمثل في صورة الحية، فلا تقتل حتى تؤذن. قال مالك: أحب أن تنذر عوامر البيوت ثلاثة أيام. ولا تنذر في الصحاري. ويروى عن عبد الله بن المبارك: إنّما يكره من قتل الحيات التي تكون دقيقة كأنها فضة ولا تتلوى في مشيتها.

وقال النضر بن شميل: الأبتر من الحيات: صنف أزرق مقطوع الذنب لا تنظر إليه حامل إلا ألقت ما في بطنها. ومعنى يلتمسان البصر: يطمسانه ويذهبان به. وحديث

الموطأ الذي ذكر فيه الفتى الذي وجد امرأته قائمة بين البابين فأهوى إليها بالرمح ليطعنها وأدركته غيرة فقالت: لا تعجل حتى تدخل وتنظر ما في بيتك، فإذا هو بحية منطوية على فراشه، فركز فيها رمحه ثم خرج بها، فنصبه في الدار، فاضطربت الحية في رأس الرمح وخرّ الفتى ميتاً، فما يدري أيهما كان أسرع موتاً الحية أم الفتى. فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن بالمدينة جناً قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان.

وللحيات أسماء كثيرة منها: الأرقم الذي جاء في الموطأ: هو إذاً كالأرقم إن يترك يلقم، وإن يقتل ينقم. ومنها: الأسود وهو العظيم منها، وجمعها: أساود، والأنثى: أسودة، كأرمل وأرملة. وجاء منه في الحديث، وذكر الفتن: لتعودن فيها أساود صبي يضرب بعضكم رقاب بعض. ويقال: أسود سالخ: لأنه يسلخ جلده كل سنة، والأنثى، كما تقدّم: أسودة ولا يقال فيها: سالخة. وقال بعض العلماء: امش خلف الأسد والأسود، ولا تمش خلف المرأة. وقد تقدّم الشجاع الشجعم، والأحزم: الحية الذكر، تقدّم الأيم، ويقال فيه أيضاً: أيّم، بالتشديد، قال ع:

تسوق النساء على عفة ليجزيك الواحد القيم
فأبكارهن ابتكار البلا وأيمهن هي الأيّم

يريد الحية. ولأبي محمد: ينساب في توصله إلى المآرب انسياب الأيم، ويلج في توسله على الكواعب أبواب الخيم. وقد تقدّم قبل انظره بكماله في التكميل. وقد تقدّم في الحديث: أبو قترة حية خبيثة. وقترة: اسم إبليس. وكذلك جاء في الحديث الآخر: إن الحباب اسم رجل، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، وقال الحباب: اسم شيطان. وقال المبرد: الحباب حية بعينها، وأنشد لعمر بن أبي ربيعة:

ونغصت عني العين أقبلت مشبه الحباب وركني خيفة القوم أزور

قال الأصمعي: الحباب الحية، وإنما قيل: الحباب اسم شيطان لأن الحية يقال إنها شيطان. وإنّما كره رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم الحية لخبثها وغائلتها. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغير الاسم القبيح بالاسم الحسن، وقد غير عدة أسام، ومن أحسن ما رأيت في ذلك البيت الذي يروى:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

كذا رواه جميع الرواة الثعلبان بضم الثاء واللام. وكذا قال الكسائي، وأنشد البيت. وقال: الثعلب معروف، والأنثى ثعلبة، والذكر ثعلبان، كما تقدّم. ورواه أبو حاتم الرازي في كتابه الرتبة الثعلبان، بفتح الثاء واللام، تثنية ثعلب. وذكر أن بني سليم كان

لهم صنم يعبدونه، وكان له سادن يقال له: غاوي بن ظالم. فبينا هو يوماً جالس إذ أقبل ثعلبان يستدان، فشغر كل واحد منهما رجله فبال على الصنم. فقال: يا بني سليم، والله ما يعطي ولا يمنع ولا يضرّ ولا ينفع:

أرب يـــبول الثعلـــبان برأســـه

البيت. ثم كسر الصنم وفرّ، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم، فقال له: ما اسمك؟. قال: غاوي بن ظالم. فقال: لا أنت راشد بن عبد ربه. قال الراوي: فهذا الخبر يوجب أن يكون الثعلبان على التثنية. وإذ خرجنا من الحيات إلى الثعلب فلنذكره في هذا الكتاب، الثعلب أيضاً: طرف الرمح الداخل في حية السنان. والثعلب: مخرج ماء المطر من جرين التمر. وقد جاء في الحديث هذا كذا. وداء الثعلب: علة معروفة يتناثر منها الشعر. وأرض مثعلبة؛ بكسر اللام؛ ذات ثعالب. وثعالة أيضاً: اسم الثعلب، وقد تقدّم:

قـــل لمـــن عـــاب ســـليمى أنـــت عـــندي كـــثعاله

وممن غير اسمه: سعد الخيل؛ اليهودي؛ باع من النبي صلى الله عليه وسلم آصعاً من شعير إلى أجل، ثم جاء يتقاضاه قبل الأجل؛ وأراد بذلك اختباره ليعلم أهو نبي فلا يغضب، فإن كان غير ذلك فسيرد عليه، لأنه أغضبه بأن قال له: إنكم بني عبد المطلب قوم مطل. فهم به عمر لإغلاظه، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقضيه ويزيده، فقضاه عمر العدة المسماة، ثم أخذ يزيده، فقال سعد الخيل: ما لي عندكم غير هذا. فقال عمر: قد أمرني أن أزيدك كذا وكذا لإغلاظك له. فقال سعد: والله لا آخذ منها شيئاً، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأتى به عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بالحديث، وذكر سعد ما قصد إليه من الاختبار. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أنت سعد الخير. وتم على إسلامه وحسن عمله والحمد لله.

ووقع في الحلية عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فأقبل راكب حتى أناخ عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني أتيتك من مسيرة تسع، أنضيت راحلتي، وأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري لأسألك عن خصلتين أسهرتاني. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما اسمك؟. فقال: أنا زيد الخيل. قال: بل أنت زيد الخير، فسل فرب معضلة قد سئل عنها. قال: أسألك عن علامة الله فيمن يريده، وعن علامته فيمن لا يريده. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كيف أصبحت؟. قال: أصبحت أحب الخير وأهله ومن يعمل به. فإن عملت به أيقنت بثوابه، وإن فاتني منه شيء حنت إليه جوارحي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هذه

علامة الله عز وجل فيمن يريد، ولو أرادك بالأخرى لهيأك إليها، ثم لم يبال في أي واد هلكت.

رجع الكلام بعد هذه الحكايات إلى ذكر الحيات. قال علقمة بن قيس: من قتل حية فقد قتل كافراً. وقال عبد الله بن عمر: الحيات من ذرية إبليس ولكنهن مسخن، وما سالمناهن منذ حاربناهن، فمن تركهن تقية فليس منا. وفي الحديث: من خشي منهن فليس منا، وإن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية. وأمر بقتلهن حتى في الصلاة.

تقدّم ذكر الشيطان والجنّ، أما الشيطان: فاسم لكل مارد من الجنّ والإنس. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال في كراهية الشيطان: ﴿ كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الصافات: ٦٥]، وإنّما سمي شيطاناً؛ لبعده عن الخير. وسمي الجن جناً؛ لاستتارهم عن أعين الناس. وفي الجن فسقة ومؤمنون، كما تقدّم، وقال عليه الصلاة والسلام: إن بالمدينة جناً قد أسلموا. وقد جاء في إسلام الجن غير ما حديث، والقرآن يدل عليه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الجن: ١-٢]. وخرج ابن شيبة بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة. وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ليلاً، قالت: فغرت عليه، فرأى ما أصنع، فقال: ما لك يا عائشة أغرت؟. فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوَقد جاءك شيطانك؟. قلت: يا رسول الله أوَمعي شيطان؟. قال: نعم. قلت: ومع كل إنسان؟. قال: نعم. قلت: ومعك يا رسول الله؟. قال: نعم، ولكن الله أعانني عليه حتى أسلم. ويروى: أسالم أي: أسلم منه. وفي رواية: فلا يأمرني إلا بخير.

وذكر في معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن: ٦] أن حجاج بن علاط السلمي قدم مكة في ركب، فأجنهم الليل في واد مخوف موحش، فقال له الركب: قم خذ أماناً لنفسك ولأصحابك، فجعل يطوف بالركب ويقول:

أعيذ نفسي وأعيذ صحبي ... من كل جني بهذا النقب
حتى أؤوب سالماً وركبي

فسمع قارئاً يقرأ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] الآية، فلما

قدم مكة أخبر كفار قريش بما سمع، فقالوا: صبأت يا أبا كلاب، إن هذا يزعم محمد أنه أنزل عليه. قال: والله لقد سمعته وسمعه هؤلاء معي. ثم أسلم وحسن إسلامه، وهاجر إلى المدينة وابتنى بها مسجداً فهو يعرف به. وحجاج هذا هو والد نصر بن حجاج الذي قيل فيه:

أم لا سبيل إلى نصر بن حجاج

وكان نصر هذا من أحسن أهل زمانه صورة، فهويته امرأة ودنفت من الوجد به، ثم لهجت بذكره حتى صار ذكره هجيراها. فمرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات ليلة بباب دارها، فسمعها تقول البيت الذي تقدّم شطره، فقال: أمّا ما كان عمر حيّاً فلا، ثم قال: من هذه المتمنية؟. فلما عرف خبرها وأصبح أحضر المتمني، فلما رآه بهره جماله فقال: أنت تتمناك الغانيات في خدورهن لا أم لك؟! أما والله لأزيلن عنك رداء الجمال، فدعا الحجام فحلق جمته، ثم تأمله فقال: أنت محلوقاً أحسن! فقال: وأي ذنب لي في ذلك؟. فقال: صدقت الذنب لي أن تركتك في دار الهجرة، ثم أركبه جملاً وصيره إلى البصرة. فاعترى نساء البصرة منه مثل ذلك. وضرب المثل بلفظة عمر، فقيل: أصبى من المتمنية. ولما خشيت المرأة التي سمع منها عمر أن يبدر منه إليها شيء كتبت إليه أبياتاً:

قل للإمام الذي تخشى بوادره ... ما لي وللخمر أو نصر بن حجاج
إني فتنت أبا حفص بغيرهما ... شرب الحليب وطرف فاتر ساجي
إن الهوى زمه التقوى فحبسه ... حتى أقر بإلجام وإسراج
لا تجعل الظن حقاً أو تيقنه ... إن السبيل سبيل الخائف الراجي

فبكا عمر رضي الله عنه وقال: الحمد لله الذي حبس الهوى التقوى. وكتب نصر بن حجاج إلى عمر من البصرة: سلام عليك يا أمير المؤمنين:

لعمري لئن سيرتني وحبستني ... فما نلت من عرضي عليك حرام
أإن غنت الذلفاء يوماً بمنية ... وبعض أماني النساء غرام
ظننت بي الأمر الذي ليس بعده ... بقاء فما لي في النداء كلام
ويمنعني مما تقول تكرمي ... وآباء صدق سالفون كرام
ويمنعها مما تمنت صلاتها ... وحال لها في قومها وصيام
فهاتان حالانا فهل أنت راجعي ... فقد جب مني غارب وسنام

فقال عمر رضي الله عنه: أما ولي الإمارة فلا. واشتد على أم نصر غيبة ابنها عنها، فتعرضت لعمر بين الأذان والإقامة فقعدت له على الطريق، فلما خرج يريد صلاة

العصر قالت: يا أمير المؤمنين لأخاصمنك بين يدي الله عز وجل، ثم لأخاصمنك، أيبيت عبد الله وعاصم إلى جنبيك وبيني وبين ابني المفاوز والفيافي والجبال؟. فقال لها: يا أم نصر إن عبد الله وعاصم لم تهتف بهما العواتق في خدورهن. قال وانصرفت ومضى عمر إلى الصلاة. قال وأبرد رضي الله عنه إلى البصرة بريداً وأقطع لنصر بالبصرة داراً ومالاً.

وشبيه بهذا الباب ما يروى أن سليمان بن عبد الملك كان شديد الغيرة، فسمع مغنياً حسن الصوت، فأرسل إليه فعاقبه، فقيل له في ذلك. فقال: إن الفرس ليصهل فتستودق له الرمكة، وإن الفحل ليخطر فتضبع له الناقة، وإن التيس لينب فتستحرم له العنز، وإن الرجل ليغني فتشبق إليه المرأة. ويكفي من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: رويداً يا أنجشة لا تكسر القوارير. يعني ضعفة النساء، وقد تقدّم. وحديث سليمان هذا ذكره الخطابي رحمه الله، ولم يذكر ما عاقبه به. قيل: قال اخصوهم. وذكر أنهم كانوا جماعة سمع غناءهم في معسكره. فقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إنها مثلة، وطلب إليه فخلى سبيلهم.

تقدّم أن الحجاج بن علاط سمع قراءة الجن، وممن كلمته الجن سعيد بن المسيب رضي الله عنه. نظر ذات يوم في المسجد فلم ير فيه أحداً ممن يعرفه فنادى بأعلى صوته:

ألا ذهب الحماة وأسلموني ... فوا أسفي على فقد الحماة
هم كانوا الثقات لكل أمر ... وهم زين المحافل في الحياة
تولوا للقبور وخلفوني ... فوا أسفي على موت الثقات

فأجابه هاتف من ناحية المسجد يسمع صوته ولا يرى شخصه:

فدع عنك الثقاة وقد تولوا ... ونفسك فابكها حتى الممات
وكل جماعة لا بدّ يوماً ... يفرق جمعهم وقت الشتات

فقال له سعيد بن المسيب: من أنت يرحمك الله؟. قال: أنا رجل من الجن، كنا في هذا المسجد تسعين رجلاً، فأتى الموت على جماعتنا كما أتى على جماعتكم، ولم يبق منا أحد غيري كما لم يبق منك أحد غيرك، ونحن يا أبا محمد لاحقون بهم عن قريب. قال ابن المسيب: ولقد لقيته بعد ذلك بمكة، وظهر لي وسلم عليّ، ثم لم أره بعد ذلك.

وتقدّم أن الحباب اسم للحية، والحباب أيضاً: الحب، قال الشاعر:

فوالله ما أدري وإني لصادق ... أداء عراني من حبابك أم سحر

على أنه يروى: (من جنابك) أي: من ناحيتك، ويروى أيضاً: (من حبابك) بكسر الحاء، والحباب بفتحها: معظم الماء، كما قال طرفة:

يشق حباب الماء حتى وهابها كما اقتسم الترب المغايل باليد

والحباب أيضاً: طرائق الماء. وقيل: هي النفاخات التي تعلوه، ويقال لها: اليعاليل أيضاً، واحدتها: حبابة، وبها سميت المرأة. قال امرؤ القيس:

سموّ حباب الماء حالاً على حال

والحباب، بالكسر: جمع حب، وهي الجرة العظيمة كالخابية. وفي حديث أبي أيوب رضي الله عنه: انكسر حب لنا، وذكر الحديث وكيف جعل ينشفه بقطيفة لهم خيفة أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء، وكان في غرفة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في البيت تحتهم، حتى نقله إلى الغرفة واستراح. ويقال: حبابك أن تفعل كذا، أي: غايتك، والحبب: تنضد الأسنان. قال طرفة:

وإذا تضحك تبدي حبباً كرضاب المسك بالماء الخصر

والحباحب: اسم رجل بخيل كان لا يوقد إلا ناراً ضعيفة مخافة الضيفان، فيضرب به المثل حتى قالوا: نار الحباحب. كما قال:

ويوقد بالصفاح نار الحباحب

وقيل: الحباحب: ذباب يطير بالليل كأنه نار. قال الكميت:

كنار أبي حباحب والظبينا

وربما جعلوا الحباحب اسماً للنار، كما قال الكسعي:

ما بال سهمي يوقد الحباحبا

والكسعي أيضاً له خبر طويل، وكذلك أبو الحباحب أمره مهول. وهذه المعاني إن تتبعت تسلسلت وتنسلت، فليس إلا قطع هذه الأسباب والرجوع إلى بقية الباب.

خرجت من الهلال إلى سواه ولا عتب كذا كان اشتراطي
ولكن لم أزل من علم إلا لآخر كي أزيدك في النشاط
وفي الحيات طول في جسوم كذاك حديثهن إلى الشطاط
ألم تره انتهى حتى إلى ابن الـ ـعلاط مع امتداد وامتطاط
إلى نصر إلى الغيران فيه وقفت وعنده انحل ارتباطي
وقد بقيت بقية أن تسلني أقلها وهي تفسير العلاط

العلاط: وسم على عنق البعير عرضاً، فإن كان ذلك طولاً فهو: السطاع، وفي الصدر: الصدار، وفي الجنب: الجناب، وعلى الكشح: الكشاح، وفي الوجه: الحباط،

وعند مجرى الدمع: الدماع وأنشد:

يا من لعين لا يقي يهماعا قد ترك الدمع بها دماعا

ومن وسمهم المعلوم: قيد الفرس، قال الشاعر:

كوم على أعناقها قيد الفرس

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أوس بن عبد الله بن حجر الأسلمي أن يسم إبله في أعناقها قيد الفرس، ووصفها أوس حلق حلقتين، ومد بينهما مداً.

وتقدّم النسيان، وهو موكل بالإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥]، وقال: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في آدم عليه السلام: فنسي فنسيت بنوه. وقال عن نفسه عليه الصلاة والسلام: إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني. وقال بعض العلماء: علمت ما لم يعلم أحد ونسيت ما لم ينس أحد. قبضت على لحيتي لأقطع ما تحت يدي فقطعت ما فوقها. وأنشدني العثماني لبعضهم في النسيان:

أفرط نسياني إلى غاية لم يدع النسيان لي حسا
فصرت مهما عرضت حاجة مهمة ضمنتها الطرسا
وصرت أنسى الطرس في راحتي وصرت أنسى أنني أنسى

قال قتادة رضي الله عنه: حفظت ما لم يحفظ أحد، ونسيت ما لم ينس أحد، حفظت القرآن في سبعة أشهر. وقبضت لحيتي وأنا أريد قطع ما تحت يدي فقطعت ما فوقها، وقال أيضاً: ما سمعت قط شيئاً إلا حفظته، ولا حفظت قط شيئاً فنسيته، ثم قال: يا غلام هات نعلي، قال: هما في رجليك. وقيل لأشعب: قد أدركت الناس فما عندك من العلم؟ قال: حدثني عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لله على عبده نعمتان، ثم سكت أشعب. فقيل له: وما النعمتان؟ قال: نسي عكرمة واحدة ونسيت أنا الأخرى. وتقدّم اللهو، والمقصود: أنه مذموم إلا في مواضع خصصها الشارع. قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تحضر الملائكة من لهوكم إلا الرهان والنضال. وقال عليه الصلاة والسلام: ليس من اللهو إلا ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه. فهذه المباحة من اللهو، وإذا نظرت إليها رأيتها تدعو إلى طريق الآخرة لا إلى الدنيا التي سماها الله تعالى لعباً ولهواً. وأما تأديبه فرسه فللركوب

والعدي والوثوب في وجوه الأعداء. وقد جاء في فضل الخيل وارتباطها ما يبعث النفوس على نشاطها. قال الله تعالى: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال عليه الصلاة والسلام: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والغنيمة. خرجه مسلم. زاد البزار: والغنم بركة. وزاد الطحاوي: والإبل عز لأهلها. وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدجاج.

رجع: قلت: هذا في الغزو، وقد تكون الغنيمة أيضاً في نسلها، كما قال: الخيل لثلاثة. ذكر فيها: ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها. ومعلوم أن الظهور في الذكور، ومنه النسل، كما يكون في بطون الإناث، فهذا كله غنيمة. وقد قال: وفرس مأمورة أي: كثيرة النتاج، ومن بركتها وغنيمتها ما خرج النسائي عن جميل الأشجعي قال: غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته وأنا على فرس لي عجفاء ضعيفة، فلحقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: سر يا صاحب الفرس. قلت: يا رسول الله عجفاء ضعيفة. ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مخفقة كانت معه فضربها وقال: اللهم بارك له فيها. قال فلقد رأيتني ما أملك رأسها إن تقدم الناس، ولقد بعت من بطنها باثني عشر ألفاً.

قلت: واسم الفارس والفروسية أشرف من الراجل والرجولية، وكفى إن شبع فرسه وريه وبوله وروثه في ميزان صاحبه في الآجلة، وله في العاجلة من السهام سهمان. وقد بلغ سهم عطية ابن قيس في فرس أخذه من صاحبه على النصف مائتي دينار، وأخذ صاحبه مثلها، وكفى بالفرس شرفاً أن أشرف الخلق المصطفى صلى الله عليه وسلم رؤي يمسح وجه فرسه بردائه، ولما سئل عن ذلك قال: إني عوتبت الليلة في الخيل. وقال عليه الصلاة والسلام: ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأعجازها. وقال: لا تقصوا نواصي الخيل ولا معارفها ولا أذنابها، فإن أذنابها مذابها ومعارفها دفاؤها، ونواصيها معقود فيها الخير. قال: ولا تقودوا الخيل بنواصيها فتذلوها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث ذكر فيها: وأن لا تنزي حماراً على فرس. ومما رويته وقرأته على الحافظ بالإسناد الصحيح المتصل إلى سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من رجل مسلم إلا حق عليه أن يرتبط فرساً إذا أطاق ذلك. وجاء في الحديث: إن الله يحب النكل على النكل؛ بتحريك الكاف؛ يعني الرجل القوي الجلد المجرب على الفرس القوي المجرب. ويقال: رجل نكل؛ بالتسكين؛ ونكل؛ بالفتح؛ مثل: شبه وشبه،

كأنه ينكل به أعداؤه، والنكل: واحد الأنكال المذكورة في القرآن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا ﴾ [المزمل: ١٢] يعني: قيوداً. ولي من شعر مجنس:

خـــوّفت نفـــسي عقـــاب الإلـــه وحـــر الجحـــيم وأنكالهـــا
فـــزادت عـــتواً فعاقبـــتها وكـــان عقابـــي أنكـــى لهـــا

قلت: وإذا كان الفرس في منزلة أن يعاتب فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، كيف لا يؤدب ويعلم، نعم. وأنت يا صاحبه مضطر إلى تدريبه، فتدري به، وإلى تجريبه، فتجري به، وإلى تسبيبه، فتسبي به، وإلى تسريبه، فتسري به. ألم تسمع إلى قول الفارس النبيل:

عـــوّدوه مـــثل مـــا عـــوّدته دلـــج اللـــيل وإيطـــاء القتـــيل

ووقع في شرح الشهاب لأبي القاسم إبراهيم بن الوراق عن وهب بن منبه قال: لما أراد الله أن يخلق الخيل قال للريح الجنوب: إني خالق منك خلقاً أجعله عزاً لأوليائي ومذلة لأعدائي وإجلالاً لأهل طاعتي، فقبض قبضة من ريح الجنوب فخلق منها فرساً، فقال: سميتك فرساً، وجعلتك عربياً، الخير معقود بناصيتك، والغنائم تحاز على ظهرك، وجعلتك تطير بلا جناحين فأنت للطلب وأنت للهرب. ذكره في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام: الخير معقود في نواصي الخيل. وفي رواية: إلى يوم القيامة. وفي أخرى: وأهلها معانون عليها، والمنفق عليه كباسط يده بالصدقة. وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [البقرة: ٢٧٤] نزلت في علف الخيل. قال بعض العلماء: دخلت على تميم الداري رضي الله عنه وهو أمير على بيت المقدس، وهو ينقي شعيراً لفرسه، ثم قام به حتى يعلقه عليه، فقلت: لو أعطيت هذا غيرك. فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من نقى شعيراً لفرسه كتب الله له بكل شعيرة حسنة. وفي الكتاب المذكور عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إذا استعصت دابة أحدكم وكانت شموساً فليقرأ في أذنها: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣]. وأما قوله عليه الصلاة والسلام: وملاعبته أهله. فقد تقدّم في فضل التزوج والمباضعة ما فيه كفاية. والملاعبة: مقدمة الجماع.

وتقدّم ذكر النية في الزواج، وأنه لتكثير النسل، ولأن يخرج من ظهر الإنسان من يقول: لا إله إلا الله، ويعبد الله ويقرأ كتابه، ويغزو في سبيل الله، فيحبه الله. كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ [الصف: ٤] الآية، و: ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة: ١١١] وغير ذلك كثيراً. وهذا

سليمان بن داود عليه السلام يقول: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلها تأتي بفارس يقاتل في سبيل الله. وأبوه داود الذي مدحه نبينا عليهما الصلاة والسلام، فقال عنه: وكان لا يفر إذا لاقى. ومحمد صلى الله عليه وسلم يقول: وجعل رزقي تحت ظل رمحي. فانظر هممهم ونياتهم كيف كانت، وهم من هم، صلى الله عليهم وسلم. وقد جاء في فضل الجهاد ما تنقطع دونه الأكباد.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمنى أن يقاتل في سبيل الله فيقتل ثم يحيى ثم يقتل، قالها ثلاث مرات. وجاءه عليه الصلاة والسلام رجل فقال له: أخبرني بعمل أدرك به عمل المجاهد في سبيل الله. فقال له: كم مالك؟. فقال: ستة آلاف. قال: لو أنفقتها في طاعة الله تعالى لم تبلغ غبار شراك المجاهد. خرجه ثابت رحمه الله. وقال عن أبي زيد في قول الناس: وطلبت فلاناً فما شققت غباره؛ أي: لم أدركه ولم أدخل في غباره. وأنشد:

أرأيت يوم عكاظ حين رأيتني تحت العجاج فما شققت غباري

وسأله آخر: أي العمل أفضل؟. قال: إيمان بالله وجهاد في سبيل الله. قال: فأي العبادة أفضل؟.

قال: أنفسها. قال: أفرأيت إن لم أجد؟. قال: فتعين الصانع وتصنع للأخرق. قال: أفرأيت إن لم أستطع؟. قال: فدع الناس من شرك فإنها صدقة تصدق بها على نفسك. وسيأتي تفسير الصانع والأخرق إن شاء الله تعالى.

رجع: وأما قوله عليه الصلاة والسلام: ورميه بسهمه. فإنه حض على الرمي في غير ما حديث، وفي غير ما موطن. قال في حديثه الجامع لهذه المعاني الثلاثة: إن الله عز وجل يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر في الجنة، صانعه يحتسب في صنعته، ومنبله والرامي به، فارموا واركبوا وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا. ليس من اللهو إلا ثلاثة: تأديب الرجل فرسه وملاعبته أهله ورميه بقوسه، ومن ترك الرمي بعد ما علمه فإنه نعمة تركها. أو قال: كفرها. وفي حديث آخر: من علم الرمي ثم تركه فليس منا وقد عصى. وخرج النسائي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من رمى بسهم في سبيل الله فبلغ العدوّ أو لم يبلغ كان له كعتق رقبة. وخرج مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ستفتح عليكم أرضون، ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه. وعنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ألا إن القوّة الرمي، ألا إن القوّة الرمي، ألا إن القوّة الرمي. وقال لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ارم

فداك أبي وأمي. وخرج مسلم أيضاً عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه لأحد غير سعد بن مالك؛ ومالك هذا هذا هو المكنى بأبي وقاص. وفي حديث آخر: كان رجل من المشركين قد أخرق في المسلمين فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ارمِ فداك أبي وأمي. قال: فنزعت له بسهم ليس فيه نصل، فأصبت جبهته فسقط وانكشفت عورته، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظرت إلى نواجذه. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيه السهم ليس فيه نصل فيقول: ارم بهذا، ويناوله بيده الشريفة صلى الله عليه وسلم. فشأن الرمي أيضاً وكيد وأمره عتيد.

وفي قصيدتي المطوّلة التي صنعتها في الجهاد، المذكورة في غير هذا الكتاب، من ذكر الرمي ما سأذكره لك هنا، وأوّلها:

ألا يا حبذا خفق البنود ... ولبس السابغات من الحديد
ومشي في المهامه والفيافي ... إلى أرض الأعادي بالجنود

وفيها:

ألا يا صاح هذا الغزو فانهض ... إليه فذا من الرأي السديد
وقوسك خذ ونبلك ثم واخرج ... ولا ترين في القوم القعود
وكن بالرمي مغتبطاً وفاخر ... به فمكانه سعد السعود
ألم تسمع أعدّوا ما استطعتم ... لهم من قوّة قول الودود
وفسرها النبي الرمي فاعلم ... وكرره لمعناه العتيد
وما فدى امرأ قط غير سعد ... وذلكم الفخار بلا مزيد
وقال ارمه فداك أبي وأمي ... وناوله السهام بلا حديد
فشمر عن ذراعك وارم حتى ... تكسر في الرماية كل عود

إلى آخرها وهي فوق المائة بيت. تقدّم في الحديث أنه لم يفد غير سعد. وقد ورد في الحديث أيضاً أنه جمع أبويه للزبير بن العوام رضي الله عنه، فيحتمل أن يكون حديث علي قبل هذا، والله أعلم.

وكان أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه أيضاً رامياً، واسمه زيد بن سهل، شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم بدراً والمشاهد كلها، وهو الذي يقول:

أنا أبو طلحة واسمي زيد ... وكل يوم في سلاحي صيد

قتل يوم حنين عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال يوم حنين: من قتل كافراً فله سلبه. وكان يجثو بين يدي رسول الله صلى الله عليه

وسلم في الحرب ويقول: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقاء، ثم ينثر كنانته بين يديه. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: لصوت أبي طلحة في الجيش خير من مائة رجل. وكان النبي عليه الصلاة والسلام يرفع رأسه من خلف أبي طلحة ليرى مواقع النبل، فكان أبو طلحة يتطاول بصدره يقي به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول: نحري دون نحرك. وكانت تحته أم سليم بنت ملحان رضي الله عنها، ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم سرد الصوم أربعين سنة، وركب البحر فمات، فدفن بجزيرة سنة إحدى وخمسين وهو ابن سبعين سنة، رضي الله عنه.

رجع الكلام إلى معنى اللهو :

قلت: فانظر هداني الله وإياك للصلاح، في أي موطن اللهو مباح، وأي شيء منه عليه الصلاة والسلام أباح، أباح والله منه تعليم الخيل المعدة للقتال، وتعليم الرمي بالقسي والنبال، وملاعبته الأهل للتوالد والانتسال، وهذه كلها خلال حلال لا يقوم بها إلا الأبطال من الرجال. حض فيه عليه الصلاة والسلام على الجهاد الذي هو متماد مع كل بر وفاجر إلى يوم التناد، وندب فيه إلى الرمي بالسهام الذي فيه من الأجر أوفر السهام. ودعا إلى ملاعبة النساء لإيجاد الأولاد المظهرين للاجتهاد في الجهاد، ففي هذه المواطن أباح اللهو. نعم وفي أشباه ذلك عمده والسهو، مثل العرس الذي يشهر به النكاح الحلال، الذي هو ضد الزنا السر بين النساء والرجال، حتى قال عليه الصلاة والسلام، وسأل عن الأنصار وكان لهم عرس: أما كان لهم لهو، فإن اللهو يعجبهم. ولم يقل ذلك في غير العرس للمعنى المذكور، والله أعلم. وكذلك لعب الحبشة بالحراب في المسجد، وذلك أيضاً فيه ضرب من تعليم الحرب. وأباح اللهو أيضاً للصغار من النساء المقصورات، مثل عائشة رضي الله عنها إذ كانت تلعب بالبنات وهي طفلة وقال لها يوماً، والحبشة يلعبون في المسجد: تشتهين؟. قالت فقلت: نعم، فأقامني خلفه خدي على خده، حتى إذا مللت قال: اذهبي. وحدثت عائشة رضي الله عنهما بهذا الحديث، وقالت في آخره: فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو. وفي الحديث: نعم لهو المرأة بغزلها.

وتقدّم ذكر داود عليه السلام، وأنه كان لا يفر إذا لاقى. وحين ذكر هذه اللفظة لعبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما في حديث الصيام قال عبد الله: من لي بهذا يا رسول الله؟ يريد الشجاعة، والله أعلم. وشجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهورة، وفي الكتب مسطورة. كان في الدنوّ من العدوّ إذا اشتدّ الباس أدنى الناس. قال أصحابه رضي الله عنهم: كنا إذا اشتدّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم،

فلم يكن أحد أدنى إلى العدوّ منه، وإن الشجاع منا للذي يحاذيه، وأصحابه الذين يقولون هذا عنه كانوا والله أشجع الناس، حمزة عمه وعليّ ابن عمه وأبو دجانة وسلمة بن الأكوع، ومن لا يحصى عدّة من أهل النجدة والشدة مثل الضحاك بن سفيان الكلابي الذي كان وحده يعد بمائة فارس، أمره النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين على بني سليم، وكانوا تسعمائة، فأخبرهم عليه الصلاة والسلام أنهم تموا به ألفاً.

ومثل ذلك يروى عن عباس بن مرداس أنه كان يعد بمائة فارس، وأن هذا الخبر كان يوم حنين. وفوق هؤلاء في الحرب سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، الذي أقبل من العراق يريد الشام في ألف فارس، فهزم الروم وهم أربعمائة ألف، ويكفيه شرفاً وشجاعة تسميته بسيف الله إلى قيام الساعة. وبحق من كانت له نفس أبية لم يرهب المنية، ومن علم أنه لا ينجو مما قدر عليه لم يبال ما ساقه الله إليه. كم تعرض رضي الله عنه للشهادة فلم ينلها، واستهدف للسلاح ولم يبلها، وآخر ما قال لما احتضر بحمص: شهدت زهاء مائة زحف، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، ثم أنا ذا أموت كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء.

وكان الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وخارجة بن حذافة القرشي من فرسان قريش يعدل كل واحد منهم ألف فارس. يذكر أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يستمده بثلاثة آلاف فارس، فأمده بخارجة هذا والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم، وخارجة هذا هو الذي قتله الخارجي على أنه عمرو بن العاص، وكان عمرو قدمه ذلك اليوم لصلاة الصبح للقضاء السابق، فلما علم ذلك الخارجي قال: أردت عمراً وأراد الله خارجة، وكان ثلاثة من الخوارج من أهل العراق تعاهدوا عند الكعبة على قتل معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة، فكان من أمرهم ما كان. ذكر هذا الخبر ابن عبد البر في تاريخه، وذكر أبو العباس في الكامل عوض حبيب بن مسلمة عليّ بن أبي طالب، وقال: إن الخوارج هم الذين ائتمروا على ذلك، فانتدب لعليّ رضي الله عنه عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله، وانتدب الحجاج بن عبد الله الصريمي، وهو البرك، لمعاوية، وزادويه مولى بني العبد بن عمرو بن تميم لعمرو بن العاص، وأجمعوا على أن يكون في ليلة واحدة، ليلة إحدى وعشرين من رمضان، فأتى ابن ملجم إلى الكوفة وأخفى نفسه. فلما كانت الليلة المذكورة وكان قد ساعده على ذلك رجل من أشجع يقال له شبيب، اعتور الباب الذي كان عليّ منه يدخل، وكان عليّ رضي الله عنه يخرج مغلساً يوقظ الناس للصلاة، فخرج فضربه شبيب بالسيف فأخطأه وضربه ابن ملجم لعنه الله على صلعته،

فقال عليّ: فزت ورب الكعبة، شأنكم بالرجل، فحمل ابن ملجم على الناس بسيفه، فأفرجوا له. وتلفح المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بقطيفة فرمى بها عليه واحتمله فضرب به الأرض. وأما شبيب فأفلت، ومكث عليّ رضي الله عنه يومين ومات في آخر اليوم الثالث رحمه الله، وكان عليّ رضي الله عنه يؤتى إليه بابن ملجم فيقال له: قد سمعنا من هذا فيك مقالة فاقتله، فيقول: ما قتلني بعد، ويقول مرة أخرى: كيف أقتل قاتلي. فلما ضربه قال عليّ: إن أعش فالأمر إليّ، وإن أصب فالأمر لكم، وإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة، وأن تعفوا أقرب للتقوى. وقال عبد الله بن جعفر للحسن: ادفعه إليّ أشفي نفسي منه، فدفعه إليه فقتله. وكان عليّ رضي الله عنه إذا رأى ابن ملجم يقول:

أريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد

وكان يقول:

أشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت ... إذا حل بواديكا

وقد تقدّم هذا.

وأما الحجاج فضرب معاوية فأصاب صلبه فقطع منه عرق النكاح، فلم يولد لمعاوية بعد ذلك، فقطع يديه ورجليه، فأقام بالبصرة، فبلغ زياداً أنه قد ولد له، فقال: أيولد له وأمير المؤمنين لا يولد له؟ فقتله، واتخذ معاوية المقصورة. وأما زادويه فقتل خارجة على أنه عمرو كما تقدّم.

رجع الخبر وإن طال إلى ذكر الأبطال. قلت: هؤلاء هم الرجال في الحقيقة لفظاً ومعنى، وبمثل هذه الطريقة ينبغي أن يعنى. ويتلو هذه العصابة في الفضل أولو الكرم والبذل، كما قال أوس بن حجر:

مطاعين في الهيجا مطاعيم في القرى ... إذا اصفر آفاق السماء من القرس

القرس: البرد الشديد. وفوق هؤلاء كلهم العلماء والحكماء النبلاء مصابيح الدين وقدوة المهتدين. كما قال بعض العلماء: الناس ثلاثة أصناف: أهل العلم، وأهل السخاء، وأهل الحرب. ولي في هذا المعنى:

الناس هم ثلاثة ... فواحد ذو درقه
وذو علوم دارس ... صحيفة وورقه
ومنفق في واجب ... ذهبه وورقه
ومن سواهم همج ... لا ودك لا مرقه

قلت: جمع هذه المناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتقدّم مكانه من العلم فيما مضى ومحله في الدين المحل المرتضى. كان من شأنه رضي الله عنه وأرضى أنه كان لكل صلاة يتوضأ.

وقد تقدّم أيضاً أنه حاز فضلين من الكرم والبذل والجود والفضل، لم ينهلهما أحد سواه بعد ولا قبل، وهما تقديمه الصدقة بين يدي نجوى الرسول ليسمع، وإيثاره الخاتم للمسكين وهو يركع.

وأما شجاعته وبسالته وطاقته وجزالته فقد طبقت الآفاق وسارت بها الرفاق، وبقي ذكرها إلى يوم التلاق، ويكفيه ما اشتهر عنه وانتشر من الخبر يوم خيبر. خرّج رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خرجنا مع عليّ بن أبي طالب حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته. فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي باباً كان عند الحصن فترس به نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ. فلقد رأيتني في نفر معي سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه. وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه، ليس بفرار. فكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد تقدّم في وصفه أيضاً رضي الله عنه أنه كان إذا استعلى الفارس قده، وإذا اعترضه قطه. وكانت درعه صدراً بلا ظهر، فقيل له في ذلك فقال: إذا وليت فلا وألت، أو كما قال، يعني أنه كان لا يولي ظهره أبداً. والموأل والموئل: المرجع. وفي حديث آخر: كانت ضربات عليّ أبكاراً إذا استعلى قد وإذا استعرض قط. قوله: أبكاراً، يقال: ضربة بكر، أي: قاطعة لا تثنى.

تقدّم ذكر الهمج، وجاء في حديث عليّ رضي الله عنه: سائر الناس همج رعاع. قال الليث: الهمج: كل دودة تتفقأ عن ذباب أو بعوض وأشباه ذلك. وقال الجوهري: الهمج: ذباب صغير يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها، وهو جمع همجة. ويقال أيضاً للرعاع من الناس الجهال الحمقى: همج، تشبيهاً به. والهمج أيضاً: الجوع، قاله ابن خالويه. قال: وقد يسمى به البعوض، لأنه إذا جاع عاش وإذا شبع هلك. وقولهم: همج هامج، تأكيد، كما قالوا: ليل لايل، وأبد آبد، ودهر داهر، وليلة ليلاء، ويوم أيوم، ونهار أنهر، وساعة سوعاء. وربما قالوا: دهارير وأنشد:

وبينما المرء في الأحياء مغتبط إذا هو الرمس تعفوه الأعاصير
حتى كأن لم يكن إلا تذكره والدهر أيتما حال دهارير

أي: شديد. وأنشد في الهمج الهامج لابن حلزة:

هنا الفتى يسعى ويسعى له ناج له من أمره خالج
يترك ما رنح من عيشه يعيش فيه همج هامج

وأنشد:

وأنت يا ذا الذهن الصقيل عذراً لأني طوّلت قيلي
نسيت نفسي فطال طرسي وطاب في ظله مقيلي
هذا خفيف عليّ هيّن وذاك في حيز الثقيل
لكن إليه الرجوع كرهاً الله ربي منه مقيلي
خرجت من شيء إلى غيره وذلك الغير هو الأنفع
لكنه حق بلا مرية وربما القلب به يخشع
وذلك الآخر لا رقة فيه ولا عين به تدمع
لكنها يا صاحبي نسية خرجت منها ولها أرجع

باب الألف مع الواو

وأو وأو وآو وأو ووأوا واوا وول وول

هذا البيت قد اجتمعت فيه الواوات من كل الجهات، كأنهم سمعوا بالغزو فجمعوا من الحضر والبدو شيوخ حرب، وأولو طعن وضرب، قد تقوّست ظهورهم من الهرم، وأشبهوا قوم عاد وإرم، قد جلب كل إلفه وصاحبه فألفه، وأمامه أوقفه، كأنه رمح ثقفه، والكل يطلب مني التيسير أو التفسير. فقلت: التفسير أنفع فافتح أذنيك واسمع. قد تقدّمت لفظة أو، وأنها كلمة تأوّه مع أوّه وأخواتها.

وأما أو فإن صاحب كتاب العين ذكر أنه يقال: أو من كذا، على معنى التحزن. قال: وتقول أوه لك، كقولك: أولى لك. وجاء في تفسير: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٤] أنه وعيد على وعيد، قاله قتادة. وقال: أقبل أبو جهل يتبختر، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيده فقال: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾، فقال: ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئاً، إني لأعز من بين جبليها. فضرب الله عنقه يوم بدر. قال ابن عباس: قال له النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قبل أن ينزل به القرآن، ثم نزل به القرآن. وقيل: إن المعنى: الذم أولى لك من غيره، فحذف لكثرة الاستعمال.

قال الأصمعي: معنى أولى له، أي: قاربه ما يهلكه، أي: نزل به. وقال الشاعر:

فأولى ثم أولى ثم أولى وهل للدر يحلب من مرد

وقيل في قوله تعالى: ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٠] أي: وليهم المكروه. وتقول: أولاك الله خيراً، أي: أصابك به. وقلت:

وذاك الذي أولاك مولاك إن تزد تزاد فزد شكراً ولا تك جاحدا

وقبل هذا البيت:

إذا كنت في دنياك يا صاح زاهداً وفي طلب الأخرى مجداً مجاهدا
فأنت على خير وتلك كرامة فكن شاكراً لله ربك حامدا
وذاك الذي .... البيت

ومن هذا الشكل: أولى، تأنيث أوّل، والجمع أول، والألوة: العود الذي يتبخر به. ويقال فيه أيضاً: ألوة، بالضم. وفي الحديث في صفة أهل الجنة: مجامرهم الألوة. جعلنا الله منهم بكرمه.

وأما آو، فاسم فاعل من أوى يأوي، كما أن آت: اسم فاعل من أتى يأتي. وفي القرآن العزيز: ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ [الكهف: ١٠]، وسيأتي آوي بالمد.

وأما أو، فمن حروف العطف، وتكون بمعنى حتى، في قولك: لأضربنك أو تقوم. وبمعنى كي، وبمعنى إلى، وشاهده من الكلام ما تقدّم. واستشهد صاحب الجمل بقول امرئ القيس:

نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

ويبعد في هذا الموضع معنى كي، لأنه لم يحاول الملك ليموت، والله أعلم. وتكون للشك، تقول: رأيت زيداً أو عمراً. وتكون للتخيير بين الشيئين كقوله تعالى: ﴿ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [المائدة: ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة: ١٩٦] أنت في جميع هذا بالخيار، ما فعلت منه أجزأ عنك. وربما كانت بمعنى واو النسق، كقوله تعالى: ﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ [المرسلات: ٥-٦]، وقوله تعالى: ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣]، هذا كله عند المفسرين بمعنى واو النسق. وأما قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧]، فإن بعضهم ذهب إلى أن

معناها: بل يزيدون، على معنى التدارك، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ ﴾ [النحل: ٧٧] وقوله تعالى: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴾ [النجم: ٩]، قال ابن قتيبة: وليس كما تأوّلوا، وإنما هي في جميع هذه المواضع بمعنى واو النسق: وأرسلناه إلى مائة ألف ويزيدون. وما أمر الساعة إلا كلمح البصر وهو أقرب. فكان قاب قوسين وأدنى. قال ابن أحمر:

قرا عنكما شهرين أو نصف ثالث ... إلى ذاكما قد غيبتني غيابيا

قال: وهذا البيت يوضح لك معنى الواو، أراد قرى شهرين ونصفاً، ولا يجوز أن يريد قرى شهرين بل نصف ثالث، وقال: قرا، بفتح القاف وكسرها. وذكر ابن سلام في قوله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ ﴾ [البقرة: ٢٠٠] أن معناه: بل أشد، والله أعلم. وثم أيضاً: أو، يقال لها المصنفة، ذكرها أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي في الهداية عن بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ ﴾ [البقرة: ١٣٥] قال: المعنى صنف هوداً وصنف نصارى.

وأما وأوأ واواً فمعناه: كتب واواً وصنع واواً. يقال: وأوأ، بالهمز، كراهية اتصال الواوات والياآت، لأن تأليف الواو من واو وياء وواو ويو، فإذا صرفوا منها فعلاً قالوا: وأوأت، ولم يقولوا: ويويت، كراهية اجتماع ما ذكر، ولم يفعلوا ذلك في الظاء، وقالوا: ظييت ظاء، وقالوا تصغير واو: وويية، ومنهم من يقول في واو: وو، فيحذف الياء لأن أصلها كما تقدّم ويو. ومنهم من عوّض منها ألفاً وهو الأكثر فقال: واو، فإذا صرف منها فعلاً قال كما تقدّم: وأوأ واواً، وبذلك سمي الواوا الشاعر الدمشقي، وهو معروف. وإذ وقع ذكر الواو الذي في البيت جلبه فأذكر لك هنا حديثاً به غلبه، كتبت إلى بعض الطلبه:

خل ودع حسناه رود ... ذات اللمى ذات البرود
ذات الدلال والنهود ... وقل لموف بالعهود
يا من غدا كابن العميد ... في النظم والنثر الفريد

من شعر مطوّل آخره: (دودو دوٍ ود ودود).

وهذا كمثل ما تقدّم من البديع الذي جمع من الالتزام أنه لا مخلوط ولا منقوط، ولم يزد على حرفين دال وواو، وهو مع ذلك ينعكس، وتفسيره أنه كان عندنا رجل معروف يقال له دودو، فأخبرت عنه أنه دو، أي: أصابه داء، وهو مع ذلك ود، أي: صاحب ود، ودود، أي: حبيب، وظننت أنه لا يقدر على مثله.

ومن ظن ممن يلاقي الحروب / بأن لا يصاب فقد ظن عجزا

فكتب إليّ:

قل للألى في علمهم / والفضل منهم قد شأوا
هل فيكم مذيل / أو الرجال قد مضوا
لبيت شعر حكته / وجزت فيه ما حكوا
وأوا واواً وأوى / واواً وآوى وأووا

يقول: صنع واواً وانضم، وضم إليه واواً، هذا الحرف. ويقال من هذا الحرف: أوى زيد إلى عمرو: انضم إليه. قال الله تعالى: ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ [الكهف: ١٠]، وآوى غيره إليه، قال الله تعالى: ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ [يوسف: ٩٩] أي: ضمهما إليه، وهذا الالتزام صعب إذا لم يقيد، فكيف وقد اجتمع فيه من اللزوم ما تراه.

تقدّم: رود، وهي من النساء الشابة الحسنة. ويقال لها أيضاً: راد ورادة وررودة. قال أبو زيد: هما مهموزان، والراد: أصل اللحي، والرود مثله، وراد الضحى: ارتفاعه. ويقال: ريح رادة، بغير همز، وريدة وريدانة: للتي تكون لينة الهبوب، من تاج اللغة. وأغرب من هذا أرسلت إليه نصف بيت من هذا النوع وهو:

أدرد دارٍ أراد دردا

تفسير هذا: الرجل الذي هو أدرد، وهو الذاهب الأسنان، دار أي عالم، أراد امرأة درداء مثله. وفي هذا خمسة أنواع من اللزوم لا خلط ولا نقط، وفي كل كلمة ألف ودال، والرابع الوزن، والخامس العكس، وهو أصعبها. وظننت كذلك أنه يعجز عنه، فلم يفعل بل أجاب بالعجاب قال:

ادردر ارد ردا

لولا أنه نقص الألف في در، والشرط أن لا تخلو كلمة من ألف ودال وراء، ووصلته أنا ولم أنقص منه شيئاً مما إن أردته تقف عليه، فيما جمعته من هذا النوع من قولي في جزء يحتوي على عجائب من نفائس البديع وغرائب من التجنيس والترصيع، يشبه ما قاله الحريري وغيره، وسقت ما لم يذكروه، مما يستلطف ويستملح ويستظرف أن يلمح، والحمد لله على ما أعطى ومنح وأسأله الصفح فهو أولى من صفح. وقد خرجت من هذا الغرض بهذا الذي اعترض، وها أنا إليه تائب ومن الذنوب إن شاء الله تائب.

ومعكوس أو: وا، وهو حرف من حروف النداء، وأكثر ما يدخل في الندبة، وسيأتي إن شاء الله تعالى. وإن همزت ألف وا جاء منه: وأي، فعل من الوأي الذي هو العدة، تقول: وأيت له على نفسي وأياً، أي: ضمنت له عدة. وفي الموطأ من قول أبي بكر رضي الله عنه: من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأي أو عدة فليأت، الحديث. يحتمل أن تكون أو للشك، معناه قال: وأي، أو قال: عدة. ويحتمل أن يكون تكريراً لما اختلف اللفظ: كما قال:

تجلت بلون السام والذهب المحض

وذلك معروف من مذهبهم، كما يجمعون الشيء ثم يفردون بعضه لفضله. كما جاء في الحديث: وصام الناس وصام معاوية. وفي القرآن العزيز من هذا كثير، كقوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٨]، والنخل والرمان من الفاكهة، لكن أفردهما بالذكر لفضلهما. ومثله: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة: ٩٨]، وتقول من هذا الفعل في الأمر للواحد المذكر: إلزيد كذا، وللاثنين: إيا، وللجميع: إيروا، وللأنثى إي، وللجميع: إين، وقياسه: وشى يشي ووعى يعي.

وفي الحديث من الوأي من حديث وهب قال: قرأت في الحكمة أن الله تعالى يقول: إني قد أويت على نفسي أن أذكر من ذكرني، خرجه ابن قتيبة وقال: قوله: أويت، غلط إلا أن يكون مما قلب، والصحيح: وأيت، وهو: الوعد. يقول: جعلت وعداً على نفسي. والوأي من الدواب: السريع المعتدل الخلق، وجمعه: وأيات. تقول: ناقة وآة، مثل: وعاة، وجمل وأي: إذا كان شديداً قوياً، قال الشاعر:

كل وآة ووأي ضافي الخصل

وأما وا الذي للندبة المتقدّم فإنهم يقولون: وا زيد وا عمرو، على معنى التفجع والبكاء، وربما زادوا بعد تمام الاسم ألفاً ليمتد الصوت. وربما زادوا هاء للوقف، فقالوا: وازيداه واعمراه. يدعوه بأشهر أسمائه وأكبر آلائه.

بقي الكلام في معكوس البيت ألف بين حرفين مثل واو، وقد تقدّم فيه الكلام، وأنه يقال في واو: وو، بغير ألف، وهي من حروف العطف. ومن عملها أنها تنصب الفعل المستقبل بعدها إذا أردت بها غير معنى العطف، وشاهده ما ذكر أبو القاسم وغيره من قولهم: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، على المعنى الذي قصدوه من النهي عن الجمع بينهما، إذ لو لم يرد هذا لجزم، وشاهده من الموزون:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال:

أخـــرجت مـــن واو فـــنون إن الحـــديث لـــذو شـــجون
بقـــيت لـــنا مـــنه بقـــا يـــا فاســـمعوها أي بـــنون

تكون الواو أيضاً للعطف والجمع بين الشيئين، وبمعنى: مع، في قولهم: استوى الماء والخشبة. وتسمى أيضاً واو الثمانية وواو الحال وغير ذلك مما ذكره النحويون. وقال المهدوي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء: ٣]، أي: اثنين اثنين وثلاثاً ثلاثاً. وجاء ذلك على بدل ثلاث من مثنى، ولذلك عطف بالواو. ولو جاء بـ أو لجاز أن لا يكون لصاحب المثنى ثلاث، وكذلك قوله تعالى: ﴿ أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ ﴾ [فاطر: ١]، أي: اثنين اثنين. وقال البخاري رحمه الله في كتابه: هي في الموضعين بمعنى أو. قال المهدوي: ليس قول من قال من المبتدعة الجهلة: إن هذه الآية أحلت نكاح تسع نسوة، بشيء يتشاغل بالرد عليه، لأن العرب لا تدع أن تقول: تسعة، وتقول: اثنان وثلاثة وأربعة، هذا خلف من الكلام وعي من الابتداع.

وأما مقلوب الكلمة؛ حرف بين ألفين؛ مثل: أوى على مذهب من كتبه بالألف للضرورة إذ أصله الياء، لأنك تقول: أويت إلى المنزل آوي أو ياو إواء، قال الله تعالى: ﴿ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ ﴾ [هود: ٤٣]، تقدّم أوى فلان إلى فلان، بالقصر بمعنى: انضم. وتقدّم الشاهد عليه من القرآن: ﴿ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ ﴾ [الكهف: ١٠] و: ﴿ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ ﴾ [الكهف: ١٦]، على أنهم قالوا في هذا الفعل الغير متعدي: آوي، بالمد، والأول أفصح، وأما آوي المتعدي فممدود. تقول منه: آوى زيد عمراً يؤويه إيواء، وأواه أيضاً بغير مد، عن أبي زيد، والأفصح لغة القرآن: ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ ﴾ [يوسف: ٦٩] و: ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾ [يوسف: ٩٩] و: ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴾ [المعارج: ١٣] و: ﴿ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ ﴾ [الأحزاب: ٥١]. وتقول: تأوت الطير، تجمعت. وطير أوي، وتقول: أوى زيد لعمر أوية وأية وتأوية ومأواة وأوياً: إذا رق له وأشفق عليه. قال الشاعر:

ولـــو أننـــي اســـتأويته مـــا أوى لـــيا

وجاء منه في الحديث أنه كان يفتح رجليه عند البول حتى نأوي له، وأصل إية إوية، فأدغموا الواو في الياء. وابن آوى: دويبة، والجمع: بنات آوى. والمأوى: كل

مكان يأوي إليه شيء ليلاً أو نهاراً. وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سألنا كعباً عن جنة المأوى، قال: أما جنة المأوى فجنة فيها طير خضر ترتعي فيها أرواح الشهداء. والإيوان والإوان قال صاحب العين: شبه أزج مسدود الوجه. وذو أوان: موضع بينه وبين المدينة ساعة من نهار، ونزل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم من تبوك. وذكر أبو عبيد البكري أن ثم بلداً اسمه أوان على لفظ الأوان من الزمان. وذكر خبراً يدل على أنه ذو أوان المذكور. وأما الأوان من الزمان فهو: الحين، والجمع آونة. وقد تقدم آن يئين: فعل يفعل، من الإوان. والأونان: جانبا الخرج، والآن: أصلها الأوان، فحذفت ولزمها الألف واللام للتعريف. وكذلك أيان، أصلها: أي أوان، فجعلتا بمنزلة اسم واحد بعد أن حذفتا.

بقيت القافية ول وول، هما واحد في اللفظ ويختلفان في المعنى، أحدهما: ولى بمعنى أعرض وأدبر، والآخر: من الولاية التي هي الإمارة، على ما سيأتي إن شاء الله تعالى. ولكن سكنت ول للقافية والوقف، وكلاهما أمر من ولى يولي. وفي القرآن العزيز: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٤٤]، أي: نحوه وتلقاءه، وعليه أنشدوا:

أقــول لأم زنـــباع أقيمـــي صدور العيس شطر بني تميم

يعني تلقاءهم. وقوله: فولّ، هو من ولى بمعنى فر، من قوله تعالى خبراً عن موسى عليه السلام: ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ ﴾ [النمل: ١٠]، وتقول: ولى فلان هارباً ومنهزماً. ويكون أيضاً بمعنى التولية، تقول: ولى فلان فلاناً على كذا، بمعنى ملكه. وكذلك تولى تكون بمعنى أعرض وصدّ في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾ [النجم: ٣٣]، ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وكذلك ولى في قوله تعالى: ﴿ وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [لقمان: ٧]، أي: أعرض وأدبر. واستولى: بمعنى صار. تقول: استولى فلان على كذا، أي: صار في يده وملكه، كما قال:

ســبق الجـــواد إذا اســتولى علـــى الأمـــد

ومن خفيف ولى ومضاعفه: ولول. يقال: ولولت المرأة، إذا دعت بالويل. وولول: اسم سيف كان لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وأنشد ابن عتاب يوم الجمل:

أنـــا ابـــن عـــتاب وســـيفي ولـــول

قال: هو اسم سيف كان لأبيه.

ومعكوس ول: لو، فيه معنى التمني المتعب المعني، وفيه أيضاً معنى الشرط، وهو حرف أيضاً يدل على امتناع الشيء لامتناع غيره، تقول: لو قدم زيد لنلت من خيره، فزيد ما قدم وخيره عدم. وأقرب منه نولاً: لولا، وهو حرف يدل على امتناع شيء نواه لوجود سواه. تقول: لولا زيد لأكرمتك، فزيد موجود والإكرام مفقود. وعلى كل حال فما فيهما في أغلب الأحوال إلا المحال، ولا يحصل منهما في المآل إلا الآل، لا سيما لو، فهي عند الناس حرف سو، وأختهما في العنا وقلة الغنا: ليت، وإن شككت فأنشد هذا البيت، فتصدق شئت أو أبيت:

ليت شعري مسافر بن أبي عمـ ... ـرو وليت يقولها المحزون

وقال آخر:

ألا يا ليتني والمرء ميت ... وما يغني عن الحدثان ليت

وقال آخر، وجمع بين لو وليت في شطر بيت: (إن لواً وإن ليتاً عناء)، ولو هذه هي لو بعينها، إذا جعلتها اسماً أعربتها وشددتها. وقال الشاعر فأغرب وزاد مع لو لعل وأعرب:

سبقت مقادير الإله وحكمها ... فأرح فؤادك من لعل ومن لو

وقال الآخر:

ولكن أهلكت لو كثيراً ... وقبل اليوم عالجها قدار

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذم لو: استعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لولا أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان. واللو في غير هذا من قولهم في المثل: فلان لا يعرف الحوّ من اللوّ، أي: لا يعرف ما حوى مما لوى. قلت: لكل مقام مقال، وبالنيات تفسد أو تصلح الأعمال. قد تنفع لو في بعض الأوقات بحسب اختلاف النيات. يقول الإنسان: لو قضى الله شيئاً لكان، ويقول إذا عمل الشرّ: لو وفقني الله لهداني إلى الخير. فقد تنصل هذا من قوته وحوله، ووكل الأمر إلى أهله. وقد قال عليه الصلاة والسلام: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي. وجاء عن أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عن أنس أنه قال: ما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة قط فلم تقض إلا قال: يا بني لو قدر شيء كان. وإن كان بعض أزواجه تقول: لو فعلت كذا وكذا، ما لك فعلت كذا وكذا؟ فيقول: دعوه ما يكون إلا ما أراد الله عز وجل. فهذا الضرب من القول بحمد الله صاحبه سالم، وقائله إن شاء الله غانم، وقد حصلت له التسلية ومن حوله وقوّته التبرية. فرغ هذا.

وقد تقدّم الكلام في لولا في باب هلا ومشاركتها إياها في التحضيض، ورفعهما إليهما ألا ولو ما من الحضيض. بقي معرفة مخرج الواو، ويخرج عنها ويستراح منها، فاعلم أيها الحميم أن مخرجها مخرج الباء والميم، وذلك من بين الشفتين. وقد مرّت قبل ذلك مذكورة، وأن جميعها من الحروف المجهورة، وقد تقدّم أيضاً الكلام في مخرج اللام، وتقدّم اشتراك الواو مع الهمزة في مثل إكاف وكاف ووشاح وإشاح.

خرجت من شيء إلى غيره والكل في تفسير ذي الواو
لكنه علم ونفع إلى القا ري والسامع والراوي

فصل من الفوائد الزوائد: تقدّم في أوّل الباب ذكر عاد إرم، ورأيت في ذلك كلاماً أعجبني، فأخرته إلى هنا كما شاء إلهنا. قال مجاهد رحمه الله: إرم: أمة. وقال قتادة: قبيلة من عاد. وقال محمد بن كعب: هي مدينة الإسكندرية. وقال المقبري: هي دمشق. وقيل: كانت مدينة موجودة في وقتها ثم عدمت. وقيل: إرم هو سام بن نوح عليه السلام. وقيل: أبو عاد، وعاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح عليه السلام، ومعنى: ذات العماد، أي: ذات الطول، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال قتادة: كانوا عماداً لقومهم. وقال ابن زيد: إحكام البنيان. وقال الضحاك: المعنى ذات القوى الشداد. وقيل: الضمير في (مثلها) للقبيلة أو للمدينة، قال هذا المهدوي رحمه الله. ووقع في كتاب قوت القلوب: قيل لأبي زيد: بلغت جبل قاف. قال: جبل قاف أمره قريب الشان في جبل كاف وجبل عين وجبل صاد. قيل: وما هذه؟ قال: هذه جبال محيطة بالأرضين السفلى، حول كل أرض جبل بمنزلة قاف محيطة بهذه الأرض الدنيا، وهو أصغرها، وهذه أصغر الأرضين.

قيل لأبي زيد: دخلت إرم ذات العماد. فقال: دخلت ألف مدينة لله في ملكه أدناها ذات العماد، ثم عددها: التيت وتاويل وتاريس وجابلق وجابرس ومنسك، ولعل قائلاً يقول: فقد قال الله تعالى في وصفها: ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [الفجر: ٨]، قيل: معناه في بلاد اليمن، لأنهم خوطبوا بما في بلادهم، كما قال الله تعالى: ﴿ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٣٣] يعني: أرض بلدهم، فذات العماد: مدينة عاد في أرض اليمن، ما بين أبين والشحر، يقال: لها سور له ألف باب، ما بين البابين فرسخ، مركبة على أعمدة الذهب والفضة والياقوت والزبرجد، فيها مائة ألف عمود من ذلك. كانت الجن اصطنعتها لعاد بن شداد بن سام بن نوح عليه السلام. استخرجت الجن هذه العمد من قعور البحار، وكان قد سخرت له الجن قبل سليمان عليه السلام بأربعة آلاف عام. تجتمع في هذه المدينة طائفة من الأبدال ليالي الجمع والأعياد. يقال: فيها

صناديق من حجارة، طول كل صندوق عشرة أذرع، فيها قبور الأنبياء أجسادهم صحيحة باقية إلى يومنا هذا، وهي محجوبة عن أبصار العباد. وقد كان سهل رحمه الله يزورها في كل جمعة. هذا نص الكتاب.

وذكر في هذا الكتاب عجائب وغرائب، منها في صفة الأولياء أن الدنيا كلها خطوة للولي وأن ولياً لله تعالى خطا خطوة واحدة خمسمائة عام، رفع رجله على جبل ق، والأخرى على جانب الجبل الآخر فعبر الأرض كلها. وذكر غير هذا من هذا النوع، وذكر في آخر الفصل: فلا تنكرن من جميع ما ذكرنا شيئاً، فتخسر أقل أنصبة المؤمنين من علم القدر واليقين. لأن للمؤمنين أنصبة من العلوم منها المشاهدة لما وصفنا على التحقيق، ومنها الذوق والقبول والتصديق، وأقل أنصبة المؤمنين من علم المعرفة: إن لم يشهد فلا يجحد، وإن لم يعرف فلا ينكر، ويكون معقله التسليم لأهله، وليس بعد هذا مكان. ومن أعجب ما رأيت لهذه الطائفة أنه كان بعضهم إذا دخل رمضان دخل بيته وقال لامرأته: طيّني عليّ الباب، فتفعل وتترك منه كوة تعطيه كل ليلة منها رغيفاً، فإذا كان يوم العيد فتحت الباب فوجدت في زاوية البيت الثلاثين رغيفاً بحسبها لم ينقص منها شيء، وأخبرت أنه بقي تلك المدة لم يأكل ولم يشرب، وبقي بوضوء واحد إلى أن خرج.

نقلت هذا من تأليف أبي حامد رضي الله عنه ومن أسهل ما وجدت في كتاب قوت القلوب وأقربه أنه ذكر المقامات العشرة التي أوّلها التوبة وآخرها المحبة، ثم قال: ويعطي الله العبد بأداء الفرائض واجتناب المحارم مقاماً من مقامات اليقين يرفعه إلى عليين، وربما أعطاه بهما مقامات اليقين كلها إن أراده بها، فينقله مولاه باليقين الذي تولاه به. فإذا نقله لم يخف عليه، لأن التنقيل يضطره إلى الانتقال على كل حال، والمشاهدة تحكم عليه بالأفعال، وربما بلغ الله العبد؛ بحسن الظن به والطمع فيه؛ جميع ما ذكرناه، وربّما أعطاه ذلك كله بخلق من أخلاق الربوبية يخلقه به، وربما أعطاه كل ذلك بشيء واحد يتركه له أو يؤثره به، فلا ييأس عبد من فضل مولاه، فإن السيد كريم. نقلت هذا من كتاب القوت، وكذلك ذكر إرم ذات العماد، إلا يسيراً نقلته من غيره.

ووقع في كتاب الحلية عن بكر بن خنيس ورأى قوماً يتعبدون، فقال لسعيد بن المسيب: يا أبا محمد ألا نتعبد مع هؤلاء القوم؟ فقال: يا ابن أخي إنها ليست بعبادة. قلت له: فما العبادة؟ قال: التفكر في أمر الله، والورع عن محارم الله، وأداء فرائض الله عز وجل. وكان يقول: من حافظ على الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة. وكان سعيد هذا رحمه الله يسرد الصوم، وحج أربعين سنة، وصلى الغداة بوضوء العتمة خمسين سنة، وقال: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما

نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة، ودعي إلى نيف وثلاثين ألفاً ليأخذها، فقال: لا حاجة لي فيها، وكان لا يقبل من أحد شيئاً لا ديناراً ولا درهماً ولا شربة ماء، وكان يقول: الدنيا نذلة وهي إلى كل نذل أميل، وأنذل منها من أخذها بغير حقها، وطلبها بغير وجهها، ووضعها في غير سبيلها.

وقال أبو حامد وقد ذكر نوعاً مما تقدّم: ولا تعجبن من هذا، فإن لله القدرة على ما يشاء، وهذا مريض نراه لا يأكل شهراً وهو حي يعيش، والمريض على كل حال أضعف من القوي. وأما الذي يموت جوعاً فذلك أجله حضره، كالذي يموت شبعاً وتخمة. قال: ولقد بلغني عن أبي سعيد الخراز رحمه الله أنه قال: كان حالي مع الله تعالى أن يطعمني في كل ثلاثة أيام، فدخلت البادية فمضت علي ثلاثة أيام ما طعمت، فلما كان اليوم الرابع وجدت ضعفاً فجلست مكاني، فإذا هاتف يقول: يا أبا سعيد أيما أحب إليك سبب أو قوى؟ قلت: لا القوى، فقمت من وقتي وقد استقللت، فأقمت اثني عشر يوماً لا طعمت ولا وجدت أذى لذلك. وقال أبو حامد رحمه الله: والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء، وإن شاء أقام بنية عبده بطعام وشراب أو بطين وتراب، أو بتسبيح وتهليل كالملائكة، وإن شاء بدون هذا كله، فليس مطلوب العبد إلا القوام والقوة للعبادة، وبهذا المعنى قويت الزهاد والعباد على الأسفار وطي الليالي والأيام، فمنهم من لم يأكل عشرة أيام، ومنهم من لم يأكل شهراً أو شهرين وهو على قوّته، ومنهم من كان يستف الرمل فيجعله الله له غذاء، نحو ما ذكر عن الثوري رضي الله عنه أنه نفدت نفقته بمكة، فمكث خمسة عشر يوماً يستف الرمل. وقال أبو معاوية الأسود: رأيت إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه يأكل الطين عشرين يوماً. وعن الأعمش قال: قال إبراهيم التيمي: ما أكلت منذ شهر. قلت: منذ شهرا قال: ولا شهرين، إلا أن إنساناً ناشدني على عنقود من عنب فأكلته، فأنا أشتكي بطني. قال يوسف بن الشيخ: العجب من الثوري إذ كان يسف الرمل وهو بمكة، هلا شرب من ماء زمزم فيكفيه، كما فعل أبو ذر رضي الله عنه، فقد جاء في الصحيح أنه أقام بمكة خمسة عشر، ثلاثين بين يوم وليلة، ليس له طعام إلا ماء زمزم، قال: فسمنت عليه حتى تكسرت عكن بطني، قلت: فهذه عطايا من الله عز وجل لأوليائه أهل خدمته. قلت هذا قبل أن أعلم العلة في تركه الشرب من ماء زمزم، وذلك أن القوم كانوا يتورعون عن طعام أو شراب فيه أدنى شبهة، ولما كان الدلو والحبل الذي يستقي به الماء من زمزم من قبل السلطان تورعوا عن تناوله. وقيل لإبراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهو بمكة وكان لا يشرب من ماء زمزم: ألا تشرب من ماء زمزم؟ فقال: لو كان لي دلو لشربت. وقال أبو عبد الله بن

الجلاء: أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة لم يشرب من ماء زمزم إلا ما استقاه بركوته ورشائه. وكان بشر الحافي لا يشرب من الأنهار التي احتفرتها الظلمة، وأطفأ بعضهم سراجاً أشعله غلامه من بيت ظالم.

ويروى عن ذي النون المصري أنه كان محبوساً جائعاً، فبعثت إليه امرأة صالحة من طيب مالها طعاماً، فلم يأكل منه واعتذر بأنه جاء على طبق ظالم، أي: على يدي السجان. فهذا الذي حمل أولئك الفضلاء من أهل الورع والدين على أكل الطين وموتهم لشهواتهم على لهواتهم، كما حكي أن مالك بن دينار رضي الله عنه مكث بالبصرة أربعين سنة، فلم يصح له أن يأكل من ثمرها أو رطبها، حتى مات ولم يذقه، وكان إذا انقضى وقت الرطب يقول: يا أهل البصرة هذا بطني ما نقص منه شيء ولا زاد في بطونكم، وكانوا يستسهلون الورع. وكان سفيان الثوري رضي الله عنه يقول: ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في صدرك تركته. وقال ابن الجلاء: من لم يصحبه التقى في فقره أكل الحرام، النص. وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرفة.

فصل:

تقدّم ذكر أبي ذر رضي الله عنه، واسمه جندب بن جنادة، كان من أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسلم بعد أربعة، فكان خامس المسلمين، ولما بلغه مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه مكة، فأقام بها خمسة عشر، ثلاثين بين ليلة ويوم، ولم يكن له طعام إلا ماء زمزم، قال: فسمنت عليه حتى تكسرت عكن بطني، وذكر أنه لقيه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وسأله عن مقدمه، فأخبره أنه يريد الاجتماع مع النبي صلى الله عليه وسلم، وحينئذ قال له عليّ: اتبعني حتى تدخل معي مدخلي، فإني إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأني أريق الماء، وإن مضيت فاتبعني، كما تقدّم. ثم دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: السلام عليك يا رسول الله، قال: فكنت أوّل من حيا بتحية الإسلام، فقال: وعليك السلام، من أنت؟ قلت: رجل من غفار، فعرض عليّ الإسلام، فأسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى قومك وأخبرهم، واكتم أمرك عن أهل مكة، فإني أخشى عليك. فقلت: والذي نفسي بيده لأصرخنّ بها بين أظهرهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فثار القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فانكب عليه فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد إلى مثلها، وضربوه، فأنقذه العباس. ثم لحق بقومه ثم قدم على

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم وهم في اسمه، فقال: أنت أبو نملة، قال: أنا أبو ذر، قال: نعم أنت أبو ذر. وذكر تمام الخبر. وجاء في فضله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر. ومات بالزبدة رضي الله عنه.

رجع الكلام بعد ذكر هؤلاء الزهاد العباد إلى بقية خبر إرم ذات العماد: وقع في كتاب الممالك والمسالك أنه وجد في الإسكندرية عمود رخام عليه مكتوب بالقلم المسند، وهو القلم الأوّل من أقلام حمير: أنا شدّاد بن عاد، سددت بذراعي الواد، وقطعت عظيم العماد، من الجبال والأطواد، وبنيت إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، أردت أن أبني هاهنا كإرم وأنقل إليها كل ذي قدم، من جميع العشائر والأمم، فأصابني ما أعجلني وعما ذهبت إليه قطعني حال طال مع وقوعها همي وشجني وقل نومي ووسني، فارتحلت عن هذه الدار لا لقهر جبار ولا لخوف جيش جرار، ولكن لتمام المقدار وانقطاع الآثار وسلطان عزيز جبار، فمن رأى أثري وعرف خبري وطول عمري ونفاذ صبري وشدة حذري فلا يغتر بالدنيا بعدي.

فصل: عجائب الإسكندرية:

وإذ قد ذكرت ما قال الناس في إرم ذات العماد من الغرائب فإني أذكر ما شاهدته في الإسكندرية من العجائب. فعلى هذه الأخبار بنيت هذه الأسفار، لأن فيها تنفيساً للنفوس من البوس وترويحاً للأرواح من العبوس. وكل ينفق مما أولاه مولاه، وأبدأ بما ذكره مؤلف كتاب الفتوح: أخبر أن عمرو بن العاص لما افتتح الإسكندرية كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أما بعد فإني افتتحت مدينة لا أصف ما فيها، غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام. قال: ووجدت فيها اثني عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية، وأربعمائة ألف ملهى للملوك. وقيل كان بالإسكندرية فيما أحصي من الحمامات اثنا عشر ألف ديماس، أصغر ديماس فيه سبعة آلاف مجلس، كل مجلس يسع جماعة، هذا نصه. وأما أنا فأخبرني مخبر بالإسكندرية أن داخل سورها أربعة آلاف مسجد، وقال آخر: ستة آلاف، وأن خارجها ألف مسجد، وكان ذلك إذ دخلتها سنة إحدى وستين وخمسمائة، وهي أصغر مما كانت أوّلاً، إذ بناها الإسكندر، بأضعاف كثيرة، رأيت بخارجها على نحو ميل منها باباً عظيماً، أعني بناء باب قد تهدّم ما حوله، وبقي على قارعة الطريق بقبلتها. يقال من ذلك المكان كانت المدينة أوّلاً. وأما منارتها فبينها وبين المدينة نحو ميل أيضاً أو أكثر بجنوبيها، وهي في جزيرة صغيرة في الماء، وقد بني منها إلى البر

رصيف في الماء طوله ستمائة ذراع أو أزيد، وعرضه عشرون ذراعاً، وارتفاعه فوق الماء ثلاثة أذرع. فإذا هاج البحر غطى الماء ذلك الممشى، ولكنه بحر لين بسبب الجزيرة والأحجار التي حول ذلك الموضع فيمشي الماشي عليه في الماء إلى الكعبين أو نحو ذلك، فإذا انحسر الماء مشى في اليبس. والمنارة في آخر الجزيرة، وهي مربعة، كل وجه خمسة وأربعون باعاً، والبحر يكثر في الممشى الذي حول البناء من جهة الشرق والجنوب، بينه وبين الجدار اثنا عشر ذراعاً، وارتفاعه من الماء إلى الهواء ذلك المقدار، إلا أنه من جهة البحر أوسع، أعني أوّل البناء الذي على الحجارة تحت الماء كأنه جبل، ثم كلما طلع البناء ضاق حتى يرتفع على وجه الأرض، ويبقى بينه وبين جدار المنارة القدر المذكور أوّلاً، وقد أحكم إلصاقه وبناؤه، وأفرغ بالرصاص في أقفال من حديد تمسك ذلك الكدان المنحوت، الذي كل كدانة منه أطول من لوح البناء وأغلظ من عرضه، وهذا البناء الذي أصفه محدث، لأنه كان قد انهد ذلك الجانب فبني أحسن من البناء القديم. وفي الحائط الذي يلي البحر من جهة الجنوب كتابة بالخط القديم، لا أدري ما هو، وليست كتابة بقلم، إنما هي صور وأشكال من حجارة صلبة طوال سود، قد أدخلت في الكدان، وقد أكل البحر وهواؤه الكدان، فبرزت الحروف لصلابتها، طول الألف منها فوق الذراع، ورأس الميم قد خرج من البناء كمدور فم البرمة الكبيرة. وهكذا أكثر تلك الحروف على هذا الشكل، وباب المنارة مرتفع عن الأرض، قد بني له ممشى طوله نحو مائة باع، وتحت الممشى قبة قسي شبه القنطرة، يدخل الفارس تحت القوس منها، ولو رفع يده ما أدرك السمك في الكبار منها، وعددها ستة عشر قوساً، أوّلها قصير. ثم كلما مضى ارتفع حتى يتصل آخرها بالباب، وهو أرفعها سمكاً. ودخلنا على الباب فمشينا نحو أربعين باعاً، فوجدنا على اليسار باباً مغلقاً لم ندر ما فيه، ومشينا نحو ستين باعاً، فوجدنا باباً مفتوحاً، فدخلنا من بيت إلى بيت ثمانية عشر بيتاً، سوى الزقاق التي نمشي فيها، وهي بيوت ينفذ بعضها إلى بعض، وحينئذ علمنا أن جوفه فارغ، وإنما عددنا من عن يمين الزقاق ويساره؛ ومشينا ستين باعاً، فوجدنا أربعة عشر بيتاً، ومشينا أربعة وعشرين باعاً؛ فوجدنا سبعة عشر بيتاً، ومشينا خمسة وخمسين باعاً؛ وانتهينا إلى الحزام الأول، وليس هناك درج، إنما هي أرض مرتفعة قليلاً تدور بعجل عظيم. تجد عن يمينك غلظ الحائط الذي لا ندري قدره، وعن يسارك العجل الذي فيه البيوت المذكورة، كأنك تمشي في زقاق سعته سبعة أشبار، وفوق الرأس سقف ألواح من حجارة، رأينا إذا طلعناه فارساً يهبط وآخر يصعد، حتى التقيا في الطريق، ولم يضيق أحدهما على الآخر. فلما انتهينا إلى الحزام

الأوّل ذرعنا منه إلى الأرض بشريط في طرفه حجر، فوجدناه إحدى وثلاثين قامة، وستارة حائط نحو من قامة. وقام في الوسط فحل مثمن، في كل وجه عشرة أبوع، وبينه وبين الستارة خمسة عشر شبراً، وغلظ الستارة سبعة أشبار أو تسعة، أشكل عليّ هذا الحرف من الأم التي نقلت هذا منها، لأني كتبت هناك هذا كله، ومضيت إليه بالمداد والكاغد والشريط، حتى لا أسقط منه شيئاً، فإنه عجب وأيّ عجب. والله خلقكم وما تعملون. وأكثر ظني أنه تسعة، ورأس هذا الحزام أضيق من أسفله، فدخلنا في جوفه ومشينا خمسة عشر باعاً، ووجدنا درجات رقينا فيها ثمانية عشر درجة، وانتهينا إلى الحزام الأوسط فذرعنا بالشريط، فوجدنا منه إلى الحزام الأول خمسة عشر قامة، وقام في وسط ذلك الفضاء فحل آخر مدوّر، غلظه أربعون باعاً، وبينه وبين الستارة تسعة أشبار ونصف. فدخلنا فيه أيضاً وصعدنا إحدى وثلاثين درجة، وانتهينا إلى الحزام الثالث، فذرعنا منه إلى الحزام الأوسط أربع قامات، وفي وسطه مسجد يفتح على أبواب أربعة كالقبة، ارتفاعه في الهواء نحو ثلاث قامات، وغلظه عشرون باعاً، وأمامه ستارة غلظها شبران، ومنها إلى المسجد خمسة أشبار، فجميع بيوته التي دخلناها سبعة وستون بيتاً سوى الأوّل المقفل. يقال إن فيها مهاوي تنفذ إلى البحر، وطول المنارة على هذا الحساب ثلاثة وخمسون قامة، ومن الأرض إلى ماء البحر خمس، وتحت الماء الظاهر نحو القامة أو أكثر، ترمي بالحجر من أعلاه فلا يقع إلى الأرض حتى يمس في الحائط لسعة أسفله وضيق أعلاه. وإنما بني هناك ليستدل به على البلد السائرون إليه في البحر، وتوقد في أعلاه النار لأهل المراكب لئلا يضلوا، ولقد فاتتنا رؤيته فلم نقدر ندخل مرسى البلد. وكان رئيسنا أيضاً لم يكن دخله قبل ذلك، فخلفناه وراءنا وأدخلتنا الريح في موضع ليس فيه مرسى، ثم سلم الله بعد أن أشفينا على الهلكة، وخرجت إلينا القطائع من البلد فأدخلونا البلد يوماً آخر، وكانت العافية والحمد لله. فرغ حديث المنارة.

وأغرب من هذا حديث السارية بقبلي البلد خارجاً منها بنحو ميل؛ موضع مرتفع شبه الأكمة والربوة، يقال إنه مسجد سليمان بن داود عليهما السلام، طوله مائتان وثلاثة وعشرون باعاً، وعرضه مائة باع، قد دارت به مائة سارية، في القبلة منها خمس عشرة، وفي الجنوب كذلك، وفي المشرق خمس وثلاثون، وفي المغرب كذلك. غلظ كل سارية سبعة عشر شبراً، وطولها نحو الخمسين شبراً، بين كل ساريتين ثمانية عشر شبراً، ندرع بالشريط غلظ السارية ثم نمده بينها وبين التي تليها، فنجده سواء إلا قدر الشبر، والسراري الأربع التي في الأركان قد نحتت على شكل ساريتين وركن محدد من حجر

واحد، غلظ كل واحدة من الأربع ثلاثون شبراً. كل سارية على قاعدة مربعة الأسفل مدوّرة الأعلى، على شكل السارية، وكلها من لون واحد مثل لون السواري، ليست شديدة الحمرة بل تضرب إلى الصفرة قليلاً، على رأس كل سارية رأس أصفر مدوّر على غلظ السارية، إلا أن أعلاه أوسع شيئاً من أسفله، وهذا المسجد في البراح، ليس عليه سقف ولا كان عليه قط، والله أعلم. إلا أن قبلته سقف فيه بلاط واحد فيما أظن بسواري دون تلك المذكورة، مثل سواري بلادنا أو أغلظ، وصنع له محراب يصلي فيه من مشى إليه، لأنه في فضاء ليس حوله عمران الآن.

والعجب العجاب أن أمام الصف الشرقي منه داخل المسجد سارية عظيمة، بينها وبين الصف مقدار عشرين ذراعاً، على قاعدة من حجر واحد مربعة من اللون المذكور، ارتفاع القاعدة في الهواء ستة عشر شبراً، وفي كل وجه منها عشرون شبراً. ثم جعلت عليها قاعدة أخرى مثلها في الصفة والسعة واللون، نصفها مربع مثل التي تحتها، ونصفها مدوّر على شكل السارية التي عليها، ارتفاع هذه القاعدة الأخرى في الهواء ثمانية أشبار، قد أحكم إلصاقها بالرصاص، وأتقن خرط المدوّر منها، ونحت المربع غاية الإتقان ثم السارية العظيمة فوق ذلك كله، غلظها ثمانية وثلاثون شبراً، لا يدرى قدر ارتفاعها، إلا أن الصبيان يأتون إليها ويرمونها بالحجارة، أيهم يوصل حجره أعلاها، وما رأيت من بلغه. وعليها رأس من حجر يضرب إلى الصفرة، واسع الأعلى، قد صار عليها كالطبق، وأتقن نحته وتخريمه وله شعب تنظر إلى الأرض شبه الأكلب، في نهاية من التخريم والإتقان، وهو حجر صلد، لكنه محكم الصنعة. والسارية في غاية الاعتدال والصفاء، ولا أدري ما معنى تلك السارية وحدها في ذلك الموضع، ليست في الوسط، ولا ثم أمارة لموضع أخرى، ولا من حيث جلبت، ولا كيف أقيمت. وما حول الإسكندرية جبل يقرب منها، يقال إن الجن صنعت ذلك لسليمان عليه السلام، أو لعل ذلك من عهد عوج وأصحابه، وهو حجر يبقى بقاء الأبد، والله أعلم.

قال يوسف: ذكرت حديث هذه السارية بمالقة حرسها الله تعالى في عام اثنين وستمائة بعد رؤيتي إياها بنحو من أربعين سنة، فذكر لي رجل من أصحابي من الحجاج من أفاضل الناس قال: حدثني كذلك رجل صالح ثقة أن أحد الرماة بالإسكندرية جنى جناية، فعمد إلى تلك السارية، فرمى أعلاها بسهم قد ربط في فوقه خيطاً حلواً قوياً، فجاوز سهمه السارية، والخيط على رأسها، وطرفه في الأرض، حيث وقع السهم. والطرف الآخر من الجهة الأخرى من حيث رمى، ثم ربط في هذا الطرف خيطاً آخر أقوى منه، وربط في طرفه شريطاً، وفي طرف الشريط حبلاً قوياً، ثم جبذ

ذلك كله من الجهة حيث سقط السهم، ثم أوسق طرف الحبل في أسفل السارية، وتعلق به من الجهة الأخرى، حتى استوى على رأس السارية، وإذا به منقوش شبه الحوض وفيه ماء المطر، وطلع ومعه بعض قوت، وأقام ثم، واجتمع الناس إليه، ورأوا عجباً ولم يعلموا كيف كانت تلك الحيلة في صعوده إلى ذلك الموضع. وبلغ ذلك الوالي فاستغربه، وأمر بالعفو عنه وإنزاله آمناً، وحينئذ حدثهم بحيلته. هذا معنى كلامه والله أعلم.

وهذا ممكن فقد حدثني ابني عبد الله أنه رأى في بلاد بغداد إيواناً لبعض الملوك المتقدمين في نهاية من الارتفاع وفيه قبة عظيمة، وبداخلها على قمة الرأس حلقة فضة ملصقة بالسقف ظاهرة، فلم يقدر أحد على أخذها، حتى جاء رجل من الغز، فرماها بسهم في فوقه خيط مثل ما تقدّم، ثم قوى ذلك الخيط بغيره وبغيره، ثم جبذه جماعة من الجهتين جبذة أسقطوا تلك الحلقة وأخذوها.

رجع الكلام إلى بقية الخبر: وبحري صف السواري المذكورة باب المسجد، وفيه عجب أيضاً، العضادة منه من حجر واحد، طوله خمسون شبراً، وعرضه سبعة أشبار، في الوجه الذي يكون عن يمينك إذا دخلت، وفي الذي عن شمالك كذلك، وحرف الحجر أربعة أشبار ونصف وإلى جانبها عن يمينك عضادة أخرى كذلك من حجر واحد على صفتها، وكذلك عن يسارك بينهما في الأرض ثلاثون شبراً، على العضادتين عتبة من حجر واحد يمسك رأس العضادتين من ناحية داخل المسجد، وكانت على العضادتين الأخريين اللتين يليان البراح من خارج المسجد عتبة أخرى كذلك من حجر واحد، لكنها سقطت وانكسرت على ثلاث قطع، طولها مكسورة أربعون شبراً، وعرضها ثمانية أشبار، وحرفها كذلك، قد خرج لها تكفيف ورف فيه أكلب وسوسانات وتخريم عجيب، وفي طرفها من هاهنا وهنا كلبان كبيران قد خرم فيهما من التخريم ما يستغربه من رآه، وهو مع ذلك في نهاية من الصفا والصقالة، تضرب فيها بيدك أو بحجر فتسمع له صوتاً غريباً، وأمام ذلك مقدار عشرين باعاً قائمة أخرى في الهواء، وقد سقطت أختها من الجانب الآخر فانكسرت على نصفين، طولها خمسة وخمسون شبراً، في عرض ثمانية أشبار، وحرفها كذلك، كأنه كان فصيلاً أمام الباب، وتحت الباب دهليز عظيم قد أقبي بالكدان كهيئة البيت العظيم، وداخله سرب يدخل تحت المسجد، لا أدري ما طوله ولا إلى أين ينفذ. يقال إن المسجد كان على بيوت وزنقات، ويظهر ذلك من بعض مواضع السواري المقلوعة، لأنهم يقلعونها ويقطعون منها أحجار الأرض والبدود، ونقل من كدانه كثير إلى إصلاح ما كان قد

وهي في المنارة المذكورة. قيل: وفي رصيفها، وذلك التراب في الأكمة المذكورة حيث المسجد المذكور ليس خلقة، إنما هو منقول إليها، غطي به ما بني هناك من تلك الأشياء، وستر به أسس السواري والكدان، والله أعلم.

ولما رأيت هذه العجائب والآثار استغربتها، ثم تفكرت في القوم الذين كانوا قبلنا مثل قوم عاد، الذين كانوا كما قال الله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧]، فقلت: عمل تلك السارية وأعظم منها في حقهم قليل. وقد جاء في قصة الجبارين أن موسى عليه السلام لما بعث إليهم اثني عشر نقيباً ليخبروه خبر القوم؛ رآهم رجل من الجبارين، فأخذهم في كمه مع فاكهة كان يحملها من بستانه، وجاء بهم إلى الملك فنثرهم بين يديه وقال له: إن هؤلاء يريدون قتالنا. فقال لهم الملك: ارجعوا إلى صاحبكم فأخبروه خبرنا. ذكر ذلك المهدوي رحمه الله في التحصيل. ومن غيره يروى أنه كان يدخل في فم الرجل منهم اثنان من قوم موسى عليه السلام، ويحمل العنقود من عنبهم خمسة من قوم موسى، ويسع قحف الرمانة إذا فرّغت خمسة رجال، ويحمل حبة العنب رجل من قوم موسى عليه السلام. وذكر حمزة بن محمد المصري قال: رأيت بالإسكندرية ضرس إنسان عند قصاب يزن به اللحم، زنته ثمانية أرطال.

حديث عوج: وقال المهدوي أيضاً في التحصيل حديث عوج من طريق وهب: لما نظر عوج إلى عسكر موسى وكان أكثر من مائتي ألف؛ اقتلع صخرة من الأرض على قدرهم واحتملها ليرسلها عليهم، فبعث الله الهدهد ومعه قطعة من ماس، فأداره على الصخرة تلقاء رأسه، فسقط موضع التقوير في عنقه، وضربه موسى عليه السلام بعصاه في العرق الذي تحت كعبه، فخرّ ميتاً. وقال أبو عبيد البكري في كتاب المسالك والممالك: إن عصا موسى عليه السلام كان طولها عشرة أذرع، وكان طوله مثل ذلك، ووثب عشرة أذرع، ولم يلحق من عوج إلا عرقوبه، فقتله وأقامه جسراً على النيل يعبر الناس والدواب عليه مدة طويلة. وفي حديث آخر: إنهم جرّوه بألف عجلة وألفي ثور، كل يوم نصف ميل، إلى أن طرحوه في بحر القلزم. وقيل: قطعوه قطعاً وجرّوه إلى البحر، وكان قد عمّر إلى زمن فرعون، ولم يغرّقه الطوفان، ولا بلغ ماؤه إلا بعض جسده، وكان قد طلب السفينة ليغرقها فمنعها الله منه، وكان إذا وقف صارت السحابة له مئزراً. جاء في هذا الخبر أن طول عصا موسى عليه السلام كانت عشرة أذرع، وتقدّم في أوّل الكتاب أن طولها كان اثني عشر ذراعاً، والله أعلم.

وأما أم عوج عناق ولدتها أمها حوّاء عليها السلام مفردة بغير ذكر، مشوّهة الخلقة لها رأسان، ولها في كل يد عشرة أصابع، وفي كل أصبع ظفران. وذكرها

عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وقال: هي أوّل من بغى وعمل الفجور وعملت السحر، وولدت عوجاً الجبار، فدعا عليها آدم عليه السلام، وأمنت حوّاء، فأرسل الله عليها أسداً أكبر من الفيل فقتلها، وأراح منها العباد.

وقال النقاش في قصة جالوت: إن البيضة التي كانت على رأسه كان فيها ثلاثمائة رطل، وإن داود عليه السلام هو الذي قتله بإذن الله تعالى. ولما دنا من جالوت وجنوده، وهم سبعون ألفاً أو يزيدون، وجالوت قائم دونهم قد ستر الشمس. قال له جالوت وقد ازدراه وحقره: ما جاء بك يا شقي؟ قال: جئت لأقتلك. قال: وكيف تقتلني ولو بصقت عليك لغرّقتك ببصاقي؟ ولو وضعت عليك سنان رمحي لأهلكتك؟ إن فيه ثمانمائة رطل. قال له داود: إني قاتلك. قال له: ارجع ويحك إني أراك ضعيفاً، ولا أرى لك قوّة ولا أرى معك سلاحاً، ارجع فإني أرحمك. فقال داود: أنا أقتلك بإذن الله تعالى. فقال جالوت: بأي شيء تقتلني وقد قمت مقام الأشقياء؟ ولا أرى معك إلا عصاك هذه؟ هلمّ فاضربني بها ما شئت. وهي عصاه التي كان يردّ بها غنمه. قال داود: أقتلك بإذن الله بما شاء الله. فتقدم جالوت ليأخذه بيده مقتدراً عليه في نفسه، وكان داود قد استودع ربه غنمه في الجبل، وقال: آتي الناس وأطالع إخوتي، وهم سبعة مع طالوت. فمرّ على حجر فقال: يا داود خذني فإني حجر هارون الذي قتل به كذا وكذا، فأخذه فألقاه في مخلاته. ثم مرّ بحجر آخر فقال: يا داود خذني فأنا أقتل جالوت الجبار. ثم مرّ بحجر آخر كذلك، فألقاه في مخلاته. فلما دنا من جالوت صيّر الله الحجارة الثلاثة حجراً واحداً، فرماه به، وألقت الريح البيضة عن رأسه، فوقع في دماغه حتى خرج من أسفله، وانهزم الصفان منهم، كما قال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٥١]، واتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم، ودخل طالوت بمن معه الأرض المقدّسة وملك مشارقها ومغاربها، وكان داود قد قال لطالوت: تجعل لي نصف ملكك ونصف مالك إن قتلت جالوت الجبار. قال: لك ذلك عندي، وأزوّجك فلانة ابنتي. فلما قتله جاء يطلبه بما وعده، فأعطاه سيفه وزوّجه ابنته، وسأله أن يعطيه نصف ملكه، فهمّ أن يفعل فلامه جبابرة بني إسرائيل وأغروه به، حتى غضب لداود جماعة من أهل الدين، وقاموا معه لينصروه، فعدا عليهم طالوت وقتلهم. ثم إنه ندم وطلب التوبة، فأخبر أن توبته أن يلقى العدوّ ويقدّم بنيه أمامه، وكانوا عشرة، فيقاتلون حتى يقتلوا عن آخرهم، ويقتل هو آخرهم، ففعل وقدّم ولده واحداً بعد واحد، حتى قتلوا عن آخرهم وقتل هو آخرهم، الحديث.

قال: وذكروا عن كعب أن الذي قتل جالوت من الجبابرة جبار كان يبلغ رأسه السحاب وأعطى الله مملكة بني إسرائيل لداود، وكان وعد الله مفعولاً. وهذا الحديث اختصرته وكان طويلاً. قلت: فإذا كان عوج وغيره على ما تقدّم من وصفه؛ فكيف يعجز أحدهم عن أن يرفع تلك السارية وأعظم منها بكفه؟ نعم. ويهدم ذلك البناء بأجمعه بإصبعه، ويخلق الله تعالى ما لا نعلم، والله أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وتقدّم ذكر الندبة، وهو أمر مكروه في الإسلام، وكان أهل الجاهلية يفعلونه، وقد حرم في جملة ما حرم من النوح. خرج مسلم من طريق المغيرة بن شعبة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الميت ليعذب ببكاء الحي عليه. وفي لفظ آخر: إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه. وقد أنكرت عائشة رضي الله عنها على عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين روى هذا الحديث، فقالت: يرحم الله أبا عبد الرحمن أما إنه لم يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه نسي أو أخطأ، والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وذكرت الحديث بكماله، وأنه كان في يهودية بكى عليها أهلها.

وأنكرت عائشة أيضاً على أبي هريرة رضي الله عنهما حين حدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأة عذبت في النار من جرّاء هرة ربطتها لا هي أطعمتها ولا هي سقتها حتى ماتت. فقالت له: يا أبا هريرة أنت الذي تحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا؟ وذكرت الحديث بكماله. فقال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت عائشة: إن المؤمن أكرم على الله من أن يعذبه من جرّاء هرة، إن المرأة مع ذلك كانت كافرة. يا أبا هريرة إذا حدّثت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فانظر كيف تحدّث.

رجع الكلام إلى ذكر عمر. قلت: ويحتمل حديث عمر أن يقال: إذا كان من سنة الميت ومن غرضه أن يناح عليه بمثل هذا؛ أو كان من سيرته أن يسمعه من أهله وهو حي ولا يغيره ولا ينكره على من يفعله؛ فذلك وزر احتمله، يعذب به في قبره. فقد خرج البخاري عن النعمان بن بشير قال: أغمي على عبد الله بن رواحة، فجعلت أخته عمرة تبكي عليه وتقول: وا جبلاه وا كذا وا كذا، تعدد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت شيئاً إلا وقيل لي: أنت كذا. وفي طريق آخر: فلما مات لم تبك عليه. فإن كان من سنة هذا الميت وعادته الزجر عن مثل ذلك والكراهية له ممن سمعه ونيح عليه بمثل

هذا؛ فإن ذلك إن شاء الله لا يضرّه، ويتعلق الوزر بقائله والإثم بفاعله، لا سيما إن كان مع ذلك صوت ونوح، كما قال عليه الصلاة والسلام: ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.

وقد ورد النهي عن النوح في غير ما حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك ورد عن الصحابة والتابعين كراهة ذلك. يروى أن الحسن بن أبي الحسن رضي الله عنه كان في جنازة فيها نوائح، ومعه سعيد بن المسيب رضي الله عنهم، فهمّ سعيد بالانصراف، فقال له الحسن: إن كنت كلما رأيت قبيحاً تركت له حسناً أسرع ذلك في دينك. ولكل مقام مقال. يحتمل أن يكون الحسن قد شرع في تجهيز ذلك الميت أو غسله أو في شيء كان أهمّ عليه وأخف من سماع ذلك النوح، ومع ذلك فلم يرضه وإنما تركه لما لم يقدر على تغييره، أو لئلا يفوته من أمر الميت ما هو أعود عليه من الانصراف عن الجنازة، كما أراد سعيد بن المسيب أن يفعل، والله أعلم.

ولا تغتر بفعل عائشة رضي الله عنها إذا انتدبت يوم موت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنها كانت صغيرة، وقد عابت ذلك على نفسها فقالت: فمن سفهي وحداثة سني أني وضعت رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجري وقمت ألتدم مع النساء. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفي في حجرها وبين سحرها ونحرها، ويروى أنها رضي الله عنها قالت حين مات عليه الصلاة والسلام هذه الأبيات:

قد كنت ذات حمية ما عشت لي ... أمشي البراح وكنت أنت جناحي
فاليوم أخضع للضعيف وأتقي ... منه وأدفع ظالمي بالراح
وإذا دعت قمرية شجناتها ... يوماً على فنن دعوت صباح

وقع هذا في الدلائل، وأنشدنيها بعض الأشياخ وزاد فيها:

وأغض مني الطرف أعلم أنه ... قد مات خير فوارسي وسلاحي
حضرت منيته فأسلمني العزا ... فتمكنت جمر الغضا بجراح
نشر الفراش عليّ ريش جناحه ... فظللت بين سيوفه ورماح
من ذا يؤمل أن يعيش مخلداً ... والموت بين غدوه ورواح
يا ربِّ صبّرني على ما حلَّ بي ... مات النبي وانطفأ مصباحي

سمعت بعض أشياخي رحمه الله يقول: معنى قولها: وأدفع ظالمي بالراح، تخبر أنها ليست لها حيلة إلا أن ترفع يدها بالدعاء إلى الله تعالى، تدعو على من ظلمها. وقال غيره: إنما معناه أنها ليس لها سلاح، وإنما تتقي بيديها فعل الضعيف القليل

الحيلة. قلت: قد رثي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمراثي كثيرة، كلها لا تنفع ولا فيها لذي لوعة مقنع، لأن مصيبته في كل حين تتجدد، وفي كل وقت تتردّد، ولا يجد ذلك على الحقيقة إلا كل مؤمن ذي كبد رقيقة، محب بكل قلبه لا يستطاع على صرفه عن ذلك ولا قلبه. وقد علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف العزاء إذا عظمت الأرزاء، فقال: ليعزي المسلمون في مصائبهم بالمصيبة بي، صلى الله عليه وسلم من نبي، فمن تعزى به في مصابه على كثرة أوصابه فهو المسلم بشهادة الرسول وإلا فما أدري ما أقول. وما أحسن هذا البيت، وليته كان في المصطفى ليت:

والصبر يحسن في المواطن كلها ... إلا عليك فإنك مذموم

ما أصدق ما أخرج هذا الشاعر من فيه لو كان فيه. وقال غيره:

وقد كان يدعى لابس الصبر حازماً ... فقد صار يدعى حازماً حين يجزع

وترك الجزع أحمد على أحمد صلى الله عليه وسلم وشرف ومجد وكرم. وقال آخر، وفيه لعمر الله بعض السلو عن الميت، وللقلب بعض الهدوّ بهذا البيت:

وهوّن ما ألقى من الوجد أنني ... أجاوره في داره اليوم أو غدا

قلت: وجائز اليوم للإنسان إذا سمع كلاماً فيه استحسان قصد قائله شخصاً كريماً عليه أن يقصد به من هو أولى به منه ويصرفه إليه، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد أنشد قول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنال به كريم المأكل

قال: ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك سمع أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابنته عائشة رضي الله عنها تقول، وقد دخلت عليه وهو مريض، فتمثلت:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر: ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. صدق رضي الله عنه في هذا الخبر صدقاً. قيل ذلك في رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً، وأنا أقول عندما سمعت قول الشاعر:

إذا لم أنافس في هواك ولم أغر ... عليك ففي من ليت شعري أنافس

ما أولى هذا أن يقال في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد تقدّم طرف من هذا في باب الذال، ومن أحسن ما قيل في العزاء:

لكل شيء إذا فارقته عوض ... وليس لله إن فارقت من عوض

وقال آخر:

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منها فليس بضائر

ومن المشهور: الجزع على ما فات من أعظم الآفات، وإنما الجزع والإشفاق قبل وقوع الأمر المحتوم، فإذا وقع فليس إلا الرضا والتسليم. والله أعلم.

فصل يتضمن بعض الأخبار عن موته صلى الله عليه وسلم وموت أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على حد الاختصار:

خرج ثابت رحمه الله في حديث العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عكرمة: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، فحبس يومه وليلته والغد حتى دفن من الليل. وقالوا: لم يمت ولكن عرج بروحه كما عرج بروح موسى، فقام عمر خطيباً فجعل يتوعد المنافقين ويقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات، ولكن عرج بروحه كما عرج بروح موسى، لا يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تقطع أيدي أقوام وألسنتهم، وجعل يتكلم حتى أربد شدقاه. فقال العباس: أي قوم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات فإنه بشر، أي قوم ادفنوا صاحبكم فهو أكرم على الله من أن يميت أحدكم إماتة ويميته إماتتين، لهو أكرم على الله من ذلك، ادفنوه، فإن كان الذي تقولونه كما تقولون فليس على الله بعزيز أن يبحث عنه التراب، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً، أحلّ الحلال وحرّم الحرام، ونكح وطلق، وحارب وسالم، ما كان كراعي غنم يتبع بها صاحبها رؤوس الجبال، يخبط عليها بمخبطه، ويمدر حوضها بيده، ما نصب ولا أداب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يا قوم ادفنوا صاحبكم. وجعلت أم أيمن تبكي يومئذ، فقيل لها: يا أم أيمن تبكين على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: أما والله ما أبكي على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أكون أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى ما هو خير له من الدنيا، ولكن أبكي على خبر السماء وقد انقطع.

قوله: يخبط عليها، الخبط: الهش، وكذا فسر به قوله تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ [طه: ١٨] أي: أضرب بها الأغصان على غنمي لتأكله. والمخبط: العصا. ومن الاختباط حديث عمر رضي الله عنه قال: كنت أرعى إبلاً للخطاب، وكان فظاً غليظاً، وكنت أرعى أحياناً وأختبط أحياناً، فأصبحت ليس فوقي إلا الله رب العالمين ثم قال:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويودى المال والولد

ويروى أنه لما قبضت روحه الطيبة صلى الله عليه وسلم سطعت رائحة طيبة لم يجدوا مثلها قط، وسمعوا حفيف أجنحة الملائكة، وقال أنس رضي الله عنه: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه يبكون حوله، إذ دخل عليهم رجل

طويل شعر المنكبين، في إزار ورداء، يتخطى الناس وهم لا يعرفونه، حتى أخذ بعضادتي باب البيت وبكى مع الباكين، ثم أقبل على أصحابه رضي الله عنهم وقال: إن في الله عز وجل عزاء من كل مصيبة، وعوضاً عن كل فائت، وخلفاً من كل هالك، فإلى الله فأنيبوا، وبنظره إليكم فانظروا، فإن المصاب من حرم الثواب، ثم ذهب. فقال أبو بكر: لعل هذا الخضر صاحب نبينا جاء ليعزينا. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دنا الفراق وهو في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها، فلما نظر إلينا دمعت عيناه ثم قال: مرحباً بكم، حياكم الله، آواكم الله، نصركم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي بكم الله، إني لكم منه نذير مبين، لا تعلوا على الله في عباده وبلاده، وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله، وإلى سدرة المنتهى، وإلى جنة المأوى، فأقرئوا أنفسكم مني ومن دخل في دينكم بعدي من إخواننا السلام. وفيما روت عائشة رضي الله عنها أنها قالت: بينما رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكبي إذ سل برأسه نحو رأسي، وخرجت من فيه نطيفة باردة وقعت على نحري، فاقشعر لها جلدي، وظننت أنه غشي عليه فسجيته ثوباً، واستأذن عمر بن الخطاب والمغيرة بن شعبة، فجذبت الحجاب وأذنت لهما. فنظر إليه عمر وقال: وا غشيتاه ما أشد ما غشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم خرجا، فقال المغيرة: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر: كذبت ما مات ولا يموت حتى يفني الله عز وجل به المنافقين. وأخذ بقائم سيفه وقال: لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ضربته بسيفي هذا. ثم جاء أبو بكر رضي الله عنه، فأتاه من قبل رأسه فقبل جبهته ثم قال: وا نبياه، ثم رفع رأسه ثم حدره، فقبل جبهته ثم قال: وا خليلاه. ثم خرج إلى المسجد وعمر يكلم الناس. فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه ثم قال: إن الله عز وجل يقول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، إلى آخر الآية، ثم قال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، ثم قال: أيها الناس من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. قال عمر رضي الله عنه: فكأني والله لم أقرأ هذه الآيات، ثم اعتذر من مقالته الأولى وقال: حملني على ذلك أنني كنت أقرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فوالله إن كنت لأظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها، فهو الذي دعاني إلى ما قلت. ثم قال الناس: يا صاحب رسول الله مات رسول الله؟ قال:

مات. قالوا: يا صاحب رسول الله من يغسله؟ قال: رجال من أهل بيته الأدنى فالأدنى. قالوا: فأين تدفنونه؟ قال: في البقعة التي قبضه الله فيها، فلم يقبضه إلا في أحب البقاع إليه. ثم قال لهم: أيها الناس إن الله عز وجل أعزّ محمداً صلى الله عليه وسلم حتى أقام دين الله، وأظهر أمر الله، وبلّغ الرسالة، وجاهد في سبيل الله، وقد ترككم على الطريقة الواضحة والمنهاج القويم، فاتقوا الله أيها الناس، واعتصموا بدينكم، وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وكلمته تامة، وإن الله ناصر لمن نصر دينه، وإن كتاب الله بين أظهرنا، وهو الشفاء والنور، وبه هدى الله نبينا صلى الله عليه وسلم. إن سيوف الله لمسلولة ما وضعناها بعد، وإنا لمجاهدون من خالفنا كما جاهدهم نبينا صلى الله عليه وسلم، ثم انصرف. وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين عند الزوال غرة ربيع الأوّل، ودفن يوم الأربعاء في موضع فراشه. وقال مالك في الموطأ: دفن يوم الثلاثاء. والله أعلم. وغسله عليّ بن أبي طالب في قميصه، وكان العباس وأسامة يناولانه الماء وراء الستر. قال عليّ: فما تناولت منه عضواً وأردت قلبه إلا انقاد كأنما يقلبه معي الرجال. ثم كفنه في ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة، ثم وضعه حيث توفي، فصلى عليه الناس أفذاذاً من غير إمام. دخل أبو بكر وعمر ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار قدر ما يسع البيت، وقفا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فقال الحاضرون مثل ما قالا، ثم قالا: نشهد أن قد بلغ ما أنزل الله، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله، حتى أعزّ الله دينه، وتمت كلمته، وآمن به وحده لا شريك له. اللهم اجعلنا من الذين يتبعون النور الذي أنزل معه، واجمع بيننا وبينه، حتى تعرفنا به وتعرفه بنا، فإنه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، لا نبتغي بالإيمان بدلاً، ولا نشتري به ثمناً، فيقول الناس: آمين. فيخرجون ويدخل آخرون، حتى صلى الرجال والنساء والصبيان. ونزل معه في قبره صلى الله عليه وسلم: العباس وعليّ وقثم بن العباس وشقران. ويقال من الأنصار: أوس بن خولي رضي الله عنهم.

ولما توفي أبو بكر رضي الله عنه دفن إلى جنبه من خلفه. قال عليّ رضي الله عنه: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه عند وفاته وقد دعاني وقال لي: يا حبيبي يا أبا الحسن قد دنا الأجل وحضرت الوفاة، فإذا أنا مت فغسلني وكفني واحملني إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليتقدم رجل يقول: يا رسول الله أبو بكر بالباب، فإن انفتح بغير مفتاح فأدخلوني، وإلا فادفنوني بين قبور المسلمين. قال عليّ: فلما قبض فعلت ما أمر به، ثم حملته وكنت أوّل من طرق الباب، ثم قلت ما أمر، فوالله ثم

والله لقد تفتحت الأقفال دون مفتاح. وفي الموطأ أن أسماء بنت عميس زوجته غسلته، والله أعلم. ثم دفن إلى جنبه عليه الصلاة والسلام كما تقدّم.

ولما حضرت الوفاة عمر قال لابنه عبد الله رضي الله عنهما: ائت عائشة وقل لها: إن عمر يقرئك السلام، ويقول لك: إنا قد نهينا أن ندخل بيوتكن إلا بإذن، أفتأذنين لي أن أدفن في بيتك؟ قال عبد الله: فأتيتها وقلت ذلك، فبكت حتى علا بكاؤها، ثم قالت: نعم. فأتيته فأخبرته، فقال: يا بني إني أرى المرأة أذنت لي، وهي تظن أني أبقى، فإذا أنا مت فاغسلني وكفني، فإذا حملتني فقدم السرير ثم قل لها: هذا عبد الله عمر يستأذن على الباب، فإن أذنت فادفني مع صاحبيّ، وإن أبت فأخرجني إلى البقيع، ففعل ما أمره به، فأذنت له، فدفن معهما. قالت عائشة رضي الله عنها: كنت أدخل البيت الذي فيه القبر، فأقول: إنما هو أبي وزوجي، فأضع خماري، إلى أن دفن عمر، فوالله ما دخلت البيت إلا مشدودة عليّ ثيابي حياء من عمر رضي الله عنه. وتقدّم:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

هذا بيت مليح المعنى صحيح المبنى، وأحسن منه من عمل به، ومثله:

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها ... فأول راض سيرة من يسيرها

وفي القرآن العزيز: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقد تقدّم الحديث في الرجل الذي يلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه. خرجه مسلم. ومن أمثال العرب: تعظعظ ثم عظ. وربما قالوا: لا تعظ وتعظعظ، أي: لا تعظ الناس وعظ نفسك. ومثله: يا طبيب طب نفسك. ومن أمثال العامة: عجباً للحجاج يعظ الحسن. ومن الشعر في ذلك:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوي والطبيب مريض

ومثله نصف بيت:

ومن العجائب أعمش كحال

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام أن عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحي مني.

وقبل البيت الأوّل: (لا تنه عن خلق........ الخ):

يا أيها الرجل المقوّم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التقويم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالعلم منك وينفع التعليم
تصف الدواء لذي السقام من الضنا ... كيما يصح به وأنت سقيم
وأراك تلقح بالرشاد عقولنا ... نصحاً وأنت من الرشاد عديم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
وإذا عتبت على السفيه ولمته ... في كل ما يأتي فأنت مليم

وتقدّم: أوى؛ بمعنى: رق، يقال: أويت لفلان: أشفقت عليه. ورأيت حكاية فيها هذه اللفظة فسقتها من أجلها ولما في ضمنها من العظة. يروى أنه كان في بني إسرائيل ملك يفتن الناس على أكل لحوم الخنازير، فأتي بامرأة من بني إسرائيل يقال لها سارة، وسبعة بنين لها، فدعا أكبرهم فقرب إليه لحم الخنزير، فقال: كل. فقال: ما كنت لآكل شيئاً حرمه الله عليّ أبداً، فقطع يديه ورجليه ثم قطعه عضواً عضواً حتى قتله. ثم دعا الذي يليه فقال له: كل. فقال: ما كنت لآكل شيئاً حرمه الله عليّ أبداً. فأمر بقدر من نحاس فملئت زيتاً ثم أغليت، حتى إذا غلت ألقاه فيها حتى قتله. ثم دعا الذي يليه فقال: كل. فقال: أنت أذل وأقل وأهون على الله من أن آكل شيئاً حرمه الله عليّ أبداً، فضحك الملك وقال: أتعلمون ما أراد بشتمه إياي، أراد أن يغضبني فأعجل في قتله، وليخطئنه ذلك. فأمر فحز جلد عنقه، ثم أمر به أن يسلخ جلد رأسه ووجهه، فسلخوه حياً. ولم يزل يقتل كل واحد منهم بلون غير قتل أخيه حتى بقي أصغرهم، فالتفت إليه وإلى أمه فقال لها الملك: لقد أويت لك مما رأيت، فانطلقي بابنك فاختلي به وأريديه على أن يأكل لقمة واحدة فيعيش لك. قالت: نعم. فخلت به فقالت: يا بني اعلم أنه كان لي على كل رجل من إخوانك حق، ولي عليك حقان، وذلك أني أرضعت كل رجل منهم حولين، فمات أبوك وأنت حمل، فنفست بك فأرضعتك لضعفك ورحمتي إياك أربعة أحوال، فلي عليك حقان، فأسألك بالله وحقي عليك إلا ما صبرت، ولم تأكل شيئاً مما حرم الله عليك، فلا ألقين إخوتك يوم القيامة ولست فيهم. فقال: الحمد لله الذي أسمعني هذا منك، فإنما كنت أخاف أن تريديني على أكل ما حرم الله عليّ. ثم جاءت إلى الملك فقالت: هذا قد أردته، وعرضت عليه، فأمره الملك أن يأكل فقال: ما كنت لآكل شيئاً حرمه الله عليّ، فقتله وألحقه بإخوته. ثم قال لأمهم: ويلك مما رأيت اليوم ويحك، فكلي لقمة واحدة ثم أمتع بك ما شئت وأعطيك ما أحببت تعيشين به.

فقالت: جمعت ثكلاً من ولدي ومعصية من ربي، فلو حييت بعدهم ما أردت ذلك، وما كنت لآكل ما حرم الله عليّ أبداً. فقتلها وألحقها ببنيها.

قلت: هذا كان في بني إسرائيل ديناً يدينونه، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم جاءنا بالرخصة، وأجاز للرجل عند الإكراه أن يعصي بلسانه ويؤمن بقلبه، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: سلوا الله العافية فلستم بأصحاب بلاء، إن كان الرجل ممن قبلكم يوضع المنشار على رأسه بالكلمة يقولها فلا يقولها، فيشق بين اثنين.

وعن الحسن قال: أخذ مسيلمة رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما: أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: فتشهد أني رسول الله؟ قال إني أصمّ، فقتله. وقال للآخر: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: فتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فخلاه، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أما الأوّل فأخذ بالفضل فأتاه الله إياه، وأما الآخر فأخذ بالرخصة فلا تباعة عليه.

وقال ابن مسعود: ما كلام أتكلم به يدرأ عني سوطاً أو سوطين إلا تكلمت به. وعن الحسن: كل شيء أعطي الرجل بلسانه إذا خاف على نفسه الشرك فما دونه من طلاق أو إعتاق أو غير؛ فليس عليه شيء بعد أن يخاف على نفسه.

وذا فصل الفوائد قد تقضى ... وآخذ بعد في ألف ولام
فأنظم منها بيتاً ومن بعد ... أشرحه بميسور الكلام

باب اللام ألف

ولاء ولاء ولاء ولا ... ولاو لأو لآل لأل

أما ولاء؛ فالواو فيه أصلية. ومنه حديث النبي صلى الله عليه وسلم: إنما الولاء لمن أعتق. وقال: الولاء لحمة كلحمة النسب ويجب به الميراث. ونهى عليه الصلاة والسلام عن بيع الولاء وعن هبته. وأصله من القرابة، لأنه من: ولي، أي: قرب. والولي

منه. ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، قال الحسن: ولي هداهم وتوفيقهم. وسيأتي ذكر الولي والمولى بعد هذا إن شاء الله تعالى.

والولاء يكتب في عقود العتق. يقال بعد ذكر العتق: فلا سبيل لأحد عليه إلا سبيل الولاء. ومن أحسن ما رأيت في عقد عتق أمر بكتبه أعرابي فقال للكاتب: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب كتب عن محمد الثعلبي لغلامه ميمون، إنك كنت عبداً لله فوهبك لي، وقد وهبتك لواهبك، والجواز على الصراط، وقد كنت أمس لي وأنت اليوم مثلي، لا سبيل لي عليك إلا سبيل الولاء. ورأيت مثله لأعرابي آخر فقال: اكتب ولا تعد ما أملي عليك: هذا كتاب من عبد الله بن عقيل لأمته لؤلؤة، إني قد أعتقتك لوجه الله الكريم ولاقتحام العقبة، ولا سبيل لي عليك ولا لأحد إلا سبيل الولاء، والمنة عليّ من الله واحدة، ونحن في الحق سواء. ولما أخبر بذلك الرشيد أمر أن يعتق عنه ألف عبد، ويكتب لهم مثل هذا لا زائد. والولاء: الموالون، يقال: هم ولاء فلان. قال الشاعر:

زعموا أن كل من صرف العير موال لنا وأني الولاء

وأما ولاء الثاني؛ فالواو للعطف، و(لاء): جمع لأي، وهو الثور، وتصغيره لؤي. قاله ابن الأنباري، وبه سمي الرجل بالهمز. ومن قال: لوي، فعلى تسهيل الهمزة، فإن نسبت إلى لؤي؛ قلت: لؤوي. ومنه الحديث الذي نرويه أن عائشة قالت: نظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سهيل بن عمرو اللؤوي فقال: هذا رجل يفر من السودد وتأبى إلا أن تلزمه. ذكره ثابت رحمه الله مستشهداً به على أن السودد يؤنث، وهو جائز، ويذكر أيضاً. قال الشاعر:

وهل المجد إلا السودد العود والندى ورأب الثأي والصبر عند المواطن

وفسر السودد: العود، فقال: يعني به السودد القديم، يريد تفخيمه. ثم قال: والعود: الجمل المسن. وقد تقدّم هذا مع البيت قبله في باب ناب في أوّل الكتاب.

رجع: وقال أبو حنيفة: اللأي هي البقرة، وقال: سمعت أعرابياً يقول: بكم لأيك هذه؟ وقال ابن قتيبة: إن اللأي تجمع على ألآء وزن ألعاع. وجاء في الحديث من قول أبي هريرة رضي الله عنه: أحبّ إليّ من شاء ولاء. فجاء في كلامهم لاء، على مثال:

باقر وجامل وآبل لذي الإبل. وأما ولاء؛ بكسر الواو؛ وهي أصلية، فمعناه: تباع، أي: يلي ويتبع بعضها بعضاً. تقول من هذا: واليت بين الشيئين أوالي ولاء، أي: تابعت. وافعل هذه الأشياء على الولاء، أي: التتابع. وجاء منه في الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من خبز بر ثلاث ليال ولاء، حتى قبضه الله إليه، فلما قبضه الله إليه صبّ علينا الدنيا صباً. أما ولا، فالواو للعطف، بقي لا الحرف الذي للنفي، وقد تقدّم الكلام عليه في باب مقلوب إلى وأخواته.

وأما ولاو؛ قالوا: (و) للعطف، و(لاو): اسم فاعل، من: لوى الحبل يلويه لياً، إذا عطفه وحرفه، وكذلك الخبر والكلام. قال الشاعر:

وسائل عن خبري لويت … فقلت لا أدري وقد دريت

وقد تقدّم. وفي القرآن العزيز: ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ [المنافقون: ٥]، ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا ﴾ [النساء: ١٣٥]، أي: تحرفوا. ومعنى: ﴿ يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم ﴾ [آل عمران: ٧٨] يحرفونها، وأصلها من: اللي، وهو: الفتل. ومنه: المطل. ومنه: ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا ﴾ [النساء: ١٣٥] في أحد القولين: فمن قرأ: (تلوا) جاز أن يكون منه، ويكون أصله: تلووا، بواوين، قلبت الأولى همزة لانضمامها، وألقيت حركة الهمزة على اللام، وحذفت الهمزة. وجاز أن يكون من الولاية، أي: تلوا أمور الناس. ﴿ أَوْ تُعْرِضُوا ﴾ [النساء: ١٣٥] أي: تتركوا. ويقال: لويت الدين لياناً. وقد يقال في هذا أيضاً: لياً. وفي: مثل: ليّ كنعاس الكلب، أي: متصل دائم. وجاء في الحديث: ليّ الواجد يحل عقوبته وعرضه. فقوله: ليّ، معناه: مطل. وهذا الخبر يفسر قوله في الحديث الآخر: مطل الغنى ظلم. إن الإنسان إذا وجد فهو غني، فإن مطل فهو ظالم تحل عقوبته، أي: سجنه، إن امتنع من الأداء. وعرضه، أن يقول صاحب الحق: فلان يمطلني ويسوفني، وما أشبه ذلك مما لا يوقعه في محظور، وأما الممطول الغني فخرج من أن يقال فيه: تحل عقوبته وعرضه، كما تأوّله بعضهم أن الغني يكون الممطول، يريد زعم أن الإنسان إذا مطل غنياً فقد ظلم، فكيف إذا مطل فقيراً؟ وهذا حق وحسن، لأن المطل لا يحل إلا من ضرورة، سواء كان صاحب الحق غنياً أو فقيراً. لولا أن الحديث يرد ما قال، كيف وقد جاء نصاً: لي

الواجد ظلم. وفي المطل لغات، منها اللي، وقد تقدّم. والمعك، تقول: مطلني ولواني ومعكني، وكذلك: دالكني مدالكة. وفي الحديث من هذا قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل يدالك الرجل امرأته؟ قال: نعم إذا كان ملفحاً، يعني: معدماً. ويدالك: يماطل. وفي الحديث: المطل ظلم الغني. وعامة الخلف في الدين، وأكذب الناس الصنع نعم وسوف، معناه والله أعلم أن الصانع يقول: نعم وسوف ولا خشية ولا خوف، ويعد ويخلف، ويكذب ويحلف. ومنه حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه وقيل له: إن الدجال قد خرج، فقال: كذبة صناع، إن الدجال لو خرج لقتله الصبيان بالخزف، ولكنه يخرج في خفقة من الدين، واختلاف من الناس. قوله في الحديث: الصنع، قال أبو زيد: يقال: رجل صنع اليد من قوم صنع الأيدي، ومن العرب من يقول: رجل صنع اليدين بكسر الصاد، من قوم صنع الأيدي. وامرأة صناع اليد في نسوة صنع الأيدي. وفي الحديث: إن زينب بنت جحش كانت امرأة صنعاً، رضي الله عنها.

وضد هذا: الأخرق الذي لا يحسن العمل. ومنه الحديث: يعين والصانع ويصنع للأخرق. يقال من هذا: امرأة خرقاء. ومنه المثل: خرقاء وجدت صوفاً. وقال رجل لأعرابي: أما تستحيي أن تكون أمك نساجة؟ قال: إنما كنت أستحيي أن تكون خرقاء لا تنفع أهلها. والصنيع: المصنوع. يقال: فرس صنيع، للذي قد صنعه أهله بحسن القيام عليه. وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لو أن لابن آدم واديين من مال ثم مر بسبعة أسهم صنع، كلفة نفسه أن ينزل فيأخذها. فقال رجل: فما يمنعه؟ فقال سعد: إني لأظنك هو. خرجه ثابت. وقيل: الصنع هي التي قد أجيد صنعها.

رجع: وأنشد ابن الأعرابي شاهداً على قوله: لويت غريمي ألويه لياً ولياناً:

تطيلـين لياني وأنـت ملـية ... وأحسن بنا ذات الوشاح التقاضيا

قال: والياء في: ليا، واو قلبت ياء. وكذلك قال الزبيدي، وأنكر على من قال لوياً، وقال: هذا محال ولا بد من الإدغام. ولي من قطعة لزومية كتبت بها إلى القاضي أبي فلان بعد كلام:

أشـكو إليـك بنـي فـلان أنهـم ... مطـل وفـي مطلـي ذوو تلـوين

هـب أنهـم يلوونـي ويماطلـو ... ن فأنـت بـورك فيك لـم تلويني

انظرها بكمالها في التكميل. ومن اللّيان قولهم في المثل: الأخذ سلحان والقضاء ليان، أي: إن الأخذ سهل يسوغ في الحلق بسرعة والقضاء مطل. ومنه قيل للسيف: سلحان، إذا كان ماضياً يقطع بسهولة. ومثل المثل الأوّل: الأخذ سريط والقضاء ضريط. سريط، من: سرطت، إذا بلعت، وضريط مفهوم. وتقول: لوى فلان رأسه إلى كذا ولوى عنقه إليه. ومن أحسن ما أحفظه من الشعر في هذا المعنى ما أنشدنيه الفقيه أبو محمد عبد الحق ببجاية لنفسه رحمه الله:

ولا تلو نحو الجزع رأساً فإنه | بإمساك ما يلوي إليه معوّد

من قطعة أوّلها:

ثملت من الدنيا ولم تصح عن هوى | وغرّك أن قالوا فلان مسوّد
وحلت بك البلوى ولم تر عائداً | ولو قلت وا رأسا لعادك عوّد

وفي آخرها يقول:

فهاك صباح الشيب لاح وإنّما | برأسك منه للمنية مقصود
فشمر ذيول الغي وانأ عن الهوى | لعلك تسمو عندها وتسوّد
ولا تلو .... | .... البيت

وتقول: لويت عن الأمر والتويت عنه، وألويت بالشيء: ذهبت به. ومنه يقال: ألوى بهم الدهر إذا ذهب بهم. ولويت الحبل لية واحدة. وقرون ليّ، أي: ملتوية. واللّوية: ما أخرت المرأة مما يؤكل، وهي تلوي ليّاً، وألوى الرجل بثوبه إلواء: رفع به يديه. ويقال في مثله: لوح به تلويحاً، ولمع به لمعاً، وأخفق به إخفاقاً، كله واحد. وفي الحديث من هذا: فجعلت تلمع إلينا.

وخرج ثابت رحمه الله الألفاظ المتقدمة وحدث بسنده عن حارثة قال: حلم حالم بالكوفة أنه من صلى في مسجد الكوفة غفر له. فاجتمع الناس في المسجد، فأتى عبد الله فخرج فزعاً حتى أتى المسجد فوقف بباب المسجد فجعل يلوي ويلمع بثوبه، ويقول: اخرجوا لا تعذبوا فإنما هي نفحة من الشيطان، إنه لا نبي بعد نبيكم ولا كتاب بعد كتابكم. قال ثابت: ويقال في غير هذا: ألوى القوم، إذا بلغوا ألوى الرِّمل، وقد ألوى البقل فهو ملو: إذا صار لوياً، وهو الذي بعضه فيه نداوة وبعضه يابس. ومن معنى

حديث عبد الله هذا ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه رأى ناساً ينثالون فقال: ما بالهم؟ قيل: مكان صلى فيه نبي. فقال: إنما هلك من كان قبلكم حين اتبعوا آثار أنبيائهم وتركوا أمر دينهم، أينما أدركتكم الصلاة فصلوا، فإن الأرض كلها مسجد. خرجه ثابت أيضاً، وقال: انثال عليه جماعة من الناس وانكالوا وانهالوا وانقضوا: إذا أتوه وتتابعوا عليه وتهافتوا. ومن معنى الاتباع وترك الابتداع ما كان مالك رضي الله عنه ينشد كثيراً:

وخير أمور الدين ما كان سنة ... وشر الأمور المحدثات البدائع

وكان أيضاً يقول: عليك من الأمر بما كان ضاحياً بيناً. يقال: قد ضحا لك الطريق يضحو ضحواً: إذا بدا لك. ويقال: ضحى يضحي كما في القرآن. وقد رأى ابن عمر رجلاً في الحج قد جعل ظلالاً على محمله فقال: اضح لمن أحرمت له، يعني ابرز إلى الضحى. وقال الرياشي: رأيت البهلول في يوم شديد الحر ضاحياً فقلت له: يا أبا الفضل هلا استظللت، فإن ذلك توسعة للاختلاف فيه، فأنشد:

ضحيت له كي أستظل بظله ... إذا الظل أضحى في القيامة قالصا
فوا أسفا إن كان سعيك باطلا ... ويا حسرتا إن كان حجك ناقصا

ولي في هذا المعنى، آمر بالاتباع وأنهي عن الابتداع، وهو في معنى قول مالك فلا يهلكنّ هالك:

عليك من أمر الدين ما كان واضحاً ... ودع مشكلات الأمر عنك بمعزل
وأهل التقى والفضل كن تابعاً لهم ... وإن رحلوا فارحل وإن نزلوا انزل
وحافظ على الأمر القديم ووله ... عليك وعنك المحدث البدع فاعزل

وقلت أيضاً:

عليك من الطرق المحجة تنجون ... وحل ثنيات الطريق المخادعا
وحيث مضى الجم الغفير امض يا فتى ... ولا تلفين فذاً من القوم خادعا
وخذ من أمور الدين ما تستطيعه ... وسر فيه سيراً ساكن الجأش وادعا
فإن لم تكن تقوى على الخير فلتكن ... عن الشر يا هذا لنفسك قارعا
وهذي وصاتي إن قبلت تكن بها ... لأنف عدو الله إبليس جادعا

ويقال: رجل ألوى، للمنفرد. وامرأة ليا. والألوى: الشديد الخصومة. ومنه: (ألا

رب خصم فيه ألوى رددته). واللواء، ممدود: لواء الأمير، وجمعه ألوية، ومنه: (بسقط اللوا بين الدخول فحومل). وألوى، بالتنوين: مصدر قولهم: ما ألوت أن أفعل ذلك ألوي، أي: ما تركت أن أفعل ذلك. وقد تقدّم ألوت وما جاء منه في الحديث في باب إلا، والحمد لله. ولاوى: اسم رجل. واللأي: البطء، قال: (فلأياً عرفت الدار بعد توسم)، وقال: (فلأياً بلأي ما حملنا وليدنا)، و(ما) في قوله: ما حملنا، زائدة. وبذلك يفهم معناه. وقال البكري: لأي: موضع ببلاد بني مزينة. وقال أوس بن حجر:

تأبـــــد لأي مـــــنهم فعـــــتائده

وقد تقدّم في أوّل الكتاب قولهم: فلان لا يعرف الحي من اللي، وفسر والحمد لله. ومما يقرب من اللي: اللياء، وهو حب يشبه الحمص شديد البياض يكون بالحجاز ويؤكل، عن أبي عبيدة. وفي الحديث: دخل عليه معاوية وهو يأكل لياً مقشى، يعني: مقشراً، فإذا وصفت المرأة بالبياض، قيل: كأنها لياة. واللياء، مقصور: الأرض البعيدة من الماء.

وأما لآو؛ فاسم فاعل، من: أوى يأوي فهو آوٍ، إذا انضم أو إذا أشفق ورقّ، كما تقدّم.

وأما معكوس هذه الألفاظ أعني: ولا ولا، فهو لاو ولاو. ومعكوس هاتين اللفظتين وال وسيذكر إن شاء الله تعالى. بقي من معنى هذا البيت: ولي، وولي يعني: وال ومولى.

أما ولي ففعل، تقول: ولي يلي ولاية، وهي الإمارة. وجاءت على وزنها: ولاية، بالفتح، على وزن صداقة وكرامة، وهي معناها. وفي القرآن العزيز: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ ﴾ [الكهف: ٤٤]، قرئت بالفتح والكسر، ذكرها المهدوي ولم يفرق بينهما. وكذلك قرئ: (الحق) (والحق)، روى عصمة عن أبي عمرو: الحق، أي: في ذلك الموطن الولاية لله الحق وحده لا يملكها سواه، فحينئذ يؤمنون بالله وحده، ويتبرؤون

مما سواه، ويجرون الحق على أنه صفة لله عز وجل، والمعنى: لله ذي الحق، كما قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]، ومن رفع (الحق) جعله نعتاً للولاية، ومعنى وصفها بالحق أنها لا يشوبها غيره، ولا يخاف فيها ما يخاف في سائر الولايات من غير الحق، ومن نصب (الحق) فعلى إضمار، أعني: ومن جعل العامل في: هنالك، قوله: منتصراً، أجاز الوقف على (هنالك)، وابتدأ: الولاية لله الحق، على الابتداء والخبر في المجرور. وقولهم: فلان ولي مال اليتيم، هو من هذا. وولي هذا، أي: تبعه وقرب منه. ومنه قولهم: غداً وبعد غد والذي يليه. وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، ومنه: ولاية البيت الحرام. والولاية بالفتح أيضاً: مصدر المولى، والمولى: الولي ومصدره: الولاء المتقدّم الذكر. والمولى: الناصر في قوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٠]، أي: ناصركم ووليكم. والمولى، قال ابن عزيز: على ثمانية أوجه: المعتق والمعتق والولي والأولى بالشيء وابن العم والصهر والجار والحليف. وقال المهدوي في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ [مريم: ٥]، يعني العصبة، عن مجاهد والسدي وغيرهما. وقال أبو عبيدة: يعني به العم. وفي رواية: يعني بني العم. وقيل: إنما خاف أن تنقطع النبوّة من نسله وتصير في عصبته في غير ولد يعقوب، وزكرياء من ولد يعقوب، فدعا زكرياء ربه تعالى أن يهب له ولداً يرث العلم والحكمة والنبوة، لأن ذلك إذا صار إلى ولده لحقه من الفضل أكثر مما يلحقه إذا صار إلى ولد غيره، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم يورثه أو ولد صالح يدعو له، أو أصل يحبسه. وفي رواية أخرى: أو صدقة جارية عليه. والمعنى سواء. وفي حديث آخر: إن الرجل ليرفع له بدعاء ولده من بعده. فدعا زكرياء عليه السلام ربه تعالى أن يكون الذي يرث علمه بعده الذي يخرج من صلبه، فيكون تقدير الآية على هذا: وإني خفت

الموالي أن يصير إليهم العلم والحكمة، فأضمر ولأن يصير ذلك في ولدي أحبّ إليّ وأفضل. وتقدّم من قرأ: (وإني خفت الموالي مَنْ ورائي)، فكان المعنى: قلة المولى من ورائي، أي: من بعدي، وقل من يقوم بالدين، فسأل ولياً يقوم به، ولم يرد يرث مالي، وإنما أراد يرث علمي وحكمتي ونبوّتي. لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة. وقال أبو علي القسري في قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى ﴾ [مريم: ٥]: إن الخوف لا يكون من الأعيان في الحقيقة، وإنما يكون مما يؤول منها، فإذا قال القائل: خفت الله عز وجل وخفت الموالي وخفت الناس؛ فالمعنى في ذلك: خفت عقاب الله وخفت عقوبة الموالي وخفت شماتة الناس. وكذلك: خفت الموالي من ورائي، أي: خفت تضييع بني عمي، فحذف المضاف، والمعنى: تضييعهم الدين وإطراحهم له، فسأل ربه عز وجل ولياً يرث نبوّته وعمله، لئلا يضيع الدين، كما تقدّم. ولا يجوز أن يظن بنبي الله أن يقول: إني أخاف أن يرثني بنو عمي وعصبتي ما فرض الله لهم من المال، إذ لو كان ذلك جائزاً في أمور الأنبياء؛ أعني الميراث؛ فكيف ولا يورثون إلا في الحكمة، كما قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النمل: ١٦]، يعني: نبوّته وحكمته. وإنما حمل زكريا عليه السلام على قوله ذلك؛ لما خشي من تبديل الدين وإطراحهم له وقتل الأنبياء عليهم السلام.

رجع: ومن المولى الذي هو الولي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عليّ رضي الله عنه: من كنت مولاه فعليّ مولاه، أي: من أحبني وتولاني فليتوله. ومن المولى الذي هو الولي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيما امرأة نكحت بغير إذن مولاها فنكاحها باطل، أي: بغير إذن ولي. ومن المولى قوله عليه الصلاة والسلام: اللهم إني أسألك غناي وغنا مولاي. قال أبو عبيد: كل ولى للإنسان فهو مولاه، مثل الأب والأخ وابن الأخ والعم وابن العم وسائر العصبة. ومن المولى الذي هو الأولى، قوله تعالى: ﴿ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحديد: ١٥]، أي: هي

أولى بكم. ومن الولي الذي هو الناصر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوم أحد إذ قال أبو سفيان بن حرب: إن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال عليه الصلاة والسلام: قولوا له: الله مولانا ولا مولى لكم، أي: ناصرنا. وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١]، أي: لا ولي لهم. وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا ﴾ [الدخان: ٤١]، أي: ولي عن وليه شيئاً إما بالقرابة وإما بالتولي، لأنه يكون بهذا وبهذا، كما قال الشاعر:

موالـــي حلـــف لا موالـــي قـــرابة ولكـــن قطيـــنا يـــسألون الأتاويـــا

والنسبة إلى المولى: مولوي. ولي من قطعة مطوّلة منها:

وارض بالـــــرحمن مولـــــى فعـــــسى يرضـــــاك عـــــبدا

لعلك تقول: أليس الكل عبيد الله؟ أليس قد قال الله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣]، فإذا قلت هذا قيل لك اقرأ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، والذين كذا والذين كذا إلى آخر أوصافهم. فهؤلاء الذين مدحهم الله وهم أهل محبته من عباده، كما يقول الإنسان لمن يحب من ولده: أنت ولدي حقاً. وهؤلاء هم الذين يتولاهم الله ورسوله، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول هذا الكلام، أي: قل يا محمد: إن وليي الله فلا أخاف غيره. بعد أن قال له: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، أي: اجهدوا جهدكم علي

أوْلاً ولا تؤخرون، إن وليي الله الذي نزل الكتاب. وقرئ هذا الحرف: ﴿إن وليَّ الله﴾ بياء واحدة مفتوحة. وقرئ أيضاً: ﴿إن وليِّ الله﴾ بياء واحدة مكسورة، على حذف الياء التي هي لام الفعل، وإدغام الياء التي قبلها في ياء الإضافة، ولا يصح إدغام التي هي لام الفعل، لأنها قد أدغمت فيها ياء فعيل، قال المهدوي رحمه الله. وقرئ أيضاً: ﴿إن وليّ الله﴾ بالإضافة، يعني به جبريل عليه السلام. وخبر ﴿إن﴾ قوله: الذي نزل الكتاب. ومن أسماء الله تعالى: الولي. ويقال للمتقي من عباده: الولي، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤]، والتقوى: اسم يجمع أفعال البر كلها، وقد تقدّم ذلك. جعلنا الله منهم بكرمه. وأذكرني الولي بيتاً كان عندي ميتاً، أنشدنيه الفقيه الخطيب أبو محمد عبد الوهاب رضي الله عنه ذات يوم ونحن في المسجد الجامع بمالقة حرسها الله تعالى يوم جمعة، وقد رأى كثرة الناس فقال:

كم بالمدينة من ولي ... غفر الإله له ولي

ثم قال لي: أجزه، فقلت:

أكرم به لو أنه ... يعطي الولاية ما ولي

فقال لي: سبحان الله وفوق كل ذي علم عليم. ما ظننت أن ثم غيره، ثم زدت بيتاً آخر وهو:

يقفو العبادة كلما ... يقفو ولو سمي ولي

ومعنى يقفو: يتبع كما تقدّم. والوسمي: من أسماء المطر، سمي بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات والولي: المطر الذي يتبع الوسمي. تقول منه: وليت الأرض ولياً. والولي: البعد. والولي أيضاً: القرب، قاله أبو عبيد والأصمعي في الغريب. ويقال في الولي الذي هو المطر: ولي بالتسكين، فعل وفعيل، وجمعه: أولية، والنسبة إليه: ولوي، كما قالوا: علوي، لأنهم كرهوا الجمع بين أربع ياآت، فحذفوا الأولى وقلبوا الثانية واواً، وقالوا: يتيم مَوليّ عليه، بفتح الميم وكسر اللام وتشديد الياء لا غير. والولية:

تأنيث الولي. والولية أيضاً: الحلس، كذا قال صاحب العين. والذي رأيت أن الولية شبه البرذعة والحوية، وجمعها ولايا، وأنشد:

كالبلايا رؤوسها في الولايا ما تخاف الخدود حر السموم

والبلايا جمع بلية، وهي: الناقة التي كان أهل الجاهلية يعنسونها عند قبر صاحبها إذا مات.

بقي مقلوب ولي: ويل. عافانا الله منه. قال الأصمعي: ويل: تقبيح. وفي الحديث: ويل للمالك من المملوك وويل للمملوك من المالك، وويل للغني من الفقير وويل للفقير من الغني، وويل للشديد من الضعيف وويل للضعيف من الشديد. وفي القرآن العزيز: ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين: ١] و: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١]، و: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٧٩] وغير ذلك. قال أهل التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما: الويل: العذاب. وعنه: إنه واد في جهنم. وروي نحوه عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: إن العرافة حق ولا بد للناس من العرافة ولكن العرفاء في النار، إن في جهنم بحراً يقال له الويل يصعد فيه العرفاء وينزلون فيه. وفي الحديث أيضاً: إن في جهنم واد يقال له جب الحزن، تتعوّذ منه جهنم كل يوم مائة مرة، يسكنه القراء المراؤون بأعمالهم. وعن عثمان رضي الله عنه: إنه جبل في النار. وعن ابن عباس أيضاً: هو ما يسيل من صديد أهل النار. وعن الأصمعي: القيح، وعن عطاء بن يسار: الويل واد في جهنم، لو سيرت فيه الجبال لانماعت، خرجه ثابت رحمه الله وقال: يقال: انماع وامّاع، أدغمت النون في الميم، وساق حديث النبي صلى الله عليه وسلم: لا يكيد أهل المدينة أحد بسوء إلا انماع كما ينماع الملح في الماء. وأصل الويل: الهلاك. يقال لكل من وقع في هلكة: ويل له، قاله المهدوي. وقال صاحب العين: به الويلة الفضيحة. وويلت فلاناً: أكثرت له من ذكر الويل. ويقال: له الويل ويلاً

واثلاً. ويقال جمع الويل: ويلات. وأنشدني الفقيه أبو محمد عبد الحق لنفسه ببجاية حماها الله تعالى:

لو الويلات من ذنب حديث ... وآخر في صحيفته قديم
تمادى في الغواية واستمرت ... مريرته على الحنث العظيم
ومن يعص الإله فما له من ... صديق في الوجود ولا حميم
فلا تيأس له فلعل رحمى ... ستدركه من الملك الرحيم
فتلقاه كما لقيت أباه ... وقد قذفت به رجلا هموم
وإني فيه منتظر رجائي ... بذاك فما رجوت سوى الكريم

وقد تأتي ويل بمعنى التحسر والتفجع، قال الله تعالى حكاية عن ابن آدم الذي قتل أخاه: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾ [المائدة: ٣١]. قال الأصمعي: الويل قبوح، والويح ترحم. ويس: تصغيرهما، أي: دونهما. وقال غيره مثله وزاد: ويقال ويحاً، وقال سيبويه: ويح: زجر لمن أشرف على الهلكة، وويل: لمن وقع في الهلكة. وقال ابن عرفة في قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم ﴾ [البقرة: ٧٩]: الويل: الحزن. يقال: توأل الرجل، إذا دعا بالحزن، وأنشد:

تــوأل إن مـددت يـدي إليه ... وكانت لا تغلل بالقليل

وقالوا في قوله تعالى: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ﴾ [المائدة: ٣١]: كل من وقع في هلكة دعا بالويل، فهذا تحسر. وكذلك قولهم: يا عجبا، أي: يا أيها العجب هذا وقتك. وفي الحديث: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمار: ويح ابن سمية تقتله الفئة الباغية. علم صلى الله عليه وسلم ما ينزل به من القتل فتوجع له، وقد كثرت هذه اللفظة في كلامهم وجرت على ألسنتهم فيقولون: ويحه وويل أمه، بألف. وويلمه، بغير ألف. ولا يريدون به وقوع الأمر ولا الدعاء بها عليه. كما يقولون: قاتله الله ما أشعره، وهذا أقرب إلى المدح منه إلى الذم. ألم تسمع قول الشاعر:

فهـــو لا تنمـــى رميـــته   مـــا لـــه لا عـــدّ مـــن نفـــره

وكذلك يقولون: لا أب لك ولا أم لك، يريدون: لله درك، ومثله قول الشاعر:

هـوت أمـه مـا يـبعث الـصبح غاديـا   ومـاذا يـؤدي اللـيل حـين يـؤوب

ظاهره: أهلكه الله، وباطنه: لله دره. وقد بين هذا المعنى في رسالة البديع فأتى فيها بالغريب البديع. قال رحمه الله: وقد يوحش اللفظ وكله ردّ ويكره الشيء وليس منه بدّ. هذه العرب تقول: لا أب لك، للأمر إذا هم. وويل لأمه ولا يريدون الذم، وقاتله الله إذا تم.

وللألباب في هذا الباب أن ينظروا إلى القول وقائله، فإن كان ولياً فهو الولاء وإن خشن وإن كان عدواً فهو البلاء وإن حسن. قلت: وهذا الكلام منه رحمه الله حسن فطاب وهو فصل الخطاب. وقد قالوا في هذا المعنى وإليه يرجع، ضرب الحبيب لا يوجع. وقال الشاعر وهو من أحسن ما قيل في هذا المعنى وبه يستشهد من به يعنى:

فعين الرضى عن كل عيب كليلة   ولكن عين السخط تبدي المساويا

وعندي أن أحسن منه قول الآخر:

ويقـبح مـن سـواك الفعـل عـندي   وتفعلـــه فيحـــسن ذاك مـــنكا

فصل:

ومما يشبه ما تقدّم في كثرة الاستعمال قولهم: لا أب لك، تستعمله العرب عند الحث على الطلب، فتقول للأمير وللخليفة: انظر في أمور رعيتك لا أبا لك. وقد كثر عندهم استعماله حتى قال أحد جفاتهم:

رب الـــسماء مـــا لـــنا ومـــا لكـــا   قـــد كـــنت تـــسقينا فمـــا بـــدا لكـــا

أنـــزل علينـــا الغـــيث لا أبـــا لكـــا

وهذا العربي لم يقصد السب وإنما جرى على عادة آبائه، وما أحسن العلم والعلماء. يروى أن سليمان بن عبد الملك سمع أعرابياً ينشد هذا الشعر، فقال: صدق

أشهد أنه لا أب له ولا أم ولا صاحبة. انظر ما أحسن هذا الجواب كيف ردّ الأعرابي من الخطأ إلى الصواب.

وقد كره بعض العلماء أن يقول الرجل: لا أم لك ولا أبا لك، حتى كره أن يقول: لا أب لشانيك، وهذا القول يروى عن أبي البختري أنه كرهه. خرجه ثابت رحمه الله وقال: هو كناية عن قولهم: لا أب لك، والشاني هو المبغض. وفي القرآن العزيز: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، قيل: هو القليل الخير. قال يعقوب: الأبتران العبد والعير، سميا بذلك لقلة خيرهما واللام في لا أبا لك؛ مقحمة لا يعتدّ بها، إلا أن أصله: لا أباك. قال الشاعر:

أبالموت الذي لا بد أني ... ملاق لا أباك تخوفيني

وأغرب من هذا وأعز ما قال الآخر لبعض قومه:

أبني عقيل لا أبا لأبيكم ... إني وإن بني كلاب أكرم

وقد أسقطوا النون عند اللام ولا تسقط إلا عندها. قالوا: لا عبدي لك ولا كمي لك، لأن الهمزة زائدة كالمقحمة لا يعتدّ بها، فكأنه قال: لا عبديك ولا كميك، والله أعلم.

فصل:

ومما يشبه ما تقدّم أيضاً قولهم: تربت يداك، وجاء من ذلك في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام لأم سلمة رضي الله عنها: تربت يداك، ولعائشة رضي الله عنها: تربت يمينك. قال المازري: تأوّله مالك رضي الله عنه على أنه دعاء لهما بالاستغناء لما يبعد في نفسه أن يدعو عليهما بالفقر. وتربت بمعنى: استغنت، ذكره عيسى بن دينار. وقال غيره: إنما معناه افتقرت من العلم في هذه المسألة، لأنه يقال: ترب الرجل: إذا افتقر، وأترب: إذا استغنى. قال ابن عرفة: أراد تربت يداك إن لم تفعلي ما أمرتك. قال ابن الأنباري: معناه لله درك إذا استعملت ما أمرتك واتعظت بعظتي. قال الهروي:

وذهب إلى أنه لم يقصد بهذه الألفاظ الذم؛ قوله عليه الصلاة والسلام في حديث خزيمة: أنعم صباحاً تربت يداك؛ يدل على أنه ليس بدعاء عليه، بل هو دعاء له وترغيب في استعمال ما تقدمت الوصاة به، ألا تراه قال: أنعم صباحاً، ثم أعقبها بتربت يداك. والعرب تقول: لا أب لك ولا أم لك، يريدون: لله درك، وأنشد البيت المتقدّم.

فصل:

ومما يشبه ما تقدّم قول سلمة بن الأكوع رضي الله عنه:

فاغفر فدا لك ما اقتنينا

قال المازري: وقع في بعض النسخ: (فاغفر لنا فداك ما اقتفينا)، وهذه الرواية سالمة من الاعتراض وأما فدا لك فإنه لا يقال للباري سبحانه: فديتك، ولا: أفدي الباري، لأن ذلك إنما يستعمل عند مكروه يتوقع حلوله ببعض الأشخاص، فيحث شخصاً آخر أن يحل به ويفديه منه. ولعل هذا وقع من غير قصد، كما يقال: قاتله الله. وكم قال صلى الله عليه وسلم: تربت يمينك، وويل أمه مسعر حرب. أو يكون فيه ضرب من الاستعارة، لأن الفادي لغيره قد بالغ في رضى المفدى حين بذل نفسه في محابه، فكان المراد في هذا الشعر: إني أبذل نفسي في رضاك. والله أعلم. وإلى هذا المعنى ذهب الأستاذ أبو القاسم السهيلي رحمه الله، قال في هذه المسألة قوله: فاغفر فدا لك، قيل: إن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، أي اغفر لنا تقصيرنا في حقك وطاعتك، إذ لا يتصوّر أن يقال لله تعالى مثل هذا الكلام، وذلك أن معنى قولهم: فدا لك، أي: فداً لك أنفسنا وأهلونا، وحذف الاسم المبتدأ لكثرة دوره في الكلام مع العلم به. وإنما يفدي الإنسان بنفسه من يجوز عليه الفناء. وأقرب ما قيل فيه من الأقوال إلى الصواب: إنها كلمة يترحم بها عن محبة وتعظيم، فجاز أن يخاطب بها من لا يجوز في حقه الفداء، قصداً لإظهار المحبة والتعظيم له. وإن كان أصل الكلمة ما ذكرنا؛ فرب كلمة ترك أصلها واستعملت كالمثل في غير ما وضعت له أولاً، كما جاؤوا بلفظ القسم في غير موضع القسم إذا أرادوا تعجباً واستعظاماً لأمر، كقوله صلى الله عليه وسلم في

حديث الأعرابي من رواية إسماعيل بن جعفر: أفلح وأبيه إن صدق، ومحال أن يقصد عليه الصلاة والسلام القسم بغير الله تعالى، لا سيما برجل مات على الكفر. وإنما هو تعجب من قول الأعرابي، والمتعجب منه مستعظم، ولفظ القسم في أصل وضعه لما يعظم، فاتسع في اللفظ حتى قيل على هذا الوجه، وقال الشاعر:

فإن تك ليلى استودعتني أمانة ... فلا وأبي أعدائها لا أخونها

لم يرد أن يقسم بأبي أعدائها، ولكنه ضرب من التعجب.

وقد ذهب أكثر شراح الحديث إلى النسخ في قوله: أفلح وأبيه إن صدق. قالوا: نسخه قوله عليه الصلاة والسلام: لا تحلفوا بآبائكم، وهذا قول لا يصح، لأنه ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يحلف قبل النسخ بقوم كفار، ويقسم بغير الله، وما أبعد هذا من شيمه صلى الله عليه وسلم، تالله ما فعل هذا قط، ولا كان له بخلق. وقال قوم: رواية إسماعيل بن جعفر مصحفة، وإنما هو: أفلح والله إن صدق. وهذا أيضاً منكر من القول واعتراض على الإثبات العدول فيما حفظوا. وقد خرج مسلم في كتاب الزكاة قوله صلى الله عليه وسلم لرجل سأله: أي الصدقة أفضل؟ فقال: وأبيه لتنبأنه. وفي رواية: وأبيك لأنبئنك، أو قال: لأخبرنك، وذكر الحديث. وخرج في كتاب البر والصلة قوله لرجل سأله: من أحق الناس بأن أبره؟ أو قال: أن أصله؟ فقال: وأبيك لأنبئنك، صل أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك. فقال في هذه الأحاديث كما ترى: وأبيك، فلم يأت إسماعيل بن جعفر إذاً في روايته بشيء نكر ولا بقول بدع، والذي ذكرناه ليس من باب الحلف بالآباء كما قدمنا، ولا قال في الحديث: وأبي، وإنما قال: وأبيه، أو: وأبيك، بالإضافة إلى ضمير المخاطب أو الغائب، وبهذا الشرط يخرج عن معنى الحلف إلى معنى التعجب الذي ذكرناه، انتهى كلامه رضي الله عنه.

ونشأت هنا مسألة: هل يجوز لأحد أن يقول لآخر: فداك أبي وأمي أم لا؟ قال بعض أشياخي: إن قال ذلك في النبي صلى الله عليه وسلم فحسن، نفديه بأنفسنا وآبائنا وأمهاتنا وبأموالنا وبأكثر من ذلك إن أمكن. وأما في غير النبي صلى الله عليه وسلم

فذلك عقوق في حق الوالدين، اللهم إلا إن كان أبواه كافرين وهو مسلم، فجائز أن يفدي المسلم بكل كافر كائناً من كان. هذا معنى كلامه والحمد لله.

وأما وال وهو معكوس لاو المتقدّم؛ فاسم فاعل من ولي فهو وال، من الإمارة أو من النصرة والمنع، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١]، جاء في التفسير أي: يمنعهم من عذاب الله، وقيل: هو بمعنى ولي يتولاهم من دون الله. قال المهدوي: وال وولي كقادر وقدير. ولي من الملغزة اللزومية التي تقدّم بعضها:

كـــم مـــن غنـــي وكـــم مـــن وال أمـــسى ومـــا إن لـــه مـــن وال

قيل نزلت: ﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١] في عامر بن الطفيل وأربد بن قيس، حين أرادا الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصاب الله عامراً بالطاعون، فمات، وأرسل الله على أربد صاعقة، فأحرقته وجمله. وقد تقدّم كيف أراد الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الكتاب. وقيل: نزلت في يهودي قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أخبرني من أي شيء ربك؟ أمن لؤلؤ أم ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأحرقته.

ومن مقلوب وال: أوّل، نقيض آخر. ومن أسماء الله تعالى قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ [الحديد: ٣]، ومعنى أوّل: ليس قبله شيء سبحانه، وقد تقدّم ذكره. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معنى الأوّل: لم يكن له سابق. ومعنى الآخر: لا غاية له ولا نهاية.

ومن شكل وال: وأل، ومعنى وأل: لجأ، تقول منه: وأل يئل وألاً ووؤلاً ووئيلاً. والوأل والموئل: الملجأ، وكذلك الموال. ويقال: لا وأل زيد، أي: نجا. ومنه قول عليّ رضي الله عنه وكانت درعه صدراً بلا ظهر؛ فقيل له في ذلك؛ فقال: إذا وليت فلا وألت، أي: إن هربت فلا نجوت. وقال الشاعر:

وقـــدتهم للحـــرب ثـــم خدعـــتهم فـــلا وألـــت نفـس علـيك تحـــاذر

والوالة: أبعار الغنم. وقد أوأل المكان: إذا كثر ذلك فيه. ومن هذا الشكل: أوأل، وهو أصل أوّل المذكور، وزنه: أفعل، مهموز الوسط قلبت الهمزة واواً وأدغم، يدلك على ذلك قولهم: أولى منك، والجمع: الأوائل والأوالي أيضاً على القلب. وقيل: أصله ووأل، فوعل، فقلبت الواو الأولى همزة، ولم تجمع على أواول لاستثقال الجمع بين واوين بينهما ألف الجمع.

ومن شكل أوأل: أوال، بفتح الألف: قرية يقال لها صنعاء، سميت باسم بانيها، وهو صنعاء بن أوال بن عبير بن عابر بن شالخ، كما سميت خيبر باسم خيبر بن قاتيه. وبدر وهي بئر احتفرها بدر بن قريش، رجل من بني غفار، فسميت به. وكذلك يثرب. وقال الشاعر يذكر أوال:

عمد الحداة بها لعارض قرية وكأنها سفن بسيف أوال

فخرج من هذا أن أوال على البحر، ويشهد لهذا ما ذكر أبو عبيد البكري. انظره في فصل الفرائد من هذا الباب.

ومن شكل هذه الحروف إذا لفقت: أولى لك، من قوله تعالى: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٤] معناه: التهدد، أي: وليك المكروه. تقول العرب لكل من قارب الهلكة ثم أفلت: أولى لك، أي: كدت تهلك. كما روي أن أعرابياً كان يوالي رمي الصيد فيفلت منه، فيقول: أولى لك، ثم رمى صيداً فقاربه فأفلت منه، فقال:

فلو كان أولى يطعم القوم صدتهم ولكن أولى يترك القوم جوّعا

ومثل هذا ما قال أهل مكة للحجاج بن علاط إذ جاءهم مسلماً، وحدّث عن النبي صلى الله عليه وسلم بخبر سرهم، من أنه هزم وأصحابه وكذا وكذا، فكانت منه حيلة، حتى أخذ كل ما كان له بمكة، ثم انطلق، فلما تبينت لهم حيلته قالوا: أفلتنا الخبيث أولى له. انظر حديثه في السيرة.

بقية القافية لآل لآل، أما: لآل، فجمع لؤلؤة، وأصله: لآلئ، حذفت الهمزة من آخره

للضرورة. وفيه عيب آخر، وذلك أنه كان ينبغي أن يكون لآلئاً، بالنصب، لأنه مفعول باسم الفاعل الذي هو لاو، ولكنه خرج مخرج قول الشاعر: (لعلي أرى باق على الحدثان). وخرج باق مخرج قول النابغة: (ردت عليه أقاصيه).

قال صاحب العين: صاحب اللؤلؤ يقال له لآل. وقال الزبيدي: فيه خلاف، منهم من أجازه ومنهم من ردّ، وهو من غير لفظ لؤلؤ، ولم يقل أكثر. قلت: ولعله من قولهم: لألأ الثور بذنبه، إذا حركه ولمع به، أو من: لألأت النار وتلألأت، إذا أضاءت، وكذلك النجم، والله أعلم.

وتقول: ما أفعله ما لألأت الفور، أي: بصبصت بأذنابها، ولا واحد للفور من لفظها. وأما لآل فإنه أراد لآلي، أي: أملي، فحذف ياء الإضافة للقافية، كما حذفت في قوله تعالى: ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦] و: ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق: ١٤] و: ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠]، وذلك كثير في القرآن، حذفت لأجل رؤوس الآي. ومما أرويه في اللام ألف بالسند أيها الولد؛ ما قرأته على الحافظ رحمه الله قال: أنشدنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بأرجان قال: أنشدني أبو الحسين بندار بن الحسين الشيرازي:

ألـــف القـــائم ســـر عجـــيب ... وقـــيام الـــلام أيـــضاً كالألـــف
فـــإذا مـــا اجـــتمعا واعتـــنقا ... صـــار حـــرفاً واحـــداً لام الـــف

وأنشدني لنفسه من قطعة آخرها:

فلاطفنـــــــي وعانقنـــــــي ... عـــــناق الـــــلام للألـــــف

انظرها بكمالها في التكميل.

تقدم لالأ، ولي من الكلام المعكوس في لام ألف: لالأ لالالأ، تفسيره: لالأ بذنبه لأي أي وهو الحمار الوحشي، لالا، أي: قال لالا، وكأنه استفهمه: ألالا؟

فأجاب: لالا.

خرجت من شيء إلى غيره لكن من الأولى إلى الأولى
وكله علم وقد سقت من ذلك ما يسره المولى

فصل من الفوائد: تقدّم لا، وقد ذكرت الشعراء في أشعارهم لفظة لا في المدح والذم. قال أحدهم يذم:

تعوّد من بخله قول لا فما يلفظ الدهر إلا بلا
وما هلل الله يرجو الثواب ولكن من حب لا هللا

وقال آخر يمدح:

كأنك في الكتاب وجدت لالا محرمة عليك فما تحل

وقال الآخر:

قد أجمع الناس على بغض لا ولست أنسى أبداً حب لا
لأنني قلت له سيدي تحب غيري أبداً قال لا

وقال بشار فسهلها ثم أبطل عملها:

وإذا قلت لها جودي لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم

قال مروان بن أبي حفصة: قلت لبشار وقد أنشدني هذا الشعر: هلا قلت خرست بالصمت عن لا ونعم، فقال: لو كنت في عقلك لقلته، أتطير على من أحب بالخرس. وهذا البيت من قصيدة له وهي من أحسن ما قال وأوّلها:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف ألم

سئل أبو عمرو بن العلاء: من أبدع الناس بيتاً؟ فقال: الذي يقول: لم يطل ليلي ولكن لم أنم.

ومن غرر هذه القصيدة:

رفهي عبدة عني واعلمي أنني يا عبد من لحم ودم

إن لي جسماً ضعيفاً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدم

وكان بشار هذا من عجائب الدنيا، خلق أكمه، وهو يشبه التشبيهات التي لم يسبق إليها مما لا يدركه البصير، وكان فطناً كيساً. كان ذات يوم جالساً وبين يديه طبق فيه تفاح وبيده قضيب، فخرج عليه بعض من يدل عليه، فأخفى خطوه أشد ما قدر عليه، حتى كان أخفى من خطو الذر، ثم أهوى بيده إلى تفاحة منها، فضربه بالقضيب ضربة كاد يكسر يده، فلشدة الوجع قال: لعن الله من يقول إنك أعمى. قال: فأين عين البصيرة يا أحمق. وكان يقول: أنا أشعر الناس لأني قلت اثني عشر ألف قصيدة، فلو اختير من كل قصيدة بيت لكملت اثنا عشر ألف بيت. ومما قيل في قثم بن العباس رضي الله عنهما:

لم يدر ما لا وبلى قد دري فعاقها واعتاض منها نعم

وهذه القصيدة أيضاً أولها:

عوفيت من حل ومن رحلة يا ناق إن قربتني من قثم
إنك إن بلغتنيه غداً أحيا لي اليسر ومات العدم
في باعه طول وفي وجهه نور وفي العرنين منه شمم
لم يدر ما لا وبلى قد دري فعاقها واعتاض منها نعم
أصم عن ذكر الخنا سمعه وما عن الخبر به من صمم

ومن أحسن ما قيل في لا قول أعرابية ترثي ولدها:

تحلو نعم عنده سماحا ولم تطب قط لا بفيه

وقبل هذا:

يا جبلاً كان ذا امتناع وركن عز لآمليه
يا نخلة طلعها هضيم يقرب من كف مجتنيه
يا دهر ماذا أردت مني أخلفت ما كنت أرتجيه

وآخرها:

أمـــــنك الله كــــــل روع وكـــل مـــا كـــنت تتقـــيه

وأوّل المرثية:

هـــل خبـــر القبـــر ســـائليه أم قـــد تمـــشى بزائـــريه
أو هـــل تـــراه أحـــاط علمـــاً بالجمـــل المـــستكن فـــيه
لـــو يعلـــم القبـــر مـــن يـــواري تـــاه علـــى كـــل مـــا يلـــيه

وهي طويلة. وأحسن من هذا كله وأصح ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ما سئل عن شيء قط فقال لا. وقالوا: الكريم صوت لسانه نعم، وصوب بنانه نعم. قال الشاعر:

قـــبحت لا مـــن أجـــل أن صـــوّرت خلقـــة الجلـــم(*)
إنهـــا تـــذهب الجمـــيل وتأبـــى علـــى الكـــرم
وإذا أنـــت قلـــت لا يـــئس الحـــرّ مـــن نعـــم

ومما يشبه به موت كبار الرجال تسير الجبال. ومن أحسن ما قيل فيه قول ابن بسام يرثي عبد الله ابن سليمان، فقال:

قد استوى الناس ومات الكمال وصاح صرف الدهر أين الرجال
هـــذا أبـــو القاســـم فـــي نعـــشه قوموا انظروا كيف تسير الجبال

أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومي يرثي محمد بن نصر:

أودى محمـــد بـــن نـــصر بعـــد مـــا ضـــربت بـــه فـــي فـــضله الأمـــثال
ملـــك تنافـــست العلـــى فـــي عمـــره وتنافـــست فـــي يـــومه الآجـــال
مـــن لـــم يعـــاين ســـير نعـــش محمـــد لـــم يـــدر كـــيف تـــسير الأجـــبال

قلت: وكثيراً ما يوصف الرجل العظيم بالجبل لعلوّه وامتناعه، ولذلك يقولون في

(*) الجلم، محركاً: المقراض، إذا فتح أشبه اللام ألف.

نعي الميت وندبته: وا جبلاه وا سنداه. وقالت عائشة رضي الله عنها إذ مات رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قد كنت لي سنداً ألوذ بظله). الأبيات، وقد تقدّمت في الباب قبل هذا.

وتقدّم أن البلايا جمع بلية، وهي الناقة التي كان أهل الجاهلية يعكسونها عند قبر صاحبها إذا مات، أي: يربطونها معكوسة الرأس إلى ما يلي كلكلها وبطنها، ويقال: إلى مؤخرها مما يلي ظهرها، وربما حفروا لها حفرة فجعلوها فيها ويقولون: إنه يحشر عليها راكباً، ومن لم يفعل معه هذا حشر راجلاً. وهذا على مذهب من كان منهم يقول بالبعث بعد الموت، وهم الأقل. وأوصى رجل ابنه عند الموت بهذا، فقال:

لا أعرفنّ أباك يحشر مرة عدواً يخرّ على اليدين وينكب

فكانوا يثقبون الولايا، وهي البرادع، ويعلقونها في أعناق البلايا، وهي النوق، ويقفونها عند قبر صاحبها حتى تموت جوعاً وعطشاً. وقال الشاعر:

وعطل قلوصي في الركاب فإنها ستبرد أكباداً وتبكي بواكيا

هدم أمر أهل الجاهلية الإسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: لا عقر في الإسلام. قال عبد الرزاق: كانوا يعقرون عند القبر، يعني ببقرة أو شيء. ذكره أبو داود. وقال محمد بن سعيد: فسر أحمد بن حنبل هذا الحديث فقال: كانوا في الجاهلية إذا مات منهم السيد عقروا على قبره، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك. قال محمد بن سعيد: فأخبرت أبا عمر وهلال بن العلاء الرقي فأعجب بقول أحمد، وأنشد:

وإذا مررت بقبره فاعقر به كوم الهجان وكل طرف سابح

ثم قال لي: عقر في الجاهلية على قبر ربيعة بن مكدم، وفي الإسلام على قبر المغيرة بن المهلب، عقر عليه كعب بن أبي ثور. وقال بعض العلماء ممن شرح إشارات البخاري رحمه الله وفقهه: انظر كيف ترجم البخاري باب من لم ير كسر السلاح عند الموت، وساق حديث أبي عمرو بن العلاء رضي الله عنه: ما ترك النبي

صلى الله عليه وسلم إلا سلاحه وبغلته البيضاء وأرضاً جعلها صدقة. قال الشارح: كانت الجاهلية إذا مات سلطانهم أو كبيرهم عهد بسلاحه وعقر دوابه، فلذلك ترجم البخاري بهذه الترجمة، لأنه عليه الصلاة والسلام ترك بغلته وسلاحه غير معهود فيهما بشيء إلا صدقة في سبيل الله. وجاء في الحديث من ذكر الولايا: نهى أن يجلس الرجل على الولايا. قيل: سميت بذلك لأنها تلي ظهر البعير.

تقدّم أوال، وذكر أبو عبيد البكري في الممالك والمسالك أن أوال جزيرة في خليج يخرج من البحر الحبشي، ويعرف هذا الخليج ببحر فارس، وهذه الجزيرة فيها بنو معن وكثير من العرب، وذكر أن الأوال أيضاً دابة في البحر. ولعل هذه الجزيرة المعروفة بأوال سميت بتلك الدابة، والله أعلم. وذكر أن هذه الدابة في خليج يتصل بأرض الحبشة، طوله خمسمائة ميل وعرضه مائة ميل، وليس في البحار أهول منه، وموجه أعمى لا يتكسر ولا يظهر منه زبد، ككسر أمواج سائر البحار، يرتفع موجه ارتفاع الجبال الشواهق ثم ينخفض كأخفض ما يكون من الأودية، وفيه يكون السمك المعروف بالأوالي، طول السمكة أربعمائة ذراع إلى الخمسمائة بالذراع العمري، وهو ذراع أهل ذلك البحر، وربما هدأ البحر فيظهر طرف من جناحه كالشراع العظيم، وينفخ الصعداء بالماء، فيذهب الماء في الجوّ أكثر من غلوة سهم، ويحشر بذنبه وأجنحته السمك إلى فيه، وقد فغر فاه، فتهوي إلى جوفه جرياً، فإذا بغت هذه السمكة بعث الله إليها سمكة نحو الذراع تدعى الأنك، فتلصق بأصل أذنها أو ذنبها، فلا يكون لها منها خلاص، حتى تضرب برأسها وتموت، فتطفو فوق الماء، فتكون كالجبل العظيم. وذكر أن العنبر شيء يتكوّن في قعور البحار تكوّن أنواع القطر والكمأة، فربما بلع منه هذا الحوت المعروف بالأوال فيقتله ويطفو، وله ناس يرصدونه من الزنج، فيطرحون فيه الكلاليب ويشقون عن بطنه ويخرجون العنبر سهكاً، يعني متغير الرائحة.

باب الألف مع الياء

وآي وأيّ وإي إي وأي وآآ وآآء وأيل أيل

هذا البيت آخر الأبيات، ولم يجئ ولم يأت إلا باحتبالات فيها بعض احتمالات، وما قام حتى دعمته، ولا استقام حتى أعنته.

وبعد ما وجدت غير هذا فاسمعه إني لست ممن هاذى
واقنع وخذ من وابل رذاذا ورض به موقعاً جذاذا

واعلم بأن هذا الشأن عسير غير يسير، فعوّل على التفسير وسر مع من يسير. أما آي فجمع آية، ويجمع أيضاً آيات وآياء. قال الشاعر:

لم يبق هذا الدهر من آيائه غير أثافيه وأرمدائه

وقد تقدّم في جمع الرماد والآية العلامة. وكذلك قال ابن عزيز رحمه الله: آيات علامات وعجائب أيضاً. وآية من القرآن كلام يتصل إلى انقطاعه. وقيل: آية جماعة حروف. يقال: خرج القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم، يعني: لم يدعوا وراءهم شيئاً، وتكون آية بمعنى عبرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ [البقرة: ٢٤٨]، أي: عبرة لمعتبر، والله أعلم. وتقول: أييت به وتأييت بالمكان: انتظرت وتلبثت. والتئية: الانتظار، ومنه قولهم: ليست الدنيا منزلة تئية، أي: منزل تلبث. وتقول: تأييت عليك انصرفت على تؤدة. وأييت بالإبل: قلت لها ايا ايا، في الزجر قاله صاحب العين. وأما أيّ: فاسم يستفهم به. يقال: أيهم أخوك؟ وأيا ضربت؟ وقد جاء في القرآن مرفوعاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]. وجاء في الحديث مرفوعاً منوّناً في قول النبي صلى الله عليه وسلم لرجل قد سأله من أبر؟ قال: أمك، قال: ثم أي؟ قال: أمك، قال: ثم أي؟ كررها كذلك مراراً منوّنة. وقال قوم: أصلها البناء على الضم لأنها بمنزلة الذي وماذا إلا أنها خالفتها في جواز الإضافة

فأعربت لذلك. وجاءت في القرآن أيضاً منصوبة في قوله تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، فـ أي منصوب بـ ينقلبون، لأن الاستفهام له صدر الكلام ولا يعمل فيه ما قبله. وكذلك ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ ﴾ [القصص: ٢٨] منصوبة بـ قضيت، وما: مؤكدة والأجلين: مخفوض بالإضافة. وقرئ في الشاذ: (أيما الأجلين) بالتخفيف، لأن الياء ثقيلة على انفرادها فكيف إذا ضعفت. وقوله تعالى: ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ ﴾ [الإسراء: ١١٠] مثله منصوبة بـ تدعوا وما: مؤكدة، وتدعوا: مجزوم بالشرط. وقيل: إن ما بمعنى أي، كررت لاختلاف اللفظ. وقال الزجاج: أي الأسماء تدعوا دعوتم الله أو الرحمن، فكلاهما اسمان لله عز وجل. ويلزم على هذين القولين أن لا تنوّن أيا، وأن تكون مضافة إلى ما، قال ذلك المهدوي. وجاءت في القرآن أيضاً مخفوضة في قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣]، وتأتي أيّ أيضاً نعتاً، فتقول: فلان رجل أيّ رجل، وكذلك تجريه في الخفض والنصب هذا المجرى. وقرئ في الشاذ: (ثم لننزعنّ من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً)، قراءة معاذ بن مسلم، ومعناه عنده: لننزعنّ من كل شيعة الأعزّ فالأعزّ منهم، كأنه يبدأ بالتعذيب بأشدّهم عتياً ثم الذي يليه. وعلى قراءة الرفع: ثم لننزعنّ من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشد على الرحمن عتياً. هذا أقرب ما قيل فيه. وقيل غير ذلك، والله أعلم بما أراد من ذلك.

ويقال في المثل: لا يدري أي من أي، أي: لا يعرف هذا من هذا. وأما إي إي فإنما أردت إي وإي، فلما لم يتزن حذفت الواو ضرورة. فـ إي الأولى بمعنى نعم أو بلى، وقد توصل باليمين فيقال: إي والله. قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [يونس: ٥٣]، واحتجت طائفة من أهل العلم بهذه الآية على جواز اليمين إذا تحقق الإنسان حقه ولم يدخل فيه شك. وينشد في ذلك:

يمـين امـرئ آلـى ولـيس بكـاذب وما في يمين بتها صادق وزر

هذه إي الأولى.

وأما إي الثانية، فقد تقدّم في باب الواو من الوأي تقول للأنثى: إي لزيد، إذا أمرتها أن تعده بوعد أو هبة. وأما أي، فحرف من حروف النداء تقول: أي زيد. كما تقول في معكوسها: يا زيد. على أن بعضهم اختار أن ينادى بـ أي من كان قريباً، وبـ يا من كان بعيداً. وذلك لامتداد الصوت بـ يا وقصره بـ أي، والله أعلم. وهذه اللفظة، أعني: أي، هي التي ألغز فيها الحريري في مقاماته، فقال: وما العامل الذي يتصل آخره بأوّله ويعمل معكوسه مثل عمله؟ يعني: يا، إذ معكوسها أي. وتكون أي أيضاً بمعنى العبارة عن الشيء والتفسير له. وأما آآآ، فكلمة ترجيح في صوت المغني، وكتبتها إن شئت بألفين مهموزاً آآآ بين ممدودتين، لأنه لا فرق بين آ ا وبين يا ولا، فكما تكتب يا بألف ولا بلام ألف كذلك تكتب آا بألف أيضاً، إلا أنهم كرهوا اجتماع الألفات، فجعلوا بدلاً من الألف الأخرى مدّة معترضة عليها. قال صاحب كتاب تاج اللغة وذكر الألف فقال: آا حرف يمدّ ويقصر، فإذا مددت نوّنت، وكذلك سائر حروف الهجاء. هذا نصه وصورته عنده، فكتبته أنا في البيت بالوجهين لإقامة الشكل، كما كتبت ذات الياء بالألف إذ فيه رخصة وجواز. وهذه الحروف إنما هي عبارة عن الأصوات وصور تعرف بها، وهذا النوع من الترجيع لا يكون إلا في حروف المدّ واللين الثلاثة: الألف والواو والياء، التي بها يكون الترجيع، وعنها تصدر اللحون في الغناء، وقد تقدّم ذكر بعض ذلك في أوّل الكتاب. وجاء في الترجيع حديث خرجه البخاري رحمه الله عن عبد الله بن مغفل المزني قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته أو جمله وهي تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح أو من سورة الفتح قراءة لينة، يقرأ وهو يرجع. وذكر في طريق أخرى صفة الترجيع فقال آا آا آا ثلاث مرات، وآا من زجر الخيل، كذا وقع في مختصر العين. ورأيت في الطرّة أوأو بالضم، ولا أدري بأيهما تزجر منهما، وتقول: أزيد أقبل، فالألف حرف نداء وهي مقصورة مفتوحة ينادى بها القريب دون

البعيد. فإن جعلتها اسماً مددتها ونوّنتها، فتقول: آء، كما تقول ياء، ويا: حرف من حروف التهجي مثلها، وآء: شجر، يقال: هو شجر السرح، واحدتها آآة، وتصغيرها أويئة. قال الشاعر:

أصك مصلم الأذنين أجنى ... له بالسيّ تنوم وآء

معنى أجنى: صار له جنى في هذا الشجر. والسيّ: اسم أرض أو موضع، وهذا بكسر السين وتشديد الياء. والسيء، بالهمز وبفتح السين وتخفيف الياء: اللبن القليل قبل أن تجتمع الدرة. قال زهير: (كما استغاث بسيء فز غيطلة). الفز: ولد البقرة، والغيطلة أمه، وقيل: الغيطلة شجر ملتف. والتنوم جمع تنومة، وهو شجر ينبت حباً دسماً. وفي الحديث في خسوف الشمس يقول الراوي: فأضاءت كأنها تنومة، أي: صارت الشمس كلون هذه الثمرة. والأراك أيضاً يثمر حباً أسود وهو البرير واحدته بريرة، وبه سميت المرأة بريرة، والبرير أيضاً: ثمر الغضى، والكباث: الأسود منه، والسيئ، بكسر الياء: ضد الحسن. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقد يخفف هذا فيقال: سيء، كلين وهين. قال الشاعر: (ولا يجزون من حسن بسيء)، على وزن شيء. وآاء أيضاً أصوات، قال الشاعر:

إن تلق عمراً فقد لاقيت مدرعاً ... وليس من همه إبل ولا شاء

في جحفل لجب لجم صواهله ... بالليل يسمع في حافاته آء

بقي معكوس أي، تقدّم أنه يا، وأنه من حروف النداء، وفيها ثلاث لغات: يا وياء ويأ، وبقي الكلام عليها، وهي حرف من حروف التهجي، ومخرجها من وسط اللسان، بينه وبين ما حاذاه من الحنك الأعلى، وتقدّم أيضاً أنها إحدى حروف المد واللين الثلاثة التي هي أمهات الزوائد، لأن منها الحركات، ولا تخلو الكلمة الخماسية من بعضها، وكثير من الرباعي والملحق بالسداسي خاصة، فتزاد الياء أوّله في مثل: يضرب ويربوع ويرمع، وهي حجارة رقاق رخوة، ويلمع وهو السحاب، ويشبه به الكذوب،

قال الشاعر:

إذا ما شكوت الحب كيما تثيبني بودّي قالت إنّما أنت يلمع

وتزاد ثانية في مثل: زينب وجيد. وثالثة في مثل: رغيف. ورابعة في: قنديل. وتزاد في التصغير، وفي آخر النسب، وبعض العرب يجعلها إذا كانت مشددة جيماً في النسب وغيره، فيقولون في بصري: بصرج، وفي كوفي: كوفج، كما قال الراجز:

خالي عويف وأبو علج المطعمان اللحم بالعشج

وبالغداة فلق البرنج

أراد: علي والعشي والبرني، وهو ضرب من التمر من طيبه. ويقولون: أيل وأجل، وتقدّم أنها من حروف النداء. وجاءت في مواضع من التنزيل: ﴿ يَٰرَبِّ ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ [البقرة: ٥٤]، ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ [يوسف: ٤]، وقد تحذف يا في النداء كما قال الله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ ﴾ [يوسف: ٢٩]، ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [يوسف: ١٠١]. وتكون الياء أيضاً صلة وتمكيناً للضمير في: عليهي وإليهي، في قراءة ابن كثير، ومن هذه لغته من العرب. وتكون للإضافة في: غلامي وثوبي، يقول ذلك الرجل والمرأة. ولك أن تفتحها وإن شئت سكنتها، ولك أن تحذفها في النداء خاصة فتقول: يا قومِ، ويا عبادِ، تكتفي بالكسرة. وقد يقال: يا قومُ بالضم، ويا قومَ بالفتح، ويا قومْ بالسكون، فإن كانت بعد الألف فتحت لا غير، نحو: عصاي ورحاي. وكذلك إن جاءت بعد ياء الجمع كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وأصله: بمصرخيني، سقطت النون للإضافة، فاجتمع ساكنان فحركت الثانية بالفتحة لأنها ياء المتكلم ردّت إلى أصلها، وكسرها بعض القرّاء، وتكون علامة للتأنيث، نحو: افعلي وتفعلي. وتكون زائدة في المواضع التي ذكرت في القرآن عن ورش وقالون وغيرهما رضي الله عنهم.

ومن أغرب الزوائد قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر: ٤]، وأروي فيه حديثاً غريباً: قرأت على الشيخ الفقيه أبي محمد العثماني رحمه الله تعالى قال: حدثني أبو الحسن علي بن المؤمل فيما يروي من فوائد أبي محمد الحسين بن محمد بن أحمد النيسابوري قال: سمعت أبا عبد الله الفارسي رحمه الله يقول: سمعت الشيخ أبا القاسم الحسن بن حبيب المفسر يقول: سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد الغساني يقول: سمعت أبا سعيد الضرير يقول: سأل المؤرج سعيد بن مسعدة الأخفش عن قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر: ٤]: ما العلة في سقوط الياء منه وإنما تسقط عند الجزم؟ فقال: لا أجيبك ما لم تبت على باب داري مرة، قال: فبت على باب داره مرة ثم سألته، فقال: اعلم أن هذا مصروف عن جهته، وكل ما كان مصروفاً عن جهته فإن العرب تبخس حظه من الإعراب، نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٨]، أسقط الهاء لأنها مصروفة من فاعل إلى فعيل، قلت: وكيف صرفه؟ قال: الليل لا يسري، وإنما يسرى فيه، وكما تكون الياء زائدة كذلك تكون أصلية في أول الكلمة مثل يوم، وفي وسطها مثل بيت، وفي آخرها مثل أتي، وتكون في أوّل الكلمة وفي آخرها مثل يد، أصلها يدي، وليس في الكلام مثله. وقد يبدلون الياء في مواضع كثيرة من النون، في مثل: تظنيت والأصل: تظننت، ومن الضاد في مثل: تقضى البازي، والأصل: تقضض. وكمال البيت: (تقضي البازي إذا البازي كسر). وقبله: (إذا الرجال ابتدروا الباغ بدر).

ومن الميم قالوا أيما في أمّا، ومن السين في مثل حسيت، والأصل: حسست. وفي العدد قالوا: هذا سادي، يريدون: سادس. وأنشد: (فزوجك خامس وأبوك سادي).

ويقولون: جاء فلان خامساً وخامياً وسادساً وسادياً. خرج ثابت رحمه الله عن العمري قال: خطب رجل امرأة مثفاة، فقيل له: قد مات عنها خمسة أزواج، ومات عنك أربع، فقال: على ذلك أتزوجها، وأنشأ يقول:

بويزل أعوام أذاعت بخمسة وتقسى إن لم تتق الله ساديا
ومن قبلها غيبت في الترب أربعاً وخامسة أعتدّها في رحابيا
كلانا لكل مشرف لغنيمة يراها ويقضي الله ما كان قاضيا

فلم تلبث إلا يسيراً حتى ماتت، فاستويا خمسة خمسة. قال: والمثفى الذي يصاب بنسائه، والمثفاة التي تصاب بأزواجها. وقيل: المثفاة التي لزوجها امرأتان سواها وهي ثالثتهما، شبهت بأثافي القدر. وتبدل أيضاً الياء ألفاً في مثل قولهم: رمح أزني، والأصل: يزني، منسوب إلى ذي يزن. وقالوا: أثربي، لأن النسبة إلى يثرب يثربي. وقالوا: أزلي، أي: قديم، وأصله من قولهم للقديم: لم يزل، فلما أرادوا النسبة لم يستقم إلا باختصار، فقالوا: يزلي، ثم أبدلت الياء ألفاً لأنها أخف، وفي المحدثين: يزداد، ويقال فيه أيضاً: ازداد. وقالوا: يبريق وأبريق: الرمل. ويسروع وأسروع: دودة. واليرقان والأرقان. ورجل يلد وألد: للخصم. ويلمعي والمعي: للذكي. ويعصر وأعصر. وقد تقدّم أرندج ويرندج: الجلد الأسود، ويقال: هو كل ما ملس وصقل. ويلملم وألملم. ويلنجوج وألنجوج: العود الذي يتبخر به. وقالوا: طير أناديد ويناديد: مفترقة بمعنى أبابيل. وعظاية وعظاءة. وصلاية وصلاءة. وعباية وعباءة. ذكر ذلك ابن قتيبة رحمه الله. وقد تشبع الكسرة فتولد منها ياء إما للوزن في الشعر وإما للتأكيد، فأما التي للوزن فمثل قوله: (ألم يأتيك والأنباء تنمي)، ومثل قوله:

إذا العجوز غضبت فطلقي ولا ترضاها ولا تملقي
واعمد لأخرى ذات دل مونقي لينة المس كمس الخرنقي

يروى: ولا ترضاها بالألف، ويروى: ولا ترضها بدون ألف. وقد أجازوا إثبات الياء كما تقدّم وإن كان الفعل مجزوماً. وعليه قراءة ابن كثير في بعض الروايات: (أنه من يتقي ويصبر). وكذلك قالوا في: ألم يأتيك، أثبت الياء للضرورة، وردّه إلى الأصل. وكذلك قالوا في المثل: أعط القوس باريها، على حد قوله: (ردّت عليه أقاصيه). وقال الأعشى:

فآليت لا أرثـي لهـا مـن كلالـة ولا مـن حفـا حتـى تلاقـي محمـدا

صلى الله عليه وسلم. وقد فعلوا أغرب من هذا، أجروا الياء مجرى الحرف الصحيح فحركوها على حسب الإعراب، ولكنهم جعلوها شاذاً، قال الشاعر:

قـد كـاد يـذهب بالدنـيا ولـذتها موالـي ككـباش الـتعس شـحاح

وقال جرير:

فيوماً يجارين الهوى غير ما مضى ويـوماً تـرى مـنهنّ غـولاً يغـول

وقال ابن الرقيات:

لا بـارك الله فـي الغوانـي هـل يـصبحن إلا لهـنّ مطلـب

وقال آخر:

مـا أن رأيـت ولا أرى فـي مدتـي كجـواري يلعـبن فـي الـصحراء

وقد فعلوا في الواو والألف مثل ذلك، أثبتوهما في حال الجزم، كما فعلوا في الياء في: ألم يأتيك.

قالوا في الواو:

هجـوت زبـان ثـم جـئت معـتذراً من هجـو زبـان لـم تهجـو ولـم تـدع

وقال: (أبى الله أن أسمو بأم ولا أب). وأنشدوا في إثبات الألف: (كأن لم ترا قبلي أسيراً يمانيا)

على من رواه كذلك. ومن رواه: (تر)؛ استراح من الضرورة. ومثله: (وما أنس لا أنساه آخر عيشتي). ومثله: (ولا ترضاها............). كما تقدّم.

قال المازني: يجوز في الشعر أن تقول: زيد يرميك، برفع الياء. ويغزوك، برفع الواو. وهذا قاضي، بالتنوين. فتجري الحرف المعتل مجرى الصحيح في جميع الوجوه في الأسماء والأفعال لأنه الأصل. وأما إشباع الياء للتأكيد، فمثل قولهم: فعلتيه وصنعتيه. وقيل في هذا: إنها لغة لبعض العرب، يدخلون الألف في كاف المذكر

فيقولون: أعطيتكاه، يريدون أعطيتكه، ويدخلون الياء في المؤنث، فيقولون: أعطيتكيه. وعلى هذه اللغة جاء حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ حين قال لابنته عائشة رضي الله عنها في مرضه حين حضرته الوفاة؛ جلس فتشهد ثم قال: أما بعد، والله يا بنية إن أحب الناس إلي غنى بعدي لأنت، وإن أعز الناس علي فقراً بعدي لأنت وإني كنت نحلتك جداد عشرين وسقاً من مالي، فوددت والله لو كنت خرصتيه وجذذتيه، وإنما هو اليوم مال وارث، وإنما هما أخواك وأختاك. فقالت عائشة: والله لو كان لي ما بين كذا وكذا لرددته. ذكر هذا المعنى يونس، وأنكره أبو حاتم على ما أورد معناه ثابت رحمه الله.

وأما المقلوب: ألف بين ياءين فلا أعلم فيه شيئاً، إلا إذا وصلته بهاء في مثل: يا أيها الناس وهي ها التنبيه، ملازمة لـ أي في النداء، لأن النداء موضع تنبيه فلحقته ها، وأي اسم مفرد منادى لزمته ها المذكورة في قولك: يا أيها الرجل، إيذاناً بأن الرجل هو المقصود بالنداء، والرجل صفة لـ أي. وقال الأخفش: الأقيس أن يكون (الناس) في: يا أيها الناس، صلة لـ أي، وقيل: لزمت ها لـ أي عوضاً من الإضافة، إذ أصلها أن تضاف إلى الاستفهام. وأما المقلوب ياء بين ألفين: أيا، فقد جاء في النداء كثيراً، ينادى بها القريب والبعيد. و: أي، ينادى بها القريب.

وتقدّم أن: أيا، من زجر الإبل، وربما قالوا: أيايا، قال الشاعر:

إذا قال حاديهم أيايا اتقيته ... بمثل الذرا مطلنفيات العرائك

وأي إذا كان منصوباً قلت أياً، وكذا: ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وأياء الشمس: ضوؤها، كذا رأيت بالمد والفتح والكسر في أصل عتيق، وفي طرته: إيا الشمس مكسور الأوّل مقصور. وربما أدخلوا معه الهاء فقالوا: إياة الشمس، وإذا فتح مد، وقد يكسر ويمد كما تقدّم. ويقال أيضاً: إياة الشمس وأيا الشمس، بهاء وبغيرها، بالكسر والقصر في الوجهين جميعاً، ينسب ذلك إلى الزجاج. وأما إيا فقال المهدوي

رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٥] إيا عند الخليل: اسم مضمر أضيف إلى ما بعده للبيان لا للتعريف وموضع الكاف جر. وقال المبرد: هو اسم مبهم أضيف للتخصيص لا للتعريف، وللكوفيين فيه ثلاثة أقوال: الأوّل أن الكاف من إياك وما يحل محلها ضمائر لم تقم بأنفسها، إذ لا تنفرد ولا تكون إلا متصلة بالأفعال، فجعلت إيا لها عماداً. والثاني أن إيا اسم مضمر يكنى به عن المنصوب، زيدت إليها الحروف علامات يعرف بها الغائب والحاضر والمتكلم. والثالث إن إياك بكماله اسم مضمر. وقال الزجاج: إيا اسم مظهر خص به المضمر يضاف إلى سائر المضمرات، ولا خلاف بين القراء السبعة في: إياك. وقراءة الفضل الرقاشي بفتح الهمزة وتشديد الياء، قال: وهي لغة معروفة، وقراءة عمرو بن قائد: بكسر الهمزة وتخفيف الياء، ووجهه كراهية التضعيف مع ثقل الياءين والهمزة والكسرة. وقد جاء تخفيف إيا ورب، وإن قال بعض النحويين إن إيا مضاف لما بعده، واستدل على ذلك بقولهم: إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب، فأضافوه إلى الشواب وخفضوها. وتقول: إياك وأن تفعل كذا، ولا تقل: إياك أن تفعل، بغير واو. وتكون للتحذير، فتقول: إياك والأسد، وهو بدل من فعل، كأنك قلت: باعد الأسد. ولا تقل: هياك، بدل: إياك، كما يقال: هراق، عوض: أراق. قال الشاعر:

فهياك والأمر الذي إن توسعت ... موارده ضاقت عليك مصادره

ومما يقرب من هذا الفصل: وي، خفيفة معناها: التعجب، تقول: وي لك، ووي لعبد الله. وفي القرآن العزيز من هذا: ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٢]، قال صاحب التحصيل: قال سيبويه: سألت الخليل عن ويكأن، فزعم أن قوله: وي، مفصولة من كأن، والمعنى: إنهم نبهوا، فقيل لهم: أما يشبه أن يكون عندكم ذلك كذا. وأنشد سيبويه:

ويكأن من يكن له نشب يحبب ... ومن يفتقر يعش عيش ضر

وقال جماعة من المفسرين منهم قتادة ومعمر: أولم تعلم. وقيل المعنى: أوَلا ترون أن الله يبسط الرزق. وحكى أن أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك؟ فقال: وي كأنه وراء البيت. أي أما تري أنه وراء البيت. وروى قتيبة عن الكسائي أنه يقف في: وي كأن الله، وفي: وي كأنه، على وي، ويبتدئ بـ: كأنّ الله. وروى الحلواني عن الدوري عنه موصولة كالجماعة. وروى إبراهيم ابن اليزيدي عن أبيه عن أبي عمرو أنه يقف في: ويك، ويبتدئ: أن الله. قال الكسائي: وي صلة وفيه معنى التعجب. ومن قال: ويك، ويقف، فمعناه: أعجب لأن الله يبسط الرزق، وأعجب لأنه لا يفلح الكافرون. وينبغي أن تكون الكاف كاف خطاب لا اسماً، لأن وي ليست مما تضاف. وقيل المعنى: تنبيهك بأن الله، فحذف. وقيل المعنى: ويلك أنه، وأنكره بعض النحويين وقال: لو كان كذلك لكان بالكسر. وقال بعضهم التقدير: ويلك اعلم أنه، فأضمر: اعلم. ومثل مذهب من وقف على ويك، قول الشاعر وهو عنترة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قول الفوارس ويك عنتر أقدم

وإنما كتبت متصلة لأنها لما كثر استعمالها جعلت مع ما بعدها كشيء واحد.

ومعكوس وي مكرراً: يؤيؤ، وهو طائر من الجوارح يشبه الباشق، وجمعه يآيي، وهذه اللفظة تنعكس أيضاً في الشكل فتكون سواء مع عكسها، قال الشاعر:

حفظ المهيمن يؤيؤي ورعاه ... ما في اليآيي يؤيؤ شرواه

ومعنى شرواه: مثله. فرغ الكلام من الياء.

بقيت القافية وأيل أيل. أما أيل بالسكون فخطأ، إنما يقال: أيل وأيل، ويقال له بالفارسية كوزن. قال الشاعر:

فعض الحصى إن كنت أصبحت راغماً ... ببابك واكدده بدردرك الأيل

والأيل أيضاً بالضم: جمع أيل، وهو اللبن الخاثر، مثل قارح وقرّح. قال

الفرزدق:

وكـــأنّ خاثـــره إذا أرشــــوا بــــه ... عـــسل لهـــم حلـــبت علـــيه الأيـــل

وقال النابغة: (وقد شربت من آخر الليل أيلا). ولما لم أجد أيلاً في الكلام وسألت عنه من عرفت من الأعلام، فقالوا: نعرف الصفة لا الموصوف، وليس أيل بمعروف، ودعتني الضرورة إليه أثبته ونبهت عليه وحذرت منه، أن يقع فيه مغتر أو يستبيحه مضطر، وأما أنا فجعلته كالميتة وكملت به بيته، ولا تظنن أني لم أجد سواه ولا عرفت إلا إياه، بل ثم عوض بلا مرض كنت أجعل مكانه لفظة أيل، لكن أجللت هذه اللفظة أن أذكرها في هذا المكان، إذ هي من صفة الربوبية كما فسرها العلماء في جبريل وميكائيل عليهما السلام، وقد تقدّم. وأنا أجلّ مولاي الله تعالى من أن أذكر اسماً من أسمائه أو ملكاً من ملائكته إلا بإجلال وإكرام والتزام أدب واحترام، وكنت أقول أيضاً: لو أردت وأيل، وأيل الأوّل ترخيم أيلة البلد المشهور، الذي على شاطئ البحر في منتصف ما بين مصر ومكة شرفها الله تعالى، وثم أيلة أيضاً: شعبة من رضوى، وهو جبل رفيع، قاله البكري. والثاني: مخفف أيل، موضع قبل أريك من ديار غني، كذا ضبطه البكري في المعجم وقال: أيل بفتح أوّله وتشديد ثانيه، وأنشد للشماخ:

تـــربع أكـــناف القـــناة فـــصارة ... فأيـــل فالمـــاوان فهـــو زهـــوم

ذكره في باب الهمزة والباء. قال البكري: وقد رأيته في كتاب موثوق به آبل؛ بمد الهمزة؛ على بناء فاعل، ولعلهما لغتان. قال: ووقع في كتاب الأمالي لأبي عبيدة: فأدركوا عمير بن الحباب برأس الإيل؛ بكسر الهمزة وفتح الياء؛ ولعله موضع آخر. انتهى كلامه. وأنا لو أردت أن أقول في أيل الأوّل: أيلاً، وأخففه كما يخفف هين ولين، وأدخله في الوزن، لفعلت، وجاز ذلك على مذهبهم. ولو أردت أيضاً لقلت: إيل، فعل مبني لما لم يسم فاعله، من: آل الأمير رعيته: أصلحها.

وقد تقدّم: قد ألنا وإيل علينا، ولكني ذكرت ما ذكرت وأنكرت ما أنكرت، وما

غششت ولا مكرت، وحمدت ربي وشكرت. فرغ ما أنتجته هذه اللفظة من الكلام وأخرجته من الالتزام، واعذرني فإني:

أغـــرت علـــى صـــوافيكا وغـــرت علـــى قوافـــيكا
فطـــرت مقصـــصاً ريـــشي وغـــرت علـــى خوافـــيكا
وقلـــت الآه مـــسألتي لـــصاحبها عوافـــيكا
وتـــدري أنـــت مـــا قلبـــي علـــيه قـــد انطـــوى فـــيكا
ومـــا جمعـــت فـــي أيـــل وفـــي أول يوافـــيكا
ولـــم أقـــصد لأحـــصرها فمـــا نقـــصي كوافـــيكا
ودونـــك ســـيدي شـــعراً قوافـــي الكـــل وافـــيكا

رجع الكلام إلى أيل، من شكله: أيل: اسم موضع، ولعله غير ما ذكر البكري، وقع في كتاب فتوح الشام: فسار خالد بن سعيد رضي الله عنه من تيماء حتى نزلوا فيما بين أيل وزبد والقسطل. ومن شكله أيضاً: آيل، معناه: صائر وراجع. ومنه قول الشاعر: (بالمرء والمرء إليه آيل). هذا كله بالياء. وأما إن أردت بالباء مثل: أبل وإبل، والثاء مثل: أثل، وغير ذلك، فقد تقدّم في أوّل الكتاب في أبوابه، والحمد لله. فرغ هذا.

بقي معكوس القافية ليا من قوله تعالى: ﴿ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِۚ ﴾ [النساء: ٤٦] وقد تقدّم تفسيره. ومن مقلوبها أيضاً: إلي، من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٥]. ومن مقلوبها: لأي، وهو: البطء، وقد تقدّم. ومثله: لأي، أدخلت لام الجر على أي.

ومن مقلوبها: يال، قال الشاعر: (ألا يا لقومي للسفاهة والجهل). أراد: يا آل، فحذف وخفف. ومن مضاعف يل: يليل، موضع. قال البكري: قال الزبير: هو واد يدفع في بدر، وأنشد:

عمـرو بـن عـبد كـان أوّل فـارس جـزع المـزاد وكـان فـارس يلـيل

والمزاد: هو الموضع الذي احتفر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق، وكان عمرو بن عبد ودّ اقتحم الخندق يوم الأحزاب ودعا إلى المبارزة، وجعل يقول:

ولقد بححت من النداء لجمعهم هل من مبارز

من شعر له. فبرز إليه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله، في حديث طويل قد تقدّم. وقريب من هذا اللفظ: إيليا، ولها ثلاثة أسماء: إيليا وبيت المقدس والمسجد الأقصى، وهو المذكور في القرآن في سورة الإسراء: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الآية: ١] يعني عبده محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وعلى آله الرهط الأبر الأكرم والحمد لله على ما علم وله الشكر على ما ألهم.

فصل من الفوائد: تقدّم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [يونس: ٥٣] أن طائفة من أهل العلم احتجت بهذه الآية على جواز اليمين إذا تحقق الإنسان حقه ولم يدخله فيه شك ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبر الناس وأورع الناس، وكثيراً ما كان يحلف في الأشياء وكانت يمينه: لا ومقلب القلوب. وكان يحلف أيضاً: والله، وكان يقول: والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرتها وأتيت التي هي خير. وربما قال: إلا فعلت الذي هو خير وكفرت عن يميني، صلى الله عليه وسلم. وقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من أهل المغرب أتاه فقال: والله يا أمير المؤمنين لتحملني. فنظر عمر إليه فقال: وأنا أحلف بالله لا أحملك. فأظنها قد رددها ثلاثين أو قريباً من ثلاثين مرة. فقال الرجل: والله إنه لمال الله، والله إنك لأمير المؤمنين، والله لقد أذمت بي راحلتي، والله إني لابن السبيل أقطع مني، والله لتحملني. فقال له عمر: كيف؟ فأعاد عليه، فقال: والله إن المال لمال الله، والله إنك لمن عيال الله، والله إني لأمير المؤمنين، وإن كانت أذمت بك راحلتك لا أتركك للتهلكة،

والله لأحملنك. قال: فأعادها حتى حلف ثلاثين يميناً أو زاد يميناً أو يمينين، ثم قال: لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا ابتغيت خير اليمينين. قوله: أذمت، يقال: أذمت ركائب القوم، إذا تأخرت عن جماعة الإبل ولم تلحق بها، وهو مأخوذ من قولهم: أذم الرجل، إذا فعل ما يذم عليه. وكذلك أذممته: إذا صادفته مذموماً. ومثله ما حدثت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، وذكرت عن أتانها، قالت: فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً، ثم رجعت وركبت أتاني تلك، وحملته عليها، تعني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمرهم. ذكر ذلك ثابت رحمه الله، وجاءه رجل فقال: إن إبلي قد نقبت ودبرت فاحملني، فقال عمر: كذبت فوالله ما بإبلك نقب ولا دبر، فولى الرجل وهو يقول:

أقسم بالله أبو حفص عمر ... ما مسها من نقب ولا دبر
فاغفر له اللهم إن كان فجر

فسمعه عمر، فقال: اللهم صدق، وأخذ بيده وقال له: ضع عن راحلتك، فوضع فإذا هي نقبة عجفاء دبرة، فانطلق فحمله على بعير وزوّده وكساه وخلى عنه. وكان رضي الله عنه وقافاً مع الحق رجاعاً إليه، لا تأخذه في الله لومة لائم، وربما يتحيل عليه المتحيل فيما يتحيل فيجده فطناً حذراً، لم تنفع صاحب سحيم حيلته ولا وارته توريته، بل كشفه للحين، لأنه كان من المتقين ينظر بنور اليقين. وجاءه رجل عراقي يوماً فقال: احملني وسحيماً، وأراده أن يحمله وزقه على بعض تلك النعم. فقال له عمر: نشدتك الله أسحيم زق؟ قال: نعم. وقد ذكرني سحيم هذا سحيماً عبد بني الحسحاس، وشعره الذي خلصه من يد النخاس، وكان حلو الطبيعة، فقال حين أراد سيده جندل أن يبيعه وكان قد توجه به إلى الشام، فسمعه ينشد في بعض الأيام:

وما كنت أخشى جندلاً أن يبيعني ... بمال ولو أمست أنامله صفرا

أخوكم ومولى بيتكم وربيبكم ومن قد ثوى فيكم وعاشركم دهرا
أشوقاً ولما لم تمض لي غير ليلة فكيف إذا سار المطي بنا شهرا

فضمه جندل إلى صدره حين سمع شعره ولم يبعه عمره.

رجع الكلام إلى اليمين. جاء في الحديث: من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت. قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سمعه يحلف بأبيه فنهاه عن ذلك، وقال: من كان حالفاً، الحديث. واليمين بغير الله على هذا مكروه، بل أكثر من مكروه. خرج أبو داود عن سعد بن عبيدة قال: سمع عبد الله بن عمر رجلاً يحلف: لا والكعبة فقال له ابن عمر: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من حلف بغير الله فقد أشرك. قال: هذا فيمن حلف بالكعبة، فكيف إذا حلف بما يمتنع ذكره؟ كما خرج أبو داود رحمه الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حلف بملة سوى الإسلام كاذباً متعمداً فهو كما قال. وفي رواية أخرى: من حلف فقال: إني بريء من الإسلام؛ فإن كان كاذباً فهو كما قال؛ وإن كان صادقاً فلم يرجع إلى الإسلام سالماً. وعن بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حلف بآلائه فليس منا. فإن قلت: فقد أقسم الله في كتابه بالتين والزيتون وبالسماء والطارق وغير ذلك، فالجواب أن ليس فوق الله عظيم فيقسم به، فلذلك أقسم بمخلوقاته. وقد جاء في الحديث أنه أقسم بصفاته فقال: بعزتي وجلالي لأفعلن كذا. وفي حديث آخر: أقسم بنفسه فقال: فبي حلفت. وأيضاً فلا يقاس الله بخلقه سبحانه وتعالى. ومن أهل العلم من تورع عن اليمين جملة، ورأوا أن يتركوا حقوقهم ولا يحلفون. وقيل لبعضهم: لمَ لا تحلف؟ فقال: أخاف أن يصيبني قدر من الله تعالى وقع لحينه الذي كان يقع ولا بد حلفت أو لم أحلف، فيقال: إنما أصابه هذا من أجل يمينه. هذا معنى ما قال. وحديث الموطأ: اختصم زيد بن ثابت وابن مطيع في دار كانت بينهما إلى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة، فقضى مروان على زيد بن ثابت باليمين على المنبر، فقال له زيد بن ثابت: أحلف له بمكاني، فقال مروان: لا والله إلا

عند مقاطع الحدود. قال: فجعل زيد يحلف أن حقه لحق ويأبى أن يحلف على المنبر. قال: فجعل مروان بن الحكم يتعجب من ذلك.

وتقدّم ذكر القراءة بالترجيع، وقد تكلم العلماء بالقراءة اليوم بهذا النوع من الترجيع، فكرهه بعض وأجازه بعض، فمن أجازه احتج بهذا الحديث، ومن كرهه فلسد الذريعة، لئلا يشبه بالغناء الملحن باللحون والنغمات المغنية، فيرجع هذا إلى معنى السماع الذي هو على قوم حرام ولقوم مباح. وقد كان السماع قديماً من عمل الفضلاء والصالحين، ولكن على شرط أن يكون من أهل الوجد، ويجد بذلك شوقاً أو حزناً أو خوفاً، ويكون السماع أيضاً مع أهله ممن هذا أيضاً حاله، كما قال بعضهم ممن تركه، فقيل له في ذلك، فقال: ممن؟ قيل: فأنت، قال: مع من؟ والذي يسمع لشهوة وهوى فهذا صاحب لهو لاعب، فهو عليه حرام، نعم وضرره عليه أقرب من نفعه، لأنه يزيد بلاء. كما قيل: الغناء ينبت النفاق في القلب. وقد جاء في الحديث أن الغناء حرام وأجور المغنيات وأثمانهن حرام. وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٦]، قال: الغناء. وقيل غير ذلك، والله أعلم. وجاء في الحديث أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم: أخوف ما أخاف على أمتي الشهوة الخفية والنغمة الملهية. قلت: وقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح سورة الفتح؛ إنما كانت على وجه الشكر لله تعالى على نعمته قبله، وتذكرة آلائه عليه، إذ خرج من مكة مستخفياً خائفاً منفرداً مع أبي بكر الصديق وعامر بن فهيرة خادمهما في الطريق ودليلهما لا غير. ثم دخلها يوم الفتح ظاهراً آمناً غالباً على البلاد والعباد، في عشرة آلاف من أصحابه، سوى من بقي بالمدينة وغيرها ممن لم يقدم معه، فأي نعمة أكبر من هذا! مع أنه عليه الصلاة والسلام كان يرتل القرآن ويتمكث فيه ويرتله ويقطعه كما جاء حرفاً حرفاً، وأيضاً فلم ترد عنه تلك القراءة قبل ذلك اليوم ولا بعده، إذ كان يوم سرور وفرح وأمن، ومع ذلك فإنه تواضع لربه عز وجل، كما حدّث

عنه أصحابه أنه لما انتهى إلى ذي طوى؛ وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حبرة حمراء، وإنه ليضع رأسه تواضعاً لله عز وجل، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل. فمن كانت هذه حالته فكيف ترى كانت قراءته؟ وأين كان يجول قلبه؟ ثم في نفس الحديث ما يستشهد به على أن تلك القراءة لم تكن عادته ولا عادة أصحابه، وذلك قول الراوي، وهو معاوية بن قرة عن ابن مغفل المتقدّم: لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجعت كما رجع ابن مغفل. ثم لم يجد معاوية بدأ إذ سئل كيف كان ترجيعه أن يحكي لهم ذلك، فإنه علم والعلم لا يحل منعه، فقال: آا آا آا، ثلاث مرات كما تقدم. ثم أغرب من هذا أنه قد صارت هذه الطريقة اليوم مشهورة، فأشبهت ما نشأت عندنا ناشئة يتشبهون بالصوفية وهم طفيلية. خرج ثابت رحمه الله في الدلائل: عن عبد الله بن عمر عن رجل من أهل الشأم قال لأصحابه: دعوني أنعت لكم الأكل. قالوا: نعم. قال: إذا أكلت فابرك على ركبتيك، وأجحظ عينيك، وافتح فاك، وأفرج ما بين أصابعك، وأعظم لقمتك، واحتسب نفسك. قال عبد الله بن دينار: كما سمعت ابن عمر حدّث بهذا الحديث قط فبلغ قول الشامي: واحتسب نفسك؛ إلا ضحكت. وفي مثل هذا يقال: يرحمك الله يا قتيل يده. ومثله قول الشاعر:

فضيف عمرو وعمرو يسهران معاً ... عمرو لبطنته والضيف للجوع

وإذ وقعنا في هذا الباب فلا نخلي من ذكر الطفيليين والصوفيين هذا الكتاب. أما الصوفية فقد ذكر الشيخ الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني رحمه الله اشتقاق هذه اللفظة، قال رحمه الله: فأما التصوّف فاشتقاقه عند أهل الإشارات والمنبئين عنه بالعبارات من الصفاء والوفاء والقياد، واشتقاقه من حيث الحقائق التي أوجبت اللغة، فإنه منتقل من أحد أربعة أشياء، من: الصوفانة، وهي: بقلة زغباء قصيرة. أو من: صوفة، وهي: قبيلة كانت في الدهر الأوّل تجيز الحاج وتخدم الكعبة. أو من: صوفة القفا، وهي: الشعرات النابتة في مؤخره. أو من: الصوف

المعروف على ظهر الضأن. فإن أخذ التصوّف من: الصوفانة، التي هي البقلة؛ فلاجتزاء القوم بما يوجد الله عز وجل بصنعه، ومنّ به عليهم من غير تكلف خلقه، فاكتفوا عما فيه للآدميين صنع، كاكتفاء البررة الطاهرين من جملة المهاجرين في مبادي إقبالهم وأوّل أحوالهم. وأورد الشيخ رحمه الله هاهنا على ذلك حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مسنداً، حيث يقول: والله إني لأوّل العرب رمى بسهم في سبيل الله عز وجل، ولقد كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام نأكله إلا ورق الحبلة، وهو السمر، حتى تقرحت أشداقنا، وحتى إنّ أحدنا ليضع كما تضع الشاة ما له خلط.

وإن أخذ من: الصوفة، التي هي القبيلة؛ فلأنّ الصوفي فيما كفى من حاله، ونعم من باله وأعطى من عقباه، وخفض من حظ دنياه، أحد أعلام الهدى، لعدولهم عن الموبقات واجتهادهم في القربات. وذكر كلاماً حسناً من هذا النوع وساق الشاهد على ذلك بأحاديث كثيرة اختصرتها. وإن أخذ من: صوفة القفا؛ فمعناه أن المقصود معطوف به إلى الحق، مصروف به عن الخلق، لا يريد به بدلاً ولا يبتغي عنه حولاً. وساق الشاهد على ذلك بأحاديث كثيرة أيضاً اختصرتها، منها: ما ذكره بسنده إلى بكير بن عبد الله المزني رضي الله عنه قال: لما ألقي إبراهيم في النار جأرت عامة الخليقة إلى ربها، فقالوا: يا رب خليلك يلقى في النار، فأذن لنا أن نطفئ عنه. قال: هو خليلي ليس لي في الأرض خليل غيره، وأنا ربه ليس له رب غيري، فإن استغاث بكم فأغيثوه وإلا فدعوه. وجاءه ملك القطر فقال له مثل ذلك، ورد عليه الله مثل ذلك. فلما ألقي في النار دعا ربه عز وجل، فقال الله عز وجل: ﴿ يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. قال: فبردت يومئذ على أهل المشرق والمغرب، فلم ينضج بها كراع. وفي رواية أخرى: لما جيء بإبراهيم عليه السلام فخلعوا ثيابه وشدّوا قماطه ووضع في المنجنيق؛ بكت السماء والأرض والجبال والشمس والقمر والعرش والكرسي

والسحاب والريح والملائكة، كل يقول: يا رب إبراهيم عبدك بالنار يحترق، فأذن لنا في نصرته. فقالت النار وبكت: يا رب سخرتني لبني آدم، وعبدك إبراهيم يحرق بي. فأوحى الله إليهم: إنه عبدي، إياي عبد، وفي جنبي أوذي، إن دعاني أجبته، وإن استنصركم فانصروه. فلما رمي استقبله جبريل عليه السلام بين المنجنيق والنار فقال: السلام عليك يا إبراهيم، أنا جبريل ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، حاجتي إلى الله ربي. فلما قذف في النار كان سبقه إسرافيل فسلط النار على قماطه، وقال الله تعالى: ﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فلو لم تخلط بالسلام لهلك فيها برداً. وفي رواية: أنه لما بصر بالنار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. وفي رواية عن المنهال بن عمرو قال: أخبرت أن إبراهيم لما ألقي في النار كان فيها إما خمسين أو أربعين يوماً، قال: ما كنت أياماً ولياليَ قط أطيب عيشاً مني إذ كنت فيها، ووددت أن عيشتي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها.

وإن أخذ من: الصوف المعروف؛ فهو لاختيارهم للبس الصوف، إذ لا كلفة للآدميين في إنباته وإنشائه. وإن النفوس الشاردة تتذلل بلبس الصوف وتكسر نخوتها وتكبرها به، لتلزم الذلة والمهانة، وتعتاد البلغة والقناعة. وقد ذكرنا شواهده في كتاب لبس الصوف مجرداً. وقد كثرت أجوبة أهل الإشارة في ماهيته بأنواع من العبارة جمعناها في غير هذا الكتاب. وأقرب ما أذكره ما حدّثت عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه أنه قال: من عاش في ظاهر الرسول فهو سني، ومن عاش في باطن الرسول فهو صوفي. وأراد جعفر بباطن الرسول: أخلاقه الطاهرة واختياره للآخرة. فمن تخلق بأخلاق الرسول؛ وتخيرها واختارها؛ فرغب فيما فيه رغب؛ وتنكب عما عنه تنكب؛ وأخذ بما إليه ندب؛ فقد صفا من الكدر، وصفي من العكر، ونجا من الغير. ومن عدل عن سنته ونهجه وسعى لبطنه وفرجه؛ كان من التصوّف خالياً وفي التجاهل ساعياً. في كلام كثير اختصرته. قلت: هذا اشتقاق الصوفي. وأما اشتقاق اسم الطفيلي؛

فقد قال بعض العلماء وأنشد لبعضهم قول طفيلي:

نحـــن قـــوم إذا دعيـــنا أجبـــنا ... ومتـــى نـــنس يدعـــنا التطفـــيل
فـــنقل علـــنا دعيـــنا فغبـــنا ... أو أتانـــا فلـــم يجـــدنا الرســـول

نسب الطفيلي إلى الطفل، لأنه من طبعه أن يأخذ الطعام حيث وجده، ومتى رآه، ولا يبالي لمن هو ولا من صاحبه. وقيل: هو منسوب إلى رجل من الكوفة من بني عبد الله بن غطفان، كان يقال له طفيل الأعراس وطفيل العرائس، وكان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها، وكان يقول: وددت أن الكوفة بركة مصهرجة فلا يخفى عليّ منها شيء. والعرب تسمي الذي يأتي الوليمة ولم يدع إليها: الراشن، يقال: رشن الرجل، إذا تطفل. وتسمي الذي يتحين وقت الطعام فيدخل على القوم وهم يأكلون: الوارش. وتسمي الذي يتشمم الطعام ويحرص عليه: الأرشم. قال الشاعر:

فتـــى حملـــته أمـــه وهـــي ضـــيفة ... فجـــاءت بيـــتن للـــضيافة أرشـــما

أي: لما حملت به وهي ضيفة خرج ولدها محباً للضيافات حريصاً على الطعام. وأذكر لك حكاية عجيبة أيها الولد مختصرة السند: حدّث نصر بن علي الجهضمي قال: كان في جوارنا طفيلي، فكنت إذا دعيت إلى مكان ركب بركوبي ومضى معي. فدعاني جعفر بن سليمان أمير البصرة، فركبت وركب الطفيلي معي، فقلت: والله لأفضحنه اليوم، فلما أحضرت المائدة وجلسنا عليها أقبلت على الطفيلي، وقلت: حدّثنا درست بن زياد عن أبان بن طارق عن نافع عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله، ومن مشى إلى طعام لم يدع إليه دخل سارقاً وخرج مغيراً. قال: فأقبل الطفيلي عليّ وقال: استعجبت لك أبا عمرو، تروي مثل هذا الحديث على مائدة الأمير، ولعله لا يحضرها أحد إلا وهو يظن أنك تقصده به، أما علمت أن درست بن زياد كذاب متروك الحديث عند أصحاب الحديث؟ وأن أبان بن طارق كان يمشي في السكك تلعب به الصبيان؟ أين أنت من حديث أبي عاصم النبيل عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

قال: طعام الواحد كافي الاثنين، وطعام الاثنين كافي الثلاثة. قال: فكأني ألقمت حجراً مما أفحمت، فلما خرجنا أقبل الطفيلي عليّ وقال:

ومن ظن ممن يلاقي الحروب أن لا يصاب فقد ظن عجزا

وتقدّم الشعر الذي هو:

إذا العجوز غضبت فطلق ولا ترضاها ولا تملق
واعمد لأخرى ذات دل مونق لينة الْمس كمس الخرنق

لله درّ هذا الشاعر! لقد أظهر للفتيان في النسوان المناسك والمشاعر، وصرّح بالجائز من مجانبة العجائز، دلّ على ذات الدل من الصغار، ولم يرض بالمقام على الذل والصغار، لنفسه خطب وفي حبله حطب، وكأنه كان يحفظ قول النبي صلى الله عليه وسلم لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أين أنت من العذارى ولعابها؟ فاشتاق إلى رشف رضابها ولعابها. وسمع أيضاً قولهم: إن العجوز مهرمة، فهرب حتى قيل: ما أهزمه. وقد ذكرني أن العجوز مهرمة بيتاً لي من قطعة مطوّلة، سببها أن الأستاذ السهيلي رحمه الله لما قرئ عليه ما قال الحريري في مقاماته وقد أنشد:

سم سمة تحمد آثارها فاشكر لمن أعطى ولو سمسمه
والمكر مهما اسطعت لا تأته لتقتني السودد والمكرمه

قال الحريري بعد هذين البيتين: إنهما أسكتا كل نافث وأمنا أن يعززا بثالث. فقال الأستاذ: قد جاء من عززهما بثالث ورابع وخامس وسادس وسابع. وقال قطعة مثل ما قال الحريري. ولما بلغني ذلك سألتها بعض الطلبة، فكتبها إليّ، فلما أعطانيها قلت: إن نظرت إليها لم أستطع معارضتها، فخبأتها، وقلت في العروض والقافية والصنعة ثمانية أبيات، ثم نظرت في قول الأستاذ رحمه الله، فوجدتني قد وافقته في قافيتين من الأبيات، وانفردت عليه بسائرها، فمما قاله الأستاذ رحمه الله:

والمهر مهر العرس لا تغله فإنه مهما غلا مهرمه

مــن دمــه صــار بحــرز النقــي لــم يخـش مــن لــوم ولا مــندمه

إلى سائرها. وقلت أنا في هاتين القافيتين:

ومهــر مهــضوم الحــشا أعطــه واتــرك عجــوزاً إنهــا مهــرمه

وبعد أبيات:

مــن دمــه أهــراق إذا مــا غــزا فــذاك لا تلحقــه مــندمه

وقبل هذا البيت لي:

وســل مهــزوزاً علــى كافــر للــسفك تلــق للعــدا ســلمه
مــا ســل مهــزوم علــى قــرنه حــساماً إلا ربــنا ســلمه
إن كــل مهــزول القــرى لــم يلــم لائمــه يــأثم إن كلمــه
مــن دمــه أهــراق .... البــيت

وبقية الأبيات مع أبيات الأستاذ مذكورة في التكميل. وتقدّم حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ووقع في الموطأ بلفظ آخر، وفيه: قالت عائشة: فقلت يا أبت والله لو كان لي كذا وكذا لتركته، إنما هي أسماء فمن الأخرى؟ فقال: ذوبطن بنت خارجة أراها جارية. وجاء في تفسير هذا الحديث أن بنت خارجة هذه هي حبيبة بنت خارجة بن زيد الأنصاري، فذكر أن أبا بكر رضي الله عنه رأى رؤيا أن الذي في بطن حبيبة جارية، فكان كذلك، وسمتها عائشة أم كلثوم، وتزوجها طلحة بن عبيد الله. وقوله في الحديث: إنما هما أخواك وأختاك، أما أخواها فعبد الرحمن شقيقها، وأمهما أمّ رومان، وأسماء أيضاً منها وهي ذات النطاقين، تزوجها الزبير بن العوام، وابنه منها عبد الله، أوّل مولود ولد في الإسلام. وقد تقدّم ذكره وكيف قتله الحجاج. وأما الأخ الآخر فمحمد بن أبي بكر رضي الله عنه، وأمه أسماء بنت عميس، كانت قبل أبي بكر تحت جعفر بن أبي طالب، ثم لما قتل عنها زوجها تزوجها أبو بكر، فلما مات تزوجها عليّ بن أبي طالب، وولدت من كل رجل منهم ولداً اسمه محمد، فافتخروا يوماً

وعليّ بن أبي طالب جالس، فقال كل واحد منهم: أبي خير من أبيك، فقال لأمهم أسماء: اقضي بينهم. فقالت: ما رأيت كهلاً قط خيراً من أبي بكر، وما رأيت شاباً قط خيراً من جعفر. فقال عليّ لابنه: فسكل أبوك سائر القوم، قالت له أسماء: إن ثلاثة أنت أخسهم لخيار، فقال: صدقت، ولو قلت غير هذا حمقت ومقت. قال الأصمعي: الفسكل: الذي يأتي في الحلبة آخر الخيل، وهو أيضاً: السكيت. ويقال: فسكل الرجل، إذا أتى متأخراً، ومن خيل الرهان: السابق، وهو أولها، ثم المصلى، قيل له ذلك لأنه يجعل جحفلته على صلا السابق، وصلاه حول ذنبه. والصلا أيضاً: وسط الظهر. ومنه قيل: صلى فلان، لأنه يحني صلاه. ثم يقال للثاني والثالث لا أسماء لهما إلى آخرها، وهو السكيت أو الفسكل، كما تقدّم. وما أحسن السبق في الخير إذا عدمت الخيل، كما قال بلال رحمه الله وقد سئل عن مسابقة حضرها، فقيل له: من سبق؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم. قيل: فمن صلى؟ قال: أبو بكر. فقال الرجل: إنما أعني في الخيل. فقال بلال: وأنا أعني في الخير.

وإذ وقع ذكر الخيل فاعلم أن الخيل: الفرسان، شاهده قول الله تعالى: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤]، أي: بفرسانك ورجالتك. والخيل أيضاً: الخيول، شاهده قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [النحل: ٨]. والخيالة: أصحاب الخيول.

فصل:

ومما كتب به إليّ الفقيه الأستاذ أبو محمد القرطبي وفقه الله وإياي، إذ سألته عن أيل بيتان، أغرب فيهما وفي قوافيهما وهما:

سـألتني يـا إمامـي ... علمـاً هـل أذكـر أيـلا

وقـد كـددت علـيها ... وهمـي فأومـى لـي أيـلا

فكتبت إليه بعد كلام وسلام:

نادیــت جمــع حــروف الــ هجــاء فــيكن أيــلا
أو هــل رأيتــنها لــي فأومــأ الكــل أي لا
فقالــت الــواو خذنــي أنــا مــن الــياء أولا
إن لــم تــصدقن ســل هــل قــد فهــت بالحــق أو لا
فقلــت أصــنع مــاذا قالــت دع أيــلاً خــذ أولا
فقلــت أحــببت أيــلا قالــت فأولــى وأولــى

بقي من ملح هذا الباب ما حكي أن رجلاً فاجراً عارض امرأة فاضلة، فقالت له: ما اسمك؟ فقال: فلان بن زانة. فقالت: وددت أن لي ياء أجعلها في اسم أمك. فقال لها أحد من حضر: ترى فلاناً اليهودي سماه أهله خيراً، خذي منه الياء فاجعليها حيث شئت، فقالت: قد جعلتها في زانة فصارت زانية، وجعلت خيراً خراً. هذا معنى الخبر، ذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار. وأكفر هذا الخبر القبيح بخبر من جنسه مليح. ذكر أهل الأخبار أن يحيى بن زكريا عليهما السلام كان اسمه حي، وكانت سارة اسمها يسارة، فلما وهب الله لها إسحاق حوّل الياء من اسمها إلى حي فصار يحيى، وصار اسمها سارة. وهذا مذكور في كتب التفاسير والأخبار، والله أعلم بذلك. وأستغفر الله مما لا يرضاه.

بقي من الشرط أن أبين الشكل والنقط، جميع الاثني عشر بيتاً التي قبل الشعر الأوّل وبعده، المذكور في أوّل الكتاب، إذ الشعر قد تبين بالتفسير، وبسر أمره بحمد الله أحسن تيسير، والأبيات:

أخــي أجــيء بقــيل ثقــيل مهــيب مهــيب يطــل بطــل

هذا بيّن. ومعنى مهيب، بضم الميم: هو من: أهاب بالشيء، إذا صاح به. وقد تقدّم طل دمه بمعنى هدر، والبطل: الشجاع.

كــلام كــلام وبــاء وثــاء بخــدر يحــذر مــدل مــدل

يعني بالكلام الثقيل المتقدّم، يريد به العلم، وهو صعب. يقول: كلام كلام وياء وثاء، هذا هجاء ليث بخدر، وهو موضع الأسد. ويحذر: معلوم. ومدل، من: أدلى بحجته إذا بيّنها. ومدل من: الإدلال.

بنيـــي يبنـــي بأنّـــي بانـــي خــــلال جـــلال تحـــل بجـــل

هذا بيّن. ومعنى تحل من الحلال ضد الحرام. ومعنى بجل: حسب لغة مشهورة، قال الأخفش: هي ساكنة أبداً، يقولون: بجلك، كما يقولون: قطك، إلا أنهم لا يقولون: بجلني، كما يقولون: قطني، ولكنهم يقولون: بجلي وبجلي، أي: حسبي.

يفـــيد بقـــند يعـــود بعـــود يعـــيد بعـــيد المحـــل المجـــل

القند: عصارة قصب السكر، وهو الذي ذكر الحريري رحمه الله: ابتعت القند وقصدت به سمرقند. يقال: سويق مقنود ومقند، إذا لت بالقند. يقول في البيت: هذا الكلام يفيدك القند وهو فيه مستعار، لأن للعلم إذا فهم حلاوة عند ذائقها لا تعدل بها حلاوة، ويعود عليك بعائدة. والعود: تثنية الأمر، تقول: كان ذلك عوداً بعد بدء. والعود أيضاً: أشياء غير هذا. وقد تقدّم في أوّل الكتاب. ومعنى يعيد بعيد المحل المجل: مفهوم، أي: يصير الغريب الدار مجلاً أي: معظماً لمعرفته وعلمه.

يحـــد بجـــد يقـــد بقـــد يوشـــي بوشـــي كحـــل كحـــل

تقدّم الكلام في الحد أنه الفرق بين الشيئين، وكذلك العلم. ومعنى يقد بقد: يقدر تقديراً معتدلاً، كما قال الشاعر: (فتى قد قدّ بالسيف لا متضائل) البيت. وآخر البيت مفهوم.

أخـــال أخـــاك يقـــول بقـــول يعـــيب بغـــيب يخـــل بخـــل

وهذا أيضاً بيّن. أخال بمعنى: أظن. ويقال فيه أيضاً: إخال، بكسر الألف. ذكره صاحب كتاب الصحاح. ويخل من: الإخلال. والخل: الصاحب. وقد تقدّم.

تـــريد يـــزيد كلامـــي كلامـــي وعـــر وعـــز فقـــل فقـــل

يزيد: منادى، وكلامي: جراحي. وكلامي: مبتدأ، ووعر: خبره. ومعناه: تقول: يا يزيد كلامي وعر عزيز قليل ممتنع، وليس كذلك، فقل هو:

كثيــــر كبيــــر معــــين معــــين   لغــــات لعــــات كفــــل كفــــل

وهذا أيضاً بيّن. ولعاث من: القول، وقد تقدم القول في قل، وهذه الأبيات الأول، وأما الأخر فهي:

فــــرغنا فــــرغبا تــــرب بــــرب   يمــــن بمــــن يحــــل بخــــل

الرغباء والرغبى: الرغبة. إذا ضممت قصرت، وإذا فتحت مددت، وفي حديث التلبية: والرغباء إليك والعمل، يروى بالوجهين. ومعنى ترب: تتم، أي: يزاد فيها، تقول: ربيت النعمة عند فلان: تممتها وزدت فيها. وقد تقدمت هذه اللفظة بشرحها قبل. والرب: الله تعالى ذو الربوبية والرب: المربي. وقد تقدّم هذا. وأزيدك هنا فائدة: يقال ربا الغلام في حجر فلان يربو، مثل: دعا يدعو، ويقال فيه أيضاً: ربي يربا، على مثال: عمي يعمى. ويقال: رباه يربيه تربية، وربته يربته تربيتاً. قال الراجز:

والقبــــر صــــهر ضــــامن زميــــت   لــــيس لمــــن ضــــمنه تــــربيت

وقيل في قوله تعالى في أحد القولين: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ ﴾ [المائدة: ٢٤]، أي: مربيك، وهو هارون، لأنه كان أسن منه بثلاث سنين، ومات قبل موسى، وعاش مائة وسبع عشرة سنة، وعاش موسى بعده ثلاث سنين، وتوفي وقد استكمل عمر أخيه هارون صلى الله عليهما وسلم. ومعنى: يحل بخل، أي: ينزل بضعيف، والخل: الضعيف، وقد تقدّم. وكذلك المن، فسر أيضاً.

خلــــيل جلــــيل حــــسيب حــــسبت   أنــــي آتــــي مــــصل مــــضل

معناه: أنت كذا وكذا، أو قل: معناه يا من هذه صفته، تظن أني أجيء وأنا مصل مضل، والمصلي من خيل الحلبة الذي يكون خلف السابق. وقد تقدّم في الباب قبله. ومعنى مضل: اسم فاعل، من: ضل الطريق، إذا لم يهتد له. يقول: يا هذا لا تحسب أني

أتيت في شعري على هذه الصفة.

كسير كسير بطين بطيء وجاف وحاف يعل بعل

أي: جئت في البطء كسير مكسور عظيم البطن، وهو حاف من الحفا، وجاف من الجفا. يعل بعل، أي: يعلل. وقد تقدّم في العل أنه الشيء الذي تعلل به المرأة ولدها ليجتزئ به عن اللبن. أي: إني لم آت هكذا.

أبيت أتيت أمام إمام ورائي ورائي المدل المذل

أبيت، من: الإباء، أي: لم أرد، بل جئت ورائي ناظر خلفي المدل بحذقه وبنبله ذليلاً لأني سبقته في هذه الطريقة، فيكون المذل حالاً، ومن شرط الحال أن تكون نكرة، ولكنهم قد أجازوها معرفة لكن على تأويل النكرة، قالوا: ادخلوا الأوّل فالأوّل، أي: متفرقين. وقد جاء في التنزيل من نوع هذا في قراءة خارج السبع: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)، ف الأعز: فاعل ب يخرجن، والأذل: حال، أي: ذليلاً. حكى الله هذه المقالة عن عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، وأبى الله إلا أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. ولما بلغت هذه المقالة ابنه عبد الله ابن عبد الله بن أبي؛ وكان من الفضلاء وأهل الدين؛ جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنت والله يا رسول الله الأعز وهو الأذل، أو كما قال. وكان ذلك في غزاة، فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من تلك الغزاة؛ وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي لأبيه في الطريق، وقال: والله لا تدخل المدينة حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم بدخوله. ويروى عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت تريد ذلك فمرني بقتله، فوالله لئن أمرتني بقتله لأقتلنه، فإني لأخشى يا رسول الله إن قتله غيري أن لا أصبر عن طلب الثأر، فأقتل به مسلماً فأدخل النار، وقد علمت الأنصار أني من أبر أبنائها بأبيه. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له، وقال له: بر أباك ولا يرى منك إلا خيراً. فرغ تفسير الأبيات، وبعد هذا فإني أقول: أعزك الله، هذه الأبيات

كما تراها إن كان اللزوم عراها فاستمسك بعراها، خذ معناها وارحل عن مغناها، واعذر من اضطره اللزوم والوزن إلى أن يجمع بين السهل والحزن، ولا تعنف ولا تفند، وقل أيها السيد: ما قرب من جيد فهو جيد، وإلا فخذ نفسك في التدريب ودع التثريب. بقي البيت المتقدّم الذي كلماته كلها نوع واحد فها أنا أشكله ليتضح مشكله وهو:

تصيخ تصيح نضيخ بصبح تصبح بضيح نضيج نصح

تفسيره: تصيخ: تسمع، أصاخ: استمع، من قوله صلى الله عليه وسلم: وما من دابة في الأرض إلا وهي مصيخة يوم الجمعة. تصيح، من: الصياح. نضيخ: فعيل، مثل: دهين، من الدهن، وفي الحديث: ينضخ طيباً. بصبح: وقت الصبح. تصبح، معناه: كل أو اشرب صبحاً. وفي الحديث: من تصبح كل يوم بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر. ومنه الحديث أيضاً: الصبحة تمنع الرزق، أي: نوم ذلك الوقت يمنع من طلب المعاش. وقد قال عليه الصلاة والسلام: اللهم بارك لأمتي في بكورها. وفي حديث أم زرع: وأرقد فأتصبح. ومعنى بضيح نضيج: بلبن مطبوخ منضج. الضيح: اللبن الممزوج بالماء، ويقال له أيضاً: ضياح وخضار وشهاب وسجاح وسمار ومذق ومذيق وممذوق، فإذا كان خالصاً قيل: محض وصريح. قال الشاعر:

نوليها الصريح إذا شتونا على علاتنا ونلي السمارا

يريد: خيله. يعني أنه يؤثرها باللبن الخالص ويشرب هو الممزوج بالماء. ومن المحض والضيح قول الشاعر: (أمحضاني واسقياني ضيحا)، والصريح والمحض: الخالص من كل شيء. وهذا البيت الذي تقدّم لي له إخوة مثله وأبيات تتضمن كلمات من غير شكلها كذلك من جنس واحد. وقد تقدّم ذكرها في أوّل الكتاب، وأجاب عن بعضها بعض من رآها، وقد ذكرت ذلك وسواه في كراسة البديع من التكميل، والحمد لله رب العالمين. وأستغفر الله الغفور الرحيم.

وأنت فلا تظنن هذا الكلام المنتقى سهل المرتقى، بل هو عندي أغرب من العنقا وأبعد منالاً من تخوم البلقا، إلا على من يسره الله تعالى عليه، وسهله وأقامه له وأهله،

فإن كنت في ريب من هذا أو شك؛ فالتجربة هي المحك، اسبر واخبر تعلم، أو اقبر واستر تسلم. وأنا قد فرغت من مقالتي، وأعدّها من بطالتي، وأتيت على قدر مقدرتي، وقدّمت معذرتي. وأقول:

أستغفر الله ممّا	ذكرت لغواً وسهوا
وأنت إن كان هذا الـ	ـكلام عندك لهوا
خذ ما أردت وما لا	تريد فاتركه رهوا
وقل سواه ولا تـث	ـن عنه عطفك زهوا

◆◆◆

خرجت من شيء إلى غيره	أنشر ما غيب في الطي
والحمد لله وسبحانه	من عالم مقتدر حي

اللهم اهدنا سبل السلام، يا ذا الجلال والإكرام، ونجنا من الظلمات إلى النور، إنك أنت العزيز الغفور. وقد كمل الكتاب بعون الملك الوهاب، وبكماله فرغت الحروف وتفرغت الظروف، ونفذ ما في العروف، ولم يبق إلا الوقوف بباب الملك الرؤوف، والرغبة إلى الرحمن العطوف، أن يمنّ علينا منه بمعروف. اللهم منّ علينا بمعروفك يا أكرم الأكرمين، واغفر لنا ذنوبنا يا خير الغافرين. وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين. وصل على نبيك وصفيك محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأزواجه الطاهرين، وارض عن الصحابة أجمعين، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد تم بعون الله تعالى طبع هذا الكتاب الْمشحون بنفائس الآداب

وهو أحد الكتب التي تطبع على ذمة جمعية الْمعارف البالغ قدرها ١١٠٠

تَحت حماية الوزير الأفخم والْمشير الْمعظم سعادة محمد توفيق باشا

ولي عهد الْخديوية الْمصرية

لا زال ملحوظاً بالعنايات الإلهية

وبهمة سعادة محمد عارف باشا وكيل تلك الْجمعية

وذلك بالْمطبعة الوهبية، بتصحيح الفقير مصطفى وهبي

في أوائل شهر ربيع الثاني سنة ١٣٨٧ من الهجرة النبوية

على صاحبها أزكى التحية

فهرس المحتويات